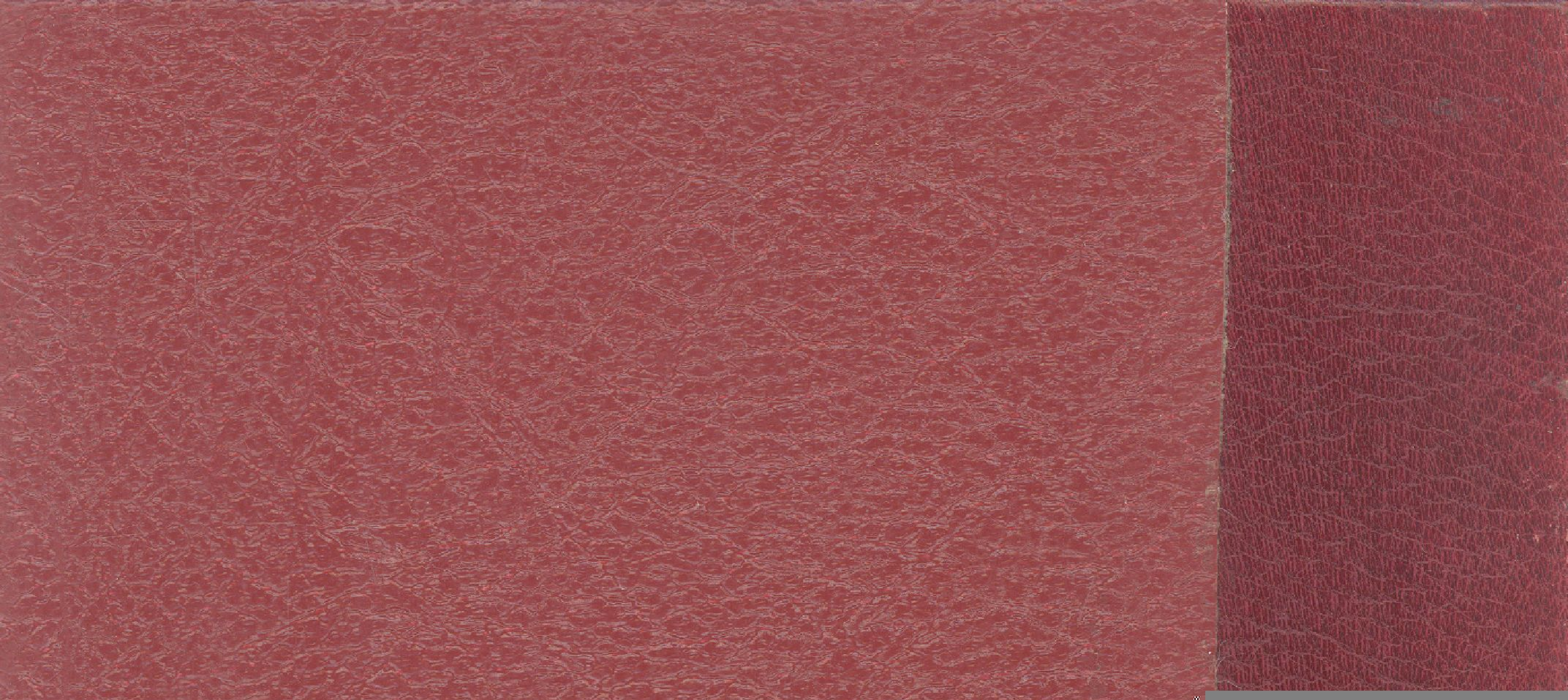
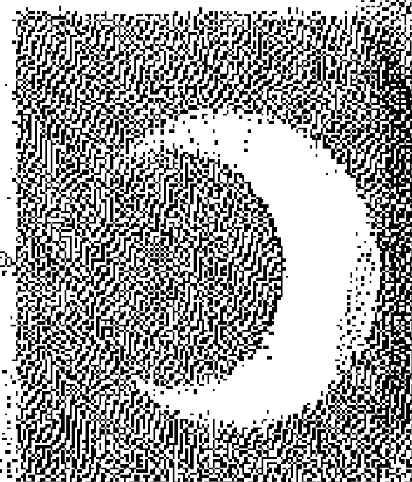




كتاب الهلال

مسرحيات في الوهج والظل

علاء الدين وحيد

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٣٠٦ – جمادى الثانية ١٣٩٦ – يونية ١٩٧٦

No. 306 June 1976

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : «١٢ عددا» فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا • فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية او ٢٫٥ جك – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشة
الفنـــان جمال قطب

علاء الدين وحيد

مسرحيات

في الوهج والظل

دار الهلال

مأساة الحسين

فى مسرحية عبد الرحمن الشرقاوى

فلتذكرونى بالنضال
فلتذكرونى عندما تعدو الحقيقة وحدها
حيرى حزينة
فاذا بأسوار المدينة لا تصون حمى المدينة
لكنها تحمى الأمير وأهله والتابعينه
فلتذكرونى حين تختلط الشجاعة بالحماقة
واذا المنافع والمكاسب صرن ميزان الصداقة
واذا غدا النيل الأبى هو البلاغة
وبلاغة الفصحاء تقهرها الفهاهة

الحسين فى « الحسين شهيدا »

اذا اكتشفنا أن الثورة تجرى فى دم هذا الفنان ، تساقطت كل علامات الاستفهام والتعجب التى تتساءل دهشة عن ثورية كتابات عبد الرحمن الشرقاوى وهو يمضى حثيثا نحو الستين ! ان ايمانه وحرارته واندفاعه لم يصبها وهن ولم تتحول الى مجرد قناع يشكله مايمكن أن يدفع اليه كثرة الجولات وصدمة المحاولات وتقدم العمر . فلا زال كما هو الثائر الشجاع الذى ينكر الاشياء المهتزة فى حياتنا ويرفض معايشتها ويرجم التنازلات حالما بغد مشرق حر . يفعل الشرقاوى ذلك فى انتاجه جميعا حتى أحدث ما قدم .

واذا كان تناول فناننا لموضوعه الثورى المأساوى « الحسين ثائرا وشهيدا » لا يخرج عن الخط العام

لصاحبه ، الا انها المرة الاولى التى يستقى منها الشرقاوى من التاريخ الاسلامى مباشرة ومن شخوص تبلور روح الاسلام فى أصدق جوهر ، عملا فنيا بعد دراسته « محمد رسول الحرية » .. ايمانا كما يقول فى احدى مقالاته ، بأن الاسلام الدين هو الاسلام الثورة .. والثورة والدين ليسا وجهين لعملة واحدة ، ولكنهما عنصران فى جوهر واحد . تنبع الثورة من الدين فى الاسلام كما ينبع الضوء من الشعلة « ثورة الفكر الاسلامى »

لقد كان الشرقاوى يقترب بشكل أو بآخر فى مسرحياته السابقة من هذه الروح الاسلامية التى اتخذت أحيانا عهود الفروسية أو المماليك .. اطارا . ولعل مما يوجب أيضا هذا الاقتراب الشديد .. استيعاب الاسلام للجوهر الانسانى القائم على المبادىء الاساسية التى تنشىء حياة صحية للبشر .

وهناك باعثان عملا أيضا على أن تكون شخصية الحسين بالذات هى محور أحدث مسرحيات عبد الرحمن الشرقاوى ، الاول ما تستجمعه من معانى البطولة والفدائية بشكل نادر الى الدرجة التى يعدها كاتبنا .. اروع بطولة عرفها التاريخ الانسانى كله . والباعث الثانى يتصل بطفولة شاعرنا نفسه .. وأمه تعلمه حب الحسين .. هذا الحب الذى يصفه بقوله .. الحب الحزين الذى يخالطه الاكبار والاعجاب والشجن ، ويثير فى النفس أسى خارقا الى العدل والحرية والاخاء وأحلام الخلاص ..

ومنذ البداية والشرقاوى يعمل على تعرية النفوس والاشياء فى المجتمع العربى . يفعل ذلك ليقيس

الاخبار : ٢٠-١٠-١٩٧١

الانتكاسة العربية فى قضية الحكم وانحسار شـجاعة المواطن فى هذا المجال ، بعد أن رفع رأسه وشـارك فى أختيار حكومته بمحض ارادته فى زمن النبوة والخلفاء الراشدين .. فاذا به اليوم حتى أبناء الصـحابة والعلماء أهل الفكر ، يستذلهم ذهب السلطان أوسوطه.
وتسجيل هـذه التعرية يحيط أيضا بصعوبة الدور الذى قام به الحسين وقد قل المسلم المخلص والنصير الذى لازال على العهد به شجاعا يبتغى آخرته قبل دنياه مفضلا المبدأ على كل متاع . ومن هنـا جاء اختيار فنانـنـا لهـذا الحدث الذى يحسم الفعل ولا يخرجه من نعم ولا ، والذى جعله بداية لاحداث مسرحيتـه وهو أخذ البيعة ثانية ليزيد بعد موت أبيه معاوية بن أبى سفيان . التظاهر أو النفـاق أو استخدام الوجهين معا لا يجدى هنا .. اما رفض ولاية يزيد الماجن الفاسق.. ذلك السكير من يعبث بالفرد نهاره ، فاذا ما اقبـل الليـل وفاض الخمر ، صلى تحت ردف الجارية .. أو قبول هذه الولاية . لا فائدة اذن من ادعاء الايمـان قولا والعمـل على نقيضـه فعلا .. تحمـل المسئولية تصبح نوعا من الاكراه الواجب الذى لا يملك المرء له دفعا .. واختـار أكثر النـاس جانب السـلطة ويرفض الحسين . يرفض كانسان مكافح .. نعم لقد أعطى يوما السعة ليزيد مرغما تحت ضغوط ، لـكنه اليوم وهو يملك ارادته كاملة لا يفعل .. فلا بيعة فى ظل القهر .
ويصـور الشرقاوى ببراعة لونين من الايمان .. مزيف وحقيقى . فجهاز الحكم لايريد سوى أن يبايع الناس صدقا أو كذبا ، بينما لا يقبل الحسين أن تكون البيعة مجرد كلمة . ويصرخ معترضا .. الـكلمة لو تعرف حرمة .. زاد مذخور . الـكلمة نور ، وبعض الـكلمات

قبور . بعض الكلمات قلاع شامخة يعتصم بها النبل البشرى . الكلمة فرقان ما بين نبى وبغى . الكلمة زلزلت المظالم . الكلمة حصن الحرية . ان الكلمة مسئولية . ان الرجل هو الكلمة . شرف الرجل هو الكلمة . شرف الله هو الكلمة .

ويجد الشرقاوى فى شخصية الحاكم الاموى ممثلا للاستبداد . وهو هنا الحاكم المطلق .. لما آل الامر اليه انفرد به حتى استأثر . وهذا الانفراد بالحكم ، يعنى من وجهة نظر الاسلام تعطيلا لأصل من أصوله وتزييفا لقاعدة الشورى ومخالفة لنص فى القرآن واهدارا لأحكام السنة . واذا كان الخليفة هو قمة التسلط ، فهو ليس وحده الذى يكون الجهاز المعادى للشورى . فهناك قاعدة هذا الجهاز التى تتكون من حاشية السلطان والمنتفعين بنظامه . يدور هذا الحوار بين واحد منهم هو أسد أحد كبار الملاك وبين شابين ثائرين حول معاوية :

اسد : قد كان يشاورنا فى الأمر .

بشر : ليستكمل أبهة الحكم

انتم آفاتنا الكبرى

كنتم شكلا للشورى ، وكلن رضاكم يسبقكم .

لم تفتح أفواهكم أبدا الا لتقول نعم

سعيد: أخالف أحد منكم رأيا لمعاوية ثم نجا ؟

انتم انتم من ملكه

بشر : فتعود الا يسمع لا .

انما الاثم كما تقول احدى الشخصيات .. على من ملك الظلم فينا .

ويلتمس كاتبنا الصراع بين جانب المنفعة وجانب المبدأ ، كما تنبض به الحياة نفسها عادة .. أصحاب

المثل صريحو الوجوه نقيو الضمائر واضحو المواقف .. بينما قوى التسلط والانانية رغم جبروتها وقوتها المادية بعكس الاولى ، غامضة الاسلوب ملتوية الوسيلة ترفض الطريق المباشر لأن وهجه يفضحها . ولذلك فليست هناك لغة مشتركة بين الفريقين .. الحوار بينهما ينتهى غالبا الى طريق مسدود لا يصل الى نتيجة ، لأن كلا منهما يستشعر ويريد شيئا مختلفا تماما . الاولون يستمسكون بالكليات لأنها هى التى تحسم وتقرر بوضوح . والاخيرون يتهربون من هذه الخطوط العريضة لأنها لا تسمح بالتلون ويلجأون الى التفاصيل يستمدون منها قوتهم ، ففى تفسيراتها المتعددة مطمع لذى الغرض الذى يستغل اختلافها فيما يرمى . الذين ينضوون تحت لواء الحسين لا يعرفون الخداع ، يعيشون حياتهم مبدأ ووجدانا ولا تناقض بينهما .. فما على العاشق منهم مثلا اثم حين يهوى ويعف . والحسين نفسه يخلص فى النصح لصحبة ليتبعه الناس على نور يقين وهدى ، حتى كان نتيجة صدق ، أن يتركه بعضهم خوفا من صعوبة الطريق والتضحية ! بينما مؤيدى بنى امية يضللون ويكذبون . ويستطيع الشرقاوى أن يتخلص من التواءات العلاقات ، ببلورة فلسفة كل منهما .. أن الذين ينضمون ليزيد بن معاوية يدعون انه لم يعد يصلح للدولة حكم الخلفاء الراشدين ، لانها فى زعمهم تحتاج الى كيد سياسى حصيف لا أصحاب تقوى وورع .. بينما يعترض أصحاب الحسين بن على وهم يستشعرون روح العصر المشوب بالحنين لنبالات الرجال الصادقين الصالحين ..

والزعم بأن المجتمع العربى فى ذلك الحين ، لم يعد يطيق اثقال تبعات الرجال الشرفاء الذين شكلوا أيام

النبوة والخلافة الرشيدة .. اذا كان هذا القول ينطلق من منطق القوة ، تقول بذلك الاغنياء وأصحاب النفوذ ويحملونه على أكتافهم ، لانهم أقرب الطبقات الى ولى الامر نفسه الذى هو منهم وهم منه بجانب أنهم أول المستفيدين بنظام الحكم .. فان هذا الزعم أيضا والمقياس هو المادة ينبثق من منطق الضعف كذلك ! ولهذا دلالته العميقة التى فجرها عبد الرحمن الشرقاوى .. فلقد القى تحول الحكم من شكله الديمقراطى الى شكله الملكى الوراثى على يد معاوية ، ظلا ثقيلا على حياة الناس وخاصة فى الجزيرة العربية التى لم تفيد قبلا بمثل نظام الحكم الكسروى أو القيصرى . فكان ان أفقدهم التكوين الجديد للحكم طمأنينة داخلية كانت تملأ عليهم حياتهم وتمدهم بقوة ينتفض لها وجودهم فى اختيار من يولون .. بما تعكس هذه الطمأنينة من استقلال ذاتى وقدرة على محاسبة الحاكم والوقوف أمامه موقف الند للند . لقد سلبوا هذه الحرية وباخث مقاومة اكثرهم قبل ان تبدأ ، فقد جوبهوا زيادة على جند السلطان ، بنظام معقد نوعا لم يألفوه وبالتالى لم يملكوا بتحركاتهم الفردية أن ينفذوا اليه .. خاصة وقد اتسعت الدولة اتساعا عريضا لم يكن فى الحسبان . لقد بلغ من عنف هذه الصورة أن انطبقت على المواطن العادى كما امتدت أيضا الى المواطن غير العادى أى الذين يعدون فى مكان القيادة منهم حتى لو كانت على عكس رؤاهم . تقول زينب أخت الحسين مثلا :

الرجال اليوم لا يرضون الا بمالك
لم يعد بعد مكا نلامام أو خليفة
اهدرت كل التقاليد الشريفة

انهم لا ينشدون اليوم الا حاكما يعطى ويمنح
حاكما يعرف ما يبتاع منهم .. ثم يدفع

والمسرحية فى معالجتها للعدالة الاجتماعية ، صورت جانب الفقر وجانب الغنى .. الا انها أبرزت أكثر نبض الناحية الاولى وموقف الحسين من أصحابه الفقراء . تقول احدى الشخصيات .. ان الامة ليست أصحاب الثروات .. الامة هم نحن الفقراء .. دولتنا نحن الفقراء المطحونين . والحسين فى اتخاذه موقف الكادحين وتعاطفه الدائم معهم .. يعلم جيدا ان الفقر كما يفسد بين المرء وربه ، يفسد قبلا بين الناس بعضهم بعضا . فهو لعنة لا يبرأ صاحبها من تبعاتها بسهولة . ولذلك فعندما وقع الفقراء تحت ضغط وعيد السلطان داسوا مكرهين على عواطفهم وحبهم للحسين وتخلوا عن نصرته . ويلتمس القلب الكبير لهم عذرا .. فلا رأى لمن لا حول له وما يقوى فقير أن يجادل . ومن هنا كانت محاربته المستمرة للفقر ، وما أكثر ما ترددت مثل هذه الكلمات فى المسرحية .. الفقر جبان ، يورث صاحبه الذلة ..

ويبدو الشرقاوى وكأنه يقوم بعملية مسح للمجتمع العربى يصل فيها الى قاعه ، ويقف على اختلافات خطوط تكوينه التى تكون عند السطح غير واضحة.. وتكتشف معه ان الشعب الفقير لا يقف فى مجابهة عدوه التقليدى .. الاغنياء أبناء الاسر فحسب . فهناك عدو آخر بزغ واستقام عوده وتأسد .. صحيح انه انضم الى أهل الثروة وأصبح منهم ، الا انه يشكل لونا مميزا فى بنية المجتمع ربما لحداثة تكوينه . هو هذه الطبقة الجديدة التى تزحزحت قليلا أو كثيرا عن مواقف أصحابها القديمة فى هيئة ردة اخرى ، بفضل

ما أفاضت الفتوح الاسلامية على المواطن من جهة وما أغدق الحكم النفعي في عمليات استمالاته من جهة أخرى

لقد رفضت هـذه الطبقـة الجديدة أيضا مبـادىء الحسين التى تدعو للمساواة . ففزعهم الأكبر كمـا تصوروا من دعوته .. أن نغدو جميعا فقراء ويصير الـكل في البؤس سواء .. !

وأكثر من شخصية جاء بها شـاعرنا المسرحي ليعكس انتشـار هـذه الطبقـة التى جمعت بين الاصول التى كانت ضعيفة الحسب والنسب والمال ، وأبناء المسلمين الاوائل مثل عمر بن سعد بن أبي وقاص .. الذى وضع نفسه فى خدمة والى العراق الاموى ، والذى جسـد الشرقاوى شخصيته التى ركب فيها أيضا الحسـد للحسين ، فهو بنفس علية حب النـاس والمبـادىء وميراث النبوة . فعمر يدرك فى قرارة نفسـه مدى سقوطه ، وهو لذلك يسوءه ما اتخذ ابن على من مواقف .. فلا يعطى البيعة كالناس وأبناء المشهورين ليزيد.. فاذا بايع الحسين فقـد صار الناس جميعا على حد قوله سواء فى المذلة وهى أحدث أنواع العدالة !

وقضية الحكم تلعب دورا شديد الاهمية فى احـداث المسرحية بحيث يمكن أن يقـال انهـا القضية الاولى ، فشخصية الحسين لا تتبلور الا من خلالها ، وحوادثها لا تقوم أصلا الا بسببها . فدفاعه عن المظلومين والفقراء يصطدم بالقضية .. ومنافحته عن الدين تصطدم أيضا بالقضية . وفى هذا الوضع نذكر فضل فناننا فى جلائه لاشياء غير قليلة فى تـكوين ذلك العصر ومجتمع كل عصر ، مثل وضع أهل الفكر أو المثقفين او أهل التقى فى الدولة الاستبدادية . فصله هـذه الجماعة بالحاكم الفرد الذي يدعي حقا اليها ، كانت تشكل دائما علامة

أستفهام تتراقص أمام قارىء التاريخ القديم : عمل عبد الرحمن الشرقاوى على ازالة التناقض بين الواقع الذى يقيمه سلطان يشيع الفساد ويرشو العباد ويقمع بالسيف من لم يطع ويقهر بالمال أهل الطمع ، وبين اتخاذ نفس السلطان كبار المفكرين والمعلمين والفلاسفة فى مجلسه . ويفسره كاتبنا بأن ذلك من قبيل الخداع وليس ايمانا حقيقيا بشرف الثقافة والحكمة . ينطق الشرقاوى واحدا من هذه الجماعة بهذه الالفاظ :

كأنا جواهر بتيجانهم تحلى رءوسهم الخاوية ؛
كأنا حلى بسوق الرقيق يحلى بها تاجر غانية !

والشرقاوى لم يجعل تناوله لاستبداد السلطان وولاته كلمة تقال بشكل عام أو عائم ، بل جعله تصويرا حيا مجسدا .. تتبع فيه فناننا وسائل المستبد فى تأكيد سلطته ونشر نفوذه وتثبيت قدمه ، وانعكاس ذلك جميعا على الناس . فجواسيس والى العراق ابن زياد يستقصون دبيب الهمسة فى الاعماق ، وهو يأخذ الجماهير بأفكارها المكتومة لا بأعمالها المعلومة .. « بالخلجات وبالخفقات وهمس الهمس » وبذلك يختم الرعب على الافواه !

ولم يكن الصراع الدائر بين الحسين والاسرة المالكة فى دمشق ، بالذى يستوعب وحده مأساة البطل.. فلعل هذا الجانب على ضخامته كان أهونها فهناك الصراع الداخلى الذى يموج فى نفسه حول المواقف التى يجب أن تتخذ .. بين ما تمليه مثله العليا وبين ما يفرض الحفاظ على النفس وأمن أهل بيته شخصيته المتماسكة تتعرض لنوع من التمزق .. فمن يعيش حياته مثله لا يتحرك فى مجردات أو يقف عند حدود النظريات .. الاجابات اذن ليست شياء جاهزة حسب الطلب ،

فهذا اليق بالادعياء وتجار المبـادىء والزعامات . وانما هى ثمار لا يمكن أن تنضج بيسر أو لتصور سابق لها وخاصة اذا أخذت الاحداث فى التعقيـد . وعمليـة الشد والجذب هنا غير عادية ، لان صاحبها الذى تناوشه لا يقصر مسئوليته على حدود الذات الضيقة بل يجعلها تشمل المسلمين جميعا . فهو حين يخرج مؤتزرا سيفه يفعل ذلك .. دفاعا عن شرف الدين .. عن شرف الامة .. عن شرفى . ولذلك كان الوصول الى الموقف الواجب عملا صعبا وشائكا ، يعرض الشـخصية لالوان من التمزق والحيرة والتـردد .. حتى ليلجأ الحسين الى قبر جده الرسول شاكيا مستنجدا ، فقد غامت على عينه أبعاد الطريق ولا يعرف ما يصنع. وحين تهدأ نفسه وتتحدد الرؤية ، يجد الوسيلة الى تحقيق هدفه .. الا يترك الظالم حتى يأخذ المظلوم حقه . وبهذا يربط صراعه الداخلى بالخارج ، كما فى ذهـابه تحت الحاح العراقيين الى الكوفة وقد قرر ترك مكة ليقضى – كما يقول – دينا تعلق للعـدل فى ذمتى طريق مبين فلا بد لى من سلوكى الطريق الى غايتى.. مدركا واعيا انه هو قدره .. مصيره ولن يتركه .. « أنا منـدوب لهذا الامر من يوم وعيت .. »

وهناك عامل آخر شارك فى اصرار الحسين على اتخاذ موقفه ، هو ضياع لذاذات الحياة فى ظل الاستبداد . فحق المرء فى طيبـات الدنيـا يبـدو بلا مدلول اذا كان ما يتنفسه فاسدا واذا كانت المقاومة تبدو هى الأخرى لدى الـكثيرين بلا طائل لا تغير شيئا . وهنا لاتستأهل الحياة الاحتفال بها أو الالتفات اليها ..

عندما يختلط الظـل مع النور ويعلو الزور اعراف النبـالة

عندما تضطرب الدنيـــــا فلا ندرك فرقا بين حمق
وبســـالة .
عنـدما يصـبح للارهاب سـلطان على النفس الابية
ويصير الصمت والاذعان من حزم الامور
عند هذا ما انتفاعى بوجود لن اطيقــه ؟
آه ما أهون دنياكم على طفل الحقيقة !

ولعل أبدع ما قدم الشرقاوى فى مسرحيته ، هو أن الحسين ليس مجرد نموذجا رائعا للبطولة أو مثالا باهرا يحتذى به أصحاب المبادىء فحسب ، بل هو قبل هذا كله .. التضحية ذاتها التى دفعت حياتها ثمنا والتى تطالب الآخرين المتعايشين معها المتألمين لنهايتها المعجبين بها .. بأن يأخذوا بثأرها .. مقاومة للطغاة وكفاحا ضد الاستغلال والقيود .. فليس للألم وانقباض الصدر وتمزق النفس لمحنة الحسين واستشهاده ، هو الثمن ، بل الثمن هو انتهاج منهج الاحرار ورفع راية الحـرية والحق والخير رغم الصعاب .

وبذاك تنتصر الحياة
فاذا سكتم بعد ذاك على الخديعة
وارتضى الانسان ذلة
فأنا سأذبح من جديد
واظل أقتل من جديد
واظل أقتل كل يوم ألف قتلة
سأظل أقتـل كلمـــا ســـكت الغيور وكلما أغفى
الـصـبـور
سأظل أقتل كلما رغمت أنوف فى المذلة ..

المصور : ٤-٢-١٩٧٢

خمسة وخميسة

فى اغلب الاحيان لا ينبع عمل الأديب عندنا من تصور جماعى للفكر والفن ، بل من موقع الفرد الذى لا يقيده الا مزاجه الخاص ، والذى يتدخل فيه بعد ذلك انسياقه فى تيار شلة من الشلل ! ورغم هذه الغالبية ، فان الرؤية الجماعية التى تستجيب لالحاح الحس العام الذى يبحث عن نفسه فى قضاياه ، لم تنعدم كما نجد فى كتابات سعد مكاوى وهو يتناول الانسان أو عبد الحميد جودة السحار فى زاويته الاسلامية .
واذا انتقلنا من التزام الاديب تجاه ما ينبض به واقع الشعب المعاش من هموم وآمال ، الى مسئولية الناقد أو الدارس فى الاهتمام الموضوعى بما تجفل به الحياة الثقافية والادبية .. لوجدنا أيضا غلبة النظر الفردى فى تناول الاشياء . الرائد العظيم محمود تيمور مثلا .. كان يجب لو كنا نتمتع بالنظر الجماعى الذى يملأ الثغرات، أن يستوعب من الاهتمام الجاد عشرات المؤلفات والاعداد الخاصة من المجلات الثقافية والادبية .. للدور الكبير الذى قام به فى حياتنا الفكرية ولا يزال . ولكن هذا لم يحدث حتى اليوم كما نعرف للأسف ، لان اكثرنا ينساق وراء الاشياء الوقتية من اثارة ومطامع وشهوات .

وهــذه كلمة سريعة عن احدى المجموعات المسرحية ذات الفصل الواحد وهى « خمسة وخميسة » لكاتبنا الـكبير الموسوعى ، الذى عرفه القارىء العربى قاصا وروائيا وكاتبا مسرحيا وباحثا ..

ومن المعروف أن محمود تيمور عايش بصــــدق واخلاص وحب مختلف الاوســاط والطبقــات . واذا كان تركيب فناننا مثل شقيقه محمد ينأى به عن العنف الذى لم يجعله يعرف الثورة على طبقته ، لينفلت الى الطبقات غير الارستقراطية . الا ان مجرد اتخاذه هذا الموقف المتعاطف والمندمج فى عالم الفقراء والـكادحين فى ذلك الوقت المتقدم والمجتمع اقطاعى شرس ، كان يعد لونا من الثورة .

لذلك تحتشد أعمال أديبنا بشخصيــات كثيرة من الطبقات الشعبية فى القرية والمدينة على حــد سواء . فى « حكمت المحكمة » يصور تيمور امرأة ريفية فى ذروة تمزقها . متهمة بقتل ابنتها التى ولدت منذ يوم واحد، ووكيل النيابة يقوم بالتحقيق معها . ان حالة الرعب التى المت بالسيدة بدأت قبل أن تتم الولادة ، بل ومنذ أن عرفت أنها حامل .. لانها وهى أم البنات الثلاث ، كانت واقعة تحت تأثير تهديد زوجها الجزار ، الذى لوح جادا بسكينه اذا أنجبت بنتا رابعة .

وعندما حدث وادركت المصير الرهيب الذى ينتظر فلذة الـكبد ، لم تملك الا أن تأخذها بين أحضــانها وخطوات الكبد ، لم تملك الا أن تأخذها بين أحضــانها بكنزها . ويجد الكاتب الفزع الرهيب الذى تمشى فى أوصــال الام ، والظلام دامس وصدى خطوات يبــدو انها تتعقبها وهى تفر .. تجسيدا حيا يتخذ مسرحه من انفعالات الشخصية ذاتها ومن الحوار نفسه الذى

يقيم تتابع الاحداث . وتبلغ المأساة قمتها ونحن نعرف أن الفزع الى درجة الهول ، يجعل الام فى اضطرابها العظيم تظن انها تجد أمانا لابنتها بين تجاويف الساقية، مما يصدم رأس الطفلة فتموت . ورغم فصاحة ووضوح أسلوب محمود تيمور ، الا ان صاحبه وفق فى اضفاء هذه الضبابية الشفافة ، التى تحط على صاحب العقل المهتز فى مسيرته نحو اللوثة أو الجنون . وهكذا اتخذ فناننا موقفه من قضية حيوية وهى نظر المجتمع الذى يفضل الولد على البنت ، بلا كلمة واحدة مباشرة

ومسرحية أخرى تعكس جانبا آخر من الضغط الاجتماعى ، هى « الموكب » التى يلتمس كاتبنا فى أحداثها وشخوصها قضية صراع الأجيال واختلاف الزوايا التى تنطلق من خلالها الرؤى ، وتكون النتيجة اثارة الشحناء والبغضاء بين الجيلين ، فلا يلتقيان .

وعالم تيمور المترامى يعتمد تشكيله فى المقام الاول على الملامح الانسانية الاصيلة التى تجمع بين البشر . ولعل هذا التجميع هو المحرك الذى يعمل تحت السطح ؛ ليبلور أثمن ما فى الانسان ايجابيا .. وليقوم أيضا بتعرية ضعفه فى حب سلبا .. هذه السمة المشتركة هى التى تستوعب شخوص فناننا ، وهم يضطربون فى العوالم التى أقامها لهم صاحبهم .. سواء فى التقائهم أو اصطدامهم ببعض ، يتجاوزون بها أحيانا جنسهم الى كائن آخر حى هو الحيوان ، كما تعكس تعامل مؤنس مع العجل « أبو شوشة » فى المسرحية التى تحمل نفس الاسم .

ولعل الاشارة الى هذه السمة الانسانية ، تذكر القارىء بشخصية تنهل من نفس المنبع وتتكرر فى أكثر من عمل لمحمود تيمور وفى « خمسة وخميسة » أيضا ،

وتبدو كثيرا فى الظلال .. وهى شخصية الصعلوك أو المهرج الخاص أو كما تصفه وحيدة هانم « الراجل المسخة اللى بيضحكوا عليه الناس » . ورغم حيوية هذه الشخصية وبراعة تصويرها ، الا انها وجدت ربما لهذه البراعة نفسها ، هجوما على راسمها .. بحجة أن تيمور يبحث فى الناس عن اللون الشاذ غير العادى .. اى الشخصية الهامشية فى حياتنا . واغلب الظن ان الذين أثاروا ذلك ، لم يعرفوا أين كان موقع مثل هذه الشخصية فى الواقع المصرى فى تلك الحقبة الطويلة التى كتب فناننا فى أثنائها عنها منذ عشرينات هذا القرن .

لقد كان المهرج الخاص أو النديم ، احدى الوظائف التى لا يستغنى عنها المجتمع الاقطاعى الارستقراطى فى بلدنا . وشاغلها فى معظم الاحيان أزهرى فشل فى دراسته ، يملك القدرة الفائقة على الحديث فى مختلف المجالات . كما يتميز بروح مرحة تقع على المفارقة وتفرز النكتة ، والتى تجعله يقوم بدور المضحك أو البهلوان

وخاصة فى لحظات غضب السيدة . وكان صاحبنا بهذا الشكل رغم انه فى الظاهرة يبدو اثيرا لدى الثرى ، فى مقامالخادم الذليل .. الذى يطرد شر طردة اذا استثقل سيده ظله . ولا ريب ان الملمح الانسانى لم يكن وحده الذى يجذب تيمور الى هذه الشخصية ، فتكرار نماذجها يعني ان كاتبنا يستهدف شيئا آخر أيضا هو .. دلالتها الطبقية فى عصر كانت تستحكم فيه قبضة الطبقة الفنية الحاكمة على الفقيرة المحكومة . واذن فليست الطرافة أو غرابة الشخصية كما يمكن أن يلتقط النظر السريع ، هى التى تكون هيكل هذه الشخصية كما ظن الذين هاجموها !

وليست شخصية النديم أو المهرج هذه ، هى وحدها التى تشكل تفاوت الطبقات الصارم الحاد فهناك شخصية أخرى تتكرر أيضا فى مؤلفات محمود تيمور وتتفق معها فيما يقع عليها من ضغط اجتماعي وهى شخصية الاديب.

ان الراسمالية فى بلدنا اذا كانت تعطف على الفنانين والادباء وتدعي رعايتها لهم ، فهى تفعل ذلك من باب الابهة والوجاهة والاحسان كذلك . ان هـذه الحماية المزعومة تتحطم عنـد أيسر احتكاك أو تصادم بين الجانبين . ولعل تيمور اراد أن يقول أيضا للمطحونين الذين كانوا فى تلك السنوات قبل يولية ١٩٥٢ تفور أعماقهم بالثورة ، وهم يحاولون الانفلات من بين براثن قوي الشر والتسلط .. وهو يبارك خطاهم : لا تطمئنوا أبدا الى هـذه القوى المخادعة ، انى أعرفها أكثر منكم. انها لن تفرط أبدا فى مكاسبها الصغيرة .. فما بالكم بالكبيرة منها التى تحاربونها ؟ !

وهكذا لم تجيء هـذه اللقطة فى مسرحية « حفلة شاى » مصادفة أو بلا معنى ، وفكرية هانم السيدة الارستقراطية لا تكاد ترنو ببصرها الى مائدة الشاى وتقع على اختفاء طبق السندويتشات ، حتى تصوب نظرها الى فرغلي «الاديب» فى ادانة كاملة وعندما يرفض الاهانة ، تصرخ فى خادمتها أن تفتشه .. عسى أن يكون قد أخفى الشطائر فى جيوبه ! ولا تفكر ربة القصر ابدا فى أن تربط بين خليل باشا والتهمة ، رغم انه هو الفاعل .. لانه ينتمى بالطبع الى نفس طبقتها الراسمالية الراقية !

واذا كانت هـذه اللقطة تعرى النعرة الطبقية فى اطار الارستقراطية المصرية والثقافية ، ففى نفس الاطار يفضح محمود تيمور جانبا آخر وهو حقيقة اهتمام

هــذه الطبقة بالفن . ان صــابر بك زوج فــكرية هانم حائر بالصورة التي اشترتها زوجــه .. انها من الفن الحديث فوق الواقعي ، ولذلك فخطوطها المتشابكة غير المفهومة والتي لا يعرف له أول من آخر لا تمكنه من أن يعلقها ، لانه لا يستطيع أن يلتمس راســـا من قدم . وعندما يلح على زوجه .. تكتشف انها متذوقة الفنون كما تدعي ليست بأحسن منه فهما !

لم لا تسلط الاضواء على « الالتزام » الصارم لفناننا الــكبير وهو يتناول هذه الالوان من القضايا والضغوط، التي كان المواطن المصري ينسحق تحتها طوال عقود من السنين .. هذا هو السؤال ؟ !

الكواكب : ٥-١٢-١٩٧٢

المقاومة والصراع الصليبي

في مسرحية لعلي باكثير

من بين القلة من أدبائنا الكبار الذين يملكون خطا فكريا متكاملا ، لا يتناقض أوله مع آخره ، ولا يتلون صاحبه بتغير الظروف فيتحول من النقيض الى النقيض .. يأتي الرائد على احمد باكثير .

لقد آمن فناننا مثلا منذ وقت مبكر بالقومية العربية .. لا كشعار يرفع أو صفقة تجارية يمكن أن تتعرض للمساومات أو واجهة خادعة لا تعني شيئا .. بل اعتنقها كقضية مصرية لا تحمل الرجاء والتسويف ، لانها هي التي تحمل جوهر البعث العربي الحقيقي في كل مجالاته .. ولقد كانت حياته في خطوطها العامة والخاصة توكيدا رائعا لذلك لم يصطنع . فهذا المواطن الحضرموتي يصبح على مر الايام ، أحد الوجوه الهامة في أدبنا المصري المعاصر . وتقرأ في كتابه « فن المسرحية من خلال تجاربي الذاتية » كيف تفتحت هذه الروح في وجدانه وتفكيره وكتاباته ، منذ وقت مبكر أيام مناهضة الثوار العرب للأتراك والامبراطورية العثمانية ، خاصة بعد الحرب العالمية الاولى . لقد شده هذا التفتح الى الاخطار الخارجية والداخلية التي تهدد مصير الأمة العربية ، فكانت هذه السمة البارزة الرائعة الغالبة في انتاجه . ولذا كان النبض الصادق هو الذي تنتفض

به أعماله الـكثيرة ، والتى تبـدو دائما التعبير الشعبى الحر لصاحب قام أمين نزيه لم يوظف قلمـه يوما فى خدمة من يدفع . والمسرحية التى نتناولها اليوم لباكثير هى « دار ابن لقمان » ، تدخل ضمن هـــذا الاطار العريض الذى حدده كاتبنا لنفسه .. وان كان هناك عامل آخر مساعد لا يمكننا أن نتخفف من أثره ، ازاء مسرح الاحداث التى أختـارها باكثير . هذا العامل هو تعايش فنـاننا طويلا مع الاثر الباقى لدار ابن لقمان هـذه فى مدينة المنصـورة .. فمن المعروف ان على أحمـد باكثير عمـل مدرسـا وقتا طويلا فى احـدى المدارس الخاصة فى المنصورة ، وهى مدرسة الرشـاد التى لا زالت مفتوحة الابواب الى اليوم .

ويتخذ باكثير « مفتاح » مسرحيتـه بعض الآيات القرآنية الـكريمة ، وكأنه استلهام للمعنى .. للجوهر الذى يغيب عن المرء أحيـانا فى خضم الحياة اليوميـة الرتيبة وضعف الجموع وتهافت القيـادات .. « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ، ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الايام نداولها بين النـاس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين » ..

وقارىء « دار ابن لقمان » وخاصة فى المشاهد التى تتناول لهفة الفرنسيين بعد وقوع دمياط فى أيديهم ، على الوصول الى القاهرة واحتلالها .. يحتاج الى عملية انسلاخ غير هينة عما يطالع ، ليتأكد ان ما يقرأ لايرصد أو يعالج احدى الازمات التى يعانيها شـعبنا نفسه فى هـذه الايام فى العقـد السابع من القرن العشرين ! فالقضية ويا للغرابة هى هى .. وكأن الزمن توقف ولم يتقدم يوما واحدا .. ويخفف من عنف المشاعرالمتسلطة

.. عداء حاقد للشرق والاسلام ، يرفض الاعتراف أصلا بوجودهما وبحقهما فى الحيـــاة ، ومحاولات مستميتة لطمس معالم العاصمة المصرية موطن الاشـعاع النضالى والقيادى .. فى المنطقة . ويحدث هذا ويا بشاعته باسم الدين .. قد ارتوا يرى فى مصر بابل الجديدة معقـــل الـكفر فى الشرق ولا أمان للصليبيين الا بسحقها ومحو عاصمتها العتيدة من الوجود !.. وما جئنا الا لنقاتل هؤلاء الـكفار لاعلاء كلمة المسيح !

ورغم قسوة الظروف المحيطة بالقضيـــــة والواقع واحتلال الصليبيين القديم لمواقع فى سوريا وابتلاء مصر بالحملة الصليبية الجديدة بقيادة لويس التاسع وسقوط مدينة مصرية بين أيديهم ومؤامرات المماليك البحرية ، الا أن على أحمد باكثير كان يمتلك القدرة على الاتجاه الصحيح .. فلم تتشتت نظراته وتتبدد جهوده فى وصل زاوية الرؤية بجوهر الاشياء سـواء فى الشـــخوص أو الاحداث . لذلك حافظت المسرحية على تكشفها جيــدا واسـتطاعت بلا أية نبرة دعائية أن تعرض لهذه المنطقة الحساسه التى يفشل فنانونا كثيرا فى اجتيـــازها .. هذه الجزوة التى لا تخمد فى نفوس المصريين فى مقاومتهم لغاصبيهم ، وكذلك هــذا الحنين الدائم المتمكن الذى تهفوا اليه النفس العربية فى كل مكان من أقطارها الى الوحدة التى تجمع شملها جميعا ، وتحقق لها عزتهــا وحريتها وقوتها التى كانت لها يوما وهى مرفوعة الرأس تشارك فى بناء الانسانية . ولقد انعكس هذا كله فى أكثر من صــورة وفى مواقف نابضة بالحياة يبلغ من عمقها وتوكيد وجودها أن نلمح ظلالها فى جانب معســـــكر الصليبيين نفسه . فى حوار بواتيه شقيق لويس ملك فرنسا مع أخيهـــا الثالث انجو ، تأتى الكلمات ..

كل خطر علينا انما يكمن فى اتحاد هذين القطرين .. الا تذكر كيف هجم نائب السلطان بدمشق على صيـــدا فانتزعها من أيدى اخواننا الصليبيين ، حين بلغـــه اننا احتللنا دمياط ؟ فيكون ضمن جواب انجو : ان هؤلاء العرب يختلفون ما يختلفون ولـكنهم دائما يتحدون فى النهاية ..

ورغم ان رفض المفهوم القديم فى تفسير الملوك وحدهم للتاريخ ، قد مضى عليه عندنا سنوات غير قصيرة .. الا ان تجسيد الدور الشعبى فى الاعمــال التاريخية فى أدبنا ، لا زال يثقله فى الكثير من هذه الاعمـــــال .. عدم الاهتمام الحقيقى باستيعاب شخصية المواطن العادى الذى يقوم بهذا الدور ، وهو يشارك بدرجة ما فى الاحداث القومية ومعارك بلاده المختلفة من حربية أو فـكرية أو عقـائدية .. ولذلك فان هذا الدور الشعبى يبدو غالبا باهتـــا بلا قوام متماسك . ولكن فى مسرحية « دار ابن لقمان » نجـــده ينتقض حياة .. فأولاد البلد أو الحرافشة بلغة ذلك الزمان ، ينهضون للدفاع عن بلادهم فى مقاومة الغزو الصليبى .. ما يثير ثائرة المماليك الذين يسخرون من العنصر الوطنى الذى يعمــل على أن يرفع رأسه ، مستشعرا أن البلد بلده هو قبل أن يكون ضيعة لهؤلاء المجلوبين من خارجها . ولقد استطاع باكثير أن يبلور فى هؤلاء الحرافشة ، الـكثير من روح ذلك العصر والصراع الدائر بين مراكز القوى القومية وغير القومية .. فالنظام المملوكى الذى يستورد الجند من أســواق الرقيق صبيانا وغلمانا ويعلمهم العسكرية ، كان يكره أن يدخل فى جيشه عنصرا وطنيا .. لا لأنه لايثق فى القاعدة المصرية فحسب ويدرك انهــــا تكرهه وتبغض تسلطه وتأمل فى التخلص منه اذا سنحت لها فرصة التسلح ،

بل لأن رجال هـذا النظام كانوا لا يقبلون أن يسـوى بينهم وبين هؤلاء الحرافشة فى معرض الدفاع .. كما يقول أحد قوادهم فى المسرحية ! ويسخر كاتبنا من هذه الروح الاقطاعية من خلال المفارقة التى يقدمهـا واقع هؤلاء العامة الذين يخرجون مجـاهدين فى سبيل الله متطوعين لا يبتغون فضلا من ولى الامر .. بينما المماليك يأخذون على نفس العمل رواتب وأرزاقا من السلطان ، ويحدوهم الطمع الى مزيد من المنصب والجاه !

ولعل أهم ما يقدمه فناننا الـكبير فى هذا الموضع هو تناوله لجانب شـديد الاهميـة من قضية مصـيرية هى قضية الحكم .. وهو حق الشعب فى حاكم يمثله ويختار من بين جماهيره .. هذا الموقف الذى لا يتناقض أبدا مع الاعتراف بأية خلافة والانتماء اليها أو .. رفضها .. والذى يعرف فكر على أحمـد باكثير السياسى ، لايدهشه ما يشيع هـذا الفنـان الـكبير من ديمقراطية الحكم والدعوة المصرة عليها فى كتاباته المختلفة .. لذلك نجد فى مسرحيتنا هـذه ان مؤامرات المماليك تحاك الى درجة ترك مواقعهم فى ميدان القتال أثناء الاشتباكات ، احتجاجا دنيئا .. خشية أن يلى فخر الدين قائد الجيش وهو مصرى الاصل حكم مصر بعد وفاة الملك الصـالح أيوب . ان تهمة فخر الدين عندهم أنه يعمل على تجنيد عامة الشعب ، ومعنى ذلك الاستغناء عن العنصر المملوكي فى الجيش رويدا رويدا .. وهى جـريمة الجرائم فى حسبانهم !

ولا تقف رؤية باكثير التقدمية عند هذا الحد ، بل هو يتجاوز ذلك الى أن يجعل مثل هذه الرؤية تتفتح لبعض شخصيات الحكم المملوكى نفسه .. فتقول شجرة الدر مثلا : ان نظام الملوك لم يعد صالحا .. لقـد جر علينا

وعلى البلاد هـذا الوبال . وكان أديبنا يعيش من ناحية اخرى هـذا الوعى ، وهو يجعل بعض رجالات المماليك أيضا يدركون ما عليه واقع نظام الحكم من اهتزاز، الا ان هـذا الوعي يقصر بهم عن بلوغ غايته لتقوقعهم داخل مصالحهم الذاتية ، فيرى أحد زعمائهم وهو اقطاعى هذا الاهتزاز ، لـكن الخلاص عنده يتناسب تماما مع مكاسب مراكز القوى المتسلطة . فهو صحيح لا يقبل بعد اليوم كما يقول ملـكا يرث عن ابيه .. لا من آل أيوب ولا من غيرهم ، ولكنه يفعل ذلك لا لصـالح البلد الذى رعاه ، ولـكن ليخلو له الجو لمزيد من السيطرة للعنصر غير الوطنى . . و « سنجعل الحكم متداول فينا نحن المماليك»!

وهـذا الاتجاه يصـل الى قمتـه فى مسرحية باكثير، وهو يتناول شخصيـة أحد النحال .. هذه الشخصية التى تبـدو هامشية وثانوية اذا عددنا أصحاب الحل والربط والمناصب والقيادات ولم نجدها بينها . .ولكن اذا تابعنا الاحداث بعين فاحصة لا يثيرها ضجيج الاوامر النواهى ، لوجدنا ان هـذا الفلاح المصرى القح من قرية اشمون الرمان ومهنته تربيـة النحل وبيع العسل ، هو من أبرز شخصيات المسرحيـة ان لم يكن أبرزها على الاطلاق . فهو الروح التى تحرك وتهز الاعمـاق تحت السطح الساكن ، واليـد التى تجعل للنظرية معنى ، والاصابع التى تعمل بفدائية فى الخفاء .. كأنها تعرف ان حقها فى اثبات وجودها بالشكل الصريح ، لم تتهيأ له الظروف بعد .. وهى فى النهاية المعالجة التى توازن بين الواقع الذى تطرد خلاياه الاكاذيب المزروعة ، وبين الرؤية التقدمية التى تفجر ما فى أعماق هذا الواقع من امكانيات لم تتبلور بعد ..

ومن الواضح ان باكثير لم يستنطق التاريخ الجاف

الذى لا ينتج الا دمى تتحرك وفق تعليمات المخرج او المؤلف ، بل استوحى اصالة الشعب . ومن هنا جاءت العفوية التى يتحرك بها البشر فى حياتهم العادية . ولقد وفق فناننـا باكثير وهو يحافظ على هذه السمة خاصة وهو يعمـل على الخروج من قصور السلطان أو الامراء الى الساحات الشعبية ، سواء فى شكل أفراد أوجموع . وفى هـذا الموضـع نذكر هـذه الشخصية التى ابتكرها باكثير ، وهى ناعسة الفتـاة الريفيـة التى جعلها ابنة شجرة الدر بالتبنى .. اننـا هنا ازاء الجسر الذى يمتـد بين جانبى المصريين وجهاز الحكم المتضامن مع قضـايا الطرف الآخر .. وبهـذا أعطى المؤلف للرؤية رحابتها التى تستوعب الكليات لا الجزئيات .

لقـد اسـتطاع باكثير بخبرته المسرحية أن يجسد الصراع الداخلى والخارجى بين الغزاة والقيادة الايوبية والعنصر الوطنى ، بموضوعية انقذته فى أغلب الاحوال من الانزلاق الى الصراخ . وكأنه وهو يتناول بهذا الشكل المجتمع الصليبى الذى جاء بلاده يغزوها ويحطمها ، قد حقق مثله التى تنـأى به عن التعصب وكل ما يزيف جوهر أصالته .

الكواكب : ١٣-٦-١٩٧٢

علي أحمد باكثير
وتمثيليات إسلامية

لماذا كان علي احمد باكثير بالذات ، من أكثر الذين هاجمهم الارهاب الفكرى بضراوة ؟ تساؤل يخطر على البال وهو يذكر كيف كان الفنان الكبير كما هومعروف شديد الهدوء والحياء ، لا يفكر في المساس بأحد مهما أساء أليه . والجواب يشكل في الحقيقة ما كانت عليه حياتنا الثقافية قبل ١٥ مايو من دعاو مزعومة وتسلط منابر وشلل ظاهرة ومختفية ، تتجمع كلها في اتجاه واحد تحاول أن تلغى ما عداه .. لا بالحوار الصريح الموضوعي ، بل باقصاء أسماء وتحطيم فنانين و « تلميع » ملتزمين بالفكر المستورد . وكان يتجمع في اهاب باكثير أشياء ، كان الارهاب لا يعرف كيف يهاجمها بالباطل كما فعل مع وجوه مشرقة في أدبنا المعاصر ، اتهمت بأن كتاباتها جنسية أو رومانسية أو غير ملتزمة أو بلا منهج أو غير مثقفة ! فكما ان كاتبنا الكبير فنان صاحب موهبة أصيلة ، فهو أيضا صاحب فكر مبلور ورؤية متكاملة تكون فلسفة واضحة لم تتناقض منذ صباه وحتى وفاته .

ولم يشفع له هذا كله ، وعوملت أستاذيته كأنه أديب ناشيء . ولولا حركة تصحيح أنور السادات التي أعادت علي احمد باكثير الى جمهوره ، لاستمر الحصار

المضروب على أديب عظيم .. كانت جزيمته عند أصحاب الارهاب الفكرى .. صدقه وأمانته مع نفسه ومع قرائه .. وقبل هذا فكره العربى الاسلامى !

ومع أحدث انتاج باكثير الذى ظهر منذ شهور قليلة ، للتقى مع فن أصيل وفكر عميق والتزام يتصل بعراقة شعبنا ومبادئه .

ويستشعر القارىء فى تمثيليات « من فوق سبع سماوات » ما استهدفه على احمد باكثير وهو يتناول القيم الأسلامية ، من تأصيل لهذه القيم وتوكيد لاهميتها فى حياة الجماهير العربية وتفجير ما تحمل من مبادىء قوية يمكنها أن تقف بسهولة ازاء ما ينهال علينا من المفاهيم الخارجية شرقا أو غربا ، وكذلك ربط الحاضر بالماضى .

ولعل معايشة فناننا الحقيقية لمجتمعه ، جعلت معالجته حتى لازمنة ماضيه واحداث غابرة ، تتفق مع جوهر هذه المعايشة للقضايا المعاصرة .. لانه أراد أو لم يرد حمل معه صدقه والتزامه . وهو بذلك لا ينقل القارىء الى الامس الحى وهمومه فحسب ، بل يجعل هذه الهموم فى مستوى الحاضر الانسانى الذى ترتفع اليه القلمة البشرية .. وهكذا أيضا بتحطيم السياج الذى يفصل بين الازمنة فى وجدان الملتقى وعقله . فى «هلك المتنطعون» يعرض أديبنا لواحد من هؤلاء الذين يغالون فى اتباع تعاليم الدين الى الدرجة التى يلغون فيها أشياء أمر الله برعايتها .. فأبو الدرداء بحجة التدين ، يكاد يهجر فراش الزوجية وينعى على امرأته تزينها المعتدل والرداء الجميل .. مما يضطر سلمان الفارسى صاحبه والذى آخى النبى بينه وبين أبى الدرداء ، أن يلفته الى معاداة مسلكه للمفهوم الصحيح للدين . ولكن صحابينا

لا يرى أنه أضاع حقا لبدنه وأهله ، بل أنه لأقرب الى البر والتقوى . ويكون الاحتكام الى الرسول الكريم . الذى يرى ان سلمان أفقه من صاحبه .. انطلاقا من الروح الاسلامى التى ترفض التنطع !

لقد استطاعت براعة على احمد باكثير هذا العمل ، أن تجعل العامل الزمنى والبيئة والامس البعيد فى خلفية الصورة ، لتستوعب القضية التى تعيش فى كل زمان ومكان .. معظم المساحة .

وقريب من هذا ، معالجة فناننا لادعياء التصوف ـ الجانب الآخر المشرق للمتصوفين قدمه فى « حارس البستان » مصورا ابراهيم بن أدهم ـ أو لبعض أصحاب العمائم المخادعين ، وهو يتناول عالم الاسلام ابن تيمية .. ان تصويره لا يتعلق أبدا فى حدود أحداث وقعت منذ قرون ، بل ينفلت منها منفتحا على ما يثير قلق الساعة .. وهو الموقف الذى يعكس الفن العظيم .

واذا كان من المهم ان تنبثق المفاهيم الاسلامية أيضا من رجالات الاسلام المشهورين ومواقفهم وكما درج الكتاب عادة ، الا ان فناننا يحاول أن يخرج من هذه الدائرة وقد فعل .. لاكثر من باعث . فالاسلام جاء لينتصف للمظلوم من الظالم أى ليقف مع الكادحين ، وهو عبادة ودولة .. ودنيا وآخرة . ان من أهم ما قدم الدين الاسلامى ، هو تغييره لتركيب المواطن العربى العادى .. فلقد استطاع أن يشكله من جديد ويصنع منه مخلوقا آخر .. عملاقا ، كون هو وزملاؤه ماعرف بالحضارة العربية . ولا شك ان باكثير وجد فى هذا التكوين مقابلا لتركيبة الرجل العادى المعاصر .. محور اهتمامات الفنون والآداب والحكومات !

فى احدى تمثيليات الكتاب وزمنها أيام أبى ذر

الغفاري ، يتناول باكثير شخصية شاب يستصعب العمل مهما خف ويفضل عليه أن يسأل الناس الصدقة .. رغم قول نبي الاسلام المعروف .. ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم . وعندما تبـــدل الايام فقره غنى .. لا يذكر ماقاسى وارتباطه بربه والناس ، بل ينكر هذا كله متحولا الى الضد .

وفى تمثيلية اخرى هى « الاسير الكريم خبيب بن عدي » يصور كاتبنا شخصية هذا المسلم العادى الذى صح ايمانه ، فاذا به شخصا آخر يستهزىء بالالام والتعذيب حتى ليبدو أقوى من الموت نفسه . ولعل الاهتمام برجل الشارع ، هو الذى حمل على احمد باكثير على المزيد من العناية بالحياة اليومية الذى يتنفسها المواطنون داخل البيوت وخارجها .. مما جعل هذه التمثيليات تبلور بشكل واضح مثل العلاقات بين الازواج ، كما تكرر ذلك فى أكثر من عمل فى هذا الكتاب . ففى « زوجتان صالحتان » يرسم فناننا ملامح عميقة لعاطفة الزوجة التى لا تستطيع أن تلغى بسهولة ارتباطها الوجدانى برجلها الذى أصر فى البداية على عبادته للأوثان ، بينما تكون هى قد أسلمت ..

ويستطيع القارىء أن يلمح أيضا حفاظ أديبنا الكبير على خط الرجل العادى هذا وهو يستهدف تناوله بأكثر من لون وصورة ، فى تمثيلته « الخاتم » التى عرضت لجانب من حياة هارون الرشيد .. لم يجعل شخصية أمير المؤمنين « تسرق الكاميرا » ، بقدر ما سمح لشخصية احمد السبتى عامل البناء الفقير أن تفعل ذلك !

واذا كان على أحمد باكثير قد استخدم باقتدار فى هذا

الـكتاب ، قالب التمثيلية ربما لاول مرة بعد أن قـدم للقارىء العربى لسنوات طويلة مختلف الالوان القصصية والمسرحية والشعرية ، فيجب ألا نكتفى بوسيلة النشر وأن نستفيد من هذا التناول الممتاز فى اثراء اذاعاتنـا وتلفزيوننا به .. كمستوى فنى ومنهج وفـكر معا ..

الزهور : اكتوبر ١٩٧٣

أمين يوسف غراب
والحب والجنس والعالم السفلى

عرف القارىء العربى فنانه الكبير أمين يوسف غراب روائيا وقصاصا ، ولكنه لا يكاد يعرفه كاتبا مسرحيا ! ويرجع ذلك الى ان أديبنا قليل الانتاج فى دنيا المسرح ، ولم يكتب الا مسرحية واحدة كبيرة هى « شقة فى الجيزة » ، رغم انه ألف العديد من المسرحيات أو التمثيليات ذات الفصل الواحد ، لم يجمعها فى كتاب منفرد بعد أن نشرها فى مجموعاته القصصية . اذن فهوى غراب المسرحى قديم فى حياته وان لم يكن هو الغرام الكبير او الاوحد !

وهذه المسرحية التى اتخذ كاتبنا فيها البيئة الشعبية أرضا لاحداثها ، امتداد لخطه الفكرى الذى ارتضاه لنفسه منذ أن بدأ الكتابة .. وكأنه مثل السمك لو خرج عن الماء يضيق تنفسه ولا يقدم خير ما عنده . ويحاول غراب أن يختار من هذه البيئة ملمحا يكاد يكون جديدا فى أعماله ، وهو أعمال الشعوذة التى تؤمن بها المفاهيم الشعبية غالبا .

ويعطى مناخ المسرحية الفارق فى الحياة الشعبية والاهتمام بجانب السحر والشعوذة وامور العالم السفلى المختلفة ، للحب أيضا ظلاله الخاصة .. فيكون أول ما يلتقى به القارىء فى هذا الشأن ، هو موقع الهوى فى

الـكتابات السحرية ، وكيف يستخدم ورقا معينا من النبات فى ذلك .. هو ورق الخيار ! لان الـكتابة عليه .. تسهر صاحبه بالليل وتجننه بالنهار على رأى المثل الشعبى !

واذا انغمست المسرحية فى الوجدان الشعبى الصرف، وكأنها محاولة للاستفادة الـكاملة مما يتيحه هـــذا الانغماس ، فقد ترك أمين يوسف غراب الخيـــــار للشخصيات فى أن تعبر بحرية وبلغتها الخاصة. ففهيمة بنت البلد الفارقة حتى شوشتها فى الحب ، تصور ما تـكابد منه بقولها : « ما حواليه الا الويل وهد الحيل .. اللى يتخفى اسمه خلانى كده مولعة ملهلبة شايطة .. النار بتاكل فى شمال ويمين .. اتقلب كده نار .. كده نار .. أبص له نار .. أكلمه نار .. أبوسه عدوك ربنا ما يورى عدو ولا حبيب » . (ص ٢٩ ــ ٣٠) !

ويقتنص غراب أيضا فى هذا المجال ، ما يشكل الراديو من تأثير الاغانى على العامة .. حتى لتـدخل كلمـات الاغنية فى « تراث » الشخصية .. التى تستقى منه قاموسها ورؤيتها . لذلك فالاستشهاد بالاغانى يجرى مجرى المثل حقيقة ومجازا ، فتقول احدى الشخصيات مثلا : وقال على رأى المثل .. فتحت القلب وحطيته .. وبين رموش العين حبيتـــــه .. ملانى جراح .. وسابنى وراح .. ودورت عليه ما لقيته » !

ومن الطريف ان هـذه المسرحية تستطيع أن تؤكد أيضا الرابطة الوثيقة التى تربط أمين يوســف غراب بالحب والـكتابة عنه ، وتعكس مدى انغماس فن هذا الاديب فى تناول العلاقة الوجدانية بين الرجل والمراة.. حتى وهو يتحدث عن اتصال بعض البشر ــ أو ادعائهم ذلك ــ بالجن والعفاريت ! فعندما يعرض كاتبنا لنشاط

الشيخ المزعوم فى استحضار أشباح سكان تحت الارض، فهو يجعل هـذا النشاط يقتصر على مجال واحد هو المراة .. فى نطاق واحد هو الحب .. متجاهلا ما عداه من مختلف القضايا التى تدخل فى نطاق عمل مثل هذا الولى الكاذب وكأنه لا يتمثل الا بشعار الحياة الحب والحب الحياة ! ولقد استرعى هذا الموقف انتباه احدى الشخصيات أيضا التى يدور بينها وبين شخصية أخرى هذا الحوار :

ـ لا بيشفي مجانين ولا بيداوى عيانين .. مش بتاع الحاجات دى أبدا .

ـ أمال بتاع ايه ؟

ـ بتاع نسوان ! (ص ١٢٣)

واذا كان الحب فى معظم الاحيان يعد مدخلا للجنس، فهذا لا يمنع كما هو معروف أن يـكون للجنس نفسه عالمه الخاص المميز .. كمـا تباور شخصية حماده . فأحداث المسرحية تبدأ وحمادة الذى يعمـل مهندسا ينتقل الى شقة جديدة يتخذها مكتبا ، رغم أن مكتبه كان الى ساعة قريبة فى الشقة الملاصقة لمسكنه . وسبب هـذه البهدلة هو الجنس . فعينه الزائغة كانت تحط دائما على زبائنه من النسـاء ، مما دعا زوجه الى أن تضيق عليه الحصار .. ولم ير بدا من أن يتكبد الصعب ويبعد من مكتبه وعن امرأته . حمادة اذن كما تقول احـدى الشخصيات « بريالة » .. المراة عنده لا تعنى الا اللحم أو المخدع .

واذا كانت شخصية الشيخ على هى التى أراد المؤلف أن تدور الاحداث المثيرة حولها ، فقد أخـذت بالتالى جزئياتها قبل كلياتها اهتمامه . حتى قبل ظهورها على المسرح . ففهيمة مثلا تتحدث عنه ــ الشيخ لا المؤلف ــ

مبهوزة : « هو له زى .. دى كل الاسياد خدامينه .. يحط ايده فى الميه تجمد . فى النار تبرد . يجيب الحيط على الحيط ، ويلضم الخيط على الخيط ، ويخلى أبوك ماهو أبوك وأخوك ماهو أخوك . ويجمع الشمل على الشمل ، والحمل على الحمل ، وما توصيش عدوك عليه .. »

ولمثل هذه الشخصية جانبان عادة .. الاول الهالة التى تحيط شهرة صاحبها فى السحر ، وما يحاول ادعاء ذلك . والجانب الثانى قدرته على استغلال مريداته جنسيا .

وعن السحر يستفيد غراب من تركيب المزاج الشعبى المكتفى بمواهبه الفطرية مضطرا ، فحرمانه مما تفرز الحضارة .. هذا المزاج الذى يقف عاجزا دهشا امام الاشياء المعقدة التى تحتاج الى المام بأوليات قواعد النظريات العلمية ومتابعة تطور العقل البشرى ، كما تثيره الظواهر الغريبة أيضا التى لم تلن قشرتها بعد امام منجزات العصر الحديث . ولم يستطع العلم أن يقول فيها الكلمة الاخيرة .. ولذا يشده صاحب هذا المزاج الشعبى بما يفوق ادراكه البسيط . ومن هنا كانت حاجته الملحة الى من يستطيع أن يفهم اللغة المعقدة ـ دائما هى متصلة بالتحتيات لا العلويات .. أى بالعالم السفلى حيث تمرح العفاريت والجن والشياطين ، لادنيا السماوات وموطن الملائكة الاطهار والرجال الابرار ويتحدث بها ويبعد عنه اذى أصحابها « اللى ما يتسموش ! » . ولما كان المتحدث بهذه اللغة هو قبل كل شىء واحدا منه ينتمى اليه فكرا ومزاجا ووجدانا ومجتمعا . فقد أعطى هذا الاطمئنان اليه والاقتناع والايمان به ، بل والزهو بانبثاقه من بين

الكادحين فى خضم صراعهم ضـــد مستغليهم من الانس والجن على حد سواء ! هو اذن احد اسـلحتهم الذى يخفف من وجهة نظرهم ، من قتامة الحياة حولهم .. ولـكن الذى لم يعرفوه انه حتى فى هذا الوضع ، كان فى الجانب الآخر الذى يبغضهم ويمتص دمهم .. اداة فى يد قوى الظلام التى تريد أن تزيد وتتمكن من سيطرتها على الجماهير الضعيفة الفقيرة .. تنشر الجهل والقيم الهابطة واصطناع كل ما يؤكد تشديد قبضتها ، وذلك بالاستعانة بهذه النوعيات التى يثق فيها المواطن العادى مثل « الشيوخ المطمطمين » القادرون على اكتشاف الغيب وتسخير مخلوقات العالم السفلى . وهكذا كان من الطبيعى ان يـكون الرد على مثل تساؤل المهندس حمادة وهو دهش : يعنى فيه ناس بتعرف فى السحر صحيح ؟ هو بالتأكيد : الا بتعرف ياسى حمادة ؟.. الا بتعرف ياسى حمادة ؟ امال انا لما تيجى السيرة دى باتلبش ليه ؟.. مش من اللى انا جربته ؟ !

هـــذا ما يعكس الجانب المتصل بالسحر ، والذى تستوعبه هذه الشخصية . فماذا يشكل عنصر الجنس؟

من الاشياء التى يوحى بها عالم الاشـــباح ، انتماء عناصره جميعا الى تركيب العمالقة .. فكل شىء فيه كما نتوهم أقوى مما يعرف البشر فى دنياهم اضـعافا مضاعفة . ومن هنا ينهل المتصلون بعالم الاشباح هـذا كما يتصور النـــاس ، من جبروت تحت الارض ! واذا كانت الفحولة فى المفاهيم الشعبيـة ، هى أهم المزايا بالنسبة الى الذكر ، فهى بالتالى أول المتطلبات التى يتلهف عليها ويغترف منها . فمن يستطيع أن يفعـل .. ومن أولى وأقرب من الشيخ المطمطم ؟ !

والظلام يهجس عادة باللذة والنشوة ويوازن بين ما

يعنى غياب الضوء والنور وبين ما تشيع الرومانسية..
هـذا الظلام هو نفسه الذى تجرى فيه عمليات السحر، وتنطلق بالتالى كل شياطين الرغبة سواء بالنسبة الى القطب السالب أو الموجب .. المريد أو الشـــيخ .. الزبون أو « الساحر » ولا يهم أن يقع هـذا بلا وعى من الاول الذى أو التى تقع فريســـة اللحظـة التى لم تعمل لهـا حسابا ، أو بوعى من الثانى الذى يخطط له ويصمم عليه .. كجزء من البرنامج ! تفسر احـــدى الشخصيات المسرحية ارادة « الضحية » المسلوبة وهى تنساق الى رغبة « الشيخ » عاجزة عن المقاومة ، لاتملك الا أن تستجيب مرغمـــــة .. « هو شىء بيدها ؟ انت لمـا البسم الله الرحمن الرحيم يعمل فيك أى حاجة.. تقدر تقول له بم ؟ » (ص ١٣٠) .

وهذا التفسير لا يلغى بالطبع تصوير غراب فى مواقف اخرى .. استعداد الـكثيرات من بنات حواء الايجابى لمثل هـذه الرغبة الجنسية التى لا ترفض ، كما جسدت أكثر من شخصية نسائية كعلية مثلا !

تقول فهيمة : بينى وبينك لما الواحدة تخش عليه فى الضلمة . والا فى نور الشمعة الصغيرة اللى مولعها ، تبقى مش فى وعيها .. واللى فى ايديها يبقى فى رجليها وان قلت بم عليك العوض » !

ويدفع غراب الى المزيد من الحركة فى ملامح هـذه الشخصية ، وهو لا يجعل الايمان بها فى نطاق التسليم المجرد ، بل يتجاوزه الى أن يجعله محور الحوار الجماعى بين تركيبات مختلفة ، يطول فيه أو يقصر الاخـــــذ والرد .. كما فى هذا النقاش :

منصور : ياساتر يارب . يخوف للدرجة دى ؟

ام سيد : واكتر من كده كمان .. أنا أصلى جربت،

منصور : انت كمان جربتي ؟

فهيمة : أصله مايبقاش هو .

منصور : (في خوف) امال يبقى مين ؟

فهيمة : دلوقت ح تشوف .. ربنا يجعل كلامنا خفيف على قلبه ! (ص ٣١ – ٣٢)

وتقدم « شقة في الجيزة » عنصرا لا يتكرر كثيرا في أعمال أمين يوسف غراب ، بل ويبدو انه يناقض تركيب فناننا الغالب من بعض النواحي ؛ وهو فكاهته . فمن المعروف ان غراب كانت دمعته كما يقول التعبير الشعبي .. قريبة . يتساوى انعكاس ذلك في حياته أو أدبه . وكاتبنا في هذا نبت أصيل للأرض المصرية التي يثيرها الالم رغم مرحها عند أول بادرة . ولعل ذلك لعشرات القرون التي أردته فيها الولايات وقلبته بين الآلام والاحزان ، اكثر مما أغرقته في الافراح . وبهذا أيضا تزول دهشة القارىء الذي يعرف بوهيمية غراب ومحاولته من وجهة نظره أن يستمتع بحياته طولا وعرضا .

ويبدو ان وجهي العملة من فرح وحزن ، بجانب ايثار الفنان المصري للسلامة وهو يخشى أبديتهم بالركاكة أو التفاهة ، اذا بلور خفة دمه في حجمها الطبيعي ، جعل البعد عن كل ما يبلور الفرح أمر أشبه بالحتمي . ولعل هذا ما يفسر انطلاقة أديبنا الكبير في تفجير طاقات مرحه ؛ وهو « ينتهز » أمكانيات المسرحية الكوميدية التي يكتب فيها .

سعد مكاوى
ودعوة إلى الوجدان

بعد اكثر من ربع قرن فى الكتابة القصصية القصيرة منها والطويلة ، يمارس فناننا الكبير سعد مكاوى كتابة المسرحية ، ويقدم هذه الايام عمله المسرحى الاول « الميت والحى » . وهذا الموقف من أديبنا المتخصص ـ لم يسطر من المقالات الا القليل ـ مع الصلة الوثيقة بين القصة والمسرحية ، يعكس البديهية الفنية عندما تعرض التجربة ورؤيتها قالبا معينا لا يملك الكاتب الانفلات من سيطرته ، فهى ليست اذن كما يفعل الكثيرون ، الانسياق وراء موضة واستغلال كثرة مسارح واقتصار الاقلام النقدية أو تكاد على تناول الفن المسرحى وحده !

والقارىء الذى لا يتابع كتابات سعد مكاوى ولايذكر منها الا انغماس صاحبها كما هو معروف فى الريف وقضاياه ، ربما استقبل تناول كاتبه لجانب علمى فى مسرحية ، بنوع من الدهشة ! ولكن أديبنا الذى يطور فنه باستمرار ويثيره النبض الانسانى دائما ، يبلور فى قضية العلم والحياة نفس هذا النبض . ومن هنا يكون معالجته لما يجرى فى المعامل استكمالا لملامح فنه المميز. ولقد انعكس هذا الاتجاه فى عدد غير قليل من قصص كاتبنا القصيرة وخاصة فى الآونة الاخيرة ، وقبل أن

يتابعه فى مسرحيته ..

ان الصيدلى هبة يبحث عن اكتشاف جديد لأحد أمراض القلب . صحيح ان اخلاصه لهذا البحث لم يأت نتيجة اقتناع بالخلاص العام ، لأن دافعه الى ايجاد أتقن الصيغ لتركيب « الدواء الازرق » كان أن يجنب زوج ابنته ـ الذكرى الباقية من زوجه الحبيبة التى فقدها شابة ـ الموت المؤكد عندما تجيئه النوبة القلبية المنتظرة كما يقول الاطباء .

وهبة فى هذا السبيل لا يلقى للقيم البشرية التى تحترم الانسان وعذاباته وتحفظ له حقه فى حرياته ، ولذلك فهو لا يتورع عن اسقاط القانون من حسابه ، فيخدع المرضى عن خطورة ما يسقيهم من دواء لم تحدد تماما فائدته وان بدت مضاره القاسية تلحق بشاربيه .. فالخادم التى تناولت الجرعة الاولى من هذا الاكتشاف الذى لم يقل صاحبه فيه الكلمة الاخيرة ، اصيبت فى البداية بالتبلد وعدم القدرة على التعبير والتجاوب والمشية الآلية مما يعطى لها شكلا « فرانكشيتينيا » مزعجا .. ثم الجنون فى النهاية. أما الكناس الذى أخذ الجرعة الثانية ، فقد تحول الى مخلوق آخر متوحش تمتد يده بسرعة تريد أن تخنق الناس !

ورغم هذا كله وأمثاله ، ولنلتفت الى أن اصحابه جميعا من الطبقة الدنيا.. لم يهتز صيدلينا ، لأنه يراهم مجرد حقل تجارب .. « مش مهم .. مش مهم دول يجرالهم ايه .. دول زى أرانب المعمل .. المهم أن ساعة الموت مايحاول يقرب من جوز بنتى أكن أنا مستعد له » (ص ٢٠) .

ويسمى سعد مكاوى الاشياء بمسمياتها ، لا يخدعه بريق الاشياء الكاذب أو التلويح بالمكاسب العظيمة المنتظرة أو بالحياة الابدية .. ما دامت تتنكب الطريق السوى الى مبتغاها . ولا يعني هذا ان فناننا الكبير يرفض العلم ـ لنذكر عن تعظيم أديبنا لقدرة العلم ، تصويره المدى الذى يمكن أن يصل اليه ، اذ يحيى الجسد الهامد بعد انطلاق الروح منه الى الملأ الاعلى . (ص ١٠٦) ! ـ أو ينكر عليه أن يجرى تجاربه ، فايمان مكاوى بالانسان صانع هذه التجارب والمتعرض لاخطارها والمستفيد من نتائجها .. عظيم عميق يفجر أثمن ما فى الحياة . ولكن الامر يختلف بين الشطط والاتزان ، أو بين الاسلوب العلمى الحقيقى الذى يعد لكل شىء عدته ولا يقوم بتجاربه على الانسان الا بعد الاطمئنان الى انها لن تلحق به ضررا الا بأقل النسب الممكنة ، وبين الغاء كافة الاحتياطات الواجبة اعتمادا على ان هؤلاء البشر الذين نجرى عليهم التجارب مجرد كائنات حية لا تحس ولا تعى . لذلك لا أهميـة اذن لتحطيم آدمية هؤلاء الناس الذين أوقعهم سوء حظهم بين يد هذا العالم المكتشف ، والذين حولهم العقار الى مخلوقات غير عاقلة بائسة لا تدرك .. اختلف بهذا الشكل تركيبها الذى خلقت به وعليه ، مما دأى الى اختلاط نسب مقاييس الروح والمادة فيها .

وفى هذا الجانب الاخير يلفت مكاوى الى مدى بشاعة الجرم المرتكب فى حق الانسان والمساس به ، وتضخيم الجانب العقلى على حساب الناحية الوجدانية . تقول احدى الشخصيات فى المسرحية وهو دكتور مصطفى : « باسم سياد العقل وخير الانسانية بيخلفوا مسوخ آدمية مالهاش قلوب ولا أرواح .. اللى باسم العلم كفروا

بالوجدان ، بالشيء الاصيل فى الانسان » (ص ١١٣) .
ان سعد مكاوى يطلق صيحته ضد الذين يريدون الغاء الآدمية بدعوى الارتقاء بالآدمية .. رافضا الخلط والزيف ، مؤمنا ان المكيافيلية ضد طبائع الاشياء ؛ وان نبل الغاية لا يمكن ان يبرر الواسطة وانحطاطها واهتزازها بل يذهب الى أبعد من هذا ، فيتهم مثل هذه الابحاث بالجنون .. فهو كما يرفض الجنون فى الفن ، يرفضه فى العلم مهما قيل عن العلم انه « الخلاص والمستقبل والدين والدنيا » (ص ٤٩) . وينكر أن تمس عظمة الانسان مهما كانت الحجة .. « عندما لا يكتفى العلماء بمجالات التطبيق المادى وحدها ويثبون على الظاهرة الانسانية بشمولها ، على الوجدان ، على النفس الانسانية التى تعلو على القياس العلمى الدقيق الذى يلتزم به المنهج العلمي ، على باطن الانسان ، منبع الفن والشعر والموسيقى والمعتقد والمعرفة ، ينبغى أن يكون للفكر كلمته ، وأن يقولها » (ص ٣) .. كما كتب فى مقدمة مسرحيته .
وسعد مكاوى الذى يقدس فى الحياة توهجها بالانسانية والقيم وعظمة العنصر البشرى ، يكره بالطبع أن يكون مفهوم هذه الحياة هو مجرد العيش أو التنفس مهما كان شكله .. والحياة أروع من أن تكون شيئا ميكانيكيا يستمر فى الحركة لاطول سنوات ممكنة .. آخذا شكل ممارسة تناول الطعام والشراب والتناسل ، ولا شيء غير ذلك . المسألة اذن ليست اطالة العمر والاستمتاع المستسلم بالبقاء على ظهر الدنيا والهروب الوقتى ما امكن من الوقوع بين يد قابض الارواح ؛ لذلك فهو يسخر فى مسرحيته من محاولة استخدام الدواء المشوه الذى ينقذ من الموت رغم انه يترك من يستعملوه نفايات بشرية اقرب الى الحيوانات المنحطة ؛

التى لا ينفع أو يشفع فيها عمليات الاستئناس .

ورغم هذا الملمح ، فلا يجب ان نغمط للمكتشف حقه وهو يتفرغ عمره كله فى المعمل .. ولا شك انه كان استثناء وحده بين زملائه الاجزاجية ، فهو لم يستهدف يوما أن يبنى عمارة أو يشترى عزبة أو يستولد ألوف الجنيهات الوفا .. بل وضع كل جهده وهمه فى اكتشافاته . صحيح انها امتصت عمره ، ولكنه لم ييأس رغم سخرية الساخرين أو الشامتين .. لانه لم يستطيع بالطبع أن يمنع نفسه .. لسبب بسيط هو أن سحر البحث لا يتوقف عند حد . أو كما تقول ابنته .. وما الضرر .. ما دام هذا السحر أو الاوهام تملأ عليه حياته ؟

واذا كان القارىء لا يجد نفسه أو واقعه فيما يدعى كثير من كتابنا وهم يتناولون حكاية ازمات الانسان المعاصر ، ويشعر بالغربة ازاء ما يقدم له فى هذا المجال ويدرك أن هذه اللافتة مستعارة من الخارج ليست نابعة من الارض المصرية وقضاياها ومشاكلها .. فان هذا كله لا يعنى انكارا لما يقاسى المواطن الشرقى أو العربى من أزمات معاصرة أيضا !.. وما أقل الادباء الذين يلتزمون بصدق واقعهم مثل سعد مكاوى . ان أزمة الحلاق عبد الحى الاولى هى ان « ماحدش عايز يدى .. كل الناس عايزه تاخد بس » . وهى كما نرى احدى قضايا التقدم الحضارى حتى لو لم يشارك أصحابه فيه .. بمعنى ان حصيلة الفارق المنعدم بين من يشاركون فى هذا التقدم مشاركة حقيقية وبين من يفرض عليهم مظاهر فحسب أو كمالياته .. هى هى . ان المجتمع المصرى الذى لايزال فى الكثير من ارجائه زراعيا يقاسى رغم ذلك من ضغوط روح الحضارة الصناعية فى شكلها

قليل الخطر .. لاننا مثل أية أمة متاخرة أو نامية ـ اختر اللفظ الذى يروقك ـ تترامى أولا على السهل والبراق ونفعل كهنود امريكا الحمر الذين فضلوا الزجاج الملون على الذهب. فنعرف هامش الحضارة وقشورها؛ قبل أن يسوقنا الفكر الى الجوهر .. وهو ما يطبع مستهلك الظاهرة المدنية وليس صانعها ! وهكذا وجد الاسطى عبد الحى الحلاق نفسه .. لم نعرف الآلة ولا استعبادها ؛ ورغم ذلك نتنفس نتائجها مثل ما تفرض من انانية مثلا .. تعرف كلمة الاخذ وتنكر العطاء . وتتجسد هذه القيمة الهابطة التى تصارعها شخصيتنا تجسيدا فى حياة صاحبها .. فظروف الحياة تضطره الى أن يعول أكثر من فرد فى أسرته الصغيرة وما يعدها عائلته الكبيرة أيضا .. « أنا حملى تقيل .. أربع عيال وامهم .. واختى الارملة وبنتها حسنية .. حتى اخويا اللى فى بنى سويف يبعث يشكى عذر .. علمته فى المدارس لحد ما اتوظف وبرضه عايز يفضل ياخد ولايديش .. وانا ما بقيتش زى الاول .. بازهق بسرعة وخلقى ضاق»

الاسطى اذن مثال للخلق المصرى الذى تربطه اعمق الروابط العاطفية بأسرتيه الصغيرة والكبيرة .. هذه الروابط التى تنكرها الحضارة الحديثة التى تلقى بظلالها علينا سواء أردنا أو لم نرد .. ومن هنا ينشأ الصراع الذى يفعل فعله فى النفس ويصل الى درجة التمزق ، بين الانتماء الاصيل وبين أشياء ترفض مثل هذا الانتماء .. وهكذا تفرز المأساة ..

والاصالة دائما مهما اتخذت من منهج ، تتصل أوثق اتصال بالناس لان ملؤها الصدق والعدل والخير ، وهى اشياء لا يمكن أن تخدع أو تمالىء أو تكذب أو تبعد عن آلام الغير سواء أكان فردا أو جماعة . ولذلك لم

يتخذ سعد مكاوى موقف المتفرج من مد وجزر المجتمع وقضايا الجماهير . واذا كان الانحراف يشكل اليوم واحداً من أولى مشاكل المواطن ، فمن الطبيعى أن يضعه كاتبنا فى بؤرة اهتماماته . وشيء آخر .. ان تناول الانحراف يبدو كثيرا انه أجدر الاعمال بسعد مكاوى ، والسبب أن فناننا بمبادئه الصارمة قد تعرض ضمن القلة من أدبائنا الشرفاء لتسلط القوى المنحرفة .. التى حاولت فى سنوات تحكمها فى حياتنا الثقافية أن تبعده عن جمهوره وعن انتشار كلمته . فى مسرحية «الميت والحى» يكون من بواعث مرض احدى الشخصيات بالقلب .. همومها العامة .. احداث بلدها ومتاعب ناسها ، وهذا الانحراف الذى يسرى فى المجتمع . ولما كان احمد لا يقف عند الحدود النظرية لهذا الحس العام ، بل يتجاوزه الى المشاركة فى مقاومة اهتزاز القيم .. فقد ولدت مأساته . لا لأنه يقف ضد التيار فحسب ، بل لأن استشراء الانحراف جعل المهمة أصعب والتضحية اكبر .. خاصة اذا كان الامناء على الشرف عادة أقل من القليل . تحاول حكمت زوجه أن تخفف عليه ألمه فتقول مهونة : ما انت كمان معاك اللى زيك ، اللى لابيتشعبطوا ولا بيتفرجوا ، اللى بيأدوا الواجب للنهاية . فيكون رده الاسيان : صـــوتهم واطى ، زى ما يكونوا بردانين (ص ٤١) .

وقد عمل سعد مكاوى بوعى أو لا وعى على أن يسد النقص او يملأ الفجوة التى يجدها القارىء عادة فى معظم الاعمال التى تعالج شخصية مكافحة مثل احمد ، والذى يتبلور فى تحديد روح النضال فى حاضر الشخصية فحسب وقطع الصلات القديمة أو السابقة بهذا العنصر فى تكوين الشخصية ، وكأنه لا يتاح لانبثاق هـــذه

الروح الا أن تكون بنت اللحظـــة .. فموقف أحمـد ضد الانحراف وربطه بطفولته : أعطى لهذا الموقف بعـد آخر أعمق فسر مدى أهمية هـذا الجانب فى حيـاته . فهو ليس شيئًا طـارئا بل هو عنصر قديم يلون ملامح صاحبه وتطبعه بطابعه .. الى الدرجة التى تجعـل أصدقاء احمد القدامى لا تفجأون « بصرامته » فى الحق .. لأنه هكذا كان زمان ! انهم يذكرون لهصيحته القديمة الحانقة عندما كان يكتشف كل يوم سرقة أشجار المانجو التى فى حديقتهم « برضه المنجة اتسرقت .. فيه ناس ما تقدرش تبطل الخطف .. الخطف في دمها .. أنا لما اكبر حا امسك سيف وأقطع رقبـــة اللى يسرق واللى بيخطف » .

والطفل الذى كبر وتقدم به العمر ، لا يجد اختلافا بين دنيـاه الصغيرة فى امسه وعالمه الـكبير فى يومه .. الا أن يكون الخطافون قد ازدادوا وانتشروا فى كل أنحاء الحديقة .. والا ان يكون السلاح قد ثلم وأصـــاب قلب صاحبه الاعياء !

وكتابات سعد مكاوى وهى تستقطر معايشة صاحبها المعروفة للحياة بـكل ما تحمل .. جعـــل كتاباته فى السنوات الاخيرة تنتفض بالجديد من القيـم والافـكار والتناول أيضا فى مختلف القضايا . وهذا التطور الواضح أعطى ابعادا جديدة لفن أديبنا ، كما انه من ناحية أخرى جعل لمساهمة أدبائنا الـكبار من الجيل الماضى فى حياتنا الثقافية ، هذه التي ينكرها أدباء اليوم .. معنى ! وهذه الابعاد تنعكس فى أكثر من موقع ، كما نجد فى تنـاوله للمرأة مثلا .

ان ملامح المرأة المصرية التى عرفها سـعد مكاوى فى الاربعينات والخمسينات ، أصابها غير قليل من التغيير.

وفناننا وهو يكتب اليوم يدرك جيدا مظاهر هذا الاختلاف بين فتاة جيله وفتاة الجيل الجديد ، ويعرف كيف يستقطبه فى أعماله . فى مسرحيته « الميت والحى » نلمح فى شخصية حكمت زوج احمد الموظف الكبير فى مؤسسة عامة ، بعض هذه الفروق التى تميز اللاحق عن السابق .. وتضفى على خطواته آثار الخبرة والثقافة وارث الامهات . فحكمت لا ترى فى زوجها الموظف الرجل فحسب ، بل هى تشاركه حياته الخاصة .. انها زميلة كفاح أيضا .. تقف معه فىطموحه الحقيقى ، لا هذا الطموح الذى يهدف الى جلب المزيد من المال ولا يفترق عن الطمع فى شىء .. بل الرغبة فى أن يتبوأ زوجها مكانه اللائق به ، على أن يتفق ذلك مع المثل العليا .. بحيث لا يصيبه الهم فى ليله ونهاره . وعندما تسخر صديقتها ليلى التى يصورها كاتبنا « تقليدية » من هذا الرأى قائلة :

ـ يظهر فيه طموح بارد وطموح سخن وأنا مش عارفة ؟ !

تجيب بقوة :

ـ أنا لو طموح جوزى ضيع كرامته والا هز شىء من القيم اللى بنحترمها سوا مش ممكن أحبه .. ساعتها أقلع له الدبلة وأقول له انت من هنا وأنا من هنا .. الراجل عندى ماهش مركز وفلوس .. الراجل بقلبه وضميره .

ويبدو أن سعد مكاوى يدرك جيدا ان مثل تكوين حكمت المشبعة بالفكر الجديد المتحرر ، لا يزال قليلا لانه يسمعنا تعقيب نفس الصديقة :

ـ ياحكمت ياختى ما أخبيش عليكى .. ساعات لفتك بتبقى صعبة على خالص ! (ص ٣٤) .

وبأسلوب التناول العكسى يلقى المؤلف أضواءه على ليلى ، لنقف على الابعاد الحقيقية لحكمت التى تنكر قيم صاحبتها . فليس من التكوين المستقل الحر للفتـــاة المصرية الجديدة ــ أو لا يجب أن يكون ــ ان تضـع نفسها فى خدمة مطامع زوجها ، وأن يكون جمالهـــا والتاويح به أداة تسهل الصعب وتقرب البعيد فى هــذا المجال . ولـكن زوج ليلى يفعل ، وهى من ناحية أخرى لا تتبرم بهذا الدور ــ رغم زعمها انها مغلوبة علىأمرها ــ الذى يتيح لها أن تلمس مدى تأثير سلطان حسنها على الرجال ويستفيد منه هى أيضا ، وان تعرف عوالم أخرى فى المجتمع ! ويحدث هذا كله بحجة تعاون الزوجين .. « كنت صغيرة وعلى نياتى .. هوا اللى قعد يجرنى فى كل حتة .. بالنهار وبالليل .. ويقول لى الدنيا معـركة والستات لازم تقف جنب الرجالة فى كل حاجة ! » .

واذا كانت المسرحية تتناول شخصية مثل لطفى .. زوج ليلى ـ تعرف كيف تسبح مع التيار ببراعة ، فقـد حاول أديبنا الذى يكره الانماط أن تحمل شخصيـــة دكتور مصطفى النبض الاول للمقاومة ، وذلك باللسان وبالذراع أيضا . فهولا يفتأ بالنسبـةالىالتجارب العلمية الناقصة ، يحذر وينذر من الاعتماد على مسايرة موضــة الاكتشافات ، وكأنها أحد وجوه عصر الآلة المـادى . والعلم بهذا الشكل أيضا يصبح سلطة ارهابية جديدة ، يكفى مجرد التلويح به لاسقاط حق المرء فى الاعتراض أو الانـكار ! ولعل القارىء فى هذا الموضع يستشعر قدرة سعد مكاوى الفائقة للنفاذ الى الاعماق غير التقليـدية للاشياء .. اذ يعبر عن أحاسيس المواطن فى شرقنـا العربى ــ أو الدول التى تأخذ فى بناء نفسها من جـديد مواكبة التقدم الحضارى ــ الذى يهدد دائمـا كناقد

خيلة بسلاح العلم السحرى ، وكأن بلورة هذا التهديد بشكل صيغة حديثة للصراع التقليدى بين الشرق والغرب .. بين الروحانية والمادية ! واذا كان تعقيـــد الحياة المعاصرة يمنع المباشرة ، فلم توضع كالعادة شخصية ابن بلد تواجه شخصية الخواجة .. بل كان الطبيب الباطنى دقة قديمة دكتــور مصطفى هـــو الذى يقف بالمرصاد لاخيه من أمه وأبيه الصيدلى هبة المؤمن باله العلم فقط. يقول الاول للثانى : « ماترفعش انت علمك فوق روسنازى السيف .. مش انت يا أخى اللى تملك الحيـــاة .. احنا اللى نملــكها ..احنا اللى بنكلمك عن الوجـدان والروح والباطن والقلب .. السيف اللى انت ماسكه فى ايدك ياهبة له حدين .. العلم من غير ضمير ومن غير شعور بالمسئولية ممكن يبقى جريمة . فكر فى علمـــاء الذرة اللى ضمايرهم خرست قدام الفلوس وباعوا علمهم للجنرالات وتجار الحروب .. كانت النتيـجة ايه » كسبت ايه الانسانية من علمهم اللى باعوه لاعداء البشر، غير انها عايشة ترتعش من الخوف » . (ص ١١٩) .

الزهور : فبراير ١٩٧٤

حمزة العرب

ما زال نسبة كبيرة من الاجيال الشابة رغم انه كان ما تثرثر أو تتشدق به من الكلمات الضخمة ، تتخذ من الالوان الادبية نفس الموقف التقليدى القديم ، الذى لا يتسق فى جوهره مع ما ترفع من شعارات يتسم ظاهرها بالمعاناة . وهو ما يعنيه تساقطها مثلا وهى لم تستكمل أداتها بعد على ما تسميه بالتجديد فى الشكل والمضمون ، وتحاشيها أن ترتاد الوان حديثة فى أدبنا كالمسرحية الشعرية . ومن الواضح ان اتخاذ هذا الموقف يكشف عن مدى امكانياتها الحقيقية من جهة وما تدعيه من بذل طاقة وجهد معايشة من جهة أخرى. فما أيسر تقليد أحد الاساليب فى الكتابة أو المدارس الادبية ، وما أصعب ان ندرس ونعانى الحاجة الى اكتشاف وسيلة تعبيرية تنبثق من الذات ولا تستعار من الخارج ، تستوعبها حاجة حياتنا الفنية والفكرية اليها .. أبو سنة كما تفعل قلة من هذه الاجيال ، مثل شاعرنا الشاب محمد ابراهيم أبو سنة الذى قدم الى المكتبة العربية منذ وقت قريب مسرحيته الشعرية « حمزة العرب » بعد ديوانين اللذين أصدرهما .

واختيار فناننا لشخصية حمزة صاحب السيرة الشعبية المشهورة ، ينبع من اهتمام أصيل بأدب العوام.

ومن المعروف ان أبى سنة قد أصدر منذ سنوات دراسة عن الامثال البلدية. والذين يعرفون متانة النسج واكتمال الشخوص فى « حمزة البهلوان » على الاقل بالنسبة الى مثيلاتها كسيف بن ذى يزن أو الهلالية ، يدركون الى أى مدى وفق كاتبنا فى اختيار الرواية الشعبيـة ذات الامكانيات الايحائية الـكبيرة .

وفى هذه المسرحية يقدم شاعرنا تصورا جديدا لهذه الشخصية الشعبية القديمة . ولعلها المرة الثانية التى يقدم أديب مصرى مثل هذا التناول لذات الشخصية ، وكانت الاولى عملا روائيا كتبـــه عباس خضر بنفس العنوان . وهذا التصور الجديد الذى أراده أبو سنة ، يعالج احدى الانتفاضات العـربية ضد محتل أراضيهـا وهو هنا كسرى انوشروان . لقد أثار حمزة فى نفوس أهل مكة الثورة ضد المستعمر ، ورغم انه جوبه فى البداية بمعارضة قوية من « الـكبار » الذين خشوا ما يجره هـذا التمرد من غضب كسرى ، الا ان ممثلهم لا يلبث آن يعترف بالمقاومة . « فيا بنى » قد كشفت عن عيوننا الغطـاء . ألقيتنا أمام ذلك المصير ، أمام كبريائنا . اما أفدح الشقاء . يا هولَ ما كشفت من مصير . لـكنه الطريق لا سواه » .

ويجيىء اسهام حمزة فى العمـــل الشعبى والمسرحى على السواء بشكل ملحوظ ، بجانب قضية الخير والشر، فى رفضها للنعرات القومية وتفضيل شعب على شعب . ولا يرجع اتخاذ هذا الموقف الى الدفاع عن العـروبة فحسب ، بل الى المبدأ فى عمومه . ولذلك فهو عنـد ما حمل الدعوة الى المســاواة بين الشعبين العـــربى والفارسى ، امتد برسالته الى جميع الشعوب والاجناس والاديان ، فى حيدة تامة . وهكذا اتفقت المسرحية مـع

النص المستوحى فى أن كلا منهما ، يحاول أن يقيم صلحا بين العرب والعجم يتساوى فيه الجانبين . وينجح هذا الصلح فى الرواية الشعبية ، ولـكنه فى «حمزة العرب» لا يتم . وتعتمد مسرحيتنا الشعرية على نفس شخصيات « حمزة البهلوان » ، فابراهيم أبو سنة يستعين كما فعل أيضا عباس خضر فى روايته ، بكسرى انوشروان والحكيم بزرجمهر والوزير مزدك والاميرة مهردكار ابنة كسرى .. فى الجانب الفارسى . وفى الجانب العربى تتردد الاسماء بعينيها : حمزة وابو ابراهيم أمير مكة وعمـر والنعمان ..

وقد عمـل شاعرنا على أن يزاوج بين الواقع وروح الملحمة الشعبية .. صحيح انه لم يعترف بعنصر السحر او وجود الخضر ـ كما فعل عباس خضر ـ الا ان روح الملحمة لم تأب عليه مثلا أن يدخل بسرعة حمزة فى عراك مع أسد ـ من الطريف ان الاسد وحمزة ظهرا معا على المسرح بشكل مفاجىء خاطف لم يمهد له ـ أو يستخدم العرافة لتمهد للأحداث المقبلة التى تحقق اشارات قارئة البخت تماما !

ولعل هـذه الروح هي المسئولة عن « حتمية » قصة الحب العنيف بين حمزة ومهردكار ، التى بدت بجلاء انها يجب أن تحدث حتى قبـــل أن تتشكل أو نلم بالتفاصيل ! ولعل نتيجة لهذا الحتم من ناحية أن تخففت المسرحية كثيرا من عملية تجسيد الحرب الدائرة والصراع القائم بين فريقيها ، واتسعت المعارك وامتداد خط القتال الا فى خارج الاحداث نفسها ، أى فى « اشـــارات » بدايات المشاهد !

وسواء أراد ابراهيم أبو سنة أن يسقط على حمزة أشياء معاصرة أو لم يرد ، فان المسرحية حملت رؤية

متقدمة بالنسبة لحوادثها .. خاصة فى تناول صاحبها للحرية والمقاومة والمساواة . ولعل الذى أعطى الاحساس بتقدميتها ، انها لم تنبع أصلا من التكوين الحقيقى للشخصيات ، ولم تعجز ما يعتمل فى أعماق شخوصها المنتمية الى عصر بعينه وبيئة بذاتها .. فقد كانت ملامح هذا العصر والبيئة خفيفة الى درجة باهتة . وكان يمكن لهذه الرؤية المتقدمة رغم ذلك أن تؤدى دورا ، لو أنها تمثلت فحسب القيم الانسانية فى الشخصية التى تقدمها فى أطار العصر نفسه ، تماما كما فعل عبد الرحمن الشرقاوى مثلا فى « الحسين ثائرا وشهيدا » ، ولكن ابراهيم أبا سنة لم يفعل.. فتجاهله لحدود الشخصية أضاع عليه أن يستفيد بامكانياته منها .

ولا شك ان التجربة الاولى فى الكتابة المسرحية ، مسئولة عن سطحية الشخوص فى « حمزة العرب » . خاصة وقد قيد شاعرنا حركته وهو يجعل الشخصية الاولى فى كل من البلدين العربى والفارسى ، كأنها هى وحدها التى تمثل جماهير الشعب وتستقطب كل ملامحهم . لذلك لم تعكس شخصية أخرى غير حمزة سماء المقاومة العربية ، التى قرأنا عن تجاوز ثورتها على ولاية النعمان بن المنذر واقترابها من المدائن عاصمة كسرى . وهكذا بدت من ناحية أخرى القاعدة الشعبية التى ثارت وتحارب لا وجود لها .. مما جعل الشخصية التى أراد الكاتب ان تمثلهم منبتة الصلة بوجودهم نفسه . وهكذا أيضا فقدت المقاومة هيكلها العظمى . لقد الفت الفردية التى عكستها المسرحية جموع الناس، ولا عبرة هنا بحكاية المجتمع القبلى .. فان آخر الاشياء التى اهتم بها أبو سنة هو تصوير المجتمع العربى فى جاهليته ـ ساعد على ذلك أسلوب كاتبنا العصرى ، فلم يحاول

أن يجعله يوائم هذا العصر البعيد .. وكان الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة فى المشاهد الاخيرة فى الفصل الثالث والاخير ؛ وبعض الصحاب يقفون بالمرصاد لحمزة وهو يوافق على السلام مع كسرى ويقبل أن يسلم اليه ابنته مهردكار .. الحبيبة التى تزوجها !

ولم يستطع شاعرنا أن يخفف من ضغط أصابعه على قلمه وهو يخطط لمسرحيته ، فترك سن القلم على الورق أثرا واضحا . ومن هنا فقدت الحركة على خشبة مسرح أبى سنة فى كثير من الاحيان ، انسيابها وعفويتها . وبدا الخط الهندسي بارزا يحدد بصورة ملموسة مواضع الفعل ، والهدف الفنى القريب الذى يريده الكاتب من تحركات شخوصه . فظهور بعض الشخصيات يرتبط بمعلومة محدودة يريد المؤلف بها أن يدفع بها الى القارىء أو المتفرج . فالكاتب يستشعر حاجته الى تقديم الشخصية واعلان الملتقى بهذا التقديم بشكل صريح ، فيضطر الى أن يدفع بشخصية تعرف بأخرى وتنطق مثل هذه الكلمات مثلا : هذا ابراهيم أمير البلد ووالد حمزة ، رغم ان شاعرنا أشار الى ذلك قبلا فى « تعليماته » !

« ان حمزة العرب » مهما اتفقنا واختلفنا حول بعض ملامحها ؛ عمل جدير بالاعجاب .

الكواكب : ٢٥-٤-١٩٧٢

ســـــــــولارا

هـــذه مسرحيـــة شـــعرية يكتبها الشاعر السودانى المعروف محمد الفيتورى . يعالج فيها مأســـاة الوجود الافريقى والاستعمار ، متمثلا فى اســـترقاق الافريقيين وشحنهم الى القارة الامريكية .. عبيدا فى حقولها . وزمن المسرحية فى أواخر القرن الثـامن عشر ، حيث يصل جبروت الرجل الابيض فى الاستبداد بقـــــدرات القارة السوداء الى قمته . تبدأ المسرحية بصوت نازاكى المغنى غير المرئى .. يا أحبابى الموتى عودوا .. حتى لو كنتم قد متم . عودوا أنى كنتم .. غرباء فقراء . ان صوته المختلج يبدو وكأنه الدعوة المنتفضة المتوسلة الى الخلاص ، التى ترسلها الارض السوداء . واذا بكورس الموتى يجيب متسائلا عن هوية هـــذا الصـــوت الذى يطرق عالمهم ويزعج رقدتهم .. وماذا يهدف منهم .. كلماتهم الآسية تحمل نبض الحياة البشعة المذعورة التى عاشوها على الارض ، ووقع الاستبـــداد الذى راحوا ضحيته .. وكأنهم لم يتخلصوا بعد من سيطرة قاهريهم وظالميهم . فهم بين موتى مشنوقين وموتى منفيين وموتى مجلودين ، لم يبق لديهم ما يعطوه . لقد أعطوا للعالم دماءهم حتى عظامهم وجماجمهم ، ومضوا مقهورين .. بعد أن استطاع الرجل الابيض أن يلوث أحشاء الغابة .

وتتولد الضجة تصاحبها أصوات مختلطة وزحف أقدام وسلاسل وسياط ، تنطق من خلالها الشخصيات . وتبدأ الاحداث بظهور قافلة عبيد .. افريقيون مغلولون وحراس . ومن بعيد تبدو أسوار القلعة ، محطتهم قبل أن تقلع بهم الباخرة فى الطريق الى تاهيتى .

دميت أيدينا .. أرجلنا
لكنا سوف نسير ..
فوداعا يا افريقيا ..
يا رمحي المكسور
يا افريقيا .. يا كوخي المهجور
يا افريقيا .. يا وجهى المذعور
ساكون بعيدا عنك .. بعيدا عنك
وتنتصب الاسوار
لكنك حتى طعم الخنجر
حتى طعم العار
فى قلبى .. فى عينى
يا افريقيا المفقودة .. ليل نهار ..

ومع الحراس كان تاجرا الرقيق شارلى وادجار .. ورغم القيود والاغلال السلاح .. ورغم السيطرة ، فلم يكن احساس التاجرين خالص الراحة. لقد بدا اذعانهم وسكونهم يتخذ شكلا .. الصمت له أنياب سود وأظافر هذا الصمت الكافر .. يدمينى.. يخنقنى.. ويكسر هذا الصمت المشحون خروج واحد من القافلة محاولا الهرب . ويطلق عليه الرصاص ويسقط ، ولكنه رغم ذلك يتحدى النار ..

لا . يا هذا القرصان الابيض
لن أمضى
لن تخرجنى منها .. فاقتلنى .. أو أقتلك الآن

اقتلني فى أرضي
ويزحف سافو تجاه تاجر الرقيق والدم ينزف منه .. متحديا . ويجن جنون ادجار ويطلق عليه الرصاص مرة أخرى .. ولا زالت كلمات الافريقي تتحدي ..

اغرسنى فى أرضي بذرة
اسقطنى فى فمها قطرة
انثرني فوق روابيها ورقة

وتكون آخر كلماته .. وعيدا .. لعنة أجدادى ستطاردكم . وتظل عيناه مفتوحتين رغم موته تحملقان مما يخيف شارلي .. فيذكر انهما نفس عيون عبيده جميعا الجاحظة كاللؤلؤتين .

ويصلون الى القلعة .. وبينما التجار يحتفلون بنجاح مهمتهم ، فلقد عاد الصائد وجعبته ملأى وسفينته تتراقص فى الميناء لنقل البضاعة .. كان العبيد ينصتون لزميلهم سولارا التى تغنى أحزانهم فى صوت أقرب الى الرثاء .. ستحزن الامطار وتنحنى الاشجار وتبطىء الانهار .. لأنكم لن ترجعوا . ويلتفت تاجرا الرقيق الى خطرها بين زملائها .. ويطالب شارلي بجلدها بالسيف عقابا ، رغم انه بينه وبين نفسه يحمل لها اشتهاء كبيرا ، كأنما يغسله فى حضورها بحر نعاس . ولكن زميله ادجار يدعى أنها ضمن جارياته وعبيده . ويرفض الآخر ويقتتلان . لكن الحاكم يقف بينهما وينتهون الى أن تكون من نصيب ادجار . ويحاول العبيد أن ينقذوا زميلهم رمزهم النقى ـ سولارا . مكسوة نارا . كرمتا دارا . لم تعرف العارا ـ ويفتدونها بكنز يعرفون مكانه « ودعوها فهى ليست لأحد » ولكن الرجال البيض يتجاهلون . ويفتح الفصل الثانى على سولارا .. مسجونة فى القمرة بعد صراع عنيف بينهما

وبين دجار الذى كان يريد اغتصـــــــابها . ولكنهـــا قاومته وصارعته .. ورفضت عروضه بأن يجعلها سيدة تملك قصرا عاليا من الرخام ، قبتـــه تخترق الغمام . وتحاول الخروج او الفرار ولــكن البــاب مغلق ، ولكن أين الرفاق ؟وتسمع أصواتهم من بعيد ..

يا اخوتى أسمعكم ..
لن يذهبوا بنا ..
ستغرق السفينة
ليست بلادنا
غابتنا هى المدينة
لو تسمعوننى .. أواه
اننى هنا سجينة

ولكنهم سجناء أيضا يا سولارا . يعملون فى السفينة وهم مقيدون فى السلاسل .. سجونهم ماء وريح . تدور والسياط حولنا تدور . من سأم الى سأم ، وجهتنا العدم . ويستمرون فى الغناء الحــزين . كان لنا أغنية . وكان ينبوعا .. وكان دارا .. امس الذى توارى .. أواه ياسولارا . وتسمعهم المعذبة وتجيبهم ، ولكنهم يتهمونها بمنح جسدها للرجل الغريب .. العار لها .. أذلنا .. أذلها . وتبكى .. انهـــا لم تخنهم ولم تفعل ، بل هى سجينة . فيضطربون ولكن السياط تلهبهم . وفى قمرة اخرى .. كان ادجار محور سخرية صاحبيه .. شارلى ومارك قائد السفينة ، لانه لم يغتصب سولارا . ويتهمانه بانها قد سحرته .. أرضعته سمها وثارت من قلب أبيض أذل قومها . بل ويشعران انها ثأرت من السادة البيض جميعا .. ويتملكها الغيظ ، ويأخذ انه اليها ويدفعانه دفعا الى الاستحواز عليها ..

ليس وراء المعارك موت

وليس بعد الموت موت

وليست الشخصيات الرئيسية للمسرحية هي وحدها، التى تستجمع بنائها وتشارك فى عقدتها وتخدم قضيتها ، بل تفعل ذلك أيضا الشخوص الثانوية . وربما كان الفرق بين هذه وتلك فى تناول الفيتورى ، ان الاولى تتصارع تصارعا مباشرا ويبدو وقع الخط السياسى والاحتكار العالمى ، واضحا .. بينما فى الثانية ينعكس ذلك فى شكل غير مباشر . فعندما يفتح الستار على الفصل الثالث الذى يبدأ بكوخ عرافة وزبائنها ، نجد أن فى هذا الكوخ أيضا تناقش أشياء سياسية فى صورتها التطبيقية التى تمس حياة الناس العاديين ، والتى لا يمكن أن يظنوها أبدا كذلك . فاحدى النسوة تجيىء تشكو السيد الابيض الذى يريدها، ويكون رد العرافة التى رسمها المؤلف بدقة .. يابنتى هذا حق الاسياد علينا . ان شاء واشئنا ، واذا امروا أذعنا . حتى ثور السيد .. مش السيد مخدوم حتى القبر ! الحكمة قالت ان نصبر .. فلنصبر .. صبر المقهور على القهر . والفيتورى يحول هذا الصبر الى شيء ايجابى . انه ليس مسكنا للتهدئة .. بل علاج وقتى ، فالعرافة ترفض القول ان هذه الارض دنسة ملعونة ، أكلت آلاف الاجساد المدفونة ..

لم تأكل منا غير الاجساد المسكينة
لم تأكل غير الاجساد
لم تأخذ غير رماد
أما الارواح فتنتظر الميلاد

ويستكمل شاعرنا دور العرافة التقليدى ربما لاول مرة فى أدبنا ، بوقوفها بجانب سولارا .. ضد أخيها وقريتها .. انهم يصمونها بأنها أفعى النهر المنبوذة الغارقة فى الوحل .. ضجيعة الابيض التى حملت عارها فى بطنها . وتطلب

الغفران ولكنهم يلعنونها . ويصور الفيتورى هذا الصراع بين الجانبين ، ثم ينقله ببراعة كبيرة ، فيصبح الضعيف هو القوى والمتعالى هو الحقير الجبان . تقول سولارا .. كانت فى أيديكم غلال . وكنت أنا أبكى . وسمعتم ثم تباطأتم ، وصرخت بكل . واستصرخت بكم فلم يسمع أحد منكم . وغرقت أنا فى اللعنة حين غرقتم فى الاوحال . وتكشف عن ظهرها : هنا أثر النيران . وهنا نقش السوط . وكنت أناديكم ، ويداى مقيدتان ولم يسمع حاد منكم . وتمدد فى روحى حزن قاتل . وذهبت فلم أرجع . وغشيت فلم أسمع وسمعتم .. لا لم يسمع أحد منكم . فلقد كانت أيديكم فى الاغلال ..

ـ غفرانك يا سولارا .

ـ يا أحبابى ..

وتنتقل أحداث المسرحية فى المشهد الثانى والاخير الى تاهيتى والى مقـــر حاكمها ، والثورة الفرنسية قد أعلنت . وتاجرا الرقيق شارل وادجار وقائد السفينة يفجأون بقيامها . ورغم ذلك فلم تتأصل بعد روحهـا فى نفس الحاكم الفرنسى ، وكأنها لا تعادى نظام العبيد . فيسجن افريقيا هو بوكمان خادم أحد ملاك الجزيرة ، لانه يثير رفاقه السود على أسيادهم ، ويهرب . ويقود الثورة ضد البيض ، وينجح وتكون كلمة .. ســـولارا .. هى التميمة المضيئة ..

الادباء العرب : اكتوبر ١٩٧١

إبراهيم عبد القادر المـــازنى
فـــى بيـــت الطـــاعـــة

يبدو أن الحظ يلعب دوره لا فى حياة البشر فحسب بل فى حياة الكائنات الاخرى غير العاقلة أيضا ، والا فما معنى أن تسلط الاضواء كلها على عمل وتتجاوز غيره له نفس المستوى وربما يكون لذات الكاتب ، بلا مبرر يجيز هذا الاهمال بالنسبة للثانى ؟ فى مجـال الانتـــاج الادبى والفنى مثلا تغاضى النقاد عن العمل المسرحى ،لهذا الرائد الذى يعد أحد أعمدة الادب العربى الحديث والذى لم يذكره أحد فى ذكرى مرور ٢٣ عاما على وفاته أو ٨٢ سنة على ميلاده ، فى هذا الشهر .. رغم أن ابراهيم عبدالقادر المازنى كان أيضا من أعظم الصحفيين الذين اعتمدت عليهم صحافتنا زمنا طويلا .

واذا كان من المعروف أن كتابات المازنى تنبض دائمـا بهذا الجانب أو ذاك من حياته الخاصة ، فان مسرحية « حكم الطعة » لم تشذ عن هذه القاعدة فصاحبها كمـا يقول د . محمد منـدور فى الكتاب الذى ألفـــه عنه : « اجتمعت له الصفتان اللتان يرى فيهما الكاتب الفرنسى الكبير جورج ديهامل أهم خصائص الموهبة الادبية ، وهما الدعابة الساخرة والروح الشعرية ، وبهما أنقذ أدبه الذى يكاد يدور كله حول شخصية ومشاكل حياته . فأدبه أدب شخصى لا موضوعى ، ومشاكل عصره أو مجتمعه

التى يعرض لها ؛ لا ينظر لها فى ذاتها وانما يراها من خلال نفسه ، ويلونها بلون الواقع الذى أحدثته فيها » .
لهذا كان اتصال موضوع المسرحية ــ وهو ليس شكل بيت الطاعة نفسه سواء بسلبياته أو ايجابياته ، بل الوفاق بين الجنسين ــ بتجربته الشخصية اتصالا وثيقا وصريحا . وقبل أن نعرض لهذه التجربة بقلم صاحبها نفسه ، نقدم تفسير المازنى لهذا الوفاق الذى ألمحنا اليه. يقول فناننا الكبير : الوفاق بين الرجل والمرأة لا يكون الا اذا فهم كل منهما طبيعة الآخر وما يتطلبه كل من الغريزتين .. ان غريزة حفظ الذات فى الرجل أقوى ، وان حياة المرأة مدارها وقوامها غريزة حفظ النوع على الاكثر .

وينتقل أديبنا من العام الى الخاص ، ولا يجد غضاضة فى أن يضع ذاته تحت عدسة المجهر وعين القارىء معا ، فيكتب : جربت الامر بنفسى ، ووقعت فى مشاكل الجهل ولم ينجنى من عواقبها السيئة الا التوفيق الى درس طبيعة المرأة وغريزتها . فقد تزوجت أول ما تزوجت وأنا فى العشرين لا أعرف عن المرأة الا أنها أنثى ولا عن الزواج الا انه وسيلة مشروعة لتعارف الجنسين ، فقضينا لاثث سنوات ونحن فى جحيم لا تخمد ناره ، ولا ينقطع عذابه . فكاد يجننى اننا بدأنا متحابين فما هى الا شهور حتى صرنا الى شر ما يمكن أن يصيب زوجين من النفرة وقلة الاحتمال وعدم الاستعداد للتفاهم والعجز عن اصلاح الفساد . ورغم ان المازنى أصلح الحال بينه وبين زوجه هذه بعد ذلك ، وعوضها كما عوض نفسه عن آلام تلك الايام والسنوات .. الا ان هذه القضية ولعلها بسبب ذلك ، قد شغلته الى درجة كبيرة ، وكان انعكاسها فى هذه المسرحية الوحيدة التى كتبها .

والشخصية التي جعلها المازني تستحضر هذا التكوين، الذي يستقطب مأساة الاهتزاز الوجداني بين الزوجين ، هي شخصية ليلى .. الضائعة بزواجها الذي نكبت به وفيه ، والذي يبلغ من بغضها له أن يكون مجرد تواجد الزوج أمامها . مدعاة لاصابتها بنوع من الانهيار النفسي . لقد تحول شخصه وكل ما يصنع الى أشياء تثير غثيانها حقيقة بالفعل لا بالقول ، وخاصة فى هذا الجانب الذي ينفعل بالتوحد العاطفى ، أو كما يجب أن يكون . لذلك كان لمس أصابعه أو قبلته مثلا .. عملا يثور له عصمها ويقربها من حافة التأزم ، لدرجة الانسحاق ... هي تكابد اذن . وهذا الموقف يقود بالتالى الى تمزق الروابط والرغبات التى كانت تتفق ولم يعد يجمعها واياه الاصلة الورقة الرسمية .. قسيمة الزواج.

ولقد قاست ليلى محنتها ثلاث سنوات ، عمق مجراها انها لم تنجب أيضا ـ تماما كما حدث فى الواقع الحياتى للمازنى فى زواجه الاول . ولقد تفادى كاتبنا أن يجعل الشخصية أفقية ، ولذلك اتسمت بعمق واضح . ومن هنا جاء وعيها مثلا بحجم مأساتها . فانسحاقها لم يجعلها تطامن من وجودها خافضة الرأس محصورة تحت ضغط الضربات ، بل أمدتها طبيعتها بما مكنها من أن ترفع التفكير فى الموقف الدامى ، الى فوق مستوى سطحه ، فتقول ليلى : نسيت سرور النفس حتى لأنكره فى وجوه الناس .

ولكن للعوامل الخارجية أيضا دخل فى أن تتخذ مساراتها . فقد تدخل تسلط الرجل وحرمان المجتمع للمرأة من أبسط حقوقها ، وخاصة فى زمن كتابة المسرحية فى الثلاثينات ، ليجعل الزوجة تحس بعدم الانتماء للمكان الذى يضمها هي وزوجها . فهو ليس بيتها أو بيتهما

المشترك بل بيته هو بالتحديد ، ولعل هـذا كان أقسى ماتواجهه ليلى . فهى تحس أنها ضائعة تائهة ، لا تجـد تحتها ماتقف عليه أو تطمئن الى قدمها منه ولا يعرضها للانزلاق . وإذا كانت شخصية ليلى تعكس بشكل عام قضية المرأة المصرية ، الا انها تبلور بالذات ما ينبض به الجيل الجديد من تمرد على التسليم القـديم ورفضه ، ومواصلة أسلوب الاماء ، والايمان ان واجباته تقابلهـا حقوقه . ان ليلى تصرخ وسط مأساتها وكأنها تكشف عن أو تلعن ظالمها « انى متعته ، ولكنى أنا ليس لى متعة ، ليس لى حساب لا يدرك أنه هو أيضـا ينبغى أن يكون متعتى » .

ولقد أعطى المازنى لتناوله بعـدا هاما ، وهو يختـار بمقياس ذلك الحين مجتمعا منزليا بعد جديدا وشابا ، رغم أن ربه اذا أسقطنا عنه جلده النظيف وثيابه الانيقـة وعباراته المنتقـــاة الرقيقة وثرثرته المثقفة ، لوجدناه لا يختلف فى مفاهيمه الاجتماعية الجامدة عما كان يؤمن به من أبوه وجده ! ويبرع فنـــاننا الرائد فى تصوير شخصية فؤاد ، لدرجة أن القول المعروف الذى يستخدم فى اتهام المرأة التقليدى « الزوج آخر من يعلم » يبدو له هنا استعمالا آخر بعيدا عن الخيانة ! لان فؤاد مطمئن لتقاليد الامن القريب والبعيد ، كان يجهل أن ما يلتقط أحيانا من ضيق زوجه ، يشكل شيئا شديد الخطورة حتى ليدفعها فى النهاية وهى الانسانة الفقيرة الى طلب الطلاق ومغادرة البيت .

ومن الطريف أن المازنى جعل بقدرة ليلى ، ان تستطيع تجاوز السطح الى الاعمـــاق ، وان تدرك مكمن العلة وخطورتها ، وأن تعى موقفها .. بينما لم يستطع فؤاد أن يفعل شيئا من ذلك أبدا ! ومثل هذه السمة تشير الى

ملمح يتخذ شكل الظاهرة فى أعمال الجيل الاول من الرواد، فى القصة والمسرحية ـ ولنذكر انتاج عيسى وشحاتة عبيد ـ وهى نفاذ المرأة بذكاء ووعى ، الى بواعث الآلام ولب القضية الاجتماعية بعكس الرجل . وهى فى قطبها الاول اشادة بانفتاح فتاة الجيل الجديد ورؤيتها الموضوعية .. بينما هى فى قطبها الثانى ادانة لاستبداد الرجل الشرقى!

واذا كان منطق المازنى يبدأ من دق الاجراس لخطورة قضية عدم التآلف الزوجى ، الذى يعمل على تحطيم بنية البيت المصرى .. فلم يكن من الممكن أن يكون الصراع مقتصرا على الزوجين وحدهما .. فان المجتمع أيضـــا وخاصة اذا كان يحافظ على قديمه جميعا بلا تفكير أو تمييز وبغض النظر عن روح العصر ، بالمرصـاد لكل من يخرج عن طريقه .. يعده ناشزا يستأهل العقاب . لذلك فان ليلى عندما رفضت أن تئد نفسها وروحهـا فى أسر الزوج اللاهى، الذى يعد امرأته مجرد كائن جميل لا عمل له الا أن يكون فى خدمته ساعة الطلب ، كان تساؤل المجتمع المندهش : اذا كان هو أى الزوج ملالا منها ، فماذا تريد هى أكثر من ذلك ؟!

وعندما يجد المجتمع صلابة المقاومة التى لا يقتنع باعثها، يعمد الى الملاينة . والى الاحاطة بالشخصية فى محاولة للمكر بها وايقاعها فى حبائل دهائه.. ويرفع شعار الحفاظ على سلام البيت ، الابقاء على عش الزوجية ، كراهية الطـلاق . يطلب منها المجتمع ان تتناسى ما كان ، وأن تتجاهل ما مر . وعندما تتساءل بطلتنا : ولكن على أى أســـاس وتحت أية شروط ؟ يهرش المجتمع رأسه غير فاهم ، لانه أصـــلا لا يجد فى موقف الزوج غضاضة ، وبالتالى لا وجه لادانته .. ولكنه رغم ذلك يعاود أسلوب المهدىء ، الذى لا يريد أكثر من تلطيف الالتهابات بفض،

النظر عما يسري في الجسد والروح من أخطار سيئة . ولكن الشخصية التي لم تتخذ قرارها الحاد ، الا عندما فقدت الامة في أن تهز أعماق السيد « الاقطـــاعي » ، تواصل مقاومتها المستميتة . انها تريد أن تعيش حياتها في نطاق القانون الانساني الذي يتجاهله الناس ويتعامون عنه . ان ليلى تصرخ ، وكأن الصراخ أيضا نوع من السلاح الذي يمتلكه الفقير .. ان لي حياة واحدة لا ثانية لها ؟ ليت لي حياتين . اذن لضحيت بواحدة ، أذن لجـدت عليه بالاولى على رجاء ان تكون الثانية أسعد وأرغد ، ولكن حياتي الواحدة تتمزق ، وليس للعمر من يرفوه كما ترفى الثياب القديمة . ليس للحياة من يرقع فتوتها كما ترقع الاحذية البالية ؟

ويدرك المجتمع عندما يفشل التلويح بأسلوب الوعد ثم الوعيد ، ان عليه ان يلجأ الى ما يملك من ألوان الردع والعقاب . ويجده في السوط الذي أسماه بيت الطاعة . ان الزوجة التي تخرج عن طاعة ولي أمرها العمياء لايبقى لها من وجهة نظـــر التقاليد الرسمية الا ايلام الجسد والروح .

وعندما يجابه المجتمع بأن هذا الايلام يصل الى حد الاذلال لا يمكن ان يتفق ابدا مع كرامة انســـان وحق الزوجة .. تكون الحجة أن الضرورات تبيح المحظورات وان الاعمال بالنيات ! .. وهكذا استخدم فؤاد هـــذا الســـوط بشعبه من رجال البوليس والاكراه وأسلوب التسليم والتسلم ، في جلد مشـــاعر ليلى ونفسيتها وكبريائها بلا رحمة ، وكأنها الذبيحة تساق الى الجزار ، ويتمشى الالم في أرجاء النفس الحزينة .. وتتساقط حصون شجاعتها ومقاومتها حصنا وراء حصن وهي وحيدة تكاد مقطوعة من شجرة ، الا من ابن خالة فقير بلا ظهر

يسند ويقوى ، ولكنها لا تستسلم رغم كل أمواج البحار التى تأخذ عليها حركتها . تضرب عن الطعـــام وتهرب وتطارد ، وعندما تجد عبث هذا كله .. تقدم على الانتحار وتلفظ أنفاسها . ان ميتتها ليست استسلاما بقدر ما هى ادانة واحتجاجا .. « لست دمية . لست منحـــوتة من حجر ، انما أنا امرأة حية ، أمرأة لا تطمع فى أكثر من أن تحيا كامرأة ، امرأة لا تستطيع ان تغير أنوثتها » .

ان قارىء « حكم الطاعة » يستشعر فى كل خطوة مدى اخلاص المازنى للقضية التى يتناولهـــا ، وكيف كان صاحبها ينوء فى حياته الخاصة يحمل أثقالها وآلامها .. الى درجة تسلطها فى نطاق اللاوعى أيضا ،والمؤلف لايكتفي بالشخصية الرئيسية التى تنبض بالمأساة ، بل يسوق الينا كذلك شخصية الخادم فريدة ، هـــذه الفتاة التى عرفت القيود هى الاخرى ، ثلاث سنوات ــ أيضا ــ ولكن فى السجن الحقيقى هذه المرة .. بتهمة تبدو كاذبة ، وهى خنق وليدها الذى يبلغ من العمر يومين .. خطأ ! وكأن فناننا يؤكد بذلك مدى الحصار المضروب على عواء فى بلدنا فى كل المواقع ! ..

لقد مكنت ابراهيم عبد القادر المازنى تجربته من أن يقدم واقعا داميا وأن كان حيا موحيا . وعندما يسدل الستار الاخير ، نتذكر قول أديبنا عن الحب والحيـــاة : « ان المرأة هى قوام الحياة ، والحب هو المحـــور الذى تدور عليه الدنيا ؛

لا تصدق الجغرافيا ، ولكن صدق التاريخ . ألم تسمع بأنطـونيو وكليـــوباطرة ، وباولا وفرانشســـكا ، وروميو وجولييت ، وليلى ومجنونها » ؟ ..

الكواكب :

النجوم والليل الطويل

تصدر وزارة الثقافة السورية سلسلة أدبية جديدة باسم « المكتبة المسرحية » ، وقد استهلتها بعمل لرياض عصمت يحمل بصمات نكسة ١٩٦٧ ــ كتبه صاحبه فى العام التالى مباشرة ــ والتى تجسد تلك الايام الثقيلة التى تنفسها الشعب العربى اثر مأساة حزيران . اذ هى تبدأ احداثها الرئيسية بقتل المحتل الاسرائيلى لاحد المناضلين بالكلمة والسلاح . ويصور رياض عصمت هذه الشخصية بمدى ما ينعكس على الآخرين من آثارها الكبيرة .. فقد كانت لهم بمثابة المعلم والاب رغم شباب صاحبها ، وتهز رؤية مريم لجثة زوجها نفسها هزا حتى لتقترب من الهاوية التى ترفض وتيأس من الحياة . لقد كان يوسف كل شيء فى حياتها ، فلما مات لم يعد للعيش قيمة . ويعمل مؤلفنا وهو يوازن بين معانى العبث والعدم وبين ما تفجره الحياة ، على ألا يتجاهل فى الزوجة جنسها سواء بتبعية المرأة العربية التقليدية للرجل ــ يكرر المؤلف هذه التبعية مرة أخرى فى شخصية ثانية هى الفتاة فى مشهد العاشقين ــ أو بأحزانها النسائية أيضا . تقول مريم لاحد أصدقاء يوسف الذى حاول أن يمسح آلامها : هل تدرك شعور النساء الثكالى فى السواد ، هل تدرك شعور أرملة واحدة ؟ .. شعور

من غير لون الحداد ؟.. ويصبر فناننا على أن يصور مريم دائما هكذا « نحن النساء نرث بدل أن نكسب .. نستسلم بدل أن نقتنع . وهذا الاصرار لا يمضي عبثا ، فمن هذه التبعية التي تشي بعدم اكتمال الشخصية ونضجها ، ينبع تخاذل صاحبتها التي ربطت كل مايجري في حياتها بالزواج .. فلما قضي لم تستطيع أن ترفع رأسها فقد تهاوت بالنسبة لها الاشياء جميعا . ورغم أن المؤلف عمل على أن يدخل في الصراع الذي يدور في نفس مريم أفكار يوسف ومبادئه عن طريق الحلم أو نفث الروح في الجسد الميت لدقائق ليقول صاحبها كلمته ثانية ، الا ان الارملة بدت غير مقتنعة بالنضال رغم أنها كانت قد استسلمت في « الحلم » لمعاودة الكفاح كما كانت في حياته وفقا لمثله . كان تمزقها يجعلها ترتبط بالضعف والوحدة والعجز التي تحيط بها ، بحيث لا تستطيع مقاومة رغم الايدي التي تمتد اليها من تلاميذ زوجها وأصحابه ولما كانت تتحصن أيضا في عزلتها بما تظن من انهيار الناس العاديين في المدينة، فقد فوجئت بقدرة هؤلاء الناس على استجماع شتات نفوسهم التي فرقتها النكسة ، ومعاودتهم الكفاح ومعاداة الاحتلال جهرا ثانية . أن الحياة العربية تتأهب مستيقظة للنضال مرة أخرى . وازاء هذه اليقظة مع مطاردة القوات الاسرائيلية للفدائيين اللذين أوتهما في بيتها .. تتفتت عوامل الانهزامية التي تحيط بها وتصطدم في صراعها مع هذه القوات وجها لوجه .

وكاتبنا المسرحي لا يعتمد اعتمادا كليا على احداث المسرحية في تطوير ما يريد تناوله ـ هل لسخونة الموضوع وقربه ؟ .. هل لعدم اكتمال الاداة الفنية ؟ .. هل لان فناننا يريد أن يؤكد اتساع رقعة المأساة التي تحط على كل موقع ؟ ـ ولذلك فهو يستعين بعوامل مساعدة تجعل

ظلال النكبة تنطلق فى أكثر من اتجاه وتستوعب أكثر من شخصية غير رئيسية ، كما فعل فى مثل مشهد السارقين أو العاشقين ..

وكأنه يريد أن يقول كيف استولت المأساة على الجميع .. مختلف الطبقات والمستويات . ففى المشهد الاول نجد ان اللصين يشاركان المدينة المحتلة أحزانهـــا ، فيضربان عن السرقة فى هذه الارض التى يحكمها الطغاة ويغتالها الحزن والليل والوحدة .

اللص الثانى : بقيت مرتعا لقدرات اللصوص والقتلة .. لأمثالنا .

اللص الاول : اخرس يابن الكلب . ليسوا أمثالنا . نحن اشرف !

اما فى مشهد العاشقين فنحن فى طبقة أخرى رغم نفس الآلام . الشاب أديب فنان كان يكتب كثيرا ، ولكنه اليوم خالى الوفاض ممزق ، لا شىء فى نفسه يستحق ان يقال ولا شىء فى العالم حتى الحب .. « انى أخجل أن أفكر بالحب .. حتى بالحب اليوم . هناك أشياء أهم ، وعذاب أهم » ..

الفتاة : والاخلاص عن طريق الحب ؟ لا يمكن ان نهنأ بلحظات فرح نادرة ؟ بلحظات أمل قليلة ؟ ..

الفتى : لا . حتى الحب أضحى مستحيلا هذه الايام .

ولكن العاشقة تسير رغم ذلك مع صاحبها ، فاذا كان الحب مستحيلا فلتمشى معه على طريق الالم ؟ ..

واذا يستخدم رياض عصمت الكورس القديم فى شكل ثلاث شحاذات عجائز يقمن بعملية النادبات ، فقد جعل مهمتهن أيضا أن ينطقن بلسان التقليديين .. فالخطايا التى ارتكبناها ضد السماء هى السبب الاول فى النكسة ..

وكان الجزاء العادل .

مريم : تسمين مصرع الآلاف من رجالنا تحت أرجل الطغاة .. جزاء عادلا ؟ تسمين تهديم البيوت على العجز والنساء جزاء عادلا ؟ .. لا .. لا . لا .

عجوزا : بل نعم . نعم . فكلهم خطاة . كلهم ..

ولكن بطلتنا ترفض ، بل تثور ضد هذا المفهوم الذى لا تجده يصل الاسباب بمسبباتها ويجعل السماء دائمـا كذلك فى صورة قاتمة .. لا .. لا .. لا يمكن أن تكون السماء بهذه القسوة . لايمكن أن تدمرنا السماء من أجل النقاء لا يمكن أن تحرقنا السماء لانها تحبنا . السماء تطهر لا تدمر . السماء ان كانت هكذا لاصابنا الجنون .. نعم الجنون .. لا .. ليست السماء ... انه عبث القـدر . نعم انه عبث القدر . ان يأسنا من عبث القدر .. ليست هناك وراء القتل حكمة .. هو مجرد ضربة منجل حمقاء عمياء بلا عدالة .. لا .. لم يتخل عنا الاله ..

ان « النجوم والليل الطويل » واحدة من نفثات الصدر التى يحمل صاحبها بأمانة هموم قضايا بلده ..

الكواكب : ١-٢-١٩٧٢

ثائر ليبي في مسرحية
لمصطفى محمود

في بعض الاحيان يعكس الالتفات أو الاهتمام بجانب ما . ما نستشعر من نقص ازاء أو في هــذا الجانب بالذات .. لانه يشير الى مدى الحاجة التى يتطلبها استكماله . ولعل فى تناول مصطفى محمود للثائر العربى الليبى غوما وهو شخصية غير معروفة خارج حدود بلادها ، مايؤكد ضرورة الاحتفال الكبير بالاحتكاك المباشر بين الاقطار العربية بعضها بعضا ، وخاصة دول اتحاد الجمهوريات العربية .. هذا الاحتكاك الذى يعد استجابة وبلورة حقيقية للآمال والاخوة العربية .

ويبدأ زمن المسرحية بعود طرابلس الغرب أو ليبيا الى الخلافة العثمانية ، بعد أن هزمت تركيا قرة مالى الذى استطاع أن يقوم فى المغرب العربى ، بالدور الذى نهض به محمد على فى المشرق العربى . وبعد أن وصلت قوته البحرية مثلا الى أن تأسر السفن الاوربية ويجىء نابليون بونابرت اليه متوسطا لاطلاق سراحها ! .. كما أغرقت سفنا أمريكية . ولكن انحلال الدولة وترف قادتها وعدم تمثلهم لمطالب جماهير الشعب .. عرضها للضياع .

وقيام الخلافة العثمانية وتسربها الى أقصى الخلايا فى البلدان العربية ، التى يحكمها الخليفة فى العاصمة التركية من خــلال شعب عربى هو الشعب الليبى ..

يشكل أحد المحاور الرئيسية التى تقوم عليها مسرحية « غوما » ، وتأتى أهمية هذا الاختيار الموفق ، فى انه يفجر طاقات وامكانيات الشعوب العربية التى ناهضت مستبديها .. ليس هذا فحسب ، بل لانه يعالج هذا الصراع المرير الذى التهم قرونا طويلة من عمر هـذه الشعوب التي وقعت تحت نير الخـلافة التركية ، ولم تخلص منه الا مع الربع الاول من هذا القرن الذى نعيش فيه ! كان المواطن العربى سواء الامى أو المثقف ، فمزقا بين الحفاظ على الصلة التى تربط بهذه الخلافة أو التنكر لها . كان خاقان البرين وسلطان البحرين يمثل الدين والدنيا معا . يحكم باسم القرآن ويستبد باسم الاسلام ويستخدم العقيدة لتمكين سلطانه الفاشم على الرقاب . وترفض قلة من المواطنين المستنيرين وخاصة مع بداية عصر النهضة أن لا يفترق الاحتلال عن الخلافة ، وأعلنوا العصيان على هذا النوع من التجارة بالدين الذى شـل حركة البلاد العربية وجمـدها مئات الاعوام .. ولولا أصالتهـا الحقيقية لما استطاعت أن تتـابع تنفسها ، ولنجحت على الاقل حركة التتريك التى حاولتها الخلافة العثمانية قرونا كثيرة بلا فائدة .. « ان الخليفـة العثماني يحكمنا باسم الاسلام .. فأين مساواة الاسلام والدولة نصفها سادة ونصفها عبيد » كما يقول غوما شيخ قبيلة المحاميد وبطل مسرحيتنا .

واذا كان المعسكر الحاكم بصورته التقليـدية المتسلطة يستغل الدين طلبا للمزيد من أحكام قبضـة السلطة وتكميم الافواه ، فان مصطفى محمود يجابه عملية لوى العنان المضادة هذه بوضع معاييرها فى مسارها الطبيعى .. وهنا يتحول الدين من مفهوم نقمة الى نعمة .. أى يجد فيه المواطن ما يدفع الى مقاومة المستعمر واجتناء

احدى الحسنيين . ولا يكتفى كاتبنا بذلك بل ويعمل على أن يجلو فى بعض الاشكال المهتزة للعبادة عند الناس .. جوهر العقيدة . وهكذا اشترك رجال الطرق الصوفية وهم فى مواكبهم فى الاعمال الفدائية .. متسترين بمظاهر هذه المواكب . واذا أشرك صاحب « غوما » رجل الدين فى العمل النضالى البدوى ، فلا يعنى هذا انه تجاهل رسالته الاولى ، لذلك نجد احدى الشخصيات تقول لعالم يعتزل الناس مؤلفا التفاسير والشروح الدينية التقليدية ، انه ليس هكذا يفعل رجل الدين الحقيقى وبلده تناضل محتليها . وعندما يتساءل الشيخ منصور وهو ضرير .. كيف ؟ يكون الجواب البدهى البسيط : تقوم بعملية اشعاع روحى .. فأنت تدخل كل بيت وكلمتك مسموعة وتستطيع أن تجعل من كل منزل خلية ثورية وثكنة عسكرية ..

وفى نطاق مسئولية الفن وحقه فى تفسير مايعن له بشكل تقدمى أو محافظ ، يختار مصطفى محمود الرؤية المتطورة التى تشى برحابة عالم الشخصية وأصالتها المميزة .. فأهل زمان كان لهم أيضا مبادئهم وبعد نظرهم وشموله ورهافتهم ، وهكذا تتفتح دنيا غوما عن ايمان صارم بقضيته يرفض لها أن تهتز وخاصة بعد هربه من منفاه . أن الاثنى عشرة سنة التى عاشها سجينا بعيدا عن وطنه ، لم تملأ قلبه بالحقد الا على الاستعمار التركى لا الاشخاص الذين خانوه أو عذبوه . ولذلك فهو يرفض وقد وقعت فى أيدى قيادته فى كثير من معاركه مايعد غنائم حرب ، الاستحواز عليها .. مؤمنا « اننا لسنا قطاع طرق ولا لصوص .. نحن نحارب للحرية وليس للسرقة » . وداخل أطار هذه العقلية ، يناقش كاتبنا أشياء تبدو شديدة العصرية ، مثل محاولة غوما

اعطاء ثورته شرعيتها بسلوك رجالها ..أمام العالم وعندما ينكر أحد ضباط بطلنا عليه ذلك .. لان أحدا لا يهتم بالشرعية وعدم الشرعية فى عالم من القتلة والسفاحين ، يكون جواب غوما : ولكننا شرفاء ونحن نقول بأننا شرفاء .

ومع صورة المحارب الانسان التى يقدمها مصطفى محمود لغوما ، الا انه فى نفس الوقت يعطى لها ملامحها الشاعرية فيجعله لا يجد غضاضة وهو يسير مع الحراس ، فى أن يحلم بعينين مفتوحتين مع القمر ! وعندما يدهش بعض أصحابه لهذا الملح ويرونه مناقصا لتكوين القاتل .. يجيب .. وهل الفروسية الا شعر .. ان الفارس اذا فقد قلب الشاعر لم يبق منه الا الجزار والسفاح والقاتل .. ونحن لسنا قتلة يا عبد الجليل .. نحن عشاق أحببنا بلادنا لدرجة الموت . والعمل الاصيل لا تتوقف امكانياته عند حدود عالمه الخاص الذى يقدمه ، بل هو يملك دائما أن يفسر بحقائقه مواقف « فنية » أو حياتية أخرى .. لدرجة يبدو صدقه احيانا كأنه نوع من الاسقاط الدقيق على حاضر الايام تماما كما نجد فى مسرحية مصطفى محمود هذه ، وصاحبها يتناول الاسلوب الامثل الذى يجابه به غوما متطلبات القتال وقد كسب احدى المعارك بينه وبين العثمانيين الذين رفعوا الراية البيضاء عارضين السلم والمفاوضة .وعندما يوافق الثائر الليبى على مبدأ التفاوض ، يثور به بعض زملائه بحجة انه ليس لديهم للاتراك سوى الحرب حتى آخر جندى . ولكن غوما ينكر هذا المفهوم القاصر ، فالسلاح وحده لا يجدى ولابد من السياسة . ويرفض أن يعنى أو يكون التفاوض أو الاسلام تسليما .. يقول : نحن لا نحارب وانما لنا مطالب وأى فرصة للحوار يمكن

أن تكون مكسبا .. لسنا وحوشا فى غابة لا نملك ما نتخاطب به سوى المخلب والناب ،هذه بربرية وليست عسكرية .

ولا شك أن مسرحية « غوما » من الاعمال «التاريخية» القليلة التى حاولت وهى تعرض الواقع العربى أن تنفذ الى ما تحت السطح .. فالانسان الليبى أو العربى كما يقدم مصطفى محمود .. ليس شخصية مقلوبة مضطربة فى ملامح جاهزة ، بل هو شخصية حية تملك أن تقيس الاشياء بنظرة متكاملة وليست جزئية لا تنظر الى أبعد قدميها .. ولذلك لم تكن الثورة على الحكم العثمانى شيئا مجرد تنطمس فيه البواعث ، بل كانت تشكل مطالب جذرية تفسد على الجماهير حيواتهم فى شكلها العام والخاص . ولا شك أن شروط الجانب الليبى فى حوار الصلح مع ممثل الوالى التركى ، تفسر الكثير من هذه النظرة الكلية التى تظهر اليها .. فقد كانت تخفيض الضرائب وادخال العرب فى وظائف الدولة وقيادات الجيش ، والغاء امتيازات الاتراك ، والافراج عن المسجونين والمساواة امام القانون بين العثمانيين والليبيين . طالب « قيادة الثورة » بذلك ، ايمانا بأن لا وسيلة الى هدم بناء التسلط التركى الا بالتسلل الى داخله .. كما يقول غوما .

وقد استطاع مصطفى محمود رغم اعجابه بالثائر الليبى ، الا يتغاضى عن عوامل ضعفه التى أفسدت عليه فى الفترة الاولى من ثورته أن يجنى نتاجها كاملا .. وكان ذلك عندما ظن أنه يستطيع وهو يقبل المنصب الحكومى الكبير الذى عينه فيه الوالى التركى ، أن يجعله مكسبا ثوريا ينطلق منه الى آفاق أبعد فى النضال . ولكن الوظيفة بعالمها وراتبها وقدرتها على الرفع والخفض ،

كانت هي الاقوى .. والنتيجة تحقيق نظرية واحد من الذين خانوا ثورتهم ، من أن أرخص طريقة للقضاء على الثوار هي تحويلهم الى موظفين .

ولعل اتخاذ كاتبنا من تغيير الدولة نقطة انطلاقة مفاجئة للأحداث والثورة .. جعل مقاومة البطل الليبى تبدو حركة بلا خلفية .. وكأنها انبثقت فجأة من العدم وانبثق معها هذا الوعى المكتمل بضرورة التمرد المسلح .. توكيدا للذات وانكار للتسلط وتلهفا على قيم جديده حرة كريمة . كان يمكن لهذه الاحداث أن تقوم بحفر مجراها الطبيعي المقنع ، لو أشارت الى أن عملية الحفر هذه بكل ما تحمل من مناخ عام ينفض بالغضب على المستعمر، قد بدأت تأخذ خطوتها نحو التبلور من قبل ! .. ويكون تحرك المسرحية انطلاقا طبيعيا مبررا لما تنتفض مع أعماق الجماهير العربية التى ران عليها الاستسلام والجمود تحت ضغط الظروف القاسية .

وهناك أشياء خفف مصطفى محمود من قبضته عليها ، ولذلك خرجت على سيطرته . ولم يستطع مثلا ان يجعل شخوصه غالبا تتقمص ليبية الشخصيات .. لسبب بسيط هو أن صاحبها لم يخرج عن اهابه المصرى . ولعل اللهجة المصرية التى استخدمها كاتبنا قد شارت هى الاخرى فى توكيد هذا الملمح ، بعكس الحال اذا كانت الفصحى هى لغة الحوار دائما . وقريب من هذا استخدام فناننا للأوصاف العصرية فى حواره وسرده ، غير ملتفت الى انه بذلك يقطع السياق ويخلخل الازمنة ، ويستعين بأدوات فى غير محلها .. كما فعل بكلمات مثل .. رأس حربة ، المطعم الشعبى ، خلية ، الاعلام .. الخ .

لقد استطاع مصطفى محمود رغم تناوله من الخارج

أحيانا ، أن يجسد فى هذه الشخصية .. البطولة العربية المستميتة التى لم تبدأ يوما وهى تنفث قيمها النبيلة ، ان صرخة غوما فى معركته الاخيرة وقد تساقط الشهداء حوله كانت .. الظلم مفترس .. جندا الظلام كثيرة بلا عدد .. وباه انت عندك المدد .. لوكو جحفل الظلام ألف عام .. لابد طلعة النهار مقبلة .. وهى صيحة الحرية فى كل زمان ومكان ..

الكواكب : ١١-٧-١٩٧٢

مسرحية مصطفى محمود
الشيطان يسكن في بيتنا

ليخرج متصوفه فاس من خنادقهم وعزلتهم ليفيدو الناس بما وصلوا اليه في خلوتهم ·· فليس تصوفا ان يحاول كل واحد ان ينجو بنفسه ·· وانما التصوف الحقيقي هو الذي يهدف الي خلاص الكل ونفع الكل· والعزلة والتقوقع والانغلاق ليس في سنة نبينا ، ولا في سيرته ·· والكتم والسرية بلا مقتض هي كهانة ماسونية وليست اسلاما ·

بهذا يمكن ان نامل في ان ناخذ من الغرب علمه دون أن نفقد تراثنا الروحي » ·

د · مصطفى محمود « الماركسية والاسلام » ص ٦٦

فى كثير من الاحيان يصدم المرء وهو يطالع الادب المصرى الحديث ، ويجد علاقته المبتورة بالعقيدة الدينية .. وكأنها اتهام يجب أن يتبرأ منه الفنان على الفور ولا يسمح له أن ينعكس بشكل قريب أو بعيد على قلمه ، أو عورة تدعوه الى اخفائها عن ألصق الناس . وهى ظاهرة جديرة بالدراسة وخطيرة أيضا .. لانها تحدث ولا أحد يشير اليها .. كأنها تحتاج الى شجاعة ، وكأن ليس للجماهير عقائدها السماوية التى تلتزم بها التزاما قويا معروفا على مر العصور ولا حاجة الى توكيده .. فى نفس الوقت الذى تجد فيه الرايات مرفوعة .. تزعم أنها تستلزم آلام المطحونين والكادحين والجائعين ! ..

ولا شك ان للارهاب الفكرى الماركسى فى الستينات الذى لعب دوره الرهيب فى اشاعة الذعر ضد من لايعملون لحسابه .. مسئوليته الاولى فى القيام بعملية تشويه واسعة النطاق ابان سيطرته الكاملة على الاذاعة والتليفزيون والصحافة ومعظم المؤسسات الثقافية ، ضد الاديان والاسلام بنوع أخص .. زيادة الى استغلاله سنوات القيد وتكميم الافواه وتسلط مراكز القوى .. فى خداع الاجيال الجديدة خاصة الطلبة الذين لم يسمح لهم أن يعرفوا تاريخهم .. بتشويه كل فكر — حتى المرتبط بتراث الارض وقيم الجماهير — الا الفكر الشيوعى .. هذه الحملة التترية التى نفثت الاحقاد وأشاعت البلبلة ، كان يمكن أن تلقى النجاح الذى تمنته لو لم يجىء ١٥ مايو ١٩٧١ ويؤكد أصالته ٦ أكتوبر ١٩٧٣ . فلقد أتاح أنور السادات الذى عرف فى شبابه ماذا تعنى الحرية بالنسبة الى الشعب الجديد بعراقته ، للجماهير أن تتنفس تنفسا طبيعيا وليس صناعيا كما كان يحدث من قبل .. مما مكنها بعد ذلك وقد عادت لها الثقة بنفسها أن تعبر حائط الخوف والوهم الذى كان الشيوعيون يعملون من ناحيتهم على تثبيته فى النفوس .. ولكن طاشت تقديراتهم وخاب فألهم ونجح الشعب المصرى وهو يندفع بشجاعة أسطورية فى انهاء تركيبة العدو الاسرائيلى الذى لا يقهر ، متسلحا بخبراته العسكرية وايمانه معا .. هذا الايمان الذى ظنته الشيوعية قشرة خفيفة فى بنية الجماهير ، من الممكن الخلاص منها سريعا . ولا شك أنهم فوجئوا بالنتيجة ، وشهدوا أن الصيحة الاولى المتكررة التى انطلقت بلا اعداد أو تدبير وقذفت بها الاعماق بلا شعور وخرجت من قواد الجنود المصريين وهم يقومون بعملية العبور العظيمة كانت .. الله أكبر ! .. هل نذكر

المراسل العسكرى الفرنسى ، الذى شاهد عملية العبور ولا يعرف العربية وسمع صيحة التكبير ، فلم يملك ازاء اللحظة النادرة الا أن يكبر هو الآخر ! ..

فما أبعد الفارق بين تغلغل العامل الدينى فى النفس المصرية ، وانعكاسه فى انتاج أدبنا .. ورغم ذلك فالصورة رغم قتامة الظلال ، ليست باعثة على التشاؤم ولا تسد أبواب الافق ! .. فان الروح الدينية لا زالت تكسب كل يوم - ببطء نعم ولكنها تكسب - أرضا جديدة وأدباء جدد ، كما صنعت بالنسبة الى الكاتب المعروف دكتور مصطفى محمود ! .. وقصة محاولات مصطفى محمود بين الشك واليقين ، فيها من الصراع الدرامى ربما أكثر مما يحتمل فنه ! .. فهذا الفنان الذى جابه بعمق قضية الايمان بين طرفيها المتباعدين سلوكا وموقفا ورأيا ، وعرف يوما بالالحاد أو ما يشبه .. استطاع عن طريق العلم أن يجد فى الاسلام الكثير من الاجوبة وشغلت فكره وباله .. وتناولها فيما يكتب . ومن الاعمال الاخيرة التى قدمها كاتبنا مسرحيته الخامسة « الشيطان يسكن فى بيتنا » .

واغلب الظن ان مصطفى محمود اراد منذ الكلمة الاولى فى المسرحية وهو عنوانها .. أن يدخلنا فى عالمه الروحى مستعينا بمفردات القاموس غير المادى .. وهى خطوة مهما بدت غير عظيمة الخطر ، الا انها تشكل فى الوقت نفسه موقف صاحبها من أعداء الاديان غير المعترفين بها .. الذين يدعون ان كل ما تحمل هذه العقائد السماوية شكلا ومضمونا .. كلمات ومفاهيم رجعية أكل عليها الدهر وشرب ، ولا يجب أن نستعملها كأناس متحضرين ! .. ومن هذه الكلمات بالطبع لفظة شديدة القدم مثل « الشيطان » - استعملها مصطفى محمود قبل

ذلك اكثر من مرة ! ـ والعياذ من كارل وماركس ! ..

وتبدأ أحداث المسرحية فى صحراء جرداء وفى بقعة منعزلة عن الاحياء يسكنها رجل صوفى . وتهبط عليه ممثلة حسناء تبحث عنه باهتمام شديد ، اذ يشكل لديها الضالة والمنقذ .. والسبب انها رغم ما تملك من شباب وجمال ومال وشهرة أى الحاضر بمفهومها .. الا أنها تريد أيضا أن تبلغ المستقبل وهى لا تزال فى يومها ـ كأنها ذلك الانسان الذى يؤده منذ بدء الخليقة قضية الاطمئنان الى مصيره ـ ولن يتأتى ذلك الا اذا عرفت ما يجىء به الغد .. وهذا لن يحدث كما ترى الا عن طريق احد أولياء الله الصالحين ، الذى يتمثل فى أعظمهم كما قيل لها فى الشيخ طنطاوى .

زعمت سونيا هذا فى البداية ، ولكنها ما لبثت ان ادعت انها جاءت اليه تطلب مساعدته فى أن تتطهر من حياتنا الهابطة . ولكنه لا يملك الا أن يصد عارية الجسد هذه التى جاءته بالمايوه تريد أن تتوب فى الوقت الذى تعمل على اقناعه .. بهدهدة غرائزة .. ومع توالى الطرق بيد الفتنة ، تضعف مقاومته وخاصة وهى تأتيه من أكثر من ناحية تستميل مبادئه . فهى تنكر أن ينزوى بعيداً وغيره فى حاجة اليه .. وتحدد هذا الغير فى أضيق نطاقه ، أنه هى وفرقتها الفنية الذين يسدرون فى خطاياهم ولا يجدون من يأخذ بيدهم الى الهدى . كما تنكر عليه أيضا ودينه يدعوه الى النظافة أن يرتدى الجلباب المرقع ويعيش فى الكوخ القذر ، اذا أمكن له أن يتاح الملبس النظيف والسكن الجيد . تعرض سونيا هذا كله وأكثر منه وهى تقدم نفسها وروحها اليه .. تبغى الخلاص . ويبدو له العرض مغر ، مع ادراكه ان سونيا تمثل أيضا الدنيا بكل لذائذها ومخاوفها .. ويقبل .

وعندما يبدأ الفصل الثانى من المسرحية ، تكون أشياء كثيرة قد تغيرت . تحول الكوخ الزرى الى خيمة فاخرة كأنها الفيللا من الحرير الملون ، بهـــا ثريات الكريستال والسجاجيد العجمى والطنافس والاثاث المطعم بالصدف وكل ما تمد الحضـــــارة الحديثة من ادوات التبريد والتسخين والتليفزيون والراديو وغيرها ، وكذلك تحول المكان كله الى بقعة حضارية حـــديثة . ويكون الشيخ طنطـاوى قد خلع خرقه الممزقة وارتدى البذلة الانيقة « المودرن » . ويجىء أصـــحابه ومريدوه ، ويذهلون ويتوهون عنه وهو فى حاله الجديد ويشكون فيه ويرتابون، ولكنه يحاول اقناعهم .. انه لم يبتدل ولكن لكل مقام مقـــال .. فالالتزام الحقيقى هو « ان تلبس للناس لبوسهم وتعيش حياتهم وتكلمهم بأسلوبهم .. لو كان مراد الله لنا هو العزلة لمـا أخرجنا من الأرحام ولتركنا معزولين فى بطون أمهاتنا .. علينا أن ننزل الى الناس .. ان كلماتنا الجميلة فى الخلوة لا تصل الى أحد .

حينما كان الناس يشتغلون فى القديم بالسحر ارسل الله لهم موسى يخرج من العصا ثعبانا وحينما اشتغلوا بالطب أرسل لهم عيسى ليشفى الأبرص ويبرىء الأعمى وحينما اشتغلوا بالبلاغة أرسل لهم من يتحداهم بالقرآن .. كان الله دائما يرسل للناس من يلبس لهم لبوسهم . واليوم الناس يشـــتغلون بالسينما والمسرح والتليفزيون وليس امام المصلح الا أن يعمل فى البلاتوه » (ص ٣٦) .

ويقتنع الصحاب ويعملون معـــه فى عالم سونيا على شرط هو شيخهم القديم .. الائتمار بأمره دون سؤال كعادتنا فى أدب الطريق .

وكانت ســونيا قد عرضت على الشيخ طنطاوى أن تضع مالها تحت تصرفه للانفاق على دعوته ، وسر الرجل

بالطبع وهو ينشيء المسجد ومدرسة تحفيظ القرآن . ولكنه مع مرور الايام يجد أشياء تلفت نظره وتجعله يعمل فكره فيها بعمق . ان المهمة التى وافق على القيام بها ومن أجلها غير نمط حياته ومنهجه واشرك فيها أصحابه ، أخذت تتهاوى وتتقلص.. وليس صحيحا أبدا انه مطلوب فى فرقة سونيا كما أوهمته الفانية ، بل انه ليجد أعضاء الفرقة أكثر من الناس عداوة له بطريق ملتو . نعم لقد احتشدت الصحراء بالجماهير ، خاصة بعد أن زودت بكل مظاهر الحياة العصرية التى خففت من جهامة التنفس اليومى فى الموقع . ولكن اغراق حياة الناس بأدوات الحياة العصرية وحدها بلا استيعاب لفكرها الخلاق .. عمل ضد الحضارة لانه مجرد تجارة .. لانك لا تؤصل الروح العلمى وتعلم الناس بجانب ما تسوق من كماليات كيف يقيمون المصانع مثلا . ثم يكتشف طنطاوى أن أعوان سونيا يغرقون الجماهير بالمخدرات والاباحية والشذوذ الجنسى والاغنيات الداعرة .. وبالنسبة للأخيرة ينبثق تساؤله .. والفن كيف يمكن أن يكون عامل افساد وانحلال ، فينتج مثل هذه الاغنية « قبلتك مثل الكهرباء ياحبيبى جعلتنى أرقد على ظهرى وأفقد الوعى .. حبيبى لا تتركنى حتى نصبح ثلاثة » ! .. هل هذا هو ما جاء من أجله .. رويدا رويدا يقف على السر .. على الجريمة التي تحاك وتقف خلفها الافكار المستوردة التى تريد أن يمزق الشعب الصراع الطبقي بدعوى انه السبيل الأوحد الى العدالة الاجتماعية الحقة وزعم العلم تحت راية الالحاد وادعاء الفن على وجه الدعارة .

ولكن ماذا يعنى هذا كله ؟ .. انه الاحاطة من أعداء الدين ، الذين يريدون ضرب الروح الاسلامى . ان أسلوبهم هو اقتلاع الجذور التى تربط المرء بتربته

وبيئته وتراثه ، حتى يفرغ من محتواه . ويصبح فريسة سهلة يمكن القضاء عليها والاستيلاء على روح صاحبها واستخدامه لتحقيق مآربهم . لقد جاءته سونيا لا لياخذ الى طريق الخلاص ، بل لترديه فى عالم الانحراف .. فهو يمثل لدى معسكرها الماركسى القيادة الروحية .. التى يجب أن تدنس حتى تلقى بطريق غير مباشر المزيد من التشويه على الدين نفسه .. عدوهم الألد الأول .

ويذهب مصطفى محمود أو بطله الشيخ ابراهيم طنطاوى الى ضرورة القضاء على هذه الشرذمة الدموية قبل أن تتمكن من تنفيذ مخططها وتبدأ ساعة الصفر باغتيال مشاهدى العرض المسرحى ، وتفعل مسرحية « الشيطان يسكن فى بيتنا » ! ..

يصور كاتبنا فى الشيخ طنطاوى غربة الوطن صاحب القيم الذى يشعر انه محاصر بطوفان الانحراف الذى يمكن أن يغرقه هو الآخر ، لولا أنه ينجو بنفسه . ويزيد أساه سريان الأكذوبة المقصودة التى تجعل من هذا الانحراف تقدما ومفاهيم عصرية ، يتخذ مجاله تنفس الانسان ، فى التعامل والجنس . لقد تحولت العلاقات البشرية الى شطارة تجار والعلاقات الوجدانية الى بضاعة اجساد . أو نوع من التسالى . يدور هذا الحوار بين احدى الشخصيات المسرحية وطنطاوى .

ـ لو جئت الينا فى البلاتوه لرأيتنا ننادى بعضنا سوسو وبوسو وتوتو وكوتو موتو .. وتبادل القبلات والاحضان دون أن نكون أزواجا .. نفعل كل هذا بمنتهى البراءة .. الواحد منا يقبل الآخر فى فمه كانه يشرب حاجة ساقعة « أو يقزقز لب » .. هل اداء مثل هذه الاشياء بمثل تلك الروح الرياضية يدخل عندك بند الحرام ؟ ..

ـ انه يدخل بندا أسوأ من بند الحرام هو بند السقوط

الـــكامل ، فلو أننى قبلت امرأة وقبلتنى فى فمى بكل بساطة وكأننا « تقزقز لب » فاننا سوف نكمل باقى العملية وكأننا نأكل « سودانى .. وماذا يعنى هـــذا الا السقوط الكامل .. سقوط كل شيء حتى عنصر اللذة ذاتها .. ان القرود أحسن حالاتهم يقولون انهم فى أوروبا تقدموا جدا .. وأنهم يمارسون العملية بتمامها ثم يسأل الواحد الآخر بعـــدها .. أنت مين ؟ .. ويعتبرون هذه حرية ، والحقيقة أنها الهوان بعينه .. الهوان والبهدلة لاشياء حميمة وجميلة .

ويضطر طنطاوى الى ترك هذا المجتمع الى حيث يأمن على شرفه وفكره ومثله ، ويذهب الى الصحراء يتعبد . ولم يكن الرجل يرى فى اضطراب القيم وتهاوى المثل .. مأساته وحده ، بل هى أيضا قضية الآخرين . ان دينه يدعوه الى انقاذ الغير كذلك ، ويحـــاول .. ينزل الى الناس ويعمل على اقنـــاعهم ولكنهم لا يستجيبون الا نادرا . فيدعوهم الى الصعود اليه فلا يلتفتون .. رغم انهم « يقدسوه » ! .. لقد أخذ المد فى الارتفاع ..

وطنطاوى لا يدعى انه من نور النقاء ، لانه لا يكذب على نفسه ويعرف حقيقته جيدا .. « الملاك وحده هو الطاهر باطنا وظاهرا .. والشيطان وحده هو السافل باطنا وظاهرا . أما الانسان فبحكم كونه روحا وجسدا فهو ذو طبيعتين متنازعين ولا يطعن فى صدقه أن يكون متناقضا متصارعا ، فهذه المعاناة هى عين صدقه وهى الانسانية فى حقيقتها » .

وهناك أيضـــا من شخصيات المسرحية .. شخصية حاضرة وان غابت عن الظهور ، رغم انهـــا تترك بصماتها الواضـــحة على جوانب كثـــيرة من « الشيطان يسكن فى بيتنا » .. وهى المجتمع . وعندما يستقطب مصطفى

محمود هذا الملمح ، فهو يصل الى قمـــة سخريته بل وقسوته أيضا الضرورية التى تجعلنا نشعر رغم ذلك فى محلها تماما تستجيب الى قضية حيوية كان القارىء نفسه يتمنى أن يشارك فى اثارتها .. وهذا هو التعايش أو الالتزام الحقيقى بين الفنان وجمهوره . يناقش كاتبنا القيم المتهاوية التى بدأت تسود فى المجتمع وتحفر لنفسها فى أعماق وجدان الناس موقعا مستقرا لها ، ويشير كمـا مر بنـــا الى أكثر من ظاهرة انحراف . وهذا التناول لا يقتصر على المسرحية على الكليات دون الجزئيات بل يجمعها معا .. ولذلك كان للمسة السريعــة أيضـــا أهميتها . عالج مصطفى محمود ما يعطيه العصر للبطولة أو الشهرة من نوعيات مختلفة .. لقد ذهب أو كادت تلك الايام التى كان للبطل صـــاحب القيم والتضحيات دوره فى حياة الناس ، وحل محله ألوان أخرى يقـولون انها تناسب الحضارة والتقدمية .. مثل الست سونيا .. الممثلة المثيرة صاحبة أدوار الاغراء أمام العدسات وفى حياتنا الخاصة أيضا . ان الملايين يصفقون لهـــا ويتمنون كلمة من شفتيها .. لمسة من يديها .. لفتة .. اشارة بطرف الاصبع ، والملايين كذلك يحلمون بهـــا وبجسدها . ويصور أديبنا بشاعة اختلاف معنى البطل ، وهو يجعل انطباع صورتها العارية عند الجماهير .. يأخذ شكل الشيء « المبارك » الذى يعامل بتقديس ! ..

وساير أسلوب مصطفى محمود البيانى ، رؤيته .. فهو يختار كلماته فى هذا المجال من القـــاموس اليومى المتداول كأنه يريد أن لا يقيم حاجزا بينه وبين القارىء العادى وان لا يشعره بالغربة ازاء تناوله لقضيته .. اذ يأخذ بشكل غير مباشر فى التقرب اليه والالتقاء به فى منتصف الطريق ربما حتى يكسر حدة الحائط بين عالمى

الكاتب والمتلقى . ولعل عمل فناننا فى الصحافة هو الذى شجعه على أن ينخذ هذا المنهج . ولذلك نجد مصطفى محمود كثيرا ما يستخدم مثل هذه الالفاظ : « ساقين مثل قمعين سكر ــ المزبلة ــ النسوان ــ غرفة عمليات » .

والاعتراف من معين الحياة اليومية أو الشعبية ، يدفع بالتالى الى نقل ما يدور فى هذه الحياة من حس جنسى صريح لا يكتم فى كثير من الاحيان تكوين عالم الفراش . ورغم أن كلمات كاتبنا فى هذا المجال ليست عارية ، الا انهـــا فى الوقت ذاته غير كاسية ! .. وان استخدمت ما تردد الالسنة .. يصف الشيخ طنطاوى مسكن الممثلة الغانية سونيا الراقى ، بأنه « ميولة شعبية يصب فيها عشرات الرجال فائض انتاجهم » ! ..

وبعد .. لقد استطاع ايمان دكتور مصطفى محمود بالصراع الدرامى ، أن يطلق النار على أصحاب الصراع الدموى ! ..

الشيخ أمين الخولى يكتب للمسرح

القول بأن رغبة جيل الرواد الملحة فى أن يستنبتوا فى الارض المصرية والعربية ألوانا من الفنون والآداب والمعايير جديدة ، هى وحدها الباعث على أن يشقوا على انفسهم فى الدعوة الى هذه الالوان غير المعروفة وسط مناخ ثقافى ينتمى فن تفكيره الى العصور الوسطى .. ينكرها ولا يريد أن يعترف بها ، بل ويصم أصحابها بشتى التهم من التفرنج الى الزندقة والخروج على الدين ! .. ولا يكتفى الرواد بذلك بل يشاركون فى هذه الاجناس ويخطون الخطوة الاولى فى ممارستها .. القول بذلك رغم ما يحمل من صدق كبير ، الا انه لا يفسر عوامل أخرى دفعت الى اتخاذ هذا الموقف .. نذكر منها فحسب طبيعة الشخصية نفسها التى تفضل لونا عن لون ..

واذا كان التاريخ الادبى هو أبعد الاشياء عن اهتمامنا ! فمن الطبيعى أن تمضى السنوات والقارىء يجهل الدور الذى قام به رائد من روادنا الكبار الاصلاء هو الشيخ أمين الخولى فى مجال الكتابة المسرحية . ولولا جهد تلميذه الشاعر المعروف كامل سعفان ، الذى كاد أن يتخصص فى دراسة فكر الاستاذ الخولى وحصل فى هذا السبيل على الماجستير ويستعد أيضا لنيل درجة

الدكتوراة ، واكتشف فى أثنائها بعض النصوص المسرحية الضائعة والتى كانت فى حكم المجهولة لشيخ الامناء .. لكان مثل هذا الجانب الهام قد أصبح نسيا منسيا ، مثل آلاف الاشياء التى نضيعها بجهلنا ولا مبالاتنا ..

وفى ذكرى ميلاد الخولى — أول مايو ١٨٩٥ — نعرض لهذه المسرحية « العربية التاريخية الاجتماعية » كما يصفها صاحبها ، ذات الثلاثة فصول ، والتى مثلت على على مسرح الاوبرا أول مرة مساء ١\١٢\١٩١٧ وهى: « الراهب المتنكر » .

وقد اختار رائدنا الاندلسى مسرحا لاحداثه على عهد الخليفة الناصر . وجعل اطارها قوة هذه الدولة العربية التى يخطب ودها جيرانها من الممالك الاجنبية ، ويرسلون اليها لتستوعب التقدم العلمى فى قرطبة ،وكذلك سماحتها الشديدة التى لا تفرق بين دين ودين ، رغم أنها تعيش كجزيرة وسط بحر الكراهية الاوربية المتعصبة . وبرؤية شاملة تتجاوز الجزء الى الكل وترفض الانغلاق ، يعمد كاتبنا المسرحى الشاب — كان فى الحادية والعشرين من عمره — الى استكمال ملامح الحضارة العربية عند الجانب الآخر .. العالم الاوربى الذى يبدو .. « ديار ظلمة لا أثر فيها لحضارة الا ما يخرج بأهلها عن طور الحيوان ويلحقها بأوائل بنى الانسان » . هذه الديار التى يتحبب أهلها الى الغرب درجة أنهم .. حين يصكون نقودهم وعليها الكتابة بلغتهم ، يسجلون الى جانبها بعض الآيات القرآنية وكلمات عربية لا يفهمون معناها ، وما ذلك كما تقول احدى الشخصيات الا استرضاء لتجار المسلمين ، لانهم أصحاب الكلمة فى أسواقهم !

ويهتدى الكاتب الى أسلوب يراه مناسبا لاثارة انتباه

المتفرج ، ولفجير ما كان ينقض به واقع الحياة العربية التى يريد تصويرها .. وهو عالم المؤامرات . فهناك عبد العزيز بن هشام الذى يريد أن يثبت على الخلافة ويحيك الدسائس ، مستعينا بمن تعرضوا لغضب ولى الامر .

ومن الطريف أن طالب القضاء الشرعى الذى كانه فناننا فى ذلك الحين ، لم يتجاهل الهوى فى مسرحيته .. بل أعترف به لا لمجرد أنه يعكس واقعا حياتيا ، أو لتشكيله أحد العناصر الهامة المحببة فى العمل الفنى ، بل لانه يستطيع من خلاله أن يؤصل قيما انسانية عالية بغض النظر عن العوائق المترسبة أو المصطنعة التى تقوم بين البشر ، والتى تعمل على التفرقة بينهم وليس جمعهم . من هذه القيم تخطى الحب لعقبة الاديان وقدرته الفذة على التوفيق بين القلوب ، كما لا يقدر أن يفعل أى شىء آخر . وهكذا جمع الهوى بين سعيد المسلم ومارى المسيحية .. فى أوثق علاقة بين انسانين ..

ولا يفوتنا أن نشير الى ما استهدف كاتبنا من تقديم رؤية جديدة للواقع الذى عاشه العربى القديم وهو يتنفس حياته . لقد رفض الخولى ولنذكر أن هذا حدث فى شبابه ، أن يسيره المفهوم التقليدى الذى لا يتزحزح عن تقديس الماضى .. فى قوته واهتزازه معا ، وأن يكون تتابع الاجيال مجرد اندفاع وتسليم باقرار الاجداد ! .. ولذلك فهو يتجاهل مثلا الصورة التى لا تكاد تتغير لنظام الرق وكأنها « درس مقرر » لا يمكن أن يزيد أو ينقص منه .. ويختار ملامح أخرى تتفق مع جوهر المفهوم الاسلامى لهذا النظام . ولذا فعلاقة طروب بسعيد بن المنذر قائد الجيش ليست الصلة التى تربط

الجارية بالسيد ، بل التي تسير أفراد الاسرةبعضهابعضا

ونستطيع أن ندرك اذا تجاوزنا ما يعكس أجواء المسرحية من مؤامرات القصور ، ان هدف صاحبها بجانب تقديم صورة حقيقية للماضي العريق ، كان أولا تجسيد الروح الاسلامية وقيمها ومبادئها رغم ماتتعرض له من أحقاد الاعداء وانتهازية المتسلقين ..

وأغلب الظن ان الموضوع وحده لم يكن هو الذي أثار المتفرج في مسرحية « الراهب المتنكر » فحسب ، بل كان هناك أيضا حرفية الكاتب الشاب التي استطاعت أن تفرض على المتلقى الاقتناع بالاحداث ومعايشةشخوصها. ولا شك اننا ندهش اليوم لمستوى هذا التكنيك ، الذي بلغه أمين الخولى في هذا الوقت المبكر من حياته . صحيح انها العمل المسرحي الثالث الذي كتبه . ولكن هذا لا يفسر بلوغه هذه الدرجة من النضج .. خاصة بالنسبة الى طالب هاو . والذي يلفت النظر أيضا في هذا الموقع ، ان أمين الخولى كنبت شعبي يخرج من صميم الارض ولنذكر شعاره المعروف بعد ذلك « الفن والحياة » :. بدأ بكتابة المسرحية الواقعية لا التاريخية ، كما لا يفعل معظم الكتاب عادة . صنع ذلك في عمله الاول « جريمة الآباء » والثاني « ابن العمدة » . ولعل ذلك يرجع الى التزام فناننا منذ شبابه بنفس الحياة المصرية، الذي جعله يشارك مثلا كما هو معروف في ثورة ١٩١٩ . ولذلك لا يأخذنا العجب ومسرحيته الثانية يسدل الستار فيها على الهتاف العذب : مصر للمصريين ويحيا الاستقلال ! ..

ان هذه الصفحة من تكوين الاستاذ أمين الخولى ، لتذكر بضرورة الاهتمام الجاد بما أداه جيل الرواد الكبار من أعمال تشكل ملامح عميقة أصيلة في أدبنا المصري المعاصر ..

الكواكب : ١٢-٦-١٩٧٣

ثروت أباظة
وتمثيليات إذاعية

لا ندرك اهتزاز بعض جوانب حياتنا الفكرية والثقافية، الا عندما يسوق الحديث الى الملامح غير التقليدية فى ادب الكاتب الذى ندرس . ويبدو هذا الاهتزاز فى قمته والبحث يصبح نوعا من الاكتشاف « المادى » قبل أن يكون عقليا وجماليا للأغوار العميقة فى العمل الفنى . والسبب غالبا فقدان المنهج وعدم ربط النص بما وراء النص . والنتيجة ابقاء ملامح الصورة فى حالة نقص دائم، يقف سدا حائلا أمام تجسيد أعماق الفنان . وهكذا نفاجأ أن قاصنا الكبير ثروت أباظة كتب لوقت غير قصير المقالة النقدية ، وشارك أيضا فى الترجمة ، وقدم التمثيلية الاذاعية ! .. ومن الطريف أن تكون المادة التى ادعى الى النسيان لانها بطبيعة جهازها كذلك ، ابقى هذه الالوان الفنية الثلاث غير المعروفة التى ساهم فيها روائينا . لانه جمعها وأخرجها فى كتاب « من أقاصيص العرب » ! ..

ونصوص ثروت الجيدة تدفع القارىء دفعا الى المقارنة بينها وبين أكثر المواد التمثيلية التى تقدمها الاذاعة عادة ، والتى لا تحمل فكرا أو فنا أو تكنيكا ، وانما هى مجرد ثرثرة خاوية وسطحية مبتذلة ومواقف فاقعة .. تبعد بين المستمع وبين الاستفادة من هذا

الجهاز العصرى الضخم ، الذى يملك امكانيات كبيرة تستطيع أن تغير مفاهيم وتشيع مفـــاهيم . ان الكتابة للاذاعة فى هذا المجال ، تحتاج الى نضج فنى وثقافة مستوعبة وخبرة حياتية معا .. فاقناع الجمهور ليس بالعمل السهل الذى يعتمد على « كفاءات » قليلةالتجربة فقيرة الفكر ، لايزال أصـحابها يتخبطون فى محاولات الابداع الاولى . وغياب الادباء الكبار عن هذا المسرح : شجع الكثيرون على ملء فراغه. تماما كما حدث بالنسبة للكتابة للأطفال . وهذا ما لا يحدث فى البلاد المتقدمة التى تؤمن بالصغير ، فلا تتركه بين أيدى من يفسدون تربيته ، وندرك أهمية الاذاعة فى تشكيل وجهها الثقافى والفكرى . ان ثروت اباظة بهذا الشكل يدق الاجراس للأدباء الكبار ليسهموا فى هذا القالب . وكم يأمل القارىء أن يتـــابع ثروت نفسه أعماله فى التمثيلية الاذاعية ، ليجعلها كمـــا فعل توفيق الحكيم فى نضـــاله الطويل للمسرحية ، عملا أدبيا رفيعا ..

ولعل هذه التمثيليات التى كتبها ثروت أباظة ، من أكثر أعماله ابانة عن عالمه ومفاهيمه . ولا غرابة فى ذلك ــ وان جاءت هذه الغرابة أولا من هؤلاء الذين يستشعرون التفاهة فى قالب هذا النوع من العمل الفنى ــ وخاصة ان طبيعة مثل هذا العمل الدولى ، هى وضوح الهدف واستقامة القصد وتركيز التناول ، بحيث لا يحتمل كثيرا ما يلجأ اليه الفنان فى غيره من الاعمال الدرامية من حيل ومناورات التكنيك أو المضامين المثقلة . وهذا ما يتفق مع اتخاذ الاذن التى لا تتمهل فى استقبال ما يرد اليها ، والتى لا يملك صاحبها أن يسترجع على سـمعه بعض ما مر به ، وسيلة لقاء بين الفنان والمتلقى .

استطاع أدبنا اذن أن يضمن هـــذه التمثيلية أفكاره

ورؤيته وأسلوبه المميز أيضا . فهو لم يفكر بحجة ان التمثيلية الاذاعية موجهة الى رجل الشارع قبل كل شيء ، أن يجعلها مبتذلة الاسلوب ركيكة التركيب ، دعك أن تكون باللهجة العامية التى يستهجن تماما أن تكون لغة أدبية .. تحتشد بالكلمات السوقية بدعوى اجتـذاب المستمع . ثروت أباظة لا يرى فارقا بالمرة بين لغة الادب أو القصة ولغة التمثيلية . فلأنه يرفض أصـلا التقعر والنبش فى القواميس العتيقة ، ينتفى المبرر بالنسبة اليه الذى يجعله يغاير أو يخفف من نصاعة بيانه أو جزالته ، لانه يراها مطابقة لمقتضى الحال .

واذا انتقلنـــــا الى ما تحمل التمثيليات من مضامين تنتسب فى خطوطها العريضة والتفصيلية الى نفس أعمال فنانة المعروفة ، لوجدنا هذه النفس المشرقة التى تحاول أن تظلل الحدث والشخصية حتى فى أشدساعاتهاحلكة.. فلا تفقد الامل فى حاضر الانسان ومصيره . ونحن نحس بذكاء هذه الاشراقة التى تنساب فى بناء عمل ثروت ، وهى توازن بين قوى الواقع وتحافظ على تناسقها بدقة لايجعلها تتحول الى تفاؤل غبى ساذج بأية دعوى من الدعاوى . ذلك لانها تنبع أولا من الصلة التى تربط العنـــان الملهم بجوهر الحياة ذاتها ، لا بهذه الاشياء التى تظهر على السطح فتشد العين ببريقها الزائف . أو بالقيم الوقتية التى لا تنبع من الذات فتسود حينا ثم تسقط غير تاركة أثرا . واصالة اشراقة روح ثروت هى باعثة هذا النبض الدافىء الذى يشيع فى كتاباته متجاوزة صاحبها .. تولد وثيق العلاقة بينه وبين المتلقى .. الذى يجد نفسه معايشا لمضمون انسانى ينتفض بمشاعر متفتحة خيرة . لنبتعد مؤقتا فى مجال الاستشهاد عن أعماله التى تتخذ أيام النبوة الكريمة زمانا ، حتى لا تبرر انها هى التى تضفى مثل هذا

المضمون ، ولنلتفت الى تمثيلية مثل « دعوة وغفران » التى تتناول وفاء الزوجة المحبة وتضحية الزوج بامرأته فى سبيل المال . ان فناننا هنا يحلل التـــكوين المادى للشخصية . الذى يسهل على صاحبها الانزلاق بلا شعور وتجاهل أعظم القيم الانسانية روحية وهى الحب ، عند أيسر اغراء مادي . وبفهم الاديب الاصيل الذى لا يحمل مسلمات مسبقة ، يعكس ثروت أباظة الضعف الانساني الذى لا ينتمى بالذات الى جنس بعينه ، فالرجـل والمرأة سواء ازاءه . وهذا الادراك يستلب من القارىء شكوكه أو مقاومته الداخلية بالنسبة الى ما يلقى اليه . ان احداث التمثيلية التى تعرى النفس البشرية ، كان يمكن أن تدفع الكاتب الى تحطيم كل ضوء بحجه ان هذه هى أنفاس الحياة تتردد .. ولكن هذا التعاطف الحقيقى للانسان وخاصة فى لحظات هبوطه ، والذى يصله بالارض التى تحته والسماء التى فوقه ولا تجعله منبت الصـلة الا بنفسه .. جعلت القيم الباقية التى تتفجر الحياة بهـا ، هى التى تعطى للموقف معنــــاه المدرك وتضفى على الشخصيات عمقا لا تتسرب منه انسانياتها ..

وهذه الزوايا التى ينتقيها ثروت ، تذكر باحد العناصر التى تستوقف القارىء أيضا فى تمثيلية وهو نهايتها .. التى تتفق تماما مع فلسفة صاحبها فى الكون والحيـــاة ومنهجه فى الفن . فأديبنا يرفض أن تقف خاتمة عمله عند اللحظة المدببة . لان هذا يعطى الايحاء بغلبة قوى الظلام . ولما كان هذا غير صحيح فى رأيه ، كما يخل بالصراع الدائم بين الخير والشر ، فانه يختار نوعا من النهايات الحاسمة المتفتحة .. أشبه بالمفتوحة ! وهى قدرة ثروت التى تجعل من اجتماع هذين الشكلين وضعا غير متناقض ! .. فكيف يلتقى الحسم فى الخاتمة بالكلمة الاخيرة التى لم تقل بعد

لتجدد الاشياء المستمرة ؟! .. لقــد استطاع كاتبنا أن يقيم تداخلا بين هذين الشكلين فى موازنة بين جوهريهما باعتماده على صراع الحياة الدائم الذى لا يتوقف . هنــا تقوم السطور الاخيرة بمداواة جرح الاحداث النازف . وهذا يعنى أن واقعية ثروت أباظة كمــا انهــا ليست هامشية ، فهى أيضا تكره الاقتصار على السوداوية . فى تمثيلية « الروح والشيطان » يقدم شخصية امامة الزوجة المتهاوية على المظهر ؛ فاذا جرح زوجها سيف فارس قومه وبات طريح الفراش وقتــا طويلا .. فقــد زالت عنه كل مظاهر قوته التى شدتها اليه وحببتها فيه ؛ فاذا بهــا تطلب فراقه لتتزوج عروة البطل الجديد . ولكن عروة الذى كان يحبها يرفض هذه الانانية التى لا تقيم وزنا حتى للقيم العامة ، ويرفض بالتالى اليد الآثمــة التى تمدها اليه .. عاملا على أن يواسى ويمرض البطل القديم والزوج الوحيد ..

ومع حفاظ ثروت أباظة على مستوى تناوله فى اتساق عناصره ، الا انه فى أحيان قليلة تبدو خاتمته التى تتضمن نفس مفاهيمه .. مفتعلة . خاصة عندما يستعين بالمصادفة غير المقنعة . كما فعل فى « مال وبنون » وهو يجعل نطق الصبى الاصم الابكم طوال حياته ، يأتى فى موعده تماما وفى ساعة الحاجة الملحة اليه ، وأبوه الملك يتعرض للاغتيال فينذره فى الوقت المناسب ! ..

واذا كان ثروت أباظة من القلة من أدبائنا الذين لم يتساقطوا على مراكز القوى .. هذا التساقط الذى مكن لهذه المراكز وقتا غير قصير ، كمــا فعل الكثيرون . فمن المعروف ان فناننا شارك فى مقاومة هذا التسلط بقلمه أيضا ، كما فعل بالذات فى روايته الرائعة « شىء من الخوف » . وفى تمثيلياته تسرى هذه المقاومة كذلك ، فى

« عفو الملك » تجيء هذه الكلمات على لسان صديق قاضى القضاة ، الذى يقول له : يظل الخلق قويا لا يميل حتى يتولى صاحبه السلطان ، فاذا الخلق معدوم كالعدم ، واذا الجشع راكب النفس يطمح بها وتظل الكرامة صلبة حتى يشوبها الحكم فاذا هي هشة كالدقيق ، واذا الرأس منحنية حتى تبلغ أعماق الارض . فاحذر الحكم يابنى . احذره واستعن بالله يعيذك من الشيطان ، واعلم أنه الشيطان لم يلبس فى كل ما يرتدى اجمل من الحكم . واعلم انه ما استخفى فأوغل فى الاستخفاء الاحين عثر على السلطان فارتداه يفري به فاذا النصر متهالك عليه من كل جانب » . ويتحقق التوقع ويخون القاضى ولى نعمته ويحيك المؤامرات التى تنتهى فى النهاية بالفشل ،

وتتخذ مقاومة التسلط لونا آخر فى « مال وبنون » وسرور صاحب الملك يصر على الا يخفى شيئا على طرف لسانه ،فيدور هذا الحوار بين الثانى والاول :

ـ انت تغالى فى الحق .

ـ الحق يا مولاى هو الحق . وهو جامد لا يقبل مغالاة ولا تهوينا .. الحق لا يتغير يا مولاى ..

هذا الالتزام بالحرية فى شتى اشكالها والدفاع عنها يسوق فى تمثيليات ثروت أباظة الى مناقشة الشكل الذى يظهر به . وفى اغلب الاحيان يكون هذا الشكل ظاهرياغير متصل بأحداث « تاريخيـة » معينة أو باحدى مراحل الصراع الوطنى .. ولعلهذا بعض الوان الحيطة التى يلجأ اليها أصحاب الاقلام فى خداع أجهزة التسلط التى تريد احصاء انفسهم اذاامكنها ذلك ، وان كان هذا لا يعنى ايضا ان يتشكل التناول فى صورة تجريدية لا يقتنع بها صاحبها قبل القارىء . ولا شك ان مثل هذه الزاوية قد اعطت لاحداث التمثيلية انفساحا تتجاوز به حدود واقع

محدد ، بجانب معالجتها موضوعهابحرية لا تتقيد بتفاصيل تتكرر او لا تتكرر .

ان اهمية هذه التمثيليات فى رأيى ، لا ترجع الى محاولة كاتب كبير مثل ثروت اباظة تأصيلها فى حياتنا الثقـــافية فحسب ، بل الى استيعابها من تركيب فنائنا عنصرا اصيلا كاملا ، كما انبثق فى هذه المجموعة التمثيلية ، وهو روحه العربية .. كما اعنى بها خلقه الاسلامى ايضا . . ممـا يفسر بواعث كثيرا من الاشياء اشرنا الى بعضها من قبل ، وهو التزام ينكره بعض النقاد الذين يريدون ان يقتصر الالتزام على نوع اخر يرمى بطرفه الى خارج الحدود !

الكواكب : ١٠-١٠-١٩٧٢

ثلاث مسرحيات

هذه هى التجربة الاولى لفاروق خورشيد فى الكتابة المسرحية .. اجتـــازها وهو يملك امكانيات الروائى القصاص الاذاعى الباحث .. بعد سنوات طـــويلة من الممارسة فى فنون القول. والثلاث مسرحيات التى يحتويها هذا الكتاب هى « المسألة ــ ثالثا وأخيرا ــ حبظلم بظاظة » واذا كان فناننا من هؤلاء الادباء الذين لا يقيمون سدا فى كتاباتهم بين حياتهم التى يعيشونها .. دقائقها اليوميـــة ومبادئها ، وبين مايتمثلون فى انتاجهم الفنى ــ فأن القارىء يجد فى هذه المسرحيات ذات الفصل الواحد،خيوطا معينة تشدها جميعا رغم اختلاف موضوعاتها .. هى التى تكون شخصية فاروق خورشيد الفكرية والفنية . وأول هذه الاشياء انشغاله بقضايا عصره وبيئته .. فهو لا يعرف الانعزال عن الاسهام فى هذه القضايا لاى سبب. فمسئولية حامل القلم عنده ليست شرقية أو فنظرية ، وانما هى أمانة فى المقام الاول . ولذا فهو يستحضر دائما الوظيفة النقدية للأدب . التى بدونهـا يتحول الى كلمـــــات جوقاء بلا روح . « فى ثلاث مسرحيات » يتناول المؤلف .. الناس الذين يركبون الموجة .. وهؤلاء النـــاس يكونون احدى العلل التى أصيبت بها حياتنا بضربة مباشرة وغير مباشرة معا . فحبظلم بظاظة يحول الكلمات الى أشياء يتشدق

بها وتستخدم فى غير محلها ، لانها فقدت معناها الاصلى واللافتات المرفوعة لا تساوى ثمن الحبر الذى كتبت به .. انها الميكافية التى تريد أن تصل الى هدفها بلا أى أعتبار للوسائل التى تستخدم .. انه بجاريته الحسناء ياسمين وصديقته دليلة ، يستحوذ على السلطان ، وبالتالى على مايتيحه امتلاك مناطق النفوذ . انه يصبح قائدا للفرسان ورئيسا للشرطة وكل شىء .. ان كاتبنا لايقدم فحسب الاعيب حبظلم بظاظة للوصول الى أهدافه ، بل يصور أيضا مايحصده المجتمع بسيادة مثل حبظلم من تحطيم للقيم وافساد للنفوس وافسداء للضمائر . واذا كان خوريشير بأصبع الاتهام الى النماذج التى تساند نظام حيظلم ويستند هو اليها ، فمؤلفنا فى موضوعية التناول لا يبرىء الطـرف الآخر .. الجماهير .. من مسئولية السكوت على وجود هذه الطفيليا تالتى تمتلك الامة بنفث سـمومها فى جسدها . لقد نجح فناننا فى تحليل شخصية حيظلم فى البلاط .. حيظلم بظاظه .. « اجل . انتم تعرفون بظاظه ، ولنقرأ هذه اللمسة الساخرة للشخصية الاولى انني استحق كل ما حصلت عليه ، انى حقى ، انه مكانى الطبيعى الذى لا يستطيع انسان أن ينافسنى فيه . انا لم امسك سيفا فى حياتى ؟ هذا كذب . فانا امسـكه كل يوم وانا اضعه فى مكانه عند ساقى . وامسكة كـل مساء وأنا أخلعه لأعلقه على الحائط . وامسكه بيدى كلما ركبت حصانى ، وامسكه بكلتا يدى كلما نزوت من فوق حصـانى .. أترون ؟! .. هم كاذبون يطلقون الاشاعات المفرضة ليسموا الجو حولى ، ليثيروا الجماهير على ! .. الاشاعات سلاح الأعداء فاحذر أن تسمعها ، الاشاعات سم زعاف يقضى على الروح المعنوية ، فاياك أن تصدقها ! .. الاشاعات أكاذيب يروجها أعداء الوطن وأعداء السلطان

وأعداء الدين .. وبالطبع أعداء حبظلم بظاظة !! ..

وفى مسرحية « المسألة » يعرض المؤلف لجانب آخر ، من عالم الذين يركبون الموجة .. انهم لكى يعيشوا يصطنعون الأحداث اصطناعا ، اذا لم يكن من ذلك بد ، لاستمرار عيشهم ووجودهم ، حتى لو كانت « الضحية » لا تعلم شيئا عن « مأساتها » ! .. وفى ثالثا وأخيرا » تقوم مأساة الأستاذ أيوب ـ يستوحى خورشيد شخصيات مسرحياته أيضا من التوراة ـ على أنه يرفض أن يتابع أصحابه الوصوليين فى منهجهم . يرفض أن يتحول بناء العمل الادبى والفنى الى بناء الفيللا أو الرصيد فى البنك ، أو بناء ديكور الشقة لترضى الزوجة . ان أيوب يواجه المأساة بمواجهة الاعماق .. مواجهة نفسية .. « نحن نخفى عن أنفسنا حقيقة ما بأنفسنا ، ولحظة تواجه هذا الذى نخفيه ندهش ويصيبنا الرعب . لماذا ؟ .. لان هذا الجزء الذى أخفيناه كان حبا فينا ، فلما نسيناه ، مات وتعفن . وحين رأيناه لحظة يقظة لم نعد نرى فيه الا ماقتلناه الجثة العفنة .. الرائحة الكريهة .. الشىء الشائه المقيت .. أنفسنا التى ماتت ! .. (ص ١٤٥) .

وفاروق خورشيد الاديب الذى نشأ فى حى شعبى ويكتب بروح ابن البلد ، من أشد الناس حفاظا على هذه البيئة وتمثلها فيما ينتج . وهو لا يكتفى بما يقدم له الحاضر من مادة يتناولها . بل يجد فيما ترك لنا من تراث شعبى تأصيلا لهذا التكوين الذى يدخل فى دمائنا .. ولذا فالأدب الفولكلورى عنده ليس مادة خاصة بالمتاحف ، لايجب أن نعرضه خارجه والا أصابها التلف والتفتت كمراكب الشمس .. كما بظن البعض .. بل هى فى خطوطها استكمالا لصورتنا الحقيقية وسدا للنقص . أن خورشيد واحد من القلة الذين أصلوا مناهج البحث

العلمي فى هذا الميدان . ومن هنا كانت كتبه .. « فى الرواية العربية فى كتابة السيرة الشعبية ـ أضواء على السيرة الشعبية » . وكانت الخطوة التالية فى اهتمام خورشيد بالادب الشعبى ، اعادة كتابة رواياتنا الشعبية بأسلوب ومفهوم عصريين . فظهرت له حتى اليوم .. « سيف بن زى يزن ـ مغامرات سيف بن ذى يزن ـ على الزيبق » فى أكثر من طبعة . والخطوة الثالثة فى سبيل تأصيل الاهتمام بالادب الشعبى .. كما ظهرت فى مسرحياته .. هى إستيحاء شخوص الملاحم الشعبية فى أعمال فنية حديثة .. وهكذا ظهرت فى ثوب عصرى شخصيات « أحمد الدنف وعلاء الدين وعلى الزيبق وحسن شومان ودليلة المحتالة » ، وهم جميعا من شخصيات سيرة على الزيبق والف ليلة ، فى مسرحيته « حبظلم بظاظة » . وشخصية سيف بن زى يزن بطل السيرة الشعبية المعروفة بهذا الاسم فى مسرحيته « ثالثا وأخيرا » . ولم تخل مسرحية « المسألة » أيضا من المرور العابر السريع على هذه الشخصية الشعبية أو تلك ! ..

واذا أمكن لاحدى الصفات أن تستوعب أعمال فناننا لكن « التوهج » أولاها .. هذه الصفة يجدها القارىء فى معظم مايخط فاروق خورشيد . هذا التوهج الذى لا ينبع من الصدق او النضج أو التكنيك فحسب ، بل من الاخلاص الذى يحتفظ دائما بدرجة من الحرارة عالية حتى فى دراساته التى لا يخفف منها موضوعية البحث وحياده ! ..

الحرب بين التحرر والعدوان

عرف عبد الرحمن فهمي قصاصا مجيـــدا قبل أن تشغله الاذاعة والتمثيليات الاذاعية عن القصة .. نفس الذى فعله يوسف جوهر بشكل واحد وهو يهجرها الى السينما . ولقد لفت نشر المسرحية ذات الفصل الواحد التى كتبها فناننا اخيرا لمجلة « الزهور » فى عددها الثانى، عن اصالة هذا الفن فى أعماق عبد الرحمن فهمى ، رغم كل جذب العمل الاذاعى المجزى ! ..

ولقد كتب صاحبنا المسرحية منذ وقت غير قصير .. ولعله نشرها لاول مرة عام ١٩٥٦ فى مجلة « الادب » وكانت تتناول المشكلة التى لم تحل حتى اليوم ، وهى تبسيط تعليم اللغة العربية ! .. وفى سنة ١٩٦١ ظهرت الطبعة الاولى من مسرحيته « الحرب » ، التى تعالج مأساة الحرب .. داعية الى السلام ، متخذة من قضية العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ خلفية للأحداث . فسر فيها كاتبنا وقوع مثل هذا العدوان ، بأنه نتاج تفكير الرجل الابيض فى الســيطرة على الارض الافريقيـــة والآسيوية ..

ونظرة عبد الرحمن فهمى الشمولية الى قضية الحرب، واتصالها أو خطرها على البشر جميعا وعدم اقتصارها على ميدان القتال وحده أو البلد الذى يقع فيه هــذا

الميدان ، لتقارب العالم تقاربا شديدا فى العصر الحديث ، جعله يختار مسرح أحداثه فى مكان بعيد جدا عن أزمة الشرق الاوسط أو مأساة فلسطين ، وهو بلجيكا ! .. وشيء آخر عكسه أيضا اختيار بلد الشمال هذا ، هو انه كان بطل الحادث الذى وقع فيه عقب العدوان الثلاثى على مصر ، عندما انطلقت صفارات الانذار خطأ فى بروكسل وتصادف مرور احدى الطائرات فأصيب الناس بالذعر وانهارت أعصابهم واندفعوا الى المخابىء وانهالت على الدوائر المسئولة المكالمات التليفونية تسأل عن مدى تقدم جيوش العدو كما قالت وكالات الانباء ! .. ولم تهدأ الحال الا بعد اعلان الاذاعة بيانا كل خمس دقائق تنفى فيه وقوع حرب ! .. ولقد جاء انتقاء بلجيكا بالذات قبل هذا كله مقصودا لانها الدولة الاوربية الاولى التى تناصر اسرائيل دائما — نفس الموقف الذى اتخذته بعد ذلك أيضا فى حرب ٦ اكتوبر ، مما ادى الى أن تكون هى أول دولة فى العالم ينقطع عنها البترول العربى منذ البداية ! — وتقف معها فى عنصريتها ضد كل مبادىء الحق والتحرر .. هذا هو المناخ العام للمسرحية ، فما هو مناخها الخاص ؟ ..

يعمد عبد الرحمن فهمى الى ملامح أوربية تعانى بشكل ما من قضية الحرب ، فيسجلها من خلال سلوك شخصياته المنتمية الى أجيال مختلفة لها اهتماماتها المتباينة . ولذلك كان النبض الاول وهو العنف .. سمة بارزة تجتاح عالم الكبار والصغار على حد سواء . ان المؤلف لم يعن بالحرب ميدان القتال فحسب، لان القضية أكثر استيعابا من تصادم الجيوش المتحاربة .. وهكذا لم يختار العنف من الخطوة الامامية ، بل صورة فى الحياة المدنية . وفى أبعد الاماكن التى تظنه يستقر فيها وهو دنيا الطفولة !

فيعرض كاتبنا لما أصبح يمتاز به طفل اليوم من ميل ظاهر الى الحـــدة سواء فى جده أو هزله .. فلعبه أصبحت طائرات ودبابات ومدافع رشاشة . ان انطوان مثلا ابن صاحب البيت صبى فى الثانية عشرة من عمره ، وبطله الاثير هو « الرجل الذرى » وفى يده مسدس أشعة يصدر أضواء وأصوات .. يطلقه سعيدا على كل من يلقاه ! ..

وأول نظرة نلقيها على بيت رئيس وزراء بلجيكا ، نجده يعانى كغيره من البيوت من تقلص ساعات التـــدفئة ، نتيجة الصراع المسلح فى الشرق الاوسط .. صحيح أن هذه الدولة الشمالية ليست بالطبع طرفا فى هذا الصراع، لكنه يعد نوعا من دفع الثمن غير المباشر من جراء هذه الحرب العدوانية التى شنتها القوى المعـــادية لحرية الشعوب الصغيرة . ومن ناحية أخرى فانه لم يعد مقبولا بالنسبة للمجتمع الانســـانى أن يتفـــرج على مآسى الجماعات . ان الرأى العالمى ليس كلمـــة تقال على الورق ، أو مجرد مصمصة شفاة .. أو موقفا يتساوى فيه مساندة العدوان وشجبه ، بل عنصرا ايجابيا يتدخل ليفرض العدالة على الجميع . وهكذا كان نقص الوقود فى الطقس البارد ، يعنى الشىء الـــكثير .. وخاصة بالنسبة الى العجائز، كمدام روبير والدة رئيس الوزراء . وكأن فناننا يريد أن يقـــول ان عذاب المسنين ، هو مسئولية مثل بلجيكا التى لم تقف مع الدولةالمعتدىعليها.

وحديث الحرب الحاضرة تبعث الذكرى ، فلا زالت أعماق الرجل العادى فى أوربا ترتعـــد لسماعه بلفظة الحرب المشئومة ، فأكثر الناس لهم ضحاياهم الاقربون الذين ماتوا فى الحرب العـــالمية الثانية .. ومن هنـــا تتولد كراهية حرب فى أى مكان .. كما يستشعر جورج وهو أحد الخدم فى البيت الكبير .. لكن الامر على عكس

ذلك فى الجانب الآخر .. جانب السادة والرأسماليين.. قبول رئيس الوزراء لا يبـــالى بكل الدمار فى البشر والمؤسسات الذى تخلفه الحرب ، حتى لو تعرض جزء من العالم لخطر القنبلة الذرية ذاتها .. ما دام سيبقى الرجل الابيض سيدا فى النهاية ، كما يقول .. نعم ان الاحتفاظ بمكاسب الرجـل الابيض ومستوى حيـــاته الرغدة ، هى القمة التى يجب دائما أن لا تمس فاذا حاولت دولة صغيرة أن تحرر أراضيها أو اقتصادها من نفوذ هذا الرجل ، فقد حققت عليها اللعنة . ان حق مصر فى أن تستعيد قناتها ، يعنى من وجهة نظر بول ان سيطرة الغرب مهددة بالزوال وعليه أن يحتفظ بها ولو خاض حربا عالمية .

ويدور الحوار بين بول وأمه التى تسخر من كلمات ابنها الذى تغير عما كان فى الماضى ، فأصبح اليوم يصادق أصحاب الملايين وتجار السلاح بينما هو الذى كان فى أيام فقره يقاوم النازى فيعتقل ويدعو للحياة والســلام رغم فقده أخاه فى الحرب . وكان أصحابه من العمال وأبناء الشعب .. بول هذا الذى يتحدث عن ضحايا الحرب من غير أن ينتفض له عرق ، فلا تملك الأم التى تؤمن بأن الحرب تدمر كل شىء نبيل فى النفس الانسانية ، الا أن تصمه بأنه خان نفسه ومبادئه .

وبينما هما كذلك ، اذ تنطلق فجـــأة على غير توقع صفارات الانذار ويخيم الاضطراب والذهول على الجميع.

بول : غارة ؟ .. ولماذا ؟ .. لسنا فى حرب .

جورج : ان الحرب تقوم ياسيدى حين لايتوقعها أحد.

مدام روبير : ما دامت هناك شرارة فليس ثمة مايمنع من اندلاع الحريق !

جورج : والشرارة فى السويس ياسيدى .

مدام روبير : الشرارة ؟! .. انها فى عقول بعض الناس يا جورج .

وفى دقائق يزدحم الشارع بالجماهير الفزعة الدهشة المتسائلة : الحرب ؟ .. هل قامت حقيقة ؟! .. وهل يساقون اليها من جديد ؟ لماذا ؟ .. ويثور شك ما يلبث أن يتجسد عن هجوم الاعداء للبلاد . ويشك البعض .. ولكن الحرب لم تعلن .. فيكون الجواب الحاسم القاصم : انهـــا اشتعلت دون اعلان .. كمـــــا فعل الانجليز فى السويس ! .. ويزداد الموقف حدة . عندما تسمع دوى المدافع من بعيد . فينتفض الشك يقينا . ثم يقترب صوت طائرة ، فلا يملك حتى بول رئيس الوزراء الا أن يدرك ان شيئا رهيبا قد وقع ! ولكنها طائرة واحدة !؟ غارة تشن بطائرة واحدة ؟ هل هذا معقول ؟ ويجىء الجواب قبل رد الطرف : كاف جدا .. اذا كانت محملة بقنبلة ذرية ! ..

واذا كان ليس أكثر من الحرب تفجيرا للاعماق .. لانها بمكوناتها من خوف وفزع وشـــجاعة وجبن ومبادىء ولا مبادىء .. تعمل على تعرية النفس الانسانية .. فقد فضحت بول نفسه ، هذا الذى كان منذ دقائق يتكلم عنها ــ الحرب ــ ببرود من منطق السيد الاقطاعى الذى لا يقيم وزنا لغير طبقته . ولكن يجد جديد .. لقد اقتربت منه الحـــرب شخصيا ، وأصبح فى مرماها وسيصاب بالتأكيد لو أطلقت الطائرة قنابلها .. ورغم ان الطائرة تأخذ فى الابتعاد ، الا ان الخطر قائم فليفر اذن ويهرب قبل أن يدخل العدو العاصمة . وتدرك ان هناك شيئا يخشاه الوزراء لو تغيرت الامور . ويقرع الاجراس .. لكن ما مجيب ، فقد فر الخدم .. ان الحرب بكل وحشيتها تملك أن تزيل كل الثياب التى تغطى ، وهكذا

تنمرت الانانية وأخذ كل يبحث عن ليـــلاه .. خاصة والروابط التى أقامها بول مع العاملين فى بيته غير عميقة . ويجابه الحرب وحيدا . وعندما يعلن عن استنكاره ؛ تصفعه الأم برأيه فى الحـــرب وحتميتها . ولكن بصمة الاولى الحقيقية فى هذا المنزل ؛ تقع عندما يأخذ فى الفرار وحده تاركا أمه المشلولة تلاقى مصيرها بعجزها .

وقبل أن يتم استعداده . تجىء زوجة من الخارج حيث كانت فى زيارة أحد المعارض برفقة صديق الاسرة . ولفريد تاجر السلاح .. وهو سعيد بما حدث . لانه يعنى المزيد من الثراء والنجاح حسب مفهومه . انه هو الآخر يستعد للطرب بطائرته الخاصة .. انها بها مقعدين خاليين لكريستين ؛ فعليهما أن تجىء بزوجها أو ولدها .. واحد منهما .. انه الاختيار الصعب الاخير للصراع فى موضوع علاقتها بصاحبها .. الامتحان اذن ! .. وهكذا تفرض الحرب علينا المواجهة الصريحة بشكل قاس

ثم يلتقى الزوجان .. ان كريستين فزعة من وقوع الحرب ، وتتساءل عن فائدة الاحلاف التى دخلتها بلجيكا ووجود القواعد العسكرية فى بلادنا . ويكود رد بول الذى يذهل : أكنت تصدقين حقا أنها قادرة على حمايتنا ؟ .. وفى حواره مع زوجة تدرك باعث فزعه من تطـــورات الاحداث .. انه كان الى أيام قليلة ماضية ينادى فى هيئة الامم بضرورة اشعال حرب عالمية ثالثة لو أدى الأمر للسيطرة على قنال السويس ، وبذلك يخاف ان يعامل لو قبض عليه كمجرم حرب .. وما تكاد زوجة تعلنه بعرض ولفريد ، حتى يسعد .. فالطائرة بالطبع أسرع فى الوصول الى الحدود من سيارته .. وهو لا يفكر كثيرا فيمن يشغل المقعدين ... انهما له ولابنه ! .. وتسأل كريستين : وأمك ؟ وأنا ؟ ولكنه يتجاهل أهمية

اصطحابهما .. الاولى مقعدة ولن يفعل بها الاعداء شيئا فى رأيه ، والثانية يمكنها أن تستخدم السيارة اما هـو فيجب أن يأمن على نفسه .. ففراره انقاذ للديمقراطية وسيادة الرجل الابيض . ولكنه الزوجة ترفض هـذا الادعاء ، وتصدمه بأن ولفريد ينتظرها هى وأنها ستختار ابنها معها . لقد كان بول يظن أن التاويح بمشروعات الحرب الكثيرة التى يعدها ليشارك فيها صديقه ، هى ورقته الرابحة . ورغم ذلك فهو لا يهتز لاعتراف زوجه باتفاقها مع ولفريد بالفرار معا من حياته . يقول بول « أتحبينه ؟ .. ماهـذا العبث ؟ .. أتظنين انى على استعداد لأثير مشكلة عشيق فى مثل هذه الظروف ؟ .. أتريدين الفرار معه ؟! حسن .. اذهبى الى الجحيم .. ولكن .. لا تحرمينى مقعدى فى الطائرة ! »

ولكن الزوجة التى اكتشفت مدى أنانيته ، ترفض أن تدع مقعدا . وتتابع الاحداث .. عندما يجد أن الوقت يمر ، وان كريستين مصرة على رأيها .. يصوب الى الى رأسها مسدسه .. اما أن يذهب الى المطار مع انطوان وتبقى هى ، واما أن يقتلها . وتفاجأ الزوجة . ولكنه يرد أو يعتذر .. انها الحرب ! وفى هذه اللحظة يبعث أحد أصدقائه يخبره بأن لديه له مقعدان خاليان فى طائرته الخاصة ، ويرى بول أنه لم يعد فى حاجة الى ان يتوسل الى زوجة أو يهددها .. يكفى أن يجرحها ويهينها هى و « عشيقها » ، ما دام قد خرج عن دائر قوتهما والحاجة اليهمـا . ويكون الدور على كريستين كى تستعطفه . فهى لا يمكنها الابتعاد عن ابنها ، بجانب انها تستطيع أن ترعاه أكثر .. ويتيح هذا لبوه أن يستزيد من سخريته منها ومن ولفريد . وتتفجر كريستين فى فى النهاية ، معلنة ان الطفل ليس ابنه بل هو ابن عشيقها!

ينهار بول ، وعندما تودعه زوجة وهي ممسكة بانطوان، لا تنسى ان تقول له في شبه اعتذار « انها الحرب » أيضا ! وتتحطم قيم الاشياء جميعها من حوله ، الا أمه التي تسرع اليه تقف بجانبه رغم ما فعل وتسمح دموعه .

وعندما تعلن مكبرات الصوت في الشوارع . والاذاعة حقيقة ماحدث وان الحرب لم تقم وان صفارات انطلقت خطأ ، وأن الطائرة كانت مدنية والمدافع هي في مناورات سنوية قريبة .. وتهدأ ثائرة الناس .. يبقى بيت بول محطما ، وكأن الحرب قامت لتهدم بيته هو .. ويزيد مأساته نبضا اعتراف كريستين في كلمات تبعث بها اليه ، انها كذبت عليه بشأن بنوة ابنهما انطوان .. ورغم ذلك فهي لن تعود اليه . لقد عرته الحرب تماما . ان الحيوان الذي يستعبد أنانيته أقوى مافيه ، ولانها لا يمكن أن تطمئن الى من أراد أن يهرب على جثتها وجثة أمه .. فهي تتركه الى الابد .. لا لتذهب مع ولفريد ، فليس بينها وبينه الا صداقة عادية . لقد استقلت القطار مع ابنهما الى بلد مجهول ، لعلها تستطيع أن تتنفس حياة أنقى .

وقبل أن تسدل المسرحية الستار ، يحاول بول أن يستجمع نفسه . لقد فكر في أن يستقيل .. ولكن لماذا لا يبدأ هو أيضا من جديد . ويناضل حقا في سبيل قيم الشعوب وحرياتها ، لا مع مصالح العدوان وتجار الأسلحة ؟ ..

ان مسرحية « الحرب » رغم مايتناب مواقفها أحيانا من ارتفاع الصوت والتزيد ، لجديرة بأن تتجاوز عالم الكتاب الى عالم المسرح ؟ .. فهل نتيح المتفرج أن يشاهدها ؟ ..

كاتب مسرحى والقرية

يعد عبد الله الطوخى من القلة من مثقفينا التى واصلت علاقاتها بالريف بكل الحب والاعزاز الصادقين ، اللذين تتنفسها الموهبة الاصلية .. رغم بعد صاحبها المكانى عنه فى القاهرة . وليس أدل على ذلك من النبض الحى الذى تعسكه أعماله القصصية والمسرحية والسينمائية التى تتناول القرية ، وهى كثيرة . وكما قدمت أيضا أحدث كتابات فناننا ، مسرحيتان جمعهما فى مؤلف واحد .. الاولى من فصلين وهى « المشخصاتية » والثانية من فصل واحد وهى « حادث القرن العشرين » .

وحتى اليوم لا يمكن القول أن الادب قد استوعب قريتنا بشكل كاف . فأكثر الاعمال التى عالجتها تصنع كما يفعل بعض الانتاج الاذاعى أو التليفزيونى مثلا فى تصوير الشخصيات الريفية .. الطاقية تستعار لسوالف الخنافس ، والقافات تحول الى جيمات مع لوى اللسان على طريقة تصوير الخواجات .. مما يخرج الحدث والشخصية عن طبيعتها ، وتتقلب المأساة الى ملهاة ! .. ولكن قروية الطوخى تنقذه قبل كل شىء من التعرض لمثل هذه المزالق .. لذلك تتهاوى الاشياء المستعارة قبل أن تسنح لها الفرصة أو تبدأ ، وتزول نغمة الاستعلاء المباشرة أو غير المباشرة .. التى تهدهد غالبا مشاعر

الفنان القاهرى بالنسبة الى الريف . ولا يكون البحث عن الشاذ وسط مجتمع الفلاح الخشن ، هو الهدف الذى يدغدغ بطريق واع أو غير واع مشاعر المترفين فى المدينة .. لا يلجأ فناننا الى مثل هذه الاساليب ، لانه يقدم رؤية أخرى تماما ، تتفق مع الارض التى نشأ عليهــا وعاش فيها سنوات طفولته وشبابه .. ولا يزال يغترف من حبها الى اليوم فى زياراته المتكررة لها . فى المسرحية الاولى يعرض عبد الله الطوخى للحياة والفن فى القرية ، فى تداخل الهموم الخاصة فى القضايا العامة .. من خلال تكوين فرقة مسرحية . لقد كان مجيىء المؤلف وهو ابن القرية والمخرج المكلفين بانشاء الفرقة ، بمثابة خدش للسطح الرقيق الذى يخفى خلفه عوالم متصارعة ، وليس كما يبدو على الجلد جمودا وتبلدا .. خاصة وان الواقع يتغير من صورته التقليــدية التى فى الاذهان .. بالنسبة للبعيدين عن القرية بالذات . فأجيال جديدة تنشأ فى مناخ جديد يتصل بعضه بالتطـــور المحتوم ، والبعض بسيطرة الوطنيين وليس بأبناء الاتراك والمتمصرين على مصائر بلدهم .. كما أن هناك معارك كفاح طويلة ناجحة وفاشلة .

واذا كان عبد الله الطوخى يعرض لما تفجر القرية من طاقات أبنائها المختلفة ، سواء كان أصحابها يقيمون فيها طوال الوقت أو يبعدون عنها شهورا فى الدراسة الجامعية ، فان هذا التفجير مهمــا بلغ مداه فهو يقف عنـــد حد لا يتجاوزه .. هو الذى يبدأ عند دور العامل الخارجى .. العاصمة الكبيرة بكل أستاذيتها وعطـــائها وتسلطهـــا ومركزيتها البغيضة أيضا . هذا العــامل الذى يمكن أن يتواجد أو لا يتواجد وهو كما يحدث غالبا ، يعطى له أديبنا حجمه الطبيعى .. سواء فى الفعل أو رد الفعل ،

مما يشكل وخاصة فى الحالة الثانية .. المأساة الاولى للريف المصرى . ولقد استطاع فناننا أن يجعل من تكوين الفرقة المسرحية بمثابة المحك الذى يثير قضية الجمود أو التطور .. الرجعية التقــــدمية .. فما يكاد يعلن الخبر ، حتى تترى الاتهامات. ويكون دعاتا هم المسئولين بشكل ما عن عدم بناء الجزء الناقص من المدرسة ، أو ردم البركة التى تجاوز الجامع ! .. وحين تبوخ الحجة التى تكتشف المصالح الشخصية لدى الذين يرفعون شعار « المحافظة » ، يهاجمون تكوين الفرقة بدعوى وجود فرقة قديمة فى القرية ــ على الورق ــ كانوا هم أول من حاربها، حتى أنها لم تقدم الا حفلا واحدا . ويرد الجانب الشبابى:

محب : انتو اللى عايزين تخربوها من أولها ، انتوا لا عايزين لا فرقة قديمة ولا جديدة .

عرفات : هى دى الحقيقة .. عايزين نفضل محنيين . راسنا فى العزق والفحت وجمع الدود .. وفى الآخر الله يامحسنين ..

محب : وهم المسحنين .

الفرقة المسرحية اذن لم تكن مجرد الحدث الذى بلور الصراع وفجره وأزاح الاغطية عن الاعماق وحدد عوالم الشخوص فحسب ، بل كانت لغتها وهى الفن .. الاساس الذى أراد الطوخى أن يقيم عليه العالم الجديد الحر .. فالفن هو الامل أيضا . يردد نوح الفنان الموسيقى هــذه الكلمات دائما : والفن هو اللى فاضل ، ويا الغلابة يقاتل .. يناضل . لحد الفجر مايطلع . لحد الحق مايرجع أخضر بلون السنابل .. واذا كان يبدو فى النظرة السريعة ان ظهور الفرقة المسرحية على مسرح الاحداث ، قــد استوعب الالتفات الى حق الطاقات الفكرية والمواهب الفنية الاقليمية فى الرعاية .. وهى احدى القضايا الهــامة التى

تشكل لونا من الصراع الحاد فى المحافظات ، فان الهدف الاصلى لا يلبث أن يضغط على المعالجة ويلفت النظر اليه .. وهو ضرورة فتح صفحة جديدة فى حياتنا صفحة تحول الدعوة الى ما يسمى ببناء الجبهة الداخلية الى حقيقة واقعة ، لا تفسدها حملة شعارات ماقبل ثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ . والثقة بالنفس هى المدخل الى عملية المراجعة التى تحتاج الى ان تستجمع لها قوانا كلها .. ولما كان الخوف هو المخرب الاول للثقة هذه .. فعلينا منذ البداية أن نزيل أسبابه ونحطم معاقله، مجابهين الاشياء بشجاعة « لازم نطلع على وش الدنيا من جديد .. اللى جواه حاجة يطلعها .. الابواب المقفولة لازم نفتحها .. كفاية خوف .. كفاية حزن » .

والخلاص الذى تستلهمه أحداث « المشخصاتية » نجده أيضا فى مسرحية « حادث القرن العشرين » . فالجوهر واحد رغم اختلاف البيئة من القرية الى المدينة . هنا أيضا ادانة للانحرافات فى بنية المجتمع المصرى . والصراع ليس خارجيا بقدر ما داخلى ، فلعوامل الاهتزاز ضغوطها أيضا تجاه المقاومة او المثل .. فصرخة احتجاج كمال الصحفى الشاب الثائر الذى يرفض عفوته رئيس التحرير وما يصطنع حوله من أمعات وأبواق ، تدين الزحف على البطن والتسلق والتملق والنفاق .. تدين الجبن واخفاء الراى ..

ولعل أنضج الشخصيات التى قدمها عبد الله الطوخى فى مسرحيته ، هى حسن فى « المشخصاتية » .. فقد استطاعت أن تجسد هموم المثقف الملتزم بقضايا قريته .. الخلية الاولى فى مجتمع بلده ، والتى لم يتخفف من حبها رغم « هجرته » الى القاهرة .. هذه الهجرة التى ندرك انها كانت متسقة تماما مع مثله والجانب الايجابى من

مسئوليته ، ازاء الارض التى أنبته .. فلم يدفعه الى مغادرة « البلد » تطلعات طبقية ، أو انتهازية المتعلم أو أنانية الفــرد الذى تتاح له الفرصة على حساب قريته فيهتبلها . بل ألهبه الشوق لتحقيق الامل الوضىء ، الى النزوع الى موطن القوة .. قوة العلم والمنصب الفعال ، يلتمس منه عدته . وهو فى هذه الاثناء يستحضر دائمـا قريته ، وكأنه الحنين أو اللهفة التى يستشعرها من يسافر خارج الحدود الى بلاد برة .. فيضطر كثيرا الى المقارنة بين مايرى وماترك ، حالما بأن يتنفس وطنه رأقى الاشياء فى البلد المتحضر . « احنا كنا نخرج من المسرح من دول أنا والاستاذ أنسى ـ المخرج ـ بعد سهرة غنية وممتعة ، ونمشى فى شوارع القاهرة الجميلة المنورة .. تترسم بلدنا دى فورا فورا قدامى ، وأقــول له : أهى زمان بلدنا دلوقت عرفانة فى الضلمة ، والنــاس نايمين من التعب هالكانين . ليه ؟ .. ليه كل شىء يبقى للقاهرة ، والفلاحين الشقيانين ، مالهمش غير العرق والكدح والشقا ؟ .. وعندما امتلك صاحبنا أداته .. عاد الى قريته .. مؤمنا أشد الايمان بصورة مثلى لخدمة بيئته ؟ يبلورها الفن فى أية صورة من صوره .. فالفن هو قائد هذه المرحلة التى نبنى فيها المواطن من الداخل ، والشكل الذى يرتضيه حسن للفن لا يدغدغ غرائزا ولا ينافق حكاما ولا يتحول الى تجـارة ، بل يكون ضمير هــذا البلد ، بكل جراحه وأحزانه وأحلامه وآماله ونقده أيضا . واذا كانت الخدمة العامة التى وهب لها بطل المسرحية حياته ، قد أفسدت عليه الخاص من أمره .. فان كاتبنا يعمل على أن يجـد حسن رغم ذلك ، الحب الذى أضاعه .. والذى يشترك فيه الامل والغد والخلاص ، الذى يقاوم صادقا الحصار الذى تفرضه احتلال الارض ..

ولا يبدو استيعاب الطوخى للقرية فى الكليات التى يقوم عليها الصراع فحسب ، بل يمتد الى أدق الخلايا التى تعطى للعروق شرايينها الدقيقة .. مما جعل الكثير من الشخصيات تستكمل ملامحها . ولقد لعب الرمز من ناحية أخرى دورا فى استكمال هذه الملامح واعطائها البعد الثانى الذى أراده صاحبها ، رغم انه المسئول بشكل ما عن تدخل « تعليمات » المؤلف فى مسار الحركة المسرحية فى تجاوزها الاشياء الخارجية الى الداخلية .. مما أعطى لهذا التجاوز اتهاما لذكاء القـــارىء فى ادراك ما بين السطور ! ..

مأساة الزعيم المغربي المهدى بن بركة
فى حوارية أديب ليبى

هل أصبحت أهم سمة للآداب والفنون العربية اليوم هى عدم انفعالها بما يقع على أرضها من احداث ؟ والا فماذا نفسر تجاهل الادباء وكتاب الدراما مثلا للحوادث التى تشكل النبض القومى على الارض العربية ؟ .. ان الكثيرين من أصحاب الاقلام يرتاحون فى قرارة أنفسهم ، فى محاولة لتبرير الذنب ، الى وضع مثل هذه الاحداث فى نطـــاق السياسة المجردة ، وكأن هناك شيئا يمكن أن يطلق عليه مثل هذا الوصف ، يقتصر كتابتها على الزملاء الصحفيين الذين تدخل فى اختصاصاتهم وحدهم ؟ ..

وعلى الرغم من ذلك ، فهناك بعض الاقلام الاصيلة التى تشذ عن هذه القـــاعدة ، وترفض أن تنساق مع التيار السائد .. وهكذا أخرجت المطبعة « المهدى ولدى » .. هذه التمثيلية أو الحوارية كما يسميها صاحبها الاديب الليبى محمد صالح القمودى ، يتناول فيها ربما لاول مرة على الصعيد العربى، قضية المهدى بن بركة الزعيم المغربى الذى قتله التسلط فى باريس ومثل به وأحرق جثته وذر رمادها ..

وتبدأ القصة قبل عملية خطف بن بركة الذى تجاوزت شهرته بلده الى خارجها .. حتى عد من رجالات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية البارزين ، وبطريقة عين سمكة الكاميرا التى تنتقل بسرعة خلف الاحداث ، وفى أكثر من

مكان قريب وبعيد وعبر البحار أيضا ، ينطلق الصراع قويا ضاريا بين زعيم الحزب وبين أوفقير والملك . وقد استطاع المؤلف ببراعة وهو يستلهم القضية ، الا يجعل هذا الصراع ينحصر بين جدران الذاتية رغم اعتماده على شخصيات مبلورة . ولذا بدا الصراع عملا جماعيا من الناحيتين .. قوى الشعب ، وقوى الاستبداد .. ينصهر فى كل منها الذين فى القاع والذين فى القمة . فبينما الاولى تعتمد على الجماهير الكادحة والباعة والفـــلاحين والطلبة والضباط غالبا ، نجد الثانية تتشكل من القصر والضباط والعصابات المحلية والاجنبية .

ورغم ان هذه الحوارية هى أول عمل محمد صالح القمودى يصل الى القارىء المصرى ، الا انه يؤيد اصالة هذا الكاتب الليبى الشاب وامتلاكه لناصية فنه واستيعابه لثقافته التى يهضمها ولا يجعلها كمـــــا يفعل الكثيرون استعراضا للعضلات .. ولذلك نجـــد استشهاداته أو استيحاءاته .. من أعمال نبى الاسلام أو التاريخ العربى أو كتابات الصحفيين المصريين والفرنسيين .. فى موضعها تماما .. تدخل فى نسيج العالم الذى يقدمه لنا ..

وقد استطاع كاتبنا أن يبتعد عن الصوت الزاعق ذى اللون الفاقع ، رغم أن المجال وهو وطنى ، يشجع عادة على الانزلاق اليه ! .. ولعل قدرة القمودى تجىء قبل كل شىء من دراسته وفهمه وتعايشه للعالم الذى يعرض . فهو شديد القرب بل الاندماج فى الارض المغربية التى يتناول أحداثها ، ولذلك كانت الاعماق هى التى تبرز فى المقدمة قبل الملامح الخارجية . واظن ان شكل التمثيلية الاذاعية أو الحوارية التى انتقاها كاتبنا ، قد ساعدت من ناحية أخرى على ابراز هذه الاغوار الدفية .. كما أعطت المزيد من حرية الحركة والسرعة لاستيعاب الاجــواء المختلفة

والمتناقضات وأطراف النزاع فى وقت متقارب وفى نفس واحد ..

ومن السطور الاولى يدرك القارىء بوضوح ، المكان الذى اختاره الاديب لنفســـه .. وقف مع الشعب .. تنفس همومه .. عانى قضاياه . ومن أهم ما عالج القمودى فى هذا المجال ، قضية الاقطاع بثالوثها ..الارستقراطيون والمعمرون واليهود .. والفقر هو النبت الاول لهـــذه القضية . وبأسلوب كاتبنا الموحى ، يصور بشاعة الكد للحصول على لقمة العيش . الى الحد الذى يستلب من نفس صاحبها ، شيئا غير قليل من صفائها الكامل .. فى احدى اللقطـــات تفور فى وجدان بائع السحلب رغبة خالصة فى أن يقدم أو يهدى الى أم المهدى بن بركة ، ماتشترى من سحلب بلا مقابل .. اكراما للزعيم . ولكن فقره الشديد وحاجة عياله يصـــدانه ولا يتركان له الخيار ! .. احدى اللمسات الانسانية الصادقة عظيمة الدلالة ..

ومع أن « المهدى ولدى » لا يمكن وحده أن يقدم فكر القمودى كاملا ، الا أنه رغم ذلك يشى بثورية صاحبنا ورؤيته الاسلامية المتفتحة أيضا . فهذه السمة المركبة تعكس طبائع الشخوص وقيم أساسية وخاصة فى المجتمع الشرقى ، الى الدرجة التى تتجاوز مسرح الاحـداث العربى الى بلاد بره .. حيث تتساءل آن مارى الفرنسية مثلا عن التناقض البشع فى واقع فقراء المسلمين الذين يموتون من الجوع والحرمان وينتزعون اللقم من أفواههم .. ليزنوا الاغاخان بالذهب كل سنة ! ..

وتعقب من موقع مفهومها الخاص :

غريب كيف أن دينا سماويا يسمح بهذا ؟

وبالطبع فان كاتبنا يعنى بالدين هنا المسلمين . وهكذا

عرضت كتابة القمودي لشخصيات ومواقف اسلامية غير قليلة ، تملك الايحاء أو تشترك فى عملية مقارنة اذ تدل على قيم حياتية أصيلة .

ورغم ان محمد صالح القمودي لا يكتب الشعر ، الا ان الروح الشعرى تسرى فى كتاباته بشكل واضح . ولعل هذا ما أعطى عمله شـــفافية اصيلة خالطت المأساة ، وخففت من جهـــامة الاحداث .. عاملة على أن تبلغ بالشعور الانسانى قمته ، وخاصة فى مثل هذه القضية التى تتعلق بالحرية . وهناك عنصر آخر شارك فى اضفاء هذه الشفافية أيضا ، وهو شخصية الام والدة الزعيم بن بركة نفسها فى الاحداث .. فقد كان لها أثرها البالغ فى بلورة المأساة الانسانية فى القضية .. بالذات وقد جعلها فناننا الشخصية الاولى فى التمثيلية ، زيادة الى تكوينها المقاوم وهى السيدة العجوز ذات الاحفاد ، التى تعيش دائما قبل حادث المهدى .. سيرة أسماء بنت أبى بكر وموقفها الحاسم الشجاع من ضرورة استمرار ابنهـــا عبد الله بن الزبير فى المقاومة والتضحية حتى الموت . ان هذه الخلفية قد أسدت الشخصية المكافحة بعون روحى آخر كانت فى مسيس الحاجة ، كما وصلت أيضـــا اليوم المتفتح بالامس الزاهر .. وقبل هذا وذلك شكلت اليقظة والبعث العربى الجديد .

ولذلك كان حديث الثورات هو النغمـة المحببة التى تعزف عليها أصابع القمودي والقـــوى الوطنية كذلك .

مسرحيتان قصيرتان
لفتحى رضوان

تعطى عادة أعمــــال الكتاب غير المحترفين أعنى غير المتفرغين للأدب والفن مهما تتابع انتاجهم نكهة خاصة ، لا نجدها عند الفريق الثانى . ولعل ذلك يرجع الى تكنيك الفريق الاخر الانضج ، وخبرته والتصاقه أكثر بعــالم الخلق الابداعي . وفتحي رضوان واحد من فنانينا الذين يعطون الكتابة بعضا من وقتهم رغم ان بدأها منذ وقت مبكر بالكتابة السياسية .

ولم يكن من المستطاع لمثل فتحى رضوان عمل طويلا بالنشاط السياسى وشارك فى النضال الوطنى بكل أبعاده النظــرية والعملية ، والتى ترتضيها نظم الحكم السائدة أو لا ترتضيها سواء أكانت السلطة غير وطنية يحركهـــا المندوب السامى والقصر الملكى ، أو وطنية يشكلها الحزب المعارض .. ان يبعد أو يتجاهل هذا الماضى المتفجر كله وهو يقتحم القصة والمسرحية ، كما حدث أيضـــا بالنسبة الى زميله أحمد حسين . ولذلك حملت أغلب أعمال صاحبنا نبض الكفاح المصرى من زواياه المختلفة ،

وهكذا أيضـــا عكس أحدث مانشر كاتبنا .. مسرحيتان قصيرتان فى مجلد واحد هما : «الحائرون» و « يابدر » .

وقد عمد كاتبنا فى هذه المرة الى الابتعاد قليلا وعدم الاعتماد على الاحداث التى شارك فيها جيله هو ، فاختار

للمسرحية الاولى بداية القرن العشرين توقيتا حين تبنى بعض الوطنيين وخاصة من اعضاء الحــزب الوطنى فى الداخل والخارج ، اقتراحا بالعمل مع دولة الخلافة وطرد المحتلين بواســطة جيش عثمانى يجىء من شرق قناة السويس ، وكان الانجليز قد أعلنوا حمايتهم على مصر قبيل الحرب العالمية االاولى ، وقطعوا كل صلة بها بدولة الاتراك . وكان من شروط الجانب المصرى للاعتراف بهذه الحملة التركية ، أن يصحبها الزعيم محمد فريد ، لتوكيد موقفها المتضــامن مع الامانى الوطنية المصرية . ولكن المشروع لم يخرج الى حيز التطبيق وكأنه ارهاصا بأن مصر لن تستقل الا بجنودها هى وحدها . وقد استشفت « الحائرون » القوى الكامنة فى الشخصية المصرية وفسرت انتفاضاتها الذاتية وهى تقاوم غاصبيها ، عاملة على ان تنفض عنها الصدأ الذى يقصع الصلة بينها وبين الاجيال التالية . ومن المصادفات الطيبة أن تصدر « الحائرون » هذه الايام ومصر تأخذ فى الالتفات الناضج الى داخلهــا مع سيادة القانون وحق الشعب فى حرياته واتاحة التعبير غير المقيد واقامة الحوار المفتوح لان « الفكرة الواحدة اللى بتيجى من غير تفكير ، دايمـــا فكرة خطرة .. لكن الاتفاق بعد الخناق والاخذ والشد والزعل والصلح اتفاق يستحمل الايام ومفاجآتها » كمـــا تقول احســان فى المسرحية .

ولكن اذا اســتطاع كاتبنا ان يستوحى من تاريخنا الحديث أحداثه ، الا أن معظم شخوصه لم ترتق الى مستوى الشخصيات الحية . ولعـــل ذلك نبع أولا من ان الحوار العامى مكتوب بلغة أيامنا هذه التى نعيشها ١٩٧٢ ، لا بلغة ستين عاما قبل ذلك مما أطاح بالتنفس الحياتى للشخصية .. فلم تقنع بدقائق عصرها وبدا

واضحا انها مستعارة من حقبة تاريخية أخرى . واذا كان أسلوب تعبير المؤلف نفسه يختلف فى شبابه عنه فى رجولته ، فأولى أن يتسع الاختلاف فى عصر عن عصر .

ويقترب من هذا بشكل ما اختيـــار فتحى رضوان للأماكن التى تقع على أرضها أحداثه . فالاسلوب التقليدى يجعل من عاصمة البلاد المسرح المفضل للاحداث ، الا فى حالة واحدة وهى أن يتميز موقع أو مدينة معينة بحدث تاريخى يجعلها باعث شرف اختيارها ! وفى مسرحيتنا تبدأ الاحداث وتستمر طوال الفصلين الاوليين ــ المسرحية من ثلاثة فصـــول ــ فى مدينة المنصورة . لماذا ؟ .. وما أهميتها هى بالذات بالنسبة الى حوادث المسرحية ؟ واذا كان المؤلف يعنى بذلك انتشار المد الثورى فلمــاذا لا يفصح بذلك المدينة بعض السمات الخاصة التى تتميز بها فتحولها من كلمة مسطحة على الورق الى كائن مجسم يتنفس ؟! .. اننا نريد معايشة حقيقية لكل العناصرالتى تدخل فى تركيب العمـــل الفنى ، مهما بدت صغيرة بسيطة .

وكان حماس المؤلف هـــو الآخر ورغبته فى اضفاء اللمسات العنيفة مسئولين عن المبالغة فى رسم الشخصية أحيانا ، كما فعل ازاء احسان . فلم يرسمها فتاة عصرية متحررة الفكر ــ رغم انه لم يحطنا بما هيأ لها ذلك ــ تناقش القضية الوطنية بوعى ونضج كبيرين فحسب ، بل جعلها فدائية على طريقة السينما المصرية . فتتحول من فتاة طبقة متوسطة الى التنكر الدقيق جدا زيا وأسلوبا وتعبيرا الى درجة التطابق فى شكل غجرية تدخل المقهى البلدى تحمل مقطف الودع وتبين زين .. حاملة الرسائل الى الفدائيين الذين يترددون على المقهى ! وهذا يذكرنا بالفارق الكبير بين احسان وسنية.« عودة الروح » لتوفيق

الحكيم . الثانية بنت عصرها وبيئتها ومفاهيمها السائدة فى ارتفاعها وهبوطها .. أى شخصية حية حقيقية ، واحسان فتاة تصلح لعام ١٩٧٢ وتكون غير عاديةأيضا .. لانها مثقفة وملتزمة وفدائية كذلك ! .. ومثل هذا القول يمكن أن يردد أيضا فى المقارنة بين احسان وبطلة « فى بيتنا رجل » لاحسان عبد القدوس . فمن الطريف ان الشخصية التى تصور أوائل القرن أكثر عصرية وتحضرا واستقلالا فى الرأى والفكر من هذه التى ترسم الفتاة المصرية فى وسطه ! ..

واهتمام فتحى رضوان بتعرية النفس البشرية اذا كان قد استوعب الصراع بالسلب فى شخصية الشاب الذى اهتزت ارادته ولم يتحمل العذاب فى المسرحية الاولى ، فهو على العكس فى المسرحية الثانية ايجابى النزعة وامال المحامى الناشىء الذى لا يعمل ويعيش احلام يقظته فى وهمه ، ينسلخ عن جلده ويندفع فى الدفاع عن المظلومين.

واستيحاء فناننا للأشياء التى يعرفها جيدا فى أغلب مايكتب ، يجعله يستلهم مسرحيته « يا بدر » من عمله فى المحاماه ويختار قطاعا من القطاعات الخطيرة فى الحياة المصرية ، يعج دائما بالمآسى الدامية والذى كان من أوائل الموضوعات التى لفتت رواد أدبنا الحديث كما فعل المويلحى فى « حديث عيسى بن هشام » . وهو ما كان يعكسه نظام الوقف ونهب نظا رالاوقاف . واذا كانت شخصية أمل المحامى الفقير الذى كسب قضيته مدفوعا اليها بتعايشه مع بؤس المستحقين ثم تعيينه ناظرا للوقف وتحويله الى صورة من الناظر القديم ، تبرز الى الواجهة .. الا أن شخصية النعناعى تبزها فى الأصالة .. شخصية الانسان الذى يرفض أن ينساق مع التيار بحجة ان هكذا يفعل الناس . ابن البلد الثائر

الذى يناضل حتى آخر رمق ،، لا يبرر لنفسه أشياء يرى انها يمكن أن تعمل على افساده . ثورته تنبع من المبدأ القوى الذى لا يتلون والذى يأخذ نفسه به منذ البداية ، لان مثيرات البشر لا تشغله .. انه روح مصر كما وفق كاتبنا فى رسم هذه الشخصية الى المدى الذى جعلها حية تتحرك طيعة وتنقل خطاها بعفوية بلا أى قيد أو مباشرة ، مما جعل منها أيضا احدى الشخصيات الاصيلة فى مسرح فتحى رضوان .

الكواكب : ٧-٣-١٩٧٢

مسرحية فلسطينية

. من الاشياء التى لم تلتفت اليها الثورة الفلسطينية بما فيه الكفاية ، التخطيط للاستفادة بالامكانيات الفنية والادبية فى الشعب الفلسطينى ورعاية ملكات أصحابها ، وخاصة بالنسبة للأجيال الجديدة . فهذه اللغات الانسانية ـ الفنون والآداب ـ تملك أن تفجر قبل أى اسلوب آخر ، التعايش الحقيقى والمساندة الموضوعية للقضية فى خارج البلاد العربية وداخلها على حد سواء .

ولعل عدم الفهم الدقيق للوظائف التى تؤديها هذه اللغات ، هى المسئولة عن تأخرنا فى هذا المجال والصوت العالى الذى « نهمس » به فى الاعمال القليلة التى تناولنا فيها المأساة . ولا شك أن تعقيدات القضية بروح العصر والحروب المتتالية التى خاضها العرب بكل ظلالها ونتائجها ، عملت على أن يتجاوز الكتاب القوالب التقليدية التى كانت تسمح فى راى الكثيرين بالمباشرة والصراخ الاجوف والحماس المصطنع ، الى القصة والرواية المسرحية كما فعل أخيرا د . أحمد صدقى الدجاني فى « هذه الليلة الاخيرة » .. وتقع أحداث هذا العمل المسرحى فى فلسطين المحتلة بمنطقة القدس ، فى الساعات القليلة التى تستوعب الفسق وطلوع الفجر . وقد اعتمد كاتبنا على الاجيال الثلاثة التى تجمع بين

الجد والاب والابن ، فى عرض نبض تأريخ المأساة منذ أن نضج الاول ابان الحرب العالمية الاولى الى أن أفرخت نكسة يونية ١٩٦٧ . وابتلى الحفيد الشاب بسمومها . واذا كانت أرضية الاحداث التى تتحرك عليها الشخوص هى التى لا تزال تؤثر فى الوطن العربى كله ، لذلك فقد سقط الحاجز الوهمى الذى يفصل عادة بين القارىء والعمل الادبى من ناحية استقلال الثانى بعالمه الذى يبتعد أو يقترب كثيرا أو قليلا عن دنيا اللحظة التى ينتمى اليها التلقى فى تنفسه الحياتى .. وانمحت فى هذا المجال الحدود أو كادت بين العالمين وتداخلت الاحداث فاصبحت شيئا واحدا هو أول هموم الانسان العربى المعاصر .. الذى لا زال يطالعه كل يوم واقعا وسياسة ..

وهكذا عرضت المسرحية للاعتداءات الاسرائيلية وطرد السكان العرب وأسلوب الارهاب المستمر .. من ثنايا الحياة العادية التى تعيشها الجماهير العربية ، والتى تتخذ فيها الشخوص مواقف الاستسلام أو « الاعتدال » أو المقارنة من سلطات الاحتلال . وفى بداية « هذه الليلة الطويلة » يقدم الدجانى تكوينات شبه جاهزة للشخصيات .. فالزوج حسن المحب للاناقة والتظاهر وما يستتبع ذلك من تكاليف تفوق القدرة أحيانا ، والذى عاش حياة متحررة فى أحضان الأوربيات واليهوديات رغم زينب التى اقترنت به عن حب عنيف ، يعد نفسه من المعتدلين الذين أوتو من حكمة النضج ما يجعلهم يرون ضرورة عدم اغضاب العدو القوى وأهمية اجابته الى ما يطلب فى سبيل أن يحصلوا القضية على أى شىء نظير أسلوبهم اللين ! .. ولذلك فهو يصادق الحاكم العسكرى اليهودى شاجبا مبدأ المقاومة رافضا المشاركة فى دعوة مقاطعة اجتماعات قوات الاحتلال . ولكن زينب وأباه يتخذان موقفا مضادا . تقول

الزوجة : اننا نرفض الواقع المر المخالف لطبيعة الامور .، وارادة الناس قدرة من القدر تغير وتصنع .. لا شيء قادر أن يقف في وجهها .. وان توقف حركة الحياة .. (ص ٣٧) . فيتهمها حسن بانها هي التي أفسدت على ولدهما يحيى حياته ، اذ شجعته على أن يكون شابا أرعنا ويلتحق بالمقاومة ! ..

والمسرحية ترفض أن يتحول اعترافنا ببشاعة النكسة الى نوع من التعـــذيب الدائم النفس الذى ينفث الشك واليأس والاستسلام فى النهاية . نعم ان وجوب عدم تكرار الاخطاء ، ينبغي أن يبدأ من منطلق التغيير أو التصحيح والاعتماد على شجب « التعـــــدد والتجزئة ورواسب التخلف والاستغلال أصلا كان أو نتيجة انحراف » .

ويعطي أحمد صدقى الدجاني للعقـائد الروحية التى تشارك فى تكوين المواطن العربى حجمها الطبيعى الحقيقى غير المبالغ فيه أو المنتقص منه .. ولذلك انعكست القيم الدينية الاسلامية والمسيحية فى شـكلها الناضج المتحرر التقدمى فى مواقف الشخصيات ، لأنها أعطتها دائما الامل فى الخير والحياة الافضل ومقاومة ارهاب المحتل ، كما زادت من وحدتهم « كل الأدعية تصل للرب » .. فانبثاق الاديان السماوية من الارض العربية لم يأت عفوا ولا يمكن أبدا أن يمضى بلا تأثير .

وتناول المؤلف للواقع الفلسطينى بدراية كبيرة حال بين القارىء وبين الوقوع فى براثن الصور الفجة والاكتفاء بالصنعة التى تأتى نتيجة معالجـــة بعض الادباء لهـــذا الواقع الذى تقطعت الأسباب بينهم و بينه لبعدهم عنه ، لان النيات الطيبة وحدها لا تكفى فى انشاء الاعمال الفنية الصادقة . وكان من نتيجة ذلك مثلا سقوط أسـطورة العملاق الاسرائيلى الذى لا يعرف الخطأ أو الضعف .

فلم تعد قوته العسكرية بالتى ترهب ، فاذا كان يملك عقولا وذكاء ، فنحن نملك العقول والذكاء أيضا .. والبقاء لصاحب الحق الذى يستمر فى النضال حتى النصر . وهكذا عرف الشباب الفلسطيني المكافح ، كيف يبطل بعامه الاسلاك الكهربية حول المعسكرات الصهيونية بأقل الأشياء ؛ ويكون فى مجابهة الخوف فى النفس والقضاء عليه بالعمل الفدائي .. مطلبا يستشعر احدى الشخصيات الحاجة الماسة اليه حتى تستجمع قواها .. فاسرائيل « ليست عدوا معجزا » ! (ص ١٤٥) .

ورغم أن الدجاني حاول أن يجعل من عمله شريحة واقعية نابضة بالحياة ووفق فى غير قليل من المواقف ، الا انه لم يستطع أن يخلص عمله المسرحي الاول تماما من قالب المقالة الذى يستخدمه صاحبنا عادة فى كتاباته . ولذلك تحولت « هذه الليلة الطويلة » فى بعض الاحيان الى مسرحية فكرية توقف عجلة الحوادث لتناقش طويلا .. ساعد على ذلك الاسقاط الرمزى الفضفاض الذى أراد أن يفسر به بعض ما أكتشف هزيمـــة يونية من وقائع ومسئوليات . ولعل ما أعطى أيضا هذا الانطباع تحول شخصية شعبية لهـا اهتماماتها التقليدية والفطرية مثل الأم ؛ الى شخصية مثقفة عميقة الادراك الفكرى تناقش وتجادل وكأنها فى حلقة بحث . وفارق كبير بين أن تفخر الأم كمواطنة عربية الواقع المأســـاوى بمختلف ألوانه ، بأسلوبها هى أو بمنطقها الذى سيلمس ببراءته وعفويته وأمانته الاقناع والوجدان .. وبين أن تتخذ دور المفكر أو الرائد الطليعي ، الذى يدخل بهذه النسبة فى تركيبها سواء كانت أمية أو متعلمة ! ..

الكواكب : ٢٤ ـ ٤ ـ ١٩٧٣

مسرحيات مصرية

تحولت كلمة الجامعة فى القاموس المصرى ، الى أشياء كثيرة تؤلم ، منها فقــدان الروح الجامعية بين الأستاذ والطـالب ، وروح الزمالة بين الاستاذ والاستاذ هل نذكر الحـــادث الذى ضرب فيه عميدا لاحدى الكليات استاذا بنفس الكلية بالحـذاء ــ والدروس الخصوصية وتجارة الملازم والكتب الدراسية وارتفاع أســعارها ، وازدحام المدرجات وانعدام روح البحث اكتفاء بالمقرر فى مؤلف الاستاذ وغيرها من الجوانب التى لا تجعـــل من الجامعة جامعة .. وتقعد بها عن أن تؤدى دورها فى بناء المجتمع وقيادته . واذا كان أمر جامعاتنا كذلك ، فان الحديث أو الاشارة الى نشاطها الفكرى والفنى والادبى .. يبدو من نافلة القول وربما الآذان فى مالطة أيضا .

ولهذا عندما تقدمت احدى المؤسسات فى بلادنا ، هى الجامعة الامريكية بالقاهرة ، على المشاركة فى النشاط الثقافى والفنى ، فتعلن عن مسابقة للمسرحية ذات الفصل الواحد ، ثم تجمع انتاجها الفائز أو الصالح فى كتاب يحمل اسم « مسرحيات مصرية » .. فهى تجــربة تستحق الاهتمام والتقدير ، خاصة اذا كان الكتاب الذين يشتركون فيها من الاسماء الجديدة التى ربما يكتب أغلبهـا لاول مرة ، وهى : عبد الغنى داود ، كارمن واينشتاين ، خديجة

رشـــدى ، امين بكير ، ســـمير ابو ذكرى ، فاروجان كازنجيان ، سامى ابراهيم حنا ، عثمان شكرى سليم . فتحى عبد الغنى حامد ، مصطفى بهجت مصطفى ، زينا عتيق ، ومحمود السيد سليمان .

ان الشعار المرفوع الذى كان يريد أن يقصر أمانة الكلية وشرف الفنان ، على أصحاب هذا الشعار وحدهم .. سقط وسقط زعمه ، وخلفته الجماهير القـــارئة والكاتبة وراء ظهورها والادباء الأصلاء يأخذون طريقهم ويؤدون دورهم ، من التزامهم قبل كل شيء بتراب أرضهم وفكر بلدهم ساخرين من أن يتكون هذا الالتزام بعقيدة « وطنية » يؤمنون بها تأتى من الشرق .. الغربى .. من مكان يبعد آلاف الاميال عنهم . لم يكن شـــعار « الادب فى سبيل الحياة » هو الذى دعا الادباء اذن من مختلف الاجيال الى معايشة هموم وطنهم ومعاناة ذل الاحتلال الصهيونى الذى التهم أماكن عزيزة من أراضيهم .. بل كان صدقهم مع انفسهم ومع الآخرين هو الذى دعاهم بلا حاجة الى لافتات وأيديولوجيات خارجية ، الى تناول قضية التوسع الاسرائيلى العدوانى على الاراضى العــربية . وهكذا فعل مثـــلا أمين بكير فى « أنشودة الرصاص » .

ولقد اختار هذا العمل الممتاز لمعالجته ، أن يواجه فى لحظة مشحونة بالانفعال والتوتر ، لقاء صديقين قديمين جمعهما الحب والرضـــاعة من ثدى واحد فى الماضى ، ويفرقهما فى الحاضر انتماء كل منهما الى معسكر يعـــادى الآخر . فشادى الفدائى الفلسطينى الذى يتنكر فى زى حاخام ، يواجه زميل الطفولة يعقوب الجندى الاسرائيلى .. فى أثناء مرور الاول على الثانى فى كشك الحراسة ، والاعلان الملصق على الحائط فوق الرؤوس يحمل صورة

شادى المطلوب القبض عليه . ويفجر المؤلف من خلال لقاء وتكوين هاتين الشخصيتين ، ضغوط المأساة الفلسطينية التى تجعل من البعض قتلة متعصبين ، والبعض الآخر فدائيين يحملون أرواحهم على أكفهم . ولعل اختيار بكير لشخصية شادى بالذات ، بلورة لمدى ماوصلت اليه المقاومة العربية وشعراؤها ومثقفوها يشتركون فى النضال المسلح .

ولقد استطاعت « أنشودة الرصاص » أن تبعد عن الهتاف الذى يحاول أن يخفى ارتعاش الاصابع التى تمسك بالقلم ، وأن تستوعب الروح الحقيقية التى تجعل القضية هما مقيما من هموم المواطن العربى ، بحيث تبدو اية مشكلة عالمية أخرى ، على هامشها وليس قبلها أو فوقها .. كما يحلو للبعض أن يفعل وهو يأخذ من فيتنام أو كوبا القدوة ، والمثل بين يديه ـ كدت أقول وهو غارق فيه ولكنى نسيت أن هذا البعض أصلا لا يؤمن الا بأشياء ومثل تأتى اليه أو تفرض عليه من الخارج ! ـ أعنى أن الجماهير العربية تتنفس فى حاضرها بطولاته . يقول شادى وهو محاط برجال البوليس الاسرائيلى المسلحين وهم يشبهونه ساخرين بكبار المحررين مثل اميليا نوزباتا أو جوزى ماركى أو غيرهما .. « لا . أنا شادى .. فلسطينى يبحث عن هويته .. يصنع جسراً ليعود عليه ملعونة كل التأملات أمام تأملاتى .. هنا فلسطين .. يا أيها العالم المتحذلق ... هنا فلسطين .. يا رافعى شعارات جيفارا .. يا رافعى شعارات الثورة فى انجولا فى موزمبيق .. القدس دعونا ننتشه من معزوفة الامل الى سمفونية الخلاص . ياسافكى دماء الأبرياء نظفوا آذانكم كى تسمعوا النغم الجديد .. نغم المدافع » (ص ٧٧) . وعندما يصوب مدفعه الى صدور الاسرائيليين

قبل أن يستشهد ، تكون آخر كلماته : ياهذا القادم من بعدى . انى أبتهل وأتوسل .. لا تصبح خيطا من دخان وكفانا ما حل بأرضك » .

واذا كان أمين بكر قد اتخذ مسرحه فى الارض المحتلة بقطاع غزة على أطراف قرية تحمل دلالة هى عين جالوت، فان سامى ابراهيم حنا صاحب « الحرب قامت » ــ هذه الحروب التى عالجتها بعض مسرحيات المجموعة وقعت بالطبع قبل ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ــ قد اختاره فى المدينة ، مصورا الانحراف الذى تتجه اليه بعض النفوس المريضة زمن الحرب والازمات ، وهم لا يسترشدون فى خطواتهم الا بمنافعهم الشخصية مهمــــا تعرض المجتمع للهموم . فنجد عادل مثلا يتكالب على تخزين الحاجيات بحجة عدم التعرض لازمات التموين . فهو يكدس المعلبات مثلا الى درجة لا تجد زوجه معهـــا ما تدفع للمحصل استهلاك الكهرباء .. « لقد عرضت على محصل النور أن يأخذ بدل النقود ، معلبات الكريز الفاخرة أو البلوبيف النادر .. ولكنه رفض » !! ..

وليس من الضرورى أن يكون حديث الحرب نابعا من مركز الدائرة حيث القتال أو المقاومة ، ففى الظــلال والمواقع البعيدة تسرى الروح حتى الاطراف ، كما فعلت مسرحية أخرى هى « عودة قطوط » لعبد الغنى داود ، وصاحبها يتناول شخصية مدع أدخل نفسه فى زمرة المهجرين ليحصل على المرتب الشهرى الذى يصرف لهم. ويعود الى قريته ثانية حاملا مظهره الجديد ، فيقابل كما توقع بترحاب يفرضه فى واقع القرية الصغيرة ــ الكفر ــ الفقير ، أن يكون المرء صاحب ماهية شهرية غير مقطوعة . ولم تكن كل صلة المعلم قطب ــ كما أصبح اسم الواد قطوط ــ بالمعركة هو استغلاله المادى لهـــا

اذا صح هذا التعبير فحسب ، بل عمد ايضا الى استعارة البطولات الخارقة والصاقها بشخصه .. ورغم أن اصحابه كانوا يعرفون زيفها وكذب قائلها ، الا أنه ظل يؤلفها وهم يتجاهلون . ولم يتغير الموقف الا عندما اكتشفوا خداعه لهم فى لعب الورق .. لحظتها فقط ثاروا ضده .. ربما لانه استلب منهم شيئا يخصهم ـ فهل يريد الكاتب أن يقول أيضا أن الحس الوطنى العام عند أبطاله لم يتبلور الى الدرجة التى لا يثورون فيها على كل من يمس نضالهم ؟! ـ وذكروا ماضيه المشحون بالسواد ، ونفروا منه ناقمين ، وتركوه بعد أن اثخنوه جراحا ، وحيدا مع غربه .. وهو يقاسى أزمته التى تضطره الى الرحيل من قريته رغم ما تكبد فى سبيل الرجوع اليها والبقاء فيها .

واذا عرضت بعض الاعمال المسرحية كما مر بناالسلام المتصل بالحرب فى المأساة الفلسطينية ، فهناك مسرحية اخرى هى « آنستى العزيزة متى ؟ » لفتحى عبد الغنى حامد استوعبت فى معالجتها السلام العام . وان لم تستطع ايضا ان تمنع نفسها من الاشارة السريعة الى فلسطين وفيتنام . أن عيسى بطل المسرحية يؤمن بأن تقدم البشرية أصبح يقتصر على فكرها وليس على أحاسيسها .. مما يولد التناقض الذى يقعد بها عن تحقيق الآمال المعقودة على تطورها . ويقول « اللى بيفصلنا عن بعض مجرد أغشية رقيقة قوى .. ومفروض ان كل ماتقدم البشرية ، الاغشية دى ترق أكثر لان وسائل الاتصال المتقدمة خلتنا نحس بأنفاس بعضنا .. لكن يا خسارة كل ما نتقدم أكثر ، الاغشية دى عمالة تتخن لغاية مابقت عاملة زى الجدران اللى مش ممكن اختراقها » .. ومن هنا تولدت مأساته هو العامة

والخاصة .. اذا استشعر نتيجة لذلك وجدته رغم الزحام .. ولذا فأعماقه تضج باللعنة على هـذا العالم الذى يندفع نحو الهاوية .

ولكن عيسى هذا الشاب الهادىء ، الذى يخاف على نفسه مما تتوجس به أعماقه ، فيذهب الى الطبيب .. لا يلبث المتلقى أن يجده اسقاطا مجسدا لهـذا الطبيب العجوز نفسه ، الذى فقد زوجه بعد عشرة ثلاثين سنة ، فأحاطت به الوحدة القـاسية .. خاصة وان ابنته الشابة شغلت بخطيبها عنه . لقد استطاع المؤلف ببراعة أن يجعل « شبحية » عيسى ، توكيدا لمأساة هذا الاب ولانشغال كل امرىء بنفسه فلا يجد ما يعطيه للآخرين .. وهى مأساة عصر الآلة .

وهذه الوحدة التى تكاد تطبق على الانعكاس ، نجدها بصورة أخرى فى مسرحية ثانية فى المجموعة هى « جريمة قتل » لمصطفى بهجت مصطفى .. رغم أن تناولها لم يكن الهدف الاول لكاتبها وهو يعالج موقف القانون الجامد ، وأكثر من محقق ــ خمسة ــ يباشرون التحقيق معـا ، مع المتهم من الشك فى الحياة الواقعية عندما تقع جريمة ما فتبدو الاشياء من وجهة نظر القانون وكأنها ليست هى ! .. ان بطلة المسرحية التى لم تظهر على المسرح ، لان المؤلف اكتفى بأن تتحـــدث شخوصه عنها وهى بالمستشفى فاقدة النطق تستخرج من جسدها الرصاصة التى أطلقت عليها .. كان صوتها كما يقول المتهم عنـدما فتحت باب شقتها وهى تحس بوجوده باحثا عن مسكن صديقه .. « فيه حاجة .. نبرته حزينة بصورة .. أحيانا بنسمع كلام له طعم ممرر .. مش قادر أعبر » . ولكنه يفسرمبعثها بأن صاحبتها انسان يستغيث ــ فى أشد الحاجة الى من تحدثه . لقد هاجر زوجهـــا الى

الخارج منذ سنوات وتركها وحيدة تجتر حياتها ، لانها بتركيبها غير المتحرر وأخلاقها لا تستطيع خلاف ذلك .. وعندما انتهت من عملية هذا الاجترار .. سقطت فى هوة الوهم الذى يجعلهـا تتخيل أشباحا . وهذا هو موقف الانثى الضعيفة التى لا حيلة لها ، خاصة اذا حاولت ان تحافظ على كرامتها وشرفها وهى بلا أولاد يخففون عنها وحدتها . وعندما المحت هذا الرجل الغريب الوحيد هو أيضا الذى جاء يبحث عن شقة صاحبه الذى لم يره منذ أكثر من عشر سنوات ـ ولنلتفت الى هذه المقابلة ـ الى شجونها .. وجد نفسه فى ذات المحنة . وحاول ان يهرب منها ومن هذا المكان الذى جمعه واياها ، ولكنها فى حركة استغاثة ثانية تريد أن تبقيه دقائق اخرى .. وكأن هذا الرجل يمثل المجتمع الذى لا يحس بها ويتفرج على مأساتها وتقدم اليه مستشهدة بلا كلام وكأنها حركة تمثيل صامت « بانتوميم » انبوبة الاقراص المنومة التى تعيش عليها منذ سنوات تستعين بها على مقاومة هـذه الوحدة المضنية التى تغتال وجودها وحيوتها .. وتوكيدا لمدى ما وصلت اليه من حصار . ولكن الرجل الذى وجد نفسه فى هذه التجربة التى لم يعمل لها حسابا .. يفر منها .. وبدت لها هذه الحركة بما تجمل من دلالات ومعان حقيقية أو غير صادقة ، أكثر مما تحتمل .. وكأنها كانت فى الرمق الاخير من مقـاومتها ، فأسرعت بفتح النافذة تريد أن تقذف بنفسها بحثا عن الخلاص والسلام .. ولكن صاحبنا المشدوه يريد أن يوقفها عن محاولتها الانتحارية ، فيخرج مسدسه مهددا .. ولكن الرصاصة التى تنطلق منه تصيبها فتسقط مضرجة بدمائهـا .. ويصبح متهما .

ولا يجد تعاطفا وتصـديقا الا من واحد فحسب من

المحققين الخمسة ، وعنـــدما يجيء خبر موت السيدة بالمستشفى الذى يعنى ضياع شاهد الانبات ويجـد أن وكلاء النيابة لا يصـــدقونه ، لا يملك الا ان يحـاول الانتحار .. ولكن هذا المحقق الذى يتعاطف معه ، لا يملك الا أن يخيفه بالسلاح حتى لا يفعـــل .. ولكن بحركة لا ارادية يتحرك الاصبع على الزناد ـ هل هو رد فعل بشرى مشابه لحادث الدبة التى قتلت صاحبها فى قصة الصديق الجاهل الذى هو ألعن من العدو العاقل ؟! ـ ويصاب الرجل .. ويبدأ تحقيق من جديد !

وتنبض بعض مسرحيات المجموعة بالرؤية الموضوعية لقضايا يتخذ عادة منها الموقف التقليدى الذى يعتمد على الحكم المسبق ، كما يحدث بالذات فى قضية الجيـــل القديم والجيل الجديد . فنحن فى معظم الاحيان بازاء موقف متعصب لا يعرف طريقه الى المنطق أو العدل . فاذا بصاحبه ينحاز مستسلما على طول الخط الى الجانب الذى ينفعل به بغض النظر عن موقعــــه من الحقيقة أو الواقع . فى مسرحية « أم مصرية » ـ ترجمتها عنايات طلعت ـ نجد كاتبتها كارمن وانشتاين تتعاطف تعاطفـا كبيرا مع الجيل القديم لدرجة تضطر معها الى أن تكتب مقدمة قصيرة لعملها ـ وهو ممتاز حقيقة ـ وكأنهـــا من ناحية أخرى ترى ان مثل هذا التعاطف يحتاج فى هذه الايام الى تبرير ! ومن ناحية أخرى تخـــاف ألا تعكس مسرحيتها مدى ماتحفـــل به من حب لجيل الامهات ووقوف فى صفهن والا يدرك القارىء ذلك ، فهى تعمـل على توكيده ! .. ومن ناحية ثالثة تلفت الى مايشوب نظرتنا الى الاشياء من قصور وادعاء ما لا نعرف والانسياق خلف الكلمات البراقة وما يمكن أن تسوق لفظة العصرية من تضليل ! .. وهو لا شك موقف يكاد يكون نادرا هذه

الايام من الجيل الجديد ! .. ان « أم مصرية » تصور امينة .. هذه الأم التى أصبحت كما مهملا فى البيت ، رغم وجود الزوج رجل الاعمال الناجح والابنتان المثقفتان. اللتان توشكان على التخرج قريبا من الطب والهندسة . فالاول قد « تحضر » بمعنى أنه يدخن البايب ويتأنق فى ملبسه ويستفيد مما يتيحه له دخله الكبير فى الاندماج فى الطبقة العالية . اما الفتاتان فهما تماثلانه فى مفاهيمه ولا تخرج حياتهما عن النوادى الكبيرة وأحدث الموضات والاغانى الصاخبة ..بينما الأم فى عالم ثان ! .. انها تجد أن دنياها التى تعيشها تهرب منها. ورجلها وابنتاها تغيروا تماما عما كانوا بالامس القريب والمال على قد الحال .. حتى ليبدوا أنهم غرباء عنها لا يحملون لها حبا أو ودا أو احتراما .. رغم أنها تقوم على خدمتهم كما تعودت وتغنى نفسها فى شغل البيت .

وقد وقفت الكاتبة كثيرا وهى تجسد هذه الشخصية المستسلمة، التى تناضل بشرف وأمانة وبدمها واعصابها ورغم ذلك فهى تخفق فى أن تسعد من حولها السعادة التى يريدونها .. وهى ازاء اكتشافها أن للسعادة ألوان .. بعضها يسر وبعضها يسيىء ! .. تصدم وتضطرب ويدركها اليأس والاسى وتعيش الساعات معذبة .. وحيدة .. تلوك آلامها بعيدا عن اهتمام ابنتيها وزوجها ، كأنها بمفردها فى صحراء جرداء . تصور كارمن هذا الصراع الداخلى والخارجي الى درجة التمزق ، وهى تعمل على أن تجاوز ظواهر الاشياء الى أعماقها ، وتضع يدها على جوهر المأساة . وعندما تصل الاحداث الى ذلك ويتهم شقيق الزوجة زوجها ، بأنه هو الباعث الاول على هذه المأساة التى تحطم أخته تحطيما ، لانه هو الذى شكلها بهذا التركيب منذ أن تزوجها وهى تكاد أن تكون طفلة

كبيرة .. وقد أدى هذا التشكيل الذى أسعده ، دوره تماما فى خدمته وخدمة الاسرة كلها ، وحافظ على شرفه وكان له نعم المعين فى جهاده . وكان زواجا حد موفق من وجهة نظره هو قبل غيره ، وأمينة لا شغل لها الا أن تؤدى واجبات « سى كامل » بتفان . ولكن عندما ارتفعت مكانته فى السلم الاجتماعى درجات ، ووجد أن تقاليد المجتمع الراقى تطالبه بأن تكون شريكة حياته فى الصورة وليست فى الظل كما تعود هو .. بحث عنها فى الحفلات والنوادى التى أصبح يغشاها ، فلم يجدها بجانبه . ولكن على من تقع هذه المسئولية ، اذا عددناها مسئولية حقيقية ؟ عليه هو بالطبع ، لأنه هو الذى كره لها بالأمس أن يلمس تفكيرها ذلك ، وهكذا لم يتح لها عندما احتاجها فى هذا الموضع أن تستجيب الى دعوته . انه يظن كأى رجل سيد ان زوجه لا تزيد على أن تكون ذيلا له سواء تغير أو تناقض . ان كارمن ترفض أن تكون الزوجة كما يظن الرجل الشرقى ، صالحة لمرحلة فى حياته مرحلة دون مرحلة. انها وهى تفجر هذه المأساة الاسرية وتشيد بأمنية الأم التى لم تكمل تعليمها ، ترفع أصبع الاتهام ضد فتاتينا اللتين تدعيان الثقافة والتحرر والعصرية ، وهما على النقيض من ذلك .. ويكفى لجهلهما وضيق أفقهما أنهما لم يحاولا يوما أن يخففا من ضيق أمهما أو تحترماها أو تتيحان لها أن تعرف معالم الحياة الجديدة التى كادت أن تطيح باستقرار العائلة . وكان جوابهما ضد مفاهيم أمهما ، هو السخرية والتهكم والشتائم .. لم تمدا أيديهما اليها أبدا ..

ان احداث المسرحية تصل الى قمتها ، عندما تلتقى رغبة « سى كامل » ـ الذى أصبح يكره أن تناديه أمينة بهذا الاسلوب « العتيق » الذى يتمشى الاذلال فى بنيانه

على حد تعبيره مفضلاً أن تستبدل به « دادى » ـ فى الاستغناء عن زوجه ويلفظ آخر طردها ، رغبة أمينة نفسها فى أن تترك هذا المكان الذى أهدرت فيه كرامتها ولم يعد يحتاجها فيه أحد .

وفى القسم الثالث من المسرحية .. تطالعنا المؤلفة التى استطاعت أن لا تتزيد فى مناقشة القضية سواء بالرفض أو القبول ، على حال البيت فى غياب الأم .. ان الفتاتين اللتين كانتا تجهران بالسخرية منها ومهاجمة ذوقها فى زيها العتيق الى الدرجة التى تخجلهما من مصاحبتها الى حفل ، أو دعوة صديقاتهما الى منزلهما ، تعيشان فى حالة من الفوضى والارتباك ويغشاهما ماتفرضه الصدمة التى تبعث على اليقظة ومراجعة الاشياء حولهما .. وابسطها ان عمل البيت الذى كان مبعث اللوم الاول الذى يقع على عاتق الام ، التى لا تتركه للخادمين .. بلغ من الاضطراب ماجعل المنزل فى حالة من القذارة والاهمال لا يمكن مداراتها . بجانب الفراغ العاطفى الذى يتركه غياب شخصية الأم. ويبدو أن كاتبتنا وجدت بالنسبة الى هذا الجانب الاخير ، انها تعالج قضية اجتماعية وليست وجدانية ، ولذلك فهى بالتالى غير مطالبة بكثير من الاهتمام بها .. ولذا فقد اكتفت بأيسر اللمسات الضرورية حتى لا « تتهم » مسرحيتها بأنها عاطفية فى زمن يجفل شبابه من هذا الاتهام !.

ومع تعاطف صاحبة « أم مصرية » الواضح معبطلتها، فهى لم تنكر أن علينا أن نتكيف بشكل ما مع الجديد الذى يفرضه الزمن الذى لا يتوقف ، بحيث لا نلغى هذه المتابعة ازاء ما تعودنا عليه ، والعكس ايضا . ولذلك فان الخاتمة السريعة المفتوحة التى عرضتها الكاتبة فى شكل ضبابى يمكنه استيعاب الماضى والمستقبل معا .. يجمع

بين عودة الام الى البيت ازاء دعوة زوجها وفتاتيها ، وخلعها للشال القديم الذى كانت تضعه باستمرار على كتفها ، وصوت أمها يوم زواجها وهى تسدى اليها النصح بخدمة زوجها وبيتها بأمانة ..

وهناك أكثر من عمل فى « مسرحيات مصرية » ، شارك فى تناول دنيا الجيل الماضى .. ولكن اذا كانت كارمن واينشتاين قد تعاطفت موضوعيا مع أمينة ، فان سمير أبو ذكرى قد عايش متهكما قضية بطله الذى لم يعطه اسما مكتفيا انه .. رجل المرور العجوز .. فى مسرحية « عالم رجل المرور العجوز » ! .. رغم ان كاتبنا التفت الى قضية هامة وهى « مأساة » الاحالة الى المعاش ، خاصة اذا كان صاحبها لا زال قويا فتيا لا يشكو علة وكله حماس لاستمراره فى عمله . ان شرطينا يرفض أن يعطى لبلوغ الستين من العمر مفهومه فى بلادنا من انه استنفاد القوى وعدم الفائدة وانتظار الموت .. بل هو يراه مرحلة جديدة فى حياة المرء خاصة اذا مكنته صحته من ذلك ، يتابع فيها نشاطه المهنى الذى كان يقوم به . ورغم ان الامر واضح وصريح فى هذه الورقة التى جاءته من المستخدمين ووقع عليها « بالعلم » الا انه عول ألا يفعل . قطع مرتبه .. صحيح .. ولكنه ليس فى حاجة الى « فلوس » ، أعنى انه لا يريد أن يتابع نشاطه ليكافأ ماليا .. أبدا ، فمعاشه يكفيه وأولاده فيهم البركة .. بل ليعطى خبرته التى يحس أنها ملك لبلده وناسه ، وحرام أن « يركنها » بين جدران أربعة . ويأخذ مكانه القديم فى الميدان الكبير ، بعد أن يطرد رجل المرور الشاب .. ويزاول عمله بحماس واقتدار . وبدلا من أن يعمق الكاتب هذا الموقف ويكشف عما يحمل الرجل من فهم ومقاومة فى سبيل مبدئه ، يجعله بعد مناقشة ابنته له

فى الميدان ، يحلم وهو يؤدى عمله بأنه أصبح مقصد اجهزة الاعلام جميعا التى تقف معـه فى قضيتـه أو محنته .. الامر الذى يؤدى الى أن يطلبه الوزير الذى يعجب به ويعده باصدار قانون جديد يتيح له ولأمثاله الا تحرم البلاد من كفاياتهم . ويصدق هو حلمه ـ كيف؟! ـ ويعـاملـه كواقع .. وهكذا أفسد سمير ابو ذكرى الخيوط الجيدة التى يريد أن يعمل منها نسيجه ، فضحك القارىء وسخر من رجل المرور المخرف .. تماما كما فعل بعض المارة الذين لم يعرفوا بحقيقة الرجل ، بدلا من أن تكون السخرية من نصيب القـــانون الجـــديد أو الذين يطبقونه بحرفية وقدسية . وبدلا من أن يتابع بطلنا جهاده فى هـذا السبيل ، يدخله المؤلف مستشفى المجاذيب ! ..

ويختلف فاروجان كازنجيان صاحب مسرحية « ثلاثة رجال » ـ ترجمتها عنايات طلعت ـ عن الكاتبين السابقين فى تناولهما لعالم الجيل القديم ، فى انه قدم شخصية أو شخصيتين سلبيتين تماما ، هما الرجل العجوز ـ مرة اخرى فى المجموعة نجد كاتبا يفضل الا يطلق أسـماء على شخوصه ! ـ « ٨٠ سنة » وابنه « ٦٠ سنة » ، اللذان يعيشان بلا عمل طـوال حياتهما ، مكتفين فى معاشهما بالاعتماد على شقيق الأب ، ورغم ذلك يتهمانه بالسرقة .. سرقهما ! ...

ويهتم عثمان شـــكرى بقضايا الشباب ، ويعالج فى مسرحيته التىشارك فيها فى المجموعة.. الضياع الذى يلم بهم . ولما كان ألوان هذا الضياع متعددة ، فقد اختار كاتبنا لونا منها يسقطون فى هوته تحت وهم الحياة المصرية التى تجـــاوزت عصر « الشلت » والحجرات المغلقة والوسائل التقليدية مثل السينما والمسرح ، الى

قاعات الرقص وما أشبه . أن شخوص مسرحية «سهرة» ينغمسون فى ملاهى الليل .. التى تبـدو لهم الاسلوب العصرى للترقية والمشاركة فى الحياة الاجتماعية الحديثة. وتجسيد مفهوم هذا البعض من الشباب الذى يستطيع أن يؤم ويدفع تكاليف هذه الاماكن يتمثل قبل كل شىء فى حواء أو الموقف من حواء . ويكون موضوع الزواج هو المقياس للتطور الحقيقى الذى يكشف مداه أو زعمه . فقصص الحب الفاشل أو النـاجح التى تتناثر فى أرجاء لستريو ، تعكس لا هذا الضياع ـ الذى هو قضية فكرية فى المقام الاول ـ « المزعوم » الذى يرفع لافتته أصحابها، بل التمزق الذى يصيب من يتهـــالك على الاشياء الهامشية . تقول أحدى الشخصيات وهى سماح مبررة حالة العشق أو لهـو القلوب الدائم : أنا أصلى من غير ما ارتبط بحد ، لا أعرف اذاكر ولا أعيش .. بابقى ضايعة خالص ! .. ويقول علاء وهو صوت النقد لما يحفل به المكان من تخبط ومزعم فيما يعرض من قيم حياتية ، مفسرا تحرر الفتاة المصرية : البنات هنا عندهم انفصام شخصية زى الستريو ده .. يحبوا بعقلية بريجيت باردو فى النص المودرن ده .. وبعدين لما يتعبوا من الرقص على البيست اللى فى الوسط ده .. يطلعوا يستريحوا على الشلت فى النص الشرقى اللى هناك ده .. ويتجوزوا بعقلية الجوارى . ويقول محدثا صديقه حامد : الحب فى الستريو ده وفى النادى زى الحواديت بالضبط .. حاجة تسلى روحك بيها شوية .. وتهدى أعصابك قبل النوم وبعدين تصحى الصبح تشوف مصالحك وتنساها .

ويصل علاء الى قمـة تصوره الواقعى الساخر وهو يقول : معقبا على حوادث الحب « التســـالى » التى يشاهدها فى الملهى : البنات فى مصر بيعلقوا فجـأة لما

يشموا ريحة عريس ! ولا يكتفى صاحب مسرحية «سهرة» بالقول ، بل يعرض موقف فتنة صاحبة أكثر من قصة حب عندما أعجب بها الامير الشرقى وجاء فى الحال بالمأذون قبل أن يتقدم منها لطلب يدها وكأنه يعرف انه عندما يفعل فلن تخيب الفتاة الرجاء .. وقد صنعت ! ..

وتشارك مسرحية « طعم الحياة » ـ تأليف زينا عتيق وترجمة د . مرسى سعد الدين ـ أيضـا فى القضايا الحياتية ، فتعـالج الفتور الذى يلم بالزواج بعد فترة تقصر أو تطول . ولا أظن ان الجو « الخواجاتى » هو الذى أفسد على المؤلفة عملها ، بقـدر مافعل التخطيط الهندسى الصارم للمسرحية ، فبدت الاحداث والمواقف بلا طعم . واذا كان ضعف « طعم الحياة » قد نجم من عدم قدرة كاتبتها على اخفاء أصابعها وهى تحركها ، فبدت أشبه بدرس أخلاقى أو مسرحية تعليمية ، فان اهتزاز « الفنار » لمحمد السيد سليمان قد صنعه ارتفاع صوت صاحبها واسـتعارة قاموسه الشـعرى من خارج الشخصيات لا من داخلها .. بجانب الافتعال الواضح فى اثارة القضـايا .. رئيسية أو فرعيـة . واذا كانت « مسرحيات مصرية » تقدم فى أكثر موادها أسماء تكتب ربما لأول مرة ، فان « الفنار » تحمل بالذات اضطراب الخطوة الاولى بكل تعثرها وشوائبها التى لم تنق كما فعل غـيره . ولم تخل مجموعتنـا من مسرحية كتبت بأسلوب كاريكاتيرى هى « يوم فى حياتها » لخديجة رشدى ـ ترجمة سعيد توفيق ـ حاولت صاحبتها فيها أن تعرض لما يدور داخل مدرسة خاصة ، من خلال زوار حجرة المدير .. من استغلال وقيم مهتزة وعدم عناية ، لا يمكن أن تنشىء نشأة صحية ..

ورغم أن مجموعتنا ترتاد أكثر من مجال وتستخدم

أكثر من أسلوب ، الا أن المتلقى يستشعر فى بعض الاحيان أن « مسرحيات مصرية » ينقصها شىء ما أو أشياء . فبعض أعمالها تبدو منبتة الصلة بنا ، أو تبعد عن الهوية المصرية الى الانسانية العامة التى بلا ملامح من جنسية، أو لا تعرف الحماس المنـــدفع فى تركيب المواقف أو الشخصيات ازاء القضايا التى تطلق عليها المصرية . وأظن اننا نكلف هذه المسرحيات أكثر مما تطيق ، لو طالبنا أن تكون غير ذلك ، لانها فى الواقع فى نطاق « الموضوعية » قد أدت دورها وقدمت نماذج جيدة للمسرحيات ذات الفصل الواحد التى يكتبها كتاب مصريون على مختلف أمزجتهم أو دمائهم . اننا لا يمكن أن نلغى الاعتبارات التى تخفف من هذا العامل أو ذاك فى اختيار هذه المسرحيات مع ان الذى قام بعملية فحص مواد المسابقة أدباء مصريون هم : د . سهير القلماوى ويحيى حقى و د . حمدى السكوت والمخرج أحمد زكى .. والسبب فى اختلاف التـــكوين الامريكى الذى أصدر هذه المجموعة المسرحية، عن مايدخل فى تركيب الشخصية المصرية لو كانت هى التى فعلت .. تماما كما يكون موقف المكتب الثقافى السوفيتى لو قام بمثل هذه المسابقة ! ..

طه حسين
وصفحات جديدة من أيامه

جيل أو جيلان أو ثلاثة أجيال .. بين جيلنا وبينه ، ورغم ذلك يصيبنا مايشبه الخشوع ونحن نقرأ له او نتناول سيرته .. أستاذ الاساتذة هذا . سعداء به نستشعر قربه منا دائما .. وقربنا منه نحن الملايين الذين لم نلتق به الا من خلال كتاباته الدافئة .. النابضة أبدا بالحب والحياة والقيم . كلماته التى أخمدت فينا التشاؤم وألهبت الآمال ، وكانت بلسما لجراح المتألمين فى عالم النفاق والاكاذيب والتسلط . واحد من القلة النادرة من أدبائنا فى مختلف العصور ، الذى مكن بسطوره للشجاعة أن يعرف الآخرون بوجودها ! .. وكم أثرى وجدان وعقل أمتنا العربية ، وشارك فى ايقاظها وفتح لها من طاقات النور ماشكل أنصع ملامحها الحديثة .

ولا شك أن « الايام » بنبضه الانسانى الرفيع ، كان فى مقدمة الروائع الحقيقية التى قدمها طه حسين الى المتلقى، والذى حفره فى أعماق القارىء على مر الاجيال شيئا عظيم الخطر .. لدرجة أنه لا ينفصل عن تكوينه الشخصى ، اذ انه لا يتصل فحسب بالمستوى الفنى الرائع والمتعة الادبية بل يتجاوزها الى المقاومة الصلبة ضد التخلف والتمزق والإرهاب بكل ألوانه . وكم استمرت لهفة المتلقى طويلا بعد أن أصدر عميد الادب العربى ــ هل يمكن أن نستسيغ

اطلاق كلمة « العميد » على غيره كما فعل البعض ، لا أظن ـ الجزء الثاني من أيامه .. انتظارا للجزء الثالث .. مر قرابة العشرون عاما قبل أن تتيح الظروف لطه حسين أن يكتب ثم ينشر هذا الجزء ثم يجمعه فى كتاب يصدر فى الاسابيع القليلة الماضية .. وياله من صبر ! ..

وفى هذا الجزء الجديد من « الايام » يعرض طه حسين لسنواته الاخيرة فى الازهر وبداية أيامه فى الجامعة المصرية وماعرف من مدرسيها مصريين ومستشرقين.. واتصاله بأستاذيه أحمد لطفى السيد وعبد العزيز جاويش بعد أستاذه الاول الشيخ سيد المرصفى . وسقوطه فى امتحان العالمية بالازهر بفضل كراهية شيخ الازهر له ! .. واثر اختفاء المرأة فى المجتمع الطلابى الازهرى شبه المغلق ، ولقاؤه بالآنسة مى ، الى فرنسا بعد أهوال يصحبه أخوه كمرافق

والشدائد التى لقيها حتى عاد الى بلده مشاركا فى حياتها الفكرية والادبية والسياسية ايضا .

ورغم ان « الايام » ليس عملا يغرقه الوهم أو الخيال أو يوشيه اللاواقع بزخارفه أو تحبكه الصنعة ، وانما هو سيرة تسجل لحقائق وتفسرها .. الا أن القارىء يستشعر فى كل لحظة عمق هذه الحياة التى تعرض عمقا غير عادى ، والذى يتجاوز البعد الواقعى فيهـا الى الرمزى لعله يسبق ، وكأنه يستقطب الجوهر ذاته فى هـذه الحياة الحافلة ومع تحديد واستكمال ملامح العبقرية فلا يمنع ذلك من أن تنفلت من حدود صاحبها الى الافق الرحب الذى يتسع ويتسع ليضم الوطن كله . واذ نشعر اننا ازاء حالة فريدة من التأثير والتأثر الى درجة الاندماج بين الجزء والكل .. وهنا يتم بشكل نادر وفى عملية واحدة عمل المرآة المحدبة والمقعرة معا ، فندرك أن الفتى طه

حسين لا يمثل دورا على السطح تفرضه عبقرية فردية « شاذة » ، ولا كان يمكن أن يكون اتجاه مسيرتها منغلقا على ذاته .. مختلفا بعدا أو قربا عما اتخذ صاحبها .. ولكنه يمثل هذه الحقيقة الانفتاح على الخارج .. أو الروح أو السر الالهى الذى يحاول المرة بعد الاخرى أن يقاوم ضعفه ومرض جسده ، وكأن مصر كانت تدخره ضمن من تدخرهم لاشرف غاية . والا فمـــاذا يعني أن يضيق هذا الشاب الصغير بأسلوب الدراسة العتيق فى الازهر وآلاف غيره من الزملاء يستسيغون جموده وتجاهل منهجه لمرور الزمن فلا يـكرهون أو يثورون .. ويرنو الى الجامعة الجديدة ينهل منهـــا الا أن يكون ذلك لغد يتصل ببلده مرتقب ؟ .. وماذا يعنى أن يتاح لفاقد البصر الفقير الذى يعد المجتمع لاكثر المهن على هامش الحياة ، أن يسافر الى الخارج فى بعثة دراسية .. الا توكيد الحق فى التطـــور والاتصال بالجديد وتأصيل العدالة الاجتماعية الذى ينكر أن يكون الوطن « تكية » لأحد ؟ الخ ..

واذا كان هذا الجزء من الايام يتناول دراسة طه حسين الجامعية فى مصر وفرنســـا والايام التى تلت عودته من باريس.. أى مرحلة استكمال عناصر تكوين الشخصية. فقد كان من الطبيعى أن يحتفل أكثر من اى جزء أراد أو لم يرد ، بالاهتمامات أو القضايا الاساسية لصاحبه . وكان أولها فقد بصره .. ان الحديث عن هذا الجانب لم يعد غير مباشر كما كان يتناول غالبا قبلا يلف فى التعبير عنه ، بل أصبح مواجها ينطق بما تنتفض به الاحاسيس بصدق ودقة . نعم ان مايعطى لايام طه حسين مذاقها .. صراحة صاحبها حتى بالنسبة لأشيائه الخصوصية جدا، ولكن هذه الصراحة تزيد درجة أو درجات هـذه المرة فى مجال آفته .. فيصرح بها فى نبض انسانى بالغ الروعة ..

انه يتألم مثلا من شدة التفات الآخرين اليها .. فما كان يحمله فى شبابه فوق ما يطيق ، وهو يعيش فى حرمان من الافضاء بما يعتمل فى ذاته من هواجس ومشاعر .. طالما هذا الهم يتصل بشكل ما بعاهته . ونستطيع أن نعيش هذه الحساسية الشديدة ، وما تعرض له صاحبنا من عذاب ، اذ عرفنا تهمته يوما أن يعرف موقف الجامعة المصرية وهى تنشأ ، من المكفوفين .. هـــل ستتيح لهم الالتحاق بها أم ترفض ؟..فى ذلك الحين كان قد نفض يده أو كاد من تعليمه واستمراره فى الازهر . ووصل ضيقه الى ذروته ، وأخذ السأم كما يقول يملأ عليه حياته كلهـــا ويأخذ عليه نفسه من جميع جوانبهـــا . ورغم ذلك لم يستطع أن ينبس ويلقى بالسؤال الحـــائر لخاصته ، لتســـاعده فى البحث عن جواب . والسبب « انه كان يستحى أن يتحدث عن آفته الى الناس ، وكان يؤذيه أشد الايذاء أن يتحدث عنها النـــاس اليه ، وما أكثر ماكانوا يفعلون » ! ..

ولا شك ان « الايام » تفسر أشياء كثيرة هامة فى تكوين صاحبها ومواقفه وانتاجه ، وتقدم أيضـا البعد الذاتى الذى يجب عدم انكاره فى فكر طه حسين . ان موقف كاتبنا الكبير مثلا من صراع الطبقات أو تذويبها أو قضايا الفقر والغنى وصيحته المشهورة مع المعذبين فى الارض ، لم ينبع من ايمان ميتافيزيقى يريد أن يشيع العدل فى الحياة بعد ما ملئت الدنيا جورا .. بل تشكل منذ بدء حياته هو نفسها .. لا كواقع رعاه قديما فى طفولته أو صباه أشبه بالذكريات ، بل كتنفس حياتى عرفه فى رجولته ايضا . اننا نفاجأ مثلا فى مرحلة شبابه الاول عندما اتصل بالصحافة وأصاب نجاحا فيها وعرف كبار رجالها وقبل سفره الى أوربا للمرة الثانية . بضغوط الفقر القاسية التي كادت

تفسد عليه بعثته ، لانه لا يملك الضروري الذي يمكنأن يسد النفقات النثرية .. وحتى لا يستطيع ان يشترى « نظارة » مناسبة .

« ويفكر مرة اخرى فى الفقـــــر والغنى ، وفى الذين لا يعرفون كيف ينفقون مايتاح لهم من المـال فيكدسونه أكداسا أو ينثرونه نثرا فيما لا يجدى عليهم ولا على غيرهم شيئا ، والذين لا يجـــــدون ماينفقون ليقيموا أودهم ويستروا جسمهم ويستروا عورة العمى حين تفرض عليهم آفته ، وفى الذين تسمو هممهم الى أكثر من اقامة الاود وستر الجسم وتغطية العينين المظلمتين الى الاغتراب فى طلب العلم ثم لا يجدون أيسر مايحتاجون اليه فى ذلك .. (١٠٦) ..

رغم ان صفحات هذا الجزء الثالث قد قدمت الكثير من الشخصيات الجديدة ، الا أن الاحداث فرضت كذلك تردد بعض الشخوص القـــديمة التي مرت فى الجزئيين السابقين ، مثل أصدقاء صاحب السيرة ووالديه وأسرته .
ومن الطريف أن يلتقى القارىء أيضا بأبناء بعض من ذكرهم كاتبنا فى ذكريات طفولته فى الجزء الاول .. لقد كبروا بالطبع ! .. وكأن ذلك يحدث ليؤكد شيئين : الاول ، عدم توقف الزمن والاعوام تتوالى اثناء الحكى ! والثانى قدرة الحياة على انتشار المصالح المتشابكة ! رغم اختلاف رقعة المكان من الصعيد الى القاهرة ! .. كما حدث وبطلنـــا الطالب فى الجامعة يبحث عن مدرس جيد يعلمه الفرنسية، وبعد جهد طويل يجده فى ولد القاضي الشرعى الذى كان صبينا يختلف اليه فى المحكمة ضحى كل يوم يقرأ عليه بابا من أبواب الالفية (ص ٤٧) ! ..

ولم يكن مثل تتابع الاجيال هذا هو وحده الذى يعرض للصفحات الماضية من الايام المتعددة الاجزاء ، فقد كان

منهج اديبنا الكبير نفسه يدعو فى الكثير من الاحيان الى اشباه هذه المقارنة وخاصة فى واقع تناقض الاشياء .. فاستقبال فتاتنا للحياة الفرنسية بيسر ، يذكره بعسر حياته فى مصر سواء منها المادية الضيقة والعقلية المجدبة ..

نعم ان بعض الجوانب المجهولة فى حياة طه حسين اصبحت بفضل هذه الصفحات الجديدة غير مجهولة ، الا انه لا يزال هناك الكثير من الاحداث التى تحتاج الى جزء رابع وخامس وسادس من الايام ! .. ويكفى أن اشارة كاتبنا العظيم فى فصله الاخير الى اشتراكه فى العمل السياسى لم يرو غليلا، لانه كان سريعا جدا رغم اعترافه هو نفسه بخطورة هذا الدور ..

أنيس منصور

بين بلاد الله وخلق الله

« ليس في الدنيا أروع من السفر وذكريات السفر . وليس أروع من أن يستمتع بقراءتها بعد ذلك كل الذين لم يسافروا .. وكل الذين يحلمون ببلاد بعيدة جديدة ! » .

انيس منصور ـ ٢٠٠ يوم حول العالم . ص ٢٧

« لكثرة السفر .. عشرات المرات ، لم أعد أهتم كثيرا بالدرجة ولا بالوسيلة ولا بالطعام ولا بالشراب ولا أين أضع رأسي ولا أين أضع رجلي .. ولو وضعت رأسي ورجلي في مكان واحد كالجنين مثلا ، فانني لا أتردد في السفر فهو المتعة الكبرى التي تساوي كل ما يبذله الرأس والقدمان من تعب » !

انيس منصور ـ بلاد الله لخلق الله . ص ٧٩ ـ ٨٠

١ ـ حوار مع أنيس منصور :

* كان لابد أن أنفجر بالسفر . نشأتي ريفية محدودة كريهة. التنقل من قرية الى أخرى ضائقا فربما تبعا للأب الموظف. أول رحلاتي الى الخارج كانت سنة ١٩٤٩، رأيت فيها الاسكندرية لاول مرة.. لم أر دمياط حتى الآن : كان لولعي باللغات أثر .. عرفت الالمانية والطليانية وانا تلميذ في المنصورة الثانوية، أما بقية اللغات والعبرية فقد تعلمتها في القاهرة بعد ذلك عام ١٩٤٤ ،

ربما كان تعلمي خطوة الى حلم قديم .. العمل فى الامم المتحدة .

* تنقل طفولتى لم أحس به . فكأننى كنت فى سفينة فضاء تتحرك وتقفل على باب وشباك ، وليست لى دراية بالعالم الخارجي . انتقالى من بلد الى بلد لم يشعرنى بالألفة والصداقة مع الناس . كنت مثل شجرة تشتل كل يوم فى أرض .. لا جذور لها تمتد فى أطمئنان .

* قمت برحلات مدرسية صغيرة . فى الصبا والشباب كانت رحلاتى بين الكتب والصفحات . عرفت عادة تقليب الكتب قبل أن أتعلم القراءة والكتابة.. أخذت انقل كتابا بشكل الحروف ، وكان ذلك قبل أن أدخل الكتاب . ومن مكتبة أبى بدأت حياتى . ان الرحلة بين دفتى كتاب .. شبر ، ولكنه أطول ماقى العالم كله .

* زرت معظم البلدان العربية .. بعض هذه البلدان لا تتحمل الكتابة عنها كالعراق .. الذى كتبت عنه بعض المقالات تحمل مجموعة ملاحظات بسيطة ــ مثل العباءة التى تحتها المينى الجيب .. فهوجمت من كل وسائل الاعلام ، وصودرت أخبار اليوم ! ..

* لا زال هناك كثير من البلاد لم أزرها ، وسوف أفعل اذا أتيحت الفرصة . من مشروعاتى هذا العام .. رحلة طويلة أزور فيها بلادا لم أرها من قبل .

* لماذا أكثر من زيارة البلاد التقليدية .. ايطاليا .. المانيا .. فرنسا وغيرها ؟ .. الجواب لان هذه هى بلاد الحضارة الغربية كلها . وبالصدفة فاننى أعرف لغاتها ، فلا أشعر بالغربة . زيادة الى ما أجد من تجديد ثقافى وتجديد للنفس . لقد أصبح لى فيها عدد كبير من الاصدقاء . فنانين وأدباء وأناس عاديين ، وبالتالى أصبحت لى مهد بعض ذكرياتي .

* تجربتي في أدب الرحلات تبين اذا كان هذا الادب قد تقلص أم لا . ومن المؤكد ان « حول العالم في ٣٠٠ يوم » قد بعث فن الرحلات والـكتابه عن الرحلات من جديد . بعد خمس سنوات من ظهوره ، ظهرت في المكتبة العربية كتب رحلات تحاول أن تقلد أسلوبه في الكتابة . وهو بشهادة اليونسكو أشهر كتاب عربي يعاد طبعه كل تسعة أشهر . لقد طبع للمرة السادسة هذا العام وحصل على جائزة الدولة عام ١٩٦٤ .

و « أليس ذلك المجهول » طبعت منه طبعتين ، أما « بلاد الله خلق الله » فقد ظهرت منه ثلاث طبعات في حوالى العام في حوالى مائة الف نسخة تنفد فور صدورها . ماذا يعني هذا كله ؟ .. انه يعني ان اهتمام الناس بالعالم وحرصهم على معرفة المجتمع الانساني الكبير أصبح أكثر ، كما يعني أيضا رغبة في الهجرة .

* انى أستعد لتأليف كتاب رحلاتى الرابع .. وأملك مادته . ان هناك اتجاه واضح في الاقبال على أدب الرحلات .

* قرأت معظم الرحلات الكبرى عربية وغربية .. رحلات ابن بطوطة وابن‌جبير وجون‌جنتر وجيمس لشتر وغيرهم .. واعتقد أن لي طريقة مختلفة . فبالمقارنة بهؤلاء أجد ان رحلاتى مبسطة طبيعية غير متقعرة .

* صور رحلاتى التقط بعضها أحيانا والبعض الاخر يلتقطه زميل مصور .

* الذى يثيرنى في اية رحلة .. الجديد .. كل ماهو جديد . السفر يجعل صاحبه مهيأ نفسيا وعقليا لتقبل الانطباعات الجديدة . يكفى الانسان أن يسافر حتى يجد انه قد تحول بسرعة الى انسان مرهف الحس مقتدر على التعبير . وأنا أكتب مذكراتى أول بأول حتى لا أنسى

فى أثناء الرحلة . انى من المؤمنين بأن المذكرات ضرورة للكاتب ، لان العقل الانسانى جهاز ارسال واستقبال معا. وكثيرا ما يلتقط افكار ذات تردد غيرت وقع . المهم أن تجىء والا تروح ، ولا بد من تسجيلها .. فالانسان يكون عادة مهموما بأشياء مختلفة ..

أعتقد ان جملة فيكتور هوجو « سطر كل يوم » معناها كتابة سطر كل يوم أو مذكرات كل يوم .. يقول تولستوى .. ان فنان بلا ورق ولا قلم تحت وسادته .. فنان بلا ذاكرة .. وأنا من أكثر الناس استخداما للمذكرات . على مكتبى خمس مذكرات .. انى لا أعرف متى تجىء الافكار الزائرة .

* فى أثناء الرحلة أكون فى حالة استقبال وتلق تام . كل أطرافك ومشاعرك عبارة عن أيد منشورة وقلوب مفتوحة تتلقى قطرات الندى .. فتخفف من كل شىء . اعتقد أن تعرى الانسان النفسى ضرورى جدا فى الرحلات. وليس صدفة أن يتطهرالهنود بالاغتيال فىالانهارالمقدسة. الاسطورة اليونانية عندما تتناول تطهر أخيل فى النهر ، تشير الى الاستحمام فى المياه أو الشاعر الجارية .. مصدر الحيوية والانعاش .

ومن غير الاستغراق فى الرحلة لن تنسى همومك ، زيادة على أن هذا الاستغراق جزء من التجربة الفنية ومرحلة من مراحل التعبير . كتصوير الاغريق لما يفعله الفن بالكائنات فأرغيوس ينفخ فى الناى حتى تلتف الطيور والاسماك والوحوش حوله . وتمشى وراءه وتنسى أحقادهاوتستغرق فى الفنان . فهو يحاول أن يجمع الاضداد ويعقد صلحا بسمفونية .. وبذلك تصبح الرحلة ممتعة .

* وأثناء الرحلة أيضا .. أفكر طول الوقت ككاتب .. ما الذى يمكن أن يقال وكيف يقال ولمن يقال .

* أكيد .. أن حياتى ورحلاتى قد تبادلا التأثر والتأثير . فنشأتى كريفى ومنزوى .. عالمه كله فى الكتب .. هذه النشأة المنطوية الضيقة ، مقدمة ضرورية للانفتاح والانطلاق .. الذى وجدته فى الرحلات . لقد علمتنى الرحلة البساطة والسهولة والاحتمال والخفة . ولذا فأنا لا أحمل من المتاع فى السفر الا أقله .. وأنام فى اى فرش . فاهتمامى ينحصر فى أننى اريد أن ارى أكثر وأمتلأ بمشاعر أما ما عدا ذلك فترف وتزيد ، ليست ضرورية حيوية . وربما كان ذلك مرهقا بعض الشيء .. وفيما بعد حينما يتحول الى ذكرى جميلة .. يصبح نوعا من التعويض الذى دفع متأخرا عن صعوبات سابقة ، أو اعتذار متأخر لمتاعب قديمة ..

* لا أعرف هل اثرت رحلاتى فى كتاباتى الاخرى أم لا . فأنا رجل على سفر دائم بين البلاد أو الافكار أو الكتب .. رحالة بين الناس والمفكرين والفنانين والفلاسفة .. أحدثهم وأتحدث عنهم ، ومن الكلام معهم وعنهم ، نسجت حياتى الادبية والفكرية .

* قبل أن أبدأ أول رحلة ، لم أقرأ عن البلاد التى زرتها .. اليونان وايطاليا وسويسرا والنمسا والمانيا وفرنسا وانجلترا .. كانت أول مرة أغادر فيها مدينة القاهرة . وكانت رحلة باهرة ، بمعنى أننى لم أستطع أن أرى الاشياء بوضوح لكثرتها .. وكأننى أشاهد اربعة أفلام فى ليلة واحدة .. اربعين فيلما فى أربعين ليلة . انسانى بعضها البعض ، واختلطت الصور فى رأسى . لذلك عدت الى اوربا بعد ذلك بثلاثة أشهر لا تحقق مما رأيت أولا ، ثم عدت بعد ذلك بستة أشهر لاتأكد مما رأيت ثانية ! وتوالى سفرى منذ ذلك الحين ..

كانت رحلتى الاولى الى أوربا مرهقة جدا .. لم أنم فى

اية ليلة الا أربع ساعات .. مثابر منبهر .. سبعة أيام قضيتها فى باريس نمت فيها يوما ونصف . . بالحق اى ٣٦ ساعة . لم أفلح فى أن أنام .. تملكتنى الرغبة فى أن انزل الى الشارع .. والغريب أننى لم أشعر بأى آلام جسيمة او تعب . وانما فى عينى فقط .. كنت منتعشا لدرجة أن المتعة النفسية أعطتنى راحة بدنية .

✻ لم أستفد من رحالينا القدامى حتى فى الجيل الماضى .. أنهم مجتهدون على درجة واضحة من الذكاء والدقة والملاحظه . ظروف معرفتى الآن اطيب من ظروفهم . وسائل انتقال أسرع ؛ والعبارة أيضا أسرع وابسط . حتى د . حسين فوزى أول من كتب عن الرحلات حديثا ، او محمد ثابت الذى كان أول من نبهنى الى العالم ، وكانت كتبه باهرة بالنسبة الى تلميذ فى الابتدائى « فى ربوع أوروبا » .. « فى ربوع أفريقيا » ، وغيرهما . بعض هذه الكتب كتبها مجتهدا . فلم يركل هذه البلاد ، مكتوبة بأسلوب مدرسى : تجميع معلومات بسيطة ليس فيها أدب ولا فن . ولكن لطالب الابتـــدائى هزتنى وأثارتنى وفتحت شهيتى .

ولذا فكتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » هو أول كتاب فى أدب الرحلات العربى فى العصر الحديث . وهـو أول رحلة فى تاريخ الصحافة المصرية والعربية ، وآخر رحلة أيضا .. فلم يقم صحفى عربى برحلة حول العالم حتى الآن ــ ٢٢١ يوم بلا توقف .

✻ هل أخفى أشياء فى رحلاتى ؟ كثيرا .. لانها لن تنشر .. أما لانها خاصة جدا أو لانها لا تساوى أو لانها خضعت لكلمة شرف أعطيتها .. كما فعلت ازاء حديثى مع رياض غالى فى ديسمبر ١٩٥٩ ، فرغم الحاح أخبار اليوم لم أفعل ، لأننى ارتبطت بكلمة شرف ، الا أنشر

ما سمعت :

* انا رجل رحالة. ربان سفينة فى بحار مختلفة وأمواج متلاطمة فى الماضى والمستقبل فى الشمال والجنوب .. عالم المستقبل جدا وعالم الماضى جدا . بحار انتقل من بلد الى بلد ومن فكرة لفكرة ومن كتاب لكتاب . وأعتقد ان الكاتب على سفر دائم من عصر لعصر .. وهو يفيد ويستفيد .. هذه هى الوسيلة الوحيدة ليصبح الكاتب فى حالة لياقة فكرية مثل الرياضيين .. يفكر فى اشياء كثيرة ، فيتجدد ويجدد ..

٢ ـ دراسة نقـدية :

يتفق الصحفى مع الرحالة فى جريهما وراء الاثارة .. واذا اختلفت البيئات والمناخ والاجناس والطبائع ، فهناك دائما مايلفت النظر ويشد الانتباه . فمعظم الاشياء فى البلدان الاجنبية تبدو عجيبة مثيرة ، لا تقع دائما من الزائر الغريب وقعا سهلا ، وخاصة اذا كان متعجلا لا يتمتع بما كان يتاح لسلفه من قضاء الوقت الطويل الذى يبلغ الشهور والسنوات ، بين ظهرانى البلد .. يفحص ويمحص ويستكثر من الطرائف والعجـــائب ! ورغم أن الاماكن الجديدة لم تعد كثيرة ، لان التقـــدم المستطلعة فى العصر الحديث بتيسير المواصــــلات السريعة ، ســـاهمت فى الوصول الى أكثر بقاع الارض بعدا وانفراسا فى التيه . الا أن هذا كله لا يقدم توكيد للانفتاح الكافى على بلدان العالم ، الذى يتطلبه تعارف الشعوب . ويزيد الامر حدة بالنسبة لقارىء العربية ، الذى يعد مكتبة الرحلات عنده وخاصة الحديثة من أفقر المكتبات .. فلا زالت معرفة الكثرة من الشعوب بعضها ببعض ، اذن دون المستوى المطلوب . وليس من الضرورى أن يكون مقيـــاس ذلك

النقص ، كما يتبادر للذهن بعد موطن الشعوب أو وجودها على حواف الكرة الارضية .. وانما يدخل فى الاعتبار مدى ما يستوعب تكوين الشعب نفسه ، من تفتح انسانى ورغبة فى اقامة علاقات بشرية حميمة ومشاركة فى أحداث العالم وقضاياه ومشاكله . ولعـــل سويسرا يمكن أن تعطينا النموذج الامثل للاستشهاد . فهى رغم وجودها وسط أوربا ، ورغم أنها من البلاد التقليدية التى يزورها الاجانب كثيرا ، الا أنها من ناحية اخرى من أقل البلاد الاوربية التى يعرف عنها القارىء أشياء كثيرة .. ولهذا جاءت الصفحات التى كتبها أنيس منصور فى « بلاد الله خلق الله » عنها : محاولة لتعويض هـــذا النقص ، خاصة الى كتاب الرحلات من العرب. واذا كانت الشعوب جميعا تستأهل الاهتمـــام والدراسة ، فان سويسرا تملك من المثيرات ما يجعلها مادة بين أولى هذه الدول . فهى بلد لا تعرف منذ وقت طويل .. الحروب ولا الخوف من جوع أو مرض أو فقـــر أو ارهاب ســـلطة أو احالة على المعــاش الا فى الثمانى . دولة تلتزم الحيـــــــاة بين المشاكل الدولية ومشاكلها الداخلية أيضا .. فدستورها ينص على أن تظل الخلافات القومية كما هى تبعا للغاتها الأربع .. الالمانية والفرنسية والايطالية والرومانش . انها اذن لون فريد من الدول ومن الشـــــعوب كذلك . فالسويسرى كما يقول كاتبنا ، ليس باسم الوجه . انه متجهم . جاد . ناشف . ضخم . ليس خياليا ولا شاعرا ولكنه عملى جدا ومنظم فى جميع الحـــالات ، سواء فى حياته العامة والخاصة أيضا !

واذا كان الحفاظ على الانسانية أو تفجيرها فى قلوب اهل الارض جميعـــا ، أبيضهم وأسودهم واصـــفرهم واحمرهم هى أهم ايجابيات العصر الحديث . فهـــذه

الانسانية ايضا هى أهم الركائز التى يقوم عليهـــا أدب الرحلات . يبلورها ويدعو اليها فى سياحاته . وهو يجتاز الحدود ويعلو على المشــاكل الوقتية التى تتنافر حولها الحكومات والمعسكرات . أن الرجل العادى الذى أصبح اليوم رمز للبطولة ، هو هدف الرحالة ، لانه هو الشعب نفســه الذى تريد الشعوب الاخرى أن تعرفه وتتوثق بينهم وبينه الصلات . ولذلك فانه الشخصية الاولى التى تلتقى بها فى رحلات أنيس منصور . فالرجل العادى هو هذا المواطن الكونغوى الذى التقى به كاتبنا فى غابات الكونغو وقد سافر الى هناك مع الوفد الصحفى المرافق للقوات المصرية ، التى أسرعت الى هناك تحت علم الامم المتحدة لحماية الحــكم الوطنى بقيادة لومومبا .. لقد قدم اليه أنيس يده ، محطما فى نفسه عقدة الرجل الابيض الذى استذل أبناء الكونغو ، وكان يأنف أن يصافحهم (ص ٢٩) . والرجل العادى أيضــــا هو الذى يدخل فى أهاب ، هذه السيدة العجوز فى جزيرة كابرى ، التى فتح صاحبنا بابها فى ساعة متأخرة من الليل ، باحثا عن مكان ينام فيه لأنه لا يستطيع أن يدخل فندقا وهو بلا جواز سفر .

الملمح الانسانى الذى يستقطبه الرجل العادى اذن هو السمة التى يبحث عنها بها أدب الرحلات . ولذا فان غيابها عن المكان المزار يشعرنا بالوحشة ، تماما كما شعر بها كاتبنا فى نيويورك .. والشىء الممنوع الذى احسست به هو انسانيتى .. أى مجرد اننى انسان . لا يمكن أن تحس بأنك انسان .. وانما تحس هنا بأنك انسان فى طريقه الى النيابة . بأنك مهدد فى انسانيتك .. بأن واحدا من هؤلاء الملايين قد اقترب منك ونشل منك انسانيتك . مدينة كلها تصدك .. كلهـــا تردك .. كلها تفعصك . جدرانها حديد وشوارعها حديد وأهلهـــا صلب . باردة

جامدة .. انهـــا تنحيك عنها لا تريدك أن تلمسها . أن جوركى معذور عندما جاء الى نيويورك وخرج منها بقصة واحده اسمها « الأم » هى عباره عن منصور تورى ضـد الرأسمالية ! ان أهل نيويورك يفتعلون الانسانية ويفتعلون الطفولة ، فى حين أنهم فى أى بلد آخر حتى فى أمريكا .. أناس عاديون بلا افتعال .. وبلا محاولة كاذبة لان يتذكروا أنهم كانوا بشرا فى قرن من القرون ! (ص ١٢٣ ، ١٢٤ ــ ٢٠٠ يوم حول العالم) ..

ولعل موقف رحالتنا من الكابتن الامريكي الذى قـاد طائرة قوات الطوارىء الدولية من القاهرة الى الكونغو وبالعكس ، والتى حملت أنيس وزملائه الصحفيين ، وجاء فى « بلاد الله خلق الله » .. لعل هذا الموقف يعكس الخطوة أو الخطوات الضرورية ، فى سبيل دعم العـلاقات الانسانية بين البشر وفتح أبواب التعارف والتعايش بينهـا على مصراعيها . فهذه الابواب لا تفتح بكلمات سـحرية مجردة ، أو لاننا أصحاب نيات طيبة فحسب . نكتمها فى نفوسنا ، أو لأنه يكفى أن نقع العين على الاجنبى ليهرع الى أحضاننا .. فهذه نظرات سلبية تفتقد الرغبة الجدية للتعارف البشرى ، كما تثقل هذا التعارف بما يرفضـه تكوينه . لقد كانت هذه الطـائرة حربية لنقل المعدات العسكرية والجنود .. ولذا فقد خلت من الخدمة المعتادة التى تقدمها أية طائرة والتى افتقدها ركابها المدنيون من الصحفيين ، بما يتبع ذلك من الحاجة الى ارواء العطش أو ملء المعدة .. وخاصة فى سفر مزعج فى مثل هـذه الطائرة العـارية من كل شىء .. مقاعد .. أحزمة .. الخ ! ..

ولكن هؤلاء الركاب يدركون فى نهـاية رحلة الذهاب ، ان كابينة قائد الطائرة تحفل بما تمتلىء به أية كابينة طائرة

فى العالم .. من طعام وشراب وراحة . وفى رحلة العودة استفاد صاحبنا من التجربة .. وذهب الى الكابتن فى كابينته .. وحياه ..

ـ صباح الخير .

ـ صباح الخير .. بيرة ؟

ـ شـاى .

ـ حـالا .

ـ شكرا . ولزملائى أيضا .

ـ حالا . وسندوتش .

ـ ان كان ممكنا .

ـ ممكن .

ـ ولزملائى ايضا ..

ـ ولصديقاتكم ... ان كان لكم ..

من أين جاء اذن الاحساس الأول بالضيق من القائد وكراهيته ؟ .. والجواب ان الطرف الآخر لم يطرق باب التعارف ، ظنا انه الكترونى يفتح بمجرد الاقتراب منه ! وكان البشرية تحولت الى ماد صماء .. آلة كهربية .. المهم اولا ان نطرق باب العلاقات الانسانية ثم نترك لها الباقى .. تجمعنا وتدفئنا وتشركنا فى أخوة بشرية ..

وتعرض كتابة الرحلات أيضا لتوكيد أشياء قديمة ، ولكن هذه الاشياء عنـد أنيس منصور ليست تكرارا لمعلومات أو اعادة صياغة لأخبار ، وانما هى ابراز منطق وتفسير ما يصعب فينا .. أو بأسلوب آخر .. غوص الى العمق حتى يمكن للعين أن تفتتت ماتراكم على المـادة الاولية من شوائب . فى حديث رحالتنا مثلا عن موسكو ، تجيء هذه الكلمات .. الناس كالسيارات . أو السيارات كالناس . كل شيء يتحرك لهدف . متجه . منطلق . فلا فلا مجال للتسكع الذى هو متعة فى كل العواصم الاوربية

الاخرى (ص ١٤٠) . والحديث عن موسكو بلغتنا الى اشياء . يريد كاتبنا أغلب الظن أن يحررها من المفاهيم الخطائة ، التي تجد من البعض اصرارا على شيوعها جهلا أو لغوض فى نفس يعقوب ، مثل تصور الاشتراكية فى صورة الملبس الزرى والبهدلة العامة ، وما يعكس ذلك من دلالات مختلفة . فيلفت الى انه لا علاقة للبهدلة بالاشتراكية القائمة على العلم وعلى النظام وعلى المظهر الحسن الذى هو أحسن دعاية للمجتمع المخطط .

ولعل نجاح رحلات أنيس منصور ترجع فى المقام الاول الى أنه لا يتصنع .. يعيش زياراته فيكتبها . يتنفسها أولا بلا قيود ثم يسجلها . أنه لايخطط هندسيا لرحلته قبل البدء فيها .. لا يلتزم بأشياء يضطر الى تغطيتها ، ومن هنا تنساب زياراته طليقة . ولا يعنى هذا انها بلا أرضية ثابتة .. بلا حدود تمنع الضرورى عن غير الضرورى أو العكس . أن مثل هذا التداخل أو التنافر لا يحدث ، لان هذه الارضية الثابتة تفعل فعلها تحت السطح .. بحكم الصنعة .. بقدرة الموهبة الفنية على التعبير عما تريد ، وايهامها الطرف الآخر بأنها لا تفعل شيئا ... ساكنة لا تتحرك .. تلقى القول على عواهنه .. بسيطة الى درجة الدعوة الى الاقتداء بيسرها وتقليدها ! .. ونتيجة هذا كله هوالنجاح الذى يصل الى ارضاء القراء على مختلف مستوياتهم ، لان الرحلة فى اهابها الاستجابة الى رغبات هؤلاء القراء والى مايتطلعون، أو ما يمكن أن يتلطعوا اليه والى مايودون تحقيقه أيضا من وفى هذه الرحلات . وتذكر فى هذا الموضوع كلمات عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين عندما قرن رحلات كاتبنا الى الرحلات العربية القديمة قائلا : « ومن يدرى لعل أن تمتاز منها ببعض الخصال ، فصاحب الكتاب حلو

الروح خفيف الظل بعيد أشد البعد عن التكلف والتزويد والادلال بما يصل اليه من الغرائب التى يسلجاها فى كتابه .. هو لا يقصد أن يبهرك ولا الى أن يغرب عليك فى لفظ أو معنى ، وانما يستجيب لطبعه ويظفر بارضاء الطباع السمحة التى تكره التكلف والتحذلق والاسفاف » ..
فأنيس يملك مثلا أن يذيب الهالات التى تحيط بالشخصيات المشهورة ويكشف منها الجانب الذى لا تختلف فيه عن غيرها ويشارك فيه الزعماء وغير الزعماء مثل هجر الزوجة لزوجها .. فيتحدث عن كاسترو رئيس كوبا الذى انتصر على أمريكا ، وفى الوقت نفسه تهجره امرأته مع عشيق أمريكى ! ..

والسياسة عنصرها فى رحلات انيس منصور . ورغم ان شهرة انيس منصور مثل يوسف السباعى واحسان عبد القدوس ، لم تقم على السياسة رغم كتاباتهم فيها كثيرا . الا أن السياسة أخذت بحكم ضرورتها فى بنيان المجتمع .. حيزا واضحا من كتاب رحلاته .. ربما لان الانسان العادى فى أجزاء كثيرة من العالم ، لم يعد كما كان يعيش على هامش السياسة ، لان السادة الكبار هم وحدهم الذين يستأثرون بتسيير دفنها .. تغير الوضع وأصبح للرجل العادى دوره فى تكوين الموقف السياسى حتى فى البلاد التى يستشرى فيها التسلط من أى نوع ، لا تملك الا أن تزعم بحق الرجل العادى فى الاشتراك فى العمل السياسى من القاعدة الى القمة . ومن ناحية أخرى فان العالم لم يعد مغلقا مثل زيارة كل شعب أو دولة يمكن أن تكون فى حالها .. مضى عهد الاستقرار الكاذب هذا . وأصبح البشر يهتمون بمـــا يدور عند بعضهم البعض . لان المصالح مشتركة والانسانية واحدة . ومن هنا جاء انتشار كتب الرحلات .. كل يبحث عما عند

الآخر من الشعوب .

لقد أصبحت السياسة تدخل فى أشياء كثيرة .. أو هى تندخل فى الاشياء جميعها . فقد تغير مفهوم السياسة منــذ وقت طويل .. لم تعد الدبلوماسيــة الخاوية أو مناورات الاحزاب أو انقلاب الحكومات ، بل هى كوبا . التى تبيع السكر كأنها مصـــابة بمرض السكر . فهى لاتذوقه .. محروم عليها . فالامريكان يزرعونه ويقلعونه ويقطعونه ويصنعونه ويصدرونه بالاسعار التى تعجبهم . والشعب الكوبى يتفرج على العلم الحديث الذى يحول القصب الى سكر يذوقه كل الناس الا الذين زرعوه ! .. والسياسة هى أيضا التى تجعل ايطاليا بلدا سياحيا .. اعتادت أن تكون عروسا للكل سائح سواء أقام ليلة أو شهرا . والسياسة كذلك هى التى اعتمدت على التربية الشديدة أو عــدم الميوعة فى صنع الشخصية الالمانية ، فصنعت ألمانيا العملاقة . ويتت أنيس .. ولابد أن مثل هذه التربية الشديدة هى التى أقامت المانيا على قدميها. عملاقا صناعيا فنيا من جديد ، وطفلا ذليلا فى وزارة الخارجية الامريكية .. ولابد أن هذه الذلة هى التى جعلت ألمانيا تقف الى جوار اسرائيل .. فى تسليحهــا وتمويلها ، وفقدت بذلك ارضاء ملايين العرب من الذين كانوا يعجبون بالصناعة الالمانية ..

وهناك جانب طريف وهام أيضا فى كتابات الرحالة ، وهو ما تبلوره المقارنة التقليــــدية التى تتلبس رؤية المواطن فى الخارج ، بين ما يشاهد وبين مايحدث فى وطنه .. نجده أيضا فى رحلات أنيس منصور . وتقوم هذه المقارنات باضفاء لون جديد على المشـــــاهدات الجديدة ، وبعد آخر تغوص فيه التجربة الى الاعماق كاشفة ما تملك من عوامل القوة والضعف . هذا البعد

يعطينا امكانية استخلاص جوهر الاشياء ، تعريهـا مما يحيطها من زيف أو شوائب . فهو المحك الذى يوقفنـا على وضع الامور فى أماكنها الصحيحة .. بلا اهتزاز .. وليس من الضرورى أن تقف هذه المقارنة وجها لوجه أو جزءا لجزء ، بل انها لتنفلت أيضـا الى كل شيء فى الوطن يستدعيه لتداعى فى الافكار او الصور . كما فى اشارة كاتبنا السريعة الى اسم البنسيون الذى نزل فيه ميونيخ .. اسمه بنسيون الشاعر جيته .. وأعجبنى الاسم . ولم تكن هنـاك أية صلة بين اسم الشاعر والبنسيون .. كما لا توجد أية صلة بين لوكاندة البرلمان عندنا ـ فى العتبة الخضراء ـ والبرلمان !

وإذا كان انيس منصور فى أحيان غير قليلة ، يتجاوز مصر فى هذه المقـارنة ويستبدل بها الشرق ، كما فى اشارته السريعة الى عدد الشرقيين الذين نالوا جائزة نوبل وعدد الألمان الذين نالوا نفس الجائزة ـ النسبة ٢ : ٥٧ !! ـ الا انه لا ينسى بين مصر والشرق والعالم كله ، بلده الصغير الذى ولد فيه .. مدينة المنصورة .. التى يتردد ذكرها أكثر من مرة فى رحلاته . فهو يذكرها مثلا فى « بلاد الله خلق الله » ـ الطبعة الثالثة (ص٨٠) ـ عندما يذكر الايطاليين ومعرفته باللغات الايطالية .. التى عرفها لاول مرة فى المنصور ، من جيرانهم الايطاليين الذين يسكنون فى نفس المنزل ، والبقال الايطالى فى نهاية الشارع وتلاميذ المدرسةالايطالية الذين يتكلمون بها فى الطريق . ويردد أنيس منصور اسم المنصورة فى « ٢٠٠ يوم حول العالم » ـ الطبعة السادسة ـ وفى أمريكا يتحدث عن الهباب فى مدينة هوليود ، الذى يشوه معالمها والذى يخـرجه حوالى ثلاثة ملايين موتور سـيارة وموتوسيكل . فهذا الغاز المحترق الذي يمـلأ الجو

بسحب كأنها مسحوق الشطة أو الكحل . يذكره على الفور .. « ششم الديك » الذى عرفه جيدا فى طفولته فى المنصورة ، والذى تطيب به الامهات دون أطفالهن .. « واكتوينا بجميعها ونحن صغار ـ ويكتب أنيس على الفور معقبا ـ هذا الكلام فقط لابنـــاء المنصورة » ! (ص ٥٧٣) .

هل يكره أنيس منصور الارقام ؟ انها قليلة جـدا فى كتابه ، لايستعملها الا نادرا وفى نطاق ضيق .. فـكأنه يهرب منها ، أو لانه لا يؤمن بينه وبين نفسه بهـــا ولا بجدواها كثيرا أيضا بالنسبة لقارىء مثـــل كتابه ، لا يريد أن يصدع رأسه باحصائيات جافة وأرقام مملة تبعث فى النفس السأم . فالاولى من ذلك أن يترجم ماتريده الارقام الى حياتنا وعواطف وأفكار .. ويفعل . ولكنه أيضا يجعل للأرقام وظيفة أشبه بالمذكرة التفسيرية التى تشرح وتوضح وتملأ الفجوات أو التى تبدو كذلك .. تستكمل بها الصورة خطوطها . ان الحديث مثـلا عن كوبا بأرضها وسحابها وضبابهـا وبيوتها وشوارعها لا يكتمل الا بذكر عام ١٤٩٢ عندما اكتشفها كولمبوس ، وكانت أول أرض رآها وقد جاء يكتشف الهند .

وقارىء رحلات أنيس منصور يجد فى كتاباته الاخيرة عن هذه الرحلات ، أسلوبا يختلف بشكل ما عن أسلوبه القديم .. لقد سافر أكثر من عشرين مرة الى القارات الخمس ، ويجد فى كل مرة شيئا يكتبه عن البلد الذى زاره قبلا .. ولا غرابة فى ذلك . فكاتبنا لا يتحدث عن نفس الاشياء ولا يقدم ذات الصور .. الا أن هنـاك اختلافا واضحا ، بين العين التى ترى البلد الغريب لاول مرة والعين التى اعتادت على رؤيته والتمست مداخـله ومخارجه واطمأنت الى وجودها على أرضه . الاولى

مهما كانت ثقافتها وتجاربها ، فهى لا تملك الا أن تنبهر دائما بكل ماتقع عليه ويخالف اعاشته قبل ذلك . يتسوى فى هذا الانبهار الاشياء التى تستأهل والتى لا تستأهل ، وخاصة اذا جاء صاحبها من دولة نامية أو متأخرة لا تتابع منجزات العلم ولا تعايش الحياة العصرية . أما العين الثانية فهى أكثر اتزانا وادراكا للحقائق .. تملك أن تفرق واعية بين الغث والثمين والجوهر والزائف فى حياة الشعب الذى تزوره . وقد حمل هذا كله أسلوب أنيس منصور .. فحديثه اليوم عن رحلاته ، يكاد يخلو من النبرة الزاعقة .. من تضخيم الاشياء بعدسة مكبرة ، أو تلوينها بريشة زاهية ، أو استقبالها دائما باعجاب مبالغ فيه . لم يكد يكتب بابتهال وكأنه يصلى ، لم يعد يستخدم مثلا كلمة « جدا » كثيرا ! .. وقد التفت أنيس نفسه الى هذه المبالغة . لذلك فهو عندما أعاد طبع كتابه « ٢٠٠ يوم حول العالم » ، حذف كلمة « جدا » أو كاد .. يفسر أنيس هذا الموقف بقوله .. لقد سجلت طبعته الاولى ــ يعنى رحلاته الاولى ــ فرحتى بالعالم الواسع الملون الباهر المبكر .. ومن الصعب أن يندهش الانسان ويصرخ بصوت منخفض . وليست علامات التعجب المنتشرة وكلمات « جدا » الا دليلا على دهشتى لم تنته وحماسى لم يخمد .. الدهشة هى بداية المعرفة الانسانية . فالانسان يندهش وبعد ذلك يتساءل ، وبعد أن يتساءل يفتش عن الاجابة .. وقد تساءلت كثيرا جدا ، وحاولت أن أجيب بقدر ما أستطيع ..

وداعا ايها الملل

يعرف أنيس منصور الملل .. شىء ناعم الملمس يسرى

فى اجسامنا كأنه خدر .. كأنه ملايين النمل .. انه يحول ايدينا وارجلنـــا الى أكياس من النايلون محشوة بملايين الملايين من ذرات الرمل .. أو النمل . وهذا الشعور بالتنميل أو « بالترمل » .. أى الذى يجعلنا كالنمل أو الرمل ؛ فهو الذى نسميه بالملل . والانسان الملول فى حالة عجز عن الاتصال بالغير أو أنه انسان عنده احساس بأن الآخرين عاجزون عن الاتصال به ، ومعنى ذلك ان هنـــاك نقصا فيه هو ؛ أو نقصا فى الواقع .. هذا هو الملل طابع العصر الحديث . ولكن هل من علاج ؟ يجيب كاتبنا .. الحب هو الذى ينقذ الانسان من الملل ، ولكن هل الحب وحده يكفى ؟! ..

ويستعرض انيس منصور الملل ، فيجد أنه احـــد معالم الوجود الانسانى منـــذ أن وجـــدت الحياة ووجد البشر ، كما يقول مورافيا ايضا . فآدم وحواء شـــعرا بالملل فى الجنة فارتكبا أول خطيئة !..ثم تتابعت الحلقات .. فالملل من النظم هو الذى يخلق نظما أخرى فى كل مجال .. ورغم أن الكتاب يتناول موضوعات أخرى ، فهو يستظل فى مقالاته جميعا بروح الملل . ويناقش مؤلفنـــا مذهب العبث أو اللامعقول فى الادب والمسرح .. وتتردد اسماء كتابه الذين يعيشون فى فرنسا وان كان أغلبهم من المهاجرين اليها .. مثل يونسكو من رومانيا وآداموف من القوقاز وبيكيت من ايرلندا وبونستانى من ايطاليا . ومسرحيات العبث لون جديد من المسرحيــــات .. بلا حوادث ، تنمو وتكبر وتعلو وتنعقد وتصل الى نهـــاية مريحة الى حل .. وانما كل مسرحيات العبث بلا حوادث متطورة وليست بها شخصيات مرسومة محددة المعالم . ويتناول كاتبنا مسرحية الكراسى ليونسكو . ولم يكن الجمهور الفرنسى سنة ١٩٥٢ والانجليزى سنة ١٩٥٧ ،

ساخرأ عندما قابل المقاعد الخالية على المسرح بأضعافها من المقاعد الخالية فى الصالة.. وانما حاول تقليد المؤلف .. وقد نجح المؤلف والجمهور معا فى تأكيد معنى الفراغ : الا أن هذا الرأى فى مسرحية الكراسى . لا يمنه من القول .. ان المسرح العبثى ليس الا راحة للعقل من التفكير المنظم .. من التفكير المألوف .. لقد تعب العقل من قيوده .. وقد آن له أن يستريح . ولا يقتصر انيس على العبث الاجنبى ، بل ويعرض للامعقول المصرى كمسرحية الحكيم « يا طالع الشجرة » ، ويناقش رأى طه حسين فيهما من انه لم يفهمها ! ..

يقول كاتبنا فى احدى مقالاته ، الملل حقيقة تلف حياة كل انسان والهالة الحديثة لكل الناس بعد الحرب العالمية، فالانسان يشم رائحة كريهة .. رائحة نفسه وغيره .. ولكنه يستثنى الاطفال وحدهم من تغميمه .. الملل مرض يصيب الكبار ، ولا يعرفه الصغار من الذين يجدون ظلطة، يحسون كأنهم اكتشفوا « حجر رشيد » المكتوب بكل اللغات ، ويصبح هذا الحجر وبسرعة مصدر الصـــــوت والضوء فى حياتهم ! (ص ٢٠١) . أن الملل كما يفسر مؤلفنا ، هو قمة أحاسيس .. نقترب منها أو نبتعـد عنها .. المبالغة هى البداية الطبيعية الى الملل .. لان المبالغة تجعل كل شىء يفقد قيمته الحقيقية .. وخيبة الامل هى التى يتولد عنها القرف .. والقرف هو الاسم (الحركى) لشخصية خطيرة اسمها .. الملل ! وشهريار بطل ألف ليلة وليلة يدخــل الملل فى تكوينه . التغيير وعدم التغيير اذن يبعثان على الملل . فما الذى يجعلنا نمل الدنيــا كلها ؟ ويجيب أنيس .. اننا فى الحقيقة لا نمل شيئا ، وانما نحن نمل أنفسنا .. فنحن نحيط أنفسنا بما يعجبنا فقط ، بما يرضى أذواقنا فقط ، فيصبح كل ما حولنـا

مرايا لنا .. صورا لنا .، معرضا مستمرا للوحات حياتنا .. كيف لا تمل أنت حياتك اذا كان كل من حولك يشبهك .. واذا كنت لا تسمع الا صداك ، ولا ترى الا ظلالك : ولا تشم الا عرقك : ولا تأكل الا لحمك ولا تشرب الا دمك .. ولا تشكو الا من نفسك .. لابد أن تعرف الملل .

وانيس منصور من هذا الصنف من الكتاب ، الذى لا يكاد يكتم عن قرائه الكثير من مشاعره ونبض حياته ، فى مقالات كاملة مثل « كرهت حبى » يحلل فيه العلاقة الغربية التى تربط بأمه . أو « أشوفك عسكرى » التى يقص فيها تنبؤ أحد أقاربه له وهو تلميذ صغير ، انه سيكون من رجال المرور ، لأن أنيس دائم الوقوف الى أكشاك المرور يراقب السيارات !! .. أو يذكر أنيس هذه المشاعر وهذا النبض فى ثنايا مقالات أخرى .. ففى « نحن أولاد الفجر » يذكر تعاطفه مع الفجر فى مصر وخارجها . ويربط بين هذا التعاطف وحياة طفولته وشبابه ورجولته .. غير المستقرة التجوالة ، التى لا ترتبط بانسان او مكان ، لان أباه الموظف الصغير كثير التنقل .. لم تكن هناك بلدة عزيزة على . ولم يكن هناك أحد عزيز لدى . كل يوم أرى وجوها جديدة . لا أعرف كيف أتعلق منها أو فيها ..

واذا كان فى الامكان تجميع عدة مقالات مختلفة ، وهى التى كتبها صاحبها فى الصحف وجمعها فى هذا الكتاب ، فى أبواب .. يضع لكل منها عنوانا ، كما فعل أنيس منصور لتحديد معنى أو اتجاها خاصا .. فهذه الابواب تستوعب ضم الاطراف بعضها الى بعض .. كما فى باب « المنتمى واللا منتمى » الذى يتحدث عن الاجيال والانتماء وعدمه . يقول أديبنا .. عندما تقوم ثورة ينقسم الناس الى ثلاثة أنواع .. الناس الذين ينتمون ، والناس « الغير المنتمين »

اليها . وعن الاجيال يكتب أنيس .. كل الاجيال هى مراحل فى حياة المجتمع ، فى كل التاريخ ولا تاريخ بغير ناس . ولا بغير تاريخ . وكل انســــان له تاريخ . له طفولة وشباب ورجولة وشـــيخوخة .ولكن المجتمع لا يشيخ ، فهو متجدد دائما .. فعندما يكون هناك أناس قد بلغوا الشيخوخة ، يكون هناك أطفال صغار .. أطفال بالملايين . وعندما يموت هؤلاء الشيخ ، يكون الاطفال قد أصبحوا شبابا .. فالمجتمع فى شباب دائم .. فى حيوية دائمة .. أناس تقول عنهم « ذلك » الجيل ، وأناس تقول عليهم « هذا » الجيل . والتهمة الظالمة ، كرة يقذف بها جيل فى وجه جيل ، وتختفى الاجيال وتبقى الكرة ! ..

وأشياء كثيرة أخرى يقولهـــا كاتبنا فى .. النقد . الفلسفة . الحرية . جاجارين الذى لم ير الله فى السماء .. الخ ! تتميز بأسلوب أنيس منصور ذى الجزئيات الدقيقة الكثيرة المتراكمة ، التى تستقى من منابع مختلفة وتستوى فى تيار واحد ، تحافظ على مستوياتها ارتفــاعا وانخفاضا ، وبذلك يصنع كاتبنا صورة متكاملة ، فيهـــا الوان من الاقناع متباينة .. ينهلها من الحيـــاة والناس والثقافة المستوعبة التى تشرق وتغرب ! ..

فهـــرســـت

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة — ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Marco, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

بدات المسرحية العربية والمصرية فى مقدمتها ، سواء أكانت عمـــلا فنيا يمثل على خشبة المسرح او نصا منشورا بين دفتى كتاب ، تتمكن كشكل فنى مستحب من نفوس القراء والمشاهدين • ولمعت فيها اسماء جاوزت الحدود الى خارجها ، فترجمت اعمالها ومثلت فى اكثر من بلد أوربى •

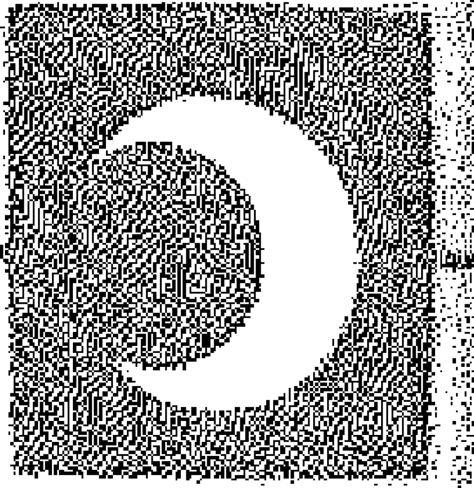
وفى الفن كما فى الحياة •• حظوظ ، فبعض الاعمال ـ والحديث فى نطاق الاصالة ـ يصيبها السعد فتشتهر ، والبعض يلحق بهـا الفشـل فتنزوى • والفارق بين الاثنين ، ان الاولى فى اغلبها غير موضـوعية تسيرها الشللية ، بينما الثانية قدرية لا دخل لاصابع البشر بها ! •

والمنهج الذى يعتمد عليه التناول لما تم اختياره من مسرحيات ، يتخذ من الرؤية التى يبلورها الفكر القومى مقياسا•• هذا الفكر الملتزم بالنبض المصرى الخالص النابع من أرضنا العريقة التى انبثقت منهــا أول صيحة للتوحيد فى فجر الانسانية ، فيؤكد صلته بالقيم الروحية وما تفرض النظرة الاسلامية من رحابة وقوة وصفاء ضد دعاة المادية •

ومن خلال هذه الرؤية تتابع أعمال ثلاثة أجيال من كتاب المسرح •• محترفين او هواة ، تضم مع الاسماء المشهورة •• القلة من الاسماء الشابة الاصيلة •

واذا كان كاتبنا يؤمن بأن الكثير من جوانب حياتنا والفكرية منهـا ايضا ، يستاهل المجابهة الشديدة ، ولذا فهو يعنف فى اسلوبه •• الا انه مع ذلك يرى ان فصوله هذه جاءت كما يقول اكثر رقة مما ينبغى ••

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

الصور

محمد السباعى

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايد عبياد

[redacted]

مركز الإدارة

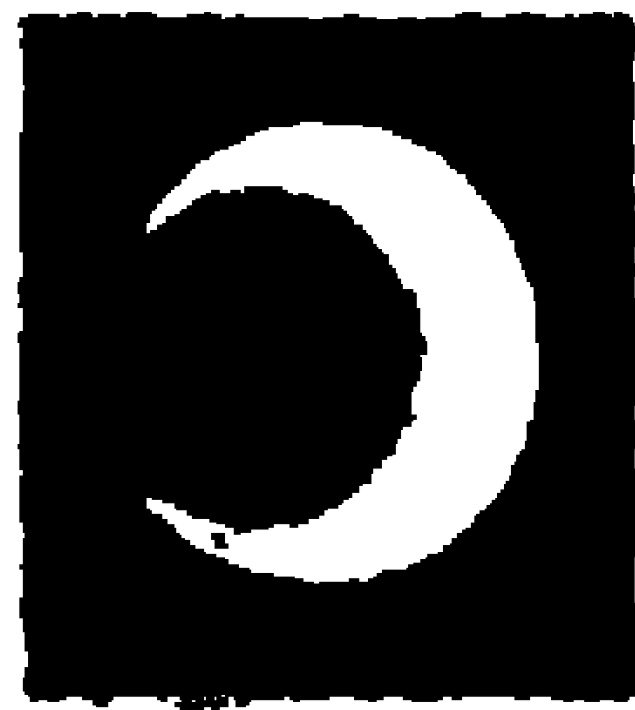
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : «١٢ عددا» في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا • فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية أو ٥ر٢ جك ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الحب

وردة أوجدتها الشمس فوهبت للشمس نضرتها ، وخميلة أحياها السحاب :

فهى تثنى على السحاب ثناء

طيب النشر ذائعا فى البلاد

وكلمات لولاك ما كانت . تريدك لأنها لا تعرف سواك .

لا لمال أكتب ، ولا شهرة . بل ان حسنة كانت لنا فى سالف الزمن سلبها الدهر بعد الهبة . وكما أن المصور الذى ثكل ولده يأخذ الريشة فيرسم من ذاكرته صورة غلامه . كذلك تناولت القلم أنقش على الطرس صورة الماضى ، فلما فرغت عكفت على الصورة وبى من الحرارة ما بالمصور العاكف على صورة فقيده . ولكنها حرارة لذيذة ، ذلك سبب كتابتى ،

لا لمال ولا شهرة . دع المال يعبث بالعالم عبث الوليد بالكرة ، يجلب القصور والضياع ، والخدم والأتباع . دع المال يشترى العقيدة والمذهب ، والمودة والحب ، والكواعب الغيد ، والأحرار والعبيد . ما قيمة المال عند من لا يرى لهذه اللعبات قيمة . من ينشد مع ابن الرومى :

وكل ما تقضى من الأمور
تعـلة من يومنـا المذكور
ومتعـة من متع الغـرور !

الدنيا ! ما هى الدنيا ؟ زينة الليل سخرة النهار . يجلوها الظلام ويكسفها الصباح . ماشئت بالدجى من أنوار ساطعة ، وزخارف لامعة . وبالنهار مصـابيح عمياء ، وأدوات لا ماء ولا رواء . الدنيا ؟ ستار تمثيل حقير فى ذاته ، فأما ما تراه من جماله وروعته فانه باطل من تزوير الليل ، وخـدعة من تمويه الأنوار . وكذلك يفعل ليل الشباب بحقائر الحيـاة . الشباب بلور ما صادف شيئا الا كساه حلة خيوطها الألوان المختلفة كأنما نسجها المطر من أقواسه .

كان زمن يرينى الأرض والسماء والروض والمـــاء تبهى فى برود السناء الإلهى • لقد عريت الكائنات من تلك الفتنة • ان البدر لينير ويكمل ، ويلتف حواليه فى صفاء السماء العارية • وان الورد ليحمر ويخجل ، ويبث أنفاسه فى أذن النسيم الواعيــة • والماء يحلو ويجمل ، ويمثل النجــوم الزاهيــة • ولكن جمـالا مخصوصا كان فيما مضى يتوج الكائنات قد ذهب الى حيث لا يرجع • لم تتغير الدنيا ولكن تغير الإنسان • وما تنكر الكون ولكن تنكر القلب • كان قلب الفتى سراجا منيرا يلف الوجود فى ضيائه ، فلما خبا القلب ذهب الضياء • كان عصر الصبا صباحا عليه الندى نظما ونثرا ، فلمـا جاء الهجير جف النـدى وغاض الصباح • أرأيت لو جلبنا عقـــد الملاذ هل نجلب الشباب ؟ ولو اشترينا كنز الترف هل نشترى قلب التصابى ؟ تلك لذة طواها الوقت ، نصيبك منهـا الذكرى ، وأحلام اليقظة والمنام • غير أن الذهن فى تتبع المذكورات كالصائد المطارد الظباء • لا يستريح أو يقنصها • أما المذكورات فلا يصيدها الا الكاتب ينصب لها حبالة القلم • الذكرى جمرة فى الفؤاد راحة

الكاتب فى قذفها ؛ فاذا رأيتنى أكتب فانها نفثة المصدور ؛ وما هى لمال ولا شهرة .

لماذا غنى الشاعر ؟ للذى غنى له البلبل ، لأنه لا يستطيع السكوت ولا يعرف الا الغناء . لماذا يكتب الكاتب ؟ ما بالك لا تسأل : لماذا يهطل السحاب ، وينمى الغرس ، وتهب الريح ، وتلدغ العقرب ؟ لأنها لا تعرف غير ذلك . لماذا تحرك القلم ؟ ليؤدى عن بعض الكتاب جزية يقتضيها ذلك السلطان القوى : الحب .

الشباب مشرق الحب . هل رأيت مطلع الشمس وما يحفه من بهجة الاشراق ، ورونق اللألأ ؟ .. كذلك لمشرق الحب طرب فى النفس ، وحلاوة الى الزوال مصيرها . هذا تأويل ما أوردناه فى مبدأ الكلام ، وسميناه « السناء الإلهى » و « الجمال المخصوص » . الحب يبزغ فى الشباب ، ويصعد فى سماء النفس ، ثم يأخذه الانحدار حتى يلمس الأفق ، ولكنه لا يغرب ، هو لا يغيب ولا يزول . الحب قديم سرمد ، هو سراج الحياة الذى لا يخبو ، قد يغيض على الزمن وهجه ، ويحمر بعد البياض سناؤه ..

ولكنه المنار الخـــــالد يهدى تلك السفينة الشـقية « الإنسان » فى مياه الحياة الصخرية ويكون ملاذها فى العناصر وعصمتها .

يا عماد الإنسان ، ومنبع القوة ، وحياة الحياة : أيها الحب لقد عرفتك وأنت فتى يطفىء النهار لحظك .. وشيخا أكل الشقاء شعاعك . فــــلا والله ما كنت فى الأولى أحب الينا منك فى الثانية . يا ملاك الوفاء قد ثبت لنا على حين خذلتنا سائر القرائن . مثلك ومثلنـــا كرجل كان فى مأدبة فأخذه النوم بين تجاوب العيدان ، وتداعب الحسان ، فلما انتبه لم ير الا الظلمة والفراغ .. حتى اذا جال ببصره فى أنحاء المكان أبصر جمرا يريك شـــدة الحلك ، فلما أتاه وجد فيه دفئا وهداية وكفافا .

أيها الحب : رأيتك فى حالتيك فما تغير عنصرك .. وان كان ظاهرك قد تغـــير . كأنك الينبوع يتألق فى الضياء . ويعلوه الظلام فلا يضيره . أنت واحد .. وان تبدلت باللألاء ، ظل الهم والكآبة . كذلك الندى يكون مبسم الصباح وهو بذاته مدمع المساء .

يا حلية الكون ، وتاج الخليقة : أنت مجمل الأشياء . تضاعف ملاحة المليح ، وتترك بالقبيح ملاحة . تطرق الشاب فكأنه لم يعرف الشباب من قبل .. ويذوق الكبير فيك طعم الفتوة . مستلذ فى سبيلك الحزن والجوى ، مستعذب فيك ملح الدموع بشهادة القائل :

لا تسقنى ماء الملام فاننى
صبٌ قد استعذبت ماء بكائى

حتى اليأس آفة الآفات .. منك يستفيد حلاوة .

أنت لذيذ فى الكبر .. وألذ منك ذكراك أيام تجلو عرائس الفرح وتدير الكئوس . إيه يا ساقى النعيم . لقد قلبت كتاب الحياة فما رأيت أمتع من صفحاتك .. انها أرباح العمر وميراث الشباب تلبسه الرجولة اكليلا .

كم ساعة أليمة أنكى من العقرب حولتها نحلة مجاجة بتذكر أيامك العذبة اذ لا تدع فى سبيلنا صغيرة ولا كبيرة الا وتنفث فيها من سحرك ما لا نكاد نكفيه .

أيها الساحر : لا أنسى حميـاك فى الرأس اذ يثب الفؤاد لصوت إنسان ما .. اذا حضر فكلنا أعين ، ويغيب فكلنا تذكر . اذ نجعل الذاكرة مستودعا لكل ما تعلق بذلك الإنسان . اذ تنفث أيها الغرام فى النفس من لذيذ الأحاديث ما لا نجـــده عند صفوة الأصفياء حتى يعود الخلاء ، املأ بجميل المعانى :

وأخرج من بين البيوت لعـلنى
أحدث عنك النفس يا ليل خاليا

إذ يجيل أحدنا البصر فلا يقع الا على ذلك الخيـال الجميل ، لأن شمائل الغائب وألفاظه ليست بالرقم على الماء ، بل هى مكتوبة بحـــروف النار . وهى درس العاشق فى فحمة الظـلام ، اذ يقبل علينا الحظ حتى يستصغر لنا السعادة فيحليهـا بمزاج من الخـوف والألم . ولله ما أعيـذب آلام الحب . انها لترجح بسائر الملاذ ، اذ لا شـغل لنا الا المنى نقضى بهـا النهار . ونقول بالليل :

عللانى ، فـان بيض الأمانى
فنيت . والظلام ليس بفـانى

إذ يلتهب بنا المضجع ، ويغلى الذهن بالفكرة العالية . اذ نور القمر نشوة ، والزهر كلام ، والهواء غناء ، والنجوم شعرالسماء .. واذ ما عدا ذلك من تكاليف الحياة لغو وفضال . والناس كلهم صور متحركة .

يا مجـــدد الأشياء : هل خامرت إنسانا فلم تصقل صفائح الكون فى نظـــره ، وتبعث الرونق فى ديباجة الطبيعة ، وتنفخ الروح فى كل كائنة ، الى أن تقرأ فى جبين الزمان :

وجاء الزمان الطلق يختــال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتـــــكلما

حينئذ يفهم الإنسان معانى الطير ، ويتصل ما بينه وبين الحمام ، فيشبه الذى قال :

لقد هتفت فى جنح ليل حمــامة
على فنن وهنـــا وإنى لنـــائم
كذبت وبيت الله لو كنت عاشــقا
لمــا سبقتنى بالبــكاء الحمـــائم

إذ يخيل الينا أن الشجر والكلأ يعقلان . وأن ألحاظ النرجس تحاول عندنا سرا فنميل عنها ثم نجنح ، لأن

الطبيعة عزاء العاشق وتعلته • يرى فيها شبابه الغائب • كما قال مهيار :

وأعتنق الغصن الرطيب لقـــدها

وألثم ثغــر الــكاس أحسبه فاها

ماذا يريد العاشق المستهام من هـــذه الأشــجار والأمواه • أتراه توهم أنه ينتمى الى آل النبات لا الى ذرية آدم • أتراه يتلمس فى ذاك النسب الجديد حلقة مفقودة ، أم يتقاضى الشجر قسما من الماء والهواء ؟ إيه مجنون الهوى • أنت قصر عامر بجميل الصور ، ورخيم النغمات • تسحب الذيل زهوا ، وتعظم كأنك أمة فى واحد •• لقد نفذت الى مهجة الحياة ولمست نبضها • لم يبرق السرور ولا ذاب الحزن فى مثل عينك• ولا فتن الأرض والسماء مثـــل صوتك • ولا رأى النــاس كأنفاسك تبعث الشغف فى النسيم حتى يلهث جوى ويزفر وجدا •

أيها الحب : أنت كعبة الأفكار تنهب اليك القراطيس على مطايا اليراع • اليك حجت قصـــائد : المجنون ، وعروة ، وجميل ، وداتتى ، وبترارك • لا لمـال كتبوا ولا شهرة •

الشهـــــرة

الشهرة ؟ كلمة أضل الناس معناها وتوهموها انتشار الاسم بين الجمهور الغافل الجــــاهل ، وتلك شيمة الجمهور . ليست الشهرة ثناء القوم وإجلالهم ، وماهى بالصيحة الـــكاذبة . هى ليست بطنين ذلك الذباب المتهافت على مقـــاذر الصحف المسمى نفسه « أرباب الأفهام والأقلام » ليست هى بالنفخة الفارغة المشتراه بالمال ، وطورا بالغش والوقاحة . ولا هى بملق الصداقة والمحسوبية . انما الشهرة روح العظيم تحيا بعد موته فى عقل العالم ، ويتوارثها الجيل بعد الجيل :

كالحسام الجراز يبقى على الدهـ
ـــر ، ويفنى فى كل عصر قـــرابه

الشهرة : سلطان الذهن على الذهن ، وإجلال الروح للروح إجلالا خالصا من شائبة الزمان والمكان ، مظهرا من أدران المحاباة والظلم . أو كما قال الحكيم الغربى : « هى الصوت الحادث من بحر الأفكار العالية ، اذا

انحدر من هضبة الماضى بين أودية المستقبل . وذاك صوت عميق » . لا يعرف نهاية كأنما يوسوس فى أذن القيامة . وكأنى بالرجل العظيم يسمع ذلك الصوت من أعماق المستقبل فيغنيه عن الصيت الكاذب وضوضائه .
ومن أدرك نعمة الحق حصن السمع من لجب الباطل . طالب الشهرة الكاذبة يطلب الإجلال لشخصه فهـــو مغرور . وباغى الشهرة الصادقة يريد الناس على تقديس الجمال والشرف فهو صـــادق مخلص . هذا عاشق نفسه ، وذاك عاشق الحق . العظيم لا يهتم بذاته ، لأن له فى حقـائق الخلق مندوحة عن نفسه . وإذا امتـلأ ذهنك بشخصك فهل يسع شيئا غيرك ؟ العظيم غنى عن ثناء القوم لأنه أعلم بأمره منهم . فهو يتمثل : « لا يغلبن جهل الناس بك ، علمك بنفســك » . الثناء : يغر الصغير ، ولكن الكبير الذى يلمح العظمة فى أعـلى مجاليها يقف خاشعا أمام تلك الدرجة الباذخة ، ويعرف حقارة عمله عند مساعى الفحـــول ، فينجو من بلية الغرور والجهل . ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه ، ورأى مسافة طويلة بينه وبين الكمال فسعى نحوه ، لا كالذى :

يحسب الفضـــــل كله فى يديه

وهو منه على مدى الجــــوزاء

وليس أكفل بنجاح العمل من حب العمل . فأما اذا لم يعمل المرء الا إرادة الشهرة فمـا أدناه من الزلل . وحبك الشيء مدعاة الى استثارة دفائنه ، واجتـــلاء غوامضه ، حتى اذا مثلته على الطرس أو اللوح حمل الى المشاهد كنه الأصل ، فبعث فى نفسه لذة الصدق وطرب الإجادة . فأما مباشر الفن الجميل ـ ولم يمحض له الحب ولا استغرقت عقله لذة الصناعة ـ فأحر به ألا يبلغ مزية الاتقـــان .. واذا كان الصـــانع لا تلذه مصنوعاته الا من حيث الثناء عليها والتصفيق لهـا . فماذا يجد الناس فيها من دواعى المدح والتقريظ ؟ هل يصح ألا يكون هناك سبب للثناء الا كون فلان هو الذى صنع تلك الصورة أو ذاك الكتاب ؟ اذن فمـا هو الاحكام والابداع وآيات الحسن والاحسان مما هو موقوف على عمق الاحساس الذى لا يكون الا مع الولع بالصناعة والاخلاص للعمل .

أتراك تحسب أن « رفائيل » كان وهو يرسم صوره الساحرة أكثر اشــتغالا بأغراضه الشـــخصية منه

بمصنوعاته . أم أن صاحب « ألف ليلة » كان وهو يضع تلك الغرائب معنى الخاطر بما عسى أن يقول الناس عن قصصه ، مهموم البال ، خشية ألا يحكم القوم بأنه أكبر محدث ؟ أتظن أن « ثكرى » كان فى أثناء كتابته « هنرى أزمند » يفكر الا فى ذلك البطل ، أو أن البحترى كان يفكر فى غير الإيوان حين وصفه فقال :

لو تراه ، علمت أن الليـــالى
جعلت فيه مأتمـا بعـــد عرس
عكست حظـه الليـــالى وبات
المشترى فيه وهـو كوكب نحس
ليس يدرى أصـــنع إنس لجن
ســكنوه ، أم صنع جن لإنس
عمرت للسرور دهرا ، فصـــارت
للتعـــزى رباعهم والتـأسى
فلهـــا أن أعينهـــا بدموع
موقفات على الصبابة حبس

هل رأيت إنسانا يريد أن يعين الأطلال البالية بدموعه الا من أصبح لفرط الحب والحنان واتصال الألفة بينه

وبين الجماد يتوهم أن الإيوان الخرب له نفس تشعر ، تريحها المواساة وتؤلمها الجفوة • وهل تظن أن شاعرا كهذا كانت تشغله شخصياته عن موضوع وصفه وخياله ؟ حاش لله ، ما ذلك شأن الفحول الأكابر الشهرة الصادقة لا تصاد ولا تخطف ، بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم • الشهرة كالحظ :

والحظ يؤتاه غير طالبه

ويحرز الدر غير مجتلبه

من أراد أن يكبر فى عيون الناس فليصغر فى عين نفسه • ومن لا يزل يذكر نفسه كان خليقا أن تنساه الناس • والعظيم من وقرت به الثقة بالصيت الآجل عن الطيش وراء الصيحة العاجلة ، هو الذى لا يخشى على مآثره أن يطفىء الوقت ماءها ونضرتها • هو الذى يستطيع الصبر • هو الذى يلقى فى تربة الزمن بذور الخلود لتجنيها يد الأبد • هو الذى لا يبالى بسبق الضعاف الأصاغر ، ولا يقول شاكيا :

تقدمتنى أناس كان شوطهم

وراء خطوى إذا أمشى على مهل

هو العالم .. إن الملق والمدح الكاذب ، لا وزن له إزاء الحكم الراجح الذى يصـــدره المستقبل بشهادة الأجيال المتعاقبة . بل إن للصيت القديم من الجـلال والأبهـــــة ما هو أوقع فى النفس من جـدة الشهرة الحديثة . إن شيب الشهرة العتيقـــــة أروع فى عين الذهن من صقال الشهرة الجديدة .

الشهرة الصادقة : تشيد هيكلها على القبر وترفع نارها من رفات الفحول .

ولكن قل بين الأعاظم من بلغ فى احتقـار التقريظ والحمد ذاك المبلغ . وتلك مزية تتوقف على أمرين : الرسوخ فى العلم ، وســلامة الطبع من علة العلل ، وآفة الآفات : حب النفس . أما الرسوخ فى العلم : فمن شأنه تعريف المرء عجزه المبين أمام ظواهر الكون وبواطنه حتى يضرع ويذعن . وأما التجرد من حب الذات فإنه طهـور من أدناس الكبر والغرور والظلم والجهـالة مما يمتزج بالنفس البشرية امتزاجا لا يكاد يبرأ منه إنسان :

وعسير بلوغ هاتيك جـــــدا

تلك عليـا مراتب الأنبياء

وما حب الذات ورذائله الا كسائر الطباع : تضعف وتقوى . والتملق من أكبر مقوياتها . قال أحد الظرفاء (وذكر رجل متكبر) : « إنى لأستطيع تصيير ذاك المغرور مجنونا فى مدة شهر ؟ . قيل له : « وكيف ؟ » . قال : « بالتملق إليه » . ولعل هذا صحيح يؤيده ما يجىء فى تقارير الأطباء عن المستشفيات من أن أغلب الجنون يرجع الى الكبرياء .

وقد ذهب فريق من الفلاسفة الى أن التواضع هـو الحد الفاصل مابين العظمة الحقيقية والباطلة . بدليل أن التواضع هو من الإخلاص لروح الله فى أحقر المظاهر قبل أجلها حتى يعود الإنسان يقدس الحشرات والطوب كما يقدس السماء والأنبياء ، وذلك منتهى الإيمان . قال كولريج « إن أتقى الناس عند الله أحبهم للجماد والحيوان والإنسان » .

الكبرياء

الكبرياء من الكفر .. والمتكبر لا يرى الله والا فنيت فى كبرياء الخالق كبرياؤه . والله أهون أن ترفع فى عينه عين الا عمياء . وأعلى الناس أوضعهم فى مدرسة الإيمان . وما من الله على عبده بأجزل من التواضع . ألا ترى الينبوع الحقير فى الفلاة تحفة الخضرة. والبحر الزاخر لا تحفه الا الرمال القفرة . والعطر الذكى تفقده فى الدوحة وتلقاه فى الريحانة الضعيفة التى لا تكاد لولا العبق تبصرها :

وكذاك الربا الى سبل الأنواء
أدنى والحظ عند الوهاد

قل للمتكبر المترفع عن إخوانه : أتراك تستغنى عن أحقر الناس ؟ أئذا تكبرت على ذاك الإنسان هل تقدر على مجانبته البتة ؟ كلا إن تكبرك هذا تصريح مبين على أنك تطلب منه الإجلال لشخصك ، فأنت محتاج اليه

من هـذه الجهـة بلى ، ان الإنسـان منجـذب بالطبع الى سائر أخوته • والا فلماذا ترى الغنى النبيه يدأب فى اتخاذ الحاشية والتبع وربطهم الى نفسـه سواء بعلاقة الشكر أو المودة أو الإعجاب حتى بعلاقة الخوف والكراهة ، إن هناك لجاذبية تدفع الفرد الى الامتزاج بالمجموع • وإن البغض والحسد وسهام الذم التى يصوبها أحدكم لأخيه ليست الا علاقات معكوسة• قال كارليل : « أيهـا المبغض أخاك الرامية بنوافـذ الهجاء ، أئذا كان أخوك طاحونا هل كنت متكلفا ذمه » كلا • أنت تذم أخاك ليذكرك ، فأنت كالقائل :

لئن سـاءنى أن نلتنى بمـذمة
فقد سرنى أنى خطـرت ببالك

تذم عدوك لكى تبيت شغله الشاغل، ولو كان طاحونا لما رميته بسهامك لأنه كان يستحقها ولا يذكرك •

إن حب الذات والولع بالظهور والصيت لمما يحتمل من العظماء الذين أصيبوا بذلك المرض ، ولكنه لايطاق من الأدعياء الجهلاء • بل ربما حسب العيب المذكور فى أكابر الرجال نوعا من اللطائف المستلذة ، كما أن

قصر الأنف وكبر الشفتين قد يخال فى الوجه الجميل نوعا من الملاحة . ولكن حب الشهرة من السخفاء هو شجى الحلوق ، وقذى الأعين . أيها القــارىء : إنى أحب دانتى وشكسبير ومسلما وابن المعتز لا أتبين فى أحدهم أثر الأثرة ، ولا أشم رائحة الغرام بالشهرة ، بل أكبر ما أرى فى شعرهم هو الشغف بموضوع الكلام والتفانى فى شخص الموصوف ، على أن شغفى بالشــاعرين البحترى ، وبيرون . والكاتبين جولد سمث ، وروسو ، لا يقل عن كلفى بالفئة الأولى ، وإن كان هؤلاء الأخيرون لم يسلموا من حب الصيت ، بل إن هذا النقص وما نشأ عنه من عجيب الفعــلات وغريب النوادر لمما يزيدنى حبا لهم وغراما . كان البحترى إذا أنشد شعره فى حضرة الملوك يتشادق ويتزاور فى مشيه مرة جانبا ومرة القهقرى ويهز رأسه ومنكبيه . ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول : « أحسنت والله » . ثم يقبل على المستمعين . فيقــول : « مالكم لا تقــولون أحسنت ؟ » هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقــول مثــله .

وكان اللورد بيرون يدعى احتقار البشر ، ويفخر

بأنه مستقبل بنفسه رغمـــا من إدبار الصيت وغدرات الحظ . ولكن حيـاته الشعرية لا تشهد بتلك العـزة الشاردة والنفرة المستوحشة . ولا كان بيرون مثـل : وردذورث ، وملتون ، اللذين كانا يتصامان عن نقـد المعاصرين ويقابلان إزراءهم بأضعافه . وكان أحدهمـا يواصل نظم القصيدة وهو يعلم أنها ستقع من النقاد أسوأ موقع ، ويعلم كذلك :

« أنها أبقى على الزمن الباقى من الزمن »

وقد قال « بيرون » على لسان أحد أبطـاله فى موضوع الرفعة السياسية : « إنه من أراد هذه الرفعة فعليه أن يركـع » ثم جعـــل ذلك علة انصرافه عن السياسة ، ولم يذكر أن صولته الشعرية ما كان لينالها لولا الركوع ، ولولا تضحية ذوقه الشخصى فى سبيل الذوق العام .

ليس فى شعراء العالم من يدانى « بيرون » فى تصوير الشقاء . هو سلطان البلاغة فى فنونها الثلاثة : بلاغة اليأس ، واحتقار الحياة ، وكراهة البشر . لم يدع فى أوتار البلاء وترا لم يقرعه ولا نغمة الا أجادها . ولبث

العام بعد العام والشهر إثر الشهر ينشر هذا المذهب « الحياة شقاء » . وأن جميع الشهوات الإنسانية انما هى سبيل الى الشقاء . اذا لم تنل تلك الشهوات ساقت الى شـقاء الخيبة . واذا نيلت أدت الى شـــقاء الملل والسآمة . وجميع أبطاله أناس وصلوا الى غاية البلاء بطرق مختلفة ، وكلهم كاره للعيش ناقم عليه ، لا عون له على المضض والبلوى الا العزة المنيعة والجلد الأصم .. يذلل الهم بقـوة الإرادة ، ويقـاوم غضب الأرض والسماء مهما كانا .

وهكذا كان الشاعر «بيرون» فريسة لذلك الإحساس الأليم الذى نشأ من جملة أسباب : مرض فطرى فى الأعصاب ونكبات وقعيـــة ، وعلل من الانهماك فى الشهوات الحسية . وأضف الى ذلك أن الإحساس المذكور كان يظهر بقصائده فى إضعاف قدره الحقيقى ، ولا سبب لذلك الا الادعاء البـاطل . حتى أصبح من المستحيل أن يكون الله قد خلق إنسانا يجمع الأوصاف التى أسندها الشاعر الى ذاته . فأما كون بيرون لم يكن كمـا وصف نفسه ، فذلك ما لا ريب فيه . إذ كيف يحتقر الناس من كان يطبـع كل عام ثلاثة دواوين أو

أربعة ليبلغ الناس فيها أنه يحتقرهم . بل كيف نصدق ما كان يدعيه من الاستغناء عن مواساة الناس ورحمتهم بعد نشره على أوربا قصيدة وداعه لزوجتـــــه ، ودعائه لولده . قال « بيرون » فى كتـــــابه المسمى « تشيلد هارولد » ما معناه « ليس لهذا المعترك تأثير فى نفس لا تعبأ لا بلفحات الذم ولا بنفحات المدح » . ولكنا نراه رغما من ذلك يهتز طربا لإطراء أحد الأشراف على نظمــه حينما كان يطبع الشـــعر الذى ذكــرنا الآن ترجمته .

أما « جولد سمث » فقد كان مزهوا فخورا ، تياها غيورا الى حد مستنكر مضحك . كان مرة جالسا مع نسوة انجليزيات فى إحدى أسواق هولاندة بمرأى من المارة . فلما أبصر الناس قد طربوا الى جمال رفيقاته ، أخذته الغيرة وخرج من بينهن مغضبا ، وهو يقول : « إن فى غير هذه البلاد جهات أجد فيها من يعجبون بى ويكبرونى » . وكان مرة يتفرج مع أناس على لاعب يصل لعبة بأخرى وقد بهر القوم حذقه وبراعته فهتفوا إعجابا . عند ذلك احتدم « جولد سمث » غيرة وصاح مغتاظا : « ما أسخف هؤلاء الناس ، يعجبون من عمل

سهل لو تكلفته أنا لأبديت من الحـــذاقة والإحكام أضعاف ما رأوا » .

أما « روسو » فقد كان مولعا بالمدح والثناء . به ظمأ شديد الى الشهرة والصيت . أخذته إحدى السيدات الى التياترو ،بعد أن اشترط عليها أن يبقى مختفيا عن أبصـــار المتفرجين ، ولكن ستار اللوج سقط ، فبان روسو ولم يبد الحضور أدنى احتفال به . عند ذلك أظهر بطلنا أشد الغضب والأسف . ولبث طـول الليل منقبضا كئيبا . ولم يفه بغير كلمات الضجر والتبرم . وعلمت السيدة أن الذى أسخط روسو ليس هو رؤية الناس إياه ، بل عدم هتفهم له عند ما رأوه . وكذلك كان روسو منغص العيش ، مسموم الطبـع ، يتنازعه الشك ، والهرب من العـــالم ، والغيظ والهم . كان لا يستطيع عشرة الناس . زاره يوما ما رجل من ذوى الفضل والمروءة ، كان كثير التردد اليه، يبدى له أمحض الود والاحترام ، فوجد روسو يكاد يتميز من الغيظ من غير ما سبب ، ثم قال روسو لهـــذا الزائر وعيناه تلتهبان غضبا : « نعم ياسيدى . إنه أعرف ما جاء بك الآن . إنك أتيت لتنظر ما أكابده من البؤس والبلاء .

مرحبا ياسيدى . هذا مرجلى يغلى النار . انظر فيه تجد نصف رطل من اللحم . وبقلة . وثلاث بصلات . هذا كل ما عندى . فاذهب الى الناس وقل لهم ذلك اذا شئت . يا سيدى » . مثل هذه الحالة قد تعدت كل حد واستوجبت الأسف والرثاء . كنت ترى النـــاس لا يزالون يختلقون الأكاذيب على روسو طلبا للفكاهة واللهو . وكلما لج القـــوم فى الضحك لج الكاتب المذكور فى أفعاله العجيبة وحركاته الغـــريبة . كأنه المصارع المغلوب يتلوى من حدة الألم وقد أشرف على الهلاك ، والمتفرجون فرحون مستمتعون .

لا تحسبوا أن رقصى بينـــكم طربا
فالطـير يرقص مذبوحا من الألم

هذه العيوب فى أعاظم الرجال تسرنا ، من حيث أنها تكثر بيننا وبينهم وجوه الشبه ، فكأنها أنساب وصلات تربطنا بتلك الأرواح الكبيرة . ولنا ، ولا شك فى ذلك، أحسن العزاء والسلوة . نحن عجزة مرضى أبعد ما نكون من رتبة الكمال . فاذا علمنا أن النقص والعيب قسمة عامة لم يسلم منها ولا الأرجحون أحلاما ، والأوفرون

مروءة ، كان لذلك روحا تحت أحشـائنا ، وقرة على الأكبار . وسرنا أن نقول : « الكمال لله وحدة ؟ .

الولع يا نصيب من العجب والكبرياء . وليس إنسان كانت لذة الكبرياء عنـده أكثر من آلامهـا إلا أحمق ضالا . الكبرياء والتسامى الى الظهور هما فى مذهبى خروج من أكنان الراحة والهنـاء الى محاسر التعب والعناء . بروز من ظـلال الدعة والأمن الى مضاحى النصب والخوف . واذا كان هناك شيء يحسد عليـه الصعلوك فتلك نعمة الخمول . الخمول من الحرية . والنباهة من الرق . صاحب الخمول يسرح من خموله فى روض أفيح ، ويسبح منه فى جو أفسح . يفعل مايريد لا رصد ولا رقيب ، ولا حرج ولا تثريب . أليس هو كالطائر يذرع فراسخ السماء . وكالحوت يقطع حوم الماء . أليس فى قدرته الوقوع على كل غصن وفنن ، والنفاذ الى كل مكمن وكن . أليس فى طاقته مشاركة النبيه النبيل فى ملاهيـه ومسراته ، ثم الانفراد دونه بسائر الخير واللذة . الخامل يجلس اذا أراد فى شبرد أو سافوى . لكن النبيه لا يمكنه الجلوس على قهـوة كتكوت ، ولا عند مصطفى الحلوانى . على أن دكان

مصطفى المذكور مما يود الجلوس عليها أكابر الروائيين أمثال : إميل زولا ، وثكرى ، ودكنز ؛ لأنهم يرون فيها من الأخلاق والعادات ما هو أعجب وأنوع مما يكون فى الأندية الفاخرة مثل كونتننتال وسميراميس . ولكن أكثر الناس لا يفقهون ، هم قصار النظر ضيقو الفكر ، يحصرون العقل والإرادة فى نقطة من الحياة كوظيفة أو رتبة ، لا يبصرون وراءها شيئا . يرون أنها لباب الدنيا وكل ما عداها قشور . إنها الصريح وسائر الأشياء رغوة . إنها الذهب وغيرها الرصاص . أولئك السفهاء يغمضون أجفانهم فى وجوه الخلق ترفعا وكبرا كأنهم يرون أن الخليقة ستتألم من إعراضهم . والخلائق أعز شأنا وأعلى . يحسبون أن العالم سيجد فى انصرافهم خسرا وحرمانا . وهم الخاسرون المحرومون وإن لم يفقهوا . أولئك أحق بالرحمة والرثاء وكذلك يرحم الأبله والسجين والأعمى .

يظن أولئك العميان أن خير الحياة رهن بمراكزهم وسبلهم ، أو أنهم يجلسون من طبقات العالم « فى البريمو » وأن الله يبذل جل اهتمامه بشئونهم كأنه عز شأنه مأجور على ذلك ، فهو يبالغ كل المبالغة فى ترفيه

عيشهم وتهذيبه ، ناسيا عباده الفقراء الخاملين . خابت ظنون الجهلة الأغبياء . بل الله أعدل من ذلك . وماربك بظلام للعبيد .

ان الطبيعـــة العادلة قد أباحت جميع أبنائها على السواء مناعمها ، لم تحمل الانسان فى التماس هـــذه النعم الا وسعه . أجل ذلك الكون مفعم بالنعم ،فياض لا يحوج الى دلو ولا رشاء ، بل تغرف الكف منـه ويشرب الفم . ليس العيش بالصعب المنيع ولكنـه غنيمة باردة . غير أن الإنسان لحماقته وزهوه ظن أنه قادر على تحسين الطبيعة وتنقيحها ليمتـــاز بذلك عن الفقراء الصغار . يترك لهم العيشة الفطرية الساذجة ، ويسمو عليهم بالعيش الصناعى المركب . ولكن الطبيعة أمكر وأكيد ، فلمـا راكم عليها المترف المغتر أصناف الزخارف والتحف اذ بها قد برزت للفقـــير فى حسنها الطبيعى أملح منها تحت زخارف المترف كالحسناء يغض من جمالها كثرة الحلى .

كل أجزاء الكون ، سواء فى امتلائهـــا بالطرائف والمباهج ، ليس يمتاز جانب بالثروة عن جانب . الكون جميل كله ، بل الجمال هو خالق الكون . لكل دائرة

من المجتمع مزاياها وخصائصها وكل قوم بما لديهم فرحون • الإنسان إنسان مهما تنوعت أشكاله وأزياؤه• تصور أن ملكا من الملوك وأعوانه من الأمراء تجردوا بغته (كما قال كارليل) من ثيابهم وقاموا عراة حاسرين• هل تستطيع وهم على هذه الحالة أن تجمع بينهم وبين فكرة الملك والأبهة • كلا • انما العظمة والروعة فى الملابس والأزياء لا فى الأبدان والألوان • الإنسان إنسان برغم التمويه والتزوير • فلا تحسب أنك خاسر فى عشرة الصعاليك ماكنت مفيدة من عشرة الأمراء ، بل ربما كنت مع المساكين أربح صفقة وأرجح سهما • اجلس مع القوم الضعاف تعجبك آدابهم وكريم سجاياهم وتلف تحت هذه الظواهر الفقيرة نفوسا غنية كالعود يجرى الغذاء الحلو تحت قشرة الخشن المنكر • وتسمع الحكمة أثر الحكمة ، والعظة تلو العظة • وتستلذ منهم النكت والفكاهات وتعلم أن العقل الأكبر موزع بالعدل بين الطبقات والدوائر • وأن الله فى كل مكان • تسمع أن مهرجانا سيقام لعيد إيطالى فما أسرعك الى ذلك المحتفل • ألا تشهد الأعراس الوطنية والأسمار البلدية إنها أحفل أنسا وأحشد متاعا •

قاتل الله الزهو وضيق النظر .. يحرمان المرء أكثر الخير واللذة . يظـل أحدهم ولا شاغل له إلا شخصه وذاتياته .. اذا أحرز فائدة من وظيفة أو جاه .. لم يرح ذهنه طرفة عين من التفكير فى تلك النعمة . يعين أحدهم وكيلا أو ناظرا لمدرسة فلا تفارق دماغه فكرة هذه الوظيفة لحظـة واحدة . يجلس للغـــداء وكله علم وشعور بأنه « جناب الناظر » . ويذهب الى بيت الأدب وهو ممتلىء بذلك الشعور ، ويهب من النوم على هذه الحـالة . بل إنه ليجالس إخوان الصفاء واللهو وفكرة الوظيفة تستبد فى رأسه وتضرب الأطناب . أى مناسبة أيها البارد الثقيل ، بين ما أنت فيه من اللهـو والمزاح ، وبين « مدرستك وما تحـوى من التخت والحبر الزفر والبوص وأمثالهـا من أدوات التدريس وأدوات التنغيص » ، اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله . إنى أعرف أناسا لو أنهم رزقوا وظيفة الناظر المذكور لم تشغل أذهانهم فكرة الوظيفة الا اذا شغلتها غرائب الأفكار التى لا تخطر لإنسان على بال . مثل : « لأى سبب كان الرمل أصفر ولم يكن بنفسجيا » و « كم قرش فى جيب الدباغ » و « البليلة حلوة » و « الأرض

كروية » و « البحر زاد » إلخ . إلخ . سل الموظف الصغير أو الكبير : هل تقاس درجته مهما بلغ بدرجة ابن المعتز ولى عهـد الخلافة العباسية فى عنفوان عزها ؟ دعه يتأمل ماذا قال ذلك الشاعر الأكبر فى وصف نفسه وبراءتها من الرتبة والجـاه ، وانحيازها الى التبسط والتسهل ، قال :

قليل همـوم القلب إلا للـذة
ينعم نفسـا آذنت بالتنقل
فان تطلبه تقتنصه بحـانة
والا ببستان وكـرم مظـلل
ولست تراه سـائلا عن خلافة
ولا قائلا من يعـزلون ومن يلى
ولا صائحـا كالعير فى يوم لذة
يناظر فى تفضـيل عثمان أو على

أسعد السعداء من عاش بين الناس كأنه ليس منهم . كأن الجمهور لا يشعر به وهو لا يود سوى ذلك ، كأنه متفرج صامت ينظر معرض الحياة الأعظم ولا ينظر ، تلذه الشئون والحـوادث ولا تستميله الى ملابستها .

والانغماس فى حومتها . كأنه روح نقية تسلك سبيلها وهى ترمق العالم بنظرة التدبر والتفكير فى سكينة وزهد وتورع . ترثى لبؤسى الإنسان وتفرح بنعماه وتصفح عن سيئاته . ولكنها لا تلتمس التفات الجمهور نحوها ولا اهتمامه بأمرها . الرجل الذى ذلك شأنه ينظر الى الدنيا من ثقوب مخبأة ، ولا يحب أن يخرج اليها . يسمع الجلبة وهو ساكت . يقرأ السحاب والنجوم ويرقب كر الفصول واختلاف المشاهد . نضرة الربيع ، وثروة الخريف . ووقدة الحرور ، وقسوة الشتاء ، يستاف عبق النسائم . ويستمع هديل الحمائم . يعكف على صفحات كتاب ، أو يصرف الوقت فى المحاورة والخطاب . أو يحلل الساعات الى دقائق فى لذيذ الذكر ومعسول المنى . يظل وهو مشغول بكل شىء يراه إلا نفسه . يستطيب ذاك الكتاب ولا يهمه أن يكون مؤلفا . ويستملح تلك الصورة ولا يعنيه أن يصير مصورا ، لا يقتل نفسه حرصا على الشىء ليس كفؤا له ، بل يتمثل :

اذا لم تستطع شيئا فدعه
وجاوزه الى ما تستطيع

بل إنه فى الحقيقـــة لا يطلب شيئا ولا يكاد يعلم ما يقدر عليه مما لا يطيقه ٠ هو فى حرية الهواء واستقلال الريح ٠٠ وما دام كذلك فهو فى خفض ولين ٠٠ ولكن له الويل والنكد اذا شرع يتساءل عن مكانته فى أعين الناس ٠ ذلك السبيل الوعر والمركب الخشن ، والمرتع الوخيم لاجنى فيه الا الخيبة والندم ٠ اذ تعود أوقات الرجل وأفكاره وعواطفه رهنا بأهواء الغير وأغراضهم ٠٠ ويصبح المرء لا يرى الأشياء كما هى ، بل ينظر اليها من وجهة أنها ذرائع الى غاياته وشهواته ، فيتحول طبعه عن الصراحة والفطـــــــرة الى الرياء والتلون ٠٠ ويصبح لا تهمه تقلبات الأحوال الا من حيث أن له يدا فى ذلك ٠ وكذلك يقصر أشعة بصيرته عن حقـــائق الوجود ليحصرها فى شخصه الضئيل ، أو ليستطلع بها ٠٠ هل الناس يسمون بالأبصار اليه أو لا يفعلون ٠

صاحب الهدية

ولكن ما معنى ذلك التنقل من غرض الى غرض . والإضافة فى الكلام ، وصاحب الهدية ينتظر كلمة فى موضوع الإهــداء الذى من أجله فتحنـــا هـــذا الباب .

صاح : إن اضطرنا الجــد الى ايقافك الآن بباب الكتاب ، فبما دفعك الهزل سالفا على ايقافنا ببابك . سيان نحن فى ذلك وما نحن بالسواء فيما تبع . كنت تقريبا بعد طول الزقبة ردا قبيحا ولقاء أقبح . ونقريك الآن عذرا جميلا وقولا أجمل .

لا أكذب الله أن لذكرك أحسن الأثر فى كتابتى . لا ازال كسائز الناس إذا كتبت ، حتى إذا جاء ذكرك رقصت يدى ، وغنى اليراع ، واخضرت الورقة ، وتفتح فيها الزهر الجنى :

وضمن صـــــدرها ما لم تضمن
صدور الغـــانيات من الحـلى

وكانت قطعة نثر كأنها قطعة بستان (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم ، فادخلوها خالدين) .

ياللرجال : لسخر الحظ . وهزء القضاء « أيصبح أطرب الناس اليك وأسخاهم لك ، لا يملك مما ينزلك فيه الا بضع صفحات من كتاب وهو المتمثل :

مســتقلا لك الديار وإن كا
ن نجـــوما آخر هـــذا البناء

أذلك كل حظنا من القصور والعقد ؟ لا جرم فأقل منه نصيبنا منك ، وما ذاك إلا خيال . عجبا للزمان ! يحرمنا حتى اسمك لا نستطيع ذكره . إنا مددنا إليك القلم فلم يجن منك سوى كاف الخطاب . ولو مددنا غيره لكان غير الكاف نصيبنا . ولكن أبى الله . شتان بين صنيعنا وصنيعك . محوتنا من ذاكرتك وأثبتناك فى ذاكرة الزمن . ما رأى النـاس مثلك يشترى الخلود بسيئاته .

نراك بعين الشـــوق ولا نود أن نراك بالعـين .

ولا تقول مع مهيار :

يراها بعين الشوق قلبى على النوى
فيحظى ولـكن من لعينى برؤياها

قد لقينا من لذة البصر ماصرفنا الى لذة العقل ◆ فاذا رأيتنا فقراء فى الحس فما نحن بفقراء فى الوجدان ، جثماننا فى وحشة ، ونفسنا فى أنس وعرس ◆

أنت فى مرأى العقل أطهر وأنقى منك فى مرأى البصر ◆ تنزل من النفس فى متحف يغص بطـرائق الحقيقة والخيال ، من شعر كريم ونثر ثمين ، وإبطـال من عالم التاريخ والوهم ◆ تنزل بين « هنيبال » و « هاملت » ، وبين « شيلى » و « روميو » ◆ وهـذه أحلى وأجمل من المنظورات بالعين ◆ هى نور بلا حر ، وشـهد بلا إبر ، وسمر بلا سهر ، وزاد المسافر ، وحديث المنفرد ، وسلوة المهموم ◆ هى المتاع الخالد يعلو على طوارىء الحدثان ، قد خرج من سلطة الوقت ، وسلطان البلى ◆

لا صلة بيننا ولا شبه ◆ واذا كان هناك فردان يجب أن لا يلتقيا : فهما نحن ◆ ولكن الظـروف جمعتنا ◆ وما خلق الله أسوأ من الظروف ولا أفسد ، ولا أخرق

ولا أجن . الظروف : أمهــات الخطأ ، وأصول الشر والتلف .

جمعتنا وإياك ظروف لا كسائر الظــروف ، ولكنها خداعة غرارة ، أعانهـــا الضحك ، والنسيم ، والحر ، والجنون ، والقمر .. فأرتنا التراب تبر! .

كنا نراك حينذاك فنبهت . نلذك ولا نفهمــك كأنك الموسيقى ، كأن بنا سحر ، والآن نبصرك فنفهمك . قد حللنا اللغز ، وما حللنا عقدة السحر . ولو كنا حللناها لما كتبنا كل هذا لنعلمك أنا غنيون عنك .

ينظر أحــدكم لأحد الناس فيظنه نسيج وحده ، ثم يخجل أن يقارنه إلا بالشفق ، والزهر ، وقطر الغمام ، وسجع الحمام ، ونجم الصباح والفجـــر .. وهبوب النسيم .. وبهجة الربيع .. كأن لهذا الفرد جمالا فردته به الطبيعة دون أمثاله .

إن هذا إلا زور وباطل .. ذلك الجمال العجيب ليس بكائن فى شخص من تهوى .. ولا هو حقيقة .. إنمــا هو حلم يخلعه خيالك على صورة كسائر الصور .. ذلك الجمــال الذى تهلك لأجله .. هو ملكك .. هو

جمال ذهنك معكوسا على شخص صاحبك..ما صاحبك بجميل إنمـــا الجميل نفسك . فأعرض عن الكاذب المغرور ، وأقبل على نفسك .

صاح : بلغنا أنك تلتمسنا .. لا تنافق .. نحن أعلم بلمساتك . لاحظ لأحدنا فى صاحبه :

كلانا غنى عن أخيـه حيـــاته
ونحن إذا متنـــا أشـــد تغانيا

حفظنا الله منك . إنى ألقـاك فكأنما أبصر خمسة أعوام من العذاب والغيظ والجزع لا عتاب ولا حساب. فاذهب عفا الله عنك لا تثريب عليــــك اليوم .. أنت لا تشعر وليس على غير الشاعر حرج .

لا يزال المذنب مرجو التوبة ما دام له ضـــمير .. الضمير عين النفس ، فاذا كانت النفس عميـاء فكيف توقفهـا على مواطن الخطأ والصواب . الحيـاة هى الضمير . أنت لا تعرف ذلك لأنك لا تعرف الضمير ، بل كل ما تعلم هو أن الحياة نفاق وأنها خداع وغش . أنت تبرق لنا بالأمل الخلب ، وتهدينا النعمة السرابية . أليس فى ذلك الغش راحة لنا وحيرة ؟ نعم يامولى النعم،

جزاك الله أكرم الجزاء • أفخر ماشئت بصنيعك فينا ، وإذا قالوا لك : « أتفخر بالغش ؟ » ، فاتل عليهم قول كارليل : « ما أعظم الغش وأجزل فوائده • إنه يستر عورات الحياة ويزخرف خبائثها ، ولولاه لانكشفت الحقيقة فانتحر الناس جزعا ويأسا » •

لا يثقلن عليك قولى فما قصدت إيذاءك لأنى ما غضبت لسيئاتك ولا لسيئات غيرك • خاب من حاول مضرتى وأنا الذى يربح من الألم ما لا يربح من اللذة • أنا كالنحلة تجمع بين أطراف البلاد لا تدع فى الزهر طيبة ولا مسمومة إلا وتأخذ منها ، ثم لا تفيد من ذلك سوى الشهد وحلاوته • أنا المتمثل قول ابن حزم : « من حقق النظر وراض نفسه على السكون الى الحقائق • وإن آلمتها فى أول صدمة ، كان اغتباطه بذم الناس إياه أشدو أكثر من اغتباطه بمدحهم إياه » •

أنا المتمثل قول أبى تمام :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

وقول ملتون : « أحسن الناس عملا أصبرهم على

البلاء » وقول شيلى : « علمتنا الأحزان نظم القصيد ، فأهدينا للناس فى نغمات الشعر ما تلقيناه على ضربات الألم والشـــقاء » أنا المتمثل قول القائل : « ماذا يعلم الذى لم يتألم » . وقول البحترى :

وقد هذبتك الحـــادثات وربما
صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك

أنا القائل : إن فى الفضـــائل ما لا يظهره سوى الألم ، كالنار يخرجها القدح ، والطيب يذيعه السحق . أنا الذى طالما استدعى الحزن ونعم به كما ينعم المنهوك بالوسن ، والمشوق بالشائق . بل أيهـا الناس ! إن فى اليأس نفسه لحياة قوية ، كما أن فى السم قوة حية . اليأس حى يغذوه البغض والغضب . والحيـاة تسكن للشـقاء وتلبس له ثوبه ملاءمة ، فهى كالعسل الذى يخرج فى أرض مرة بجزيرة سردينيا .. مرارته أكثر من حلاوته .

صاح : إن لذائذ الحياة أكثر من أن يضرها فقدك . كذلك فى بقية الزهر عزاء عن النرجس .. اغمض عينيك ما استطعت ، إن فى غيرها من العيون ما يشـــغلنا الى الأبد . ضلة للمرء يحصر روحـــه فى فرد لا يرى فى

الخليقة غيره . لقد أنكر قدرة الله إلا فى ذلك الفرد . قتل الإنسان ما أكفره .

صاح : الله بيننا وبينك . نحن ثلاثة لا نخـــاف القضاء مهما لؤم . لا تقم لنا المشكلات فى حياة لا قيمة لها عندنا .. سواء علينـــا أنقضيها مع السلطان على عرشه ، أم مع الشحاذ فى عشه بين البررة الأخبار، أم بين الفجرة الأشرار ، على كرسى القضـــاء أمام القوانين والنصوص ، أم فى غيـــابة السجن وسط القتلة واللصوص . الحياة ساعات معــدودات قد عزمنا على صرفها فى الضــحك والمزاح ، ولو سقطت السماء على الأرض ، منشدين فى نفس واحد :

« والمزاح الجد إن فكرت ، والجد المزاح » .

الحياة رواية مضحكة مبكية ، ونحن الثلاثة ممثلون، نمثل الدور المحزن ولا نحزن إلا بقدر ما يحزن الشيخ إذا مثل روميو ، أو كما يحزن الحانوتى فى الجنازة . وإذا مثلنا الدور الهزلى ضحكنا من الناظرين أكثر مما يضحكون منا ، حتى اذا مثلنا دور الجنون كنا أعقــل من المتفرجين .

اذا سمنت بالمـال جيوبنـا فنحن مسرورون ، واذا هزلهـا الإفلاس فنحن أشد سرورا لأن أحدنا لا يرى الثروة فى الكيس ، بل يراها فى عين صاحبه :

خليلى إن الجوع إن جار والظمـا
فزادى فى وجهيـكما وشرابى (١)

إذا أقبلت (٢) رفعنا الغناء ، وان أدبرت طرنا فى النغمة الى جواب الجواب ، لأن الغناء اذا لم ينفع فانه لا يضر .

نحن كالنهر السيال ، يصـادف السهل الدهاس فيجرى ، ويجىء على المكان الصخرى فيرقص . كذلك نحن نصادف الرجل الدمث فنلين ، ويلقـانا الغليظ الصعب فتزداد لينا ونثب مرحا .. نروى الرقيق الطرى .. وننحت الفظ الحجرى ، وننشر أينما سرنا حيـاة وأنسا . نحن كالهواء يهب فى العمران ويشـتد فى الخراب هبوبا .. نحن كالنار تسطع وسط الجماهير . ولا يقل فى المكان القفر نورها . خليلى لا أرى أبلغ فى وصفنا من قول ابن الرومى .

---

(١) هذا البيت للمؤلف .
(٢) اعنى الدنيا .

وخلين تملا بى ثلاثة أخوة
جسومهم شتى وأرواحهم معا
مطيعين أهــواء توافت على هوى
فلو أرسلت كالنبل لم تعد موقعا
تجـلى عيون الناظرين فجأة
لنا منظرا مروى من الحسن مشبعا
إذا ما دلفنـــا مقبلين لمجلس
طلعنا جميعا لا نغـــــادر مطلعـــا
كمنطقة الجـــوزاء لاحت بسحرة
بعقب غمـــــــام لائح ثم أقشعا
إذا ما دعا منـــــا خليل خليله :
بأفديك .. لبـــــاه مجيبا فأسرعا
وإن هو ناداه ســــــحيرا لدلجة
تنبه نبهـــان الفـــــؤاد سرعرعا
كأن له فى كل عضـــــو ومفصـــل
وجارحة قلبــــا من الجمر أصمعا
فشمر للادلاج حتى كأنمـــــــا
تلف به الأرواح ســــمعا سمعمعا

بنو خبلة لم يفسد الدهر بينهم
ولا طمع الواشون فى ذاك مطمعا

تلك شيمتنا مع الزمن ، نلعب به سواء جد أو لعب .. كأنه الغادة الحلوة غضبها ألذ من رضائها .. وعبوسها أطرب من ابتسامها :

ما ساءنى إعراضها عنى ، ولكن سرنى
سالفتاها عوض من كل شىء حسن

الــدنـيــا

... الدنيا أحقر من أن نحرك لهــا ساكنا . هى كالطفل الصغير تضـحك فنداعبهـا ، وتغضب وتصيح فنتركها حتى تذل وتخضع .

ما أسخف البعض يخرجهم الله الى هـذا الوجود ليقضوا فيه بضعة أيام فيضيعوا نصفها فى تقدير منازلهم فى نفوس الغـير . ومقـاماتهم فى المجتمع (تبا لهم ولمقاماتهم) ألم يقرءوا (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) ويضيعون النصف الآخر فى فحص أحوال الناس كأن الله أرسلهم رقباء على خلقه . إن هو إلا فضول منهم ووقاحة . يقـولون : « هذا وزير » ما أرفعه ، و « ذاك خفير » ما أحطه ، وما علموا أن الخفـير قد يحفظ من أعراض الناس وكرامتهم ما يضيعه الوزير . يقولون : هذا رئيس ، ما أجله . وذاك صعلوك يبيع الفاكهة . كأنهم لا يعلمون أن رطلى عنب أشهى وأحلى من رطلى خسـة ، ولؤم ، وسماجة .

أيها العظيم الشامخ بأنفه ! اذا شئت أن يحييك الكناس بقلنسوته الرثة فحيه أنت أولا . لا ترد ذاك الفقير على إحناء الرأس لك ، انه رأس إنسان مثلك بل أشرف منك ، ليس لغير الله ينحنى . فاخجل من الله ، وقل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

أيها المتكبر الوارم من الكبر ! أتريد أن تنثنى مليون رقبة إجلالا لك وأنت لا شيء . أتدرى ما أنت به أحق . أنت احق بمليون قدم تدوس عنقك الأصور المعوج .

أيها الغنى المترف ! تظهر الأسف المدنس بالاحتقار ، إذا أبصرت الفقير المعوز تظنه لا يعـــرف الهنـــاء والسعادة . ما أغباك وما أغفلك . السعادة فى طبيعة الإنسان ومزاجه ، وليست هى فى الكهرباء ،والدبابيس، والشوك ، والكرت بوستال . كلا أيها المغفل . ليست الأشربة الملونة فى أكواب الذهب بأبرد على الحشاء من الماء فى الصفيح والفخار ، ولا الخوان يئن تحت أثقاله بامرأ من الأكلة ذات القرشين ، ولا بساط الديباج بأوثر من بساط الثرى . وأن الطبيعة الـكريمة لأعطف على

كوخ الفلاح منها على قصر المترف وأسخى يدا للصعلوك منها للأمير .

إن أسعد الناس عندى رجلان : رجل وقفت الظروف بينه وبين الشهوات فكفى مئونة التمنى والتشوف ، وأعتق من رق المطامع أخدعه ، فعاش مطمئن البال مستريحا . ومن هذا القبيل كثير من الفلاحين وصغار الباعة ، والصناع ، والأزهريين ، وفقهاء الكتاتيب ، ومدرسى العربية بالمدارس . ولكتاب الله أثر عظيم فى صيانة الكثير من هؤلاء « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . والرجل الثانى : رجل قوى النفس ، راجح الحجى . لم تحل الظروف بينه وبين الشهوات ، فباشرها ، لا مباشرة الأسير للأغلال ، بل مباشرة الأسد الهصور للكرات النحاسية ، يلهو بها ويلعب ، ويقذفها ذات اليمين وذات اليسار ، فاذا منعت منه لم يبك ، ولم يعول عويل الطفل العاجز ، بل تناساها كأن لم تكن. وأحسن مثال على ذلك « نابليون الأول » . خسر الدنيا فكأنه لم يخسر الا دورا فى البليارد أو الورق . لا فرق مطلقا بين أسد « أوسترلتز » القابض بأظفاره على أعنة أوربا ، وبين أسد « سانت هلينا » المحبوس فى تلك

الجزيرة فى قفص صخرى قضبانه العباب الزاخر والموج المتلاطم .

معذرة يا صاحب الإهداء . قد شغلتنا عنك كلمات فى سبيل الحياة فحرمتنا مخاطبتك على لسان القلم ، وتلك من خير متاعنا ، وكل ما بقى لنا منك . إنا لنجلد على الفراق وتتجلد ، وتتسلى ببدائع الله ، وتتخذ منك بدلا . ونكاد ننساك . ولكن قاتل الله الأحلام ، إنها تنكأ القرح ، وتدمى الجرح . إلا ربما حلم فزعت منه ، أسمع صوتك ، وألمس يدك . ثم أنظر على الوسادة قطرة تلمع ، لا أعلم ، أمن الندى ، أم من الجفون . الله أعلم بمصدرها .

هذه يا أخى بضع كلمات أهديتها لك ، لا تسلم من الحر والمرارة . لا تلمنى فذاك الثمر من ذلك البذر :

وعزيز على عضيك باللو
م ، ولكن أصبت صدرى بداء
أنت أوغرت صدر خلك فاعذر
ه على النفث إنه كالدواء
إن تكن لفحة أصابتك من عذ
لى ، فمما قدحت فى الأحشاء

الطبيعة

أيكم أخرجه الضجر والكرب من بين أحشاء مدينة مزدحمة الى الفضاء الفسيح ، حيث يرفل الكون فى أبهج حلله ، وتلبس الدنيا أكمل زينتها ، وترنو اليه الكائنات بعيون البشر والطلاقة . أيكم أبصر ذلك فلم يشعر بوجود روح فى هذا المشهد الجليل ، وعاطفة رحمة وحنو ، تعطف كل جزء من أجزائه على إنسان أضر به الحزن فاستجار بالطبيعة على إزالة شجوه وشجنه . إن فى صفاء السماء والماء والهواء للذة كبيرة للذى طلب الصفاء فى قلوب البشر فلم يجده .. إن فى تفجر الينابيع وتدفق الأنهار لشفاء للنفس التى آلمها الجمود من قلوب بنى آدم .. إن فى ابتسامات ذلك الزهر الضاحك لقرة للأعين التى ساءها من وجوه البشر العبوس والتقطيب.فإن وقعت على ثغر ضاحك فهى غالبا ضحكة السخر والاستهزاء ، أليس فى هذه النجوم اللامعة من نظرات الود والرحمة مايصل حبل الرجاء الذى

يقطعه من الآدميين نظرات الحقد والبغضاء .. أليس في جميع ذلك ما يمكن من قلوبنا حب الطبيعة حتى نولع بها ولوع الصب بالحبيب ، وهل يعجب أحدكم بعد ذلك من إنسان يرى في المناظر الطبيعية أصحابا تعاشر وتحادث ، ويعتقد أنه ليس من زهرة في الروض إلا وتقر عينا بما يحدق بها وتلتذ بالنسيم الذي يلاعبها التذاذ الإنسان بنعيم الحياة .

عاشق الطبيعة يكاد يسمع في حفيف الأشجار إغراء بترك المدن وضجيجها وقضاء بقية عمره معها . ثم يحمى خياله حتى تعود الأشجار تلمع في عينه لمعان الجمر المتقد ، ثم تجده يتهافت على بدائع الله تهافت الفراش على النار . ويوغل في أعماق الروض وبصره يلتهم مناظره التهام العطشان قطرات الماء ، وتتعاقب على ذهنه من الأفكار التي تبعثها هذه البدائع ما يمحو من ذاكرته البلد وأهلها ، فيخيل له أنه ولد لساعته .

هذه مناعم تشفي القلوب وتحيي النفوس .. هذه ملاذ تنبعث لنا من المادة التي خلقنا منها . هذه مناعم الأرض التي منها نصدر وإليها نعود . نعم لا غنى لنا عن التراب وملاذه . وهل عجيب أن يحن الإنسان الى

وطنه وتهفو النفس الى منبتها .. ان التراب ليلذ أعيننا كما يلذ الماء الحلق اليابس . فقل فى التراب إذا شئت : « هذا ماء يابس » . هذا التراب ينعش أجسامنا كما تنعش النار المقرور ، فقل فى التراب اذا شئت : « هذا لهيب بارد » .

يا أيهـــــا الناس ! أنتم أبناء الطبيعة فلا تعقوها بالانصراف عنها الى صغائر العيشة وأباطيلها وترهاتها.. ألا يرى أحدكم فى وجه الطبيعة ، إذا عاد اليها بعـــد هجرة ، علائم العتاب ودلائل الأسف على ما جنى من هجرتها .. فاتقوا أيها الناس غضب الطبيعة إنه مؤلم للنفس الحساسة ، وتعهدوا الأصل الذى منه تتشعبون والينبوع الذى منه تفيضون .

أرى الناس يكبرون ماتصـــنع لهم أيدى البشر من الزخارف والحلى فيلهون به عن بدائع الله ومصنوعاته، فهل بعد ذلك غرور وضلال ! .. سل الشاعر الذى يجالس الملوك فى القصور ذات الحلى والزخارف : لأى شيء يفر من تلك القصور الى قصور الله التى شادها من الغصون ذات الزهر والأكمام ، وجعـــل لها من السماء ذات المصابيح سقوفا ، ومن المياه ذات الخرير

صحونا ؟ يخترك : أن مصنوعات البشر مهما كبرت فى أبصار ذوى النفوس الصغيرة فانها حقيرة فى الأعين التى تنظر عن أنفس عظيمـــة ••• وكم من عاشق للطبيعة احتجب عنها لحظة ، ثم عاد اليها هائم القلب ، فألقى بنفسه بين ذراعيها ، وغاب فى أثناء جمالها ، وكان القمر ساطعا ، فانغمس فى طوفان نوره ، وجعل يغسل فى ذاك الضياء العجيب يديه •• ويقلب مقلتيه فى أمواجه ، ويصغى الى نغمات النسيم الذى يترك الأغصان عيدانا رنانة •

إن الشعراء الفحـول ، من كل أمة ، لم يبلغوا من مراتب الشعر ما بلغوا ، حتى اسـتعانوا بالطبيعة • فاتخذوا من محاسنها تيجانا لقصائدهم وقلائد ••• ولم يبلغ قمة الشعر إلا من نال من الطبيعة المـدد الأعظم والحظ الأوفر •

القمر

أيها الذاهل الفريد ! تذرع فراسخ السماء فى وحشة اليأس . هل مات إلفك قبل آدم فأقفرت من الجمال عينك الجدبة ، أم فارقتك السعادة منذ أطللت من محرابك النقى على مقتل قابيل ؟ لم أر غيرك من سكان السماء أقبل على أهل الأرض يقاسمهم البلاء ويشاطرهم الشقاء . ويسامر المؤرق إذا نام عنه الخليل ، وتمثل :

تنام عينى وعين البدر ساهرة
وتستحيل وصبغ الليل لم يحل

من غيرك يطل على العاشق من نافذته فيمسح جبينه المحموم بشعاعه البارد ، ويرش على فراشه الملتهب أنداء الصبر والعزاء .

أصفرار خوف ما عليك أم صفرة العلة والضنى ، أم تلك من شدة الملل ، كما قال شيلى : « أيها القمر الحزين . أمن صعود السموات تعلوك الصفرة ، أم من الوحدة بين جماعة النجوم الغرباء . أسفى على عينك يعبث بها التبدل كأنها عين الساخط طافت الوجود فما صادفت حسنة ، ولا قرت على قرة » .

المســـاء

نضب النهار وسال الليل فى مجاريه المظلمة . له خرير تسمعه الملائكة ، ينيم النبات كما ينام الطفل على غناء أمه .

أيها القلق المحزون ! اخرج الى الليل البارد البليل الظلال تتنفس عليك الأشجار الهرمة حكمتها الندية . وترسل الوردة العــذراء أنفاسها الطــاهرة ، ويرشف العشب الأخضر الحميم من بطن قدمك ، وتنسل روح الروض فى روحك فتتركها خضراء معشبة . فاذا أمسيت كذلك كنت جديرا أن تنظر الى المنازل فتقول : أيهــا المستتر فى بيته ! كأنك بك فى ألم ولوعة . إنى أفيض نعمة . فهــاك نفحــات من سرورى أرسلها عليك بين نفحات الشمال . ونفثات من نعيمى أبثها لك فى عشب منزلك أو فى ثراه .

الشـــفـق

أيها القصر الذهبى ! ما أهيم نفسى الى أعاليك اللامعة تحوم على شرفاتها . فأيما طريق سلكت من هناك سال بها فى منحدر حريرى الى عوالم الذكر القديمة . وتلك أحلى من الأمل العذب والأمانى الناضجة .

ألوانك الجمة المتمازجة لهـا نظير فى قوس المطر . لكن ألوان القوس تنشأ عن دموع السحاب . وألوانك عن دموع الإنسانية الباكية . وان ما يتجدد فى أشعتك الذائبة من سالف المناعم له فى الفؤاد لذة فوق لذة . وكذلك الحلاوة فى جوار المرارة أحلى . والجمال فى جانب الحزن أجمل . وزهر الخـــريف أفتن لقرب الشتاء . والحـديقة الخضراء فى الشفق المريض تبدو للخيال جنـة جزؤها فى الأرض ، وعنـد رضوان سائرها .

النـــوم

تنام الطبيعة فى خدر الليل الحـريرى ، لا حركة ، ولا صوت ، إلا أن تتقلب الكائنات فتنسجم فى مسامع الظلام وساوس حليها السائغة .

أيها النوع ! ألا طويتنى فى سـلطانك الساكن ، أو رفرفت على رأسى الحار بأجنحتك الباردة . لقد مال الورد المكدود على ورقة الأخضر . وخففت للنعـاس رءوس الياسمين تحت أنفاس النسائم النـاعمة . وبات الهواء أخف على جبين الكون من كف الوالدة على جبين طفلهـــا النابض . ودبت رحمة الله على أرضه المظلمة الندية ، وأطلت النجوم من منابرها العـلوية بفصاحة صامتة . والله أطلق عبـــاده من سجن الهم والشقاء ، وخلص الحب الأبدي من شوائب الكدر .

الـــــورد

مسفر الحسن الناعم والجمال الولهان . يشهد على لبنه وصبابته النفس الذائب والخجل الأحمر .

الورد : أنس لوحشة الروض ، ومجـامر لخضرته المبلولة . فكأنه القلوب الحـــرى فى لهــو الحسان الأخضر ، ولهو القضاء الأسود .

والوردة كنز مدور ، حشوه الرقة والملاحة ، يميل على عود نحيف . فهى أشبه بنظيرتها الوردة الآدمية ، أعنى : المرأة . التى هى أجمل حمل ، على أخف قدم .

إلى الوردة الآدمية أهدى الروض وردة ضـاحكة ندية . طالما علق عليها البلبل أنفاسه الحلوة فى دولة القمر ، ثم صبها حتى ترنح الزهر طربا ، وخفق الورق غراما ، فكانت الحسناء على تلك الوردة أحنى جوانح من البلبل وأحلى نفسا . بل كان نفسها بسطة فى أجل الوردة . ومدة فى حياتها . وخيل للوردة ، وهى تينع تحت ذاك الوجه المقمر ، والنفس العـــذب ، أنها لم تفارق البلبل الصياح فى دولة القمر .

الـــريـــح

ملك الفضاء استوى على أريكة الروض واحتبـواه عرش النبات ، له الخطرات المائسات فى مقاصير الغاب . والسبحات الفــائضات فى قصور الســحاب . وهو موسيقار الجو ، له من الشجر الآلات محكمة الأصوات تخفق فى حركة أمتع الخفقان . وتوسوس ولا وسوسة الذهب على الحسان . وكأنك أيهـا الريح تعيد على مسامع العالم ما كان له فى مبدأ الخليقـــة من أغانى الحرية ، وأناشيد الاستقلال . وقد خرس الوجـــود إجلالا لغنائك المهيب ، فالسحاب تكفكف الدموع ، والبحر يبلع الأمواج ، والطير يرد الأغاريد : إصـغاء لأوراقك الرخيمة وأعوادك الحلوة .

شجرة فوق القبر

عانق جذرك ذلك الثرى وانعقد به ، فكأنه الذكرى الملهوفة تشبثت بالجمال المدفون ونبتت عليه . وحنت فروعك على ذلك القبر كمـا يحنو الغرام الثاكل على خيال اللذات المنقرضة . ياله حزن ساكت ، كأن مغرما أكب على تراب حبيبته حتى اذا أفرغ ماء عينيه أقام ينظر روحه تيبس فى صحراء الفراق على أبطأ المهل . وشر البلاء : أبطؤه .

وأنت أيتها الشجرة ! ما زال بك الحزن حتى كأنك تحولت الى حزن نباتى أغلبـه عيون تغرورق بالورق الندى ، وآنا تسكبه ناضرا أو ذابلا كأنه الدمع الرطيب أو المحترق .

لأنت ياشجرة أوفى من بكى ، وأبكى من وفى ، وأكرم الناس حفاظا . تلبسين الحداد ، وقد ابيض على سائر الباكين . حزنك الحى الدائم ، وما عـداه صيحة فى واد .

الشاعر والروضة

حرام على الشاعر النوم الهادىء . وعلى أخويه : المجنون ، والعاشق . اذا وقفت الأرواح فى طاعة النوم كانت روح الشاعر الموجة القلقة ، دائمة السكر على سواحل الإحساس . بل كانت السراج الوهاج لا يزال بالجفون شعاعة حتى تتفرق ، ويخرج الشاعر على وجهه . وكذلك يفعل المجنون والعاشق . والشعر والعشق والجنون تفيض من ينبوع واحد هو الإحساس المفرط : وكلنا شاعر ، وكلنا عاشق ، وكل الناس مجنون

ولكن على حسب الهوى اختلف الجنون

حدثنى شاعر ، قال :

وجدنى السحر ذات ليلة فى الخلاء ، والقمر الساحر يمس خضرة الروض فتتحول على عصاه اللامعة فضة بيضاء . وأقدامى على البساط المقدس كالشفاه على ضريح الولى . فكانت لثمات لا خطوات .

والذهن وردة ناضرة ، أنداؤها الخواطر العــذبة تترقرق على صفحاتها الحمر أو تقطر •

وأفكارى الحلوة تتوالى عفوا كأن يد الطفل مرت على الأوتار السبعة من قانون محكم • أو البلبل يصب ألحانه من قمة الليل فى آذان الصمت والفراغ •

وأهتز كأنى الورقة الخضراء فى ذراع العــاصفة • والعشاق أوراق تخضر برهة فى بياض الحب ، ثم تصفر فى سواده الأصم • ثم •

يفنوا كأنهم ورق جف   فألوت به الصبا والدبور

وأهيم بين البساتين كأن الحب تمثل لهيبا ، شاردا ، مخلوع العذر ، يضرب فى كل ناحية •

أختال فى سوح الطبيعة • ملك الليل وقيصر الفراغ• صائغاى : الخيال ، والقمر • هــذا يصوغ الجمــال ، وذلك الفضة ، حتى أرى الوجود قصرا مفضضا يضحك خيالات الحسان •

والخيال كنز لا يفنى • فأما مع الحزن واليأس فانه يفيض بالظلمة والسواد ، كأنه منجم الفحم ، أو نهر الحبر ، أو « البحر الأسود » ، حتى تسود صحيفــة الكون ويروح فى ثياب الحداد :

من سودت نار الجوى عيشه
يسود فى عينيه وجه الضـــحا
الكون مرآة تراءى بهــا
ما ضـمن القلب وضم الحشا (١)

ويبقى الخيال فى ذلك السواد حتى تمسه كيميـاء السرور فتصيره ذهبا إبريزا .. يذهب صحيفة الوجود ويزينها بالصور الصباح .. والتحف الملاح .

وما زلت بين القمر والخيال فى معرض يتلاشى القمر أمامه ، حتى طلعت مع الصبح على الروضة .

بزغت عروس النهار ، وخطرت فى حاشيتها الحمراء على مجامر الروض ، ففاحت من أذيالها الوردية النفحات الذكية . وناح الحمام غراما بوجنة الصباح . وذاب السحاب فى ابتسامته .

ورأيت « الروضة » تقلق فى الريح كالعذراء يعبث بها الأمل . روضة يتنفس فيها الحب لا الهواء . وتنبت أغراسها فى الحب لا الثرى . حتى صخورها تسكب الحب فى هيئة الماء والحب يخجل فى خدود وردها . والأشعة تسيل على وجناته الأسيلة كأنها ألحاظ العشاق

(١) للمؤلف .

أو عقولهم • وأنفاس الحب تجرى بها نواعم وهى أخشن على القلوب من العواصف الخشنة •

تأمل هذه الأركان المظلمة المستورة بالنبات • تلك معاكف الحب صاغها من الظلال السود ليخلو فيهـــا بأحزانه والهموم • هنا يدفن الحب آماله الذابلة ، وينثر على قبرها الأزهار الضاحكة ، لتكون سخرة من غرور الإنسان حتى تذبل تلك الأزهار • وكـذلك السـخر مصيره الى الأسف والبلى •

وآونة ترى الحب فى ملاعبه المشمسة يتلألأ فى صفاء الصحو ، وقد قامت الأصوات والحركات فى عبادته • والطير والنحل والأرواح ذات الأجنحة الملونة الشفافة قد رفعت نغماتها تسبيحا وتهليلا كأنهـــا الحجيج فى عرفات ، وكأنها تقول مع اللورد بيرون :

« من كان يجهل الحب فهذه مدرسته • ومن أدرك طرفا من ذلك السر الغامض فهنا مجلاه ومذاعه • هنا ملجؤه حيث يهرب من سيئات العالم وأضاليله • والحب شيء من طبعه النماء والاستفاضة حتى يصير نغمـــة لا تحد ، جديرة أن تباهى ببقائها الأنوار الأبدية » •

النيـــــل

ينساب فى همود الصـــحراء كأنه الأمل العريض فى وحشة الفراق ، أو الحلم العذب يتخلل النوم العميق . يناجى الرمال الصاغية كأنه عقل عظيم يناجى السريرة . ترفرف على ضفافه عهود العصور الغابرة . وتكمن فى كهوفه أرواح سيزوستريس ورمسيس ، ونيخاؤس . وربما ترنمت فى هديره الرخيم ضحكة « كيلوبترا » ، وهبت فى نسيمه أنفاسها الخالدة . على ضفافك الهياكل هزلها البلى فصارت هياكلا ، كأنها الشجر المسلوب أو العظام العارية . خرابات يأكل فيهـــا الموت آمال الإنسانية ضاحكا من غرورها . ويبكى القمر على شقاء الإنسان بأشعة رطبة لؤلؤية . سكون خرب رهيب . كأن دنيا كانت تضج بالحياة فأقفرت بغتة وعادت تضج بالصمت والعـــدم .. وبعض الصمت أملأ للأذن من الصباح .

ثم ينتقل السائح من تلك الطلول الذاهلة الى الأرياف والقرى العامرة . تسعد وتثرى فى مهرجان الفيضان ذلك الضيف الخفيف الثقيل . الحامل هدايا الخصب والبركة فى الصرر والصناديق المائية . تزدحم على ظهره كأنها جمالات صفر . فتدس سرا فى تربة البلاد حتى اذا جاء الأجل نشرتها يد الله على موائد الحقـــــول زهرا وفاكهة وبقــلا . قرة للعيون والأسنان ، فكأن وادى النيل معرضا زراعيا .

والسحاب فى صفاء الجو يرفل فى حلل الضياء كأنه يؤم معرضا سماويا .

والنهار يتــلألأ كأنه قصر زجاجى ، ويهزه الطرب كأن الشمس تسقيه أشعة من الخمر لا من الضياء ، وقد تضاعفت بهجة الكون فى عين اليوم كمـــا يشرق المحب فى نظرة صاحبته . ومرح التيار يطمح ، ويثب ، كأنه الأفكار الراقصة فى ذهن الثمل .

والبساتين تختال فى الحلل المشمسة ، تتفتح عليهـــا الثمار الحمر ، كما تمط الحسان شفاهها من الدلال .

الصيف

فى وادى النيل المبارك من أطال النظر الى وجوه الكون فى أثناء الصيف ، لم يبصر أدنى مشجع على الشغل ولا داع الى العمل ، بل أينما طرح بصره لم ير إلا باعثا على الدعة والبطالة ، وإلا سائقا الى الراحة واللهو . الصيف ينفخ فى الكائنات روح الكسل ويبعث الفتور فى أعضاء الطبيعة ، فاذا غلى فى جوفها ماء الشباب ولعبت بأعطافها خمرته ، مال الكون وانثنى ونال منه الفتور ، حتى كاد يعقد من فرط اللين والدماثة . وكأن نور الشمس قد استوطأ مهاد الروض وألفاه أوثر من الخز والديباج ، فانبسط عليه ونام حتى استغرق فى نومه :

« نام الضياء على بساط الروض »

فلله عين الشمس تبعث الضياء النائم ، أو اذا شئت فادعه النوم الساطع .. كل العيون تشرب النوم ، إلا

عين الشمس فانها تمجه فى صورة الشعاع .

تنام الشمس ونورها . وتنام الرياض إبان الظهيرة فى فصل الصيف . وينام الموظفون فى منازلهم أو على مكاتبهم ، والباعة فى حوانيتهم ، والحوذية على أذرع أفراسهم . وتنام الشوارع والأزقة ، ويريح الله البلاد من ضجيج المدينة .. إلا تلك الأصوات الملعونة : أصوات باعة الشربات على اختلاف أصنافه المتزايدة أبدا (وباعة الشربات عندنا فاقوا العالم فى ملكة الابتكار) . وأشنع من أصواتهم رنات الأكواب النحاسية التى تكفى لإزعاج ما وراء المادة ، وإيقاظ القرن التاسع عشر رحمه الله رحمة واسعة .

ينام وادى النيل إبان الظهيرة . فتظله من سمائه الزرقاء بأرجائها الصافية أحلام بهيجة بهية . يسنح أثناءها من تلك السحب الخفيفة الرقيقة خيالات لطيفة هوائية . فاذا جاء الأصيل تحركت مروحة النسيم ، فاستلت نسيم النوم من روح الروض تدريجا حتى يفيق من هجعته ، ويقوم من ضجعته ، ولكنه يبقى على أهدأ مايكون من الصفاء والطمأنينة الى أن تنشر الأصائل على المغربين ثوب الشفق يزدان بجميع الألوان لا تكاد

تميز من بينها لونا بذاته ، بل كلهـا متمازجة ، يندمج بعضها فى بعض كأنها خليط من أقواس قزح •

أما ليل الصيف فى مصر ، فأجمل أوقاتها لا مشاحة ، فهو أحق الأزمان ببيت المعرى :

ليلتى هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمـان

إذا كان نصيب النهـار ، هو ما وصفنا من الكسل ، والفتور ، والنوم • فان ليل الصيف يأخذ من هـذه الصفات الثلاث : رقتها ، ولينها ، ويضيف اليهـا حدة النشاط ، وقلق الحيـاة ، ورشاقة الحركة • حتى لو تمثل لك النهار كغادة مكسال قطيع الخطو ، نئوم الضحا تعشق الفراش ، قد أفرط فيها اللين حتى لو أراد الهوى لعقد منها نطـاقا على خصره أو وشاحا على صدره • إذا تمثل لك نهار الصيف كهذه الغادة ، كان ليل الصيف جديرا أن يتمثل لك كغادة رشيقة هيفاء ، يزدهيها الطرب والمرح أن تطأ الثرى فتنزو فى الهـواء لا يستقر لها على أديمه قدم • ترفل فى الحبر الأسود المرصع باللآلىء • وربمـا سطح على جبينهـا أشرق التيجان (إذا كانت قمرية) • ذاك الذى يغمر الوجود فى طوفانه الفضى •

إنى مغرم بالشعر ، أستنشق من دواوين الفحول نفحاته ، على أنى ربما طرحت القوافى جانبا لأستقبل نسيم الليلة الصيفية ، ذلك النسيم الذى يدخل مع الأكسوجين والأزوت فى تركيبه جملة من عناصر الشعر والحب والرجاء واليأس . ولعل البحترى كان يرمى بعض الشيء الى ما أقوله الآن ، حيث قال :

ورق نسيم الصيف حتى حسبته
يجيء بأنفاس الأحبة نعما

ألا يرى القارىء فى كل ما ذكرنا عن نهار الصيف وليله ، مثبطات عن العمل ، ومسجعات على الراحة واللهو . اذا كانت الطبيعة نفسها تلك القوة الهائلة قد رأت أن تأخذ من الراحة بقسط ، وتضرب بسهم فى اللهو والخلاعة .. فكيف بالإنسان الضعيف الواهن ، إنه لأحق بالراحة وأولى . على أنه لو لم يكن فى الأمر إلا المجاملة ومراعاة الذوقيات ، لحسن بالإنسان أن يجارى الطبيعة فى سلوكها .

من أوضح الأدلة على أن الطبيعة تقصد اللهو والزينة فى فصل الصيف ، أنها تلبس حينئذ أبهج الحلل وآنق الوشى . هى فى الشتاء تخرج للخدمة والكدح فى ثوب

رث خلق قد تعطل من حلى البساتين وزخارف الجنان ، واستعاض بذلك أردية من السحاب والضباب لا يزال العالم منها فى شر واقع أو متوقع . تعبس الطبيعة أيام الشتاء فى وجهـــك ، فاذا رجوت ابنسامها وطـلاقة جبينها ، زادت عبوسا وصاحت فى وجهك ، ترسل عليك رعودها ذات الزماجر ، وتسل بروقها ذات الصواعق . ثم تنفث غضبها فى صورة القطر . ولخير عنـدى لو أرسلته حجارة من سجيل . تفعل الطبيعة ذلك ، ولها من العذر ما يتمسك به رؤساء الأقلام وأشباههم من كبار الموظفين ، وهو أن الموظف العالى لا يستطيع تأدية وظيفته الا اذا قلد الشتاء فى الزجر ، والنهر ، والإبراق، والإرعاد . وأما الطبيعة فى الصيف ، فهى كما قال ابن الرومى :

لبست حفل زينتها الدنيا وراقت بمنظر فتان

وكأنهـا أرادت أن يمتلىء الصيف من مواد النعيم والدعة ، بعكس ما غص به الشـــتاء من مواد الكد والحرمان . فاختارت لزينة ذلك الفصل الأنيق البهيج أبهج الزخارف وآنقها ، أعنى : الألوان . والألوان من أعظم نعم الله على العين الآدمية . قال المستر لى هنت :

« الألوان من أجزل النعم ، والصيف معرض الألوان . إنى أذكر صبّاغا فى مدينة جنوا ، كان يعلق حرائره على جـدار شـاهق أزاء حانوته ، حيث كانت تشرق تلك الأنسجة فى زرقة الجو الإيطالى إشراقا يجعل المرور على ذلك الصـباغ منّة مضـاعفة . ولو أبصرت تلك الألوان الزاهية لرحبت بها كما ترحب بشمس جديدة بزغت على الشمس الأصلية فى رابعة النهار . ولحسبت أن الطبيعة نفسها نسجت أستارا وسـتائر من الورد والبهار والأقحوان ، ثم نشرتها على الملأ . وإنها السماء الزرقاء ، والهـواء الصافى ، همـا اللذان أهديا إلى الإيطال ما اشتهروا به من براعة التلوين » .

إن للألوان ، خلاف كونها الحلل التى تتبرج فيهـا الطبيعة ، معنى آخر أخلاقيا . هو أن الألوان ابتسامات الطبيعة ، فاذا اشتد ابتسام الألوان فانفطرت عن جمال أبهى وأشرق ، صح أن نسميها « ضحكات الطبيعة » كما نبصرها فى الأزهار . وما أعمق نظر البحترى وأنفذ بصره ، حيث قال « الزهر الضاحك » :

وبديع كأنه الزهر الضاحك

فى رونق الربيع الجـديد

هذه الألوان ، أو الابتسامات ، أو الضحكات ، تدل على نية الطبيعة وتعمدها أن تشركنا معها فى مباشرة ما يملأ صدرها من الحيرة والابتهاج . واذا كان ذلك شأن الطبيعة ، أما كان الاجدر بنا أن نقابل انعطافها نحونا ، وتوددها إلينا ، بمثلهما أو أكثر . أليست الطبيعة أحق بالزيارة الخصوصية من الأصدقاء والأحباب . لا سيما اذا ثبت للقارىء أنه لا أصدقاء ولا أحباب فى هذا الوجود ، وإن الصداقة والحب انما هى أوهام ترفرف فى الجو مع الغربان أو الحمام والطيارات والبخار وانها لن تهبط الينا حتى يبلغ قائل البيت الآتى أمنيته :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها
عقود مدح فما أرضى لكم كلى

أليس من أكبر فضل الله أن الإنسان قد يستطيع الهرب ولو ساعة من العمران ، ذلك السجن المملوء بالمجرمين ، أو الكهف المفعم بالذئاب ، أو الجحيم الغاص بالأبالسة ، فيقيم هنيهة مع ذلك الخلق الكريم الطيب الأصل والفرع ، أعنى : بنى النبات . ألست صادقا حين أقول عن النبات : إنه طيب الأصل والفرع . ان

إثبات ذلك لا يكلفك إلا مجرد النظر الى شجرة بلغت من الكبر عتيا ، ثم هى لا تزال تفى بعهودها القديمة ، أعنى : بالثمر ، وبالظل ، وبالبذر • هل إذا نظرت ابن آدم ترى له مثل ذلك من البر والوفاء ؟ قد يهبط فى الكرم والوفاء الى صدر الآدمى اذا خرج الشيطان من ذلك الصدر ، وما ذلك الشيطان إلا النفس • لذلك كنت لا أحب الإنسان ولا أجله إلا فى حالة واحدة ، أعنى بهـا : حالة الموت • إنى مستعد أن أعشق الموت وجميع متعلقاته : من قبور وأموات ، وصخور ورفات، وتراب وحسرات ، وفاكهة وعبرات • إنى أجثو على الركب أمام أحقر القبور فأؤدى أخشع شعائر الاحترام والإجلال بكل ارتياح لأنى أكون آمنا من أن يحدث خضوعى هـــذا غرورا لعظام الميت فيعروها الانتفاخ والورم • بل ســـبحان من برأ الأموات من الورم والانتفاخ وميز به عبيده الأحياء •

الـــزواج

جرى بينى وبين صاحب لى ، ذكر الزواج ، فسألته : « هل حمدت الزواج ؟ » . قال متهكما : « نعم أحمد الزواج حمـــد الذى لم ينعم ، ولن ينعم بالمرأة إلا فى دواوين الشعراء ، فاذا نظر الى النساء فى عالم الحقيقة ، كان كأنما يبصر صورا حسانا مصفوفة فى معرض ، فهو يدرك محاسنها ، ويعرف مزاياها ، ولا يحدث النفس بشراء أيها ، وحسبه من الحسان ذلك ، أو آله يتغنى بمثل هذه الأبيات :

أخذ الإله لنـــا بثأر من قلوبنـــا
من مفعمات للحجـــال رشـــاق
رقت ميـــاه وجوههن لنـــاظر
وقلوبهن عليـــه غير رقاق
هيف القـــدود إذا نهض للعب
وإذا مشين صـــوادف الأعنـــاق

يهزن أعطـــافا تبـاعد بالجنى

وتروق بالأثمـــار والإيراق

صيد حرمنـاه على إغراقنا

فى النزع والحـــرمان فى الإغراق

وهنا أطرق ذلك الصاحب مليا ثم قال : « نحن نبصر الواحد اذا أراد أن يشترى متاعا : كثوب ، أو ساعة ، أو حذاء ، لا يخطر بباله أن يكل شراء أى هذه الأشياء الى حد ســـــواه ، فـــاذا وكل ذلك الى آخر ، عجب الناس وقالوا : أبله ، ورب الكعبة . ثم لايمتنع أحدهم بعد ذلك من تكليف امرأة ماشراء زوجة له ، كأن الثوب أو الساعة ، أجل خطرا من الزوجة . وتعود الخـــاطبة فتصف من خطبت ، والفتى منصت ، يصدق كل ماتقول، حتى كأن هذه المرأة الجاهلة بوجوه الحسن وأسرار الجمال ، تماثل فى صـــدق النظـــر ، وبراعة الوصف ، الشـــاعرين الـــكبيرين : ابن المعتز ، وشكسبير ، أو المصور العظيم : رفائيل . ثم يحدث بعد ذلك ما هـــو معلوم لدى كل انسان » . انتهى كلام الصاحب .

قال جان جاك روسو : « الحب المتبادل ، يجب أن يكون أول العقود بين الزوجين . يجب أن تكون العين

والقلب أول رائدين للزوج والزوجة . لأنه لما كان أول واجبات الزوجين عقب الاقتران هو إخلاص أحدهما الحب للآخر ، ولما كان الحب مما لا يملكه الإنسان ، بل هو اضطراري ، أصبح ذلك الواجب يستلزم واجبا أسبق ، وهو التحاب قبل الزواج . هذا هو قانون الطبيعة الذي لا ينقض » . انتهى كلام روسو .

والحب في الإنسان عاطفة قوية أوجدها الله في عبده وسيلة الى النسل والألفة التي عليها صلاح العالم وسعادته ، وقد يفتح فريق من المتطرفين في الجد والوقار عاطفة الحب ، ويسمونها : صبيانية . ويحمدون من الناس من خمد في نفسه الحب . واشتعل مكانه الطمع في المال أو الشهرة ، فيقولون : هذا رجل الجد والعمل، وربما أيدوا قولهم بالإشارة الى ما يأتيه بعض الفاسقين من المنكرات ، وهو برهان واه ، وحجة داحضة ، فان هؤلاء الفاسقين اذا صح أن الحب من بعض بواعثهم على الخبائث ، فانه الحب الفاسد ، ونحن انما نذكر الصحيح ، فاذا فسدت كانت من أسباب الفساد .

والعواطف اذا تركت في مجراها الطبيعي كانت صالحة ، وهكذا كل شيء يجري على سنة الطبيعة يكون

صالحا ، ولا يجيء التلف إلا من قبـل الإنسان الذى يجمع بين الغرور والجهل ، وبين التعاظم والحماقة . فمن منة الطبيعة : أنها منحت الإنسان الشباب ليكون باعثا له على الولوع بمحاسن المرأة حتى تصبح هذه المحاسن فى عينه أجلى مظهر لروح الجمال والشرف ، وجوهر الصدق والطهارة ، أو كما يقول : كارليل ، وأمرسون، وسائر نوابغ المغرب : « تصبح محاسن المرأة أجلى مظهر للذات الإلهية » . حتى إذا انقدحت بين الفتى والفتاة شرارة الحب الصحيح لم تزل تعظم حتى تشمل أشعتها جميع خلق الله ، وتضيء الكون أجمع بسناها العميم . هذا قانون الطبيعة الذى لا يزال عبيد التقاليد وأسرى العادات يعملون على نقضه وفسخه ، ويسنون بدله قوانين باطلة ممقوتة تجر الى الفساد والشقاء ، حتى يعود الشباب ، الذى هو من أكبر نعم الله ، آفة للشاب ومحنة . فاذا الشبيبة أوقـدت الحب فى نفس الفتى الرقيق الشعور اللطيف الروح . إذا الشبيبة أوقدت ذلك اللهيب الذى ينبغى أن ينقى النفس من الخبائث ، كما تنقى النار الفضة والذهب . لم يجد الفتى من يوجه اليه ذاك اللهيب الطاهر أو وجهه الى من ليس بأهله

أو الى من يرده عليه مشفوعا بالاحتقار . وفى جميع هذه الأحوال يرجـع اللهيب على صـاحبه بالإحراق ، فيذهب بأمله ، وبما يصحب الأمل من صـفات حب الغير ، والرحمة ، وارادة الخير . ذلك اذا كان الفتى من طبعه رقيق الشعور ، لطيف الروح . فاذا كان جامدا كثيف الطبع ، لم يلبث أن يخبو فى نفسه لهيب الحب . ونحن لا نزال نبصر من أمثال هذا من تراهم يشغفون فى شرخ الشباب بتوافه الأشياء ، يجعلونها بدلا من الحب والجمال ، فمولع بالخيل ، ومنهوم بالمقامرة ، ولهج بلعب « الطـاولة » ، ومغـرم بالطرابيش والكرافتات ، ومشغوف بلا شىء الى غير ذلك .

هذه الطبيعة قد جعلت الشباب للانسان عصر لذة ونعيم وتنقية للنفس .. وشحذ للحواس .. وإمضـاء للذهن .. وتفتيح للطبع .. حتى ينفسح ويصير مرآة لجميع ما خلق الله . وحينئذ ترفرف نفس الإنسان على جميع البشر ، والحيوان ،والجماد وتحنو عليها .. وهذا منتهى العبادة . قال الشاعر كولريدج : « أتقى الناس وأعبدهم ، أحبهم لمخلوقات الله وأرحمهم لها » . هذه الطبيعة قد جعلت عصر الرجولة عصر طمأنينة وسعى فى

صلاح العائلات وهنائها المترتب عليه سعادة المجتمع ، وعصر حب عام ورحمة تسع الأرض والسماء ، وجعلت زمن الهرم زمن استمتاع بتأمل ما صنع الإنسان من حميد الآثار ، والتذاذ بحساب ما سيكون لتلك الآثار من مستقبل الخير والنفع .. وزمن سرور بقرب لقاء الله .. والانتقال الى الدار الأبدية .. هذه سنن الطبيعة التى نقضها الإنسان .. بل عكسها فانعكست نتائجها . وأمسينا نرى عصر الشباب مملوءا إما بالجمود والبله والحماقة .. أو بالنزق والفجور والغرور إلخ . ولا نبصر فرقا كبيرا بين الإنسان فى زمن الشباب .. وبينه فى أيام الرجولة أو الهرم .. فهو : طفل الشبيبة .. طفل الرجولة ، طفل الهرم . نعم ما أقل الفرق يا أخى بين : طفل العشرين ، وطفل الأربعين ، وطفل السبعين . وأكبر أسباب هذا الفساد هو ، كما رأيت ، عكس القوانين الطبيعية .

ولم يزل كتاب المغرب يعزون معظم شقاء العائلات الى الزواج المتنافر . عنى : الزواج عن غير سابقة حب والتئام . فمن أنفس ماكتب فى هذا الصدد شعر لملتون .. يقوله على لسان آدم فى كتابه الشهير « الفردوس

المفقود » هذا منثوره : « ولن يجـــد الإنسان زوجة موافقة بل سيكره على من تربطه بها نوائب الزمن أو أغلاط القضاء . فأما من يشغف بها ، فسوف يفوته بها الغرور والتمرد حتى يجدها زوجة لرجل خسيس غبى . فاذا مالت إليه الحسناء زجرها عنه أبواها . وربما عشق من هى حليلة عدوه .. فيعانى فى حبها الخجل والبغضاء. وسيكون هذا أصل البلاء وفساد العائلات » . انتهى كلام ملتون .

وقد تكلم الكاتب « أمرسون » فى هذا الموضوع .. فأثنى على عيشة الفلاحين ، وقال : « إنها أقرب المعـــائش فى أمر الزواج الى الطبيعة ، وأجرى على قوانينها » ، ثم ما معناه : « أما والله لو شهد ملتون عيشة هؤلاء الفلاحين لأبصر أناسا ، عافاهم الله فى أمر الزواج من تلك المصـــائب التى يذكرها على لسان آدم » . ثم استطرد الى الكلام الآتى :

« لم أر شيئا ألذ فى نفسى من إســفار آيات الود والرفق فى الغلام الصغير . هذه الآيات هى فجر الحب والرحمة الذى ينفلق فى نفس الغلام الفلاح الخشن . نرى الصبى الصغير قبل هذا الفجر اللذيذ يثقل مداعبة

الفتاة الى حد الإساءة ، حتى اذا برق فجر الحب أقبل على الفتاة بأدب واحترام ، فحمل لها كتابها ريثما تصلح ثوبها ، ثم يخيل له أنها اتبذت منه مكانا قصيا ، بل ليخيل له أنها اتخذت النجم مقرا ، وقد أقامت بينها وبينه حاجزا مقدسا ، فهو يخالط البنات فى غير اكتراث، إلا واحدة قد تحصنت منه فى معقل منيع من حسنها وجلالهـــا . وهكذا تنمو فى الصبى البسيط أشرف العواطف ، عواطف الاحترام والإعجاب والحب . بلى أى شىء أحلى فى العـين من رؤية الصبية ذات الثانية عشرة ، إذ تقف على حانوت القرية أمام الغـــلام ذى الرابعة عشرة لشراء ذراع من الصوف ، أو قرطاس من الورق ، فتحادث الغلام نصف ساعة عن لا شىء ، وقد تنازع لحظها وصوتها جرأة الحب وحياؤه، وتلون وجهها ألوانا . كذلك تتأكـد علائق الحب الطاهر ، والرجاء والثقة ، بين فتاة الريف وفتاه . وما هى إلا برهة حتى يحتاج الفتى الى زوجة ، فيعلم أين يجـد قرينة حلوة العشرة .. ممتعة الأنس . ثم لا يخشى أقل خطر مما ذكر الشاعر ملتون على لسان آدم .

العـــائـــلة

إن أكبر دواعي الاضطراب الذي يعرو العائلات ، هو كثرة الخلاف بين الزوجين ، فاذا استقرينا مناشيء الخلاف وجدنا أغلبها تافها لا يدعو الى ذلك النزاع ، لولا أمر واحد ــ هو موضوع كلامنا اليوم ــ وذلك تشدد الزوجة وصلابة جانبها ، ومحاسبتها الزوج على كل كبيرة وصغيرة . ولو تسامحت الزوجات في كثير من المسائل وتغاضت ، وأرخت للأزواج الأعنة ، للآن من عيشهم ماصعب ، واتسع من أمرهم ما ضاق .

لقد كتب على المرأة الخضوع للرجل ، والانقيـــاد لحكمه ولحكم الرأي العـــام ، والنواميس الأدبية ، والاعتبـارات الاجتماعية . سنة الله التي ليس للمرأة عنها محيد إلا إلى ما هو أضر وأقسى . لذلك كان أهم الواجبات على أولياء الأمور أن يغرسوا في طباع البنات فضيلة الطاعة ، ولين العريكة ، وضبط النفس بردعهن

عن التمادى فيما يشتهين من الألعاب والملاهى . فان الاسترسال فى الشهوات هو أسرع الوسائل الى الطيش والنزق ، وكثرة التلون والتقلب المفضية الى الغرور والعناد ، التى أسلفنا ، إنها أكبر مصادر الشقاق العائلى .

فما أخلق أولياء الأمور بأن يعترضوا فى الأحيان ملاذ البنات بدواعى الجد ، حتى لا تمر عليهن لحظة واحدة ينسين فيها أنهن مغلولات بجملة قيود . فيكن فى منتهى اللهو واللعب ، أعلم بواقع أمورهن وأذكر لحقيقة حالهن . وأحرى أن يسرعن الإجابة اذا أهاب بهن فى حومة الملاهى صوت المصلحة الكبرى . ولاتعدم هذه التربية الشديدة ثمارها من فضائل الطاعة واللين والانقياد التى هى أهم صفات المرأة .

قال روسو : « لما قضى » على المرأة الخضوع للنوع الإنسانى ، مع ماله من الخبائث والرذائل والأغلاط والسقطات وجب أن تعود المرأة احتمال الجور ومظالم الزوج فى صبر وصمت . وليس فى صالح الزوج ، بل فى صالحها نفسها ، أن تستشعر اللين والرقة . فليس فى الخشونة والصلابة إلا ما يزيد معاملة الأزواج سوءا

وظلمـا ، إذ يرون أن زوجاتهم ما كن ليغلبنهم بتلك السواعد البضة الرخصة ذات الحلى الرنانة . وأن الله سبحانه وتعالى لم يمنحهن هذه الخلابة وحسن التلطف ليكن ذوات شكاسة وشراسة ، ولم يخلقهن ضعيفات ليكن ذوات سـلطة وكبرياء ، ولم يرقق من أصواتهن ليستعملنها فى المخاشنة والمغالطة ، ولم يلين من محاسنهن ويبالغ فى ملاحتها ليشوهنها بالعبوس والقطيب . على أن هذه ليست الأسلحة التى أراد الله أن تغلب بهـا المرأة زوجها ، بل فى لين الأنثى ورقتها ، ما يقهر الذكر ويصلحه ، إلا أن يكون وحشا ضاريا . » انتهى كلام روسو .

هذا الميل للسلطة الذى نراه فى النساء ، أحق بأن يحارب بما أنه أشد الأميال تأثيرا فى أذهانهن . وقد جاء فى أساطير الأولين ما يدل على تغلب هذا الميل ، حتى على ميلهن ، الى التباهى بالجمال والإدلال بالملاحة. وذلك أنه فى عهد إحدى الولايات اليونانية القـديمة بلغ من استياء النساء لعدم بلوغهن ما يبغين من السلطة على أزواجهن ، أنهن ائتمرن جميعا لابتغاء وسيلة يبلغن بها حاجتهن المنشودة ، ففاجأن الأزواج ، وهم سـكارى

صرعتهم الكأس ، فشـــددن وثاقهم ، ثم أخذن يعملن الفكرة فى استنباط أبرع الحيلة لبلوغ غايتهن ، وبعـد طويل المداولة أجمع رأيهن على سلب أبصـار أولئك الأزواج مضحيات فى سبيل الحرية والسلطان تلك اللذة التى كن يكتسبنها من التفاخر بالحسن والجمال ، وقد هان عليهن ، فقد ما كان يبذل لهن من زفرات الوجد والصبابة ، مع فقد أوامر السيطرة والقهر ، قائلات : « لا أسف على ذهاب حب ، يذهب بالذل والصغار » .

وقد يرى بعض النساء ، من ذوات الحيلة والذكاء ، أن يحفظن سلطة أنفسهن مع أبصار الأزواج ، يتزوج رجل أحمق ، ضعيف العقل ، ليســهل على إحداهن قياده . وما أظن شعور أمثال هؤلاء النساء إلا أقصى من شعور اللاتى يبقين مع العميان بمقدار فضل أعين العقل على أعين الجسم .

وإذا كان هذا ولوع النساء بالسلطة ، فان سبب ذلك أرجع الى الرجال منه الى النساء .ولو عامل الذكور أزواجهم بالحسنى ، لما وجدن سبيلا الى ذلك الحرص الشديد على السلطة . وقد علمنا التاريخ : أن العصيان نتيجة الاستبداد ، وأن العصاة اذا تغلبوا أوشكوا أن

يكونوا مستبدين أيضا . فما أجدر الأزواج والزوجات أن يسلكوا معا طريق المساواة والملاطفة . وهذه الكلمة لأفلاطون تؤيد ذلك .

قال ذلك الفيلسوف ، متخيلا : « لم يكن النوع البشرى ، بادىء بدء ، منقسما ، كما نبصره الآن ، الى ذكور وإناث . بل كان كل فرد مزيجا من عنصرى التذكير والتأنيث ، فكان يجمع فى ذاته الزوج والزوجة على أكمل ما يرام من الاتحاد والالتئام . وقد بلغ بفضل هذا النظام المحكم من هناء الإنسان وسعادته ، أنه شرع يبطر على الآلهة ويعصاهم . فلم ير كبير الآلهة عقابا أشد وأنكل من تطليق بعض الإنسان من بعضه الآخر ، وتحويله بذلك الى مخلوق أنقص منه فى حالته الأولى . وهذا منشأ اختلاف الجنسين : الذكر والأنثى ولكن الإنسان ما برح بعد هذا التفريق ، يذكر نعيمه الأول . ويحن الى عهده السالف ، فهو فى قلق دائم ، لا يقر قراره ، أو يعود الى شطره المفصول وجزئه المعزول . فاذا قدر الله اجتماع الشتيتين ، وانضمام الشريدين ، امتزجا بأشد ما يكون من الحب والألفة . ولكن الغالب ألا يقع ذلك الاتفاق الهنى ، فلا يصيب

الإنسان جزءه التائه ، بل يقع على ماهو غريب عنه ، فيحدث الاتفاق الهنى ، فلا يصيب الإنسان جزءه التائه، بل يقع على خلاف ، وتنافر ، وينحل العقد ، فينطلق كل جزء ليبحث عن شـــطره الحقيقى ، فيمتزج بكل ما لا قاه على سبيل التجربة ، وهو فى ذلك لا يجــد راحة ولا هناء ، أو يصادف عنصره وأصله » .

البيت

متع النهار ولم أبدأ العمل . ليس بى من زهد ولا ملل . ولا أنا كالمكسال ،نئوم الضحا . وكيف يكون كذلك من أزعجه فى أخريات الليل صوت العاجنة عند الجيران ، فهب من الوسن يحسب البيت ينهدم ، ويلتمس البلاط ليتأكد أنه لم يهو الى الحضيض . فلما هدأ روعى ، علمت أنه العجين ، لا كان ، ولو شربنا الطبيخ بلا خبز .

انقطع أملى من استئناف النوم . فتعزيت بأنى سأنام الليلة القابلة ، ونزلت الى المكتبة . فلما سكن العجين ، وقد هيأت أدوات الكتابة ، إذ بصدمات متتابعة فذكرت أنه الفران يكسر الحطب . وثار غضبى ، ولم أر من الحكمة أن أنفرد بالغيظ دون مسببه ، فمشيت الى النافذة كالمشمر فى عمل سياسى ، ثم ناديت الفران أناقشه الحساب ، وطرحت عليه عدة مسائل ، منها :

كيف أنه يهين نفسه بحملها على الكد قبل استفياء النوم ، وكيف يبلغ من توحشه أنه يزعج عباد الله المتمدنين فى أعقاب الظلام ، وكيف أن تقوى الله لم تمنعه من ارتكاب الجرم ، وهل يعد نفسه مسلما بعدها • وكيف وقد بينت له الأمر ، لا يستغفر ويخرج الى الصحراء ليبكى ذنبه حتى تقبل توبته • وهل لم يكن فى طاقته أن يخبز العجين بلا وقود ولماذا لا يشتغل بمهنة التدريس أو الصحافة بدل صناعته الممقوتة • وهل فى عزمه الاستمرار على تكسير الخشب ؟ •• أجاب على كل هذه المسائل بأنه : سيستمر فى التكسير • واستمر • وجعلت أنظر الى ذلك المتوحش ، يرتكب فظيعته بكل برد وارتياح • كأنه لم يدر أن عظام المؤمنين تتحطم مع حطبه •• أنظر وأتعجب كأن العالم لم ير قبله فرانا يكسر الخشب ! ولكن الإنسان يتجاهل الشىء السيىء وإن كان مشهورا •

ثم هب الصغار والكبار ، لا كهبوب النسيم فى تياره، والطير فى أوكاره ، بل كهبوب الطبل فى إزعاجه وإنذاره •

ولبثت بين ذالك الضجيج ساعات ، وقد يئست فيه ،

إلا من سلطة الوقت ، مســـــكن الأصوات ، ومزيج الآفات ، حتى هدأت الضوضاء مع الضحا .

والبيت إذا أضاف ـ الى حاجات العيش ، ورخيص الكماليات ، وسكينة الجـوار ـ لين الأدب ، وحسن المواساة وبشاشة القناعة ، وضحكة النزاهة ، ودمعــة الرحمة . كان مجمع المناعم ، ومضم الملاذ .

تلك درجة فى السعادة نحمـــــد الله على اليأس من بلوغها . والحازم من ألهاه إصلاح الحــاضر عن طلب المحال . وإن فى شكر الموجود شغلا عن تمنى البعيد ، وإذا لم يكن بالمستنكر على الله أن يجعـــــل الشارع مثوانا ، فمن الحماقة ألا نعد المسكن الحقير نعمة ، أى نعمة .

البيت بيت مهما حقر . وليس شقى أعيــاه الكد ، ونهكه الجهد فى إلا واجدا من الأرض أما رحيمة، تعطيه صدرا ملؤه الرأفه ، حسب المسكين قدرته أن يثلج فى الجدول البارد عظامه، ويبل بندى السحر لسانه . وأن يتخذ مروحته :

من النسيم الغض غب الحيـــــا
يختــال فى أردية الفجــــــر

البيوت ضروب وأشكال ، من القصر الجليل الى الكوخ الضئيل • ومن الدار الغارقة فى أعماق الفضاء الى المخنوقة بين المساكن لا تكاد تبصر السماء •• وأفضل البيوت عندى الخلوى ، الذى تضحك له الطبيعة ، ويغذوه الريف بطيباته • ولا ضرورة أن يكون حاويا لأرقى أدوات الترف ، وأثمن آلات الزينة • فحسبنا بالطبيعة مزخرفا ومنمقا ، وأجمل الغرف مافرشها الزهر ، وعرشها الكرم ، وأضاءها القمر ، وعطرها النسيم • فاذا كان لابد من الغرفة المبنية ، فأعطنى حجرة بساطها « القش » الذى أحس فيه بلل الثرى وطراوة الروض • ولتكن مملوءة بالنوافذ المشرفة على المزارع والمروج • ولتكن قريبة من الأرض لا تعلو على أذرعة النبات الممدودة للعناق • وعلى شفاه الورد المشرئبة للثم • ولا بأس أن تزين جدرانها بالصور التى كلها جنان وبساتين ، فكأنها مرايا ترتسم عليها محدقات الدار •

وأجزل النعم المنزلية فى مذهبى ، هو : السكون • وحسبك دليلا ، أن الطبيعة ساكنة • فاذا قيل : فماذا تفعل العصافير والمياه والريح ؟ قلت : تالله ماصوتت هذه

الأشياء إلا لتزيد السكون سكونا . أسأل القارىء : أيرى بين سكون الطبيعة وبين الأصوات المذكورة تنافرا، كما يجد إذا هاجم أذنه جلبة أناس يضجون ؟ أم يرى بين أصوات الماء والريح والطير ، وبين سكون الأرض والسماء وفاقا ، وأى وفاق ، التئاما وحسن تمازج ، كالذى بين آلات الطرب المختلفة ، المتحدة فى النغمة ؟

السكون عندى أجل مزايا المنزل . وإنما يلجأ الى البيت من ضوضـاء المجتمع . فمـا معنى القرار من الضجة الى الضجة ؟ أما أصوات الأطفال فتلك أغاريد الدار . والأطفال عصـافير البيت وريحانه ، وملائكته المنظورة إذا كانت سائر الملائكة خافية . فان كان لهؤلاء الصغار عيب فليس إلا كثرتهم على الفقر . فأما طفلان أو ثلاثة فأحلى مذاقا من العافية .

أما الزوجة فانها الملجأ الناعم ، والملاذ اللين . هى الكهف الحلو كأنه خلية العسل . هى حصن من البلور فى ضمانة الشرف ، وقلعة من الحرير فى خفارة العفاف . هى الساحل المتين الذى يأوى اليه ملامح الحياة بعـد صولة الموج وثورة الهواء . هى الظل الخصيب الذى

يلبسه سائح الإنسانية بعد وعثاء السفر ولظى الهجائر •

فى حلاوة الزوجة ورقتهـــا ما يمحـــو مرارة الزمن وخشونته ، وكذلك الحسنات يذهبن السيئات •

إن الزوجة لتبث حولهـا هواء من السرور لا تكاد تطرقه الأحزان كأنه هالة القمر أو دارة الشمس • وأن الهموم لتضمحل فى صـــوت الزوجة كالخـــوف أمام البشرى • اذا كانت الموسيقى فتنة الألباب ، فقل فى صوت المرأة الذى يفتن الموسيقى : لو أنها تعقل •

المرأة : تحفة الدنيا ، وزينة الحيـــاة • فمن أحكم تدبيرها ، وجنى ثمرها •• كان أميرا على أكرم بقعـــة وأجمل مملكة • ومن أساء التدبير ، فخسر المرأة أو حبها وطاعتها ، فجدير أن يتمثل :

أعطيت ملكا فلم أحسن ســـياسته
وكل من لا يسوس الملك يخلعـــه

المرأة : هى المرآة التى تمثل مناقب الزوج حتى يرى فيها نفسه • هى المجرى المنسجم الذى ينقل مكارم الأب ووصاياه الى النسل مع ما للأم نفســـها من المحـــامد والسجايا •

اذا بنيت مخالطة الزوجين على الحب والإجلال ، أصبح لا هم لأحدهما إلا الظهور أمام الآخر كأكمل ما يكون الإنسان ، فلا تبرح أخلاقهما فى ارتقاء ، كالجسمين الخشنين ينعمهما التحاك أو يملسا •

هذه منزلة المنزل عند المتزوج • أما العزب فانه لاق ، على كل حال ، غبطة ومتاعا فى داره ، وإن خلت من المباهج العائلية ، وصفرت سماؤه من قمر الزوجة ونجوم البنين • ولو لم يكن فى دار العزب إلا أنه يطرح على بابها من الأثقال ما يختص بوظيفته ومعاملاته الخارجية لكفى •• وحسب الدار أنها تطلق أسير الحياة من قيوده الاجتماعية والسياسية ، بل من قيود ملابسه التى تكده وتعوق حركاته •

الإنسان حيوان لاعب ، محتاج بطبيعته الى اللعب طفلا وغلاما ، ورجلا وشيخا • ولا حرج • فان اللعب فى ذاته عمل برىء طاهر •• وهو مهرجان النفس وعيدها وهدنتها فى معترك العمر • وأن للنفس فى مواصلة الجد مللا ومجة ، بل صدأ يجلوه اللهو • والنفس مطيتك ، فان حملت عليها فى التعب حسرتها • والقلب اذا أكره عمى • قال الحكيم العربى : « إنى لأستجم نفسى بالشىء

من الباطل ليكون أقوى لهـــــا على الحق » وجاء في الحكمة : « لا ينبغي للعاقل أن يخلى نفسه من واحدة من أربع : من غدو لمعاد ، أو إصلاح لمعاش ، أو فكر يقف به على ما يصلحه مما يفسده ، أو لهو حلال يستعين به على الحالات الثلاث » •

فاذا كان لابد للانسان من اللعب ، وكان الوقار يحرم على الحازم الخفة في اللهو أمام الملأ ، وبعد ذلك من الخلاعة والمجون بل من النزق والجنون • وجب على المرء أن يجعل للهوه خلوة تحجبه من الأنظار وتبيحه ماشاء من الخفة والمرح • وأين تكون تلك الخلوة إلا في البيت• البيت أمين الإنسان وكاتم أسراره •

إلى القانون

مستودع الهناء ، كأن درجاتك سلالم السماء . ومفاتيحك مفاتيح الصفاء ، ومغاليق العناء . أكر عليك أناملى ، فتأخذنى أريحية العابد كأنى أكرها على « سبحة » . وأجرى عليك يدى جريتها على الخوان الغوان . وأهيجك فكأنى أهيج عشا حلو التغريد والألحان ، أو أثير الصدى فى كهف الجان . فكأن فى خشبك الهامد أرواح معبد ، وإسحق ، وعثمان . أنت فردوس الروح . تنفحها بالنغم الرنان ، بأندى على النفس من نفحات الجنان ، وشعر العرب والبريطان . ليس فى العالم ما يماثل نطقك بعد السكوت إلا تنفس الروضة فى قبلة الشعاع ، واستيقاظ المليحة فى لثمة الملتاع .

يا أفصح الناس ! اذا أفحم الحزن الفصحاء ، وألجم الفرح البلغاء ، أى كربة جثمت على النفس كأنها الموت ،

فلم تطر على ريشتك الى حيث لا تعود . وأى معنى عجز البيان أن ينسج له ثوبا كفوءا ، فلم تبرزه أنت فى أشرف لفظ ، وأشرق ديباجة .

بك يستجير الحب والذكرى ، وإليك يهرع الحـزن بصدره الحرج ، يستوهبك دمعة حارة .

صوتان يلبيان دعوة الملهوف اذا خذلته سـائر الأصوات : صوت الله ، وصوتك أيها القانون. فرحمك الله بما لا تزال ترحم عبيـدك ، يابيت الأنس ، ودار السلام ، بل لأنت ذاتك السلام والأمن « على أطراف الأنامل » كما يقول الغربيون . أو «على حبال الأيدى» كما يقول العامة . أحزن أصواتك مفرح .. وأرفع أجوبتك متواضع سهل . لا زلت سهلا الحائر الشريد ، وأهـلا .

المـــــرآة

نافذة تنظر فيها أجساما تركبت من « لا شىء » ، يطل فيها الأحمق ، فكأنها تقوم بين خيالين أو خرافتين • والحسناء ، فكأنها باب الجنة • والمغرور ، فكأنها نافذة المستشفى ، والمريض المضمحل ، فكأنها باب القبر • والمتوحش ، فكأنه يبصر حلما يجول فى نوم زجاجى ، ويحسب الماء وينصب قامته ويتماسك ، أو أن قطعة من البركة انسلت تركب الريح ، ثم فارقتها الروح فجمدت ، ولو مستها يد الله لجاشت وعاشت •

وأول من استعمل المرآة هى الطبيعة ، إذ صاغتها من الماء ولفت حولها وشاحا من العشب الملمع ، أو نطاقا من النبات المرصع • ثم وقفتها على شعوبها من أسراب الظباء الى أسراب القطاء ، وأوراق الغاب الى أوراق السحاب ، ونجوم الروضة اليانعة الى نجوم السماء الساطعة •

إذا النجوم تراءت فى جوانبهـــا
ليلا ، حسبت سماء ركبت فيهـــا

نفذت مرة الى صفحة ماء يلفها غشاء من النبات ذو خروق تنسل منها أقلام الضياء ، فتكتب على الصفحة المائجة آيات تفسيرها عند الشمس ، فكنت أحسب أن هذه المرآة المائية ذهن صقيل فى جسم الروضة ، تتجلى على صفحته الصافية الصور السماوية والمعانى العلوية.

وما سر الحسناء كمرآة ، تصف لها جمالها بأبلغ من شعر الشـــاعر وصور المصـــور ، اذ تبصر حسناتهـــا ، فتدخل عليها ماشاءت من الإصلاح . تزيد فى ســـحر اللحظـــــات ، ونور الابتسامات ، وخفة الحـــركات والســـكنات ، وتخترع صـــنوفا جـــديدة من الحسن والرشاقة ، فكأن المرآة مدرسة للحلاوة والفتنة .

لذلك كانت البركة من أول ما رأته حواء حين خرجت من عالم الأبد . قال ملتون صاحب «الفردوس المفقود» على لسان حواء :

« لما انتبهت من الأبدية وجدتنى على بساط الزهر . ألتحف الظلال الخضر . أعجب كل العجب : من أنا ، وأين أنا ، ومن أين جئت ، وكيف !

وكان على مقربة منى كهف يخر بالماء المنبسط ، بركة فسيحة كأنها السماء . فقمت الى البركة خالية الذهن وأطلت فيها . فلما انثنيت ظهر فى لألىء الماء شبح ينثنى إلى . فأجفلت ، فأجفل . ثم رجعت مسرورة بذلك ، فرجع مسرورا . يقابل نظراتى اللينة بدلائل الحنان والحب » .

الـذهـب

الذهب : سلطان الوجود ، ومدبر المقــادير ، وإنى أبصر فى الغنى الجالس على خزانته : « ملاكا يمتطى صهوة القضاء ، يصرف عنانه كيف يشاء ، يدبر الكون من وراء الستار ، كما قيل :

تراه عن الحرب العـــوان بمعزل
وآثاره فيهـــا وإن غاب شـــهد
كما احتجب المقدار والحكم حكمه
على النــاس طرا ليس عنه معــرد

بيد من زمام الأمور ، وأعنة المقدور ؟ بيد من ميزان الوجود ورحا الحرب ذات الوقود ؟ من صاحب الحادثات العراض الطوال المحركة ألسنة الصحافة بالخطـــل والفضال ؟ من باعث اللذة والألم فى هيكل الزمان ؟ من مرقص السياسة فى كل مكان ؟ من ذلك العلى القدير ؟ هو رب القناطير : روتشيلد . الذى سماه « بيرون » :

نابليون المتنكر ، أو خيال نابليون •

لماذا سمّى البخيل لئيما ؟ أليس له من الزهد والورع ما يخجل الراهب في عزلته ، والناسك في وحدته ؟ أيكون التقشف في عباد الله المفلسين داعي الإطراء ، وفي عباده المكثرين داعي الإزراء ؟ إن أولى بالثناء : إنسان تقشف طوعا لا قهرا ، وتورع حسبة لا قسرا •

يقولون : الشاعر من يغذو الخيال بنفائس الكون كالذهب وما شاكل • فماذا تسمى الذى يغذو بهذه النفائس جوف الحقيقة ؟ أليس هو الشاعر الحقيقى • اذا كان شعراؤك المفلسون شعراء الوهم الكذاب ، والبرق الخلب والسراب •

أى الرجلين أربح صفقة وأرجح سهما : الناظر الى كنوز الذهب والجوهر فى صحيفة ٣٥٠ من رواية مونت كريستو • أو الناظر اليها فى كنوز الغنى ؟ الذى يبصر الكنوز فى هيئة حروف مصنوعة من الحبر قد حرمت من حسن الخط وجمال التركيب مايجمل « جاجب وطاطب » فى كراسات الثلث • أو الذى يبصر الكنوز فى سجلات الخزائن مدونة بأحرف السناء الساطع كأنما كتبتها أشعة الضحى بلعاب الشمس أو خطها القلم

العلوى بمجاجة القمر ، أو رسمتها يد الله بقبضة من نور العقول وضياء الأفهـــام ؟ تأمل ودائع الكنوز ، واتل قوله : ارجــع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » وأورد عينيك مناهل الذهب السنى، والجوهر البهى . وانظر كيف تنبعث الأشعة الإبريزية من ظلمات الكنز . ويصب الماس نوره الأتم . ويطرح الزبرجد من شعاعه الأخضر الرقيق ظلا يلطف من لهب الياقوت ويكفكف من وهجه . هنالك تروى العيون الصادية رونقا وماء ، وبهجة وبهاء .

هنيئا لك ياصاحب الكنز ماغمرك من النعم الجزيلة والمنن الجليلة . لك الضياع على اليمين والشمال . ولك الجوار المنشآت كالجبال . تفرغ فى حقائبك ماشئت من ذخائر صنعاء ، واصفهان ، وسمرقند ، وكرمان ، وبيكين ، وتابريز ، ولندن ، وباريز . لمن غيرك تضج العربات بالأحمال ، وتعج تحت الأثقال ؟ لمن غيرك يخجل الكرم فى لثمات الشعاع، ومن غيرك يصلح كيلاره قصرا للملك ذى الأتباع ؟

يا صــاحب الذهب . ذهبك . مشــتق من : ذهب يذهب ، بمعنى : مضى ونفذ . وكذلك يذهب الذهب

بصاحبه فى كل شيء : مضى فى الماء والسماء ، فى سم الخياط ، ومن بين البلاط مع الكحل فى الجفون ، والنوم فى العيون ، والشك فى الظنون •

ما أولج الذهب لكل باب ، وأهتكه لكل حجاب ، وأقحمه لكل سور رفيع ، وسد منيع • أى خصم ثاقب البيان ، عال على الأقران ، فى حصن من الحجة حصين، وركن من الحق ركين • لم يهجـــم عليه الذهب مع الأنفاس ، ويبلغ منه مبلغ الكاس • وهو الجنيه اذا رقصت للعنيد بروقه ذابت فى وميضها ثلوج عناده • بل ذابت فى وميضها عزيمة القائل :

نحن قوم تذيبنـــا الأعين النجـ
ـــل على أننا نذيب الحـــــديدا

وبريق الجنيه الأصفر ، أسحر من بريق الطرف الأسود والأزرق ، والشفق الأصفر ، أحلى من الليـــل الأسود والفجر الأزرق • وإن فى صفرة العاشق لجمالا حزينا يترك فى فؤادك ألما لذيذا ، ولذة أليمة ، وعذابا عذبا •

لذلك قال بعضهم : الحجة الصفراء (الجنيه) أعلى من الحجة البيضاء ، بل لا يبعد أن تكون الحجـــة الصفراء هى العامل الأول فى فن السحر • وقد بلغنى

من ثقة : أن رأس عصـــــا موسى كانت من الذهب ؛ وكذلك كان لسان الحية التى خدعت حواء ؛ وأن فى الأمراض ما يظنه الأطبــاء الداء العضــال ، ولو وفقوا لعلموا أن فى « أقراص الذهب » الدواء الناجع . ومن مزايا الذهب أنه من المنــــومات ، ولقد جـربه الناس فوجدوا أنه ينيم صاحب الثـــــأر عن ثأره ! وحسبك بالدية . وهو ينيم الرجل عن أخيه .. وأمه وأبيه .. وصاحبته وبنيه . وأحسن البنج ما دخله الذهب . وقد وجد أن الذهب يشتمل على مقـــــدار كبير من « أبى النوم » . ولذلك ترى أن أكثر ماينمو أبو النوم على مناجم الذهب .

وحسب الذهب فخرا . أن اشتق منه صفة تستعار لكل ما يبلغ منتهى النفاسة .. فيقال : العصر الذهبى .. والساعة الذهبية .. والصوت الذهبى .. والنغمة الذهبية .. والوتر الذهبى (مع أنه مصنوع من أمعاء الحيوان) ، وقال الشــاعر « يتس » : « والموسيقى بلسانها الذهبى ..تئن كأنها إله يتألم » .. يشير الشاعر الى نغمة الصبا .. الجامعة بين الحزن والشجا .. وبين براعة التأثير وسطوة السلطان . وقال الشاعر « بارنز »

يذكر ليالى الوصل : « إذ ترفرف على رءوسنا الساعات الذهبية بأجنحة الملائكة » . والبحترى وصف ساعات الصبا والصبابة بالذهب .. فقال :

لم يرو ماءالشباب ومااتجلت   ذهبية الصبوات عن أيامه

ومن الدليل على سبق الذهب المبين واستعلائه على الأقران .. أن أغلب الناس اذا سقطت أسنانهم .. فقلما يستبدلون بها أمثالها ، أو ما اعتادت الشعراء أن تشبه به الأسنان الجميلة مثل : اللؤلؤ .. والفل .. والبرد . بل يستبدلون بها أسنانا ذهبية . مع أن الفل والبرد أرخص . والفل أفضل من حيث إنه يعطر الكلمات قبل خروجها الى السامعين .. لا سيما اذا كانت خبيثة المنبت . حتى تكاد المناديل تسبق اليها الأسماع شغفا بالأرج الذكى .. والعبق الأطيب . والبرد ، بلا جدال أشهى فى الصيف وأشفى . ولكن هذه لذات سطحية حسية . ولذة الذهب نفسية عميقة تخالط الروح فى مذاهبها . ولو أن البحترى أبصر غايته تبتسم عن أسنان ذهبية ، لما هام فى الثغر الذى وصفه ، فقال :

كأنما تبسم عن لؤلؤ   منضد ، أو برد ، أو أقاح

ياليـــل

لفظة تكاد لفرط الحلاوة تكون نغمة . تشرق على الصحيفة كالقرط على سالفة الحسناء . وكالنجمة على خد الليل . لفظة تصبح ريشة العواد أحق بها من ريشة الكاتب . تنقشـــها فى جوانب السمع بحروف النغم الشجى ، والصوت الغنى ، لفظـة لا يزال بها لسان المغنى يمطها ، ويمدها ، ويعطف منها ويلوى ، ليبطن بها دهاليز الأذن وأزقتها التى يضل فيها الحق ، ويهتدى الباطل .

نداء لليل ، تحتها معان جمة فى طى الإبهـام ، لو فصلت لمـا وسـعتها صحيفة الليل . فيها معـانى الترحاب ، والأنس ، والطرب والمرح .. والشكوى .. واللهف .. والوجد .. والجـوى .. والوحشة ، والاستغاثة ، فهى سلك العواطف الجامع لفرائدها ، فكأنها لفظة : « يارب » .

لفظة تمر على أوتار القلب الموسـيقية فتخرج من الشفتين لحنـا زلالا ، ينصب فى أذن الليل القفرة الموحشة ، فيوقظ ما استتر تحت الظـلمة من أسراب المنى والآمال .

لفظة يحجزها الفم فى أشداقه لا يكاد يتركها كأنها تفاحة الجنات أو تفاحة الوجنات . وكأنها اسم الله فى فم المسبح ، أو « اسم الفاعل » فى فم النحوى ، أو اسم المليحة فى فمك .

والليل أحلى ما تغنى به المرء وترنم . ولم أر أروع من جلاله ولا أسكن من هدوئه . فياله من جمـال ذائب ، وحسن صامت وسواد منير . يذكرك جواهر الماس فى شعور الحسان ، ولآلىء الندى على أمواج العشب الأخضر . جمال فى جـلال ، يتركان الليل كالمعشوق الذى قيل فيه :

أهابك إجـلالا وما بك قـدرة
على ، ولـكن ملء عين حبيبها

فحبذا الليـل : مريح الأبدان ، ومروح الأرواح ، ومزيح الأحزان ، ومطوح الأتراح ، تشرب النفس من حياض هوائه الباردة كوثر الروح والراحة . وذلك هواء

تفجرت فيه عيون الأمن الدائم ... والسلام الأبدى .

ياليل ! علمتنى حمل الخطوب والاضطلاع بالدهر . صاحت الأشـجان : فوضعت على شـفاهها أصبعك ، فصمتت . وكذلك يرتاح من أشرق عليه من وجهـك السماوى مليون عين للمنى والأمل ! وهى النجوم ينابيع الرجاء والأمن .

أيها البحر المظلم عـديم القرار ! الذى تتضـاءل فى أعماقه العوالم .. الهائلة كأنها الدول فى باع الدهر .. أو العوائق فى عزيمة البطل ، أو الأزمات فى قدرة الله والسيئات فى رحمته . إن فى جزائرك التى تغمـــرها جزيرة صاغها الله من العـــذاب الترابى ، لا تزال تلد صلصالا مشتعلا ، تلك هى الدنيا وأبناؤها التى تحترق تحت طوفانك ، كالسفور تحت الماء . إنى ، على كل حال ، واجد فى ذلك الطوفان بردا على عظامى الملهبة وسلاما .

أيها الليل ! أنت للنوم قصر صامت عديم النهاية .. يملؤه النوم .. والحى الذى لا ينام . والنوم من ذلك القصر الشامل .. يذر على الكون أحلامه التى صاغها فى مخبئه النهارى .. من نفثات السحر .. وأضغاث

الخيال ، فى هيئة الزجاج الملون .. وأقواس المطر .

فى جوف الليل . وقد ماتت الإنسانية إلا نفس يطفو على متن القضاء ويرسب . وجاش الكون بالحياة حتى كاد يتكلم .. أى شىء أحلى من عشرة الإنسان لذلك الوجود الهائل ، ومناجاة هذه الروح التى عرضها السموات والأرض ، تلك الروح ، هى : الله . ومن أدرك هذا السر المكشوف ، وذاق لذة الحضرة المقدسة .. فكيف تناله أكدار الحياة .. وصغائر الهموم . ومن كان شعوره لله ، لم تجد حقائر الحياة فضلة فى شعوره. ومن عرف الله .. لم يعرف الشقاء .

الوحدة

الإنسان نوع من السلحفاة .. يكمن من نفاقه أو جموده فى مثل ذلك القشر الصفيق . وكم رجال تعاشروا دهرا ، ثم تفرقوا وهم أجهل الناس بأصحابهم، فكأنهم ولدوا فى صناديق مقفلة . وكأن الله حين خلق البشر نثرهم فى بحر الحياة جزائر بددا ، لذلك سميت الحياة : « أرخبيل الشقاء » .

جزائر الإنسانية ! هل أنت إلا أفران يلتهب فيها غليل الشهوة والضغينة والكفر . اذا فطر العطش أفواهك المحترقة تعللت بماء ذلك البحر الأجاج .. أو بما لا يزال يخدعك من المنى الجهام والأمل الخلب .. وقد تحلمين بالقطر العذب ، والندى البارد .. ثم تنتبهين له دمعا مرا حميما . والإنسان مذ كان سعيد الحلم شقى اليقظة .

الحياة غربة . والإنسان من الناس فى وحشة .

والبلد الرحب ، أضيق فى عين الغريب من صدره . ولكن الوهم أوسع من البلد الرحب . والى الوهم يرجع غريب الإنسانية ــ ابن آدم ــ فيمرح منه فى أعرض من السماء وأطول .

الوحدة فى العمران ، والعمران فى الوحدة . وقد تنام الحواس بين الجماعات ، وتستيقظ فى العزلة . وقد تكون الوحدة أملأ بالأصوات والصور من المجتمع . والوحيد يسمع كل صوت كأنما نصب فى ملتقى الأصوات ، أو كأنه يجلس من وحدته فى أذن ملاك ، تنقل الى الله وساوس الشر ومغائب النفاق .

يصر الباب فى سكون العزلة ، فكأن الرعب نفسه يصرخ ، ثم يتساءل الشك : أباب يصر ، أم عفريت ينبح؟

من يقرع النافذة ؟ طائر لا ريب . لقد حسبتها أصابع ميت أكل التراب أصابعه .

من يصيح ويعول ؟ يائس يستودع الله أمله وعقله ؟ بل الريح .. وهو أيئس ما هام على ظهرها . يصيح ويبكى على الجمال المبتذل .. والحب المخدوع .. والفضل المجهول .. والكرم المقبور ، على غرور المرء وآلام الإنسانية .

نظـــــرة

صادفتنى على مضيق الحياة ، ورمقتنى . لا وربك ، يا غادة لغير ألحاظك خلق الله ذلك الفؤاد..وما لأشعتك فى مرقص الألم مرقص . ولا كان فى قدرتك مزاحمة الشقاء على بيته وموطنه .

لقد طالت الصحبة بينى وبين الشقاء .. حتى نشأ ثمة نوع من الود الكريه .. والوفاء العابس .. وقد يحن العدو الى عدوه .

أيتها الغادة ! لا ترفعا ، انصرف عنك ولا كبرياء .

ولا جمودا عن حسنك ، ولا جفـاء . بل ان جبار اليأس قد خرج بفؤادى عن دائرة نفوذك ، وعلا به على بسطة سلطانك . ولو أمكنتك الغزوة لما ألفيت فى قلبى ما يفى بنهضتك أو يجزى همتك . ولو كان لدى من أسباب الهناء ما يعجبك لناديت :

ياظبيةالبان ترعى في خمائله ليهنك اليوم إن القلب مرعاك

ولو بقي فى دموعى فضلة ، لصحت :

الماءعندي مبذول لشاربه وليس يرويك إلا مدمعي الباكى

ولكنى أنشد من الدمع المستحيل وأرجوه فى قفار الحياة ، كما يبتغى الماء الملح فى الفلاة .

أيتها الغادة ! كل ما فى الوجود يذوب فى ألحاظك إلا يأسى فانه كالثلج الجامد على رأس الطود ، تغازله الشمس طول الأبد فلا يشعر .

وقفت منى على قيد مترين ، وبينى وبينك ما بين إبليس والرحمة . فكأننا نجمان تجاورا فى عين الناظر ، وبينهما بعد السماء عن الأرض ، وكأنك تنظرين الى ميت يفصلك عنه الوقت ، والوقت ما لا يقدر .

لم نلتق من قبل . ولا لقاء من بعد . فكأن كوكبين أراد الله لا أيتقابلا فى عمر الكون الا لحظة . لهف نفسى ألا يكون نصيب روحينا فى اللقاء الا دقيقة من « الوقت » ، ذلك الوقت الذى تغرق ملايين الدهور فى قطرة من عبابه !

ستعدينني فيمن أسرت اليوم ، حين تنثرين الأرواح من خريطتك ، كما يفعل الصياد . لم تبصري فى سوى

جسم كسائر الأجسام . لشـــد ما غرك التراب (١) ياغادة ، والتراب غرار ، ولو تنظر الروح من خـــلال البدن ، لراعك منى مايروع الذى يفجؤه الأقيانوس الأعظم من ثقب الجدار القـــديم . لهف نفسى إن لم تنزلى بروحى الزاخرة فتخطرين عليهـــا كأنك السفينة الأنيقة تحمل المسك والعنبر من بلاد الهند ، والياقوت، واللؤلؤ .

إذن لمهدت لك وسط العواصف المتصارعة مسلكا فى هذه الروح الثائرة سهلا ذلولا ، يجرى بك على جزر اللذة الى غاية السعادة الأبدية . أعرض على عينك المشرقة جانبى المشرق وأحفظ الجـــانب المظلم لعين العبرة والندم ، كأن نفسى نحلة ذات كأسين : واحد يصب العسل فى ذهنك ، وآخر يدفن السم فى سريرتى . وكأنى سراج لك ثورة اللامع وفى ضميرى حرءه اللاذع .

ما أسخاك بالنظرات ، ياغادة ، ترمينها حيث لا تطلبينها . كأنها القطر من عين السحابة الوطفاء . ويا حبذا لو تقتضين عندى تلك النظرة الغـــالية ! بل خير لى أن

(١) يعنى الجسم .

تتركيها ملاكا ساحرا يؤنس وحدتى • وما رأى الناس قبلها ملاكا ساحرا !

هل تذكرين هذه اللحظة فى مستقبل الزمن ؟ بل كيف وكل لحظاتك هكذا ، وتلك شيمة الدهر عندك • أنت أرق من الماء ولا كتابة على الماء •

أما معى فستكون هذه اللحظـــة : روحا حلوة فى جحيم اليأس ، وصدى عذبا فى أذن الوحشة المقفرة •

أيتها الفتنة المشرقة ! اذا اكتحلت روحى بظلمة البين المتكاثفة ، جرت عليها من روحك القــوية هزة ترجف صميمها كمـــا ينبض فى قوة الشمس المخلوق الساكن كبد الثرى •

أيتها الفتنة المشرقة ! لطالما تلمسك الخيال ، فلمـــا أطلعتك الحقيقة تواريت :

كالشمس فى طى الغمـــا م نهـــارها تتغيب
حتى اذا انهزم الســـحا ب سطا عليها المغرب

السماء على الأرض

وما من ذرة فى الكون الا ولها روح يناجي الروح الأبدى . وما تحركت فى الوجود جارحة الا لتسبح بحمده . وأجمد ما فى الكون انما أصاره الى الجمود منتهى الرقة ، ومن فرط الرقة الجمود . كما أن من فرط الضياء الظلمة . ومن فرط الظلمة الضياء .

والروح الأبدى يتفجر فى ذرات الكون ، ويجيش فى دقائقه ، وتبدو له الحركات فى خفق الأمواج ، الى خفق السراج . واهتزاز الزلزال الى اهتزاز السلسال . وليس بقعة خرست أصواتها الا نطقت بها ألسنة الحال. تقرع مسامع النفس بزواجر الوعظ . وتصدع الشك بأدلة التوحيد .

الجماد : جامد فى عين الجامد . حى فى عين الحى . حساس قد وقف نفسه من شدة الشعور . وقدما كان

فرط الشعور مقص النفس وداعى الجمود • والحركة والقلق ، إقذاء تغرق فى عباب الاحساس •

ألقنى فى أحضان الفضاء بين الأرض والسماء • ترجع الحوت المخنوق الى بحـــاره • والنسر المرعوق الى مطاره • لا حبذا الإنسانية قفص الظلم المخضب بدماء الحرية يناهض على قضبانه جناحها ، وتدمى جراحها •

إن الخلوة فى الفضاء لتجرى بين الإنسان والخالق من تيار الحب ما أنضبته سمائم الفجور ، فيهب فى الإنسان ذلك الإحساس الهائل الذى تستفيض أمواجه فى الروح ، حتى تغسل سواحلها الفانية ، وتطهر ذلك التراب من مقاذر الشهوات ذلك الاحساس نفحة من روح الله • هو نغمة فرعية ، تهدى النفس الى الموسيقى الكلية الأولية الأبدية ، التى هى نظام الكائنات ،ولباب الوجود •

ألقنى على صدر الطبيعة ، تلق الطفل العطشان على ثدى أمه •

هنيئا ذلك اللبن المقدس ، يخلع على السريرة بياضة، وعلى الذهن حلاوته • وحبـذا من تلك الأم الرحيمة عطفها علي الطفل الواهن ، وابتسامها اللين • بل حبذا

غضبها المظلم وثورتها اللجبة ، فانه دليل الرحمة وعنوان البر . ولا خير فى من لا يغضب .

ليس فى حجر الطبيعة وحـــدة . ليس فى الصخور تتفجر بالحياة السيالة وحدة . فى أحشاء الحـــدائق تشتبك شرايينها الخضر وحدة . ليس فى زوايا الغابات تكمن ثمة ظلالها وتخف أصواتها وحدة . ليس فى ثلوج الجبال شابت فى تقوى الله رءوســـها وحدة . ليست فى تآلف الموجودات وتعاطف الكائنات وحدة . ليست الوحدة فى تعانق الأشجار وتلاحم الأنهار ؛ ولا فى اختلاط الأصـــباء ، وارتداء القمم بالسماء ، وتمازج الأمواج . الوحدة ليست فى تصابى الأزهار ، وذوبان الأشعة على صدر النهار ، وفيضان القمر على البحار .

إنما الوحدة فى معترك الحيـــاة : بين القـلوب الجامدة ، والأذهان الخامدة . فى الضجة الصماء ، والصدمة الهوجاء . تجرى بين الزميلين العداوة كأنها فى عين الوهم والترعة الحمراء . لا تفتح الحواس على غير الكذب والرياء ، والظلم والشقاء .

الطبيعة ! أنت بيت الله ، ومسبح الملائكة ،والهيكل القديم . أنقذنى من ضيق المســاجد وأقذف به إن

استطعت وراء المادة أتحلل فى ذلك السر • وإلافحسبى الانغماس فى ضمير الفضاء ، أنظـــر الى الخالق حتى تسقط حواسى ، وأتباخر إلى سحابة وجد تهيم فى حب الله • أو أذوب الى دمعة كبيرة تستغفره بفصاحة حارة ، وتتلألأ فى نوره استبشارا بالعفو السريع والرحمـــة العاجلة •

ما ذاق حلاوة الحياة مثل الناسك فى الخلاء • هذه حلاوة خالصة ، وحــلاوة الدنيا مقرونة بابر الشـــهوة والألم ، واللوعة والندم ، والحـــــرمان والعـــدم • الإنسانية زوبعة تدور بينها كالطـــاجون العنيفة ، تطير بهم فى سرعة الريح ، وهـــم ثابتون مكانهم ، أو هى شلال يهوى بهم من أعلى الى أسفل •

أما حياة العـــابد الخلوية فجنـــة بين الأبد والأبد ، نسميها روحه أو هى جـــدول رنان يرقص على النغم المقدس وينصب فى السماء •

فذرنى بين العناصر أجش طربا فى طربها الجائش ، وتأخذنى فى أريحيتها الأريحية • وأشرب بالكأس التى يشرب بها الكون فأنثنى فى انثنائه • وأنادى البـــان المائس :

يا بان وادي الأجرع   هل ملت من طرب معي

وأندمج فى الطبيعة فكأنى نبت مع الشجر . أيهـا الضائع بين أعداء فى صورة أصدقاء ! أيها المسلوق على جمر الشقاء أيهـا الملتهب المحموم ! انشر جناحيك ، وتبوأ فى دولة الفضاء عشا ملؤه الروح والريحـان ، وتقلب فى حجر الطبيعـة المبلول ، وأطفىء حرارتك فى دمعها الرطب ، ونم حيث تثنى فوقك جوانحها الباردة وترسل عليك أنفاسها الحلوة ، فتفتح عينيك على جو من الحب والتقوى . وخرير الماء يهمس : « إنك بالواد المقدس » . نعم إنك بالواد المقدس تتفيأ ظـلال الجنة . وتلمح خطفات السناء الأسمى . وتسرق أذناك مناغاة الحور ووسوسة الكوثر . مشـوانا الأرض ، ومثواك « السماء على الأرض » .

الدموع

مطافىء الحزن .. كلما أسرع لهيبه أسرعت بوادرها. وكلما عاد عادت . فسبحان من جعلها عيونا ثرة . وهيأ لكل آفة ضدها .. ليستقيم ملكه .. ويتم أمره .

بكى أحد الحكماء على قبر ولده ، فقيل له : « كيف تبكى مع علمك أن الحزن لا يفيد ؟ » . قال : « ذلك الذى يبكينى » .

كفى حزنا .. ان الحزن لا ينفع .

من المغالطة أن تحاول بالتمويه تحريم البكاء .. وتأمر الناس أن يسدوا ينابيع الدمع ما فجره الله فى عروقهم :

لم يخلق الدمع لامرىء عبثا
الله أدرى بلوعة الحزن

إن البعض ليرحب بالدموع ترحاب المجدب بالغمام .

فان الحزن العديم الدموع كالصحراء العديمة الماء . والحزن الذى يبخل بالعبرات كالمحروق الذى تدهيه النار أن يذهب الى الحوض . لذلك كان أفضل الحزن وأرشده مافتح أقفال الدمع فتواصلت سجامه .

الدمعة تذهب اللوعة .. قال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة : « إنى لأجد فى كبدى جمرة لا تطفئها إلا عبرة » . فقال عمر : « اذكر الله يا أمير المؤمنين وعليك بالصبر » . فنظر الى رجاء بن حيوة كالمستريح الى مشورته . فقال له رجاء : « أفضها يا أمير المؤمنين فما بذاك من بأس ، فقد دمعت عين رسول الله على ابنه ابراهيم وقال : « العين تدمع ، والقلب يوجع » . فأرسل سليمان عينه فبكى حتى قضى إربا . ثم أقبل عليهما ، فقال : « والله لو لم أنزف هذه العبرة ، لا نصدعت كبدى » .

وربما كان لطليعة الدموع من شدة الوقع ما لطليعة السيل والخيل ولكنهما على كل حال برد على الغليل وسلام وفيها منجاة من جفاف الحزن ، والأسى اليابس الذى يترك المرء عرضة للذبول فى قفار الشقاء .. والدمع مهما اشتد انطلاقه فمآله الى السير الرفيق

والانسجام اللين • ثم يستقر ولكل ثائرة قرار •

والدموع تغسل الأشجان كما يغسل السحاب الجدب، وتذيب أملاح الهم ، وتذهب بمرارة الأسى ، كأنها المصارف فى التربة الخبيثة ، وهى التى تغلب الحزن ، وتقهر الموت نفسه ، وتسلب من أفاعى الذكرى إبرها ، وتترك فى زعافها عسلا •

والدمع ليس بقاصر على الأسى • فقد يكون من الرقة ، والحنان ، والرحمة ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، والندم ، والتوبة ، والطرب ، والفرح • سل الأم التى تضم رضيعها : لماذا تبكى ؟ والأب الذى يستقبل ابنه العائد : لماذا يبكى ؟ والرجل الذى يسمع الغناء : لماذا يبكى ؟ والعاشق الذى يبصر القمر : لماذا يبكى ؟ سل الشاعر الذى ينظم القصيد أو ينشده : لماذا يبكى ؟ • والعروس التى تزف الى قرينها : لماذا تبكى ؟ •• والكريم الذى يأوى البائس تحت سقفه ويشاطره طعامه : لماذا يبكى ؟ • والعدو الذى يصالح عدوه : لماذا يبكى ؟ والسائح الذى يسمع تسبيح العابد : لماذا يبكى ؟ الدمع عنوان الشعور ودليل الإحساس •

ولا أحسب عبرات السرور الا شكرا محسوسا لنعمة الله وحمدا ملموسا . والدموع فى خدود الحسان من أملح المناظر . اذا كانت للفرح فبرقت فى لآلىء الوجه المشرق .. رأيت الورد يجلو الندى فى بهجة الصباح .. واذا كانت من الشجن ، خلت النرجس يبكى فى ظلال المساء .

ليس فى السكون ماهو أفعل فى القلوب من منظر العبرات ، والرجل الذى لا تحركه العبرات مظلم الذهن ، راكد النفس ، لا يصلح إلا للفساد والخيانة .

وقد أظن أن الرحمة لو تمثلت لما كانت إلا دمعة . قال الشاعر « توماس مور » : « بكت الفتاة على قبر حبيبها ، ونور القمر يتوسد فرش الثلج ، فانطلقت دمعة حارة ، جمدها الهواء القارس .. ولبثت طول الليل حتى برق الصباح .. فبرقت فى شعاعه وكان أحد الملائكة قد فارق فلكه يرفرف على عظام الموتى .. فأبصر تلك الدمعة الجامدة .. فحملها الى « الرحمة » ذات العين الندية ، وجعلها حلية لتاجها ، وزينة سنية » .

أما دمع التوبة فطهور النفس ، يغسلها من شوائب

الإثم ويضرح عنها إقذاء المنكر . ويتقدم التوبة ، فهو لها كالوضوء للصلاة ، ولعل هذا النوع من الدموع أجلها وأشرفها . واذا كانت العبرات المسكوبة لغرض دنيء تذهب فى الأرض هـــــدرا ، فان دموع التوبة تتصاعد الى عرش الله بخارا طاهرا .

الدمع ، على كل حال ، جلاء العين يذهب صدأها ويصقلها . والعين بعد البكاء أصفى رؤية وأثقب بصرا، وأهدى الى مواطن الحق .. وأنفذ الى مكامن الحكمة، وأعود على صاحبها بالإيمان والتقوى .

أنعم الناس بالاً

فى قصة المدينتين ، للكاتب « ديكنز » منزل قائم فى زاوية فى أحد أزقة لندن ، وللزاوية شـــأن من أغرب الشئون ، وذلك أنه ليس من قدم تدب فى الشارع الخارج الا هاج لها صدى فى تلك الزاوية ، حتى يخيل للساكن الجديد أن جميع المارين فى الشارع يقصـــدون المنزل ، فيقوم على ساقه ينتظر الزائرين ، ولا يطرقه أحد . هذا خداع من الزاوية ، ومخالفة بين الواقع والمدعى . حدثنى أحد الأصدقاء ، قال : « إنى وسط إخواننا الشبان أشبه الناس بساكن منزل « ديكنز » لا يزال يطرق مسمعى أصـداء المودة والغيرة ، وحب التآلف والتضامن ، ثم أنتظر الشواهد والبراهين على هذه الدعاوى ، فلا أرى شيئا ، ولا يبهج ناظرى ظـل يتقدم أحد هذه الوفود التى تقطعت فى انتظارها أسباب

الأمل • وأحسب أنه لن يجيء المنتظـــر حتى يثوب القارظان •

إن حالة الإنسان لأنطق بمكنون صدره من لســان لا علاقة له ألبتة بالسريرة ، بل الحال هي الدليل الأوحد• فبماذا تشهد أحوال شبابنا ؟ تشهد لهم بخلو البال من كل كدر وشائبة • بال يضرب به المثـــل في النقـــاء والصفاء حتى جعل بعض الكتاب يقول : « في هواء أنقى من بال الشاب » و « فضاء أفرغ من بال الشاب » الى غير ذلك • تشهد الحال لشبابنا بالفرح والمرح ، والأريحية والطرب •

كلما نظرت أخي وابن وطني يسبح في سماء مرحه ويطمح في عنان فرحه • لم أتمالك أن أذكر ضده ونقيضه الشاعر « شيلي » • كان ذلك الملاك الكريم مع ثروته وغناه أشقى خلق الله • كان يتألم حافر المعادن في أقصى أمريكا • فيتوجع له « شيلي » على ضفاف اليايمس • وكان يستبد القيصر على عرشه فيهيج عليه « شيلي » في فرشه • كان يتوهم المظلوم والمضنى والبائس والحزين والخـائب واليائس ، فيتوجع ويتحسر ، ويتحـــرق ويتضجر • رحمة الله عليك يا « شيلي » ، هل كنت

إلا فؤاد الكون الخافق ، ومدمعه الدافق . هل يصدق القارىء أن هذا الشاعر كان أغلب أيامه صائما . وأنه كان يخصص ساعتين من اليوم لتعهـــد المستشفيات وتمريض المرضى . بل هل يصدق أن « شيلى » أكبر شعراء البريطان فى القرن التاسع عشر ، وأحد أغنيائها وسراتها ، كان يعود أحيانا الى منزله حافيا ، أو عاريا من ردائه . يصادف أحد الشحاذين الحفاة العراة فتأبى رحمته وإيمانه إلا أن يؤثر أخاه الشحاذ بحـــذائه أو بردائه ، فكيف يرى ذلك إخواننا الشبان . ولا سيما الصغار الأحداث الذين اذا ضم أحدهم الرداء الجديد الى صدره فكأنما ضم عائدا كان قد قطع الرجاء من لقائه . ثم لا يلبث أن ينمو حسن التفاهم وصـــلات القرابة ، بين جسده الحقيقى والجسد الجديد المستعار ، وتفيض من مهجة الشاب الى الجلد الحـــديث جداول الروح والحياة فتسقيه وترويه حتى تنبت فيه العروق والأعصاب ويزكو نباتها ويعود الرداء أشد تأثرا بالألم من الجلد الأصلى ، ولا يزول ذلك التأثر بخلع الرداء وبعده عن الجسم ، لأن الصلات بينهما أشبه بالتيارات الكهربائية فى التلغراف اللاسلكى . فاذا كان الشاب

نائما وسط الرداء من معلقه (الشماعة) انتفض النائم مروعا مذعورا .

كيف يرى أبناؤنا الشبان عودة أكبر شعراء البريطان فى القرن التاسع عشر الى منزله حافيا ، هل يفعل ذلك أحدهم ؟ إنى أستغفر الله أن أشجع الشاب الصغير على تقليد الشاعر « شيلى » فانى أرى شبها كبيرا بين ذلك الشاب وبين أخيل أشجع شـجعان اليونان . أعجز الفرسان قتل هذا البطل العظيم لأنه لم يكن له مقتل تفيض منه روحه إلا عضو واحد وذلك قدمه . وكذلك أرى أن الشاب الصغير متى لبس الحذاء المعروف انتقلت روحه إلى قدمه .

ما الفرق بين « شيلى » وبين فتياننا ، إلا أن الأول التفت الى أبناء آدم حتى نسى نفسه . وأن شبابنا التفتوا إلى أنفسهم حتى نسوا أبناء آدم . عاش « شيلى » فى أفئدة الناس ، وعاش أبناؤنا تحت أثوابهم ، فاذا جسرت أرواحهم على التطلع الى الأشياء لم تتعد محل « ستاين » أو « البسكليت » أو (دايفز براين) أو « كراسات الدراسة » (وهى أشنع الجميع) ، أو « الشيع سـلامة » أو « الفـوت بول » .

هذه مآلف الروح الصغيرة وأبعد غايتها . ياللعجب ! يتقلب أبناؤنا وسط الفراغ العديم النهاية بين العناصر الهائلة ذات البطش ، ويسطع لهم جمال الله وجبروته فى الطبيعة وفى نفس الإنسانية ، ثم تقف الأرواح عمياء وسط هذه العجائب ، لا تتحسن إلا على الجرعة واللقمة، وابتسامة هذا ، وركعة ذاك . لا غرور أن قال قائل : هؤلاء الناس لم يخرجوا من بيضاتهم ولن يخرجوا . نحن نلقى بيضاتنا الى المدارس لتفرخ ، ولكن هيهات ! ليس فى المدارس من حرارة التعليم العـــالى ما يفرخ بيضاتنا ، ولا أريد بالتعليم العالى : الطب ، والسياسة ، والاقتصاد ، والميكانيكيات ، ولا علاقة لهذه الروح ــ التى هى موضوع مقالتنا ــ بل أريد صفوة آداب اللغات التى ما برحت أصح غذاء للنفوس والأرواح . لا أمل لنا الآن فى الأفراخ مطلقا . طوبى لأجيال القرن التالى إذا أدركوا تحقيق ذاك الأمل . أبصرت مرة جمـــاعة يذكرون صديقا لهم مريضا .. يتحادثون فى شأنه .. وكل ما بهم يشهد أنهم أبهج الناس خواطر .. وأقرهم نواظر .. وأثلجهم صدرا .. وأبردهم جوانح . وكان يجلس الى جانبهم شاب صامت .. تتجلى فى عينه لوعة

الأسف .. وكربة الأمل المضمحل . قد بدا أثر التقلص في شفته العليا مما يشهد على احتقار الباطل وازدراء الخسائس . فالتفت إليه الجماعة واتهموه بقلة الاكتراث للمريض وعدم الاهتمام . قلت : « ياقوم أنتم أحق بالتهمة والريبة . ماذا تفيد كلمات الأسف إذا خرجت في أصوات الحبور والابتهاج . إن الأصوات لغة العواطف . اذا اهتزت في الفؤاد أوتار الفرح ..خرجت أصواتها أشبه بالهدير والصفير . واذا تحركت أوتار الحزن صدرت عنها رنات الحنين والأنين . فالأصوات عناوين القلب وشواهد النفس . وان لهجاتكم .. وحركاتكم .. وجميع أحوالكم ، تشهد عليكم بما تتهمون به أخاكم الذي كأنه الحزن مجسدا .. والأسف مجسما . بلى أيها القوم ! لأنتم أشبه بالورثة الذين ينتظرون في وفاة المريض الثروة وسعة الحال .. أو شبه بالأغراب البعداء الذين لا غرض لهم إلا الفاكهة واللهو .. فلا فرق عندهم بين الحديث في شأن المرضى .. وبين الحديث عن الخيل والفونوغرافات والأبسطة » .

رأيت بعض الناس ينفون عن شبابنا رجاجة الأحلام .

وليس ذلك بقاصر على شبابنا . بل تلك صفة الشباب :

إن شرخ الشباب والشعر والأسـ
ـود ما لم يعـاص كان جنونا

ولكني رأيتهم يتهمون شبابنا بنمو العواطف وحدتها. مستدلين على دعواهم بما يحسبونه فى الشبان : سرعة انفعال وشدة تأثر لشئون الغير والأحوال العامة . وإنى لأوشك أن أعتقد أنه لا يكاد يوجد بين شبابنا من انفعل اهتماما بغيره . بل لا أنكر أن جميع العواطف قد انقادت وخضعت فى شبابنا الى العاطفة الكبرى ـ شيطان النفس وآفة الإنسانية ـ حب الذات .

قال بعض الناس : « إنى لأحسد أغلب شبابنا على هذه المزية .. تفانوا فى حب أنفسهم .. فأمنوا أن يفتك بهم الغرام بأى شىء آخر . فأصبح أحدهم كالعاشق الذي يجلس الى حبيبته وبصره أكثر ترددا الى صورة نفسه فى المرآة منه الى محاسن غادته ، يسعى الى الغادة .. لا من فرط الوجد والجوى .. بل لكى تشاركه الفتاة فى محبته لنفسه .. وتساعده على الإعجاب ببدائع جماله » .

ولقد أذكر ذلك العاشق كلما نظرت أحد إخواننا

الشبان ، وقد انتظمت عليه ثيابه حتى لا تكاد تتوهم أنها أشياء خارجية أضيفت الى جسمه •• بل تحلف أنها نبتت من جلده ، كما ينبت ريش الطاووس أو أجنحة أبى دقيق ، أو حلل الزهرة الأنيقة •

أيظن القارىء أن مثل هذا المغرم بنفسه يجد فرصة يلتفت فيها الى شئون الغير !

مثل هذا العاشق يسمع بخراب هذا البلد ••واضطهاد ذاك الشعب •• وموت ذلك الصديق •• فيغلق دون النبأ الفظيع أبواب قلبه • تشرق فى عينيه أنوار الفرح لسلامته من تلك الغوائل التى اغتالت أولئك الأشقياء • هل جالت الدموع قط فى هاتين العينين ؟ نعم أيها القارىء •• بل انسكبت على صحن لحم لم يتقن طبخه وتجهيزه • وفاضت على قميص أصابته قطرة مداد • وعلى كثير من أمثال ذلك •

صفات الأستاذ

كثير من المعلمين تعييه الهموم المدرسية وأكدارها .. وتذلله حتى يفنى جلده .. ويبيد صبره . فيصبح عرضة للضجر وهدفا للملل . والمعلم .. الذى هذه حالته .. بعيد من أن يرقى بالطلبة الى الدرجة المنشودة فى مراقى الفضل والعلم . المعلم الذى لا يبرح عرضة للغيظ والحنق .. لا يمكن أن تتصل بينه وبين طلبته علائق الألفة والمودة .. بل تحول بينه وبينهم حجب الخوف والبغضاء وأسوار الهيبة والوحشة ، وينفرون منه كما تنفر الضأن من الذئب . وما سمعنا أن إنسانا أراد أن يعلم أحد الناس فائدة .. فاستعان على ذلك بالكراهة والوحشة والنفور .

إن العلم من ألذ مطالب الحياة عند من يطرقه من بابه ويأتيه من وجهه ، وليست لذة العلم عندى ، وعند

الكثيرين ، بأقل من لذة الموسيقى مثلا . لذلك كنت أرى أن الدرس المحكم ، الحسن الإلقاء ، هو مثل الغناء الحسن . وأن الأستاذ بين الطلبة ، كالمطرب البارع بين سامعيه . واذا كنا لم نر أبدا مجلس غناء يعلوه الكدر والضجر ، ويلتهب فى صدر مغنيه الغيظ والحنق على السامعين الذين يجزونه الكراهة والبغضاء ، فلماذا نبصر أغلب محال التدريس بهذه الحالة الكريهة السيئة ؟ ..

إن المعلم الذى تؤثر فى نفسه الهموم المدرسية تأثيرا يغلبه على أمره ، ويذهب بصبره وجلده ويحمله على ركوب الخطة العنيفة الهوجاء مع تلاميذه ، لجدير أن يوصف بصغر النفس ، وضيق الخلق ، وسفالة المذهب ، فأما الأستاذ الكبير النفس ، الواسع الخلق ، العلى المذهب ، فهو الذى ينفض عن نفسه هموم الحياة الدراسية ، كما ينفض الأسد عن لبدته قطرات الماء أو ذرات الهباء .

لا يقرن عمل الأستاذ بالفلاح إلا اذا جعل نصب عينه غرضا شريفا ، لا يزال يؤمه ويعمد عمده ، وهذا الغرض : هو فوز الفضيلة على الرذيلة . هو نصرة الحق

على الباطل . هو تصفية الحياة الإنسانية من شوائب الخبث واللؤم حتى تبلغ منتهى الطهـــارة والنقاء . ولا يكون ذلك قصد المعلم حتى يحسن رأيه فى الروح الإنسانى ، فيعلم أن هـــذا الروح قـابل لبلوغ غاية الكمال ، وإن بدا فيه أحيانا شيء كثير من الخبث . فاذا اعتقد الأستاذ ذلك ، كان حريا أن يتسامح كثيرا عن هفوات الطفولة ، ويتغـــاضى عن ذنوب الصغر . وجدير بالمعلم اللبيب أن يدرك بطء زوال العيوب فى الأطفال لأنهـــا عادات التصقت بأجسامهم وامتزجت بأعصابهم ، فهى لذلك بطيئة الزوال ، فاذا أدرك الأستاذ ذلك مال إلا الحلم والصبر على هفـــوات تلاميذه . وياحبذا لو استطاع الأستاذ أن يذكر عهد طفولته ،فيعلم شدة تمكن هذه العيوب من الأطفـــال . وعندى أن الأستاذ العلى المذهب ، الشريف الغرض ، يكون له من فرط حبه للنوع الإنسانى ورحمتـــه إياه تيار دافق ، يندفع بأرواح التلاميذ وعقولهم فى السنن الأقوم الى غاية الـــكمال . فاذا عرضت لذلك التيار الهمـــوم الدراسية ، أطاحها كما يطيح السيل الغثاء والجفاء .

إن التلاميذ فى الغالب نسخ من أساتذتهم ، أو هم

فروع منهم ، فاذا طاب الأصل كرم الفرع ، واذا خبث العرق لؤم الجنى . وأخلاق الأستاذ وعاداته وخواصه تنطبع فى التلميذ فيبديها من حيث يشعر ولا يشعر . فما أعظم أن يكون الأستاذ مجلى لمكارم الأخلاق ومظهرا لمحامد العادات ، فيجيء تلميذه صورة له ونسخه منه .

وقد يظن بعض المعلمين أن اللين والدماثة مدعاة الى استخفاف التلاميذ به . وأن الشدة والجفاء سبب الى احترامهم إياه وتبجيلهم له ، وإنما يحترمه التلاميذ ، أو يحتقرونه ، لمذهبه فى التدريس لا لشخصه وصورته . على أن البشر والطلاقة أدعى الى الاحترام من العبوس والغلظة اللتين هما أشبه بطباع الوحوش منهما بأخلاق الكرام الأخيار . والرفق ، على كل حال ، أمضى نفوذا من العنف الذى لا يلتجيء اليه العاقل إلا عند الضرورة .

معاملة الأستاذ للتلميذ

لا يزال الأستاذ يحاول أن يوقع فى اعتقاد التلميذ أنه عليم بكل شىء ، وأن التلميذ جاهل بكل شىء . وهذا مع بطلانه سبب الى مضار لا أوخم من عواقبها ولا أسوأ من نتائجها . فانه يمحو ثقة التلميذ بنفسه ، ويحدث فيه احتقارا لعقله ، فيخجل من نفســه كالمجرم الذى ارتكب إثمــا لا يغفر .. فيقف أمام أستاذه خاشــع البصر ، مكسور النفس . وهذه أجلى مظـــاهر الذل والهوان ، فتلاميذ هذا شــأنهم من الذلة والانكسار لا ينتظـــر أن يكون منهم فى المســتقبل رجال تجيش بالحرية صدورهم . ذلك فضلا عما تسببه هذه المعاملة السيئة من انطفأ ما يشتعل بذهن التلميذ من لهيب الفكر الذى جعله الله سراجا للناس يهتـــدون به فى جميــع شئونهم ، والذى لم يزل منذ نشأة العــالم : الدليل الأوضح الى مكامن العلم ومسالك الحق . وأضف الى

ذلك أن التلميذ الذى هـذه حالته ، تضرب على منافذ ذهنه حجب من الخوف والذلة والانقباض ، فلا تستطيع عين ذهنه نفاذا الى أعماق ما قـد ينشره الأستاذ على الطلبة من المعلومات . والقارىء يعلم كيف أن الهيبة والانقباض يكفان شعاع الفكر ، ولابد أن يكون قد مر عليه وقت جرب فيه ذلك بنفسه . ثم يعلم كذلك أنه لا شىء أعون على الفهم من ارتيـاح النفس وانشراح الصدر الى مايلقى عليه الأنسة والتفتح . وإنى لأعجب كيف يقدم الأستاذ على تعليم تلاميذ لم يطلع علىأذهانهم فيعلم استعدادها وقوتها وما يصلح لها وما تميل نحـوه وتنزع إليه . وانما مثله فى ذلك مثل من يأتيه أحـد الناس ليستعين به على قضاء حاجات فى نفسه ، فـلا يتركه يشرح له ما فى صدره ، بل يبادره بقـولـه : « اسـكت ، فانى أعلم بك منك ، وأفطن منك الى حاجاتك » . ثم يأخذ يصنع له كل ما ينـاقض مآربه وينافى مطالبه . وهذا من المضحكات المبكيات .

يجلس التلاميذ سـكوتا كأن على رءوسهم الطير . والأستاذ يصب عليهم من أقواله وابلا مدرارا ، ظنا منه أن هذه الكلمات ستصيب من عقولهم مواقع الخصب

من الرياض العطاش .. ولم يدر أنها تمر بتلك الأذهان مر الهواء أو السحاب . نعم . السحاب الجهام العقيم الذى لا يثمر ولا يغنى .

يرى الأستاذ الطفل الصغير لا يبرح يسأله أهله عن الأشياء وأوصافها وفوائدها ، فيعلم عنها ما يعلم بناء على هذه الأسئلة .. ثم يرى كذلك أن السؤال لم يزل السبب الطبيعى الى التعـــلم .. حتى اذا تشوف الإنسان الى إحدى المجهولات راح يسأل عنها كل من لاقاه . ثم لا يقر حتى يعلم عنها ما يشفى غليل تشوفه . فباعث الإنسان على التعلم هو باعث نفسانى . أقول كل ذلك يراه الأستاذ . ثم لا يخطر بذهنه أن يحبس من أمطار أقواله المنصبة على رءوس غلمانه ويجتهد أن يكون محركا لتشـــوفهم وتطلعهم ومثيرا لأسئلتهم حتى إذا فعل ذلك استفاد التلاميـــذ من أجوبته وأقــواله ما يستفيد السائل المشتاق بأسئلته . وهذه كما ذكرنا هى الطريقة الطبيعية للتعلم . ولا يمكن الأستاذ إثارة أسئلة الطلبة إلا اذا أخذ هو يسألهم . والسؤال من أكبر وسائل الفائدة فى التعليم .. فهو الذى يحرك الطالب الى البحث والتنقيب فيما يحصـــل لديه من المعـــلومات

ليفرز ثمينها من الغث وصالحها من الفاسد ، فتقوى فى التلميذ ملكة الفحص •• ثم يبصر ثمرة تفكيره فيعلم أن لذهنه قوة وفضلا •• فتكبر فى عينيه قيمة نفسه •• ويشعر أنه الى أن يكون شريك الأستاذ وصديقه •• أقرب من أن يكون عبده ورقيقه •

والثقة بالنفس ، اذا لم يمازجها الغـرور ، من أمتن وسائل النجاح • فهى مبعث العزيمة ومثار الهمة وجناح ينهض بالنفس اذا قعد بها الملل والسأم •• وهى كذلك سيف على أعناق الشك والهيبة والانقباض••وهى رائد الذهن الى منتجعات العـلم ، وقائد النفس الى غايات الفضل والعلاء •

إن نظام تعليم يكون شعاره استعباد أذهان الطلبة واسترقاق نفوسهم هو سم ناقع يستأصل من البـلاد روح الحرية وإن تردد خيالها على ألسنة الجمهور كمـا يتردد خيال بعض الكلمات على لسان الببغاء •• وكم أناس تراهم يلهجون بلفظة الحرية ، ويتحمسون للوطن، ويثورون عنـد ذكره • فاذا تلطف الإنسـان فراقب أحدهم وهو يسير فى فلك معيشته ، رأى منه جنبا ينافى تحمسه وصغارا ومهانة تأباها العبيد الأرقاء • فماذا

ينفع ادعاء اللسان اذا كانت القلوب كاذبة • وماذا ينفع صياح الأفواه اذا كانت الأفئدة ملجمة خرساء •وخابت حرية اقفرت منهـا القلوب فعـادت تتردد بين الألسنة والآذان •

الوقت

من جال جولة فى طرقات القاهرة بعد هزيع من الليل خيل له أن بين معظم الناس وبين الوقت ثأرا شديدا فهم يدأبون فى قتل الوقت بكل وسيلة حتى ليحتمل بعضهم قضاء ست ساعات متواصلة فى لعب الورق لا يعدو ذهنه التنقل بين ما هو مرسوم على صفحاته من اللمع المختلفة الألوان والأشكال ، فياليت ذاك الصبر والمثابرة مبذولان فى سبيل العلاء .

كل يذكر ما يراه أحيانا من قلق أخيه وضيق صدره، فاذا سأله سبب ذلك ، قال : « ما أثقل الساعات وأطولها » . وهذه كلمة لا يكاد يقولها بعض المساجين، ولا أرى عذرا لمن منحه الله العافية والرزق والحرية ، ثم تراه مع ذلك يشكو مر الساعات كأنما يطأ أجفانه منها أخفاف الإبل ، بل لا أرى فى ذلك ، إلا ضعف

نفس ، وعجز رأى ، وكفرانا بنعمة الله . قال الفيلسوف الرومانى : « الناس فى صرف أوقاتهم ثلاثة رجال : رجل ينفق عمره فى غير شىء ، ورجل تصرفه فى الشىء يضعه فى غير موضعه ، ورجل يمضيه فى غير الواجب عليه . ثم لا يزال الإنسان يضيع الأوقات كالكاره لها ، وهو مع ذلك يشتكى قصرها » .

وإنى لأعجب كيف يشكو المرء ضيق الوقت ، ثم تراه مع ذلك يتمنى انقضاء كل برهة منه . فالقاصر يود لو أصبح راشدا ، والراشد يرجو أن يضحى ولى عمل عظيم ، وولى العمل العظيم يتمنى لو ظل مثريا ، والمثرى يأمل لو أمسى ذا منزلة ، وصاحب المنزلة يشتهى لو بات معفى من العمل . لذلك ترى الحياة ، وإن أجمع الناس على قصرها ، طويلة الأقسام . ثم ترى ابن آدم مع اشتهائه طول العمر يود لو تقصر أجزاؤه .. فالدائن يستعجل موعد الدفع ، والسياسى يرضى أن ينقص زمنا من عمره اذا كان فى ذلك نجاح أمنيته ، والعاشق يتمنى أن تحذف من حياته أوقات الفراق . وكذلك يرجو أحدنا مع سرعة مر الزمن لو أنه أسرع مرا وأوشك كرا . فكم نمل الساعات حتى كأنها أعباء

على أحداقنا . ونتمنى زوال الأيام ، لا بل السنين ، حتى كأن المرء فى قطعه العمر سائح يطوى قفارا خلاء قواء قد يصادف فى أثنائها البقة الخضراء ، فهو يدأب فى نهب المسافات وبوده لو نقصها الله تسعة أعشار ليعجل استمتاعه بتلك البقعة الطيبة .

ولما وجدت وقت الكثير منا يكون معظمه هوات بعيدة خالية من كل لذة وفائدة ، رأيت أن أعرض ماعسانا نملأ به هذه المهاوى الفيح ، لنمتع ونستمتع ، ونفيد ونستفيد .

وأول ما أعرض من أعمال الخير التى يحسن بنا مباشرتها فى أوقات الفراغ ، هو القيام برفع منار الفضيلة ، وهدم عماد الرذيلة ، وذلك بواعظ الجاهل ، وإغاثة اللهيف ، وإنعاش المعدم وجبر المهيض . فلا ندع فرصة خير إلا ونقتنصها ، ولن يعدم الإنسان فى يومه فرصة لتسكين غاضب ، أو نصر مظلوم ، أو إزالة حقد حاقد ، أو غير ذلك من الأعمال التى تلذ صاحبها وتنفع الغير .

وخير مايرفع عماد الفضيلة هو أن يخلو الإنسان بنفسه ساعة ، فيتوجه اليها ، ويحاسبها على كل

ما أتت ، فان أعقل ما يكون الإنسان وأعدل وأنزه من السفه وأبرأ من الحمق إنما هو فى حين خلوته • لخلو القلب بعض الشيء اذ ذاك من أدواء الشـــهوات ، وخلوص الذهن نوعا من شوائب الأغراض ، فاذا خلا المرء بنفسه فحاسبها على أعمالها كان حريا أن ينكر من ذلك كثيرا مما كان أعجبه من قبل ، فيلوم نفسه ويوكل بها ضميره ، فيكون من وخزه إياها ما يقوم من عوجها ويثقف من أودها • ومن مزايا الخلوة أيضا أنها تسمح للمرء بالتبصر فى مستقبل أمره ، فهو لا ينفك يقلب الرأى على جمرات ذهنه حتى ينضج • وتقليب الرأى من أكبر فضائل أولى الحزم والنهى •

صورة الماضى

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن عهدك إلا حلما
بالدجى ، أو خلسة المختلس

حدثنى أحد الناس قال : « ساقنى الشوق من حيث لا أشعر ولا أريد .. الى دار هجرها السكان..وعطلها القطار . فلم أنتبه إلا بين الرسوم المحيلة .. فتمثلت :

وما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى
إلى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

وقفت وسط المكان كأن قفر فى قفر ، وقبر فى قبر . لا فرق إلا أن سكتة الدار خرس فوق خرس . وتحت لسانى الصامت أحشاء تصخب ، وفؤاد يضج . وان

كان سكوت الدار أنطق وأفصح ، وأبين وأشرح . وشممت من الطلول عبق الغابرين . هو كل ما بقى للمكان من جثته الزائلة ، وحوره الراحلة . وكأن للدار روحا تبثنى الأسف والشكوى .

قصدت غرفة كانت فى سالف الزمن مجال النعيم واللهو . وحركت الباب .. فأرسلت مفاصله صيحة وهبها الصدأ ماشئت من الفصاحة . فكأن الوقت نفسه يتكلم . ولكن هيهات ! لقد خرس الوقت فى ذاك المحل ، أو وكل الكلام لقطع الزجاج المنثورة فى الغرفة .. كالنجوم بينها تنف القماش كأنها الورق الذابل فى الشتاء .

وقد نديت الجدران ، وخرج عليها عرق الرطوبة كأنه مجارى الدموع فى خد اليتيم . وكأن الغرفة سرير موت ينشر عليه العنكبوت أكفانه التربة . والعنكبوت رقيب الإنسان يكتب بقلمه الحريرى ذنوبه والآثام . والزجاج يخفق فى النافذة صبابة أو وجلا . والريح فى خروقه الخربة تصفر وتحن ، وتزفر وتئن ، وتعول وترن .

ماذا أبصر فى ذلك الركن ؟ قانون معطل ! مهجور فى

زاوية النسيان كأنه فؤاد مهجور . تقطعت أوتار الشجن والشجى . وخمدت أنفاسه إلا أنه تهيجها كف النسيم لو ترجمت الى العربية لكانت :

يا نسيم الريح من كاظمة
شد ما هجت الجوى والبرحا

فتناولت القانون فى رفق وإشفاق . وحركت الأوتار فأجهشت بالبكاء . وكادت نغماتها تكون دموعا . قلت : يالله ! لقد كنت قانون الرجاء فأصبحت لليأس . كنت بريد الفلاح ولسانى المنى ، تنفح المسامع المشتاقة بحديث الحب الوردى ، والغزل العطرى ، أيام نجلس فى مشرق الحياة الذهبى .. على فردوسها السندسى . فتلفتنا أيها القانون الى حيث ينتظر الزهر الجنى والثمر الشهى . وطالما كنت نجابا لشمس النعيم تتقدمها بأغانى الغرام ، وأغاريد الطرب .

مات ذلك الزمن ، ونصبتك يد الشؤم فى جو الفساد تحت أندائه القارسة ، وانقطع الرجاء من صدحاتك الرنانة ، فهل بقى من همساتك الخفيضة ما يخفض الهم ويسكن الألم ؟ ..

أما الغرام ! فقد اقفر ما بينك وبينه منذ كذبت

أحلامك وطاشت سهامك . فلم يبق إلا مرارة الشكوى، ومضاضة الذكرى . ولخير منهما اليأس المريح :

واليأس إحدى الراحتين ولن ترى
تعبا كظن الخائب المكدود

فاما صمته اليأس الجامدة ، واما قهقهة السخر والاستهزاء بتلك الخدع والأضاليل ، ولو أنصف الإنسان لاستبدل بأوتار قلبه البالية أسلاكا تلقى صروف القضاء بالضحكات النحاسية . وإذا كان هناك مزية تستأهل الحسد ؛ فتلك هى القسوة وعدم المبالاة . فان أشقى الناس أرقهم شعورا .

أيها النعيم الآدمى ! أنت الندى الجائل فى صفحات الورد نلتمسك فتدمى على الشوك أيدينا ، وأنت هباء لا تنال . برقك الخلب يبعث فى الوجوه حمرة الرجاء . فيا سرعان ما تذهب الحمرة ويا طول البلاء . أنت قرض نرده مع الريح المركب . أنت ضحكة نسكب على قبرها ماء الحياة . أنت حسنة اليوم سيئة الغد . نباشرك متعة ونذكرك عذابا .

بالأمس كان هذا المكان قرة العين . وها هو الآن

قذاها . ومن القرة القـذى . كذلك الماس والفحم واحد .

يا برهة كانت لنا ههنا ، وأين من الماضى محلك ؟ الماضى لا شىء . وأنت لا شىء . والمستقبل لا شىء . وكل شىء لا شىء . وحماقة أن نأسف على لا شىء . فطوبى لمن لا يحزن .

أيهذا المكان ! أتذكر الساعة البيضاء والصبابة الحمراء ، والسكرة والطرب .. والألم اللذيذ..والموت الحى . أذكر ذلك أو أنسه . سأذكره أمام الله .

بذلك الرمل .. وقد اصفر الأصيل .. سرنا نجوب السهل الأصفر ، كأننا من ظبائه أو جاآذكره . كان هناؤه أنقى من ذلك الرمل ، وصفاؤنا أصفى . والكون تشوبه حمرة لطيفة تضرب فى الرمال وتفيض على الغرب .. حبذا الحمرة ثوب الشباب وعنوان الطرب .

لاحظنا حينذاك السعادة ، وما راعنا إلا سرعة الوقت حتى ناديت : « أيها الوقت الطائر بأجنحة البرق . قف مكانك ! لشد ما أذنبت إلينا فيما مضى ، فهلا أرضيتنا الآن ؟ كم ساعة بكر لم نفضض ختامها ، خطفتها عجلاتك فذهبت كما تموت فى كمها الزهر . ماذا عليك

لو وقفت فلم تبرح • أيها الطـائش العجـلان ! أين تقصد ؟ لا شيء • إذن فما بالك تبخل بالريث والمهل • يا لص اللذة ، ومهدى الألم • أفى النعماء أسرع من القطاة ؛ وأبطأ فى الضراء من السلفاة • إنى أغمض عليك الطرف وأنت تبر ، فأفتحه عليك ترابا • أيها التـاجر الغابن ! تبيعنا السنين بالدموع والحسرات • ننقـدك الآلام ثمن الساعات • لا يغرنك ملكك فانه هناءة فى ملك الله • أما سلطتك فلا تتعدى شبرا من العمر أياما معدودات • ثم ينقذنا منك الأبد • فان كنت ذا نفوذ فانه سحابة صيف . كمـا يكون فى محـاجر الصحة ومحطات السفر • ما أبعد عالم الأرواح من ثوائرك • حيا الله الموت ، سيخيب فينـا إرادتك ويتركك تريق نقمتك على عظـام نخرة ، وتبرى مخـالبك على قبر بقفرة •

أيها الوقت ! قف أتزود من اللذة الحاضرة الفانية • وما أنت بواقف لكأنك لغير الفساد لم تخلق فما أحقك بقول الشاعر « شيلى » الذى قال فيك : « أيها البحر المجهول الأول والآخر • ماؤك الحزن العميق ، وموجك الأعوام الطامحة • عمر الإنسان محصوز بين غايتى مدك

وجزرك ، لا تبرح تزأر مزدادا من فرائسك على سآمتك إياها ، وقذفها قيئا على ساحل الفناء المخوف • يا غادر السـكينة وهائل الثورة • تالله ! ماركبك الإنسـان مختارا » •

بذلك الرمل ، وقد فارقتنا الشمس عليهـا من وقار الصبر وهدوء العزاء • ما يعلم الصديقين كيف يفترقان (يا واع الشمس ! أنت مثال القوة ، ونموذج السمو ، قد آلمح فى معانيك شيئا من نابليون الأكبر إذ يودع الحياة فى منفاه الصخرى) • بذلك الرمل وقد دبت ظلال المساء ، وقفنا على ينبوع من الماء له جوف يجيش بالعنصر السيال ، ويرميه حيا قويا • وما هو إلا ذراع أو نحوه حتى تعترضه الحجارة فتكسر من حده وتكف ميعته • فيرتد مخذولا ويقف عاجزا ثم يتسرب بعضـه من تحت الحجارة ، ولا يكاد يسترجع حدته حتى يعارضه الحصى صغيرا وكبيرا الى أن يهزل الماء ويضمحل فيجف • نظرنا الى الماء فتنفست الصعداء • وصاحبى ناعُم البال مثلوج الفؤاد • قلت له : « ماذا تبصر فى الينبوع من العظة » • فضحك وقال : « غن لنا صوتا على خريره » • قلت : « ما أجـدر الينبوع منى بالبكاء لا الغناء •

أيها الينبوع الخائب الأمل ، المعكوس الرجاء ! مثلك كمثل الإنسان . يجيش قلبه بالحب لأخيه حتى اذا فاض جبهته عوارض القسوة والجمود . ويأبى وداده إلا فيضا وانسجاما ، فيحاول الاستمرار بين وعور الجحود . ثم يغلبه الغدر فينضب . ولكن منبع الحب فى قلبه لا يبرح غزيرا يمده الحب الأبدى ، أعنى الله . حتى يعود الإنسان المحفوف بالعداوة ، كالواحة باطنها الحياة وحولها الموت » . عند ذلك أطرق صاحبى . وجرى الأسى فى عينه كالظل الأسود على بريق الماء . والتمست لحاظه فاذا هى تطمح كأنها تستشف زرقة السماء عن عالم الغيب .

سقط الظلام ، وانقرض الشفق ، قلت لصاحبى : « أين الشمس ؟ قضت ، وأورثت الدنيا شفقها الأحمر ذكرى جميلة حفظا للعهد . فأين الشفق ؟ مضى » وكذلك الصاحب يذهب وتتلوه ذكراه فكأنه لم يكن :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالك
لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

ما أوجع الحيـــاة يا أخى • الحيـــاة شـــجرة ثمرها الشوك • والشباب غرور ، والغرام جنـــون • والموت آروح من فرقة لا تئول الى لقاء • « وأشقى العالم قلبان صدعهمـــا الدهر فتمزقا ولم تبرح عليهما جراح الشتات مع اتساع الهاوية بينهما • كصخرتين كانتـــا قطعة ثم ضربهما البحر فتصدعتا • واستمرت عليهمـــا خدوش التفرق مع بعد ذات البين • ولم يكن فى طاقة الحـــــر والبرد ، والبرق والرعد ، وبحـــــر الوحشة الجائش ، ما يمحو خدوش النوى وجراح التمزق» (١)

أيهذا المريد إعدام الحب تقصم بالهجران عراه • قد رفع الله أسباب الهوى عن غوائل الحدثان • الحب سماوى أزلى • « إن الفؤاد ليتفتت على الهجر فلا يزيد إلا ولعا ، كالمرآة تريك صورتك وتتكسر فتريك ألف صورة » (٢) •

أيها الهاجر المحتجب بالفرقة ! الجمـــــال المجتمع فى شخصك متفرق فى الكون • فمـــاذا ينفع الحجاب اذا رأيناك فى الشمس والقمر • والشفق والسحر•وسمعناك

(١) من قصيدة « كريستابل » للشاعر الانجليزى كولريج
(٢) للشاعر بيرون •

فى العود • والحمام على العود • وشممناك فى الزهر والمسك والعنبر :

فـان تحتجن فالله جم عطـــاؤه

وإن تحتجب فالشمس جم طلوعها

أيها المحاول ستر الملاحة يصادر السنن الطبيعية • يد الله فوق يدك ، حرمتنا آية الحسن فقرأنا حروفها فى صحيفة الوجود • حجبت منظوم الجمال فالتقطنا من حجر الطبيعة منثوره • منعتنا طلعتك فهلا منعت الصباح أن يشرق ، وصـحيفة النهر أن ترقرق • إن الفـرح ليضاحكنا فى أشعة العيون وأشعة النهار ، وكل هذا منك • فهل طوال الفراق ؟ ••

ذهبت بحلاوتك •• فهـل يستطيع الربيع أن يخفى حلاوته ؟ عطلت المسامع من نغمك الشجى •• وهذه نغمة البلبل فى أذنى • ونأت أنفاسك الطيبة • وتلك نفحات الورد تشملنى :

يذكرنيك والـذكرى غنــــاء

شمائل فيك طيبة الشـــكول

نسيم الروض فى ريح شـــمال

وماء المزن فى راح شـــمول

إن الحزن لينام برهة ، ثم يوقظه الشيء الذى لاتشعر به لفرط ضآلته . يلدغ الحزن النائم خلسة كأنه إبرة العقرب فيهب ممتلئا بالسم الجديد . وربما كان ذلك الشيء الدقيق صوتا أو لونا أو أرجا أو نغمة أو زهرة أو الريح أو الماء . كل هذه تضرب سلسلة الكهرباء التى تربطنا باللذات المنقرضة والمحاسن الغائبة ، قاتل الله الذكرى ، إنها الصاعقة تترك القلب أسود من الطلل المحروق ، وتنبش قبور الماضي .

ويل للمحب ، إذا قال : « ألهو » ضاعف اللهو آلامه. والنعم جحيم العاشق وأندى اللذات لذاعة لحشاه . والنعم الزلال ينزل عليه بردا فيقلب حميما . وكذلك الحب لهب يترك النعمة اليانعة رمادا .

فلما انتهيت من مقالى ، قال صاحبى : « مابالك كأنك ماعرفت إلا الشقاء » . قلت : « تيار خوف يتخلل عظامى كالثلج الذائب . ودمعة تكمن فى جفونى يخيراننى أن هذه ســـاعة الوداع الأخير . لذلك أنظر إليك الآن كالناظر الى الشمس وقدماه على المشنقة .. لا تعجب من حزنى وأنت معى . فالحزن أليف الحسن والفرح . أليف الحسن الزائل والفرح المهدد . الحزن ألف اللذة

المتألمة التي بينا نذوقها عسلا اذا هي السم . إن الحزن ليأخذ مخبأه في ثنايا السرور . وينصب على بهجة الجمال عرشه الأسود » (١) .

قلت له ذلك وفارقته لألقاه يوم القيامة . ثم علمت الريح قولا تحمله الى الغائب الميئوس من لقائه :

« أيها الغائب ! لأخالني على بعد المزار قائما في ظلك. كنت أدبر أمري فأمسيت منه على صهوة الجامح الهائم وراء كل حلم وذكرى . لا أملك نفسي الملتاعة بل تملكني اللوعة تلفتني أبد الدهر الى حيث أنت كأني إبرة المغناطيس تشير الى نجم الشمال .

أيها الغائب إن يدي لتحس لمستك :

وإني لتعروني لذكراك هزة
كما انتفض العصفور بلله القطر

وإن البين ، مهما حال بيننا ، ليترك نفسك في نفسي ونفسي في نفسك كالمرآتين المتقابلتين تحتوي كلاهما الأخرى وإن كانت الأولى في الأرض والثانية في السماء .

---

(١) الشاعر كيتس .

أيها الغائب ! إن شمائلك ومعانيك ملموحة فى كل ما أفعل ، وإنى أنم عليك كما تنم الريح على خميلة الورد . والنبيذ على عنبه » .

تلك رسالتى مع الريح ، لو أدت الريح الرسالة !

فهرست

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣،
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Marco, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



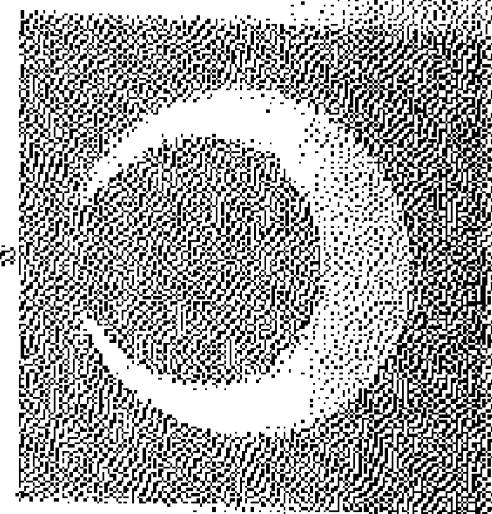
هـذا الكتـاب

من اجل وأجمل ما خط قلم الكاتب الكبير المرحوم الاستاذ محمد السباعي ، كتاب « الصور » •• فهو زاخر المعاني ، حافل الفكر ، تتألق لغته العربية حيوية ، ورقيا ، وشاعرية •••

ولقد اشاد بكتاب « الصور » كبار النقاد ورجال الفكر والادب ، وقال احد اقطاب « مدرسة الديوان » الشهيرة في تاريخ نهضتنا الشعرية ، الناقد الشاعر الجهير عبد الرحمن شكرى : « بكتاب الصـــور ، سبق السباعي زمانه ! » ، وكتب الاستاذ الكبير ابراهيم عبد القادر المازني ـ يقول : «••• وكتاب الصور ثمرة لما يضطرب به صدر السباعي الكبير وتجيش به نفسه ••• ولقد كانت فيه فكاهة حلوة تهون العسير ، وتذلل الصعب ، وتجلو صدأ العيش •• وكان كانما لا يشعر باى منافسة له فى بابه ، لفرط ثقته فى قوته واقتداره ! » •

والسباعي الكبير ، عالم مترجم واديب فنان ، اثرى المكتبة العربية بكنوز من مؤلفاته من اهمها غير كتاب « الصور » كتاب « السمر » ، بالاضافة الى مترجماته من روائع الادب الانجليزى ، ومنها كتـــاب « الابطال لكارليل » ، و « قصـــة المدينتين » لديكنز ، و « ذات الثوب الابيض لكولنز ، ومختارات من شعر بيرون ، و « رباعيات الخيام » عن فيتز جرالد ••• وكان فى كل ما يقدم للقارىء العربي من مترجماته حسن الاختيار ، حسن الاداء ، جدير بمكانته العالية بين اعلام المترجمين وفى ركب المقدمين من ادباء النهضة الجديدة ••

١٢ قـرشـا



سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

الصعود إلى الهاوية

٢٠٨

صالح مرسي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٠٨ — شعبان ١٣٩٦ — أغسطس ١٩٧٦

No. 308 - August 1976.

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا • فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية أو ٢٫٥ جك — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشة
الفنـــان عفت حسنى

صالح مرسى

الصعود إلى الهاوية

دار الهلال

كلمـــــة ..

كانت البداية غريبة .. ولأنها غريبة . فانى أحب أن أحكيها للناس .

... فعندما طلب منى « صوت العرب » فى مطلع هذا العـام ـ ١٩٧٥ ـ أن أكتب مسلسلة عن الجاسوسية ، بدا لى الأمر مثيرا بعض الشىء ، وعندما قرات قصة ذلك الجاسوس الذى كنت بصـــدد الكتابة عنه ، ازداد الأمر اثارة .. ذلك انى كنت أعرفه ـ فى فترة من الزمان ـ معرفة عابرة .. غأ انى عندما بدات الكتابة ، طلبوا منى أن أقابل « السيد عمر » !

ولم يكن هناك بد من لقاء « السيد عمر » هذا فهو ضابط مخـــابرات ، ان تكنيك المخابرات شىء مجهول بالنسبة الى ، وانا وان كنت فى حاجة الى أن أعرفه ، فلقد أصبحت أمام مسئولية اذاعة الحلقات . أمام طريق مسدود .. وفى أحدى غرف مبنى الاذاعة والتليفزيون التقيت بالسيد عمر .

منذ اللحظة الاولى .. كان اللقاء مثيرا .

بأدب شديد ، قلت للرجل الفارع الطول ، الأسمر ، الحاد النظرات :

« بصراحة أنا جاى غصب عنى ؟ »

بدت الدهشة فى عينيه . وعلى شفتيه الحـــازمتين ارتسمت ابتسامة ، قال :

« ليه ؟ » ..

وقلت .. قلت كل شيء .. قلت كل ما يمكن أن يقوله انسان سمع عن جهاز المخابرات العامة أساطير كثيرة .

غير أن الحديث بيننا امتد يومها الى أربع ساعات كاملة .. نحينا حلقات المسلسلة جانبا وبدأت أسأل ، وبدأ يجيب .. ولم تكن الساعات الأربع كافية لأن أعرف كل شيء .. ذلك انى كنت أكتشف . كلما مضت دقيقة ، انى « جاهل » .. أقولها بملء فمى لأنها الحقيقة .. كنت جاهلا بكل شيء عن هؤلاء الرجال الذين لا ينطقون لأن طبيعة عملهم هى السرية والـــكتمان ، كنت جاهلا بأسلوب المخابرات لانه أسلوب يختلف اختلافا كليا عن الاسلوب البوليسى الذى نتبعـــه عادة فى كتابة القصص البوليسية . كنت جاهلا بحقائق كانت تبدو لى بديهيات لا تحتاج الى مناقشة .. و ..

وامتد الحوار بيننا ـ السيد عمر وأنا ـ لخمسة عشر يوما لم أكتب فيها كلمة .. خمسة عشر يوما كنت أتعثر فيها كطفل يتعلم السير .. ويوم أن دعيت لزيارته هناك. فى هذا المبنى القابع خلف أسوار الصمت ، أحسست انى أدخل مدرسة جديدة ، اتعلم فيها شيئا جديدا .. هناك قدم لى « السيد عمر » كل ما أريد من حقائق .. ولقد أصبح السيد عمر صديقى ، ولقد أحببته . والأهم من هذا ، انى تعلمت منه الكثير .

ثم ...

ثم طلبت منه أن أكتب للمصور بعض قصص هـؤلاء الرجال الذين يحمون ظهر مصر ، الذين لا ينامون ..

حتى ننام نحن .. الذين يواجهون أعتى العقول فى العالم وأشدها دهاء ليحافظوا على كيان هذا الوطن .. ومنذ ستة أشهر ، وأنا أعكف على عدد لا بأس به من الوثائق ، أتعلم ، أدرس ، وأكتب هذه الحقــائق ، التى لا تحمل سوى رسالة واحدة .. ماذا لو غفل هؤلاء الرجال عنا ؟!

وسقط القناع
عن وجه الغريب

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحا .. وكان الطريق الطويل المحاذى لقصر القبة يبدو خاليا الا من سيارة تسير هنا أو هناك .. ثمة جو يخيم على البلد كلها ، وهزيمة يونيو لم تطو بعد عامها الاول .. وفى مكان خال من المبانى ، توقفت سيارة تحمل ارقام أجرة القاهرة .. ونظر السائق الى راكبه الغريب وهو يمسح المكان بعينيه فى دهشة .. الى أين يذهب هذا الراكب ذو الجسد المدكوك والوجه المكتنز والعينان اللامعتان ، غير أنه تناول أجره ومضى تاركا ذلك الشاب يقف وسط الشارع وحده .. وراح صاحبنا بعد أن مضت السيارة وابتعدت يمسح الطريق بعينيه يمنة ويسرى .. كان يرتدى بذلة كاملة والجو ربيعى بارد ، وعيناه تمدان أذرع البصر الى ذلك المبنى القابع خلف أسوار الصمت .. كان هذا المبنى بالذات هو وجهته .. وكان قبل أن يدخله لاوة مرة ، يريد ان يطمئن أن أحدا لا يتبعه ويراه .

ملأ صدره بالهواء بعد ان اطمأن ، وبدأ مسيرته ، وعند بوابة المبنى « مبنى المخابرات العامة المصرية » توقف ، ولمعت عيناه ببريق غريب ..اغلب الظن أن قلبه كان يدق فى تلك اللحظة بسرعة أكثر من المعتاد .. واغلب الظن أنه تذكر البداية التى قادته فى ذلك الصباح الى هنا ..

ولقد كانت البداية هناك .. فى اليمن .

وعندما استدعى الملازم أول « ماهر » مع كتيبته في النصف الثاني من مايو ١٩٦٧ كان مستغرقا في تدريب جنوده على «ضرب النار» تمهيدا لدخول احدى مسابقات الرماية .. وكان أمله أن تفوز الكتيبة بالمركز الأول في هذه المسابقة .. غير ان أمر الاستدعاء جاء ليحمله الى ظهر سفينة أقلعت بهم من ميناء الحديدة في أقصى جنوب البحر الأحمر الى الشمال .

ولقد وصلت السفينة الى الأدبية وعبر ماهر مع كتيبته القناة الى سيناء ، وتحركت بهم السيارات لتقطع شبه الجزيرة من غربها الى أقصى الشرق فيها .. الى مسافة قريبة جدا من الحدود الاسرائيلية .

وكان هذا يوم ٣ يونيو عام ١٩٦٧ ..

وكان عليهم أن يقضوا يومى ٣ ، ٤ يونيو في تجهيز مواقعهم .. وفى حماس راح الجميع يعملون .. غير ان ضابطنا الصغير السن والرتبة ، كان يتملكه في ذلك الوقت – مثله مثل باقى الرجال – احساس غامر بالعزة .. احساس غذته تلك المدمرات التى كانت تحيط بالسفينة في رحلتها من الجنوب الى الشمال ، وتلك الفواصات التى كانت تحميها طوال الطريق تحت الماء ، ومشهد الطائرات التى كانت تحوم حولها في السماء .

غير أن صباح ٥ يونيو جاء ليهدم كل شيء ها هى الصحراء أمامه بلا نهاية ، الشمس والحرارة والرمال والجبال والاقدام تخوض في بحار من الحصى والصخور الملتهبة والاحساس العميق بالهزيمة .. الجوع لا يهم لكن العطش كان مأساة المآسى .. ساعة بعد ساعة كان يتجه غربا .. ولكن كان عليه أن يتجنب جنود العدو الذين سيطروا على شبه الجزيرة العزيزة ، أكثر ما كان يضنيه ويعذبه انه لم يكن يعرف شيئا .. لا شيء سوى السماء

يسيطر عليهـــــا الطيران الاسرائيلى فأين ذهب طـيران مصر؟ .. لا شيء ســوى صحراء يســيطر عليهــا الفزع وجنود العدو ينعمون بالغلبة لكن سلاحه على كتفه .. فهل يموت من العطش ؟ أم يترك نفسه للاسر ؟ .. أم هناك طريق ثالث ؟ ..

كان الطريق الثالث هو الثقة فى السلاح .

ما أسهل أن يلقي بنفسه على الارض ويترك للعـــدو فرصة أن يأسره وليكن بعدها ما يكون ، أصبح عليه أن يختفي طوال النهـــار فى صخور الشاطيء ـ وكان قد استطاع الوصول الي خليج السويس ـ دون أقل حركة .. الظلال والحرارة والعطش والطـائرات لا تختفى من السماء وكان عليه أن يتحول دون طعام أو شراب الى صنم .. حتى اذا جاء الليل هبط الى المياه وراح يخوض فيها سعيا نحو الشمال ، نحو قناة السويس .

الحديث يبــدو مثل قصـــة سينمائية ، ولكن آثار الجروح فى جسده علامة صدق لا تخطئها عين .. فى كتفه شظايا دانات أطلقت عليه أو بالقرب منه ، فى مفصل ساقه ثلاث رصاصات .. استأصلوا بعد ذلك احـدى كليتيه كما استأصلوا جزءا من طحاله ، وفقد أيضــا ضلعه السابع .. ورغم كل ذلك فلم يكن يشعر بالألم .

لم يعد باقيا فيه ـ بعد أن مرض الجسد ـ سوى العقل ؛ وبالعقل استطاع أن يصل الى السويس فى أحد أيام العشرينات من يونيو .. شبحا كان أم جنديا جريحا ؟ واذا نفس اللنش الذى كان يسحب السفينة التى أقلعته من اليمن عندما دخلت ميناء الأدبية ، هو هو نفس اللنش الذى انتشله من المياه وهو بين الحياة والموت .. انتشله جسدا مزقتــه الرصاصات والشظايا ، وعينان تبرقان بآلاف الأسئلة .. كانت كلها تبدأ بكلمة : لماذا ؟ ..

غير أن لحظة واحدة كانت مثل وسام يوضع على صدر ذلك الضابط الصغير الذى لم يكن يتعدى فى ذلك الوقت الخامسة والعشرين من العمر .. تلك اللحظة التى اختفى فيها الألم ، وغابت عن الذهن الاصابات والجـــروح ، وتقهقرت الاسئلة الى حين، تلك اللحظة التى وقعا فيها، وفى جسده ما فيه ، فى أحد أكشاك الشرطة العسكرية فى ميناء الادبية ليسلم لهم سلاحه الذى اؤتمن عليه ..

***

بعـد ذلك بدات مرحلة الام من نوع آخر .. من مستشفى الى مستشفى كان ينتقل ، من غرفة عمليات الى غرفة أخرى ، ومن طبيب الى طبيب .. وليست آلام الجسـد هى ما كان يشعر به ماهر ، لكنها آلام أشد وأقصى .. ويوم أن صـــدر قرار من المجلس الطبى العسكرى انه أصبح لا يصلح لأن يكون ضابطا محاربا ، كاد يفقد هذا الشيء الذى كان دائما يعتز به .. كاد يفقد عقله .

وعلى كل .. فقد توصلت ادارة شئون الضباط ذات يوم الى حل وسط .. أن يخـــدم ماهر فى وحـدة حراسة .

ولم يكن أمام صـــاحبنا سوى طريق واحد .. أن يوافق .

السخط والضيق والعذاب ولا تزال الأسئلة تطن فى رأسه فراح يبحث عن اجابات .

وذات يوم دخل أحد المستشفيات وقد كانت الآلام تمزقه .. ذات صباح وجد نفسه فى صالة مليئة بالمرضى وكان عليه أن يجلس حتى يأتى عليه الدور .. فاى دور هذا الذي يجب أن ينتظره مقاتل فقد أجزاء من جسده .. صاخ وضخب وثار وكان عليه أن يجلس فى النهاية

فوجد مقعدا جلس فيه..بجواره طالعه وجه تركي الملامح أبيض الشارب ترتسم على الشفتين منه ابتسامة حنون .. مال عليه صاحب الوجه التركى وتحدث اليه وأخذه على كفوف الراحة .. قدم له نفسه .. فقدم له هذا الذى سوف نطلق عليه اسم « الغريب » نفسه .

***

رغم أن اسم هـــذا العميل الاسرائيلى قد نشر فى الصحف منذ سنوات ، رغم أنه حوكم وأدين وصدر ضده حكم ، فلقد كان من المستحيل تماما أن أحصل على اذن بنشر اسمه .. كان من المستحيل تماما رغم كل الحجج التى سقتها اليهم .. فهم هناك .. هؤلاء الرجال الذين يقبعون خلف أسوار الصمت يضعون للعوامل الانسانية كل اعتبار .. ان لهذا الرجل الذى خان الأمانة زوجة لا ذنب لها ، ان له أبناء يحملون اسمه لأنه أبوهم يعيشون كأى مواطنين شرفاء لأنهم لم يقترفوا اثما ، فلماذا .. لماذا نحيي ما مضى وقد نال المخطىء جـــزاءه .. ولولا ارتباطه بقصة ماهر ، لما اثيرت هذه القضية مرة أخرى .

***

كان ماهر لا يعرف فى ذلك اليوم وهو يجلس فى احدى قاعات ذلك المستشفى العسكرى ، بجوار ذلك «الغريب» ذى الابتسامة المطمئنة ، انه يخطو خطوته الاولى نحو هذا العالم الرهيب .. عالم الجاسوسية .

ولقد كانت تلك اللحظة الاولى التى وقف فيها الملازم أول ماهر أمام حارس مبنى المخابرات العامة المصرية ، نقطة تحول رهيبة فى حياته .. لم يكن يدرى أنه بعـــد ساعة من الزمن ، سوف يصبح انســـانا آخر ، وسوف يدخل الى بوتقة شديدة الحرارة،بوتقة تنصهر فيها حياته كلها .. كان الماضى بكل الآلام بكل الأحلام ، ليتشكل

من جديد ، ليصبح انسانا آخر ..

سأله الحارس عما يريد ، فقال باختصار :

« عاوز أقابل مسئول » .

وهناك فى هـذا المبنى .. الذى يعرف رجاله كيف يعـاملون أعتى الرجـال دهاء فى العـالم .. لم يكن من الصعب عليهم أن يتعاملوا مع ماهر ، وأن يستقبلوه.

***

جلس ماهر أمام ضابط المخـابرات المصرى فى غرفة مغلقة ، فأحس بالراحة وقال :

« لقد جندتنى مخابرات اسرائيل » .

أغرب ما حدث ان هذا الضابط الشاب الهادىء الملامح المحدد القسمات الذى استقبله فى تلك الغرفة الشديدة الهدوء والصمت ، لم يطرف له جفن ، ولم ينطق .. هؤلاء الرجال لا يتكلمون كثيرا ، لكنهم يعرفون كيف يجيدون الاستماع .

تنهد ماهر ـ اذن ـ وبدأ يحكى قصته .

***

فى ذلك اليوم ، فى تلك القاعة ، فى أحد المستشفيات العسكرية ، جلس ماهر بجوار الغريب .. ولقد كان « الغريب » عربيـا جاء الى مصر طالبا حق اللجـوء السياسى فمنح اياه .

وكان قـد ذهب الى ذلك المستشفى فى ذلك اليوم بدعوى الوطنية للاطمئنان على جرحى المعارك من الضباط والجنود .. وكان بارعا فى تهـدئة ماهر الثائر الرافض للانتظار فى الدور مثله مثل أى مصاب بالتهاب فى اللوزتين .. كما كان بارعا فى مد جسر الصداقة والتعارف مع هذا الضابط المتفجر بالحماس والوطنية .. . وقبل أن

يغادره ماهر كان على موعد معه فى اليوم التالى .

حقيقة هامة لا سبيل الى انكارها .. ان الضـــابط المصرى الشاب ، أحب « الغريب » حبا حقيقيا .. التقت ميولهما معا ، وتناسقت أفكارهما ، وكان موضوع الهزيمة ـ بطبيعة الحال ـ مثارا لكثير من المناقشات بينهما .. مناقشات كانت تستمر طوال الليل يجمعهما دفء البيت أحيـانا ، أو صخب النوادى الليلية بكل ما فيهـا من مرح !! ..

ذات يوم قال ماهر للغريب انه يكتب كتابا عن حرب ١٩٦٧ ..

ولأن الغريب كان لاجئا سياسيا ، فلقد كان يزعم انه على علاقة بالكثيرين من المسئولين فى مواقع سياسية ، ومواقع وزارية .. لذلك فعندما وعد « الغريب » صديقه بأن يتحدث فى أمر كتابة هذا مع بعض المسئولين ، أحس ماهر وكأن طاقة فى السماء قد فتحت له .. انكب على كتابه ليكمل فصوله .. راح يعمل فى حماس يصل فيه الليل بالنهار.. واذاكان للغريب أقارب يعيشون فىالمانيا الغربية ، فلقد كان يزورهم بين الحين والحين ، وعندما سافر ذات مرة لزيارتهم وعاد .. كان ماهر قد انتهى من الكتاب وكان على « الغريب » أن يخطو خطوته التى وعد بها ذات يوم ، فاتصل بوزير الثقافة فى ذلك الوقت والتقى به ليحدثه فى أمر الكتاب .. ثم عاد الى ماهر وملامحه تنطق بالفشل .. لقد رفض نشر الكتاب .

وازداد سخط ماهر وتبرمه ، وازدادت ثورته وضيقه .. وعندما سأله الغريب فى صوت هادىء :

لماذا لا تنشر الكتاب فى الخارج ما دام نشره فى القاهرة متعذرا ؟

وافق ماهر دون تردد !!

في تلك الأيام .. لم يكن ماهر قـد تمـــرس بتلك الاساليب الخفية التى تتبع عادة فى الحرب السرية .. سافر « الفريب » ذات مرة الى الخارج ، وعاد يزف اليه نبأ هاما لقد استطاع أن يتعاقد مع ناشر المانى وافق على نشر الـكتاب .

وكاد ماهر يطير من الفرح .

ولكن ... اذا كان هذا الناشر من المانيا الغربية ، فكيف ينشر كتابا هو فى واقع الأمر يدين اسرائيل ويكشف حقيقة انتصارها المزيف .. فى الوقت الذى كانت فيه المانيا الغربية ضالعة مع اسرائيل علانية .

بذور الشك كانت تنبت ولـكن الاحداث ايضاكانت تتلاحق ويوم أن وصل الى القاهرة مندوب عن دار النشر الالمانية جاء خصيصا لمقابلة ماهر .. بدت المسألة جدا لا هزل فيه .. وجلس ماهر الى المنـــدوب وقرأ له صفحات من الكتاب فأثنى عليها هذا ثناء عاطرا ..

فسأله ماهر فجأة :

« كيف تنشرون كتابا يدين اسرائيل وأنتم ضالعون معها ؟ »

وكان الرد جاهزا بطبيعة الحال :

« اننا هنا لا تعنينا سوى الثقافة والحقيقة ، والرأى هناك متاح للجميع .. وان كان من الممكن أن تعاد صياغة الكتاب حتى يتفق أو يقترب من وجهة النظر الالمانية !! »

امام هذا العرض الأخير توقف ماهر .

ما الذى كان يفكر فيه فى ذلك الوقت .

أكذب لو قلت انى أستطيع ان أحدد .. غير انى أستطيع من جماع الحوار الذى دار بينى وبينه .. أن أتخيل .. فقط أتخيل .

هل بدأ الشك يساوره وهو يرى الطريق أمامه يفرش

بالذهب ، ليصنع منه ذلك اللاجىء السياسى جاسوسا على بلاده ؟

آن الاجابة ان لم تكن « نعم » ، فانها بالقطع سوف تكون « محتمل » .

وعندما سافر المندوب ، لم يعكف ماهر على كتابه لاعادة صياغته .. كان أنفه قد بدأ يتشمم تلك الرائحة النفاذة للخيانة .. وضع مجموعة من الاحتمالات وانتظر .

وعندما أعلن « الغريب » أنه سيطير الى المانيا تحقق واحد من احتمالاته ، وعندما عاد ، بدأ يقطع الشك باليقين .. ومما لا شك فيه أبدا ، أنه كان جسورا للغاية وهو يخوض اللعبة بشجاعة فائقة .

***

ما أن عاد « الغريب » من المانيا ، حتى تلهف ماهر بالسؤال عن مصير الكتاب ، ولم تكن لهفته حقيقية بأى معنى من المعانى ، وقال الغريب .. ان الناس هناك فى المانيا الغربية معجبون به أشـد الاعجاب ، لقد وجدوا فيه خامة عظيمة لشىء أعظم من الكتاب .. واذا كانت الهزيمة قد حدثت فمن كان المتسبب فيهـــا سوى الشيوعيين ؟ ..

صمت الغريب ، وقال ماهر : تمام .

ولقد كان العرض مبسطا ومغريا !

انهم يريدون محاربة الشيوعية ، وان بعض المعلومات البسيطة من الممكن أن تكون مفيدة للغاية .. ولا شىء آخر ..

ووافق ماهر ..

وافق وهو واثق بأنه أمر لا يحتاج الى الكثير من الذكاء لكى يعلم انه ـ كضابط فى القوات المسلحة ، وكساخط

على هزيمة لم يتسبب فيها ، وكناقم على كل أسباب الخذلان ـ كان صيدا ثمينا .

كانت حرب الاستنزاف قد بدأت .

وكان الغريب قد بدأ فى طلب المعلومات ، وعندما حان وقت الحديث عن الأجر كان ماهر يقطع المسافة فى كلمة : « ٥٠٠ جنيه فى الشهر » .. ثم أضاف : « أنا عاوز مرتب سنة مقدما !! » ولو ان انسانا آخر غير ماهر هو الذى وضع فى هذا الموقف ، لما جرؤ على الاستمرار ، غير ان هذا الانسان بالذات ، كان يخوض اللعبة متعرفا على كل شيء راصدا لكل حركة مسجلا لكل كلمة .. كان يريد أن ينتصر بعد أن هزم هزيمة لا ضلع له فيها .. و .. و ..

وتوالى وصول المندوبين من المانيا الغربية .

وفى علم المخابرات ، كان المندوب الذى يأتى يدرس جانبا من جوانب الجاسوس المبتدىء انهم يسألونه أسئلة يطلقون عليها اسم « الاسئلة الاختبارية ! » .. انهم بهذه الأسئلة يمتحنون قدراته .. قدراته على الملاحظـــــة والرصد ، ورغبته فى الاعطاء والادلاء .

ونجح ماهر فى الاختبار نجاحا مذهلا .

وسلمه الغريب ذات يوم ثلاثة آلاف جنيه مرتب نصف سنة .

كان الستار الذى يعملون خلفه الآن قد تحول الى دار للنشر ، الى محاربة للشيوعية .

ولكن .. الى متى ؟

الى متى يطول الأمر حتى يفصحوا عن الحقيقة .. الحقيقة مجردة ؟

ولقد أفصحوا عنهـا يوم وصلت الى مصر معـــدات التجسس .

يوم وصلت الكاميرا المينيكس وأدوات الحبرالسرى، والاقلام والاوراق ... و ...

ويوم وصل جهاز الارسال اللاسلكى .

يوم سقط القناع نهائيا عن وجه « الغريب » فاذا به عميل اسرائيلى فى قلب القاهرة !!

***

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهرا .. عندما انتهى ماهر من قصته.. وكانت الغرفة لاتزال ساكنة صامتة، وعينا ضابط المخابرات المصرى تسمعان،كما كانت أذناه تريان ، أما شفتاه فكانتا مطبقتين .

وصمت ماهر .. ونظر اليه !

وتحركت يد الضابط نحو سماعة التليفون ، رفعها الى اذنه وأدار القرص ، ثم ذكر رقما ، بعد دقيقة .. دخل شاب الى الغرفة ، وكان يحمل دوسيها قدمه الى الضابط فى صمت ثم انصرف .. وقدم الضابط الدوسيه الى ماهر .. وما أن فتحه حتى فغر فاه دهشة .

***

أغلق ماهر عبد الحميد الدوسيه ... ورفع عينيه الى وجه الضابط الصامت !

لم يكن هناك ما يمكن أن يقوله ماهر .. كان الدوسيه يحوى كل شيء ،تنهد مرتين أوثلاثا ارتياحا ، حمد الله أنه جاء فى الوقت المناسب ، تحولت خلاياه الى أذان تسمع وعندما مال عليه الضابط ، كان ماهر على استعداد كامل ..

ولقد بسط خالد ــ وهذا هو الاسم الذى نختاره للضابط الاسمر الشاب ــ المسألة أمام ماهر، ثم عرضها عليه .

ففى مثل تلك الحالات لا يصبح أمام جهاز المخـابرات سوى طريق من اثنين .. أما ان يبلغ النيابة لتلقى القبض على الجاسوس ، وأما أن تطلب من المبلغ ـ اذا مارأت فيه ورأى هو فى نفسـه الصلاحية والقدرة ـ أن يستمر فى التعامل مع العدو لحساب مصر هنا يصبح المبلغ عميلا مزدوجا .

وفى ذلك اليوم أصبح ماهر عميلا مزدوجا .

***

الذى لا شك فيه ، انك لو جلست الى ماهر ، فلسوف يعترف لك ان ثمة دهشة قد أصابته عندما فتح الدوسيه واطل على ما فيه ..

وانى على يقين من أن رعدة قد سرت فى جسد ماهر كله ، وان رعبا حقيقيا قد أصابه فى نفس اللحظة التى فتح فيها ذلك الدوسيه واطلع على مافيه .

لم تكن الرعدة أو ذلك الرعب لأن المفاجأة غير متوقعة ، بل لأن الانسان عادة مايصاب بهما عندما يكتشف فجأة .. انه كان يسير طوال الأشـــــهر الماضية ، عاريا من ملابسه ! ..

لم يكن ما يحويه الدوسيه مجرد معلومات عن ماهر وعن علاقته بالغريب ، لكن الدوسيه كان يحوى ماهر كله .. بداخله وخارجه ..

ولكى أوضح الأمر قليلا ، فلقد افلتت من ماهر ذات لقاء بينى وبينه جملة تشبثت بها ، قال : « على أى حال هم حاولوا معايا بكل الطرق .. بكل الطرق » ..

كان يعنى بحديثه هذا الاسرائيليين ، وان كل الطرق هذه كانت تحوى بالتأكيد أسرارا خاصة .. وعندما يعلم ماهر من « الغريب » ذات يوم أن مندوبا سوف يصل من

المانيا يحمل اليهم أموالا ، فلقد كان من الواجب أن يحتفيا بهذا المندوب ، خاصة اذا ما تصادف وكان المندوب فتاة شقراء زرقاء العينين رائعة الجمال .

كان الاسرائيليون أذكياء ، كانوا يعطونه خمسمائة جنيه كل شهر ، لكنهم كانوا يفتحون أمامه أبواب الانفاق على مصرعيها حتى يظل دائما فى حاجة الى المال واليهم ... ولقد كان شيئا باهرا أن يغازل ماهر فتاة أعمال شديدة الجدية ، شديدة الجمال ، تضع على عينيها نظارة طبية تضفى عليها سحرا آخاذا .. فتاة من ذلك النوع الذى تشعر أمامه خاصة اذا ما كنت شرقيا ومن دولة مهزومة — بالعجز تماما — وباستحالة الوصول اليه .

كم أدارت القبلة الأولى رأسه .

خلف زجاج النظارة الطبية تطلعت اليه عينان شديدة الزرقة ، عميقتان كالمحيط زاخرتان بالأسرار ، تفيضان بالغموض .. تلك الاسرار وذلك الغمـــوض كانت تلهب مشاعر فتانا وتحول ماهر الى عاشق عظيم خلال الأيام التى أنفقتها « مارلين » فى مصر .. حتى اذا سافرت ، أحس صاحبنا بالفراغ يحيط بكل شىء ، فأحس الغريب : ودفع الى طريقه بسيدة أخرى صديقة لزوجته وضعها فى طريق الشاب الملتهب بالحماس ، فنمت بينهما قصة حب .. قصة كانت مدعمة بالصور فى الدوسيه الذى كان ماهر يقلب أوراقه بين يديه .

حتى الآن ، كانت المخابرات الاسرائيلية قد وقعت فى خطأ فادح .

بداية .. لقد كان انتقاء ماهر أو التقاطه شيئا عظيما ، فلقد تمثلت فيه كل مقـــومات الجاسوس العظيم دون شك ، كان لقطة لا تتكرر فى عالم الجاسوسية الا نادرا ..

ولكن .. لو أن الغريب كان « فرازا » متمرسا واعيا ملما بدقائق عمله ، لما نصح بتجنيد ضابط كماهر ، كان قد استطاع رغم كل السخط الذى كان ماهر يبديه ان يعرف سر هذا السخط الذى أصابه .. فلم يكن سخط ماهر منصبا على بلده .. كان السخط منصبا على أسباب نكسة هـــذا البلد .. ولو ان الذى التقى بماهر كان « فرازا » ماهرا ، ولو أن رجال المخـابرات الاسرائيلية الذين وفــدوا على مصر لمقابلة ماهر كانوا متمكنين من عملهم ، لنصحوا ـ بالقطع ـ بالابتعاد عن هذا الضابط الذى كانت مصر بالنسبة له هى أبده وأزله ، هى بدايته ونهايته .. كانت مصر هى عشقه وأمله ، فكيف يخونها ؟

هنا يمكن لأبسط العقــول البشرية ذكاء أن يكتشف الفرق بين المصريين والاسرائيليين واذا لم تكن فى مجــال تفاخر ، الا أن الموضوعية تســتلزم منا دراسة أسلوب مخابرات كل منهما ، لنتعرف على معالم الطريق بلا تحيز .. واذا كان « فراز » الاسرائيليين وضباط اختبارهم قد اخطأوا فى اختيار نوع عميلهم ، الا أن « الفراز » المصرى اكتشف فى نفس الشخص ، ملكات تفــوق بكثير ملكاته كجاسوس فقط .

ففى ذلك الصباح الربيعى ، عرض خالد على ماهر أن يستمر فى اللعبة .. ووافق ماهر دون تردد .

فى ليلة حارة من ليالى شهر اغسطس ، كانت احــدى الطائرات التابعة لشركة « لوفتهانزا » تغادر مطار القاهرة الدولى فى طريقها الى فرانكفورت بألمانيا الغربية .. وعلى الطائرة كانت ثمة سائحة المانية تعود الى وطنها بعــد رحلة سياحية استمرت عشرة أيام قضتها السائحة ما بين

القاهرة والاقصر - فى حر اغسطس - ولم تكن هـذه السائحة تحمل سوى حقيبة صغيرة ذات لون أخضر .. كانت الحقيبة أصـــغر من كل هذا الاهتمام الذى كان يحوطها من بعيد فى سرية وصمت ، اهتمام لم يشعر به أحد على الاطلاق .. غير ان الحقيقة ان الحقيبة الصغيرة كانت تحمل تمثالا فرعونيا صغيرا من تلك التماثيل المقلدة التى يصنعها احفاد الفـــراعنة فى الصعيد .. ولم تكن الالمانية الجميلة ، مهربة آثار لأن التمثال كان بلا قيمة ، فوق أن ثمنه كان لا يتعدى الجنيه الواحد .

غير ان أهمية هذا التمثال كانت تكمن فى التجويف الذى بداخله ، والذى كان يحوى فيلمـــا صورت عليه معلومات عسكرية غاية فى الأهمية ..وكانت هذه المعلومات تبين بوضوح احدى الثغرات فى صفوف الجيش المصرى على الضفة الغربية لقناة السويس .. كانت هذه المعلومات معدة ومصورة بيد ماهر

وطوال الرحلة من القاهرة حتى فرانكفورت كانت هذه الفتاة مبتسمة .. بين الحين والحين كانت تقرأ فى كتاب يحمل عنوان احدى مسرحيات الكاتب الأمريكى « آرثر ميللر » ولقد ذهبت - طوال الرحلة - مرتين الى الحمام، وشربت قهوة سوداء ودخنت تسع عشرة سيجارة ، ولم تأكل شيئا .

وفى مطار فرانكفورت تبادلت مع موظف الجمـــارك كلمات مجاملة خافتة ، ثم حملت حقيبتها الخضراء الثمينة واستقلت احدى ســـيارات الاجرة الى بيتها .. كانت تسكن شقة صغيرة مكونة من غرفة واحدة كبيرة قسمت الى غرفة للنوم واخرى للطعام والمعيشة ، وكانت الشقة فى الدور الحادى عشر من احدى العمارات السكنية فى

المدينة المزدحمة .. ورغم أن الرحلة من القـــاهرة حتى فرانكفورت كانت طويلة ، ورغم أن الفتـــــاة كانت قد غابت عن بيتها عشرة أيام ، الا أنها لم تمكث فيها لأكثر من نصف ساعة غادرت البيت بعــــدها ولم تكن تحمل الحقيبة الخضراء ، كانت تحمل صنـدوقا مغلفا بورق مصرى من ذلك النوع الذى تغلف به الهدايا ، كما أنه كان مزدانا بشريط أحمر من النايلون صنع هو الآخر فى مصر .. غير أن المصادفة الغريبة ، ان الصندوق كان فى حجم التمثال الفرعونى القديم .. وبعد ٧٥ ثانية تماما توقفت سيارة أجرة امام الفتاة فركبت وحملتها السيارة الى فيللا فى احدى الضواحى ..

كانت الفيللا تقبع فوق ربوة منعزلة تحيط بها حديقة صغيرة زرعت بهـــا بعض الورود الثمينة ، التى كان يحرسها ثلاثة من الكلاب الالزاسية المتوحشة .. ولقـد اختفت الفتاة داخل الفيللا وبعد أربع عشرة دقيقة غادر الفيللا رجل خط الشيب شعره ، لكنه كان بادى القوة ، يحمل حقيبة سفر صغيرة ، واستقل الرجل سـيارة مرسيدس كانت تقف أمام الفيللا ، وغادرها فى المطـار دون أن يعنى باغلاقها .. وعندما وقف أمام ضـــابط الجوازات ، اتضح انه يحمل جواز سفر اسرائيليا ، وكان مسافرا فى نفس الليلة على احدى طائرات شركة «العال» المتجهة الى تل أبيب .

ولقد حدث بعد ذلك بيوم أو اثنين ، أن صـدرت أوامر سرية بانسحاب احدى نقط الحراسة على الضـفة الغربية لقنـــاة السويس التى كانت تربط بين موقعين مدججين بالسلاح .. صدر الامر باتمام الانسحاب نهارا وترك ذلك المكان خاليا ..

على الضفة الاخرى من قناة السويس ــ بعد ذلك بعدد لا بأس به من الأيام والليالى المظلمة ــ كانت ثمة حركة غير عادية قد بدات عندما اقتربت الساعة من الحادية عشرة والنصف .. كان من الواضح ان هذه الحركة لاشباح تسللت الى المياه فى هدوء مثير .. وعلى طول الشاطىء ولمسافة معينة ، كانت الاشباح تهبط من الضفة الشرقية الى مياه القناة لتعبرها الى الضفة الغربية ، وتصعد اليها فى نفس المكان الخالى من الحراسة ، صعدت الأشباح الآتية من الضفة الشرقية فى خفة وانتحت ركنا تظلله شجيرات كانت تطرح فى الماضى فاكهة ، وراحوا يستعدون .. حتى اذا اكتمل عددهم وعدتهم ، بدأت حركتهم .. كانوا يبدون وكأنهم يعرفون طريقهم بدقة متناهية .. وما أن قطعوا من الطريق أمتارا .. حتى اهتزت أوراق الشجر لزئير مزق الظلام والصمت معا .. زئير رجال وطلقات مدافع سريعة ونصال مدى قاتلة ... و .. و .. وكانت المعركة رهيبة ، أبيدت فيها الأشباح الآتية من الضفة الشرقية عن آخرها .

فى تلك الليلة .. انتفخت أوداج ماهر زهوا ... كان قد بدأ يذوق طعم الانتصار ..



رغم هذا كانت ثقة الاسرائيليين بماهر قد فاقت كل حد .. كان « الغريب » قد تقهقر الى المركز الثانى ، وتقدم ماهر الى المركز الاول ليدير الشبكة ادارة كاملة .. كان الاسرائيليون قد علموه الارسال اللاسلكى على أحدث الاجهزة التى عرفت حتى هذا الوقت ، وكانوا قد دربوه على الكتابة بالحبر السرى ! ! لكن المصريين عرفوا كيف يستغلون ما علمه الاسرائيليون اياه !! ..

ولقد توالى وصول الرسل من المانيا ـ فبعد مارلين وصلت « أورزولا » أو « أوزل شي » كما وصلت «باربرا» .. و .. ولقد كن فتيات انتقين بعناية فائقة .. كانت لديهن القدرة على ممارسة الحب كأنهن يذبن غراما ، فى نفس الوقت الذى يحسبن فيه كل حركة وكل سكنة وكل نظرة تصدر عن ماهر .. وعلى كل فلم تكن هذه أزمته .. كانت أزمتــه الحقيقية تكمن فى أنه يجب أن يمارس الحب بنفس القدر من الحرارة ولقد كان هذا عسيرا للغـاية ، فـكيف يمارس الانســان الحب وهنـاك عيون ترقبه وهو عار تماما ؟!!

ان أى تغيير فى أسلوبه ، أو سلوكه ، مهما كان ضئيلا، كان كفيلا بأن يحسب عليه وأن يبعث بالشك الى عقول الاسرائيليين .

ولقد كان خالد أستاذا عظيما لهذا الجاسوس المبتدىء .. ورغم انى لم أتلق أية اجابة من ماهر عن سؤالى : ان كان قد زار اسرائيل أم لا ؟ .. الا أنى على يقين من أنه بالفعل قد زار اسرائيل فى تلك الأيام .. واذا كان ماهر قد اكتسب ثقة الاسرائيليين الى حد أنهم اعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا .. الا أنه لم يكتسب الثقة بتلك المعلومات المغلوطة والتى أودت بأرواح الكثيرين من رجالهم .. بل بتخطيط محكم وضعه له « خالد » الذى كان قـــد تحول مع الايام من ضابط مخابرات يوجه واحـــدا من المتعاونين معه فى عملية من أخطر عمليات التجسس الى استاذ وصديق حميم .. كان خالد يمد ماهر فى بعض الاحيان بمعلومات صحيحة تماما عن الجبهة المصرية ، لكنها معلومات لا خطر منها .. ومما لا شك فيه ، أن

الاسرائيليين امتحنوا هذه المعلومات وتأكدوا يوما بعد يوم من صدقها .. وهكذا استحوذ ماهر على تلك الثقة ..

***

ومضت ثمانية أشهر ..

ثمانية أشهر أصبح ماهر فيها واحدا من الجواسيس. الذين تعتمد عليهم اسرائيل فى القاهرة اعتمادا عظيما .. ثمانية اشهر اغرقته فيها مخابرات اسرائيل بالمال والهدايا .. ولقد أنتجت مصانع « رولكس » بسويسرا ساعة خصيصا باسم ماهر ، وجاءته الساعة من سويسرا ومعها « براءة » مطبوعة ومختومة بأرقام سرية تقول ان هذه الساعة صنعت خصيصا للسيد / ماهر .. غير أن الشيء الذى حزن له ماهر حزنا شديدا هو السيارة ..

فذات يوم قرروا اهداءه سيارة جديدة .. زف اليه الغريب الخبر فطار من الفرح .. كان يومها يمتلك سيارة قديمة موديل ١٩٥٨ وها هى فرصة ذهبية لأن يمتلك سيارة حديثة من أفخر الانواع .. غير ان خالد طلب منه أن يرفض ، واحتج ماهر ، لكن خالد كعادته أصر على الرفض .. وبعد أن رفض ماهر بحجة أن الشراء المفاجيء قد يكشفه ويلفت اليه الانظار ، عرف ان خالد حماه من مأزق ، فلقد كان الامر كله فخا نصبته له مخابرات اسرائيل لتمتحن ولاءه .. فان الجاسوس الذى لا يأبه بمثل هذه الاشياء ، لابد وأن يكون هناك ما يحميه .. ومن يحمى جاسوسا سوى جهاز آخر للمخابرات ؟ ..

سألنى ماهر عبد الحميد ذات لقاء : هل تعرف ان المخابرات المصرية هى أقدم جهاز للمخابرات فى العالم ؟

وكان جوابى الصمت .

واستمر ماهر فى فذلكة تاريخية يوضح الأمر :

فى جميع مدارس المخابرات فى العالم ، أيا كانت هذه المدارس ، أول ما يتعلمه الطالب هو : أن أقدم وثيقة مخابرات عرفت حتى الآن ، هى الوثيقة التى قدمتها « ادارة المخابرات المصرية » للفرعون « مفتاح » ـ ١٤ قرنا قبل الميلاد ـ تحدد له طرق الاقتراب من مدينة « يما » التى كانت تقع جنوب « مجدو » بستة عشر كيلو مترا .. وتنصح المخابرات المصرية فرعون بأن يسلك الطريق الاوسط .

واذا كانت المخابرات عملية خبرة فى الاساس تتضاعف مع الممارسة يوما بعد يوم .. فان خبرتنا نحن المصريين تفوق اية خبرة أخرى فوق ظهر الكرة الارضية .

بمعنى : اننا يوم ان خدعنا العالم أجمع يوم ٦ أكتوبر، وان أى انسان على وجه الارض لم يكن يعرف ساعة الصفر بأى معنى من المعانى سوى هؤلاء الذين كان عليهم أن يعطوا اشارة البدء .. مرده الى أننا أقدم ناس فى هذه اللعبة .



ذات يوم طلبت المخابرات الاسرائيلية من ماهر أن يسافر الى أسرائيل .

كان ماهر قد سافر بالفعل قبل ذلك .. هذا ما يؤكده لى حديثه المتناثر عن اسرائيل وعن تكوين جهاز مخابراتها ، وعن التركيب الهش لمجتمعها .. وقد يكون هذا كله نتيجة لدراسته التى انكب عليها فى شغف ونشاط عظيم فيما بعد بالادارة «٤٤» التى تخصصت لفترة فى الحرب النفسية ضد العدو .. ولكن هل يتأتى أن تأتى صوره التى كتبها عن تل أبيب والقدس فى كتابه « المفاجأة » تلك الصورة التى تنقل الى القارىء الوان الشوارع والبيوت والمتاجر والمحلات بل ورائحة المصانع

والبارات هل تتأتى مثل هذه الصور لكاتب دون أن يراها ويعايشها خاصة اذا ما كانت لدولة معـــادية يبدو من المستحيل للمواطن العادى أن يزورها ؟ .. وعلى كل فان طلب المخابرات الاسرائيلية فى ذلك الوقت ، كان يحمل نذيرا غامضا .

كانت الفخاخ التى تنصبها المخابرات المصرية عن طريق المعلومات التى كان ماهر يمدهم بها قد تتالت ، وكان أبسط ما يمكن أن يقال : ان ماهر فى رحلته هذه الى اسرائيل سوف يوضـع تحت اختبارات رهيبة ومضنية لمعرفة ما اذا كان على علاقة بالمخابرات المصرية أم لا .

وسأله خالد كعادته : انت رأيك ايه ؟ .. ورد ماهر : أسافر ! .. فابتسم خالد .

ابتسم تلك الابتسامة التى كان ماهر قد بدأ يعرف عن يقين ، انها تحمل وراءها أنباء غير عادية .. وعندما ناقش خالد معه كل الاحتمالات الممكنة وراء طلبه للسفر ، كان ماهر يبدى حماســا اذكته فى نفسه تلك الانتصـــارات المتتالية فى السفر ــ وفى دخول تلك الاختبارات ــ مهما كانت قسوتها .. ولقد كان واثقا من الانتصار ..

ومضى ماهر دون أن يأخذ ردا من خالد .

وفى اليوم التالى كان عليه أن ينتظر مكالمة تليفونية فى الثانية عشرة ظهرا فى مكان ما بالقاهرة .

أغلب الظن أن هذا المكان مقهى بلدى فى وسط البلد ــ كان ماهر يلتقى فيه مع بعض زملاء الدراسة ، وكانوا يلعبون الطاولة وأغلب الظن أيضا أن ماهر كان زبونا فى هذا المقهى من أيام الثانوى .

زعق الجرسون باسم ماهر فنهض ليضع السماعة على اذنه ، وجاء صوت خالد :

« العربية راحب للميكانيكى » .

وساد الصمت ..

يقينى أن أبسط ما شعر به ماهر هو خيبة الامل .. كان معنى تلك الجملة التى يطلقون على مثلهـــا فى عالم المخابرات اسم « الكود » ان العملية انتهت .

وعاد صوت خالد فى التليفون : « سامعنى » ؟ ..

« أيوه » ..

قالها ماهر فى أسى ، وظل ممسكا بالسماعة كانه ينتظر شيئا ، غير أنه لم يسمع سوى تحية مقتضبة رد بمثلها ، ثم وضعت السماعة على الطرف الآخر .

***

فى الساعة الثالثة من بعـــد ظهر ذلك اليوم ، ألقت النيابة القبض على « الغريب » .

وفى منزله ضبطت كل الأدلة المادية ، الكاميرا وجهـاز الارسال وأدوات الكتابة بالحبر السرى .. وكانت المفاجأة التى اذهلت الغـريب ، أنهم كانوا لا يفتشون البيت بل يتجهون مباشرة الى حيث ضبطت الاجهزة ، ويخرجونها فى صمت وأدب .

جازيـــه المصريـة

عزيزتى ..

أكتب اليك هذا الخطاب لأرد على سؤال لك عن معنى « البطولة » ... ولست أدرى فى الحقيقة كيف يمكن ان أعرف البطولة ، فمسألة التعريف هذه مسألة تحتمل الكثير من المناقشات ، غير انى ــ مثلا ــ لا أعتبر « محمد على كلاى » بطلا كما يطلق عليه الناس ، وليس هذا من نوع « خالف تعرف » كما قد يتبادر الى لسانك السليط الذى تعودت دائما أن تهاجمينى به فى مناقشتنا الصاخبة .. ولكنه نوع من الاقتناع بأن هذا الشاب القوى العضلات الذى خلق هكذا مفتول الجسد والقوام ، والذى «تدرب» على لكم الذين ينازلونه والانتصار عليهم ، لا يمكن أن يكون بطلا لأنه أدى عمله على الوجه الاكمل .. أما البطولة بمعناها الحقيقى ، فلقـــــد عثرت عليها وأنا أجلس الى صديقى ضابط المخابرات المصرى ، عثرت عليها فى قصة « جازية المصرية » .

ولست فى حاجة طبعا لأن اذكرك دائما بأن الاسماء التى نوردها فى مثل هذه القصص أسماء وهمية ، فالابطال الحقيقيون لا يعنيهم ان تسلط عليهم الاضـواء ، ولا أن يصفق لهم الناس .

***

ولقد وقعت قصة جازية فى سنة من تلك السنوات التى

أعقبت نكسة يونيو ١٩٦٧ فى تلك الايام التى اختلط فيها كل شيء بكل شيء ، تلك الايام التى فقدنا فيها الاتزان كما فقدنا فيها الكثير من مقومات حياتنا .. تلك الايام التى انفتح فيهـــا الباب لشراء السيارات من الخارج والعودة بها ، فراجت تجارة السيارات ، كما راج السفر الى الخارج في جحافل لم تكن تدرى الى أين هى ذاهبة ، وفى وسط القـــاهرة وفى أحد شوارعها ، كانت جازية تسعى بحثا عن عمل .

وككل فتاة تبدأ حياتهـــا ... تمنت جازية أن تعمل صحفية .

وبالفعل استطاعت أن تخطو تلك الخطوة الأولى التى خطـــوناها جميعا فى ذلك العالم المفعم برائحة الحبر والورق ، والتحقت باحدى دور الصحف كمحررة بالقطعة .. والمحرر بالقطعة هذا ــ ان لم تعلمى ــ هو صحفى غير معتمد ، يعتمد أساسا على نشاطه فى كتابة الموضوعات، وفى جمع الاخبار ، على أن يتقاضى على ماينشر له منهـــا أجرا زهيدا .

ولست أدرى ما الذى حال بين جازية وبين التعيين ، ذلك أنها كانت من ذلك النوع من الفتيات اللاتى لا يأبه بشيء ، ولا يقيم وزنا الا لما فى رأسه من أهداف .. لم تشعر جازية فى الدار الصحفية بأن عليها أن تمشى جنب الحيط .. بل راحت تعمل فى المجلات حينا ، وفى الاعلانات حينا آخر ، كانت تنطلق كصاروخ لا يعرف هدفه ، وقد كنا كلنا كذلك فى مثل الفترة التى كانت تمر بها ، وكان هذا بالذات ، باعثا عن اثارة الأقاويل حولها ووجدت شخصيتها عند أصحاب الالسنة السليطة ، وعند أحزاب النميمة . المعتمدة الـكثير مما يمكن ان ينسج حولها .

هكذا وجدت « جازية المصرية » نفسها ، تتخبط بحثا

عن لقمة عيش كريمة تجعل منها عضوا صالحا فى المجتمع ، لكنها ـ بكل أسف ـ ورغم كل المجهود الذى بذلته فى كل اتجاه ، لم تعين .. وظلت محررة بالقطعة تعتمد على قدميها فى مسح شوارع القاهرة بحثا عن خبر او اعلان .

***

فى أحيان كثيرة تكون بذرة البطولة كالقلب ، كامنة فى صدر الانسان ، تمده بالحياة دون أن يشعر بها ، وكم كنت اتمنى أن ألتقى بجازية ، وحتى عنـــدما عرض على صديقى ضابط المخابرات المصرى أن ألتقى بها .. رفضت بعد تفكير ، فان الابطال الحقيقيين كالفنانين .. اننا نضع حول الفنان هالة من الضـــوء يصنعها فى وجداننا فنه ، ويظل الفنان تمثالا من الجمال حتى نلتقى به .. فاذا التمثال يتحطم ، واذا الفنان انسان له من النقائص أكثر مما للآخرين ربما .. ولقد خفت أن ألتقى « بجازية » حتى لا يتحطم التمثال ، فان ما صنعته تلك الفتـــــاة المصرية ، ببساطة ودون طبول تدق، أكبر من أن يصبح خلقا ثابتا أو ضوءا يشع من حول رأسها .

كانت جازية قد استطاعت خلال الشهور الاخيرة من ذلك العام أن تحقق من الاعلانات التى جلبتها الى الدار، بضع مئات من الجنيهات ، ومع جحافل الزاحفين الى أوربا ، ومع طابور السيارات المستعملة الذى ملأ أرصفة موانىء ايطاليا واليونان ولبنان وفرنسا والمانيا ، قررت « جازية » أن تبحث لنفســـــها عن مورد رزق ، عن سيارة ..

والله وحده يعلم ما الذى كان يدور فى راسها ، هل كانت تنوى شراء السيارة لكى تعفيها من اللف والدوران فى شوارع القاهرة جريا وراء خبر او اعلان ، أم كانت تنوى أن تصنع من السيارة « تاكسيا » تربح منه كل

شهر بضعة عشرات من الجنيهات تعينها على الحياة .
على كل فان النـــاس فى تلك الايام كانوا يشترون السيارة أولا .. ولقد سمعت « جازية » عن « صادق » وقال لها الناس انه ساعد الكثيرين فى شراء سيارات ، وكانت سعيدة الحظ أن عثرت على قريب للسيد« صادق» قادها اليه .
كان صادق هذا ، مثله مثل الكثيرين ممن ينبتون فى المجتمع ، فى كل مجتمع وأى مجتمع « جوكر » كان رجلا « بتاع كله » .
كان موظفا وتاجرا وسمسارا .. و ..
كان « صادق » فى الشهور الاخيرة ، قد عرف طريقه الى الخارج ، وفى الخارج عرف كيف يلتقط لقمةالعيش، ولكن من أين .. هذا ما لم يكن يعلمه أحد ، وهذا ما لم تكن تعلمه جازية .
ودون اثارة .. أو محاولة للاثارة ، كان « صادق » فى حقيقته « جاسوسا » .
لا تفزعى يا صـــديقتى فان الجواسيس لا تنبت فى أفواههم أنياب ، ولكن نكون قوما متحضرين علينا أن نعيد النظر الى الصور التى نصنعها لبعض الناس فى أذهاننا .. واذا كان العصر الذى نحن مقبلون عليه ، هو عصر الكومبيوتر ، فان التعقيد سيصبح ـ دون شك ـ هو السمة الواضحة فى حيـــاة البشر ، وكان الله فى عون الأجيال القادمة .
لا تفزعى إذن ، فان الجـــاسوس عادة انســان ناعم الملمس ، رقيق الحاشية ، تحتم عليه وظيفته أن يعرف كيف يعامل الناس ، كيف يسيطر عليهم ، وكيف يكتسب ثقتهم .. وهكذا التقت جازية بصـــادق ، قدمت له نفسها : انها صحفية ، وهي تريد أن تشترى سيارة ..

وإذا كانت مهنة الجاسوس ، هي مهنة البحث عن الاخبار ، فهل هناك صيد أكبر من صحفية مهنتها هي أيضا البحث عن الاخبار .

هنا تبدأ اللعبة .. وهنا خطت « جازية » خطوتها الأولى نحو المجهول .

***

بعد شهر بالضبط من تلك الليلة التى التقطت فيها « جازية » بصادق فى القاهرة ..

كانت تهبط من الطائرة فى مطار روما .. وكان صادق بجوارها يحنو عليها ويساعدها ، كان خلال المرات التى التقى فيها بجازية في القاهرة ، قد ألقى بضعة أسئلة ، أسئلة شديدة البراءة فى مظهرها .. أسئلة تدور حول عملها ورؤسائها ، حول علاقاتها والمسئولين الذين تعرفهم ، ونحن شعب يحب الدردشة .. وفينا ــ كما فى كل بلاد العالم ــ من يحب أن يظهر كعالم ببواطن الأمور .

وإذا كانت تلك النكسة قد أطلقت الالسنة من عقالها فى تلك الايام ، فلقد كان الحديث فى الطائرة بين صادق وجازية يمتد الى كل اتجاه ، عن النكسة ، عن الجيش ، عن اسرائيل ، عن ...

لا ...

لنتوقف قليلا عند « اسرائيل » .. ولنلق نظرة الى الخلف ، لنرى الصورة على حقيقتها .

لنتوقف قليلا لـكى نرى كيف كنا « نرى » اسرائيل فى تلك الايام ...

لنتوقف قليلا لنتذكر كيف كنا ننظر الى أنفسنا .

فئة قليلة جدا فى مصر ، كانت تعلم طبيعة اسرائيل على حقيقتها ، كانت تعرف حقيقة تكوين المجتمع الاسرائيلى ، والجيش الاسرائيلى ، والفرد الاسرائيلى

... كانت تعلم حقيقة انتصار اسرائيل الذى اهتز له العالم ، وطنطنت له الدنيا ، وهلل له الشامتون والحاقدون والموتورون .. أو .. ولا داعى للاسترسال فلقد كان المصريون فى تلك الايام يشعرون بعجز لم يشعر به شعب عانى من الهزيمة .

فى الطائرة ، كما كان الامر فى القاهرة لم يكن الحديث بين « صادق » وبين « جازية » قد أخذ مسارا واضحا ، كل ما فى الامر ، أن الطعم كان يلقى أثناء الحديث ، وبذكاء المدرب ليصيب نقطة الضعف المتقيحة فى صدور المصريين فى تلك الايام ، ليصيب فى نفس جازية موطن الهزيمة .

فى روما .. أسلمت جازية قيادها بالكامل الى « صادق » .

كان وهو فى القاهرة .. قد تعهد بأن يتعهد بكل شيء .

وكانت وهى فى القاهرة .. قد أعطته كل مالها ، كل ما تملك .

ووجدت جازية نفسها فى أحد فنادق « روما » الفاخرة .. قادها « صادق » عبر هول الفندق فى مصعد يعمل به فتى فى جمال الملائكة ، صعد بها الى طابق يصبح وقع الخطوات أرضه همسا ، وقف بها الى غرفة تحول أحلام من كان مثلها . أو مثلى ومثلك الى حلم سينمائى ملون .. ثم تركها ومضى على موعد . بالله !

كيف يمكن ان تشعر فتاة مثل « جازية » فى ليلة كتلك الليلة الاولى التى قضتها فى روما .

تركها « صادق » ومضى لعمله فى روما .. تركها على موعد ووجدت نفسها ترفل فى غرفة حريرية فى فندق

عالمي .. اغتسلت وبدلت ملابسها وغادرت غرفتها وهبطت الى الفندق وترددت ثم حسمت أمرها وانطلقت الى شوارع روما البهيجة .

لعلك الان ياصديقتي تتعجلين الامر ، لكني فقط أريد ان أصل بك الى هذا الاحساس الذى يصيب الانسان — خاصة من كان من دولة تفعل المستحيل لكي تنمو — وهو يرى البذخ من حوله يبهر البصر ، واذا كان لكل شعب من شعوب الارض مميزاته فان ما يتميز به الشعب الايطالى هو انه يتقن فن الحياة.. فن تنسيقها وممارستها معا والذى لا شك فيه ان « جازية » قد انبهرت بما رأت ، وان رأسها قد ازداد دواره وعيناها تضيعان بين الاضواء التى تخطف البصر، ومظاهر البذخ البادية ، ثم ... ثم تلك السيارات التى كانت تنزلق فى الشوارع بلا ضوضاء ، وتلك الاجساد الفارهة المكسوة بآخر صيحات الموضة .. و .. وعادت جازية الى الفندق .. وقضت ليلة هدهدتها فيها الاحلام .

سؤال واحد كان يلح عليها : هذه دولة هزمت ، فمتى تقف مصر — مثلها — على قدميها ، ومتى ، ومتى تصبح الحياة فيها مثل الحياة هنا ؟

***

فى اليوم التالى جاءها « صادق » كملاك رحمة يهبط من السماء ليقودها الى الجنة .. جاء ليقودها الى حيث اشترت سيارة فارهة ، سيارة .. سيارة نظيفة ، لامعة ، جميلة ذات جسد براق ومقاعد وثيرة ، سيارة قادتها « جازية » فى شوارع روما ، فلقد كانت تعرف كيف تقود سيارة ، كواحدة من آلهة الاغريق القدامى .. وأمام الفندق توقفت وهبطت ،

وهرول الحارس ليفتح لها البـاب ، ونفذت الى الهول خلفهـا « صـادق » .. و .. وهل تستطيعين أن تتخيلى هـذا المشهد السينمائي الذى يدير الرأس ؟

فى بهو الفنـدق جلست « جازية » بجوار «صادق» وراحا يتجاذبان أطراف الحديث .. من وسـط سحابات الحلم الجميل كان ثمة سؤال يتأرجح فى رأس جازية ويكاد يبـدد الحلم الجميل .. لقـد ابتلع ثمن السيارة كل ما جاءت به من القـاهرة ، كل ما أعطتـه لصادق ، فمن أين تدفع أجر الفندق ، من أين تأكل، من أين تأتى بثمن تذكرة العودة ، من أين تدفع ثمن شحن السيارة .. بل هل ان للحلم الجميل أن ينتهى ، وبمثل هـذه السرعة ، هل تعود الى القاهرة قبل أن تستنشق هواء روما المفعم بالبذخ !

غير ان حديث « صادق » كان يأخذها بعيدا بعيدا ، كان حديثا مطمئنا ، كان دردشـة حول مصر ، حول المـال ، حول الاعمـال ، حول الفن ، حتى اذا حان موعد الطعام اصطحبها فى سيـارتها الى أحد المطـاعم الفـاخرة ، مرة أخرى تنزلق كالحلم فى شوارع روما حيث المرور منتظم ، حيث كل شيء يجرى بدقة ، أمام المطعم توقفت ، هرول الحارس ليفتح لهـا البـاب ، دلفت الى المطعم لتحتويها الموسـيقى التى تنبعث من الهواء ، من كل ذرة فضـاء ، من داخلها ، من حديث صـادق السلس الرقيق ، من صـوته الواثق الهادىء .. واذا كان صـادق يعرف كل شيء ، فلا بد أنه يعرف انها ــ الان ــ مفلسة ولا بد انه سـوف يتدبر الامر ، ولسوف ترد له الجميل فى القاهرة ممتنة .

ومن كان مثل « صـادق » فلا بد ان له أعمـالا فى روما .. عاد بها الى الفندق واسـتأذن منها فى تلك

الليلة ، على موعد فى اليوم التالى .

وتركها صادق واختفى .. لم يختف ليلة ، أو يوما أو يومين ، بل اختفى أسبوعا كاملا ..

***

عزيزتى ...

هل تعرفين كيف يجندون جاسوسا ؟

ان المسألة بعد أن عرفتها ودرستها طوال ما يقرب من عام ، بسيطة كل البساطة .. ليست معقدة أو مركبة .. انهم اذا ما وقع اختيارهم على انسان ما ، بحثوا عن نقطة الضعف فيه ، ثم بدأوا يضغطون عليها ، ثم اذا ما سيطروا عليها تماما ، أصبحوا مسيطرين عليه فيستجيب هذا كل ما فى الامر.. ان استجابة واحدة ، لامر واحد ، تنقل الانسان من عالم الى عالم ، ان خطوة واحدة ، هى بداية طريق طويل نحو الخيانة ، نحو الجحيم .

ولقد تركوا « جازية » أسبوعا كادت فيه تفقد عقلها .. تركوها وسط النعيم بلا مال .. اختفى صادق تماما ، وأصبحت جازية عاجزة عجزا كاملا عن التفكير .. كانت تأكل فى الفندق ، كانت تخرج أحيانا بالسيارة لتهيم بلا قصد ، ثم تركت السيارة بعد أن كاد البنزين يفرغ ، وراحت تركب قدميها من جديد ، تجوب الشوارع بحثا عن مخرج ، حتى اليوم الاول فاعتراها القلق ، أين صادق ؟.. وفى اليوم التالى سألت عاملة التليفون أكثر من عشر مرات ان كان أحد قد سأل عنها .. ولا جواب ، وبدا موقف الاستعلامات يرمقها بنظرة غريبة ، ثم كف الحارس عن الهرولة نحوها وفتح الباب ، ثم أصبح الخدم يتلكأون فى الاجابة على الجرس .. ان النعيم فى حاجة الي المال ،

وكل خطوة فيه تكلف بقشيشا وثمنــا ، وهى أصبحت لا تملك ثمن شىء ، كانت كعارية تسير وسط الغربة بلا ســند .. تحولت الاضــواء الملونة الى الســنة لهب تــكوى عقلها ، من أين تدفع ثمن الفندق ، من أين تضع بنزينا فى السيــارة ، بل .. كيف تترك كل شىء وتعود الى القــاهرة .. لم تــكن « جازية » تعلم ان كل خطوة تخطوها كانت مراقبــة ومحسوبة ، لم تكن تعلم ان هناك عيونا تتبع كل خطوة من خطواتهــا ، وان هنــاك آذانا تسمع كل كلمة وكل نبرة فى صوتها .. حتى اذا بلغ بها اليأس أقصاه ، دق جرس التليفون ذات يوم فى غرفتها ، وعبر الاسلاك جاءها صوت صادق ..

***

انت لا تعرفين .. كما لا يعرف الــكثيرون ، ان لعبة المخابرات فى العالم كله بعيــدة كل البعــد عن العنف.. ان ما نشاهده فى أفلام جيمس بوند ليس حقيقة ، بل خيــال .. ان المخابرات فى العالم أجمع .. لعبة اسمها « الذكاء » .

***

ولقد يسمعون فى ذات يوم ، هؤلاء الرجال القابعون خلف أســوار الصمت فى مبناهم هــذا فى حدائق القبة .. ان احكى لك قصــة ذلك الضــابط المصرى الذى كان يلعب الشطرنج فى القاهرة مع ضابط مخــابرات اسرائيلى فى تل ابيب ، ودون أن يرى أحدهما الآخر ، أو يحدثه ، أو يلتقى به ، أو يعرف أى منهما القطع التى يحركها الآخر .. قد يسمحون لى أن أقص هــذه القصــة التى انتصر فيها ضــابط المخابرات المصرى ، فانتحر خصمه ، أمام رقعة الشطرنج .

وقد كانت جازية فى تلك الليلة التى حدثها فيهــا

صـادق بالتليفون ، قد تحولت ــ علميا وعمليا ــ الى قطعة من العجين الطيع ، كانت قد تحولت الى قطعـة لدنة من الصلصال يستطيع المثال الماهر أن يخلق منها ما يشاء .

حدثها صادق معتذرا .. وصاحت هي فيه :

« أستاذ صـادق .. أنا .. أنا »

وتوقفت .. أنا ماذا ؟.. ما الذى يمكن أن تقوله وهو يعرف كل شيء .. وعبر الاسلاك جاءها الصوت هادئا واثقا مطمئنا .

« آسف قوى يا جازية ، غصب عنى ، أنا بـكره الصبح حاكون عندك » .

بكره الصبح ؟.. وماذا عن الليلة ، ماذا عن الآن ؟ ولانها كانت بلا حول ولا طول ، فلقد شكرته متوسلة، ووضعت السماعة ، ثم انتبهت وكادت تصرخ فزعا .. لقد اصبحت وحيـدة من جديد .. وقفت وسـط الغرفة مبعثرة الخاطر والفـكر ، نظرت الى التليفون الانيق وقد عاد يغرق فى الصمت من جديد ، اختطفت حقيبة يدها وهرولت الى الطريق ، تحولت السيـارة الى قبر لامع ، وشوارع روما الى جحيم لا يطاق .. كيف يمكن أن تمضى الساعات ، ولقد مضت ، مضت بطيئة ثقيلة لـكنها مضت ، مضت ليطلع النهار وليأتى الصبـاح ، ولـكن فى أى سـاعة من الصباح سوف يأتى صادق ، واذا كان الصباح ينتهى رسميا فىالثانية عشرة فلقد اصبحت الساعة الواحدة ولم يأت صادق ، ومضى الظهر والعصر وغربت الشمس وانـكفأت جازية فوق الفراش وانخرطت فى البكاء .

***

جاءها الطرق الخفيف على الباب كحلم ، كانت هى

بين اليقظة والنوم ، كابوس هـذا الذى كان يراودها أم حلم ، صرخات تلك أم ضحكات ، وعاد الطرق الخافت من جديد .. فاستبانت الامر .·. نهضت مضعضعة الحواس وانتبهت أكثر .. وعاد الطرق فهمست :

ــ مين ؟..

ــ أنا صادق ..

قفزت كالمجنونة لتفتح الباب .. وكان صـــادق يقف أمامها باسما .

***

هل تشعرين بما كانت تشعر به ؟.. هل تدركين كيف كانت جازية فى ذلك الوقت ؟

اشك كثيرا فمهما بلغ بنا الاحساس ، فلا يمكن لأى منا أن يشعر بالنــار كالمـكتوى بها فعلا .. واذا كانت جازية قد أصبحت الآن « جاهزة » تماما .. فان المثال الجيد ، يعرف كيف يغسل طينتــه ، وكيف يجعلهـا اكثر طواعية .. وهكذا وجدت جازية نفسها تجلس فى مطعم فاخر من مطاعم روما ، الذين يدفعون فى وجبة الطعام ما يقبضه اى منا فى شهر كامل ، حيث الطعام له رائحة المسك ، حيث النـاس يأكلون بلا صـوت ، ويمضغون دون أن يحركوا شـفاههم .. ولم تستطع جازية أن تأكل ، كل ما استطاعته أن تتشبث بصادق، تمسك رموشها بيـديه حتى لا يغيب مرة أخرى .. غير ان الدقائق كانت تمضى ، ليشكل المثال تمثاله على مهل وفى هدوء .. كانت الطمأنينة تعود الى نفسها .

كان صـــادق يتحدث عن المـال ، كيف جاء الى ايطاليا ، كيف وجـد عمـلا فى شركتين بدلا من شركة واحدة .. كيف .. كيف ؟

غير انه لم يقل لها الحقيقة بطبيعة الحال .. كانت جازية تعلم أنه زوج لاحدى المعارف فى الدقى .. ولم تكن تعلم ان لصادق زوجة أخرى فى الاسكندرية ، لم تكن تعرف ان تجارته أفلست هناك فنزح الى ايطاليا ليعمل فى تهريب البضائع الى مصر ، لم تكن جازية تعلم كيف مر « صادق » بنفس التجربة التى مرت بها ، لم تكن تعرف انه كان ضابطا فى المخابرات الاسرائيلية ! !

بعد هذا كان لابد وأن تسير الامور على ما يرام ..

واذا كان « صادق » قد اختار ركنا فى المطعم قريبا من جهاز التكييف ، فلقد ادهشه أن نهض الرجل الجالس على المائدة المجاورة ليغلق الجهاز ،. ونهض « صادق » ففتح الجهاز ، ولم تنطق جازية فلم تكن تعرف الايطالية ، فلقد دار الحديث بين الرجل وبين « صادق » ترجمه لها صادق ، وكان مناقشة حول جهاز التكييف .، مناقشة انتهت بتعارف ، ذلك ان الناس هنا على طبيعتهم ، مش معقدين زينا .. هكذا. قال لها صادق ورجل الاعمال ينتقل الى مائدتهما .. ليدور الحديث بين الجميع بالانجليزية ..

. وكانت هذه هى البداية ..

. فلقد قدم رجل الاعمال لها نفسه ، وما ان عرف ان « جازية » صحفية مصرية ، حتى تهلل وجهه ، انه كرجل أعمال يريد أن يفتح لشركته فرعا فى مصر .. وامتد الحديث حول مصر ، حول الحرب ، حول الحالة الاقتصادية ، حول .. حول .. حول .. ولا شىء فى الدنيا يعادل الحديث عن مصر فى لذته ، وانت بعيدة عن مصر .. نهض صادق الى التليفون أثناء الحديث مرات وعاد ، وامتد الحديث بين رجل الاعمال وبين

جازية ، واذا به يعرض عليها ان تـكون مندوبة الشركة فى مصر .

هكذا وجدت جازية نفسها امام طاقة فتحت لها فى السماء .

واذا كان الحديث حول المـال والاعمال يتم فىجلسة فلقـد دعاهما رجل الاعمـال الايطالى الى الغـداء فى اليوم التالى .

وفى اليوم التالى كانت « جازية » تدلف الى المطعم الفاخر وحدها ، كان « صادق » قد أمدها ببعض المال .. وكان قد وعد بالحضور ، لـكنها لم تجده هناك.. بل وجدت رجل الاعمـال الرقيق الحازم .. ان رأس المـال لا يتحـرك الا اذا اطمئن الى الارض التى سـوف يخطو عليها .. ان مشروعه فى مصر قد يتكلف عشرة ملايين دولار ، ولسوف تكون لجازية بطبيعة الحال ـ نسبة مئوية ـ كما سيكون لها مرتب ثابت .. كان الامر يجرى بين يديها بالارقام والاوراق .. وليست المشاريع كلاما يطلق فى الهواء ، بل خرائط وموصفات كانت تفرد امام عينيها ، واقع تلمسه بيـدها .. اسـتغرقها الحديث وسـال لعابها .. ان تـكون فى حاجة بعد الآن للجرى وراء خبر أو اعلان .. شىء واحـد فقط كان يقلقها .. ان صادق لم يأت .. واذا كان رجل الاعمال لايهتم بحضوره ، فسبب ذلك ان العرض قدم اليهـا لا اليه ، وعندما استدعاها الجرسون الى التليفون ، كان صـادق على الطرف الآخر يعتـذر ، ان لديه أعمالا لا بد وأن ينتهى منها ، ولسوف يلتقى بها فى المساء .

وفى المساء كانت تقص على « صادق » ما حدث ، وكان صـادق يبـدو مندهشا ، سعيـدا ، وكان يشجعها على القبول .. فهكذا بدأ حيـاته فى ايطاليا..

وكانت المفاجأة ان صادق أخبرها بأن السيارة سوف تشحن فى الغد الى مصر ، وأن حساب الفندق قد دفع .. ولقد حاولت جازية ان تسأله عن الحساب ، غير انه رفض بكرم حاتمى ، وأجل الامر برمته الى حين العودة الى القاهرة ..

انفرجت الازمة ، وعادت « جازية » تتنسم عبير الحياة فى روما .. وتعددت لقاءاتها مع رجل الاعمال.. ووضع المشروع أمامها بكل دقائقه .. غير ان شيئا واحداً كان ينقص الامر كله حتى يبدأ التنفيذ .. هو: ما هى الحالة الاقتصادية فى مصر ؟.. وهل تسمح هذه الحالة ببداية مشروع كهذا ؟.. وماذا عن الحرب ؟.. وهل يستعد المصريون لها أم ان الامور قد استقرت ؟..

كانت البداية طبيعية .. ولكن نهايته .. جعلت « الفار يلعب فى عب جازية » ..

***

قال لى صديقى ضابط المخابرات المصرى :

« نحن لسنا آلهة نعلم الغيب ، ان عملنا هو حماية مصر ، عملنا هو اكتشاف الجواسيس وبقدر ما نبذل من جهد ، بقدر ما ننجح ! .. »

هكذا كان يبسط الامر وهو يحكى لى حكاية «جازية» .. جازية المصرية ..

واذا كان العلم هو الاساس الصحيح لكل الاشياء فى الدنيا ، فان العلم هو الذى يرسم الطريق أمام هؤلاء الرجال القابعين خلف أسوار الصمت فى كوبرى القبة .

ولقد شعرت « جازية » بشىء غير طبيعى .. كان المطلوب منها فى المرحلة الاولى للمشروع ، أن يظل الامر

سرا لا يعرفه أحد .. ذلك ان رأس المـال يجب أن يتحرك وسط ضمانات اكيدة .. كما كان المطلوب منها أن تستقصي عن بعض الاخبار الاقتصادية .. وهـذا سهل عليها ، فانها ان كانت صحفية ، فان مهنتها هي البحث عن الاخبـار .. أخبـار الاقتصاد المصرى .. وأخبـار الجيش المصرى .. حتى يتسنى للرجـل أن يعرف فى أى أرض سوف يضع ماله ..

وطوال الفترة الباقية فى روما ، اختفى « صادق » !

وفى علم المخابرات ، يسمى من يعمـل ذلك العمـل الذى يقوم به « صادق » « الفراز » .. ويصبح على الفراز اذا ما اصبحت الفريسـة جاهزة ، أن يختفى تماما من الحلبة ، وأن يبتعد .. ولقد ابتعد صـادق، ولـكنه لم يخلف وراءه ذلك القلق المدمر الذى ترك فيه « جازية » فى المرة الاولى ، ذلك انها الآن ، كانت فى حماية صـاحب العمـل ، الذى اتفق معها على الاجر، وودعها على لقاء فى موعد سوف يحدده لها فى القاهرة

***

عندما هبطت جازية فى مطار القـاهرة الدولى ،كانت تحمل فى حقيبتها بوليصة شحن السـيارة ، وبضـعة عشرات من الدولارات .. وكانت هى تخطو خطوتهـا الاولى خارج المطـار أمام طريقين لا ثالث لهما .. وكان عليها ان تختار .

***

هنا يا عزيزتى .. نصل الى لب الموضوع ..

هنا نصل الى معنى « البطولة » كما أفهمها أنا ..

لم يكن المطلوب من « جازية » فى تلك المرحلة شيئا غير عادى .. كان المعروض عليها عملا مغريا « بمرتب مغر » واحلاما لا يبددها أى مجنون .. أو « بطل » .

واذا كان المشروع سوف يتكلف عشرة ملايين دولار، فان أرباحه سوف تصل الى عشرات الملايين دون شك، واذا كانت الارباح ستصل الى عشرات الملايين ، فأى نسبة هذه التى كانت ستحصل عليها « جازية » ؟..

ولكن ....

كانت ثمة رائحة تفوح من الامر كله ..

لم يكن ما يدور فى ذهن جازية ، شيئا محددا ، لم يكن سوى مجرد هواجس تطوف بالخاطر ، احساس غير طبيعى بأن ثمة شيئا غير عادى فى الامر كله.. فهل تبدد الحلم أم تعود تسعى فى شوارع القاهرة بحثا عن عمل ؟ ..

غير ان الامر لم يأخذ من « جازية » الكثير ..

نظرت ذات صباح الى سيارتها الجديدة ، وكانت قد أصبحت الآن ملكا خالصا لها ، ثم فتحت الباب ، وجلست خلف عجلة القيادة ، وأدارت الموتور ، وانطلقت

كانت تعرف ببساطة وجهتها ..

كانت تعرف أين يقع ذلك المبنى الغارق فى الصمت..

وهناك طلبت أن تقابل مسئولا ..

***

عاد صديقى ضابط المخابرات المصرى يقول :

« نحن لسنا آلهة نعلم الغيب .. ان عملنا هو حماية مصر ، عملنا هو اكتشاف الجواسيس .. وبقدر ما نبذل من جهد ، بقدر ما ننجح ! »

وكانوا قد بذلوا جهدا خلف « صادق » منذ ما يقرب من عام .. ووقع الخبر على جازية وقوع الصاعقة.. ان « صادق » ليس خائنا فحسب .. انه ضابط فى المخابرات الاسرائيلية .. لقد اختار أحد الطريقين يوم أغراه المال عن الوطن ...

وخرجت « جازية » من المبنى لتشارك فى القبض على صــادق ، الذى ضبط متلبســــا كالعادة وحوكم وأعدم .. وعادت « جازية » تطوف شوارع القــاهرة بحثا عن عمل ..

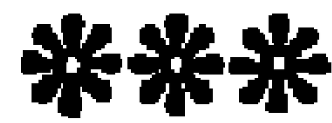
ولقد عثرت جازية على عمــل ، اصبحت صحفيــة بمرتب .. لــكنها باعت السيارة .

القبطان

لم يشعر أحد من المتفرجين الذين ازدحموا فى شرفة ملاعب « الاسكواش راكيت » بهذا الشاب الاصلع الذى راح ينزلق بين الاجساد كى يصل الى المقدمة ويتخذ لنفسه مكانا فوق الملعب مباشرة .. لم تكن أهمية المباراة التى كانت دائرة ان احد اللاعبين هو «سعيد» مدرب الاسكواش فى النادى فقط ، بل لأن اللاعب الآخر كان « عمر حمدى » ، ذلك الشاب الذى تمتزج الرجولة بشبابه امتزاجا يضفى عليه نوعا من السحر كان حديث الفتيات فى النادى ، والذى كان — اذا ما ظهر فجأة بعد اختفاءة من تلك الاختفاءات التى اشتهر بها — يثير فى النادى جوا من المرح والتحدى كان يقلب مباريات الاسكواش رأسا على عقب .

وعندما وصل ذلك الشاب الغامض الذى لم يلفت نظر أحد ، كان واضحا ان « سعيد » متفوق على خصمه ، ولكن ... كان الاكثر وضوحا ، ان عمر كان يستميت دفعا للهزيمة .. كان اللاعبان الآن يقفان عند نقطة تعادلا فيها ، ولقد دقت قلوب الكثيرين انفعالا عندما أحرز « سعيد » هذه النقطة فى لحظة غامضة ، لحظة لمحت فيها عينا عمر شيئا فى الشرفة ، كانت لحظة سريعة خاطفة أحرز فيها سعيد النقطة ، وانتهت المباراة ! !

لم يكن هــذا الشيء الذى حول نظرات عمر عن الكرة السوداء الصغيرة ، سوى وردة بيضاء من نوع القرنفل الذى ينتشر فى مصر فى مثل تلك الايام من الصيف .. وبعد خمس دقائق ، وربما أقل بجزء من الدقيقة ، كان عمر يدلف الى الباستير ـ غرفة خلع الملابس فى النادى ـ وهو يجفف عرقه ويتبـادل النكات والضحكات مع الذين راحوا يلومونه ... وعنــدما توقف عمر أمام دولاب ملابسه ، كان يحمل فى يده مضرب الاسكواش ، وفوطة حمراء اللون ، وكانت يده ـ وهى ترتفع لتفتح الدولاب ـ قد التقطت ورقة صغيرة مطــوية فى حجم ورقة البريد ... ولم يلحظ أحد بطبيعة الحال ، من الذى أعطاه تلك الورقة ، ولم يلحظ أحد انها ظلت بين أصــابعه حتى دلف الى الحمام ، ووقف تحت الدش، ولم يلحظ أحد انه فردها وقرأ ما فيهــا من رموز : ثم ... ثم ذابت الرموز تحت مياه الدش ، كما ذابت الورقة وتفتتت مع الميــاه والصابون وكأنها لم تـكن!!



كانت الساعة تقترب من العاشرة مساء عندما كانت سيارة « عمر حمــدى » الصغيرة تخترق شوارع ذلك الحى الارستقراطى فى القــاهرة ... وكانت المسـافة الباقية محسوبة فى رأســه بدقة ... وقبل أن تدق الساعة العاشرة بدقيقتين فتحت بوابة أحد القصــور الغارقة فى الصمت والضوء الخافت ، ونفذت سيــارة « عمر » الى حديقة القصر وســارت فى أحد الممرات حتى وصلت الى خميلة كانت تخفى ما بداخلها ، هبط « عمر » من السيارة ، وســـار تحت تـكعيبة عنب مورقة ، لـكنه قبــل أن يصــل الى نهايتهــا ، انثنى فجأة الى باب كان يختفى خلف أوراق الشجر ، دلف

من البـاب فاحتواه بهو هائل .. بنظرة سريعة كان قد شمل البهو كله ، وعندما خطا خطوته الاولى ، كان واضحا انه يعرف طريقه جيدا !

سار خطوات ثم نفـــذ الى اليسار ليصعد درجات سلم دون أن يصدر عن قدميه ـ رغم سرعته فى الصعود ـ أى صـوت .. وعند قمة السلم كاد يصـطدم به رجل كان يهرول وكأنه يطارد شـيطانا ، تفـادى عمر الاصـطدام بالرجـل المهرول ثم دلف الى باب جانبى فطالعته فى الداخل « سوزى » .

توقف لثوان، واحتوته عيناها الزرقاوان، وابتسامتها الواسـعة الواثقة ، كان يعرف انه سيراها ، وكان كلما رآها ، أحس بالحنين الى تلك الايام الدافئة على شاطىء « بور توفينو » بالريفييرا الايطالية ، وعندما مال عليها هامسا بالتحية ، جاءه صوت الدكتور وكأنه يصـــدر عن الهواء :

ـ ادخل يا عمر !

نظر فى ساعته وتمتم فى ضيق :

ـ لسه فاضل عشرين ثانية ! ..

وابتسمت ســـوزى وهى تومىء له نحو الباب ، وجاءها صوته قبل ان يغلق الباب خلفه مرة أخرى وهو يقول « مساء الخير يا افندم ! »

***

فى تلك اللحظات بالذات ، كان القبطان « انطونيـو كاناليس » ـ قبطان أعالى البحار ـ يجلس فى أحـد ملاهى مارسليا والى جواره كانت « مارى لويز » .. كان واضحا ان القبطان يشرب فى تلك الليلة بصـورة تزعج مارى الى أقصى حد .. ثمة شىء غامض كان يحيط برجلها العجوز منذ ما يقرب من شهرين دون أن تدرى

ـ بالتحديد ـ ما هو ... كل ما تعرفه ان « ايزاك » جاءها ذات يوم وطلب منها أن تهتم بالقبطان ، ولقد أطاعت الامر كما تعودت ان تطيع منذ ان حدث ماحدث ... لم يكن أمامها مفر ، ان « الانتربول » ـ البوليس الجنائي الدولي ـ يسعى وراءها ، ظلت طريدة لسنوات حتى استقرت أخيرا فى مارسليا ، ولقد طوت الماضى على جرح لم تجف دماؤه ... قائلة هى : « نعم !!... » ومهما كانت دوافع القتل فلقد كان السجن هو مصيرها لو باح أحد بسرها الدفين .. ولقد كان « ايزاك » يعرف هذا السر ، وكان يحميها ، ولم يكن يطلب منها فى مقابل هذه الحماية شيئا سوى خدمات بسيطة.. وفى البداية ، كان أنطونيو واحدا من الرجال ، وفى النادى الليلى لم يكن هناك سوى رجال ، رجال ، رجال ... هذه هى مهنتها اليوم ... لسنوات طويلة عاشت هذه المهنة وتعودت عليها فلا مجال للتفكير فيها الآن وادعاء الشرف أو الرغبة فى حياة مستقرة، لا ... ولكن كان ثمة شيء يقربها من قبطانها هذا العجوز القوى البنية ، الحاد التقاطيع ..

منذ ان التقت به وشعره الرمادى يمس فى قلبها وترا غامضا .

« انطونيو .. ألا تكف عن الشراب ؟ ! »

نظر اليها نظرة جعلتها تتساءل :

ـ ما الذى أراده ايزاك بأنطونيو يوم أن أوصاها به ؟ !

سؤال طالما الح عليها فى المرات التى رأت فيها انطونيو القوى العابث وكأنه يتبعثر ... لكنها لم تجرؤ على توجيه السؤال الى أحد ، ما لها هى وأعمال البحر وعصابات التهريب فيه ، ثم ... هل من الممكن

ان تظن فى انطونيو بكل خبرته رعونة أو تورطا فيما لا يجدى ؟ !

« انطونيو ... دعنا نغادر هذا المكان ! »

وافرغ انطونيو كأسه دفعة واحدة ، وعندما التقت نظراته بنظراتها ، أحست ان ثمة شيئا يخبو فى عينيه ، تلك النظرة العارمة المشتعلة أين ذهبت ؟.. وعندما كانا يغادران النادى الليلى ، كان ثمة سؤال يلح عليها ترى ... هل وقعت فى الحب أخيرا ؟ !

***

ولقد تعود « عمر حمدى » ـ اذا ما أسندوا اليه احدى العمليات أن يلجأ الى الشطرنج .. فى أحيان كثيرة كان يسخر من نفسه ، لكنه كان دائما ما يضع الرقعة أمامه ، ويجلس اليها طويلا ، ربما بالساعات ، لا ينطق حرفا ، ولا يكف عن التدخين !

ولقد كانت عملية اليوم غريبة ...

لقد ثبت ان اسرائيل كانت تحصل طوال الشهور الماضية على معلومات أكيدة عن ميناء الاسكندرية ، ولم يكن غريبا ان تجرى اسرائيل وراء الميناء بالتحديد ، لقد حصلت مصر حديثا على عدد من الغواصات ، وكان المصريون قد عرفوا كيف يقودون هذا السلاح رغم انهم كانوا يمارسون هذا لاول مرة ... كما كانوا قد حصلوا على عدد من القطع البحرية الحديثة التسليح .. واذا كان الاسرائيليون يعرفون قيمة السلاح البحرى المصرى على حقيقتها ، فهم لا ينسون ما فعله هذا السلاح بهم فى حرب ١٩٤٨ عندما داهمتهم السفينة نصر ـ وهى كاسحة الغام صغيرة كانت واحدة من ثلاث قطع هى كل السلاح البحرى المصرى وقتها ـ فى رأس السنة ، كما انهم لم

ينسوا ما فعله قائد السفينة دمياط أثناء العدوان الثلاثى فى سنة ١٩٥٦ ـ وكان كل ما حصل عليه « عمر حمدى » من معلومات ، لا يزيد على احتمالات ، فالميناء مفتوحة للعديد من السفن الاجنبية التجارية التى تدخل وتخرج ، كما ان وجود جاسوس فى الميناء أو فى الاسكندرية عموما ، كان أمرا واردا ..

غير انه فى تلك الليلة ، لم ينم حتى الصباح ، كانت رقعة الشطرنج ، عندما تسلل ضوء النهار من النافذة المفتوحة ، قد تحركت بعض قطعها المضادة .. وأصبح للرقعة الآن معنى ! ..

كان أول ما يشغل بال « عمر حمدى » هو ذلك السؤال الذى ظل يلح عليه منذ أن غادر الدكتور ، ومنذ ان قطع غرفة « سوزى » فى خطوتين دون أن يلقى عليها بالتحية ودون ان يلحظ تلك الابتسامة التى ارتسمت على شفتى الفتاة الشقراء : هل غيرت اسرائيل مركز تجسسها فى أوربا ؟ !

ولقد كان عليه قبل ان يسافر الى الاسكندرية ـ أن يضع عددا من الاحتمالات ، ولقد كان عليه لكي يضع هذه الاحتمالات ، ان يطلع على كل ما ورد من معلومات حول هذا الموضوع ...

وهكذا ... ما ان غربت شمس ذلك اليوم ، حتى كان « عمر حمدى » قد حدد طريقه جيدا ، وعرف أى الطرق يسلك ...

ولذلك : فلقد سلك فى صباح اليوم التالى الطريق الصحراوى الى الاسكندرية !

***

بعد عشرة أيام بالضبط ، كان القبطان « انطونيو كاناليس » يقف فى « الممشى » ناظرا الى الشاطىء

المصرى الذى كان يقترب ، كان الجو ساطعا بشمس الصيف الحارقة ، وكان البحر يبدو أمام عينيه كبحيرة وادعة ... وكان ما يشغل ذهنه شخصان « مارسيل ... وماری لويز »

ها هو - بعد كل هذا العمر - يقع فى الحب ، المشكلة الحقيقية انه يعلم عن يقين ان السنوات الستين التى يوشك ان يكتمل بها عمره ، دخلا فى هذه النار التى التهبت بها عواطفه ... قبل ان يراها كان يحيا مثل النورس ، رحلاته فوق الموج تقوده الى الشاطئ بين الحين والحين يشرب ويأكل ويحتوى بين ذراعيه امرأة يعرف كيف يرضيها ويعرف كيف يجعلها قادرة على ارضائه ... لم يكن غرورا ، بل كانت تجربة عمر حافل ... عمر بدأ يوم غادر لشبونة لاول مرة صبيا فى الثامنة عشرة من العمر ، تطلع الى البحر كما يتطلع الطائر الى السماء ، وهناك ، فى بداية تلك الحياة اكتشف خيانة « كارمن » ، يوم عاد من احدى رحلاته فوجدها قد تزوجت شابا آخر ... ولم يغضبه الامر، لكن أدمى فؤاده، منذ ذلك الزمان البعيد وهو يحيا كبحار ، لم يرسم خطة أو يضع قرارا ، لكنه هكذا كان ، ليس على الارض شاطئ لم يرس عليه ، وليس فوق الخريطة ميناء ليس له فيها امرأة ... حتى التقى بها ، بمارى لويز ، فى تلك الايام التى تتفتت فيها مقاومة الرجل ويبدأ فى الاحساس بنزول الثلج ، ليس مهما لديه انه أحبها فهو قادر تماما على التحكم فى نفسه ، لكن المزعج فى الامر حقا ، هو ذلك الاحساس الطاغى الذى يدفعه الى الاحساس بأنها تحبه ! !

هل هذا ممكن ؟ !

حتى ولو لم يكن ممكنا فلقد حدث.. وهو يستطيع

ان يقسم بالعذراء انها تحبه ، والدليل الدامغ على هذا انها لم تبح له بحبها ... ولقد اصابه هذا بنوع من الهستريا ، كان يشعر برغبة جارفة فى شراء الكرة الارضية ووضعها بين يديها ، ولقد بدا ماله يتبخر... وهذا لم يحدث له ، وعندما كانت سفينته تصل الى مارسيليا ، كانت هى اسبق من السفينة الى رصيف الميناء ... ولقد كان كل شيء يبدو ممتعا حتى دخل حياته جوزيف بائع العطور .

انطلقت صفارة السفينة فصحا انطونيو كاناليس من افكاره ، على مرمى البصر كان لنش الارشاد يتأرجح فوق سطح المياه يحمل اليه صديقه الحميم، « مرسى الشتيوى » ... وأشعل انطونيو «البايب» وارتسمت على شفتيه ابتسامة ، انه يحب مرسى وها هو مرسى يلوح له من بعيد !

***

لم يكن الامر صعبا بالنسبة لعمر حمدى على كل الاحوال ، ورغم انه كان قد مضى عليه فى الاسكندرية ما يقرب من أسبوع أو يزيد قليلا ، الا أن الخيوط كانت تتجمع فى يديه ، ورقعة الشطرنج تتخذ لها ملامح الصراع المحدد .

كان عليه أن يحدد المجموعة التى اختارها للعمل معه ، وكانت مجموعته تتكون من عدد من الشبان الذين يعرفون كيف يستمعون اليه ، والاكثر ، الذين يعرفون كيف يفكرون ... كان اكثر ما يسليه فى الامسيات الحارة ، هو ذلك البطل الجديد للمخابرات ، والذى بدا يغزو أسواق أوربا كان « جيمس بوند » أو « العميل ٧ .. » يلهب أنفاسه رغم ما فيه من « فشر » كان يحبه ، ولو كانت المهنة بهذه اللذة

لتحول النــاس كلهم اليها ... غير انه كان يفرغ من الـكتاب فى ليلة ، وكان هـذا يضايقه ... واذا كان تفريغ المعلومات التى وصلت الى تل أبيب ، ومقـارنتها بيوميات الميناء قد حصر اتجاه تفكيره ، فان الفضـل لا يرجع اليه بقدر ما يرجع الى غباء الاسرائيليين .

أعظم ما فى لاعب الشطرنج انه يستطيع اخفاء هدفه من حركة قطعة ، ان هـذا الاخفاء هو سـلاحه للنصر مهما راوغ الخصـم ، فـكيف يقع هـذا الضـابط الاسرائيلى فى خطأ صغير كالذى أكتشفه عمر ؟ !

بداية ... كانت المعلومات التى وصلت الى اسرائيل عن تحركات بعض قطع الاسطول صحيحة ، كما كانت المعلومات التى حصـلت عليهـا لحركة الميـنـاء أيضـا صحيحة ... ولقد حدثت هـذه التحركات فى فترات زمنية محددة ، فترات بعضها تفصـل بينها أسـابيع فى بعض الاحيـان تصل الى شهرين ، معنى هـذا انه ليس جاسـوسـا مقيما بالاسكندرية ذلك الذى يمد اسرائيل بالمعلومات ، لـكنه جاسـوس زائر ، يأتى فوق احدى السفن ، ويقلع معها ... وفى هـذه الفترات ، كانت هناك سفن بعينها توجد فى الميناء ، سفن أجنبية واخرى مصرية ... بعضـها يكون حاضرا والبعض غائب ، غير أن سفينة واحدة كانت تشترك فى كل هذه الفتـرات ، تلك هى السفينـة التى يقودها القبطـان « انطونيو كاناليس » .

***

راح مرسى الشتيوى ـ المرشـد بميناء الاسكندرية وهـذا هو اسمه الحقيقى! ـ ينظر الى صديقه بامعان، ثمة شىء يتغير فى طباع « انطونيو كاناليس » ، منـذ سنوات طويلة والعلاقة بينهما تتوطد ، ليس حبه لمارى

لويز هو الذى يؤرقه رغم ان انطونيو يؤكد له ذلك ، طالما حدثه انطونيو عن مغامراته مع النساء ، وهو على يقين من انه يحب مارى ولـكن ليس الى هذا الحد..

ولقد كان يجلس بجوار صـديقه فى السيارة وهما متجهان الى الميناء ، كان الليل قد انتصف منذ ساعتين، وكانا قد شربا ما يكفى لتلك الليـلة وما يكفى ليطلق لسان انطونيو من عقاله ، هكذا عرفه طوال السـنوات التى مضت ، ولـكن ها هو القبطـان يجلس صـامتا ساهما لا ينطق .

عند سلم السفينة توقفت السيارة وهبط القبطان مودعا صديقه وصعد الى المشى ، صـــــاح ينادى « روبرتو» طالبا مقعدا ، تمدد فوق المقعد وترك نفسه ليستجم فى ضوء القمر !

بدأ الامر عندما همس جوزيف بائع العطور فى أذنه بأن لديه نوعا من العطور يندر أن يجده الانسان ، لم يكن يملك مالا غير ان جوزيف استطاع ان يقنعه بالدفع فى مرات قادمة ... لا يعرف حتى رأى جوزيف بائع العطور لاول مرة ، غير أن مثله فى كل موانىء الدنيـا ينتشرون فوق ظهور السفن كالفيران فى أعماقها ، مرة بعد مرة ولقد تراكمت عليه الديون ثم ان سعادة «مارى لويز» كانت تفوق لديه كنوز الارض ، ذات مرة انتابته العصبية فراح يهـدد طـاردا جوزيف من فوق ظهر السفينة آمرا البحارة بالا يدعوه يصعد اليها مرة أخرى ... ثم انه فى تلك الايام كان يشـــعر بحب مارى لويز له يزداد ... سألته ذات مرة وهى تحتضن رأســه داخل صدرها العارى :

ــ من أين تأتى بالمـالَ أيها العجوز ؟ !

وغمغم انطونيو وهو يقبلُ ما بين نهديها :

ـ انسيت أيتها الفتاة انى قبطان أعالى البحار !..
ورن صوتها المنبعث من صدرها فى أذنه :
ـ اياك ان ترتكب مخالفات من أجلى !
رفع عينيه اليها فهمست له :
ـ انى أحبك ... وهذا هو الجنون بعينه غير انى أحبك حقا !
وكانت هذه هى المعضلة !

***

توقفت قطع الشطرنج عن الحركة لايام ..

كانت السفينة تحمل اربعين بحارا ، تغير منهم عشرون أثناء الرحلات الاخيرة .. وهكذا بقى أمامه عشرون آخرون ... واذا كانت تصرفات هؤلاء البحارة قد وضعت بكل دقائقها تحت عينه طوال بقائهم فى الإسكندرية ، فانه لم يجد مفرا من السفر ...

كان هذا هو الجنون بعينه غير انه تعود الجنون.

من العشرين كانت الشكوك قد انحصرت فى خمسة ، واذا كان دليل عمر حمدي فى كل ذلك هو احساسه وتجربته ، فان هذه طبيعة رجل المخابرات ، وكثيرا ما دخل فى مناقشات مع زملائه.. واذا كانت المخابرات هى « على الذكاء » واذا كان هذا العلم هو الوحيد الذى لا يدرس فى الكتب بل يعتمد على التجربة ، فطالما أرقه هذا الاحساس الغامر الذى كان ينتابه كلما تولى أمر احدى العمليات .. كان هؤلاء الخمسة هم : كبير المهندسين ذو الجسد العريض واليدين المتسختين دائما ، والذى لا يشرب الا أردأ أنواع الخمور ، وكان هناك « تونى » ضابط اللاسلكى الذى يتقن اثنتى عشرة لغة من بينها العربية بثلاث من لهجاتها اتقانا تاما .. وثلاثة من البحارة بدت تصرفاتهم غريبة ، لكنه اكتشف

انهم يتجرون فى بعض المهربات ، وكان هـذا من الممكن ان يكون ساترا ذكيا لعمليات تجسس نوع خطر !

ولقد طلب « عمر » من مخابرات السلاح البحـرى المصرى ان تقوم قطع الاسطول ببعض التحركات التى اتفق معهم عليها ، كما أوعز الى قيادة الميناء ان تنقل احدى السفن التجارية المصرية من رصيف الى آخر.. وقطع تذكرة على سـفينة القبطان انطونيو الذى بدا له ، مع ما جمع من معلومات عنه ، انه أبعد الجميـع عن الشبهات .. وكان هذا فى حد ذاته ، هو السبب الذى من أجله أراد « عمر » أن يسافر ، وأن يضـع نفسه داخل فم الاسـد ، وأن يعرض العمليـة كلها للضياع .. ان هؤلاء الذين يبدون بلا أخطاء ، هم اكثر الناس دفعا للظنون الى رأسه !

وقبل أن يغادر الميناء كان قد رتب كل شىء .. وكان الرجال يعرفون تماما ، وبدقة متناهية ، ماذا عليهم ان يفعلوا ، وكان هو قد رتب كيف يتصـل بهم اذا أراد ... صعد الى السفينة يرتدى نظارة طبيـة ، وكان شـاربه قد نما ، وكان يرتدى بذلة مضى عليهـا اكثر من عشرة أعوام ، وكان يحمل أسم : الدكتور عبد الواحد اسماعيل ... أما وظيفته فـكانت : أستـاذ التاريخ القديم بكلية الاداب بجامعة القاهرة !

***

وكلما اقتربت السفينة من مارسيليا ، كانت طباع القبطان تزداد حدة.. وفى الـكبائن والعنابر كان البحارة والضباط يتندرون بهذه الحدة ، ولقـد انقسم رأى الرجال فى قبطانهم ، بعضهم يحبذ حبه لمـارى لويز ، وبعضهم يقول ان الحب لم يخلق لمن مثلهم .. وأحيانا كانوا يذكرون هـذا الراكب الغريب الاطوار ، الصامت

دائما المعتكف على تلك الـكتب العتيقة التى كان يدفن نظارته بين سطورها آناء الليل وأطراف النهار ، وكأنه يتغذى على الـكلمات لا الطعام .

ولقد التقى انطونيو ذات صباح بالبروفسور عبـد الواحد ، فاقترب منه وحيـاه ، لكن البروفسور المجنون رد التحية فى جفاء وهرول مبتعدا وكأنه يقطع الحديث..

ولم يكن لمثل هذا الحادث ان يشغل القبطان ، فلقد كان ما يشـــغل ذهنه هو « مارسيل » .. كان عليه أن يعطى الان كلمته !

كان جوزيف قد استطاع الصعود الى ظهر السفينة، لا يدرى كيف فهكذا كانت تصعد الفيران لتصبح فى نهاية الامر حقيقة لا سبيل الى الهرب منها .. وكان قد عرض عليه بدل العطور مالا ، واذا ما قال له انطونيو ذات يوم انه لا يعرف من أين يسدد ما عليه من مال ، جاءه الجواب من جوزيف بسيطا ! !

وبعد ثورته الاولى وغضبه وجد انه لن يقع فى خطأ ، كان كل ما طلب منه أن يرى بعينيه ، وأن يختزن فى راسه ، وأن يدلى بما رأى واختزن فى صـوت خافت ومرتب .. وأن يحصل فى مقابل هذا على مائتى دولار شهريا ..

ولقد قاوم فى البـــــداية غير انه فى أول زيارة له للاسكندرية ، اكتشف انه يراقب وانه يحدد وانه يحصر وانه يختزن ، وعندما عاد الى مارسيليا استفزه جوزيف وابتز منه ما رأى وحصر واختزن ، ثم نقده مالا ومضى

من أفواه الرجـال والحمالين وموظفى الميـنـاء فى الاسكندرية كانت تتناثر المعلومات دون ان يســأل ،

أشياء عادية تحدث فى الميناء ، وفى كل ميناء ، غير انها كانت تجد صدى لدى جوزيف ، لم يكن هناك دليل واحد ضده فهو لم يكتب ورقة ولم يخط كلمة ، غير انه عندما دعي لمقابلة « مارسيل » عرف بما لا يقبل الشك انه كان يتعامل مع المخابرات الاسرائيلية ، عرف انه كان يعـــرف ويخفى عن نفسه ؟ .. كان مارسيل واضحا أشد الوضوح ، انهم يعقدون معه اتفاقا ويرتبون له مرتبا شهريا وينظمون له حيـــاته .. ولقد طلب مهلة للتفكير فوافق مارســيل وابتسم ، وكان انطونيو يعرف طبيعة هذه الابتسامة ، كان يعلم انه لن يتراجع، فلقد تعاون معهم بالفعل مهما أنـكر ذلك على نفسه .

فى مساء اليوم التالى لوصوله مارسيليا كان يقبض بضع مئات من الجنيهات الاسترلينية ، وكان يشرب من الزجاجة الثانية ، وفى عينى « مارى لويز » كانت نظرة مرتاعة ، أما الدكتور عبد الواحد اسماعيل، فكان يجلس الآن فى غرفة مغلقة تطل على الميناء ، وأمامه كانت رقعة الشطرنج ، وكان هو غارق فى التفكير ، يدخن !

فى تلك الليلة كان الرجال الخمسة ، كبير المهندسين وتوني ضابط اللاسلـكي والبحارة الثلاثة ، يخوضون تجربة من ذلك النوع الذى لا يمارسه الانسان.. كانوا يتحركون تحت أعين شـديدة الدقـة تحدد تماما كل حركة ، يأتيها الواحـد منهم . اما القبطـان انطونيو كاتاليس فلقد كان له شأن آخر .. كان يتعارك مع مارى لويز فى بيتها ، كان ثمة قلق يعتريها ، كانت عصبية ، وكانت ســـكرانة ، وكانت تبكى فى تلك الليلة قالت لانطونيو ان « ايزاك» هو الذى دفعها اليه ، وانها خائفة عليه ، فلقد أحبته ، ويوم اقبلت عليه أقبلت كما كانت تقبل على كل رجل تعرفه ، لـكنها أحبتـه .. ولذلك

فهى تحذره .. ان هؤلاء الناس يعيشون حياة بلا قرار

ولقد مضت على تلك الليلة اربعة اشهر وكانت العلاقة بين القبطان « انطونيو كاتاليس » وبين عشيقته «مارى لويز » تزداد سوءا ، وكان « البروفسور عبد الواحد اسماعيل » قد اختفى منذ غادر السفينة ، لكنه كان موجودا فى مارسيليا .. ظل هناك طوال فترة بقاء السفينة فى الميناء وقبل ان تبحر فى رحلة العودة الى الاسكندرية ، غير انه عندما عاد الى مصر كان قد اكتشف شيئا بدا له شديد الاهمية ، فلقد نقلت اسرائيل مركز تجسسها فى أوروبا الى مارسيليا .. وكانت الشبهات كلها الان تحوم حول الرجل الوحيد الذى بدا — من بين جميع أفراد طاقم السفينة — بعيدا عنها ، كانت الاصابع تشير الى القبطان .. غير ان الامر قد حسم ذات مساء فى الاسكندرية ، حسمه المرشد المصرى « مرسى الشتيوى » .

كان « عمر حمدى » على يقين الان من ان انطونيو هو الجاسوس ، وكالعادة ، استطاع رجل المخابرات المصرى ان يتحكم فى المعلومات التى يحملها الجاسوس أو يرسلها ، فما أن تدخل سفينة القبطان الى الاسكندرية حتى تجتاح الميناء حركة تخفى حقيقة ما بها ، غير أن المشكلة التى واجهت « عمر » فى تلك الايام ، كانت « الدليل » فكيف يقبض على « جاسوس » بلا دليل ؟ كيف يثبت ان انطونيو كان يرى ويختزن ثم يقول ؟ !

ولم يكن أمامه سوى الصبر !.. والانتظار !

***

وعندما دق جرس التليفون ذات صباح فى غرفة « عمر حمدى » وكانت المكالمة دعوة الى مقابلة هامة .. كان يتساءل وهو فى الطريق الى ذلك المكان المجهول

هل وقع غريمه فى ذلك الخطأ الذى ظل ينتظره لشهور طويلة ؟ ..

وعندما وجد نفسه أمام المرشـــد المصرى « مرسى الشتيوى » ، لم يكن الامر مفاجأة وان تظاهر بذلك !! صافحه وجلس قبالته وراح يستمع اليه ، وكان على يقين من ان القصة قد شارفت على نهايتها .

***

فى مارسيليا كان الصراع قد احتدم بين انطونيو وبين مارى ، كانت مارى خائفة ترتعد على رجلها الذى كان ينزلق الى طريق غامض ، وكان انطونيو قد وجـد فى مصدر المـال الجديد ، اشباعا لرغبات بدت وكأنها كانت مكبوتة فى اعماقه طوال العمر .. ورغم ما كان بينهما من عراك وشجار ، الا انهما لم يفترقا .. لم تكن مارى تستطيع المجاهرة بما فى نفســـها ، ولم يكن انطونيو يستطيع البوح بما يفعل ، لـكنه ، مع كل يوم ، كان ينزلق اكثر .

جاءه « مارسيل » ـ ضابط المخابرات الاسرائيلى ، وليس هـذا اسمه الحقيقى بكل تأكيد ـ ليطلب منه ان يجند شخصا آخر .. ولم يكن أمام انطونيو سوى صديقه « مرسى الشتيوى » .. وعندما عرض عليه اسم مرسى ووظيفته ، وافق مارســيل دون تردد ، وأعطاه من المال ما كان يرى انه كفيل باغراء المرشـــد المصرى ..

وهكذا فاتح انطونيو صديقه ذات يوم فى الاسكندرية، وبرغم ما اعتمل فى نفس مرسى الشتيوى من صراع ، برغم ما عاناه من قلق ـ فلقد كان يحب انطونيو ـ الا انه تظاهر بالموافقة ..

وكان هذا هو ما قاله مرسى فى ذلك الصبـاح لعمر حمدى ..

وفى بساطة لم يكن مرسى ينتظرها بأى شـكل من الاشكال .. طرح عمر المشكلة برمتها بين يديه .. كان أمام مرسى طريق من اثنين وكان عليه ان يختار .

اما أن يكتفى بالتبليغ ويكون قـد أدى ما عليه من واجب ..

واما ان يستمر فى تنفيذ خطة وضعها عمر للقبض على انطونيو متلبسا .. وكان هذا لمصلحة مصر !..

ووافق مرسى على الاستمرار .. وكانت المعلومات التى يمده بها « عمر حمدى » من الدقة ، بحيث أثارت مخابرات اسرائيل ، وجعلت مارسيل يغدق المـال على انطونيو حتى بلغ اربعة آلاف جنيـه استرلينى ، كما جعلته يطلب المزيد .. كانت المعلومات من الدقة بحيث تحركت قطع الغريم فوق رقعة الشطرنج فى بلاهة جعلت الطريق الى « الملك » مفتوحا تماما ..

وذات يوم من أيام الشتاء .. كان عمر حمدى يقف امام رقعة الشطرنج قبل ان يغادر مكتبه ، عندما حرك الوزير يضع خطوات وهمس : « كش .. مات ! » ..

ثم غادر المـكتب ! !

فى مساء ذلك اليوم ، كان كل شىء معدا ..

دخل القبطان مع مرسى الشتيوى الى أحد المطاعم الشهيرة بالاسكندرية ، كانت المائدة التى اختارها تقع فى ركن منعزل .. طلبا كأسين وراحا يتهامسان.. كان مرسى يشعر بكل ما يدور حوله ، وعندما أخرج التقرير وقدمه الى انطونيو ، كان هـذا يخرج مظروفا متخما بالمـال ليقدمه له .. وفى تلك اللحظـات بالذات ،

والمظروفان يجتازان المسافة الفاصلة بين الصديقين ، جلس « عمر حمدى » بجوار انطونيو وهو يهمس :

ـ مساء الخير ! ..

ولم يقل أحد من الرجال الثلاثة شيئا .. تهاوت يد انطونيو بالمظروف الى المائدة ، وامتقع وجهه.. نظر حوله فرأى رجلين يجلسان على مائدة كانت خالية منذ ثوان ، وارتعد .. فلقد كانت نظراتهما صارمة .. وامتدت يد شاب لتأخذ المظروفين ، وهمس الشاب وهو يجلس بجوار المرشد المصرى مرسى الشتيوى :

ـ كابتن انطونيو .. انا وكيل نيابة الجمرك بالاسكندرية ! ..

وانتهى كل شيء ! ..

***

بعد بضعة أيام كانت شرفة « الاسكواش راكيت » قد ازدحمت بالمتفرجين .. وكانت المباراة فى الملعب محتدمة .. وكان « عمر حمدى » هناك يلاعب سعيد. وكان مصمما على الاخذ بالثأر ! !

الســــــودان

فى أعقاب حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، سرى فى القاهرة ، كما فى جميع البلدان العربية ـ وربما فى العالم كله ـ اعتقاد راسخ بأن المخابرات الاسرائيلية قد استطاعت الوصول الى نخاع الجهاز الحاكم فى مصر .. وانها مخابرات « لا تقهر » ولا سبيل الى التغلب عليها ! !

فى تلك الايام ، لم يفتح أحد من هؤلاء الرجال القابعين خلف أسوار الصمت فى كوبرى القبة فمه بكلمة واحدة .. كانت « الحقائق » التى يملكونها أغرب من الخيال ..

وهذه القصة واحدة من تلك « الحقائق » التى وقعت فيما بين عامى ١٩٥٩ و ١٩٦٣ ، فى القاهرة ، الخرطوم ، اسمره ، بون ، بروكسل ، فرانكفورت ، و .. وتل ابيب .. و ..

وهى قصة ، مجرد قصة من عشرات القصص التى تزخر بها تلك الملفات السرية ، التى اذا ما طلبت أن تنشر ـ كحقائق ـ على الناس ، غمغموا قائلين : الامن .. الامن .. الامن .. ! ! وهذه هى حجتهم الكبرى للصمت العميق ! ..

فى صباح يوم ٦ ديسمبر عام ١٩٦٣ ، كان واضحا أشد الوضوح ، ان ثمة حركة غير عادية كانت تجتاح

« الموســاد » المخابرات العــامة الاسرائيليــة ــ ففى صبيحة ذلك اليوم كان الجميع فى انتظـار برقيــة من القــاهرة .. وكان وصــول البرقيــة يعنى بالنسبــة اليهم الــكثير .. كان يعنى ان الحلقة قد اكتملت ، وان العمــل المضنى والشــاق ، الذى بذلتــه مجموعة من أكفأ ضباط المخابرات الاسرائيلية على مدى اربع سنوات أنفقوا فيهــا ما يقرب من عشرة آلاف جنيه استرلينى سوف يكلل أخيرا بالنجــاح .. ان وصول البرقية كان يعنى ببســاطة ان ثمة قنــاة قد فتحت فيما بين أوربا وافريقيا ، وان المعلومات الهائلة التى تحملها هــــذه القنــاة ســوف تصب بالتأكيد فى تل ابيب .. بعد ان تكون مصر قد وقعت تماما تحت ســيطرة المخابرات الاسرائيلية ! ..

وعنــدما دقت الساعة العاشرة تماما ، فتح جهــاز اللاسلــكى مع القــاهرة ، وســاد الصمت فى غرفة الاستماع التابعة للموســاد ، وانطلق الصفير من الجهاز ــ فى الموعد تماما ــ يحمل الرسالة بالشفرة التى تعودوا عليهــا طوال ما يقرب من أربع ســنوات ... ولم يكن من الصعب حل الشفرة بسرعة ، غير ان الــكلمات التى تراقصت أمام عينى ضابط المخابرات الاسرائيلى، جعلت الامر كله وكأنه نكتة ، أو كارثة .. وطلب الضابط اعادة الارســال مرة أخرى .. وعاد الصفير المتقطع منجديد قويا ، واضحا ، وعادت الرموز ــ هى هى ــ تتراقص أمام عينيه كألسنة لهب ، نفس الرموز، نفس الحروف، نفس الــكلمات .. هل هــذا معقول ؟. هل هو ممكن؟ وللمرة الثالثة طلب ضــابط المخابرات الاسرائيلى من عميله فى القاهرة ان يعيــد ارســال البرقية .. وعاد الصفير من جديد لينفجر فى « الموساد » انفجارا مدويا

.. كانت البرقية تقول :

ــ المخابرات العامة المصرية تبعث اليكم بشكرها على ما لقيته منكم من تعاون ، وما قدمتموه لها من خدمات طوال السنوات الاربع الماضية .. وهى اذ تنهى معكم هذه العملية ، لتنتظركم فى عملية اخرى ! !

***

ما ان انتصف عام ١٩٥٩ ، حتى بات واضحا ان المخابرات الاسرائيلية قد نقلت مركز تجسسها فى افريقيا ، كانت دول افريقيا تستقل الواحدة بعد الاخرى ، وكانت اسرائيل تقفز الى هذه الدول لتدق فى أراضيها أوتادا تساعدها على التغلغل الى صلب البناء الاقتصادى والسياسى لدول القارة البكر الفنية .. واذاكانت المخابرات المصرية فى تلك الايام ، قد استطاعت ان تضع يدها على واحد من اخطر عملاء اسرائيل فى القارة السوداء ، واذا كان هذا العميل يشغل مركزا سياسيا وشعبيا حساسا فى احدى الدول الافريقية .. فلقد كان من الطبيعى ان تتسلل اسرائيل ــ عن طريق هذه الدولة ــ الى السودان ..

وفى الخرطوم ، وبالتحديد فى شارع الجمهورية ،كان هناك محل خردوات صغير ، يملكه يهودى اسمه « ابراهيم منشه » .. وكان لابراهيم منشه هذا بالذات تحركات بدت مريبة وتبعث على الشك ، كان يسافر الى أسمرة ــ التى تقع على نفس خط العرض ، وعلى مسافة بضعة مئات من الكيلومترات من الخرطوم ــ سفرات مريبة ، كما كان يسافر أحيانا الى أوربا .. غير ان سهراته الحمراء التى كان يقيمها فى بيته لاصدقائه من السودانيين ، كانت بلا شك وسيلة فعالة لنشاطه السرى ..

ولقد تعرف ابراهيم منشه فى اغسطس عام ١٩٥٩ على شاب سودانى ولد فى القاهرة ، كان « اسماعيل صبرى عبد الله » من أب سودانى وأم مصرية ، وكان يشغل وظيفة كتابية فى سلاح المهندسين بالجيش السودانى .. وفى بيت ابراهيم منشه بدأت العلاقة تنمو بينه وبين اسماعيل الذى كان يبدى دهشته الشديدة للاسراف الذى كان ابراهيم يغدقه عليه .. ويوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ، بدأت الاحاديث بين الصديقين ، واذاكان مرتب اسماعيل صغيرا ولا يكفى لمجاراة صديقه فى تلك السهرات الحمراء ، فان الصديق يعرض عليه ان يجد له عملا بمرتب قدره ثلاثون جنيها فى الشهر..

وقال اسماعيل : « ابدى على كتفك ! .. »

وفى البداية ، ظن اسماعيل صبرى عبد الله ، ان المسألة كلها لا تتعدى الاشتراك فى بعض عمليات التهريب .. ذلك ان الحديث مع ابراهيم ، وان كان غامضا ، الا انه كان يطوف حول السفر الى القاهرة ، أواسمرة أو أوروبا ... وأبدى اسماعيل موافقته التامة ..كان يعرف طريقه الى سلطات مكافحة التهريب .. غير ان ثمة شيئا غريبا جعله يتوجس ، شىء كالالهام أقرب .. وان كان الامر يتعلق بالتهريب حقا ، فلم اللف والدوران؟ ولم الغموض الذى يلف كل شىء ؟ !

لم يكن اسماعيل صبرى عبد الله يعلم فى تلك الايام ، انه سوف يخوض تجربة العمر كله خلال السنوات القادمة ، لم يكن يعلم انه — بعد أن يوافق — سوف يوضع تحت مجهر الصبر والانتظار لما يقرب من عام كامل كان كفيلا بأن يفتت أقوى الاعصاب ..

ويوم ان قال له « ابراهيم » ان عليه أن يسافر الى القاهرة ليجمع بعض الاخبار والمعلومات ، انكشف

الغموض ، وايقن اسماعيل ان عليه ــ ان وافق ــ ان يصبح جاســوســا ! !

كان الطريق الى سلطات التهريب معروفا .. ولكن. اين هو الطريق الى « رجال المخابرات » ؟ !

عند هــذه النقطة بالذات ، يصبح الامر عسيرا على التفسير .. فهل كان اسماعيل صبرى واحدا من رجال المخابرات العربيــة تسلل الى عرين الاســد بشجاعة ، أم انه استطاع ان يتصــل برجــال المخابرات المصرية واضعا الامر بين أيديهم ؟ !

واذا كانت « المعلومة » التى تقدمها المخابرات العامة المصرية تقول بالحرف الواحد : « ان المسألة لم تحتمل منه أكثر من حديث تليفونى وجد بعده رجل المخابرات المصرية يقف امامه ! » .. الا ان التجربة المريرة التى خاضها هــذا الشــاب السودانى تقول بوضوح : هل من الممكن ان يحتمل اى منا ، مثل هــذه المخاطرة الا اذا كان مدربا تدريبا على أعلى مستوى عرفه هــذا العالم السرى ؟ ! ..

وعلى كل .. فلقد أبدى اسماعيل صبرى عبد الله موافقته الـكاملة لابراهيم منشه.. حتى يوم أن صارحه ابراهيم بأنه سوف يعمل مع المخابرات الاسرائيلية وافق واصبح عضوا فى شبكة تمتد من الخرطوم الى أسمرة الى القاهرة .. وكانت الخطة الموضوعة ، تأمل أن يصل ذراع الاخطبوط الى المانيا ..

ولــكن كل شىء توقف فجأة ..

كانت شبكات التجسس فى القاهرة قد بدأت تسقط بشكل يلفت النظر ، واذا كانت المخابرات المصرية قــد أعلنت عن « بعض » هــذه الشبكات واخفت ضــبط البعض الاخر ، فان المخابرات الاسرائيلية رأت ان تجمد

نشاطها ، وان تقبع ساكتة لفترة حتى يهدأ الجو تماما .. وهو تكتيك معروف فى جميع أجهزة المخابرات فى العالم .. لـكنه تكتيك جعل اسماعيل صبرى ينتظر، ويصبر ، وهو على أتصال دائم بابراهيم منشه ، لعام كامل ..

هنا .. وفى منطقة الانتظار هـذه ، يصبح الامر فى منتهى الخطورة ..

كان على اسماعيل ان يسير فوق شعرة ، لايتكالب ولا ينقطع ، لا يثرثر ولا يبـدى القلق .. كانت فترة الانتظار ، فوق انها كانت سكونا ينطلق بعـده الثعلب الاسرائيلى من جديد ، فلقـد كانت اختبـارا للعميـل الجديد ومدى قدرته على الاحتمال ..

فى يوليو عام ١٩٦٠ استدعت المخابرات الاسرائيليـة ابراهيم منشه الى أسمرة .. المركز الجديد الذى اتخذته المخابرات الاسرائيلية لنشـاطها فى افريقيـا .. وكان التقرير الذى قدمه ابراهيم منشه عن اسماعيل صبرى من الدقة بحيث كلفته بارسـال اسماعيل الى أسمرة فورا ..

***

فيما بعد ، قال اسماعيل صبرى عبد الله ، انه ــ فى خلال السنوات الاربع التى عمل فيها مع المخابرات الاسرائيلية لحساب المخابرات المصرية ــ شعر بالخوف ثلاث مرات ، كانت المرة الاولى فى بنسـيون كاليتيـا بأسمرة ..

كان ابراهيم منشـه قد زود اسماعيل بجواز سفر ، وقدم له تذكرة الطائرة من الخرطوم الى أسـمرة ، ونصحه بالتوجه الى بنسيون كاليتيـا فور نزوله من المطار ... وفى مثل هذه الحالات لا يصبح على الجاسوس

ان يسأل او يستفسر ... ان عليه ان يطيــع فقط ، ولقد أطاع اسماعيل صبرى ... ركب الطــائرة وفى ذهنه جملة ظل ضابط المخابرات المصري يرددها فيأذنه: لا تتصنع ، ولا تدع الشجاعة ، اذا انتــابك الخوف فاترك نفســك له ولا تقلق ... ولقــد ترك اسماعيل صبرى نفسه للخوف بالفعل عندما واجهه «يوسف» ، وهــذا اسم ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى التقى به فى البنسيون ، كانت لحظات غريبــة تلك التي مر بها هذا الشاب السودانى الذى رفض أن يخون ، دق يوسف فى عينى اسماعيل وسأله :

ـ انت مصمم تشتغل معانا ؟ ! ..

ـ ايوه مصمم ! ..

و .. و .. وبدات بعد ذلك سلسلة لا نهاية لها من الاسئلة الاختبــارية ، أحس اسماعيل فى نهايتها انه أصبح منهكا ... وكان آخر ما قاله « يوســف » : مهمتك ستكون فى القاهرة :

ثم تركه ومضى ...

وظل اسماعيل فى غرفته بعد ذلك ـ حسب التعليمات ـ لا يغادرها ، ظل جالسا وحده يضرب اخماســا فى أسداس ، ماذا لو اكتشفوا أمره ، وهل يعقل أن يكون ذكاء المصريين أعلى من هــذا النوع من الذكاء الوحشى الذى واجهه فى عينى يوسف ... ساعة بعد ساعة ... جاء الليــل وانتصف ، وعندما فتح الباب توترت أعصاب اسماعيل ، لــكنه بعد دقائق ، ودون كلمة ، كان يسلك طريقا خفيا ودون أن يراه أحــد من نزلاء البنسيون ، لينتقل فى نفس الليــلة الى فنــدق فيكتوريا بشــارع هيلاسلاسي .. وهناك ، كان عليه أن يظل لخمسة عشر يوما كاملة فى تدريب شــاق ... واذا كان يوسف هو

الذى اصطحبه من بنسيون كاليتيا الى فندق فيكتوريا ، فان ضابطا اسرائيليا آخر كان فى انتظاره هناك ، ضابط اسمه « ليون » ، وكان ليون هو مدربه فى التصوير والتحميض الفوتوغرافى ، كان مدربه فى كتابة الخطابات بالحبر السرى ، وبالشفرة واخفاء الافلام و .. و .. وكان عليه بعد التدريب أن يعود الى الخرطوم لينفذ ثلاث مهام :

الاولى : أن يستقيل منعمله ... والثانية ... أن يتسلم من ابراهيم منشه أدوات كاملة للتصوير .. والثالثة : أن يبدأ العمل وارسال المعلومات لهم على العنوان التالى فى أسمرة : « جرماى تسفو ص . ب . ٦٥ »

لكن اسماعيل عاد الى الخرطوم ليقدم استقالته ، ويبحث عن ابراهيم منشه فلا يجده .. وأرسل لهم قائلا ان الاستقالة قد قبلت لكن « منشه » ليس موجودا فى الخرطوم .. فعادوا يطلبون منه ان يركب الطائرة الى الخرطوم !

الى هنا ، ومن الممكن أن يبدو كل شىء عاديا .. ولكن كيف ؟ !

كيف يكون ابراهيم منشه عميلا اسرائيليا بهذه الخطورة ، ولاتعرف مخابراته انه ليسموجودا بالخرطوم فى الوقت الذى أرسلوا له فيه عميلا مثل اسماعيل ؟!

سؤال يطرحه الذهن ليجد الاجابة : فلقد كانت رحلة اسماعيل هذه ــ دون شك ــ لمراقبته ، ومعرفة ما اذا كان على اتصال بأى أحد ... ولقد كان اسماعيل على اتصال بالمخابرات المصرية بالطبع ، بل ، ولقد التقى بضابط المخابرات المصرى وقص عليه ما حدث وتلقى منه التعليمات ، ولكن اتصالاته كانت من الدقة والسرية بحيث استدعوه مرة أخرى ، ليدربوه على الاستماع

الدقيق للاشارات اللاسلكية ، وليرفعوا مرتبه من ثلاثين جنيها فقط ، الى مائة جنيه استرليني في الشهر الواحد .

***

وصل اسماعيل الى القاهرة في أوائل شهر ديسمبر عام ١٩٦٠ ؛ وكان مزودا بكل شيء ، وكانت التعليمات الصادرة اليه واضحة اشد ما يكون الوضوح ، لكن أهم ما في هذه التعليمات هو تجنيد ضابط في سلاح الطيران المصري ... فهل كان من الصعب عليه أن يقوم بمهمته ؟ !

لقد قامت المخابرات المصرية بأخطر لعبة من الممكن ان يلعبها جهاز مخابرات في العالم كله ! ..

ليس مبعث الخطورة ان حياة اسماعيل صبري عبد الله ، وهو مواطن عربي وضع عنقه على كفه وخاض معركة يستخدم فيها أرقى أنواع الذكاء البشري فقط.. بل كانت الخطورة تكمن في « الهدف » الذي تسعى اليه المخابرات المصرية ..

في تلك الايام كانت المخابرات الاسرائيلية تلعب لعبتها في أوربا .. كانت معسكرات الشباب اليهودي في المانيا تحاول أن تبث في وجدان الشباب الالماني ذات الاحساس بالذنب تجاه اليهود.. ومن خلال هذا كانوا يستخدمون الشباب الالماني لمصلحة اسرائيل . ولقد كان واضحا منذ البداية ، ان ثمة قناة سوف تمتد بين الشباب الافريقي والشباب الاوربي لخدمة أغراض اسرائيل .. وكان هذا في حد ذاته « هدفا » وضعته المخابرات المصرية نصب أعينها .. فهل كان مقدرا لها ان تنجح؟!

كانت المعلومات التي أرسلها اسماعيل الى اسمرة شديدة الاهمية ، وشديدة الخطورة في نفس الوقت

... كان أهم هذه المعلومات على الاطلاق ، ان اسماعيل استطاع تجنيد ضابط فى السلاح الجوى المصرى .

وكانت المفاجأة التى تلقاها اسماعيل ، ويقينا كانت مفاجأة للمخابرات المصرية ، ان أسمرة أرسلت تطلب من اسماعيل أن يعود ؟ !

وكانت المفاجأة التى تلقاها اسماعيل ، ويقينا كانت مفاجأة للمخابرات المصرية ، ان أسمرة أرسلت تطلب من اسماعيل أن يعود ! !

وكانت هذه هى المرة الثانية التى شعر فيها اسماعيل بالخوف .

قال اسماعيل عن هذه المرة :

ــ جلست أمام ثلاثة من ضباط المخابرات الاسرائيلية جاء اثنان منهم خصيصا من تل ابيب ، وظل الثلاثة لساعات طويلة يلاحقوننى بالاسئلة ، أسئلة أسئلة أسئلة .. حتى جاءت لحظة فكرت فيها .. ماذا لو قتلونى ، لو مزقونى ، لو اذابونى فى محلول .. لن يشعر أحد !

وعندما جاء الاستدعاء من أسمرة الى اسماعيل .. كان هناك احتمالان لا ثالث لهما .. الاحتمال الاول انهم قد ابتلعوا الطعم الذى ألقمتهم اياه المخابرات المصرية. ذلك الطعم الذى تمثل فى المعلومات التى وضعت بدقة متناهية .. فليست أية معلومات تصل الى جهاز مخابرات من عميل تؤخذ كقضية مسلم بها ، انها توضع تحت عشرات الاختبارات . وتدخل عددا لا بأس به من العقول الالكترونية تمتحن صدقها ودقتها .

وكان الاحتمال الثانى ، ان الامر كله قد انكشف ، وان العملية كلها قد ضاعت ، وان ــ ربما ــ حياة اسماعيل قد تصبح فى خطر داهم ..

وقبل أن يستقل اسماعيل الطائرة الى الخرطوم، كان قد لقن تماما بما يجب عليه ان يفعله ، كيف يجيب عن كل سؤال يوجه اليه .. كيف يتصرف فى المـأزق كيف يبدو ، كيف ـ حتى ـ يتنفس !

وكانت المفاجأة التى صفق لها البعض ـ فى صمت !!

ـ ان نتيجة الاختبارات المضنية لم تأت بالمرجو منهـا فقط ، بل قرر الخبراء الثلاثة ان اسماعيل صالح تماما للتدريب على الارســـال والاستقبال اللاسلـكى ، وانه قادر على تمييز الاسلحة وأنواعها ، وتفنيـــد المعلومات وتصنيفها .. و .. وظل اسماعيل فى اسمرة أربعة أشهر كاملة . اربعة أشهر بدت للشاب السودانى وكأنها دهور بعد دهور ، كان يتلقى خلالها تدريبـات عنيفة على كل شىء .. كما كان أيضا تحت مراقبة من نوع رهيب وغد .. مراقبة كانت تحصى عليه أنفاسه ، بل واحلامه ! !

وليس هــــذا تعبيرا لغويا بأى معنى من المعانى .. فبالفعل ، يصبح حساب الاحلام فى مثل هــذه الحالات أمرا شــديد الضرورة .. أما كيف يحدث هــذا ؟ .. فهذا أمر لا يعلمه الا المتخصصون !

بعــد اربعة أشهر ، ركب اسماعيل الطائرة من أسمرة الى الخرطوم .. ومن الخرطوم الى القاهرة !

***

عندما كانت اللعبة تدخل دورا آخر شديد الخطورة .. عندما راحت المخابرات المصرية تتبادل مع المخابرات الاسرائيلية رســائل الشفرة بالمئات ، حدث ما لم يخطر ببالهم هناك ، لـكنه كان بالطبع واليقين ، يخطر ببــال الذين هنـا ! !

وقع اسماعيل فى الحب .

وكما تزوج أبوه من فتــاة مصرية وقع فى حبهــا ..

تقدم اسماعيل لخطبة فتاة مصرية بعد أن أعطته المخابرات المصرية النور الاخضر .. ولـكن ، كان عليه أن يتصرف فى المـأزق .

واذا كانت ثقة الاسرائيليين به قد بلغت حدا جعلهم يرسلون اليه فى القاهرة عميلا لاستلام بعض الخرائط والصور ، فان السخرية والاطمئنان بلغت بالمصريين حدا جعلهم يتركون العميل الاسرائيلى يدخل الى القاهرة ، ويلتقى باسماعيل، ويأخذ منه الوثائق ، ويخرج بها آمنا

وبدأ اسماعيل صبرى عبد الله يعانى فى حبه.. كانت خطيبته اذا ما سـألته عن موعد الزواج ، تهرب .. لم يكن يدرى متى يستطيع الزواج .. كان « عميـــلا مزدوجا » بارعا ، وعبقريا ، نعم .. لكنه كان بشرا يحب

ولقد كانت خطيبته مغرمة به ، فصبرت ، وابتلعت عشرات الاسئلة التى لم تجد لها جوابا .

ثم .. ثم استدعته اسرائيل الى أسمرة مرة أخرى.. وكانت هـذه المرة هى الخوف بعينه ، كانت العملية كلها تصل الآن الى ذروة درامية . فلقد كان هـذا ـ فيما يبدو ـ اختبارا نهائيا تمهيدا لفتح تلك القناة المروعة بين شباب افريقيا وشباب المانيا ..

يومها .. سقط قلب اسماعيل بين قدميه

***

قال اسماعيل :

ـ فى هـذه المرة أخذونى الى بيت معزول فى أطراف المدينة ـ أسمرة ـ كان البيت كئيبا يقوم فى مكان خال من البشر والمبانى ، وهناك أغلقوا على الابواب والنوافذ وتركونى وحدى ، وحدى تماما ، لا خادم ولا رفيق ، لا حس ولا حركة وتعليماتهم الصارمة المشددة : اوع

تبص من الشباك ، اوع تخرج من الباب ، أوع حد يحس انك هنا ! ..

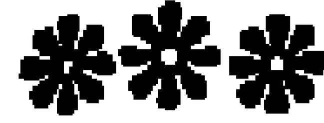
وطوال الليل لم ينم اسماعيل ، ولم يغمض له جفن.. هذه المرة لو قتل فعلا فلن يشعر مخلوق على وجه الارض ان شيئا قد حدث .. لم تكن هذه فقط هى المشكلة ، كانت المشكلة أشد غموضا ، فعندما هبط من الطائرة فى مطار الخرطوم قادما من القاهرة كان يظن انه ــ لو سافر أسمره ــ فلسوف يسافر بالطائرة كما تعود .. لكن الاوامر التى صدرت اليه أن يسافر الى آسمره عن طريق البر ، وبدون جواز سفر .

ولقد سافر الى أسمره بطريق البر ، ولم يكن معه بالفعل جواز سفر ، وعند الحدود بين السودان وبين الحبشة كان كل شيء مرتبا وممهدا ، ودخل الىأسمره ، ووصل الى هذا البيت المنعزل وليس هناك ما يثبت حتى مغادرته للسودان ..

كانت اياما مضنية تلك التى سبقت التعليمات الجديدة التى أعطيت له ..

ولقد تحمل اسماعيل صبرى عبد الله الكثير ، وضاعف من جهده وهم يدربونه من جديد ، وعلى مستوى أعلى فى الارسال ، والاستقبال اللاسلكى .. وعندما انتهت فترة التدريب . عاد اسماعيل الى مصر مرة أخرى كان هذا فى النصف الثانى من عام ١٩٦٣ ، وكانت سنوات أربع قد مضت منذ أن حاول تاجر خردوات يهودى فى ١١١ شارع الجمهورية بالخرطوم ، واسمه « ابراهيم منشه » تجنيد اسماعيل صبرى عبد الله لحساب المخابرات الاسرائيلية .. أربع سنوات اكتملت فيها الخطة هنا وهناك .. واصبحت القناة جاهزة الآن لتتدفق فيها المعلومات بدقة متناهية من مصر الى أوربا الى تل

ابيب . ولقد كانت مخابرات اسرائيل تستعد لهذا اليوم ـ أيضا منذ سنوات ، عندما وضعت أعينها على «هوتير نميستر فروالد » ، الطالب الالمانى الذى كان يجيـــد الانجليزية والفرنسية واليونانية واللاتينية والعبرية غير لغته الاصلية .. والذى دخل معسكر الشباب اليهودى ليصبح جاسوسا لاسرائيل ، وليسقط ـ فى أول عملية له ـ فى أيدى المخابرات المصرية ، وليحدث ســقوطه دويا هز أرجاء « الموســاد » ، وجعلهم يطلبـون اعادة برقية ساخرة ، ثلاث مرات ، وكأنهم فقدوا السمع .



جلس اسماعيل صبرى عبد الله بجوار خطيبته ،كان فى تلك الليـلة يبـدو وكأنه قد أزاح من فوق كاهله عبئا ثقيلا... وكان وجهه يوحى بالراحة ، نظرت اليه خطيبته وراحت بالحب تحاول ان تستشف ماوراء هذا الاحساس الغامض بالراحة ..

ـ مالك يا اسماعيل ؟ !

نظر اليها مبتسما ولم يرد ..

ـ اسماعيل .. مالك ؟ !

ـ افتحى التليفـزيون .. فيه برنامج كـويس عاوز اتفرج عليه ..

وفتحت الفتاة التليفزيون لترى خطيبها على الشاشة أمام عينيها .. اسماعيل الجالس بجوارها بدمه ولحمه .. كان يتحدث ، ويقول انه كان جاسوسا لاسرائيل . وأطلقت الفتاة صرخة واحدة ، ثم سقطت مغشيا عليها



كان اسماعيل قد سجل حديثا تليفزيونيا يروى فيه القصة كاملة ..

و ... ولقد كان فروالد شاب المانى يعشق اللغات ،

وكان طبيعيا ان يتعلم اللغة العبرية ، وكان مدرسه اليهودى هو « الفراز » الذى دفعه الى معسكر الشباب اليهودى فى المانيا .. وكان هذا المعسكر بالذات ، هو « هدف » المخابرات المصرية ، كان بمثابة معمل لتفريخ الجواسيس فى المانيا .. ولقد اختير « فروالد » بعناية ليكون وعلى مدى عامين أول من يخترق القناة الموصلة فيما بين افريقيا وأوروبا .. وكان « هدف » المخابرات المصرية أن تكشف طبيعة هذا المعسكر فتدمره ..

ولقد جاء « فروالد » ، وكان يحمل معه من الوثائق ما يثبت كل شيء .. وقبض عليه فى نفس اللحظة التى التقي فيها باسماعيل ..



كانت المفاجأة بالنسبة لخطيبة اسماعيل مذهلة .. وكان هو - وقد أفاقت من الاغماء يفسر لها كل الغموض الذى أحاط به لاربع سنوات كاملة .. كان قد أرسل آخر البرقيات الى الذين خدعهم بذكاء فاق ذكاءهم .. فلقد تبادل معهم ٦٠٠ اشارة لاسلكية و ١٥ خطابا بالشفرة ، و ٤٠ طردا من القلويات المصنوعة بمعرفة الخبراء ، و ٤ طرود تحتوى على نقود مخبأة بطريقة سرية بعثت بها مخابرات اسرائيل ..

و ... كانت اشارة الشكر من المخابرات المصرية الى المخابرات الاسرائيلية ..

ويظل السؤال معلقا :

هل كان اسماعيل صبرى عبد الله ، مجرد شاب سودانى وقع اختيار الاسرائيليين عليه لكى يحولوه من مواطن عربى الى خائن .. أم .. أم انه كان شيئا آخر ؟ رجل دخل لعبة الذكاء من أخطر أبوابها ، وتعرض للموت ، والضغط ، ولعبة الصبر .. وانتصر ؟ !

المجهول

في داخل هـذا العالم المليء بالاسرار والغموض .. تفجر بين الحين والحين تراجيديا من نوع عنيف .. تراجيديا يقف أمامها هؤلاء الرجال الذين تعودوا أن يخوضوا في أرض زرعت بأخطر الالغام ، حائرين.. ان الانسان يتمتع ـ مهما كانت يده مغموسة في الواقع والخطر ـ بقدر كبير من الحساسية ، وعندما تنفجر بين يديه مأساة من نوع معين ، فانه ينفعل بها انفعالا قد يفوق انفعاله لو أن الذي انفجر بين يديه كان لغما شديد الانفجار ! ولقد كانت مأساة هـذا الجاسوس تحتوي على « مجهول » ظل يشكل علامة استفهام كبيرة ، حتى عندما أسدل الستار على الفصل الاخير ، ظلت علامة الاستفهام تؤكد ان هـذا المجهول ، كان في ثنايا النفس البشرية كالميكروب المتعسر على الكشف ! !



سرى صوت المضيفة في جو الطائرة الدافيء ، تطلب من الركاب أن يربطوا الاحزمة ويكفوا عن التدخين .. كانت ميونيخ تبدو الآن من الجو مغلفة بضباب السماء ، غير ان مبانيها كانت ترتفع في الهواء كصناديق صغيرة بعثرت على ملعب للاطفال !

وفي المقعد الذي يحمل رقم ١٠٢ كان يجلس المهندس

احمــد عبد ربه : رجل الاعمــال المصرى الذى اتسعت اعماله الآن لتشمل العديد من بلدان اوربا وآسيا ، والذى اصبح مصنع البلاستيك الذى يديره فى روض الفرج ، ينتج أنواعا من البلاستيك غمرت أســـواق افريقيــا ووصلت الى آسيا .. واذا ما اراد احد أن يراجع هذا الاسم فى الغرفة التجارية : فانه يقينا سوف يعثر على مهندس يملك مصنعا بهذا الاسم ، وحتى نقابة المهندسين سوف تجد اسمه مدرجا فى قوائمها ، ولقد كان جواز السفر صحيحا مائة فى المــائة ، كما كانت كل الاوراق التى يحملها هــذا الراكب فى حقيبتــه الخاصة ، أو فى حقيبة ملابسه ، منضبطة تماما ، ليس فيها خطأ واحد.

أطفأ المهندس « احمــــــد » سيجارته مطيعا لاوامر المضيفة الحسناء التى منحته فى ذلك الصباح البارد ، ابتسامة دافئة...كانت سوزى سمراء مصرية التقاطيع دعجاء العينين ، ذات شعر اسود فاحم .. غير ان اجمل ما يلفت النظر فيها ، كانت تلك الابتسامة المشرقة التى اذا ما بدت ، غمرت تقاطيع الوجه كله !

ولقد لحظ عدد من الركاب ان ســوزى تبــادلت مع الراكب الشاب كلمات أطلق بعدها ضحكات خافتة، كما لاحظوا انها الحقته بعدد لا بأس به من فنــاجين القهوة السوداء .. كان احمد يبــدو وكأنه يستطيع ان يغزو عالم النساء بنفس القدرة التى يغزو بها عالم المال .. ففوق الخاتم الذهبى الثمين الذى كان يحلى احدى أصابع يده اليسرى ، كانت ملابسه ، وتسريحة شعره ، توحى بأننا أمام شاب مصري يعيش حيــاته فى أوربا ، وينعم بقدر لا بأس به من الثراء ..

وعنــدما دارت الطائرة فوق مطــار ميونيخ دورتها الاولى ، كان احمد قد غرق فى التفكير لاذنيه .. ولــكن

أحدا ـ بالطبع ـ لم يكن يعرف ما الذى كان يدور فى ذهنه فى تلك اللحظات الغريبة ، كانت لحظات تشعره دائما بأن الدم يركض فى عروقه ، عندما يقترب من الخطر ، وعندما يواجه « المجهول » لاول مرة ! ..

ومنذ أن وقعت هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ ، خلع الاسرائيليون برقع الحياء ، نسوا هزائمهم المتالية فى معارك الذكاء العنيفة ، كما نسوا كل ما لحقهم من عار تحدثت به اجهزة المخابرات فى العالم كله .. واذا كان احمد ـ كضابط من ضباط المخابرات المصرية ـ يتمتع بقدر من الرومانتيكية غير مستحب فى مثل عمله هذا الخطير ، فانه فى بعض الاحيان كان يدمع وهو يرى كيف انطلقت اسرائيل ، فى كل أرجاء الارض ، تجند الجواسيس وتسقط الشباب والرجال ، وتدفع بالعيون ، من كل جنسية وكل ملة ، الى مصر ، الى قلبها تريد أن تنهشه!

كان اسمه الحقيقى هو « عمر حمدى » ، وكانت النكسة قد انبتت فى رأسه بضع شعيرات بيضاء أضفت على شبابه نوعا من الرجولة الآسرة .. وكان فى طريقه الى « ميونيخ » للكشف عن جاسوس بدأ لهم فى القاهرة ، وكأنه أصبح يتحرك فى ملعب ليس به غيره ؟!

هبطت الطائرة أرض المطار ، وفى نفس اللحظة التى لامست فيها عجلات الطائرة المر انبعثت من عينيه نظرة غريبة ، استقبلتها « سوزى » بسرعة جعلتها تخفى عن أشد العيون ذكاء ...

وعندما استقبل « عمر حمدى » ـ أو المهندس احمد عبد ربه ـ هواء « ميونيخ » البارد وهو يخرج الى سلم الطائرة .. رمى ببصره الى مبنى المطار ، وكان يعلم انه ، منذ هذه اللحظة ، قد بدأ مشواره الخطر ..

كانت القصة قد بدأت منذ خمس سنوات بالتحديد في عام ١٩٦٢ ..

في ذلك العام ، وفي بداية الصيف ، كانت مصر كلها تنتظر نتيجة الثانوية العامة .. وفي تلك الاحياء التي تتكدس فيها العائلات المنتجة للاطفال ، يصبح لتلك الايام من كل سنة ، مذاق خاص .. ويسود الحديث بين الرجال والسيدات والآباء والأمهات والشبان والفتيات، حول النتيجة ، ولجان الرأفة ، ومكتب التنسيق والجامعات .. وفي حي « روض الفرج » ، وفي شارع يحمل اسم « الكركي » وفي شقة بأحد منازل هذا الشارع . كان « سمير » وسط عائلته ، ينتظر ظهور النتيجة .. ولقد ظهرت ، وكان مجموعه ٤١ ٪ فقط !

في تلك الليلة نشبت معركة عنيفة بين سمير وبين والده .. كان الآب موظفا يقترب من سن الاحالة الى المعاش ، وكان الاولاد يملأون البيت عليه ضجيجا ومصروفا وعذابا كان يصبه على سمير ، الذي بالرغم من « خيبته » في المدارس ، كان يبدو « دون جوان » لا يهتم الا بتصفيف شعره والعناية بملابسه وملاحقة الفتيات .. ولقد كان سمير حقيقة شابا متفتحا ، كان فهلويا خفيف الظل سريع الحركة يعشق الحياة بعنف.. غير ان قسوة الآب عليه جعلته كارها لهذه الحياة التي عشقها .. ويوم ان ظهرت النتيجة ، بلغ الجدل بين سمير ووالده هذه الدرجة التي كان يتصاعد اليها الخلاف بسرعة .. وانهالت في تلك الليلة ضربات الآب على وجه الابن .. ضربات قاسية لا ترحم .. ولم يتدخل أحد، بل ، لم يفكر أحد في التدخل ، فلقد كانت صيحات الآب وصرخات سمير ، وأصوات الصفعات والشتائم ، من علامات البيت المميزة ..

ولقد مضت الشهور ، مضت رهيبة مليئة بالعذاب ، لم يجد « سمير » كلية تقبل هذا المجموع الهزيل ، كما لم يكن فى نية الاب أن يواصل تعليم ولده... وكان اللقاء بينهما ، الآب والابن ، قد تحول الآن ليصبح عذابا يلاحق سمير أينما كان .. كانت الصفعات هى العملة المتداولة بينهما .. و .. و .. ولا أحد يدرى كيف فكر سمير فى السفر لا أحد يعرف ، على وجه يقيني ، كيف ومن أين جاءته الفكرة .. غير انه عندما أعلن فى البيت ، انه سوف يسافر الى أوربا ، جاءه الرد من والده : « فى ستين داهية ! »

وعندما وضع سمير قدمه لاول مرة على أرض المانيا الغربية . لم يكن يعرف كلمة واحدة من اللغة الالمانية.. غير أن هذه العقبة ، لم تكن توقف طموح سمير ، ولم تكن لتوهن من عزيمته .. كان ـ اذا ما مرت به الايام وأقيمت أمامه العراقيل والعقبات ـ يتذكر مصر ، ويقترن ذكرها بوالده ، بالبيت ، بالسباب ، بالشتائم ، بالصفعات .. كان اذا ما تلفت خلفه ، لا يرى سوى الكراهية فيشد من قامته ، ويتابع السير ، أى سير.. ويتابع البحث ، أى بحث عن أى عمل ..

كانت تلك أياما غريبة ، أيام جاءت عليه كاد يموت فيها من الجوع ، وأيام جاءت عليه كاد يموت فيها من البرد .. ولكن : كان الموت ـ جوعا أو بردا ـ أرحم عنده من العودة ..

وبمثل هذا الاصرار ، وبمثل هذا التصميم أستطاع سمير ، بعد أن درج فى اللغة الالمانية خطوات ، أن يجد عملا فى احدى الشركات بمدينة ميونيخ ..

يومها .. استعاد نشاطه ، واستعاد « فهلوته » ، واستعاد ابتسامته ، واصبح معروفا عنه فى الشركة ،

انه نشيط ، حبوب يعرف كيف يقيم علاقات مع الآخرين وكيف يكسب ودهم ! !



فى المطـار .. كانت اجراءات الجوازات قـد انتهت بالنسبة للمهندس « احمد عبد ربه » رجـل الاعمـال المصرى ، وكانت المضيفة «سوزى» قد تأخرت فىالطائرة لبعض اعمالها .. وعندما كانت تغادر مبنى المطـار كان احمد لا يزال هناك .. وعندما وقفت وصافحت سمير، كانت تبـدو وكأنها تعرفه منـذ فترة طويلة ، وتعـالت ضحكات سمير ، وتناولت أسئلته عن مصر وأحوالهـا وعن الركاب ولقد أعطته « سـوزى » كل ما يريد ، وحانت منه ـ أثناء الحديث ـ نظرة نحو المهنـدس الشاب الذى كان الآن يخرج الى المدينة .. لم يكن سمير يعلم الآن ان « عمر حمـدى » قد « نقضه » من رأسه الى اخمص قدميه ، وان صورته قد انطبعت فى مخيلته محفورة بقوة التدريب على الحفظ ، ورغم ان سـمير راح يتحدث بالعربية بصوت عال حتى يلفت أنظـار هذا المهنـدس المصرى الانيق ، الا ان صـاحبنا مضى وكأنه لم يسمع شيئا .. كان يبـدو وكأنه يعرف طريقـه جيـدا ، لذا .. فلقد مضى الى خارج المطار لا يلوىعلى شيء ..

وعنـدما ركب « عمر » سيـارة تاكسى ، كان يعلم يقينا ان مسألة العثور على الفنـدق الذى يقيم فيـه سهلة كالبحث عن رقم مدرج فى دليل التليفون .. وكان الآن يستعد للجولة الخطرة ..



فى عام ١٩٦٧ كان قد مضى على « سمير » قرابة أربعة أعوام وهو يعيش فى « ميونيخ » واذا كان البعض قد

اقتربوا منه قبل ذلك بقليل ، فلم يكن من الصعب على أحد معرفة ميول سمير العدوانية تجاه بلده ..

مجهول ..

هو شيء بالفعل مجهول ولا يمكن تفسيره ..

وخلال هـذه السنوات الاربع لم يزر سـمير مصر مرة واحدة ، لا قبل النكسة ولا بعدها وخـلال تلك السنوات لم يرسل سمير لاهله فى مصر سوى عدد يقل عن أصابع اليـد الواحدة من الخطابات .. كان «الفراز» الاسرائيلى أمام خامة جاهزة تماما .. لم يكن هـذا المجهول الذى يدفع شـابا مثل سمير الى الحديث عن مصر بعداء هو معاملة والده له .. فالعـلاقة بين الآباء والآبنـاء ، مهما بلغت حدتها ، تذوب الحدة فيهـا مع الايام ، تذوب مع الغـربة ، تذوب مع الاحسـاس بالاسـتقلال .. ولقد كان سمير الآن مستقلا ، وكان غريبـا ، وكان مغتربا لسنوات طويلة ..

ولقـد تعود صـاحبنا ان يجلس على مقهى اسـمه « برنسيس » فى « ميونيخ » ، فى هـذا المقهى كان يلتقى بالاصـدقاء والصـديقات .. بل كان يعقد الصداقات والصلات .. استخدم قدرته الفذة وخفة ظله فى ربط حيـاته بأرض ميونيخ وكأن فيهـا الخلاص .. وهل كان من الصعب على « هانز موللر » أن يعقد صـداقة مع « سمير » فى ذلك اليوم من أيام عام ١٩٦٧ ؟ !

« هانز موللر » ، « ماكس » ، « جورج » كلها أسماء كانت معروفة تماما لرجـال المخابرات المصرية وعيونهم المنبثة فى أربعة أركان الـكرة الارضيـة ، أسماء تتغير لوجوه ثابتة لا سبيل الى تغيرها بتغيير المـكان .. ولا أحد يدرى على وجه اليقين متى علمت المخابرات المصرية بهذا اللقاء .. انهم هناك ــ هؤلاء الرجال القابعون خلف

أسوار الصمت فى كوبرى القبة ـ سيقولون لك ـ كما تعودوا دائما ـ ان هنـاك من جاء وابلغ . ان حرصهم الشديد على « التوعية » وتنبيه النـاس . يتضافر مع حرصهم على اخفاء « الاسلوب » الذى يعتبر قمه العمم فى السريه والكتمان . ولقـد كانت المعلومات المتوفرة لدى « هانز موللر » عن « سمير » كافية لأن يفاتحه فى الامر مع اللقـاء الثانى مباشرة .. لم يكن « سمير » فى حاجة الى تمهيد ؛ ولم يكن فى حاجة الى مصيدة تورطه .. قال له هانز فى اللقاء الثانى :

ـ هل تريد أن تكسب مزيدا من المـال ؟ !

ورد عليه سمير وهو يتقافز فى جلسته :

ـ من يجرؤ على رفض المـال ؟ !

ـ أنا ضابط المخابرات الاسرائيلية !

ـ كم ستدفعون ؟ !

ـ حسب نشاطك وقدراتك !

وكان أمام « سمير » بعد هـذا الحوار السريع ، طريقان :

اما أن يجمع أكبر قـدر من المعلومات عن مصر من خلال المصريين الذين يقيمون فى المانيا أو يترددون عليها.

واما ان يقوم بعقـد صـلات مع المصريين الذين يجيئون الى ميونيخ لتجنيد الصالح منهم لحسـاب المخابرات الاسرائيلية !

و . . .

واختار سمير أن يسير فى الطريقين معا ؟ !

***

مرة اخرى نعود الى هـذا « المجهول » كامن فى نفس سمير كجرثومة متوحشة ..

لم تكن مصر فى أواخر عام ١٩٦٧ تحتمل خائنا مثل

سمير .. ولقد كان سمير يعلم هـذا يقينا .. وأبدا ، لم تكن تلك الـكراهية التي تضخمت في نفس ذلك الشاب المتفتـخ الفهلوى المحبوب القـادر على عقـد الصـلات والصداقات وحلب الهواء لبنا في أرض الغربة .. أبدا لم يكن هـذا هو الدافع له للخيانة والاستهانة ، بل ــ وهذا هو المبكى في الامر كله ــ والى الحماس في العمل وتجنبه الراغبين في الانزلاق وبذل الجهد في تدمير الوطن بعـد كل ما أصابه ..

وتحت يدى « عمر حمدى » كانت كل المعلومات التي يقف لها شعر الرأس هولا .. كان الغرض من سـفرته تلك هو اصطياد سمير والمجيء به الى القاهرة لا أكثر ، ولم تكن هـذه عمليـة صعبة ، كان الصعب هو هـذا الذى وقع في أيدى الرجال في القاهرة .. واذا كان سمير يتقاضى مرتبا شهريا قدره ٥٠٠ مارك ، علاوة على ٣٠٠ مارك يتقاضاها عن كل مصرى يتم تجنيـده ، بخلاف المكافآت والمصـاريف ، فما الذى كان يدفع « الأب » أبو سمير الذى تجاوز الستين وأحيل الى المعاش ، ان ينزلق خلف ولده بمثل هذا الاستخفاف وهذه السهولة؟!

كان « عمر حمدى » يعلم الآن وهو جالس في الفندق ، ان « الأب » هو الآخر قد أصبح جاسوسا في مصر ، وان ولده هو الذى جنـده .. كما كان يعلم ــ يقينا ــ ان سمير يجلس الآن في « هول » الفندق وعيناه على المصعد في انتظار المهندس « احمـد عبد ربه » ، الذى جاء الى ميونيخ لعقد صفقة تجارية لحساب مصانعه في روض الفرج .. نفس الحى الذى نشأ فيه سمير وتربى ..

وخلال العامين المـاضيين استقبلت أوربا ، والمـانيا الغربية بالتحديد ، أعدادا من المصريين لم يسبق أن رأته المطـارات والموانيء .. كان المصريون ــ والشباب منهم

بنوع خاص ـ يرحفون الى الخارج بحثا عن شيء ما ، جاءتهم النكسة كصاعقة غير منتظره قصمت منهم الظهر فراحوا يبحثون عن السبب فى كل مكان .. ولقد كان من السهل على سمير أن يقف فى المطار كلما جاءت طائرة القاهرة كي « يلاقى » هؤلاء القادمين من أرض الوطن كان من السهل عليه أن يعقد الصداقات مع موظفى المطار حتى لايرتاب احد فى كثرة تردده عليه.. كان من السهل عليه ان يساعد المصريين الآتين بحثا عن عمل أو متعة ، وكان من السهل عليه أن يفتح مسكنه للذين لا يملكون اجر الفنادق المرتفع فى أوربا ، وكان من السهل عليه ان يرشد أولاد بلده الى المتاجر والملاهى و .. ودور المتعة التى انشأتها مخابرات اسرائيل فى طول أوربا وعرضها.. ومهما كان الامر ، فلو انك صادفت مصريا فى بلد غريب، فان حنينك الى الدم واللغة يدفعك الى وضع ثقتك فيه ومهما كانت حاجتك ، ومهما كانت رغباتك ، فلقد كنت دائما ما تجد سمير «جاهزا» تماما لتلبية أى شيء تريد، حتى ولو كان « لبن العصفور » ..



هبط « عمر حمدى » الى هول الفندق يحمل مفتاح غرفته ، وفى لمح البصر ، فى نفس اللحظة التى غادر فيها المصعد ، كان قد شمل المكان كله بنظرة سريعة ، وكان قد حدد ـ بالضبط ـ أين يجلس « سمير » . وعندما خطا نحو مكتب استعلامات الفندق ، كان يقيس ، باحساس اكتسبه بالتدريب المسافة التى تفصله عن سمير مع كل خطوة كان يخطوها ، وعندما سلم مفتاح غرفته واستدار ، كان يعلم يقينا انه سوف يصطدم بسمير ، فتعمد أن ينطق « متأسف » باللغة العربية ، وكأنه أخذ بالصدمة .. وكان فى هذا الكفاية ، كان فيه الكفاية

ليتهلل وجه سمير وهو يصيح مرحبا :

ـ متأسف .. الاستاذ عربي ؟ !

وهكذا القى « عمر » طعمه لسمير ... وبدأ يجذب السيارة ببطء وحذق ...



فجأة .. وعلى غير انتظار .. وكانت خمس سنوات أو ست قد انقضت منذ رأى سمير والده لآخر مرة فى بيته الكائن بشارع الكركى بروض الفرج ... وجد سمير نفسه أمام أبيه فى ميونيخ ..

ودون تمهيد بدأت المعركة ..

ـ انت ما تعرفش انى انحلت على المعاش ؟ !

ـ يا بابا ..

ـ ليه ما تبعتش فلوس علشان نعرف نعيش ؟ ! ..

ـ ماهو انت ...

ـ اختك بتتجوز .. أجيب منين علشان أجوزها ؟

ـ انت عاوز ايه ؟ !

ـ عاوزك تخلى عندك دم .. هو احنا مش أهلك .. هو أنا مش أبوك !

و .. وأعطاه سمير ما أراد من مال ، فقط أعطاه المال ليرحل عنه ، ليتركه ، كى لا يذكره بالماضى ... وأخذ الأب المال وعاد الى مصر .. لكنه عاد فأرسل يطلب مزيدا من المال ، ولم يرد سمير .. كانت حياته الجديدة قد امتصت كل جهده ، وكان قد استطاع أن يقدم للمخابرات الاسرائيلية عددا لا بأس به من العملاء . وكانت القاهرة فى تتبعها لتلك الحركة النشطة ، ولذلك الشاب الذى أصبح وكأنه كرس حياته لخدمة العدو ، قد وضعت يدها على الخيوط جميعا .. كان ما فزع له الرجال الذين لا يعرفون الفزع .. هو انزلاق الأب العجوز

ويمثل البساطة التي يشعل بها الانسان سيجارته ، لم يجد سمير وسيلة يتخلص بها من أبيه ، الا بدفعه بنفسه ، الى يدى « هانز موللر » .

كان الاب قد استسهل السفر الى المانيا لمطالبة ابنه بالمال ، وكان الابن ، كلما ألح الأب ، يزداد ضيقا بمطالب ابيه .. وكأنما كان هذا « المجهول » قد أمده بقوة خارقة على الايذاء ، فلقد قدم اباه الى «هانزموللر» على انه صديق له ، ثم تركهما معا ومضى لعمل وهمي .

وكانت المفاجأة سارة لضابط المخابرات الاسرائيلى .

فما ان فاتح الأب فى الموضوع ، حتى رحب الاب ، واتفق معه على مرتب شهرى ، فوق مكافأة تصل الى ١٠٠٠ مارك لكل خطاب يحوى معلومات هامة ....

كيف يمكن تفسير الامر ؟ !

هكذا كان « عمر حمدي » يفكر وهو يجلس الى « سمير » فى بار الفندق بعد أن قدم كل منهما نفسه للآخر . كيف يمكن تفسير تكالب الأب على عمله بنشاط رهيب .. كان قبل مغادرته المانيا قد تدرب على الكتابة بالحبر السرى ، والحصول على المعلومات باثارة الغير ، ووسائل المناقشة والمراقبة والفحص .. وعندما عاد الى مصر اكتشف انه يستطيع ان يجنى الوف الماركات ببساطة لم تخطر له على بال... كان يجلس ذات مرة فى أحد المحلات فسمع شابا يتحدث الى حبيبته عن وحدة الصواريخ التى يعمل بها وعن أسلوب تشغيلها ، فكتب هذا اليهم ، كان يركب الاتوبيس فيسمع من الناس اشاعات ومعلومات فيكتبها اليهم ، كانوا يقولون له اكتب لنا بكل شيء مهما كان تافها .. فكتب وكتب وكتب ، حتى أسعار الطماطم كان يكتبها .. فهل كان يدرى قيمة هذا بالنسبة للحرب النفسية الضارية التى كانت

اسرائيل تشنها علينا فى تلك الايام ؟.. لم يفاتح ابنه بما فاتحه فيه « هانز موللر » كما أن الابن لم يفاتح أباه فى طبيعة عمله ، كان كل منهما يعرف ما الذى يفعله الآخر لـكن أحدهما لم يصارح الآخر .. وهكذا .. هكذا وجد هـذا « المجهول » الـكامن كالجرثومة المدمرة بين الأب وابنـه ، حتى فى الخيانة !

فى تلك الليلة كان المهندس « احمد عبد ربه » يدردش مع سمير حول مشروعاته .. وكان على يقين وهو يلقى بالطعم ، من الخطوة القادمة ، قال سمير :

ــ أنا أعرف واحد هنا فى ميونيخ ممكن يساعدك على الحكاية دى ؟ !

ابتسم « احمد عبـد ربه » فى وقار ، ونفث دخان سيجارته وسأل سمير :

ــ عاوز كام كوميشان ؟ !

هكذا يتحدث رجل الاعمال .. وهكذا اطمأن سمير تماما عندما سأله الرجل عن النسبة التى يطلبها كسمسرة .. وهكذا تحدد موعد لـكى يقابل « عمر حمدى» ضابط المخابرات المصرى ، «هانزموللر» ضابط المخابرات الاسرائيلى ، للاتفاق على الصفقة !



هنا تكمن ذروة الخطر .. ولم تكن « اللعبـة » كلها سمير أو والده ، كانت اللعبة تضم عددا لا بأس به من الشبان الذين سقطوا فى أيدى سمير وهانز ، واذا كان البعض منهم قد عاد الى القاهرة ليبلغ ويكمل حلقة المعلومات التى توفرت لجهاز المخابرات المصرى ، فان البعض الآخر لم يفعل ذلك ، وكان « عدد » هذا البعض الآخر لا يزال غامضا لا يبين ..

وليس الذكاء من صفات رجل المخابرات المصرى

وحده ، والا كنا كمن يدفن راسه فى الرمال ويخلق حول هؤلاء الرجال اساطير لا ظل لها من الحقيقة .. ان بعضا من رجال المخابرات الاسرائيلية ، يتمتعون بقدرات غير عادية على هــذا النوع من المعارك التى يتقرر فيها مصير اخطر الامور .. ولقد كان « عمــر حمــدى » ضــابط المخابرات المصرى جاهزا تماما فى اليوم التالى وفى الموعد المحدد للقاء .. كان يعلم ان من سيقابله سوف يحسب بالدقة كلها حركاته وكلماته .. واذا كان هو قد تسلح بميكروفون صغير دقيق ليسجل الحديث مع جهاز فى حجم علبة الــكبريت ، فلقد كان يعلم يقينا أن خصمه قد فعل نفس الشيء وربما أكثر بما لايدريه عما يتفتق عنه الذهن البشرى من أجهزة شــديدة الحساسية والخطورة ..

كان الموعد فى المساء ، فى مقهى قلبــل الرواد خافت الضوء ..

كانا كثعلبين يستعدان للنزال ... كل الفرق بينهما ان الثعلب المصرى كان يعلم ماسيقوله الثعلب الاسرائيلى ، وكان خوفه من شيء واحد .. أن تبــدو عنه حركة ، أو تصدر عنه كلمة ، اذا ما وضعت تحت مجهر الدراسة والفحص ، كشفت من حقيقته ...

وتم اللقاء ..



اطلق « عمر حمدى » ضحكة مجلجلة ســعيدة وأنا أسأله عما كان يشعر به لحظتها تهدلت خصلة من شعره ــ الذى اصبح اليوم رماديا رغم أنه لم يصــل بعد الى الاربعين ــ فأزاحها بيده . نفث دخان سيجارته وقال :

ــ أبدا .. فى الحالات دى الواحد مننا بينسى نفسه ، بيبقى مهندس فعلا ، بيبقى « احمد عبدربه » أو بيبقى

رجل أعمال ، فى اللحظات دى بتحصل حاجه غريبة ، بيوصل خوف الواحد على البلد درجة بتنسيه نفسه !

كان « عمر حمدى » عندما تقمص شخصية المهندس « احمد عبد ربه » ، يعلم يقينا ان هناك من سيذهب الى مصنع البلاستيك الصغير فى روض الفرج ليسأل ، وليجد ان صاحبه هو المهندس « احمد عبد ربه » فعلا ، وان رجل الاعمال المصرى ليس موجوداً فى مصر ، بل مسافر الى الخارج ، الى المانيا بالذات ! !

ومنذ ما يقرب من ستة أشهر ، كانت «بيوت الملذات» الاسرائيلية فى « ميونيخ » قد استقبلت عدداً غريبا من المصريين الذين كانوا يتلهفون على المتعة رغبة منهم فى التعويض .. كانت المعلومات التى وصلت الى القاهرة عن هذه « البيوت » الاسرائيلية تحوى أسرارا مضحكة مبكية .. ان بعض هؤلاء الشبان الذين اصطادهم سمير وقدمهم الى « هانز موللر » دخلوا هذه البيوت ، ووسط الاضواء الحمراء والشراب واللحم الابيض والنشوة فى ذروتها ، كانوا يعرضون عليهم أفلاما ملونة لشخصيات عربية فى أوضاع يندى لها الجبين .. وكان بعض هؤلاء الشبان يصدم وهو يرى رجلا له مكانته واسمه ومركزه هاربا كما ولدته أمه فى حضن امرأة ما .. ربما كانت هى هى نفس المرأة التى ترتمى فى أحضانه الآن .. كانوا — فى هذه البيوت التى انشأها جهاز المخابرات الاسرائيلى — يدمرون فى الشباب العربى كل احترام لبعض شخصياته .. من هؤلاء الذين دمرتهم هذه الافلام .. اثنان من الشبان كانت المخابرات المصرية تسعى وراءهما فى طول أوربا وعرضها ، بعد ان انزلقا ، وخانا ، وراحا يضربان الارض بحثا عن مأوى بعد أن انكشف أمرهما .

ولقد طالت المباراة بين « عمر حمدى » و « هانز

موللر » فى هـذا المقهى الخافت الضوء القليل الرواد فى احد شوارع «ميونيخ» الهادئة.. طالت المباراة وتعددت اللقاءات وخطا عمر داخل عرين الاسـد ، لـكنه كان يعرف مواطىء قدميه .. لم « يندلق » لـكنه أبدا لم يمانع شانه شأن رجل الاعمال الشاب .. غير ان «هانز موللر» ، « اندلق » تماما ، وابتلع الطعم حتى نهايته..

كان هـذا عندما بدرت من عمر بعض المعلومات الهامة عن الصناعة فى مصر وكأنها جاءت عفو الخاطر، وسال لعاب الثعلب الاسرائيلى عندما راح المهندس « احمـد عبد ربه » يتحدث عن الاقتصاد المصرى حديث العارف بدقائق كانوا فى أشد الحاجة اليها ! !

وعندما حان موعد السفر الى القاهرة ، كانت هناك اتفاقات مبدئية ، لـكنها ليست نهائية .. وكان سـمير، فى وداع صيده العظيم فى مطار « ميونيخ » ..

وعندما أقلعت الطائرة من المطار وحلقت فى الجو،كانت حقيبة عمر السوداء الصغيرة تحوى الآن من الاسرار ما كان كافيا تماما .. وعندما نظر من نافذة الطائرة الى المدينة وقد لفها الضباب ، تنهد فى ارتياح ..

***

بعد حوالى ثلاثة أسابيع ، وصل الى سمير خطاب من المهندس « أحمد عبد ربه » ، وكان يطلب منه الحضور الى القاهرة لبحث بعض خطوات الاتفاق تمهيدا لتوقيع العقد ..

ولقد ظل « عمر حمدى » كمن يحبس أنفاسه لاكثر من ثلاثة اسابيع أخرى .. حتى جـاءته برقيـة تنبىء بموعد وصول سمير الى القاهرة !

فى المطار ، كان المهندس « احمد عبد ربه » فى انتظار سمير ، وكان هـذا قد اصطحب معه ـ لفرط الثقة فى

نفسه ـ شابين المانيين فتى وفتاة أرادا السياحة فى مصر لعشرة أيام ... ولقد قام «أحمد» بالواجب ، وتم بحث الخطوات بينه وبين « سمير » ، فتم الاتفاق تماما .. وعندما أبدى الجاسوس رغبته فى اصطحاب صـــديقه وصديقته فى زيارة للاقصر وأسوان ، حجز لهم «احمد» فى قطار الصعيد مقصورة كاملة ... ولقد سافر الثلاثة الى أسوان ، والى الاقصر ... وقضى الجميع وقتـــا خرافيا .. وبعد أسبوع ، كان القطار يتهادى بهم داخلا الى محطة القاهرة ..

وفى المحطة ، كان « احمد » فى انتظارهم ، لكنه هذه المرة لم يكن وحده .. كان معه عدد من الرجـال ذوى الملامح الجامدة .. ولم يفهم الشاب الالمـانى وصديقته شيئا مما كان يحدث أمامهما .. كان ما حـدث هو أن طلب « عمر » من « سمير » ان يودع صديقته ففعل ، وسار بين الرجال طائعا فى صمت نحو سـيارة سوداء اللون ، وكان يـبدو شـاحب اللون تماما .. أما هما ، فركبا سيارة أخرى أوصلتهما الى الفندق مع الاحترام الشديد .. والواجب .

***

فى أحد دهاليز مبنى المخابرات العامة المصرية ، كان سمير يسير صامتا ، كان الآن قد أيقن انه وقع ، فانهار تماما .. وعندما تقدم أحدهم الى باب احـدى الغرف وفتحه ، دلف منه سمير ليجد والده قد سبقه اليها !

أفظع ما كان فى اعترافات سمير ، هى ما يتعرض له بعض المصريين فى الخارج ، فى بيوت المتعة التى أنشأتها اسرائيل خصيصا لاصطياد العرب ، واغراقهم فى الملذات ، وتجنيدهم ، أو على الاقل ، معرفة بعض المعلومات التى ينفلت بها اللسان أحيـانا فى لحظات النشـوة !.. ثم

تصويرهم عرايا ، وتسجيل احاديثهم الماجنة ! !
غير ان الافظع من هــذا ، هو « المجهول » الذى بدا كامنا كالوحش الغامض فى نفس الأب والابن معا وقد كاد كل منهما يمزق الآخر فى لحظة المجابهة .. هــذا « المجهول » الذى لا يزال يجبر « عمر حمدى » حتى الآن ، بحثا عن هويته دون جدوى !

الســـــــــاذج

منذ البداية ، كانت الاخطاء التى وقع فيهـا هـذا الجاسوس قاتلة .. وكان من الممكن ان يتم القبض عليه ومحاكمته فى الشهور الاولى لبداية نشـاطه الهام .. غير انه كان من الســـــذاجة ، بحيث تركته المخابرات المصرية عشرة أعوام كاملة ، وهو يدبج التقارير ويراسل « الموســاد » عبر جهــاز اللاسلكى ، من قلب حى من أشد أحيـاء القـاهرة ازدحاما .. ثم ، ولان حرب اكتوبر كانت مندلعة بالفعل ، قبضوا عليه !

فى النصف الثانى من العقد الخامس من هذا القرن ، برزت فـكرة عقـد مؤتمر للدول الافريقية الاسيوية ، الذى حقق أول اجتماع له فى باندونج ، نجاحا مذهلا، ومن خلال هـذا المؤتمر ، الذى كان بمثابة نقطة تحول فى السياسة العالمية ، وبروز دور دول الحياد أو عدم الانحياز أو ما أطلق عليه فيما بعد ، دول العالم الثالث .. برزت قيمة مصر وأمكانيات قيـادتها الشابة ـ فى ذلك الوقت ـ على مجابهة الاسـتعمار وتشكيل قوة دولية وضع لها كلا المعسـكرين ، الشرقى والغربى ، ألف حساب ..

وكان ان اختيرت «القاهرة» لتكون مركزا للسكرتارية الدائمة للمؤتمر الافريقى الاسيوى واصبح لـكل دولة

افريقية واسيوية مندوب دائم فى هذه السكرتارية ، وبالتالى فلقد كانت هـذه السكرتارية تشكل مركزا هاما من مراكز الحركة السياسية فى العالم .

الامر المهم فى هـذا الموضوع ، ان اسرائيل ـ فى تلك الايام ـ حاولت ان تنضم الى المؤتمر بصفتها دولة اسيوية . وكانت معركة انتصرت فيها الشعوب العربية، بل ، القيادة المصرية بالتحديد ، التى استطاعت بالدبلوماسية والاقناع ، ان تضع اسرائيل ـ لاول مرة ـ فى مكانها الحقيقى على خريطة العالم كدولة معتدية ومغتصبة لاراض لا تملكها ..

من هنا ، كانت أهمية الوصول الى قلب سكرتارية المؤتمر الافريقى الاسيوى ، ذلك ، ان ما كان يحدث من اجتماعات داخل السكرتارية، وماكان يؤخذ من قرارات ، كان بالضرورة ، يشكل أهمية خاصة بالنسبة لاسرائيل التى عزلت عن هـذا العالم الذى حاولت فيما بعد التغلغل فيه .. بل ، والسيطرة على بعض دوله ..

***

كانت البداية هناك... فى باريس... بالتحديد ، عندما خطا نبيل خطوته الاولى الى بهو فندق جورج الخامس فى حى الشانزليزيه .. ورغم انه كان قد تألق بكل ما يملك من جهد وطاقة وملبس جديد ، الا ان مظهره كان يبدو شديد التواضع وسط ذلك الجو الفاخر المهول الذى استغرقه حتى النخاع منذ الدقائق الاولى..

كان نبيل واحدا من موظفى سكرتارية المؤتمر الافريقى الاسيوى الذين وقع عليهم الاختيار للسفر الى كوناكرى للتحضير للمؤتمر الافريقى الاسيوى القادم ، والذى كان سيعقد فى عاصمة غينيا ... لم يكن نبيل واحدا من نزلاء الفندق بطبيعة الحال ، فلقد كان ـ مع زملائه ـ

نزلون بأحد الفنادق المتواضعة فى العاصمة الفرنسية .. كان أمامهم يومان أو ثلاثة ، ثم يطيرون بعدها الى جنيف .. ثم كوناكرى .. وكانت هذه الايام الثلاثة ، كافية تماما ، لان تحدث البداية ..

غير ان البداية الاولى كانت بعيدة كل البعد ، كانت البداية عندما هاجر الاب اللبنانى الاصل من بيروت لى مصر ... كان رجلا تقيا متدينا ، يعمل ممرضا مع حدى البعثات التبشيرية ، لكنه فى مصر، فى السويس بالتحديد ، أحب فتاة مصرية فتزوجها ، وأقام فى مصر نهائيا ، وانجب ثلاثة أولاد وخمس بنات .. وكان نبيل واحدا من الاولاد الثلاثة !

وكما يحدث كثيرا فى الاسر المصرية ، بل ، كما حدث فى رواية « بداية ونهاية » لكاتبنا الكبير نجيب محفوظ توفى الاب فجأة ، وترك عائلته بلا عائل سوى نبيل ..

كان نبيل يحلم بأن يدخل كلية الطب وان يصبح طبيبا ، غير ان امكانيات الاب الذى أنجب ثمانية أولاد يريد أن يعلمهم ، لم تساعده على ذلك ، فكان أن ادخل نبيل مدرسة التجارة المتوسطة ، وتخرج فيها . وكان من أول الموظفين الذين عينوا فى سكرتارية المؤتمر الافريقى الاسيوى التى انشئت فى عام ١٩٥٨ ، ولم يمض عام حتى توفى الاب ، واصبح نبيل هو العائل الوحيد للأسرة ..

ببساطة ، كان نبيل يعمل ليل نهار ، كان يعمل بالسكرتارية فى الصباح ، وفى مكتب للالة الكاتبة فى المساء ، حتى اذا ما جاءت رحلة كوناكرى عام ١٩٦٠ ، وكان طريق السفر اليها غير القاهرة ، باريس ، جنيف كوناكرى .. كانت هذه هى فرصة العمر .. سافر

اذن ، وهو لا يدرى ما يخبئه له القدر ، سافر وهو لايعلم ما تخبئه له نفسه ! !

كان على الموظفين أن يمكثوا فى باريس بضعة أيام ، ولم يكن أمام نبيل ، الذي تعود أن يكون وحده دائما ، سوى ان ينزل الى شوارع باريس ، يتسكع ويشاهد ، ويقف أمام الفترينات مبهور النفس بما يرى من أضواء وغنى .. حتى كانت ليلة ..

ليلة كان يقف فيها أمام احدى الفترينات التى تعرض من الملابس ما يسيل له لعاب أى شاب من أبناء الدول النامية ، وتصادف أن وقف بجواره شخص له مظهر الاجانب ، وان كانت ملامحه تشى بشىء من الشرق .. وحدثه الشخص بالفرنسية ، وارتبك نبيل ، فهو لايعرف الفرنسية وان كان يجيد الانجليزية ويجيد كتابتها على الآلة الكاتبة . وما أن تلعثم ، حتى ضحك صاحبنا هذا وحدثه بالعربية ..

صاح نبيل : « حضرتك بتتكلم عربى ؟ ! »

ورد الشخص : « أنا اسمى حسن ! »

وتصافح الشابان فى حرارة ، وكانت سعادة نبيل ، وهو يسمع اللغة العربية ، باللهجة المصرية الخالصة ، فى قلب باريس وأضواء باريس ، تفوق الوصف ، كان وكأنه عثر على كنز !

فى تلك الليلة ، قضى نبيل وقتا طيبا ، كان حسن هذا مصريا يدرس الطب فى باريس ـ هكذا قال له الشاب ! ـ كان اسكندرانيا قحا ، ينطق الحديث مسبوقا بنون الاسكندرية الشهيرة ، ويمط الحروف كأى ابن بلد من الانفوشى أو السيالة .. وفى الليل ، وبعد كأس أو اثنتين .. كان الحنين قد استبد بحسن ، فراح يسأله عن مصر وأحوال مصر .. راح يشكو له الغربة

والوحدة والشوق .. ومما لاشك فيه ، انه رغم تأثر نبيـل الشـديد بما كان يسمع ، الا انه كان سـعيدا غاية السعادة ..

في آخر الليل .. سار معه حسن متسكعا في شوارع الشانزليزيه الباهرة .. وأوصله حتى باب فنـــدقه المتواضع .. ولـكن ، على موعد للقـاء في الغد .. في المسـاء ، في نفس البار الذي كانا يجلسـان فيه ..

***

كان كتوما بطبعه .. كان منطويا ينظر الى زملائه من خلف غلالة المسئولية التي ألقيت على عاتقه .. في تلك الليلة أمطره زملاؤه بالعديد من الاسئلة ، كانوا معا ساعة أن خرجوا للتسكع فأين اختفى ، ولم يكن كاذبا عندما أخبرهم انه « تاه » ، لـكنه لم يذكر أين كان ، ومع من كان ! ..

كان حسن بالنسبة اليه كنزا أراد الاحتفـــاظ به واخفاءه ، ربما ، لان هـذا كان جزءا من تكوينه ، وربما ــ وهـذا هو الارجح ــ لان حسـن أسر اليه أن يكتم الامر ، فلقد أحبه وهو يريد أن يلتقي به وحده .

صـدفة هي أم ان الامر كان مدبرا أن يكون حسن بالذات ، طالبـا مصريا يدرس « الطب » حلم الاحـلام والامنية المتبددة مع الفقر وقلة الحيلة .. لا أحد يدري غير ان الامر ــ دون أدنى شك ــ كان له وقعه العنيف على نفس نبيل .. ولقد كان في الموعد المضروب تماما ، يقف أمام البار الذي اتفق مع حسن على اللقاء فيه .. كان مفعما بالسرور دون شك .. فلقد وعده حسن أن «يعطا» معا هنا وهناك ، ان يريه باريس وخفايا باريس .. غير ان أمرا كهذا ، لا يمكن أن تكتمل بهجته قبل أن يشربا كأسين في مكان يستطيع حسن أن يدفع فيه ثمن

الـكاسين .. ففى باريس تستطيع أن تشرب كأسـا وتدفع فيه فرنكا واحداً ، وتستطيـع أن تشرب نفس الـكأس ، فى مكان آخر ، وتدفع فيه ما يوازى مرتب شهر كامل !

فى البار ... جاءت جلستهما بجوار جورج ...

هنا ، ليس هناك مجال للتخمين . هنا ، تصبـح الخطوة والحركة ، بل وحتى الـكلمة ، مدروسـة مرسومة ومعدة بدقة وذكاء لا سبيل الى النفاذ منها..

واذا ما « احلوت القعدة » ، وتبع الشـابان كأسا بكأس ، واذا ما كان جارك وحيـدا يشرب هو الآخر ، واذا ما أفلتت منك كلمة بصوت عال ، فلا بد وأن يتصل الحديث .. ولقد اتصل ، ومال « جورج » عليهما بكلمة ورد عليه حسن بكلمة .. لاننا : « هنا فى أوربا الناس بسيطة مش معقدة زى عندنا » !

نفس الـكلمات ، ونفس الاسـلوب ، ونفس الذهن المخطط الذى يعرف كيف ينفذ من نقط الضعف عنـد الصيد الجديد .. واذا كان حسـن قـد « لضم » مع جورج ، فلا بد وان يشترك نبيل فى الحديث ، واذا كان الحديث قد امتد فلم يجلس جورج وحده ، لم لا ينتقل اليهما .. ولقد انتقل جورج وجلس معهما ، وقدم لهما نفسه كصحفى فى احدى وكالات الانباء .. وما أن ذكر نبيل وظيفته فى المؤتمر حتى تهلل وجه جورج .. لقد كان يزمع السفر الى كوناكرى ، لتغطيـة أنباء المؤتمر للوكالة ، كان يزمع السفر رغم ان مشاغله فى باريس كثيرة ومتشعبة ، رغم أن مصالحه كانت ستضار .. فلم لا يقوم نبيل عنه بهذه المهمة لقاء أجر ؟ !

ومن تحت المائدة غمزه حسن وهو يقول لجورج :
« تدفع كام ؟ ! »

وفى لحظة وجد نبيل فى يده مائة فرنك مصاريف البريد ، وعنوانا فى الشانزليزيه ووعدا بالحساب يوم ينتهى المؤتمر ، ويمر بباريس فى طريق العودة الى القاهرة

وعندما هم نبيل بالحديث ، ولا يدرى أحد ما الذى كان ينوى ان يقوله ، عاد حسن مرة اخرى فغمزه من تحت المائدة .. وزيادة فى الاحتياط ، قدم له جورج رقم تليفونه ، طالبا منه الاتصال به كلما مر بباريس .. ثم ودعهما وانصرف ..

فى الليل ، وأثناء العودة ، كان نبيل يشعر بالسعادة ، فلقد كسب مائة فرنك دون ارتباط ، دون وعد .. وكان حسن يشجعه قائلا ان باريس شىء والقاهرة شىء آخر .. انهم فى اوربا يعطون لكل جهد ثمنه ، ولكل عمل أجره .. ولم يكن مطلوبا من نبيل سوى شىء واحد ، أن يرسل لجورج على العنوان المذكور ، أخبارا من تلك التى تصدرها سكرتارية المؤتمر لتقدمها للصحفيين .. والتى كان يكتبها بيديه على الآلة الكاتبة لتطبع بعد ذلك على آلة الرونيو ، فيوزع نصفها ، ويلقى النصف الآخر فى سلة المهملات !

***

فى كوناكرى لم يحدث شىء له قيمة ، عقد المؤتمر ونجح ، وكان نبيل طوال بقائه هناك ، يكتب خطابات الى جورج ، يضمنها تلك الاخبار التى تنشر فى كل صحف العالم .. لم يكن صحفيا ليعلم ان مثل هذه الاخبار اذا ما أرسلت بالبريد الى وكالة أنباء بالذات، تصبح شيئا لا قيمة له ، بل ، اذا ما وصلت الى وكالة الانباء متأخرة دقيقة واحدة ، أصبحت خبرا محروقا لا يساوى ثمن الحبر الذى كتب به !

فى كوناكرى لم يحدث شىء له قيمة . لم يخبر نبيل

غير انه عندما عاد الى باريس ، وكان هـذا فى فبراير عام ١٩٦٠ ، كان أول ما فعله ان طلب رقم « جورج » وظل جرس التليفون على الطرف الآخر يدق دون رد .. مرة ومرتين وثلاثا ، دون جدوى ..

لحظتها تذكر نبيل شيئا غريبا ..

لحظتها تذكر نبيل ان « حسن » لم يعطه عنوانا له ولم يعطه رقم تليفونه ، ولم يعطه اسم الـكلية أو المستشفى التى يدرس فيها .. لحظتها تذكر نبيل ان « حسن » لم يكن سوى « حسن » ولا شىء آخر ، وانه واحد من أهل باريس .. واحد من الذين يعيشون أحدا بما يفعل فلم يكن فيما كان يفعل شىء محرم .. فيها ، فأين حسن ؟ !

ولقد مرت على نبيل لحظات صعبة ، مريرة ، كان تليفون « جورج » — رغم كل المحاولات التى بذلها — لايرد ، لا شىء سوى جرس يدق ويدق ويدق بلامجيب مرات ومرات وعشرات المرات دون جدوى .. وأخيرا أخيرا لم يجد أمامه سوى العنوان الذى كان يرسل عليه الخطابات ، فبحث عنه ، حتى وجده ..

وكانت الصدمة مروعة ..

كانت صدمة اهتز لها نبيل حتى الأعماق ..

كان العنوان لشركة من شركات السياحة ، لم يكن وكالة انبـاء ، ولم يكن منزلا .. فتح الباب الزجاجي للشركة ، وتقدم من الفتاة الشديدة الجمال الجالسة الى المكتب الانيق ، تقدم اليها مترددا ، وهمس سائلا عن : « مستر جورج ! » .. فأجابت الفتاة ان لا أحد هنا يحمل اسم جورج ، حاول أن يفهمها انه كان يرسل خطاباته من كوناكرى الى جورج على هـذا العنـوان فتبدت الدهشة فى عينى الفتاة ، وعندما ألح ، أطلقت

عليه من عينيها الخضراوين نظرة ، نظرة واحدة كانت كفيلة بأن تلقى به الى الخارج ! !

***

هكذا وجد نبيل نفسه ضائعا تماما ... هكذا تبددت الاحلام التى حرص حرصه كله على الا يذكرها حتى لنفسه ، كانت الاحلام تبنى قصورا فى الخيال ... وان يترك عمله كتايبست وأن يصبح صحفيا خطوة نحو الهدف ، وان يظل كاتبا على الآلة الكاتبة ويأتيه دخل يساعده على الحياة وتربية اخوته ، وان يتفرغ للمذاكرة بعد الظهر بدل الانحناء على آلة كاتبة أخرى .. حلم طالما تمناه .. وان .. وان .. وان

ولكن ها هى الاحلام تتبدد فى مثل لمح البصر ، وكان كل شيء ما كان ، كان حسن ما كان ، وكان جورج ما كان سوى أضغاث هلوسة كأس شربها ذات ليلة فى بار متواضع بحى الشانزليزيه .

***

عاد الى الفندق محطم النفس تماما ، يائسا ، مهموما ، ضيق الصدر .. غير انه ما كاد يستقر فى غرفته ، حتى استدعى لمكالمة تليفونية ..

لاول وهلة أصابه الارتباك ، وللوهلة الثانية تذكر « حسن » ، وفى الوهلة الثالثة كان يقفز الطريق حتى التليفون ، وما أن وضع السماعة على أذنه ، حتى سرى فى الاسلاك صوت « جورج » ، جورج ، جورج نفسه .. بل الاكثر من ذلك انه كان يعتذر ، أن الفتاة لا تعرفه لانها حديثة عهد بالمكان ، جورج ، جورج هو الذى يطلب لقاءه فلم يتردد .. وقبل ، وانطلق للاقاة المصير .. الامل ، الهاوية التى كانت تتفتح تحت قدميه وكان يسعى اليها !

يا للاحلام عندما تتلون بألوان الطيف السبعة فتحمل الانسان على جناحيها الى جنة موهومة.. يا للثقة تعود فتسري فى نفس الانسان فتسكره بخمر أقوى من الخمر .. واذا كان جورج يجلس الآن أمامه ، وجها لوجه ، عينا فى عين ، واذا كان يناقش خطاباته وأخبـــاره خطابا خطابا وخبرا خبرا.. اذا كان يثنى عليه ويشكره .. فـكيف يتعامل مع اناس لهم مثل هذا القدر من الشرف ؛ قال هذا لنفسه عندما قال له جورج انه أخبر رئيس التحرير بأن نبيل هو صـــاحب الاخبـــار ... وكيف ، كيف يمكن للحظ ان يكون بهــذا القــدر من الـكرم ؛ وجورج يخرج من جيبه ألف فرنك يعطيهـــا لنبيل ثمن جهــده .. وكيف ، كيف يصدق انه على موعد معه فى اليوم التالى ، ان هناك اتجاها فى الوكالة لتعينه صحفيا ، وان الامر فى يد مجلس الادارة الذى سيجتمع فى الغد ليقرر مصيره ؟ !

وكيف يأتيه النوم ؟ ! .. كيف ؟ !

ليلة هـــذه أم حلم الاحلام يرسله القدر على طبق الامانى خالصا .. كان احساسه بالاشياء غريبا ومثيرا، واذا ما وافق مجلس الادارة فلســوف يدخل امتحانا يضم رئيس التحرير وبعضا من أعضاء المجلس، وليست مجالس الادارة فى أوربا مثلها مثل هذه التى فى مصر.. ان الموعد موعد ، والاجتماع لابد وأن يتم كل يوم ...

وفى الغد .. الغد الذى يأبى أن يأتى . سوف يعرف مصيره . وأيا كان الامر، ففى جيبه ألف فرنك حقيقة ، اشترى منها ، وأنفق بعضها . وفى بعض الاحيـــان يصبح الواقع أزهى من الاحلام ..

***

أعطوه الامل ، ثم تركوه معلقا ..

رفعوه الى قمة الاحلام ، ثم تركوه يهوى بلا معين ..
وفى لحظة اليأس العظمى ، تمتد اليه اليد عبر سلك التليفون لتنتشله ..
وهدفه هنا تصبح الفريسة سهلة المنال، طرية اللحم بعد أن طهوها على نار القلق المدمر ...
الغريب .. الغريب الغريب .. ان نبيل ــ أبدا ــ لم يسأل عن « حسن » ..

***

وهكذا جاءت البداية .. عندما التقى به فى ذلك البار المتواضع ، وزف اليه خبر موافقة مجلس الادارة على تعيينه ، ثم منحه خبرا أعظم ... انه على موعد مع رئيس التحرير فى اليوم التالى ، فى بهو فندق « جورج الخامس » .
ودق قلب نبيل .. وهتف : « جورج الخامس »؟!
ورد جورج ساخرا : « وأين تريد أن تقابل رئيس التحرير ؟ ! »
وقبل ان ينطق نبيل ، كان جورج يقوم بما كان يدور فى خلده ، وسرعان ما دفع الحساب ، واصطحبه معه الى أحد محلات الملابس، واشترى له بذلة وقميصا ورباط عنق وجوارب و ... وحتى ملابس داخلية .
وكان نبيل مستسلما تماما .. كانت الفريسة قد أصبحت طيعة ومطيعة .. ولم يكن هذا الذى يحدث مجرد تصرفات عفوية ، لم يكن نبيل يعلم ، ان كل حركة كل سكنة ، كل خطوة خطاها ويخطوها كانت توضع تحت مجهر أعين مدربة تدريبا عاليا ... ولم يكن يعلم ، ان انهياره قد وصل الى علمهم قبل أن يصل الى علمه، ولم يكن يعلم ان استسلامه هذا ، كان دليلا قادهم الى قلب قلبه ، الى نقطة ضعفه .

وهكذا وجد نفسه يخطو الى « بهو » فندق «جورج الخامس » ، ورغم انه كان قد تأنق بكل ما يملك من جهد وطاقة وملابس جديدة ، الا ان مظهره كان يبدو وسط الاضواء متواضعا .. كانت قدماه تغوصان فى أرض شديدة الليونة ، سجاد كالحلم ، جدران كالسراب ، ثريات كالنجوم ، اناس كالخيال ، نساء كحوريات جنة يحلم بها الانسان منذ ان كان .. ولكن، ها هو ، ها هو بلحمه ودمه فى فندق جورج الخامس يقدمه جورج لثلاثة : مستركنجز لى ـ ومسترستانلى، ومستر... وضاع اسم الثالث وهو يرى الرجال الثلاثة وكل منهم يمسك سيجارا يصل ثمنه الى مرتب عشرة أيام .. وبدأ الحديث ، وبدأت الاسئلة ، وبدا نبيل يجيب .. و .. وكم مضى من الوقت ، لايدرى، لايدرى سوى ان مستر كنجز لى قال له فى النهاية..

ـ مبروك ! ..

ساعتها ، كاد نبيل يبكى من الفرح ..

***

قبل أن ينفض الاجتماع . أصدر مستر كنجز لى أمره الى مستر « ستانلى » بأن يتولى مسئولية نبيل .. هنا كانت قد انتهت مهمة « جورج » كما انتهت من قبلها مهمة «حسن» ... واخرج ستانلى قلما وورقة وكتب نبيل : « أقر أنا نبيل ... بأنى قد تعاقدت مع مستر « ستانلى » للعمل فى المجال الصحفى ، وذلك تحت الاختبار لمدة عام كامل ، وبمرتب شهرى قدره خمسون دولارا » .

ووقع نبيل ، وودع الرجالُ ، وكان على موعد مع ستانلى فى اليوم التالى ..

من حسن الحظ ـ ! ! ! ـ ان ستانلى كان يجيد العربية .. فى اليوم التالى ساله ستانلى :

ـ انت نازل فين ؟ ! ..

وعندما عرف اسم الفندق ، أبدى امتعاضه ، أن الصحفى الذى يعمل معهم ، لابد وان يكون مظهره مناسبا لمكانة الوكالة .. وانتقل نبيل ـ مبهورا ـ الى فندق فاخر ـ وفى غرفة هذا الفندق الفاخر، التى كانت معدة من قبل اعدادا كاملا ، جلس ستانلى الى نبيل ..

ـ تعرف تصور ؟ ! ..

وارتبك نبيل ...

ـ ازاى تبقى صحفى ولا تعرفش تصور ؟ !

وبدأ تدريبه على التصوير ، بدأ يدربه على تصوير الاشخاص ، ثم الاماكن ، ثم الاشياء .. كان التدريب يتم خطوة بعد خطوة ، وكان نبيل ينزلق خطوة بعد خطوة ، وكان موعد السفر يقترب ، والتدريب الشاق يأخذ اغلب ساعات اليوم ، وكيف يثبت الكاميرا ، وكيف يصور المستندات ، وكيف وكيف وكيف ... وكان نبيل يستوعب ، تحول ذهنه الى جمرة متقدة .. ولكن .. كان ثمة سؤال وجهه نبيل الى «ستانلى» :

ـ الاخبار ؟ !

ـ مالها ؟ !

ـ ابعثها فى برقيات والا فى جوابات ؟ !

وخجل ستانلى ، كان نبيل ساذجا دون شك ، لم يكن يعرف ان البرقية من الممكن ان يقرأها أى من موظفى البرقيات ، وانها من الممن ان تتسرب الى الصحف وتصبح ، قبل ان تصل اليهم ، بلا قيمة ..

ـ يبقى ابعتها فى جوابات ! !

ومرة أخرى يبرهن نبيل على سذاجته .. أن ما يحدث للبرقيات من الممكن أن يحدث للخطابات ...

ـ طب العمل ايه ؟ !

واذا كان الخبر الصحفى يصبح سرا للجريدة أو الوكالة أو المجلة ، فان للسرية وسائل سرية .. ان لها حبرا سريا عليه أن يتدرب على الكتابة به ! !

وتحمس نبيل ، وتدرب ، ليلة بعد ليلة ، ان كل شيء يجب ان يظل على الكتمان .. حتى اذا جاءت الليلة الاخيرة ، تسلم نبيل كاميرا « زينيت » كما تسلم كيسا جلديا به جيب سرى وضع فيه معدات الحبر السرى .. و .. وقبل ان تمتد يده لمصافحة ستانلى جاءته المفاجأة ..

لقد رفعوا أجره من خمسين دولارا فى الشهر ، الى مائة دولار كل شهر !

ولم يصدق نبيل اذنيه ، ولكن .. كان عليه قبل ان يسافر ، ان يفتح حسابا سريا فى أحد بنوك جنيف، وكان عليه ان يعطى لستانلى رقم الحساب السرى ، ليضع له النقود فيه ..

وكان آخر ما أخذه نبيل من ستانلى ، هو العنوان الذى سيرسل عليه خطاباته ... وكان فى الدانيمارك !

***

كانت هذه هى البداية ، ولا أحد يدرى على وجه اليقين متى وضعت المخابرات المصرية يدها على أول الخيط ، لا أحد يدرى فهذا ـ عند هؤلاء الرجال القابعين خلف أسوار الصمت ـ هو قمة السرية ، غير ان الذى عرفه نبيل عن يقين انه كان ساذجا ، وانه لفرط سذاجته ، تركوه ثلاثة عشر عاما كاملة ، وهو يرسل تقارير توضع باستمرار تحت يده ، تدسها عليه

المخابرات العامة المصرية بأسلوب دقيق لايمكن كشفه.

كان الامر يتطور يوما بعد يوم ، لم يعد المطلوب من نبيل اخبارا صحفية ، بل تحول ، بعد أن قبض الكثير من المـال ، وبعد أن ارتفع أجره الى ١٥٠ دولارا فى الشهر ، الى منظمة لمحاربة الشيوعية ..

ولم يعد المطلوب منه أخبار السكرتارية فقط ، بل اصبح المطلوب منه ان يعرف علاقات الاعضاء بعضهم ببعض ، كيف يتعـــاملون ، وكيف يتصرفون وماذا يكتبون ، و .. و .. والتحق نبيـل بكليـة التجارة بجامعة بيروت حتى يسهل عليه السفر ، وسافر الى بيروت ، وطار منها الى أثينا ، والتقى ستانلى الذى سلمه الى بيتر .. ودربه بيتر على قراءة «الميكروفيلم» وهو هـذا الفيلم الذى لا تتعدى مساحته رأس دبوس، ويوضع تحت ورقة البريد أو فى ثنايا المظروف .. ثم طلب منه ان يتوسع ، أن يجمع أخبـارا عن الجيش ، والحالة الاقتصادية .. ويسأل نبيل ويأتيه الرد بأن هذه المعلومات مطلوبة لمنظمة حلف الاطلنطى ، ويسافر الى بيروت، ومنها الى أثينا ، ويلتقى ببيتر الذى يسلمه الى شخص آخرهو«تونى » .. وكان «تونى» مختلفا، كان جادا متجهما :« سيبك من المؤتمرالافريقىماتبعتش عنه حاجة الا اذا كانت مهمة جدا ، عاوزين أخبـار عن الجيش ، عن العرب ، عن اتجاهات الرأى العام»

وقبل أن يسأل نبيل ، يقرر تونى أن مرتبه ارتفع مرة ثالثة الى ٢٠٠ دولار فى الشهر..

ثلاث سنوات قضاها نبيل مع تونى ، ثلاث سنوات كان يسافر فيها للدراسة أو للسيـاحة أو مع المؤتمر الافريقى الاسيوى ليلتقى بتونى .. تماما ، كما حدث فى رحلته الى الهند عندما التقى به تونى فى نيودلهى ليعطيه

المزيد من المعلومات وكان هـذا فى عام ١٩٧٠، ثم رحلته فى عام ١٩٧٢ ، عندما خطا خطوته الاخيرة ، واصبح جاسوسا مدربا على التقاط الرسـائل اللاسلكية وارسالها فى نفس الوقت .. وتعلم نبيل الشفرة ؛ وكان كتاب الشفرة احدى روايات « أجاثا كريستى » ... كان نبيل ينجح فى علاقته بهم ، وينجح فى دراسته ، ويفشل فى حياته : خطوة بعد خطوة ، وبلغ رقم ما تقاضاه منهم ٣٥ الف دولار ، كان خاطبا لفتاة تركها ، وأصبح خاطبا لفتاة أخرى فشلت علاقته بها ، وانهالت عليه المكافآت .. كانت المعلومات المدسوسة عليه دقيقة الى حد ان خدعت مخابرات اسرائيل .. وكان — فى احد لقاءاته مع تونى — يتحدث عن المنظمة التى يعمل لحسابها عندما سأله « تونى » بجفاء :

— منظمة ايه ؟ !

وقال نبيل :

— منظمة حلف الاطلنطى !

فرد عليه ستانلى :

— نبيل .. انت عارف انك بتشتغل مع اسرائيل ، اللف والدوران مالوش لازمه !

و .. لم ينطق نبيل !

***

فى يوم ١٤ نوفمبر عام ١٩٧٣ قبض على نبيل ، واعترف ... صرح مسئول فى المخابرات المصرية : « أن كان تحت السيطرة الكاملة لمدة عشر سنوات ! »

وعندما علمت خطيبته الثانية بالامر قالت :

— لو كانت دى قضية عادية ، ما كانش ممكن أسيبه لكن .. لكن دى خيانة ..

ثم نزعت الدبلة ..

الصعود إلى الهاوية

« هـذه قصـة هزتنى لشهور طويلة ، وأقضتنى ليالى عديدة ، كل ما أبغى قوله عنهـا ، انها لا تحوى شيئا من الحقيقة ، كما انها لا تحوى شيئا من الخيال! »

الألم والعذاب واللون الاسود يلون كل شيء فى الدنيا، طـار « رمزى » دون سـابق انذار .. يوم تقدم الى خطبتها أحست وكأن القدر يعطيها كل ما تريد ، شباب ومال وجمـال ، هكذا كانت تردد أمها دائما عنه .. رآها ذات يوم لا تدرى أين ، لـكنه تذكر يوم رأته لاول مرة ، كان أنيقا بلا اسـفاف ، وكان رقيقا رقة رجل يعرف كيف يعامل امرأة .. طلبها للرقص فلبت وقد كست وجهها حمرة سـعادة بلا حـدود .. على أنغام الموسـيقى كانت ترقص معه فوق أرض صنعت من سحاب ، زرقة السماء فى عينيه ولون الذهب فى خصلة شعره النافرة الى جبهة توحى بذكاء وقاد .. قبل ان تحتويها ذراعاه كانت تعرف من هو رمزى السيـد ، رجل أعمال فى الثلاثين من العمر ، يقضى نصف حيـاته متنقلا بين بلدان العالم ، والنصف الثانى فى ادارة مكتبه الانيق للاسـتيراد والتصـدير ، طلب منها موعدا فلم تستطع الرفض ، أعطته رقم تليفون البيت ، وأعطاها

كارتا به أربعة أرقام ، وكتب لها الرقم الخامس السرى ، حيث تستطيع ان تجده دائما .. وليلتها ، ليلتهـــا احتضنت وسادتها وغابت مع الاحلام ..

عندما تقدم لخطبتها صاحت فيها أمها :

ـ وده عثرتى عليه فين ياعبله ؟ !

عبله كامل ...

هذا هو اسمها الذى اذا تردد فى كلية الآداب اقترن بالنبوغ والعبقرية ..

عبله كامل ...

لا تدرى من أين جاءها هـذا الذى يتحدثون عنه من اتقاد الذهن وحضور البديهة . طالما جلست الى نفسها وتساءلت ، من أين؟.. والى أين؟.. سر الاسرار أم قدس الاقداس أم حرم الشيطان كان يسكن فى عقلها يوم وضعت الدبله فى اصبعها ابتسمت ساوى ، صديقة العمر ورفيقة الصبا ومدارج الطفولة .. وقالت :

ـ ربنا يسعدك يا عبله .. ربنا يسعدك !

كان فى الصوت رنة حسد أم كانت نغمة اشفاق هى! لا تدرى ، ولم تكن تريد أن تدرى .. كل ما تعرفه انها كانت تنتظر دقة التليفون وصـوته يدعوها للقاء ، كانت ترتمى فى أحضانه فتستعيض بشفتيه عن الدنيا وما فيها ، وبجواره ، فى السيارة حيث الراديو والريكورد والبيك آب والتكييف صــيفا وشــتاء ، عرفت كيف تستمع الى الاغانى لاول مرة ، تذوقت طعم «أم كلثوم» و « عبد الوهاب » ورات وجه الدنيــا الجميل فى ابتسامته .. وتجرى الايام ، تجرى تجرى تجرى ، وكانت تجرى معها دون أن تلهث ، حتى كان هــذا اليوم .. حتى كان ؟ !

راحا يضحكان فى السيارة من أعماق قلبيهما ..كان يردد أسماء المحلات فى القاهرة محلا محلا ، كانا يريدان شيئا جديدا فاذا بهما وطنا كل مكان وذهبا الى كل مكان .. انحرفت السيارة وراحت تجرى على كورنيش النيل فلم تسأله الى أين ، وقفت أمام عمارته وكانت تعرف انه هنا يسكن، نظرت اليه فأطلت عليها ابتسامته كالحلم .. فتحت باب السيارة وراحت تتقافز بجواره الى حيث المصعد ، وفى المصعد احتواها هذا الدفء الذى يسرى فى العظام فينحدرالعمر بما فيه.. وعندما خطت خطوتها الاولى الى داخل المسكن الانيق ، دار راسها .. دار .. دار ، دار قبل الموسيقى والكأس وأحلى رقصات العمر منذ المهد حتى اللحد ..

نظرت اليه قبل أن يغادرا البيت ..

ـ مالك يا عبله ؟

ـ رمزى .. مش عارفه ، وبعدين ؟ !

ـ فيه ايه يا عبله ؟ !

ـ رمزى .. احضنى !

وضمها اليه ، احتواها بين ذراعيه ، لم تكن خائفة .. أبدا هى لم تخف مما حدث .. فى أذنها انسالت كلماته كالنسيم العطر :

ـ هو الجواز ورقة يا عبله .. ما احنا متجوزين؟ !

كانت تعلم يقينا هذا ، كانت تعلم انه على حق وكانت تؤمن بما يقول ولم تكن تشك لحظة ، لحظة واحدة فيه كانت هى اختياره ، كما كان هو اختيارها فمن أين يأتى الغدر أو الخيانة ..

وفى السيارة كانت الدنيا قد عادت كما كانت ، ملونة نعم ، لكن الألوانها طعم الحقيقة ، ساد بينهما الصمت فلا كلمة ، ضغط على زر فانبعثت الموسيقى تسرى

فى جو السيارة الدافىء .. أحست بنظراته تقبـــل وجنتها فارتجفت .. همس :

ـ مالك يا عبله ؟ !

نظرت اليه وتداخلت فى نفسها وأسندت رأسها الى المقعد وقالت :

ـ عارف يا رمزى ساعة ماركبت العربيه حسيت بايه !

وانتظر أن يسمع دون أن يسأل :

ـ حسيت انى مراتك !

وضحك رمزى السيد ، وضحك وهو يضغط يدها فى كفه :

ـ ما انتى مراتى يا عبله .. انتى مراتى !

***

قبل أن تضغط جرس البــاب جاءها صراخهما من الداخل :

ـ ياشيخه ربنا ياخدك ويريحنى منك !

ـ وما ياخدكش انت ليه يا كامل ؟

ـ ياوليه اهدى .. اتقى الله فى عيشتك ؟

ـ وهيه دى عيشه يابو التسعين ملطوش !

ـ يا ام عبله اعقلى وخلى الليلة تعدى على خير !

ـ ومن امتى شفت الخير معاك يا كامل ؟ !

ـ أهو انا كده .. اذا كان عاجبك !

ـ لا مش عاجبنى !

ـ اهو عندك الباب يفوت جمل !

وجاءتها ضـــحكة أمهـــا مجلجلة ، رنانة ، خالية ، مستفزة ..

ـ طب شد حيلك لو كنت راجل !

ـ كده يا ام عبله .. كده .. طب روحى وانتى..

وضغطت عبله على جرس البـاب بكل ما تملك من قوة .. انقطع يمين الطـلاق فلم يتم وفتح أبوها لهـا الباب فأطلت عليهما بتحية المساء . كانت سعيدة . وكانت تعلم ان هـذا « الموال » موسيقى مزعجة تعزف فى البيت ليـل نهار .. تحبهما نعم ، وكيف لا يحب الانسان أباه وأمه ، مختلفان نعم ، ومنذ أن وعت وكل منهما فى واد غير وادى الآخر .. حسم وجودها الامر وكان المشهد كما توقعت ، أمها تجلس وفى يدها أوراق اللعب وهى « تفتح الـكوتشينة » لتستشف المستقبل وهو بجلبابه وطاقيته وسجادة الصلاة يفردها هربا من المعركة .. مكبرا للصلاة متمتما بآيات من القرآن ..

ما الذى أصابها فى تلك الليلة ؟ ! .. لا تدرى

غير انها ارادت أن تقول .. أرادت أن تحدث أحدا ، أن تخبر أمها بالذات بما وقع . ليس . ليس ، ليس عدم ثقة فى رمزى ولـكن رغبة فى المشاركة بالفرحة .

نعم .. كانت فرحة . كانت كعروس ليلة زفافهـا تريد أن تشهد العالم كله ان رجلها أصـبح لها وانها أصبحت له . اقتربت من أمها وقبلتها فلم تنطق الام .. همست :

ـ ماما ..

زامت الام وقد استغرقتها الاوراق والارقام والصور

ـ ماما ..

التفتت فجأة وصرخت :

ـ عاوزه أيه من زفته .. ابعدى عنى وكفايه عمايل أبوكى فيه !

ولقد كان شيئا عاديا هـــذا الذى حـدث ، شىء تعودته ، وكانت تحكى لرمزى عنه ، وأحـــيانا كانت تضحك منه .. غير انها الليلة .. الليــلة .. الليـلة

بالذات ، شعرت وكأن أمها تصفعها ليلة الفرح !

ــ ماما .. أنا عاوزه اتكلم معاكى !

ــ سيبينى فى حالى .. عندك ابوكى روحى له !

ونهضت مبتعدة ؛ جرح هو أم قبح كان مخزونا فى القلب .. أنهى ابوها صلاته مبسملا ومحوقلا فانزلقت لتركع بجواره على الارض هامسة :

ــ بابا ..

ــ سيبينى فى اللى انا فيه يا عبله .. كفايانى عمايل أمك وقرفها !

وعلى الفور جاءته من حيث كانت أمها قذيفة ، رد عليها بأخرى .. واشتعل البيت بالنار وهى واقفة ترقب ... نادت على الام فلم ترد ، نادت على الاب فلم يرد ، صرخت فيهما فازداد صراخهما . ماما . بابا . ماما . بابا . ولكن ، كانت الحرب بينهما تدمر فيها كل شيء ، كل شيء ..

فى اليوم التالى أدارت قرص التليفون :

ــ رمزى بك من فضلك !

ــ رمزى بك مسافر يا مدموازيل !

نزل الخبر على راسها كالمطرقة ، عنيفا ، رهيبا ، مدمرا ، وجاءها الصوت من الطرف الآخر :

ــ الو .. الو .. الو ..

ــ سافر ؟ ! .. سافر امتى ؟ ! ..

ــ سافر أوربا !

وعندما وضعت السماعة فى مكانها ، لم تكن الدنيا تدور ، أبدا .. ولم تصعد الدموع الى عينيها ، أبدا . فقط . طوفان رهيب من الكراهية راح يتدفق من أعماقها . كيف . كيف . كيف .

ولا جواب ..

وهكذا جاءتها الكراهية بما لم تحلم به أبدا .

وهكذا فى لحظة واحدة انتقلت من عالم الى عالم .. ومن دنيا الى دنيا ..

وهكذا ازداد تفوقها وازداد نبوغها وازداد اعجاب الناس بها ، كما ازداد عدد الذين أحبوها ! !

فى فناء الجامعة جذبتها سلوى من يدها مبتعدة عن الشلة الضاحكة :

ـ عبله .. انتى اتجننتى ؟ !

ـ ليه بس يا سلوى ؟ !

ـ ايه اللى انتى بتعمليه ده ؟ !

ولم تكن عبله ترى فيما كانت تفعله جريمة ثلاثة من زملائها وقعوا فى غرامها فما ذنبها .. ومنذ عام وبعض عام كان رمزى قد اختفى ، لم تتصل بهولم تفكر ولم تحاول غير انه لم يتصل بها .. خلعت الدبلة ولم تجد من تسر اليه بما حدث سوى سلوى .. ارتاعت سلوى وبكت وقضت أياما حزينة .. غير ان عبله لم تحزن أبدا ، ولم تبك أبدا ، بل انطلقت لتدمر كل شيء ، كل شيء . ولم يكن ما يحدث بين «العيال» فى الكلية يعنى عبله أو يشغلها .. كان ما يعنيها وما يشغلها حقا هو « البروفيسور بيير » ..

كان أستاذا للغة الفرنسية لكنهكان يتقن العربية.. كان شابا وكان وسيما ، لكنه كان عالما بكل ماتحمل الكلمة من معنى .. كان صديقا للجميع غير انه كان صديقا لعبله بنوع خاص .. ذات يوم قال لها :

ـ انتى زى الصاروخ يا عبله .. بس عيبك انك مش موجهه !

فى علاقته بها كان نوع من الحذر لم تعرف سببه .. ردت على صياح سلوى وغضبها قائلة :

ـ ايه اللى مخوفك من بيير ، ده عمره ما غازلنى ، وعمره ما قال لى كلمة خارجه ، وعمره ما اتصرف معايا تصرف غير لائق . وعمره ما ...

ـ البروفيسور بيير بيحبك يا عبله !

ـ لا ! ..

قالتها بحزم شديد ، قالتها بثقة شديدة ، ليس حبا هذا الذى يكنه لها بيير ، أبدا ليس حبا ، انه شىء آخر ، شىء غامض لا تدريه . قالت لسلوى هذا كما قالته لنفسها ، لم تعد تفكر منذ ذلك اليوم ان تتحدث الى أمها أو أبيها ... ولم تعد تفكر منذ أن اخبرت سلوى بما فعله رمزى أن تطلعها على شىء ، فما الذى كان هناك ، فى أعماقها ؟ !

ـ بروفسور بيير .. أنا عاوزه اسألك سؤال .. لكن ؟ !

ـ أنا هنا علشان اجاوب على أسئلتك يا عبله !

ـ انت بتحبنى ؟ !

ـ لا

بثقة قالها .. بهدوء نطق بها .. فتركته ومضت وهى واثقة من انه كان صادقا .. شىء غريب هذا الذى كان يربطها به ، شىء غريب ومخيف ومروع ، غير انه كان مثل القدر ، يسعى اليها حثيثا ، دون أن تستطيع دفعه .

ـ الفلوس مش كل حاجه يا عبله .. انتى مجنونة!

ـ لو كان بابا غنى ما كانش رمزى عمل كده !

ـ رمزى عمل اللى عمله لانه ندل !

ـ رمزى عمل اللى عمله يا سلوى لانى فقيرة .. لأن معنديش فلوس ..

ـ انتى مصدقة نفسك !

ـ أنا مقتنعه باللي أنا باقوله ! ..

ويوم ظهرت نتيجة الليسانس كانت ناجحة ، وكان هذا اليوم هو موعد زواج سلوى من عزت !

ـ تفتكرى لو ان باباكى مكانش له المركز ده ، وما كنشى عنده الفلوس دى ، كان عزت خطبك ؟ !

ـ عبله .. انتى اتجننتى .. عزت بيحبنى ، وانا باحبه !

ـ تفتكرى لو ما كانشى باباكى غنى وفى المركز ده ، كان عزت وقع فى غرامك !

ـ عبله .. اخص عليكى !

ـ ما تزعليش منى يا سلوى .. انتى عارفه .. أنا صريحة ، وهى دى الحقيقة !

وقبل هـذا اليوم بأسـابيع طويلة ، كانت تحيا ازمة الفستان ..

ـ ماما .. أنا لازم أحضر فرح سـلوى ، وأنا ماعنديش فستان !

ـ وأنا أجيب لك منين .. عندك أبوكى !

وذهبت الى أبيها :

ـ بابا .. ..

لـكنها لم تـكمل .. فلقد انفجر فيها هادرا شاكيا أمها فمضت .. ويومها لمح البروفسور بيير فى عينيها ذلك الحزن الذى ينبىء عن عجز .. قال :

ـ مالك يا عبله ؟ !

ـ زعلانه !

ـ ليه ؟ !

ـ علشان فستان ! !

كان بيير ، رغم كل شىء ، قد أصبح صديقا لها .. كانت تجلس اليه بالساعات لتناقشه ويناقشها ، لتحكى

.. كان بيير بارعا فى جر قدمها لأن تقول كل شىء ..
ذات يوم سألته :
ـ بروفسور بيير .. انت بقيت عارف عنى كل حاجه!
وابتسم بيير ولم يرد .. غير انه فى ذلك اليوم الذى حدثته فيه عن الفستان قال :
ـ انا حاجيب لك فستان هدية ! ..
ـ مش حا اقبلها ؟ !
قالتها فى تحدى الواثق من نفسه !
ـ من عند بيير كاردان فى باريس !
برضه مش حا اقبلها ..
لكنه .. قبل الزفاف بيومين ، همس فى اذنها قائلا :
ـ عبله .. الفستان وصل !
وكانت هذه هى المرة الاولى التى تهزم فيها عبله كامل .. كانت هذه هى المرة الاولى !

***

عندما خطت عبله الى بيت البروفسور بيير ، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بالليل .. تركت سلوى الجامعة وضحكات الناجحين وتهانى العيال للعيال واصطحبته لترى الفستان .. فى التاكسى قالت :
ـ انا حاعتبره سلف ودين لحد ما اشتغل !
فابتسم بيير ولم يرد ..
لكنها عندما فتحت الصندوق ورأت الفستان ، وعندما شهقت للشىء المبهر الذى انفرد بين يديها .. كان لابتسامة بيير طعم آخر.. غريب ، مثير، غامض.. وقبل أن تخرج من شفتيها كلمة شكر،كان يقدم لها طاقما كاملا للماكياج .. حاولت أن تنطق فلم تستطع ،

حاولت أن تشكره فأبت الـــكلمات ، التفتت اليه وسألت :

ـ بروفسور بيير .. انت بتحبنى ؟ !

ولم يرد هذه المرة ، كل ما فعله انه ضحك ضحكة خفيفة .. ثم غادر الغرفة لترتدى الفستان ! !

***

كان حفل الزفاف مقصورا على الأصدقاء والصديقات والاقارب .. وعندما دق جرس الفيللا الأنيقــة وفتح الباب ، التوت كل الرءوس نحو الضيف القـــادم .. وكانت عبلة كامل تعلم علم اليقين ما الذى أصـــاب الجميع .. الجميع بلا استثناء .. كانت فى هذا اليوم جميلة .. لا .. لم تكن جميلة .. كانت شيئا خارقا للعادة .. وعندما وقفت أمام المرآة قبل أن تغادر بيت البروفسور بيير كان هذا يقف وراءها ، وكان يقول :

ـ أنا خايف على العروسة منك !

لكنها ـ أبدا ـ لم تكن تفكر فى هذا .. كانت تنظر الى نفسها فى انبهار ... ها هو يقينها يتحقق ، ها هى تبدو مثل آلهة من آلهات الاغريق فى فستان باهر ، ولولا المال ، لما وصلت الى هذا ، ولما أصبحت هكذا ، ولما التوت كل الاعناق فى فيللا محمد بك اسماعيل والد سلوى ورئيس مجلس ادارة احدى الشركات الـكبرى ، لتشاهد هذه الفتاة التى كانت ترفل فى ثوب لم تره عين .

وعندما ضمتها سلوى الى صـــدرها ، كانت عيناها جاحظتين وهى تشاهد الفستان هامسة :

ـ جبتى الفستان ده منين يابت ؟!

وهمست عبلة :

ـ دى هدية البروفسور بيير منها فى جوازك !

لحظتها .. لحظتها بالذات .. تقـــدم منها صبرى ضاحكا :

ـ سلوى .. مش تقدمينى .. أنا صبرى .. صبرى عبد المنعم .. ابن خالة سلوى !

ولم تكن عبلة كامل ، تعرف فى ذلك الوقت ، ان القدر قد ربطها بصبرى الى الابد ..

ولم تكن تعلم .. ان الخيوط كانت ـ الآن ـ تنسج غير بعيد عنها ، وفى قلب القاهرة ..

كان من عادة البروفسور بيير ـ اذا ما شرع فى العمل ليلا ـ أن يغلق الابواب والنوافذ وأن يســدل الستار تماما ..

وعنـــدما دلف الى غرفة مكتبه ، وأغلق الباب ، وضغط على هذا الزر الخفى فى مكتبة الحـــائط .. وعندما تحرك ذلك الجزء الصغير فى قلب المكتبة ليكشف عن معداته من الحبر السرى وأدوات التصوير وجهاز الارسال ، كان لا يزال يفكر فيما قالته عبلة كامل ..

امتدت يده فأخرجت الحبر السرى وأدوات الكتابة .. وشرع فى الاعداد لكتابة الخطاب ، فتح كتاب الشفرة وراح ينتقى الكلمات .. لكنه توقف ـ على غير عادته ـ وسرح بخياله ..

واذا كان من الصعب على من كان مثله أن ينفعل فى مناقشة مع انسان وضع عينه عليه ، فانه فى تلك الليلة لم يستطع ... كان اعجابه بعبلة يزداد يوما بعد يوم ، ثمة شيء فى أعماقها يدفعها الى الكراهية والاحتقار ، شيء لم يكن يدريه وان كان يعلم يقينا أنه موجود .. وكان اذا ما انفعل تحدث بالفرنسية حتى تسعفه لغته ، ولقـــد ضحكت عبلة ، وخاضت معه فى المناقشة ،

بالفرنسية التى كانت تجيـــدها ، لترسم له الطريق واضحا .

ـ ماذا تريد أن تقول يابروفسور ؟ !

ـ أريد أن أقول ياصديقتى انك تظنين أشياء لا ظل لها من الحقيقة !

ـ فما الذى تريد أن تعرفه ؟!

ـ ما الذى تريدينه أنت ؟!

ـ اننى أبحث عن القوة !

ـ ان القوة لن تجديها الا فى العلم ، ففى العلم تكمن القوة الحقيقية !!

ـ وفى المال يا صديقى تكمن القوة الفعلية !

ـ ان الحصول على المال سهل يســـير ، فلم اذن تجهدين نفسك فى العلم ؟ !

ـ لانى أريد أن أحصل على أكبر قدر من المال ، ولن يتأتى هذا الا بالعلم !

ـ الى هذا الحد ..

لكنها قاطعته فى صراحة :

ـ الى هذا الحد .. والى كل حد .. لقد هزمت مرة ، ولن أسمح بالهزيمة مرة أخرى !

ـ أتظنين ان سلوى أسعد منك حالا ؟!

ـ يكفيها أنهـــا ستتزوج الليلة دبلوماسيا ، وانها ستسافر الى جنيف بعد غد فى الصباح الباكر ، وانها ستشاهد أوربا . وستتاح لها الفرصة لان تعرف وترى وتتعلم !

ـ هل ترغبين فى السفر !

قالت بالعربية وهى تضحك :

ـ ايدى على كتفك !

ولم يجد بيير ما يكتبه بالشفرة ـ سوى هذا الحوار

.. ضبط الأوراق ، وجهز نفسه ،واضاء أباجورة المكتب وشرع فى العمل بهدوء وداب !

لكنه قبل أن يخط كلمة واحدة نظر فى الساعة .. وكانت امامه فسحة كافية من الوقت .

***

ضحكت سلوى وهى تهمس فى اذن عبلة :

ــ صبرى حايتجنن عليكى !

ــ وأنا مالى !

كانت عبلة ــ الليلة ــ قد وصلت الى ذروة الاحساس بالثقة .. وها هو كل شيء الآن بين يديها ، تدعمت ثقتها بنفسها ساعة أن ظهـــــرت النتيجة ، انها الآن تستطيع أن تقول انها جاهزة لكبح جماح العلم .. كما انها الليـــلة تستطيع أن تقول انها قادرة على هزيمة رمزى !!

ــ رمزى ؟!

ما الذى ذكرها به ؟!

ــ يابت يا عبيطـــة ، صبرى ده مدير عام ، وعمره ٣٢ سنة ، ومهندس ، وعبقرى ، وشغله مهم جدا !

ــ وأنا مالى !

ــ يا عبيطة ... دى البنات حاتموت عليه !

ــ من عبطهم !

ــ وهو حايموت عليكى !

ــ من عبطه !

ــ ده وارث !

ــ يبل فلوسه ويشرب ميتها !

ــ عينه مابتنزلش منك !

ــ يجيب لها سم وينزلها !

ــ كلمنى عنك من شوية ..

وابتسمت عبلة .. كانت تعرف الآن انها قادرة .. كل الاشياء القديمة الآن اصبحت صغيرة .. كل الآلام أصبحت وكأنها لم تكن ... حتى عندما سأل أبوها عنها بالتليفون ، ردت عليه فى لامبـــالاة .. كان قلقا لظهور النتيجة ، فسخرت من قلقه وهى تزف اليه نبأ النجاح .. سألها لم لم تعد الى البيت طوال اليوم ، فتدفق من أعماقها حنين غامض اليه ... وقتها ، أحست فقط انها تحبه .. تحبه لأنه مسكين !



أمام فندق شبرد القائم على شاطىء النيل بالقاهرة ، توقفت سيارة تاكسى ، وهبط منها البروفسور بيير .. كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة بدقيقتين ، دلف الى داخل الفندق ، فاحتواه هواء الهول الدافىء ... انثنى الى اليمين وسار خطوات حتى وصل الى الهول ، تطلع الى الجالسين والجالسات وكان المكان شبه خال .. بنظرة سريعة خبيرة احتوى المكان كله قاطمـــأن واســـتدار عائدا من حيث أتى .. كانت وجهته تلك المكتبة الصغيرة القائمة على يسار المدخل .. تطلع الى بعض الكتب حتى رآه قادما ، لشهور طويلة وهو يلتقى به لكنه – أبدا – لم ير وجهه كما ينبغى .. استدار ووقف أمام الحامل الدائرى الذى يحمل مجمـــوعة « الكارت بوستال » ، اقترب من الحامل وراح يتطلع الى الصور فى امعان ... امتدت يده الى جيب معطفه الداخلى وأخرج الخطاب وفى لمح البصر كان قد دسه بين الكروت .. وكان «هو» يقف فى الناحية الاخرى ، فدفع بيير بالحامل فدار ، ودار الخطاب ليقف عند الناحية الأخرى . وامتدت يد لتأخذ الخطاب وتدسه فى الجيب الداخلى للمعطف الرمادى .. ومضى الرجـل .. وظل

بيير للحظات حتى انتقى كارتا ، دفع ثمنه ، وخط عليه بضعة اسطر ، وكتب العنوان وابتاع من عاملة المكتبة طابع بريد ؛ ثم ترك لها الكارت ، كما تعود أن يفعل .

بعد اربعة أيام بالضبط ، كان هناك اجتماع صغير عقد فى « الموساد » المخابرات العامة الاسرائيلية وكان « ايزاك » ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى يحمل هذا الاسم بجانب اسمه الحقيقي ، يستمع الي كل المعلومات التي وصلت اليهم من فتاة تدعى « عبلة كامل » .. وكان المطلوب شيئا هينا بسيطا ، زيارة السوربون مدتها أسبوعان ، وتذكرة طائرة تمر بجنيف .

فغرت عبله فاها دهشة ، ابتسمت ، كادت تصفق مرحا ...

ــ بروفسور بيير .. انت بتتكلم جد ؟!

ــ تقدرى تلقى التذاكر والمواعيـــد فى مكتب الملحق الثقافى !

فى ذلك اليوم بلغ انفعال عبلة أقصاه .. فمالت على وجنته وقبلته .. كانت الجـــامعة خالية من الطلبة والأساتذة .. لكنها غادرت مكتبه مهرولة،وما أن غادرت سور الجامعة العتيد ، وراحت تبحث بعينها عن تاكسي وهي تحسب ما فى حقيبتها من مال .. حتى وجدت صبرى أمامها ..

دون تفكير .. فتحت باب السيارة ، وصاحت فى مرح :

ــ صبرى .. اطلع بى على الزمالك .. قـــوام ، ماقداميش غير ساعة الا ربع !

وكان المهندس صبرى عبد المنعم ، فى غاية السعادة ، وهو يقود سيارته عبر شوارع القاهرة فى طريقه الى الزمالك ، وكانت عبلة بجواره !

يحبها ؟ !
نعم يحبها !
سؤال وجواب ولا شيء آخر سوى قدر غامض يجذب اليها القلب والنفس والوجدان جميعا . كان عاتيا فلم يخفق قلبه لفتاة أبدا .. الحب كلمة طالما سخر منها لكنه الآن غارق فيها لشوشته ، اسمها عبلة كامل وهاهى تركب بجواره وليس فيها من الجمال الصارغ شيء غير أن فى عينيها نظرة آمرة ، عندما طاردها لم تمانع وعندما حاول اقتحامها صدته قوى لا تعرف اللين أو الهزيمة .. فى البداية كان الأمر عنـــادا ثم تحول الى شيء آخر لا يدريه فى نفسه ، ضحك منه محمود صديقه وقال أن هزيمته أمام الجنس الآخر تحققت أخيرا ، فهل يرضخ .. هل يعرض عليها الزواج ؟!
التفت اليها وهو يقود السيارة عبر شـارع هادىء ظليل من شوارع الزمالك :
ــ عبلة ... تتجوزينى ؟!
ــ ليه ؟!
قالتها ببساطة من سمع من انسان تحية الصباح ، ارتجف من رأسه حتى أخمص قدميه ووقفت السيارة أمام السفارة فغادرتها عبله تقفز كالعصفور :
ــ حاتستنانى ؟!
ــ أكيد !
مضت واختفت وأشعل سـيجارة واستغرق فى التفكير ..
رفضته .. لا . لم ترفضه . بل رفضته . بل هى لم ترفضه .. كالبندول كان يرتجف هنا وهناك ، لا يدرى كم غابت من الوقت لكنها عادت وكانت فى قمة السعادة .
قبل السفر بيوم كانا يجلسان معا فى أحد الكازينوهات

المتناثرة على شاطىء النيل ، كان الغروب يلون الدنيا بشفق رقيق ، وكان هو يحكى عن نفسه ، وكانت هى لا تحكى شـــيئا .. حتى اذا حان موعد الانصراف همس :

ـ عبلة ... انا باحبك !

ـ تبقى عبيط !

ـ ياعبله أنا باحبك فعلا ... باحبك وعاوز اتجوزك ومش قادر أعيش من غيرك !

وجاءته الاجابة ضحكة ساخرة رقيقة :

ـ لا .. حاتقدر تعيش من غيرى !

وفى اليوم التالى كان على موعد معها لكى يوصلها الى المطار .. وفى الصباح اعتذر بالتليفون عن عمله ..وظل يعد الدقائق حتى حان الموعد . وعنـــدما دق جرس التليفون فى الطرف الآخر رفعت السماعة وجاءه صوت أمها :

ـ مين اللى عاوزها !

ـ انا .. صبرى عبد المنعم .. ابن خالة سلوى !

ـ دى سافرت من ساعتين ياباشمهندس !

ـ سافرت ؟!

صرخها ولم يقلها .. صرخهـــا بلوعة من أصيبت كرامته فى صميم الصميم ... فى ذلك اليوم ، أحس وكأن أحدا ألقى به من فوق قمة جبل ، فظل جسده يتدحرج، حتى وصل الى هاوية بلا قرار !

***

ابتسم ايزاك وهـو يرقب وجه البروفسور أرموند أستاذ اللغة الفرنسية بالسوربون .. كان أرموند كلما انفعل تقلصت عضلات وجهـــه وتراقصت نظارته أمام عينيه فبدا منظره مضحكا .. كان ايزاك ـ الآن ـ يعرف

طريقه جيدا ، فراح يداعب البروفسور أرموند وهو يلف ويدور حول الموضوع :

ـ مسيو ايزاك .. هل لك أن تخبرنى بما أتيت من أجله اليوم ؟!

ـ نحن عادة يا بروفسور لا نأتى الا للخير !

قال أرموند وقد ازداد تلاعب نظارته فوق أنفه :

« استمع الى يا سيدى .. فى بادىء الامر ، عندما جئتم الى لكى تهددونى بالتعامل مع النازى ... كنت أرتجف هلعا ، لا لخوفى مما يمكن أن تفعلوه بى ، ولا لخوفى من تلامذتى اذا دقت من حول اسمى طبول معاداة الســـــامية .. ولكن لانى بالفعل لم أتعاون مع النازى ، لقد كنت أيامها شابا ممتلئا حماسا .. وكنت هنا فى السوربون غارقا لأذنى فى مصطلحات اللغة وآدابها .. واذا بكم تهددون وتتوعدون . لا . لا .. لا تقاطعنى بالله عليك فما عدت أحتمل ... ولقد رضخت لطلباتكم واغلب الظن انى سوف أرضخ الى ما لا نهاية .. غير أن مايضنينى حقا هو ذلك الأسلوب الذى تتبعونه معى .. لماذا اللف والدوران ؟! . لم لا تقول ماعندك وتريحنى من العذاب ؟!

ـ عبلة كامل !!

نطق ايزاك الاسم فساد الصمت وسيطر على الغرفة العنيفة فى المبنى العتيق .. ترددت أنفاس البروفسور ارموند بصوت مسموع وبدا انه لا يسمع بهذا الاسم من قبل ..

ـ من هى عبلة كامل ؟!

ـ فتـــاة مصرية حصلت على زيارة السوربون لمدة اسبوعين !

ـ وماذا تريد لها ؟!

ـ أن تمنح بعثة دراسية لمدة أربع سنوات !

هز البروفسور أرموند رأسه موافقا .. بدا وكأنه قد فقـــد الحيلة تماما ولم يعد قادرا على المقاومة ... هؤلاء الاسرائيليون الذين يعيشون فى الارض تحـــكما وجبروتا . الذين يملكون من القـــــول ما لا يستطيع مقاومته ليس غريبا ان يطلبوا شيئا لفتاة مصرية لـكن الغريب هو تلك الابتســـامة المطمئنة التى ترتسم على شفتى ايزاك .. مضى الاسرائيلى مختفيا وتركه وحده ، أحس بالحاجة الى هـــواء منعش فجمع أوراقه وغادر غرفته وكان فى طريقه الى السينما .. هنـــاك ، على شاطىء النهر ، يستطيع أن يجلس ، وأن يفكر ، وأن يبث مافى صدره الى مياهه الجارية !



هبطت عبلة مطـــار جنيف وقلبها يرقص طربا .. ها هى أوربا أخيرا . تلك القمـــــة التى طالما أودت مخيلتها من خلال الكتب والسطور وكما كان الحلم كان الواقع ، كل شىء كان يجرى فى مجراه دون عقبات . ارتمت بين ذراعى سلوى ودمعت عيناها، صافحت عزت بمرارة لم تعهدها فى نفسها من قبل ، كانا فى انتظارها وكانت تعلم أنهما سيكونان هناك دائما ..

ـ سلوى .. لو قلت لك أنك وحشينى تصدقينى ؟!

ـ ولو قلت لك انى عيانه بيكى تصدقينى .

وضحك عزت وهو يقود السيارة التى تحمل أرقاما دبلوماسية ، الشوارع والبيوت والنظافة والنظام وكان الدنيا تحولت الى جنة ثرثر عزت وكأنه يبدو سعيد وهو عبله غيرته منها ، فلا حديث لسلوى الا عن عبله ، ولا خناقة الا حول عبلة .. حتى صاحت سلوى :

ـ لكن قولى لى يابت انتى .. ازاى جيتى الزيارة دى للسوربون !

ـ البروفسور بيير !
ـ أنا قلت كده برضه !
وعندما اختلت كل منهما بالاخرى بعد الغداء أمطرتها سلوى بالأسئلة .. صبرى ، ماذا فعل معها وماذا فعلت معه .. انزعجت سلوى فابن خالتها لا يستحق من عبلة ما تفعله به ..
ـ أنا قلت له يا سلوى .. من الأول قلت له !
ـ طب وليه ماتتجوزوش ؟!
وأطلت من عينى عبلة نظرة سالت كالدموع وامتدت يد سلوى لتربت على يد عبلة :
ـ عبلة .. صبرى مثقف وفاهم وممكن يفهم حاجات كتير !
قالت عبلة وقد تحجرت النظرة فى عينيها :
ـ أنا مش عاوزه حد يفهم حاجه ، ومش عاوزه حد يمن على بحاجة !
ورغم هذا كان كل شىء يبدو كالحلم ، الدنيا والجبال والثلوج والشوارع والنظافة والناس .. هنا يجب أن يعيش الانسان ، هنا يصبح الشرف شرفا الكلمة كلمة والحب حبا ، هنا .. هنـــا . هنا رأت قدرى وكأن الارض انشقت لتخرجه كالمارد من قمقم كان حبيسا به .
دق قلبها . دق ودق ودق . كانوا فى ملهى ليلى ، وكانت سلوى تراقص عزت عندما وقعت عيناها عليه ، قدرى ، قدرى بلحمه ودمه .. يا للسنين عندما تطوى حياة الانسان بلا رحمة ، يا للحب عندما يتحول الى غدر من نوع قاتل ، ياللأيام تبقى فى الوجـــدان بعذابات بلا حدود .. وعندما التقت عيناها بعينيه ، وعندما أطلت من عينيه تلك النظرة المرحة كادت تتهاوى .. وعندما وقف أمامها تثلجت أطرافها حتى التجمد . انحنى عليها

بابتسامته التى طالما سحرتها :

ـ عبلة .. والا انا باحلم !

قالت وهى تمد له يدا كالجثة :

ـ ازيك يا قدرى !

***

غير ان القوة ليست غريزة يولد بها الانسان ، واذا ما أراد الواحد منا ان يكون قويا فعليه أن يضع أمام عينيه هدفا لا يحيد عنه . ثم ، يصبح عليه أن يسحق ذاته ـ اذا ما اقتضى الامر ـ لكى يحقق هذا الهدف ومنذ أن فعل قدرى مافعل كان هدفها هو القوة .. كانت تنظر الى الناس فى الشارع فترى فى عيونهم نظرات الشماتة والكراهية لكنهم لا يعرفون أنها أذلت ، فيه كانت ترى كل الرجال، وأصبح الهدف ـ بالقوة وحدها ـ الانتصار على الرجـــل ، واذا كانت الطبيعة قد جعلت من المرأة مخلوقا أضعف ، فلم خلقهـــــا الله امرأة ؟! .. مضت الليلة واذا بالمارد يهدد فى داخلها ساخرا بالماضى بالحب بكل الذى كان... ثلاثة أيام فى جنيف كان قدرى يطاردها فيها ليل نهار .. ذات مرة كانت تجلس بجـــواره فى السيارة عندما صرخ :

ـ طب انتى عاوزه ايه ؟ !

ـ مش عاوزه حاجة !

ـ أنا اعتذرت لك عن اللى كان .. أنا عاوز أصلح غلطتى !

ـ مين قال لك انك غلطت يا قدرى ؟!

ـ عبلة .. اسمعى لما أقول لك ..

قاطعته بصوت هادىء واثق :

ـ اسمع انت يا قدرى ، اللى انت عملته ماعملتوش غصب عنى ، أنا مش قاصر ، واللى حصل حصـــــل

برضاى .. انت ليه بتعذب نفسك !

ــ أنا عاوز اتجوزك !

ــ وأنا باعتذر !

ــ انتى خطيبتى !

ــ دبلتك أهيه !

لحظتها فقط ، تذكرت انها خلعت الدبلة حقا لكنها كانت تحتفظ بها أينما ذهبت ، أينما كانت ، حتى فى نومها كانت تحتفظ بالدبلة .. لا تدرى كيف كان يحدث هذا لكنها الآن وعته وكأنها ما كانت تفعله الا حلما ووهما ... مدت له يدها بالدبلة فلم يمد يده ليأخذها . وفى بساطة وضعتها فى جيبه وكانت تشعر أنها تسقط فى هذا الجيب .. قلبها ذاته !

سحقا للماضى كله ، سحقا لكل شىء فما بعد القلب شىء ، سحقا للدنيا للرجال للناس للمجتمع فماذا تركوا لها سوى العذاب دفينا حتى النخاع .. ها هى القوة تحقق انتصاراتها بانهيار قدرى ... أين هذا الذى يتوسل من هذا الذى تركها بلا كلمة اعتذار . وفى مصر الآن يربض صبرى كالكلب فى انتظار أن يلعق يدها باشارة ، أو بنظرة ولسوف تحطم كل شىء كما حطموها، الأب والأم والحبيب والناس جميعا .. ليسقط الضياع والضعف ، ولتصعد سلمها الى الطائرة المقلعة بها الى باريس ، ولتتمتع بدموع سلوى ونظرات قدرى الحزينة، لتصعد الآن الى حيث السحاب وما فوق السحاب ، زارة هى السوربون لكنها لن تخرج منها صفر اليدين .. واذا ما عادت الى مصر فلسوف تعود منتصرة .. غادرتها مهزومة بما لا ذنب لها فيه ، مسحوقة بقوى لا قبل لها بها . لكنها الآن ، وبعد أن هزمت قدرى ووقفت تنظر اليه من أعلى .. تعلم علم اليقين ، ان هذه

هى البداية ، فقط ، هى البداية ..
ولـكن ... الى اين ؟ !
هذا ما لم تكن تدريه . بل هذا ، ما لم تفكر فيه !

***

نظر اليها البروفسور ارموند من خلف زجاج نظارته .. وبدت عيناه شديدتى الزرقة ..

ـ بروفسور .. هل ترى فى شيئا غريبا ؟!

زام ارموند ولم يجب عن السؤال لكنه راح يحملق فيها مرة اخرى ..

لساعتين كاملتين كانا يتناقشان ، فى الأدب فى جان جاك روسو ، فى موليير ، فى فولتير ، فى فيكتور هيجو ، فى الثورة الفرنسية .. فى .. فى . فى كل شىء وكانت ممتازة ، فلم جاء ايزاك لـكى يرشحها ؟ !

سؤال لم يجد أرسوند له جوابا...ساد بينهما الصمت لدقائق ظلت فيها مبتسمة .. أخيرا وجد مايقـــول فقال :

ـ مدموازيل كامل .. هل لك أن تخبرينى بهدفك من هذه الزيارة ؟!

جاءه الرد كالصاروخ فى قوته وبساطته .

ـ لا أعتقد ان أحدا ياتى الى السوربون الا للمعرفة والعلم !

زام لوضوحها وتململ :

ـ اذن فانت تريدين بعثة لاربع سنوات !

ـ أنا لم أحلم بشىء كهذا !

كان ردها مثل لطمة جملته يقفز واقفا :

ـ ماذا تقولين ؟!

ـ أنا لم أحلم بشىء كهذا وان كنت أتمناه !

اقترب منها محملقا فيها بعينيه الزرقاوين .

ـ على هذا المقعد الذى تجلسين عليه الآن ايتهـــا الآنسة ، جلس مئات من الطلبة من كل انحاء العالم ، وعلى مدى ثلاثين عاما كنت أستقبل هؤلاء الذين يبحثون ويريدون المعرفة ، ولقد التقيت فيهم بأنماط ونماذج عديدة .. غير ان المحير فى الموضوع كله ، انك ممتازة !

ـ هذه شهادة أعتز بها حقيقة !

ـ ليست شـــــهادة لكنه تقرير واقع ، أن نطقك للفرنسية يكاد يقترب من الكمال !

ـ أعرف هذا يا سيدى !

وتوقف .. وبقـــدر ماهزه غرورها بقدر ما أشاع السرور فى نفسه ، بدت له كطفلة شقية ، لم تكن جميلة ذات الجمال الآسر أوالساحر لكنها كانت جذابة ، نعم، فى عينيها تحد غريب ..

ـ مدموازيل كامل .. ماذا تريدين ؟!

ـ القوة !

ـ ان فى العلم تكمن القوة الحقيقية !

ـ ولـكن فى المـال تكمن القوة الفعلية !

أثاره ردها لأنه كان حقيقيا أم لأنه كان سافلا بالقدر الذى يهزه من الاعماق .. انثنى بعيدا عن الموضوع هاربا من المناقشة وراح يهدر متحركا فى الغرفة بانفعال غامض :

ـ واذا ما قال لك العالم كله أن نطقك للغة الفرنسية يقرب من الكمال فهذا لا يعنى شيئا .. أما اذا قلت أنا هذا فهذا هو الذى يجب أن يعنى بالنسبة اليك شيئا !

ـ لقد رددت ما سمعته من الآخرين !

ـ انها مملكتى هذه اللغة التى امتصت شبابى وحياتى!

ـ وأنا يابروفسور ملكة فىمملكة ذات وقدكشفت لك عنها القناع !

ـ أتريدين أن تقولى انك لم تفكرى فى البعثة أبدا ؟!

ـ لم احلم بها وان كانت تبدو لى الآن وكأنها أمنية الامانى جميعا !

ـ مدموازيل كامل .. من انت ؟!

ـ أنا .. عبلة كامل !

***

فليأت الجميع اذن ليصفقوا فليس بعد هذا انتصار .. ولو أنهـــا رأت ماحدث اليوم فى السوربون فى الحلم لاستيقظت وظلت تضحك من الأعماق .. لم تكد تتفوه بالاجابة حتى وقع الأستاذ صريع القســوة ، ولقد قال نابليون ذات يوم : لا توجد كلمة مستحيل الا فى قاموس الضعفاء ... وها هى القسوة تؤتى ثمارها ... يجرى نهر السين تحت قدميها كالحلم الذى طال انتظــاره ، وهى تعرف رقم الاتوبيس الذى ستركبه لكنها لا تعرف أين تنزل منه .. أعطاها البروفسور بيير فى القاهرة عنوان بنسيون رحبت بها صاحبته واختفت .. و ها هى تصعد الاتوبيس تكاد تصرخ من السعادة والفرح ، ولسوف تبقى فى القاهرة اسابيع تعود بعدها الى مدينة النور ، تميل على جارها لتسأله عن المحطــة بالفرنسية فاذا الرد يأتيهــا بالعربية :

ـ لسه فاضل محطتين !

تطلعت اليه فاذا الوجه أوربى تحوطه لفحة الشرق الدافئة :

ـ ايزاك .. اسمى ايزاك !

ـ وعرفت منين انى مصرية !

ـ اللى يعيش فى مصر تمنتاشر سنة مش محتاج حد يعرفه على حد مصرى ؟!

ـ انت عشت فى مصر تمنتاشر سنة !

واتصل الحديث ..

وكان ايزاك رقيقا كالفرنسيين ، فرنسى هو لكنه ولد فى القاهرة عندما كان أبوه موظفا ببنك الكريدى ليونيه .. فى حديثة رنة صدق لا تخطئها أذن غير أنه صدق مشوب بالغموض .. غادر معها الأتوبيس وسار بجوارها حتى البنسيون وأعطاها رقم تليفونه ووضع نفسه تحت أمرها لو أرادت .. ودعته فانصرف دون أن ينظر خلفه . دلفت الى الداخل فلم تلحظ تلك النظرات التى كانت تحيط بها أينما ذهبت، رحبت بها مدام لاروش صاحبة البنسيون وغمزت بعينيها وهى تحـذرها من الرجل الفرنسى الذى يتقن الغزل كما يتقن شرب النبيذ .. تناولت طعام الغداء وصعدت الى غرفتها غير أن السعادة حملتها على أجنحتها بعيدا عن النوم ... حل المساء فهبطت الى الطريق وكان الشانزلزيه هو بغيتها . ها هى الحرية أخيرا بين يديها كاملة ، لا اب ولا أم ولا صبرى يطاردها ليل نهار بعذاب بلا حدود .. جلست فى أحد المقاهى وطلبت قهوة سوداء وسرحت ــ رغما عنها ــ اليه . الى صبرى ، ذات يوم كان يحكى لها عن المطارات وهناجر الطائرات التى يبنيها .. كان يحكى لها عن الجبهة وقواعد الصواريخ . كان يجلسان على النيل عندما سألته :

ــ الا قولى ياصبرى .. مش الكلام اللى انت بتقوله ده سر ؟!

وتلجج كطفـل صغير يحبو ، ارتبك وتضرج وجهـه بالحمرة ..

ــ انت زعلت ؟!

ــ لا .. !

ــ أمال مالك ؟!

ــ اسمعى ياعبله ... اللى زيى الناس بتحسده على اللى هو فيه .. أنا عندى ٣٢ سنة ومدير عام .. أنا باحب

شغلى آه ..انما باتعب فيه ، عارفه يعني ايه مطار سرى، عارفه يعني ايه ملجأ لطيارة ثمنهـــا كذا مليون جنيه ، عارفه يعنى قاعـــدة صواريخ أنا ليل ونهار مفروس فى شغلى ، وعمرى ما اتكلمت مع حد فى الشغل ده .. لكن الواحد ساعات بيحب يفضفض .. افضفض مع مين ان ما كنتش حافضفض معاكى ؟ !

يومها بدا لها صبرى مثل طفل حقيقى .. كان رقيقا .. كان معذبا . كان . كان وحيدا .

ـ بونسوار مدموازيل عبلة !

رفعت راسها وكان وجه ايزاك يطل عليها باسما .

ـ بونسوار مسيو ايزاك !

ـ تسمحى لى أقعد معاكى !

ـ من فضلك !

وجلس ايزاك !

***

صاحت سلوى فى عزت :

ـ عزت . تكونش بتغير من عبلة صحيح ؟

ـ دى مش غيرة يا سلوى !

ـ أمال ايه الكلام اللى انت بتقوله ده !

ـ تعالى نحسبها سوا .. ازاى تقولى ان عبلة انسانة عادية وهى بترفض كل حاجة حلوة بتيجى لها ؟

ـ هى دى عبلة !

ـ قدرى اعتذر لها .. قدرى تعبان !

ـ وهى كمان تعبت أكتر منه . خليه هو يتعب شويه !

ـ طب وصبرى .. ابن خالتك ؟!

ـ عبلة مش بتحبه !

ـ امال بتحب مين ؟ !

كان هذا هو السؤال الذى يشغل بال سلوى .. كانت

تحب عبلة : نعم .. وكانت تعرف عنها مالا يعرفه أحد : نعم .. وكانت معجبة بها : نعم .. غير ان هذا السؤال ظل مطروحا بلا اجابة .. ومنذ أن فعل قدرى ما فعله معها ، وهى تتغير ، شيء غريب كان ينمو تحت جلدها . شيء مخيف كان يقود عبلة نحو مجهول لا يعرفه أحد .. ربما كان عزت على حق ، وربماكان مخطئا ، وسواء أكان هذا أم ذاك . فلا شيء يصبح بعيدا عن عبلة .. لا شيء .

التفت الى عزت وكان مستغرقا فى مشاهدة التليفزيون :

ـ عزت .. انت عاوز تقول ايه على عبلة ؟!

ـ عاوز أقول ان عبلة اما تطلع فى سابع سما .. واما حاتنزل ..

وقاطعته سلوى :

ـ سابع أرض !

التفت نحوها واعتدل وقال :

ـ ياريت .. كانت تهون !

ليلتها لم تنم سلوى قبل الخامسة صباحا . فما الذى كان يفكر فيه عزت ؟!

***

كانت تسير بجواره وكل ذرة فى عقلها تحسب الحسبة .. ولا جواب .

كان صحفيا فى احدى وكالات الانباء وكان مسئولا عن الشئون العربية وكان يعرف كل مايجرى فى باريس عن العرب .. عندما علم أنها ستعود لبعثة دراسية نبهها الى ان مرتب البعثة لن يكفيها لكى تعيش فى باريس واذاكان البروفسور أرموند قد قال لها فى الصباح ان اللغة نتاج حضارة فها هو ايزاك يقول :

ـ علشـــان تعرفى فرنساوى كويس لازم تعيشى فى باريس !

سألته عن نفسه فراوغ وزاغ ولم يذكر لها شيئا رغم انها ذكرت له كل شيء . قال لها أنها تستطيع أن تجد عملا فى « الشركة العربية للتصدير والاستيراد » . لكنه لم يذكر لها أنه يعرف فيها احدا .. سألته فجأة :

ـ طب ازاى تعرف كل الحاجات دى ولا تعرفش حد من العرب !

ونظر اليها نظرته تلك الواثقة الغريبة وقال :

ـ انتى نسيتى انى صحفى !

ـ ماهو علشان صحفى لازم تعرف الناس !

ـ أنا أعرفهم انما هم مش لازم يعرفونى !

و .. لقد كان حديثه اقرب الى الواقع وهو يحكى عن الصحافة فى الغرب .. و .. ولقد كان حديثه طليا شائقا وهو يحكى عن متاعب المهنة .. و .. ولقد كان حديثه مثيرا وهو يحكى لها عن تتبعه ذات يوم لزعيم عربى جاء الى باريس سرا لعقد صفقة سلاح لكنه سبق الجميع بالنبأ بعد مطاردة استمرت أسبوعين ..

وعندما ودعها أمام البنسيون لم يطلب منها موعدا للقاء .. لكنه ذكرها بانها تحمل رقم تليفونه .

لكن عبلة عادت الى القاهرة دون أن تطلبه ودون أن تراه ..

***

فى مساء أحد أيام سبتمبر كان ايزاك يجلس مع ديفيد .. وكان ديفيـــد قد وصل من تل أبيب منذ ساعتين فقط .. وكان الحديث بينهما يدور حول عبلة كامل .. قال ديفيد :

ـ تحب نتكلم بالعربى ؟!

ـ أحسن علشان أتمرن شوية معاك !
ـ عبلة كامل حاتوصل باريس بكره !
ـ والمطلوب ؟!
ـ الأوامر فى تل أبيب يتطلب تجنيدها بأسرع ما يمكن ... كل التقارير اللى اتقدمت عنها بتقول ان عبله كامل من الممكن انها تكون مفيدة بشكل غير عادى !
ـ علشان علاقتها بصبرى عبد المنعم ؟!
ـ مش بس صبرى .. عبلة .. عبلة .. نفسها مطلوبة للغاية ! ..

***

بعد ذلك بأربعة أسابيع كانت عبلة تسير بجوار ايزاك على شاطىء السين ، كان الخريف يحمل معه بشائر برودة الشتاء القارس .. وكانت الأسابيع التى مضت تحمل فى أحشائها الكثير من التغيرات .. وكانت المناقشة بين عبلة وايزاك تدخل طورا غريبا .. التفتت اليه عبلة قائلة :
ـ ايزاك .. انت قلت لى انك صحفى !
ـ عبلة . مالك ؟!
ـ وطلبت منى انى أديك أخبـــــار عن الطلبة العرب والمصريين !
ـ أنا عاوز أزود دخلك ياعبلة !
ـ سألتنى عن كل حاجة فى حياتى وعرفتها !
ـ مجرد دردشة !
ـ فى الأول كنت عاوز تعرف أى أخبار !
ـ شغلتى يا عزيزتى . أكل عيشى !
ـ وبعدين بدأت تسأل عن أخبار من نوع معين !
ـ الصحفى بيجرى ورا المتاعب !
ـ وبعدين بدأت تسأل عن أسرار !
ـ ودى فيها ايه ؟!

ودلوقتي على الشركة العــــربية ، ورحت وسألت ، ولقيت شغل !

ـ لانك موهوبة !

ـ ورغم كل ده .. عمرك ماقلت لى ايه اسم وكالة الانباء اللى انت بتشتغل فيها !

وساد بينهما الصمت .. ساد تماما . ولم يعد ايزاك يسمع سوى صوت خطواتهما فوق بلاط الشـــــارع .. راح يرقب عبلة وهي تسير بجواره .. كانت فى عينيها نظرة غريبة كانت مخلوقة غريبة وعندما راحت تتحدث من جديد كانت وكأنها تتحدث مع نفسها :

ـ سألتنى عن صبرى وعن شغله ...

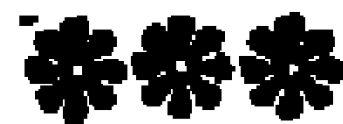
ـ سألتنى عن المطارات السرية ، سألتنى عن الجبهة !

ـ عبلة .. عاوزه تقولى ايه ؟!

ـ عاوزه أقول انك بتشتغل لحساب اسرائيل !

وتجمدت الابتسامة على شفتيه .. وكاد يشهق وهو يسمعها تقول :

ـ وأنا مستعدة أشتغل معاكم .. تدفعوا كام !



ابدا .. ولا أدق أجهزة التحليل البشرى فى « الموساد » ـ المخابرات العامة الاسرائيلية ـ استطاع أن يتنبأ بهـذا الذى حدث ... لا الكومبيوتر ولا المعلومات ولا التحليلات ولا هذا الحشد من العقول الجبـــارة الذى انكب يدرس ماحدث .. استطاع أن يصل الى تفسير ...

لم يكن التقرير الذى كتبه « ايزاك » من باريس ، تقريرا ... ففى تلك الليلة الخريفية التى عرضت فيها عبلة عليه أن تتعامل مع المخابرات الاسرائيلية لم يستطع أن يكتب شيئا ، لم يكن هناك ما يمكن أن يكتب ... ظل وقتا طويلا بعد أن ترك عبله حائرا ، كان هذا الذى حدث

فوق كل تصوراته ، فلم يجد مايكتبه سوى نص الحديث الذى دار بينه وبينها على شاطىء السين فى باريس .

فى تلك الايام انكب أحد العلماء ، وكان أشيب الشعر مريض الجبهة ، لم أستطع الحصول على اسمه ـ ربما لاعتبارات أمن مصرية !! ـ قد قرأ نص الحديث مرات ، ثم خلع نظارته الطبية وغرق فى التفكير العميق ... كان قد اطلع على كل شيء عن عبله كامل ، ثم خرج بنتيجة مذهلة ، تلك النتيجة كانت تقـــــول : ان عبلة كامل « ظاهرة » !!

بعد أسبوعين خرجت من الموساد تعليمات موجهة الى باريس تقول :

« لابد من وصول عبلة الى تل أبيب ! »

كان هذا هو الحل الوحيد ، أن توضع « الظاهرة » تحت الفحص الدقيق فى تل ابيب نفسها ، فى داخــــل الموساد وتحت مجهر أعتى خبراء الانسان ، وأحـــدث الاجهزة العصرية لكشف الكذب والصدق ولمعرفة هــذه « الظاهرة » التى لم يسبق لها مثيل فى عالم الجاسوسية .

ودق جرس التليفون فى غرفة عبلة ذات صـــباح ، وجاءها صوت ابزاك ، وكان يتحدث « بالكود » ، وهــو حديث بالشفرة لا يستطيع فهمه سواها .. وكان يحدد لها موعدا بعد ساعة واحدة بالضبط .

***

فى ذلك الصباح على وجه التحديد ، كان فى القاهرة ضابط مخابرات شاب اسمه « عمر حمدى » . وكان عمر يتذكر مقابلة الليلة السابقة مع « الدكتور » ... كان « الدكتور » كالعهد به بسيطا الى حد الغموض الشديد ، وكان يتحـدث عن نشـــــاط الاسرائيلين الذى تزايد فى السنوات الاخيرة فى باريس بالذات .. وكعادته ، لم يقل

الدكتور شيئا عن الموضوع الذى استدعى عمر من أجله .. كان يعلم ان « عمر » ضابط من نوع خاص ، لايقتله فى الدنيا سوى الروتين والنظام والقيود .. وكان اذا ترك لحاله ، تصرف فى حدود الروتين والنظام دون أدنى خلل ...كان يعلم أن عمر «هاو» أكثر منه محترفا ... كذلك ، ففى نهاية المقابلة التى شرب أثناءها عمر كوبا من الينسون سلمه الدكتور مظروفا أصفر كبيرا ، وتبادل كل منهما النظرات ، ثم انصرف عمر !

كان كل مايحويه المظروف شيئا غريبا .. قد يحدث لى أو لك ، قد يصادفك أو يصادفنى دون أن يلفت أنظار أحد على الاطلاق .. كان « أحمد » ضابط المخابرات المصرى فى باريس يكتب عن مقابلة جاءت بمحض الصدفة ، بينه وبين الدبلوماسى الشاب عزت حسين ، وكان عزت عريسا حديثا يصحب عروسه الى قمم الجبال للانزلاق على الجليد .. لم يكن هنـاك ما يثير فى عزت وعروسه سلوى ، لكن الذى لفت نظر أحمد ــ وكان صديقا لعزت تقابل صـدفة معه فوق قمة أحد الجبال للاستمتاع بالجليد ــ ذلك الحديث الذى كان يدور بين عزت وسلوى حول صديقة لسلوى تدعى « عبلة كامل » .. ولقد نسى أحمد ذلك الحديث بعد دقائق من مغادرته لسويسرا فى طريقه الى فرنسا فى نهاية عطلة الاسبوع .. غير أنه تذكر كل شىء فجأة ، عندما سمع اثنين من المصريين ، كانا يجلسان ذات مساء على أحد مقاهى الشانزليزيه ، وكانا يتحدثان بحماس شديد من « عبلة كامل » !

هو نوع من الحدس لا يستطيع الانسان تبريره على الاطلاق ، غير ان « أحمد » عرف فى صباح اليوم التالى ، ان عبلة تشغل وظيفة سـكرتيرة لمدير الشركة العربية للاستيراد والتصدير فى باريس ، وان حيويتها ونشاطها

جعلا منها حديث الناس فى المكتب .. كان كل شيء ، منذ أن تولت عبلة عملهـــا هناك يسير بدقة ونظام جعلا منها نجما يلهج الجميع بالثناء عليها .. الى هنـــا كان الامر طبيعيا للغاية ، لكن غير الطبيعي ان عبلة لم تكن قد قضت فى باريس سوى شـــــهور قليلة ، ورغم هذا كانت كل التقارير التى كتبت عنها فى السوربون ، تقول انها : أكثر من ممتازة .. وفوق كل هذا لم يقتصر الامر عـلى نشاطها العلمى ، بل تعداه الى ذلك النشاط وتلك الحيوية التى تميزت بهما عبلة وسط الطلبة العرب فى السوربون ، وعلى مقاهى الشانزليزيه .. ولم يكن شـــكا بحال من الاحوال ، هذا الذى دفع أحمد ــ ضابط المخـــابرات المصرى الذى يشغل وظيفة مدنية فى باريس ــ الى السعى للقاء عبلة . أبدا لم يكن الشك ، فلم يكن حول هذه الفتاة المصرية أى شيء يثير الشـــبهات ، لــــكنه كان حب الاستطلاع !

ولقد تعمد هذا الشاب أن يلتقي بعبلة ، لكنه ــ شأنه شأن هؤلاء الرجال الذين تعودوا أن يقبعوا خلف أسوار الصمت ــ تعمد أيضا الا تلتقى هى به ... وكانت المفاجأة مذهلة .

ذلك انه فى علم المخابرات غير المكتوب ، والذى يكتسب بالتجربة والمران والخبرة المتراكمة عبر السنين ، يوجد نوع من الاسئلة ، أو أسلوب للمناقشة ، يبدو لاشد العيون والآذان تدقيقا ، أسئلة أو مناقشة عادية ، لكنها بالحس وحده ، تظهر أن هذا النوع من الاسئلة من نوع الاسئلة الاستثارية ، التى تستثير السامع فتدفعه للادلاء بالمعلومات فى مجال المفاخرة أو المباهاة أو محاولة التظاهر بالعلم ببواطن الامور ، أو حتى فى مجال الحماس .

كانت أسئلة عبلة من هذا النوع ؟ ..

فكيف !؟ ..

كان الامر عويصـــــا غريبا مثيرا دون شك .. فان الجاسوس القادر على القاء هذه الاسئلة ، لابد وأن يمر بمراحل تدريبية عنيفة ، تجعل قدرته على التحكم فى القاء السؤال وأسلوب طرحه وحتى نبرة الصــوت ، لا توحى بأقل قدر من الشك ... ولقد كانت عبله قد قضت فترة بسيطة فى باريس ، وكان تدريبها على هذا المستوى . امرا مستحيلا .

مرة اخرى ... كيف ؟!

وفى حديقة النادى ، وتحت شمس الخريف ، كان « عمر حمدى » يفكر فى عبلة كامل ... ويبدو أنه فى لحظة كان قد توصل الى قرار . فلقد غمغم وهو ينهض بكلمة غريبة .. قال :

ـ ظاهرة .. ثم انصرف !

***

فى تل أبيب كانوا أمام طريقين .

فاما أن تكون عبلة كامل عميلة للمخــــابرات المصرية ، دربت تدريبا عاليا ..

واما أن تكون .. « ظاهرة » !!

وكان الحل فى وصول عبلة الى تل أبيب .. ولكن ، قبل رحلتها الخطيرة تلك .. لابد من قيامها برحلة الى مكان آخر... رحلة استكشافية الى « القاهرة » ...

وكان هذا ما قاله ايزاك لعبله فى ذلك الصباح ...

ـ عاوزينك تسافرى مصر ، وتحاولى تعرفى معلومات عن محطات الصواريخ بين مصر واسكندرية !

ـ « أو . كى » .

قالتها عبلة وكأنها تلبى دعوة للسينما !

كانت التقارير التى تقدمها عبلة عن الشركة العــربية

للاستيراد والتصـــدير ، مذهلة ، وكانت معلوماتها عن الطلبة العرب واتجـاهاتهم السياسية رهيبة ، أكثر من ذلك ، فلقد دفعت الى « عملاء » ايزاك ، الذين لا تعرفهم، ببعض الطلبة العرب الذين حملوا الى بيوت الملذات هناك، حيث يغرقون فى الخمر واللحم الابيض ، وينزلقون من حيث لا يشعرون بكل ما يعرفون من معلومات !

***

هنا وهناك كان الامر غير طبيعى ، هنا وهناك كان الامر يدعو للدهشة والشك ..

أما عبلة نفسها ، فكانت تحيا وسط خضم رهيب من الاحساس بالسيطرة والجبروت والانتصار !

وها هى القاهرة مرة أخرى تحت قدميها .. ومنـذ اسبوع زارها « رمزى » فى باريس ، كان يريد ولا يريد ، فى عينيه نظرة توسل وقد وقع فى حبها حتى قمة رأسه ، وكم تلذذت وهى تركب بجواره سيارة « المرسيدس » الفـــاخرة ، وكم تمتعت وهى تستمع الى موســيقى « الكاسيت » ، وكم خفق قلبها وهى تسمعه يهمس :

ـ عبلة ... مش نتجوز بقى ؟!

لكنها ابتسمت ، لم تفكر لحظة ، وقالت :

ـ لا .. !!

غير أن صبرى عبد المنعم كان فى انتظارها فى المطار ، وكان صبرى بالذات هو بغيتها هذه المرة !

وكم كانت اجراءات الجمارك معها سهلة ، رحبوا بها ـ على غير العادة ـ ولم يفتحوا حقيبة واحدة من حقائبها الاربع .. كانت قد اشترت كل ما تحتاج اليه أمها ، وكان ابوها قد سافر الى احدى الدول العربية مهاجرا من جحيم الام ... وكان صبرى فرحا سعيدا يقبل يدها بين الحين والحين وهو يهمس :

ـ واحشانى !

وكانت تبتسم .. وكانت تعرف الطـــريق جيدا الى بغيتها ...

ـ صبرى .. عاوزه أتفسح .. مصر واحشانى !

واذا كان المال هو سر القوه ، فها هى تحصل على المال بالزوفة .. واذا اقترب منها أحد فانها تتحداه أن يعثر على دليل واحد ضدها ... مصر أو اسرائيل أو حتى جهنم .. لا يهم ، المهم ان تبقى قوية ، وأن تظل قوية .. هناك ، فوق القمة لا يهجرها رجل من أجل امرأة ، أو من أجل فقر نشأت فيه دون ذنب .. المـــــال هو القـــوة الحقيقية يابروفسور ارموند صدقنى ، ومهما قلت عن العلم فمهمته الحقيقية هى زيادة حصيلتك من المال ... فالمال هو الذى يشترى ويبيع ويبنى ويهدم ، وهو الذى يخترع ويبتكر أيضا ...

ـ مالك ياعبلة ؟!

كان فى الطريق من القاهرة الى الاسكندرية ، الطريق الزراعى حيث اللافتات تقول : ممنوع مرور الاجانب .. وكانت تطلق ضحكة ، وكان صبرى يستجيب ، هنا مطار سرى ، وهنا مطار سرى ، فى هذا المطار بنى صبرى أربعة هناجر للطائرات ، أما هذا فيقع على بعد ٢٠ كيلو مترا داخل المزارع ، ولقد وقعت فيه حادثة كاد صبرى يفقد فيها عمره .

كان يكفى أن تلقى اليه سؤالا بسيطا ، كى يقول ويقول، فتسمع هى وتسمع ، وتختزن وتختزن ...

فى الاسكندرية قضيا يوما رائعا .. أعطته عبلة شفتيها نعم ، لكنها لم تعطه أكثر ..

وفى اليوم التالى عادا من الطريق الصحراوى .. وفيه عرفت عبلة مواقع وحددت فى راســـها خرائط ، وقال

صبرى الكثير من المعلومات !

وعندما عادا الى القـــاهرة ، كانا يبـدوان فى قمة السعادة ..

لكن انسانا آخر ، فى القاهرة ، كان يبدو تعيسا أشد ماتكون التعاسة .. وكان اسم هـــذا الانسان : « عمر حمدى » .. وكانت وظيفته : ضابط المخابرات العامة المصرية .

***

خرج عمر بيقين لا يقبل الجدل .. ان عبلة كامل : جاسوسة !

واذا كان لا يملك الدليل .. فانه تعود الصبر ..

وذات عصر كانت عبلة تجلس مع صبرى عبد المنعم فى أحد الــكازينوهات المطلة على النيل ، أما عمر ، فكان جالسا فى سيارته ، بعيدا عنهما تماما ، على الطريق العام، غير أنه كان يسمع كل كلمة يقولانها !! .. فتحت غطـاء المائدة الانيق ، كان ثمة رأس مسمار صغير لا يلحظه أحد ولايراه ، وكان رأس المسمار هذا شديد الحساسية ، ينقل كل كلمة وكل حركة وكل صوت مهما خفت ، بدقة شديدة الى سيارة عمر ...

ـ مالك ياعبلة !؟

ـ أبدا ياصبرى ...

ـ مسافرة بكره !

ـ حاوحشك !؟

قال صبرى : « قوى قوى » .. ثم ضاع الصوت فى سيارة عمر .. فلابد أن صبرى وضع يده فوق رأس المســـمار .. وكان فى مكانه يستطيع أن يرى صبرى بوضوح وقد أمسك بيد عبلة .

ـ فيه ايه ياعبلة لازم تقولى لى !

وقصت عليه عبلة القصة..ان قوما فى باريس أنقذوها من ورطة وقعت فيها ، ورطة تقع فيها أى فتاة غريبة فى بلد غريب .. هؤلاء الناس لا يريدون مقابلا لما قدموه لها سوى بعض المعلومات ، انهم يعملون من أجل السلام ..

ـ انت بتبنى للحرب ياصبرى .. انت بتبنى دشم وهناجر وقـواعد وصواريخ .. لكن .. هل انت عاوز الحرب ؟!

ساد الصمت .. وتوتر عمر فى جلسته ، انه يريد أن يدفع أى عدد من سنى عمره ولا ينزلق هذا الشـاب ، لو أنه عرف قبل اليوم ـ على وجه اليقين ـ ان هذا سوف يحدث لنقله ، لطلب سفره الى آخر الدنيا حتى لا يلتقى بعبلة ... ان كل شىء يتم بسرعة جنونية ، هذا الشـاب العبقرى يفقد حياته ووطنه ، يفقد كل شىء من أجل نظرة من عينى فتاة انغرس الحقد فى قلبها حتى نخاع النفس ذاتها ..

ـ عاوزة ايه يا عبلة !

ـ أى معلومات هايفة !

ـ بس المعلومات اللى عندى سرية ، خطيرة !

استكانت عبلة كقطة ، قالت :

ـ طيب بلاش !

وجن جنون صبرى ، ها هى طوع يديه ، ولكن عليه أن يدفع الثمن ..

ـ على العموم انت مش حاتقول لى حاجة ببلاش ، كل بثمنه ! ..

ـ ثمن ايه يا عبلة .. مهما كان الثمن ، دى أسرار البلد ! ..

ـ خلاص . يعنى لمـا نتجـوز ، حانعمل بيتنا منين ، وازاى ؟!

وكانت هذه هى القشة التى قصفت عمر صبرى .. ففى تلك الليلة ، أعطته نفسها لاول مرة وآخر مرة ، فقال نعم ! ..

كان هذا هو الجنون بعينه .. ولابد من استدعاء عبلة كامل الى تل ابيب فى أسرع وقت ! ..

كان ايزاك مذهولا مما حدث .. لقد كسرت عبلة كامل كل قواعد الأمن وقوانينه ..

ـ انتى مجنونة .. ازاى تعملى كده ؟! ..

فى برود ردت عليه :

ـ بلاش تاخد المعلومات .. بسيطة ! ..

ـ عبلة .. فيه حاجة اسمها أمن .. وتدريب .. دانتى كنتى مكلفة انك تجيبى شوية معلومات وبس .. لكن تشتغلى فرازة ، وتجندى صبرى .. ده جنان ، حايبلغ عنك ! ..

ضحكت عبلة وقالت :

ـ صبرى هنا .. فى شنطة ايدى دى ! ..

وبعد لحظات قالت :

ـ على العموم ، أنا ماقلتش حاجة خالص .. واذا حد اتشنق ، أنا اللى حاتشنق يا ايزاك ! ..

بعد أسبوع بالتمام والكمال...كان «عمرحمدى» يقف فى مطـــار « روما » وهو يرتدى بالطو ثقيلا ، وقبعة انجليزية ، ونظارة شمسية سوداء .. وكان يرقب عبلة كامل ، وكانت قد وصلت من باريس فى نفس اليوم ، وهى تتجه نحو احدى طائرات شركة العال الاسرائيلية فى خطا ثابتة .

كان يعرف انها تحمل جواز سفر اسرائيليا ، وكان يعرف اسمها الجديد !!

ثلاثة أسابيع فى اسرائيل ، زارت فيها عبلة كامل ، أحد الكيوبترات ، كمـــا زارت مواقع الجيش الاسرائيلى فى الجبهة المصرية ــ !!! ــ وزارت أيضــا مبنى الكنيست وحضرت احدى المناقشات الحادة !

ثلاثة أسابيع قضتها عبلة كامل فى اسرائيل .. ثلاثة أسابيع تركت فيها علامة غريبة ..

كانت كل أجهـــزة الفحص قد اثبتت ان عبلة كامل ليست عميلة للمخابرات المصرية .. لـكنها ايضا اثبتت انها « ظاهرة » غريبة .. ففى احدى الحفـــلات التى أقيمت لها ، رفع أحدهم كأسا قائلا :

ــ نخب البطلة عبلة كامل ! ..

وشرب الجميع النخب الا هى ...

ــ مدموازيل عبلة .. نحن نشرب نخبك ؟!

ــ لكنى لست بطلة ... انا جاسوسة !

وذهل الجميع ، غير أن عبلة كانت تبتسم ...

وفى آخر لقاء لعبلة مع واحد من كبار ضباط «الموساد»، كان يحضر اللقاء أربعة من ضباط المخابرات الاسرائيلية ... وكان الضابط الكبير يبدو سعيدا سعادة لا حد لها وهو يقول :

ــ صدقينى يا آنسة عبلة .. انك أفضل عندى من هؤلاء الأربعة مجتمعين !!

وكان هذا نصا من الاعترافات التى أدلت بها عبلة كامل بعد القبض عليها .

***

القبض عليها ؟!

هذه قصة واحدة من اعنف قصص الذكاء فى هـذا العالم الغريب ...

كان عام قد مضى .. وكان صبرى قد انزلق تماما ..

أصبح جاسوسا يكتب التقارير بالكربون السرى ويرسل الاشارات اللاسلكية .. القصة طويلة ، وانهيـــار هذا الشاب وحده يحتاج الى صفحات وصفحات، ويوم أعطته عبلة أول ألف جنيه ، أنفق منها عليها قبل أن تعود الى باريس ثمانمائة جنيه .. وعمر حمدى ، هذا الشاب الصبور الذى كان يعلم ان ايزاك هناك على الشاطىء الآخر للبحر الأبيض المتوسط يرسم الخطط ويدير ، والذى كان يعلم أن الانتصار يعنى الصبر .. ولم يكن الانتصار هو القبض على عبلة أو صبرى .. ذلك ان الجاسوس ، يوم أن « يعرف » يصبح بلا قيمة بالنسبة للجهاز الذى يقاومه ، انه يوضع ، ليل نهار ، كل لحظة من لحظـــات عمره ، كل همسة وكل حركة تحت التسجيل الدقيق ، هنا كان صبرى مكشوفا تماما بلا قيمة وكل المعلومات التى كانت توضع تحت يده كانت صحيحة ، لـكنها كلها كانت معدة بدقة لا تقبل الشك لحظة ... وهنـــاك كانت عبله قد استأجرت مسكنا فاخرا وعاشت فيه ... الجاسوس يصبح بلا قيمة للجهـــاز الذى يقاومه يوم يكشف أمره ، ويصبح بلا قيمة للجهاز الذى يشأـغله يوم يقبض عليه .

لم يكن هناك خطر من صبرى أو من عبلة ، ولقـــد كان الهدف ، والضربة ، هو ايزاك ..

وكم تمنى « عمر حمدى » أن يجرجر رجل ايزاك الى القاهرة !

غير أن « الدكتور » ـ كعادته ـ استدعاه ذات يوم ..

ـ أيه الأخبار يا عمر !

وبسرعة أفضى عمر بتقرير مركز ومكثف عن القضية.

بعدها ساد الصمت طويلا .

ـ فيه حاجة يافندم ؟!

قال « الدكتور » :

ـ اقبض على صبرى عبد المنعم !

لطمـــــة كانت هى . ضربة قاضية لكل الخطط التى وضعها عمر حمدى . أصيب للحظات بذهول .. كان هذا الامر مثل قبضة رهيبة تهوى فوق راسه .. ان القبض على صبرى ، معناه ان عبلة أصبحت طليقة الى الأبد ..

ـ عبلة فى باريس يافندم !

ـ وعبلة لازم تيجى مصر .. بأى ثمن !

ـ يا فندم ...

وقبل أن يكمل عمر حمدى قاطعه الدكتور :

ـ ده أمر يا عمر .. اقبض النهارده على صبرى .. وعبلة لازم تيجى مصر فى أقرب وقت !

ـ طب ازاى !

ـ بأى شكل !

ساد الصمت تماما تلك الغرفة المتيدة ذات الجدران العالية والزخارف ، والتى كانت ذات يوم مملوكة بالقصر الكائنة فيه لأحد اثرياء اليهود الذين امتصوا دم الشعب لأربعين عاما ، ثم تركوا مصر بثرواتهم الى الخارج ... كان هـــذا الامر ـ الآن ـ يعنى بالنسبة لعمر شـــيئا غريبا ..

ـ امتى يافندم آخر ميعاد لازم تيجى فيه عبلة !

ـ قبل اكتوبر ياعمر .. قبل أكتوبر !

كان هذا الحـــديث فى اليوم الثالث من شهر مارس عام ١٩٧٣ .

وخرج عمر حمدى وراسه يدوى بالاف الاسئلة .. وكان فى هذا الحديث الكفاية !

***

ـ .. صبرى .. أنا عاوزك تسمعنى كويس ، عاوزك

تفتح لي ودانك ، أنا معنديش لك أي وعد بأي حاجة .. كفاية انك اعترفت انك أخطأت في حق البلد وهي في حالة حرب ، كفاية كل اللي قلته ، وكفاية الأدلة اللي اكتشفت اننا عارفين مكانها من زمان .. الكربون السري ، الشفرة ، جهاز الارسال ... كل حاجه ... كل حاجه !

كان صبري يجلس ذاهلا من كل شيء منذ أن قبض عليه بمعرفة النيابة .. وكانت النيابة العسكرية قد استجابت لرجاء المخابرات العامة بأن يبقى صبري في بيته لا يبرحه .. ولقد تعود رجال النيابة العسكرية الا يسألوا عن الأسباب .. تم كل شيء في هدوء ، وانهار صبري واعترف بكل شيء .. وها هو عمر ، شاب دمث الخلق ، يحدثه برقة .

ـ ايه اللي مطلوب مني يا عمر بيه ؟!

ـ عبلة كامل !

وساد الصمت ..

ساد تماما .. ولدقائق زادت على الخمس ثم ينطق أحدهما بكلمة .. بعدها نهض عمر قائلا :

ـ خد وقتك وفكر .. ولما يستقر رايك على حاجة ، اديني خبر !

ـ أنا موافق .. ايه المطلوب مني ؟ ..

***

جلس ايزاك في الشقة الفـــــاخرة التي استأجرتها المخابرات الاسرائيلية لعبلة كامل في حي من أرقى أحياء باريس ، وكان يمسك بيده كأســـــا من الكورفوازييه الفاخر ، وقال :

ـ انتي ايه رأيك ياعبلة !

ـ رأيي أني أسافر طبعا !

ورغم كل ما كانت تتمتع به عبلة من عبقرية ، الا أنها

كانت تنقصها الخبرة !

فلقد اشتم ايزاك من تلك الرسالة الشفرية التي وصلت .. والتي طلبت من عبلة أن تسافر الى بيروت لتلتقى ، بعد أربعة أسابيع بالمهندس على شاكر ، عضو البعثة الاقتصادية المصرية ، لتتسلم منه رسالة هامة ، اشتم رائحة ليست طبيعية .

ـ انا مش مرتاح للرسالة دى يا عبله ...

ـ ايه السبب .. صبرى بعت رسـالته فى ميعادها بالضبط ، وبيبعت رسايله فى ميعادها بالضبط... تلقاه صور لنا كام خريطة مهمين وبعتهم مع وأحد صاحبه على انها جواب غرامى لى ..والميكروفيلم تحت ورقة البوستة عادى ! ..

جرع ايزاك كاس الكونياك دفعة واحـدة ، ونهض قائلا :

ـ واشمعنى بيروت ! ..

وضحكت عبلة ...

ـ لأن البعثة دى مسافرة بيروت ! ..

وسار ايزاك الى ركن فى الصـالون كان يحتفظ فيه برقعة شطرنج ... كانت الرقعة تمثل جانبين ، أحدهما ايزاك .. وكانت قطعة قد تحركت كثيرا وفى كل اتجاه وقد حاصرت قطع الجانب الآخر الذى كان ـ حتى ذلك الوقت فى رأى ايزاك ـ لم يحرك قطعة واحدة من قطعه .. ووقفت عبلة ترقبه وقد استغرق فى التفكير .. ثم امتدت يده لتحرك قطعة من الرقعة الاخرى... وسألته عبلة :

ـ ايه ده ؟!

ـ لو كانت مصر حست بحاجة ..حاتتصرف كده !..

ثم ملأ صدره بالهواء وقال :

ـ لازم ناخد رى أتل أبيب ! ..

***

جذب « عمر حمدى » الملف السرى من بين يدى وقد كنت مستغرقا فى قراءته وقال :

ـ ده مابقاش جهاز مخابرات... انت عاوز ايه ؟ !...

قلت : « عاوز اللى حصل » !..

ـ أنا مش مرتاح للرسالة دى يا عبلة !

ـ مش ممكن ؟! ..

قلت وأنا أضحك :

ـ لاعتبارات الأمن .. مش كده ! ..

ومال عمر فى غيظ وهو يقول :

ـ انت بتضحك ؟! .. أنت تعـــرف اننا لو مكناش قبضنا على عبلة كامل ، مكانش ممكن حرب أكتوبر تتم بالكفاءة التى تمت بيها ؟! ..

كان عمر حمدى هو الآخر يلعب الشطرنج فى مكتبه بمبنى المخابرات العامة فى القاهرة ، مع مجهول ..

كان هذا المجهول بالنسبة اليه معـــلوما .. كان هو ايزاك .. وقد استغرق فى تلك الايام فى مراجعة رقعـة شطرنجه لساعات .. كيف يمكن أن يتحرك ايزاك ؟! .. وهل تأتى عبلة الى بيروت لتلتقى بالمهندس على شاكر !!

***

هبطت احدى طائرات شركة العال الاسرائيلية مطـار باريس ، وكانت تحمل راكبا شديد الاهمية .. وكان هذا الراكب يحمل جواز سفر لا يحمل اسمه الحقيقى .. ولقد استقل هذا الراكب سيارة تاكسى غادرها فى ميدان الكونكورد .. ثم دخل أحد المحلات وشرب فنجانا من القهوة السوداء ، وغادر المحل بعد أن نظر فى ساعته .. لم يكن يحمل حقيبة ، وكان يبدو أنه يعرف باريس جيدا ،

وفى احدى المنحنيات قفز الى سيارة اتوبيس كانت تدور فى المنحنى ببطء ، ثم غادرها عند شاطىء السين ، ثم استقل تاكسي كان يبدو انه فى انتظاره .. وعندما انطلق التاكسى قال السائق :

ـ هل كانت الرحلة موفقة ؟! ..

ورد الراكب الغامض :

ـ لولا بعض الضباط لكان كل شىء على ما يرام ! »

وبعد عشرين دقيقة بالضبط ، كانت عبلة كامل تقدم لهذا الراكب كأسا من البراندى المعتق ، وكانت تستعد لمناقشة الأمر مع ايزاك ..

وقبل أن ينتصف الليل ، نظـــر الرجل الغامض فى ساعته قائلا :

ـ لم يبق سوى ساعة على موعد الطائرة العائدة الى تل أبيب ، ولقد وعدت زوجتى بالعودة هذا المساء ، وعلى كل ، فان الأمر الأخير لك يا ايزاك .. انت المسئول عن عبلة ، غير أن رأيى الشخصى ، الا تســــافر عبلة الى بيروت ! ..

***

غير ان ايزاك اتخذ قراره أخيرا ، وبعد أسبوع ، وعلى مسئوليته الشخصية ، بأن تسافر عبلة الى بيروت لتأخذ الرسالة من المهندس على شاكر !!

قال عمر حمدى لأحد معاونيه :

ـ عبلة حاتســـافر .. بس لازم تعدى على جنيف الأول ! ..

ـ اشمعنى يافندم ! ..

ـ اصلها طماعة .. طماعة قوى ! ..

قال هذا ، وطلب من معاونه أن يحجز له مقعدا على اول طائرة الى جنيف .

كانت ساعة الصفر تقترب .. وكانت قطع الشطرنج في مكتب عمر حمدى قد تداخلت الآن تماما .. وبدا أن المعركة محتدمة احتداما شديدا ..

وبعد عشرين ساعة بالتمـــام والكمال ، كان يجلس فى مكتب « عزت » بالســـفارة المصرية فى جنيف .. وكان الحـــديث الذى أدلى به الى عزت ، بوصفه دبلوماسيا مسئولا ، قد حول وجه عزت الى لون الشمع الأبيض .

ــ أنا عارف أن الصدمة مش عادية يا عزت بيه ، انما انت عارف ان أمن البلد فوق كل اعتبار ! ..

وخرجت الـــكلمات من بين شفتى عزت مرتعشـــة باكية :

ــ يا خسارة .. لكن .. ايه المطلوب ! ..

ــ رمزى .. رمزى السيد ! ..

ــ ماله ؟! ..

ــ فيه احتمال كبير ان عبلة تعـــدى على جنيف قبل ماتروح وتتصل برمزى ! ..

ــ طب ليه ؟! ..

ــ رمزى بيشتغل فى الاستيراد والتصدير ولازم عنده معلومات ! ..

ولقد كاد رمزى يفقد صوابه فى تلك الليلة .. كان مثل مجنون أطلق من عقاله فراح يهلوس .. اجتاحه احساس طاغ بالذنب .. غير ان « عمر حمدى » استطاع رغم تعبه الشديد وحاجته الاشد الى النوم ، أن يعيد اليه صوابه .. كان كل المطلوب منه ، اذا ســـألته عبلة عن بعض المعلومات بطريقة أو بأخرى ، أن يدلى اليها بمعلومات مزيفة ! ..

ووافق رمزى ..

وذهب عمر الى الفراش... والقى بجسده عليه وأغمض جفنيه.. لكن شيئا ما أطار النوم من عينيه .. لم يكن ذلك الأرق الذى كان ينتابه كلما وصلت احدى العمليات الى ذروتها ، بل كان قلقا غريبا .. قلق ازداد مع دقات التليفون الرقيقة .. رفع السماعة . فجاءه صوت يعرفه جيدا :

ـ رمزى حاول الاتصـــــال بباريس ثلاث مرات .. وبعدين اخذ العربية وطلع على أوتوستراد الغرب ! ..

لثوان تجمدت كل حواس « عمر » .. أيكون قـد خدع كل هذا الوقت ، أيكون رمزى واحدا من الشبكة .. والا ، فالى أين هو ذاهب الآن !

بعد اثنتى عشرة دقيقة بالضبط : كان صاحب الصوت يفسح المكان خلف عجلة القيادة لعمر حمدى ، الذى أطلق للسـيارة المرسيدس ٤٥٠ العنان ... كان مجنونا ... وكان صاحب الصوت بجواره يصرخ :

ـ حاتروح فى داهيه ! ..

ـ هو ده الطريق لباريس ؟! ..

ـ هو ! ..

ـ قبل ماتسافر لازم تأخذ بنزين وزيت ! ..

ـ صح ! ..

ـ فيه محطة فى الطريق ! ..

ـ فيه ! ..

وصرخت عجلات السيارة على أرض الطـريق تنهبها نهبا .. وقبل أن تصل الى محطة البنزين المضاءة ، لمح عمر حمدى سيارة مرسيدس أخرى تغادرها بسرعة .. فصرخ :

هادى عربية رمزى ! ..

ـ هى ! ..

ليلتها ، كادت تحدث كارثة ، عندما اقتحمت سيارة عمر الطريق لتوقف سيارة رمزى ! ..

***

« .. رمزى بك ، الدليل الوحيد على انك عبيط هى دموعك ، وأنا اذا كنت أقــدر دلوقت آخد معاك اجراء قاسي .. الا انى باخيرك مابين حاجتين .. مصر .. أو عبلة كامل ! ..

حدث هذا فى احدى غرف السفارة المصرية بجنيف ، وكان الوقت فى الثــالثة صباحا .. وكان رمزى السيد يبكى كطفل . وسؤال واحد يردده بلا توقف : « ليه ياعبلة .. ليه ؟! ..

***

قبل أن تصل الطائرة القادمة من جنيف الى مطــار بيروت بثلاث ساعات ، أقلعت من مطار القاهرة الدولى ، احدى طائرات شركة مصر للطيران .. ولم يلحظ أحد ان الطائرة كانت خالية ، لم يكن بها سوى ثلاث مضيفات ، اقلهن وزنا كانت تزن تسعين كيلوجراما ، وتحمل عضلات مصارع .. ولم يكن احد يعرف : الى أين ؟! ..

***

فى مطار بيروت كان عمر حمدى يدخل غرفة مدير المطار مع صديق لبنانى ، ليأخذا اذنا بدخول احدى سيارات السفارة المصرية الى أرض المطــار .. ان طائرة جنيف تحمل راكبة هى قريبة لعمر حمدى ، مريضة بالقلب .. وفى شهامة وافق مدير المطار دون تردد وهو يقول :

ـ تكرم أخى ! ..

وصلت طائرة شركة مصر للطيران الى مطار بيروت قبل عشر دقائق بالضبط من وصــــول طائرة الاير فرانس القادمة من جنيف... فتح الباب، ووضع السلم ، وبدأت

الاجراءات ، ولم يغادر الطائرة أحد .

***

وصلت طائرة الاير فرانس القادمة من جنيف ، وفتح الباب ، وبدأ الركاب يغادرونها عنـــدما اقتربت سيارة تحمل أرقاما دبلوماسية لتقف بجوار السلم ...

وظهرت عبلة كامل عند قمة السلم .. وراحت تهبط في هدوء .. وما أن وصلت الى نهاية السلم حتى تقدم منها عمر حمدى :

ــ آنسة عبلة ؟! ..

ــ افندم ! ..

ــ أنا المهندس علي شكرى :

واطلقت عبلة من عينيها نظرة كالرصاص .. فابتسم عمر وهو يقدم لها الصديق اللبنانى :

ــ ابن عمى .. يونس السيد .. سكرتير أول السفارة .. قلنا نوفر عليكى الجمارك .. اتفضلى ! ..

وعندما وضعت عبلة قدمها داخل السيارة .. كان ثمة رجل من ركاب الطائرة يسرع الخطا نحوالخارج...وكان يبدو متلهفا وهو ينظر خلفه كل خطوة ... كانت سيارة السفارة المصرية قد اتخذت مسارا غريبا الى قلب المطار .. الى حيث كانت تربض طائرة شركة مصر للطـيران ، التفتت عبلة نحو عمر وقالت :

ــ احنا رايحين فين ؟! ..

ــ مصر ! ..

قالها عمر فى نفس اللحظة التى وقفت فيها السيارة أمام سلم الطائرة المصرية ... وعند نهايته ، كانت مضيفتان تبدوان كجبلين رهيبين تفتحان باب السيارة ..

ــ يالله يا عبلة .. مفيش وقت ! ..

وفى هدوء شديد ، غادرت عبلة السيارة الى سلم الطائرة .. وكان عمر خلفها .. وبعد أربع دقائق .. كانت الطائرة محلقة فى الجو .. وبعد عشر دقائق كان الراكب المتلهف يطلب مكالمة عاجلة جدا لباريس ..

كانت رقعة الشطرنج أمام ايزاك ، وكانت زجاجة الكونياك قد فرغت عندما دق جرس التليفون .. ورفع ايزاك السماعة ، وجاءته مكالمة من بيروت .. وما أن استمع الى الخبر الذى زفه اليه صوت الراكب المتهلف ، حتى انقبضت ملامحه ... وضع السماعة ... ونظر الى رقعة الشطرنج . ثم فتح درج مكتبه ، وأخرج مسدسا صوبه الى رأسه ، وأطلق رصاصة واحدة ، كان دويها مكتوما .. ثم سقط .

***

فتح عمر حمدى باب غرفته بمبنى المخابرات العامة المصرية بالقاهرة وأفسح الطريق قائلا :

ـ اتفضلى يا عبلة ! ..

وما أن خطت عبلة داخل الغرفة حتى صاحت :

ـ هو أنت كمان بتلعب شطرنج ؟!

وما أن أغلق عمر الباب خلفه ، حتى دق جرس التليفون فرفع السماعة :

ـ آلو .. أيوه .. ايه ؟ .. معقول .. خسارة ! .

ثم وضع السماعة .. فسألته عبلة :

ـ فيه ايه ؟! ..

ـ ايزاك ..

شهقت عبلة :

ـ ماله ! ..

ـ انتحر ! ..

ومد يده الى احدى قطع الشطرنج ، والقى بها فى سلة المهملات ! ...

فهـــرســـت

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة — ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL



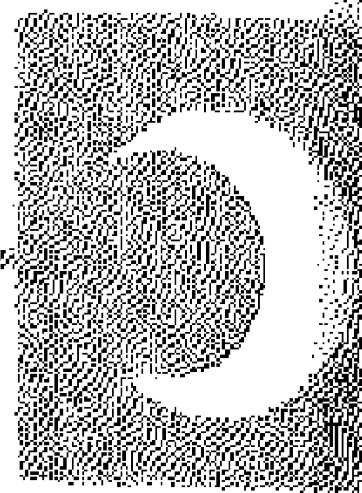
هذا الكتاب

ليس أكثر اثارة من قصص الجاسوسية ، وفى العالم اجمع صدرت قصص كثيرة تحكي مغامرات لجواسيس وضعوا علامات على تاريخ الكرة الارضية ، وخاضوا غمار مغامرات غريبة وعجيبة .. غير أن ما نشر عن هذه القصص ، مهما بلغت دقته ، لازال يحوى فى داخله اسرارا لم تذع بعد ، وغالب الظن أنهـــا لن تذاع أبدا .. ذلك أن الجاسوسية علم قائم بذاته ، علم بلا كتب ، بلا نظريات .. لأنه يعتمد فى الاساس على ذكاء الانسان أولا وأخيرا .

ويوم التقى مؤلف هذا الكتاب بواحد من رجال المخابرات المصرية لم يكن يعرف شيئا عن هذا العالم المفعم بالأسرار ، كانت نظرته الى التجسس ومكافحة التجسس قاصرة ، وناقصة .. غير أن هذا العالم اجتذبه تماما وامتصه ، انه نوع من المعرفة لم يخض أرضه أبدا .. وكانت رحلة ، استغرقت من العمر عامين ، عرف فيها الكثير ، وظل يجهل ما هو أكثر !!

واذا كان هذا الكتاب جهدا متواضعا يقدمه الى هؤلاء الرجال الذين يعملون فى صمت ، فانه ـ يقينا ـ يعلم أن هناك من تخصصوا فى الكتابة فى هذا المجال ، وانهم أكثر قدرة فيه ، على نقل الحقيقة للناس.

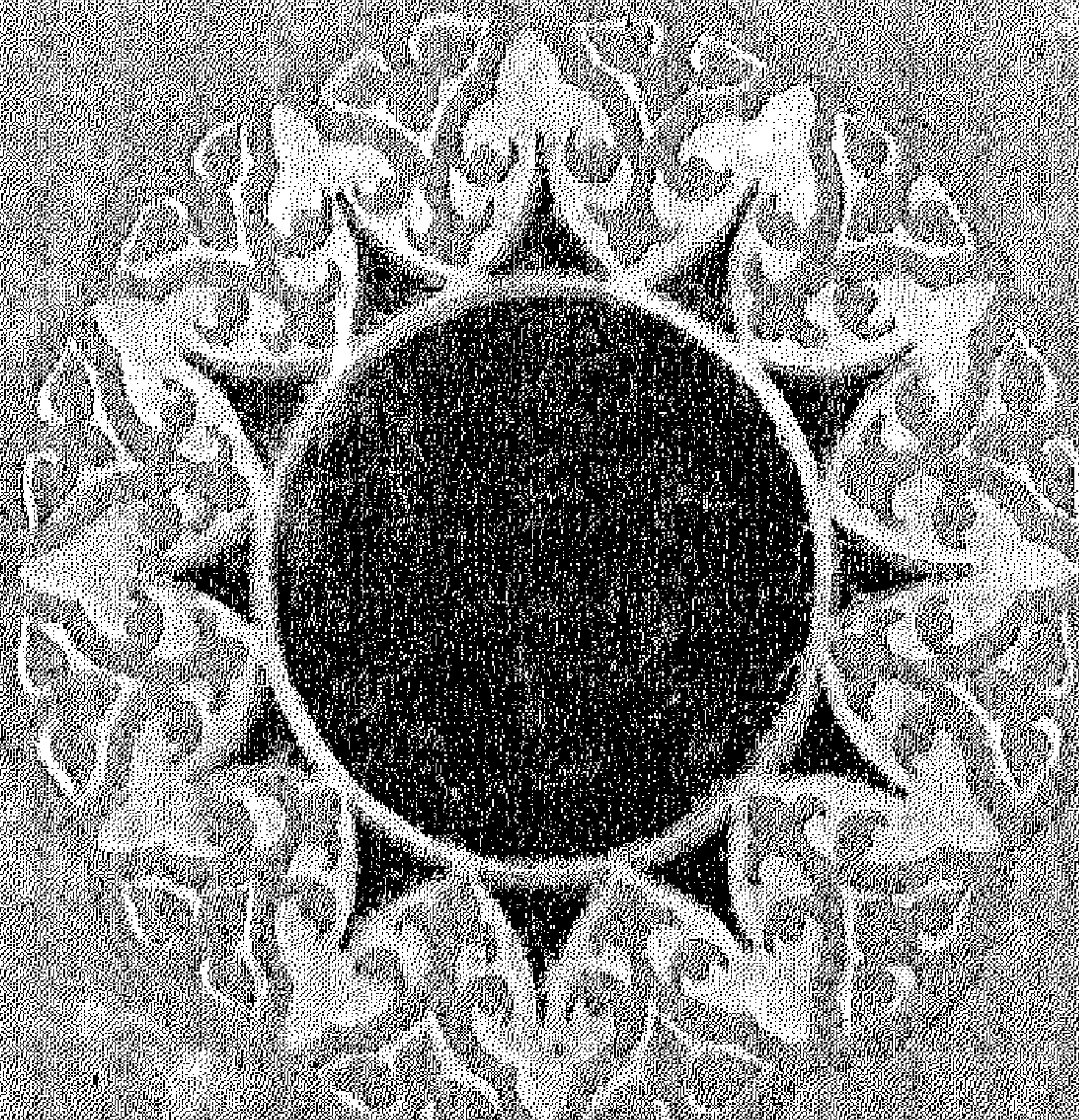
١٢ قــرشــــــا



كتاب الهلال

إن الله اشترى

د. أحمد الشرباصى



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

[illegible] ـــلح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٣٠٩ ــ رمضان ١٣٩٦ ــ سبتمبر ١٩٧٦

No. 309 - Sept. 1976

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا • فى سائر انحاء العالم ٦ دولارات امريكية او ٢٫٥ جك ــ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى ــ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشة
الفنــان جمال قطب

د. أحمد الشرباصي

إن الله اشترى

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

احمد الله تبـــــارك وتعالى ، واصلى واسـلم على جميع انبيائه ورسله، وعلى خاتمهم ســيدنا محمد ، وعلى آلـــــه واصحابه ، واتبـــاعه واحبابه، ومن دعا بدعوته باحسان الى يوم الدين .

واستفتح بالذى هو خير : « ربنـــا عليـك توكلنا ، واليك انبنــا ، واليك المصير » .

***

شعاع من نور القرآن

« أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهــده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم .

التائبون العابدون الحــامدون السائحون ، الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والنــاهون عن المنــكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين » .

(سورة التوبة)

تصـــديـــر

هذه سير محققة لمجموعة من النماذج البطولية التى صنعها رجال باعوا لله تبارك وتعالى نفوسهم وكل مافى ايديهم ، واشترى الله جل جلاله منهم هـذه الأرواح والأموال فتقبل أعمالهم ، ورضى عنهم ، وأحسن لديه مآبهم ومآلهم ، بعـد أن كتب لهم التوفيق حين كانوا يسعون بايمانهم ونورهم بين الناس .

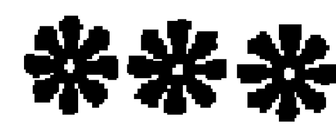
واذا قلنا : « ان الله اشترى » ، فمعنى ذلك ان الله ذا الجلال وذا الكمال ، قد تفضل على عباده ، ووهبهم منة التعاقد معهم ، بأن يضمن لهم نعيم الجنة وخلوده ، لقاء أن يجاهدوا فى سبيله ، وأن يبذلوا الأرواح والأموال من أجل اعزاز كلمته ، وهى كلمة الحق والعدل والخير .

والشراء المعهود بين الناس لا يجوز فى حق الله تعالى ، لأن المشترى انما يشترى شيئا لا يملكه ، والله سبحانه مالك كل شىء . لكن الله تعالى ذكر ذلك لحسن التلطف فى الدعوة الى الطـاعة ، لأن المؤمن اذا جاهد فى سبيل الله ، وأنفق ماله فى سبيل الله ، استحق الجنـة ثوابا لذلك ، فجعل القرآن هذا استبدالا وشراء ، وان كان الفضل لله وحده فى الجانبين .

ولهذا قال الحسن : « اشترى أنفسا هو خلقها ، واموالا هو رزقها » ! ..

واضاف قوله : « واسمعوا ، انها والله بيعة رابحة ، وكفة راجحة ، بايع الله بهـا كل مؤمن ، والله ما على الأرض مؤمن الا قد دخل فى هذه البيعة » ! ..

وقد قال الصادق عليه الصلاة والسلام ــ كما روى الفخر الرازى فى تفسيره ــ : « ليس لأبدانكم ثمن الا الجنة ، فلا تبيعوها الا بها » .



ان الذكر الحكيم يقول : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهـده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الـذى بايعتم به ، وذلك هو الفـوز العظيم : التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون، الراكعون، الساجدون ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين » .

أي ان الله تبارك وتعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم ، اذا بذلوها فى سبيله : سبيل الحق والعدل والخير ــ اشترى ذلك بخير العوض واغلى الثمن ، تفضلا منه وكرما ، مع أنه خالق تلك الانفس وواهب تلك الأموال .

والثمن الغالى هو الجنة ، وانعم به من ثمن . يقول الحسن البصرى : « بايعهم والله فأغلى ثمنهم » . وهذا العقد قد ذكره الله فى كتبه الثلاثة : التوراة المنزلة على موسى ، والانجيل المنزل على عيسى ، والقرآن المنزل على محمد ، عليهم جميعا الصلاة والسلام .

ويا لها من صفقة سامية رابحة تستحق الاستبشار . والله خير من يفي بوعده : «ومن أوفى بعهده من الله» ؟ . فهو لا يخلف الميعاد .

وهؤلاء الذين تعاقد الله معهم ، واشترى منهم : هم الذين يتوبون من الذنوب ، ويهجـــرون الفواحش ، والقائمون بعبادة ربهم فى اخلاص واستقامة ، والذين يحمدون الله ، ويصومون له ، ويصلون ، ويقومون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويحفظـــــون حدود الله ، ويتقيدون بتحليله وتحريمه ،وهؤلاء هم الذين يستحقون البشرى .

ولنتذكر أن كلا من كلمتى : « اشترى » و « باع » تطلق بمعنى الأخرى ، لأن الاساس فيهما واحد ، وهو التبادل أو المعاوضة ، فأنت تشترى بنقودك سلعة ، فالسلعة مبيعة ومشتراة فى وقت واحد ، والنقـود قد بعتها بالسلعة فهى مبيعة ، والذى أعطـــاك السلعة قد اشترى بهـــا النقود ، فالنقود مشتراة ومبيعـة فى وقت واحد .

والله جل جلاله يقول فى سورة البقرة : « ومن الناس من يشرى نفسـه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد» فالمؤمن قد اشترى نفسه ، أى نجاها ، وهو فى الوقت نفسه قد باعها لمولاه فى مقابل الفوز بالنعيم الخـــالد فى دار البقاء .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى شأن صهيب بن سنان الرومى (١) ، فانه أقبل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يريد الهجرة من مكة الى المدينة، فلاحقه نفر من

---

(١) أنظر تفاصيل بطولته فى كتابى : « أبطال عقيدة وجهـــاد » من صفحة ٢٨١ الى صفحة ٢٩٦ . طبعة سنة ١٩٧٢ .

المشركين ، فنزل عن راحلته ، واخرج سهامه ، وتناول قوسه ، وقال لهم :

لقد علمتم أنني من أرماكم ، وايم الله لا تصلون الى حتى أرمي بما في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ، ما بقي في يدي منه شيء ، ثم افعلوا ماشئتم ! ..

فقالوا : لا نتركك تذهب غنيا ، وقد جئتنا صعلوكا فقيرا ، ولكن دلنا على مالك بمكة ، ونحن نخلي عنك .

وعاهدوه على ذلك ففعل .

فلما قدم على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، نزلت الآية الكريمة ، فقال له النبى : ربح البيع يا أبا يحيى . وتلا عليه الآية .

وقد ذكرت في كتابي : « بين الفداء والوفاء » عن هشام بن عامر الشهيد الحامل على الصف هذه العبارة :

« اشترك هشام في معركة القسطنطينية عاصمة ديار الروم يومئذ ، وهي اصطنبول ، وكان سمك سورها واحدا وعشرين ذراعا .

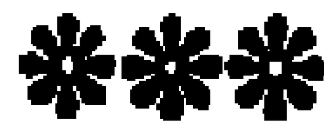
وتطلع هشام الى صف الأعداء الواقف في وجه المجاهدين المسلمين ، وهم بحاجة الى اقتحامه واحداث ثغرة فيه ، فاندفع نحوه هشام بلا ارعواء ولا ابطاء ، وقذف بنفسه على الصف ، وأخذ يجاهد ويجالد ، حتى احدث فيه الثغرة المرجوة ، ودفع ثمنها ، وكان الثمن حياته ، حيث نال نعمة الشهادة ، ومضى الى ربه عظيما كريما ، بعد أن أدى واجبه الجهادي خير الأداء ، وفتح أمام رفاقه طريق الظفر والانتصار .

وخيل الى بعض الناس ان هذا التصرف من هشام فيه مخالفة لأمر الله عز وجل ، لأنه يقول في سورة

البقرة :- « وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين »

وقال هذا البعض : يرحم الله هشام بن عامر ، لقد ألقى بيده الى التهلكة .

وسمع هذا التعليق أبو هريرة رضى الله عنه فاستنكره وقال : لا والله ما ألقى هشام بيده الى التهلكة ، ولكنه التمس قول الله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد » (١) .



والحق تبارك وتعالى يحرض عبـاده المؤمنين على أن يسلكوا طريق البذل والتضحية والفـداء ، لكى يكونوا أهلا لشراء الله أنفسهم وأموالهم بالجنة ونعيمها الدائم المقيم ، فيقول فى سورة النسـاء : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتـل أو يغلب فسـوف نؤتيه أجرا عظيما » .

ومما يدخل فى نطاق هذا التعـاقد الالهى الكريم ، البيعة الصادقة على الجهاد والثبات ، والحق جل علاه يقول فى سورة الفتح : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » . ويقول فى السورة نفسها : « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم مافى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا » .

---

(١) يمكنك أن تتابع حياة هشام بالتفصيل فى كتابى : « بين الوفاء والفداء » من صفحة ١٩ الى صفحة ٢٩ .

أما بعد . فهذا سادس كتاب يصدر لى ـ بفضل الله تعالى وعونه ـ فى موسوعة رجال الفداء . والحديث عن التضحية والوفاء . لقد سبقه أخوة خمسة له : سبقه: « الفداء فى الاسلام » ثم « فدائيون فى تاريخ الاسلام » ثم : « أبطال عقيـــدة وجهاد » ؛ ثم : « بين الوفاء والفداء » ؛ ثم : « رجال صدقوا » .

ثم جاء هذا الكتاب : « ان الله اشترى » ليضيف لبنة الى البناء ؛ وما زالت النية معقـــودة على متابعة الخطوات ، والله من وراء القصد مرشد ومعين .

د . احمد الشرباصي

أمير الرماة الشهيد
عبد الله بن جبير

من شمائل الفدائية المؤمنة : كمال الطاعة ، وتمام الاستجابة ، لأن الثبات فى أداء الواجب الموكول الى الانسان طريق الفلاح والتوفيق ، والقرآن الكريم يقول : « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » .

ويقول : « وان تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين » .

ولقد أعطانا الاسلام العظيم درسا فى ذلك ، يتجلى فى غزوة أحد ، ويتمثل فى موقف مجيد مشهود لصحابى جليل فى هذه الغزوة ، وان كان أكثرنا لا يلتفت كما ينبغى الى هذا الموقف النبيل .

فنحن نعرف أن غزوة أحد كانت اختبارا صارما للمسلمين ، ودرسا بليغا فى تقويم المجاهدين . وكان من المظاهر البارزة فى الغزوة حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تقسيم الجيش ، وتوزيع الجنود على أماكنهم ، حتى يكون كل مجاهد فى موقعه المناسب له ، فيتخذ الأشداء الأقوياء ليكونوا فى الطليعة ، وجعل المتوسطين من ورائهم ، وجعل ظهر الجيش محميا بجبل أحد ، وجعل الرماة بالنبال والسهام فوق الجبل لحماية ظهر الجيش .

وقد أشار القرآن الكريم الى هذا التوزيع حين يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « واذ غدوت من

أهلك تبؤى المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم » .

وكان الرماة الواقفون على الجبل خمسين راميا ، وقد اختار الرسول لقيامهم الصحابى الجليل عبد الله بن جبير بن النعمان بن أمية بن امرىء القيس بن ثعلبة بن عمرو بن عوف الأنصارى ، وهو من سابقى أهل المدينة الى الاسلام ، وكان ممن شهد بيعة العقبة الثالثة مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد آخى النبى عقب الهجرة بينه وبين الحصين بن الحارث .

والحصين هو المجاهد البطل الذى شهد غزوة بدر وغيرها ، وهو شقيق البطل المجاهد الشهيد عبيدة بن الحارث ، وشقيق البطل المجاهد الطفيل بن الحارث .

وكان عبد الله بن جبير ماهرا فى الرماية ، وحينما خرج ليجاهد فى غزوة بدر خرج معه شقيقه خوات بن جبير، ولكن جرحا أصاب جسم خوات ، فمرض ، فرده الرسول الى المدينة ، وعده كمن شهد الغزوة ، وقضى له بسهمه منها وأجره ، ونية المرء خير من عمله .

***

ثم جاءت غزوة أحد، وخرج اليها عبد الله بن جبير فيمن خرج ، وعليه ثياب بيض ، كأنه قد أعدها اشارة الى صفاء نيته فى الجهاد ، وصدق رغبته فى الاستشهاد، حتى يلقى ربه وهو فى صفاء نفسى ونقاء ظاهرى .

واختار الرسول عبد الله كما عرفنا قائدا وأميرا للرماة الخمسين، ومنذ ذلك الوقت كسب ابن جبير ذلك اللقب المجيد ، لقب « أمير الرماة » الذى سيظل يوصف به فى السيرة النبوية المطرة الى ماشاء الله ، وأوصى رسول الله هؤلاء الرماة أن يلزموا قمة الجبل لحماية ظهر المجاهدين ، ونهاهم عن ترك مكانهم ، مهما كانت النتيجة ، حتى يأمرهم بذلك .

وقال الرسول لعبد الله بن جبير: « انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، واثبت مكانك ، ان كانت لنا أو علينا » . ويروى انه قال للرماة : « ان رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا ، حتى أرسل اليكم ، وان رأيتمونا ظهرنا (تغلبنا) على القوم وأوطأناهم ، فلا تبرحوا حتى أرسل اليكم ، وان رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا » . وفي رواية انه قال لهم : « الزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، فاذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل في عسكرهم ، فلا تفارقوا مكانكم ، وان رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا ، ولا تدفعوا عنا ، وارشقوهم بالنبل ، فان الخيل لا تقدم على النبل ، انا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم ، اللهم اني أشهد عليكم » . وفي رواية أنه قال لابن جبير : « انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، ان كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » . وقد يكون سبب تعدد الروايات هنا هو تكرر القول.

ودارت رحى الحرب ، وأقبل المجاهدون لا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم ، ودارت الدائرة على أعداء الله وأعداء رسوله والمؤمنين ، وأخذ المشركون يسلمون أنفسهم للهلاك أو للفرار ، وسيطر المسلمون على الميدان بما فيه من غنائم وأسلاب .

وخيل الى الرماة أن الأمر قد انتهى ، ولم يبق لمرابطتهم معنى ، فقال منهم من قال : قد هزم أعداء الله ، فما لقعودنا ها هنا معنى .

فسارع بتذكيرهم وتحذيرهم أمير الرماة عبد الله بن جبير ، وقال لهم : ألم يقل لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تبرحوا مكانكم وان هزمناهم ، وان رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ؟ أنسيتم ما قاله لكم رسول الله ؟

فأجاب أكثرهم : قد انهزموا ، ولم يرد رسول الله

أن نبقى بعد أن اذل الله المشركين ؛ والله لنأتين الناس فلنصيبين من الغنيمة !! ...

***

واجتهد هؤلاء فكانوا مخطئين فى اجتهادهم ؛ وسارعوا بالنزول من قمة الجبل الى ساحة الميدان ، وبقى عبد الله بن جبير مكانه ، وبقى معه نحو عشرة . جاء فى (عيون الأثر) لابن سيد الناس : « وتكلم الرماة الذين على عينين (١) ، واختلفوا بينهم ، وثبت أميرهم عبد الله بن جبير فى نفر يسير دون العشرة مكانه ، وقال : لا أجاوز أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بغنى ، ووعظ أصحابه وذكرهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : لم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا . قد انهزم المشركون ، فما مقامنا ههنا ؟ . فانطلقوا يتبعون العسكر ، وينتهبون معهم ، وخلوا الجبل » .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان الخطب ؛ وسهل الأمر ، ولكن مائتى فارس من المشركين على خيولهم قاموا بحركة تطويق للمسلمين ؛ بعد أن لاحظ قائد فرسان المشركين (٢) خلو الجبل من رماته ، وسارع هؤلاء الفرسان لطعن المسلمين من خلفهم ؛ فكانت النكبة ، وكانت الكارثة ، وأصاب المسلمين ما أصابهم من ابتلاء الله تعالى وتأديبه .

ولكن أمير الرماة عبد الله بن جبير الصادق الطاعة لله ولرسوله ثبت فى مكانه ؛ ولم يترك هؤلاء الفرسان يمرون دون مقاومة ، بل أقبل يصارعهم ويطاعنهم .

وبدأ أولا يرميهم بالنبال ، وهم صاعدون نحوه من خلف

(١) عينان : هضبة جبل أحد ، ويقال ليوم أحد : يوم عينين .
(٢) هو خالد بن الوليد ، وكان لم يسلم بعد .

الجبل ، حتى نفدت نباله ، واقتربوا منه ، فأخذ يطعن فيهم بالرمح حتى تكسر ، فاستل سيفه ، وأخذ يضرب به حتى تكسر ، ثم أحاط به جمع منهم ، وأخذوا يسددون الى جسمه الضربات والطعنات ، حتى كثرت الجراح فى بدنه من كل جهة ، وخرجت أمعاء بطنه من جوفه ، وسقط شهيدا .

ومات بطلا ، وضرب فى الطاعة مثلا ، وذهب الى ربه كريما ليقول له : فى سبيلك يارب ، وفى سبيل دينك ، لقيت مصرعى ، مؤثرا ما عندك على ما عند الناس ، وما عند الله خير للأبرار ...

***

يا اتباع محمد عليه الصلاة والسلام : ان الاحداث الأليمة فى غزوة أحد تشغلنا غالبا عن الوقوف أمام بطولة عبد الله بن جبير ، مع اننا فى أشد الحاجة الى تدبر مثل هذا الموقف الرائع ، لأن بطولة الفداء لا تؤتى ثمارها الا اذا التزم المجاهد المؤمن بأن يحقق الفرض الموكول اليه ، أو يلقى ربه مجاهدا فى سبيله : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .

وما أشد احتياجنا اليوم الى امثال أمير الرماة عبد الله بن جبير رضوان الله تعالى عليه . ذلك المجاهد الكريم الصادق ، الذى أحب نبيه وقائده الصادق صلوات الله وسلامه عليه ، والتزم آمره ، وحرص على طاعته حتى آخر رمق فى حياته العظيمة . فاستجاب فى ذلك خيرا استجابة لقول الحق جل جلاله : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » . وقوله تبارك وتعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

سلام عليه فى الخالدين .

المجاهد المسارع إلى الاستجابة
عباد بن بشر الأنصاري

اذا أشرق نور الايمان فى صدر انسان أقامه على طريق الحق ، وألزمه منطق الصدق ، وربطه ربطا وثيقا عميقا بمبادىء الخير وتعاليم البر ، فاذا هو فى قوله وعمله وتفكيره وتدبيره ، قد صار خاضعا الروح العبودية الصادقة لربه ، لا ينحرف عن طريقه ، ولا يتنكر لحق من حقوقه ، بل يظل مهتديا بهدى القرآن المجيد ، الذى يقول : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ولقد كان فى عهد الجاهلية أناس أخذوا الحياة كما أرادوا ، وأخذتهم الحياة كما أرادت ، فلما تجلى فضل الله العميم بظهور الاسلام العظيم ، هدى الله هؤلاء الى الطيب من القول ، والى صراط الحميد ، فاستقاموا على الطريق أمناء شرفاء أوفياء ، حتى مضوا الى الله بديع السموات والأرض ، ليلاقوا عنده ما أعده لهم من ثواب وجزاء : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة : الا تخافوا ولا تحزنوا ، وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم

فيها ماتدعون ، نزلا من غفور رحيم ، ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا ، وقال : انني من المسلمين » .

***

ومن هؤلاء : الصحابى الفاضل ، والمؤمن العادل ، والعابد المجاهد ، والشهيد المجيد : أبو الربيع (١) عباد بن بشر بن وقش بن عبد الاشهل الخزرجي الانصاري رضوان الله تعالى عليه ، وقد ولد قبل الهجرة بثلاثة وثلاثين عاما .

وما كادت نسمات الاسلام تهب على المدينة المنورة حتى دخل عباد فى دين الله ، فصار من السعداء . وكان اسلامه على يد أول سفير فى الاسلام ، بعثه الرسول عليه الصلاة والسلام الى المدينة ، وهو مصعب بن عمير رضى الله عنه .

وحين جاءت الهجرة أقبل من مكة ثلاثة من المهاجرين، وهم : أبو حذيفة بن عتبة (٢) ، وسالم مولى أبى حذيفة، وعتبة بن غزوان المازنى ، ففتح لهم عباد بن بشر داره ، وقاسمهم ماله ، وآثرهم على نفسه ، لأنه كما ذكر القرآن من قوم « يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، وكان عباد تقيا متعبداً ، وقد ذكر صاحب « الاستيعاب » (ج ٢ ص ٤٤٧) ، أن السيدة عائشة قالت : تهجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى ، فسمع صوت عباد بن بشر فقال : يا عائشة ، صوت

---

(١) وقيل أيضا : أبو بشر .

(٢) انظر الحديث المفصل عنه فى كتابى : « أبطال عقدة وجهاد » ص ١١٥ ـ ١٢٥ .

عباد بن بشر هذا ؟ .

قلت : نعم .

قال : اللهم اغفر له .

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عباد وأبى حذيفة بن عتبة .

وانطلق عباد مجاهدا مناضـــلا ، لا يتخلف عن غزوة ولا مشهد ، منذ غزوة بدر حتى آخر المشاهد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وروت السيرة العطرة انه كان يتولى حراسة رسول الله مع رفاق له حتى نزل قول الحق جل جلاله : « والله يعصمك من الناس (١) » . كما كان عباد من اسرع المجاهدين استجابة لدعوة الرسول اذا نادى الى الحرب والجهاد ، فما يكاد يسمع هتاف الرسول : « يا خيل الله اركبى » ، حتى يكون فى طليعة الراكبين والنـــــافرين الى موطن التضحية والفداء ، والبصراء يعلمون أن الحــــرب عمادها السرعة والمبادرة وخفة الحركة، ولذلك عبر القرآن الحكيم عن دعوتها عادة بكلمة النفير الدالة على سرعة الخروج ، فقال : « انفروا خفافا وثقالا » .

***

وكان عباد بن بشر أحد أربعة قاموا بعمل فدائى دقيق، هو القضـــاء على طاغية اليهود الأثيم كعب بن الأشرف اليهودى ، الذى كان يحرض المشركين ضد المسلمين ، ويقول لهم : أنتم أهدى من المســـلمين سبيلا ، وكان يتطاول على أعراض المسلمين بالسب والقذف ، ويسب الرسول سبا فاحشا ، فقال النبى للصحابة ، من لى بكعب بن الاشرف فانه يؤذى الله ورسوله والمؤمنين ؟ .

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس ، ج ٢ ص ٣١٧ .

فسارع الى ذلك محمد بن مسلمة ، وعباد بن بشر ، وسعد بن سلامة ، وعبد الرحمن بن جبر، قائلين : كلنا يارسول الله نقتله. وحقق أهل الاقدام والفداء ماوعدوا ، بفضل الله واهب التأييد والتوفيق .

وفى مصرع كعب بن الأشرف اليهودى ، يقول بطلنا عباد بن بشر :

صرخت به فلم يعرض لصـــوتى
وواف طالعـــــا من رأس جذر
فعدت له فقال : من المنـــادى ؟
فقلت : أخوك عبـــاد بن بشر
وهذى درعنا رهنـــا فخـــذها
لشهر ، أن وفى ، أو نصف شهر
فقال : معاشر ســغبوا وجاعوا
وما عـــدموا الغنى من غير فقر
فأقبل نحــونا يهـــوى سريعا
وقال لنـــا : لقــد جئتم لأمر
وفى أيماننـــا بيض حـــداد
مدربة بهـــا الكفار نفـــرى
فعـــانقه ابن مســـلمة المردى
بهـــا الــكفار كالليث الهزبر
وشـــد بسيفه صلتـــــا عليه
فقطـــره أبو عيسى بن جبر
فكان الله ســــادسنا ، فأبنـــا
بأنعم نعمـــــــة ، وأعز نصر
وجاء برأســـه نفر كـــــرام
همـــو ناهيك من صدق وبر (١)

---

(١) الاستيعاب على هامش الاصابة ج ٢ ص ٤٤٦ .

وكان عباد بجوار اتقانه الجهاد ومداومته عليه رجلا أمينا في دينه ودنياه ، ولذلك كان الرسول يختاره ليبعثه الى القبائل ليأخذ منها حق الله في المال وهو الزكاة ، وجمع المال مخبار دقيق لذمم الرجال .

وقد عاد رسول الله صلوات الله عليه وسلامه فجعل عباد بن بشر على مغـــانم « حنين » ، وقد كانت كبيرة ضخمة ، وهذا يفيد أن عبادا كان من الجنود الأوفياء الأمناء ، الذين ثبتوا مع رسول الله يوم حنين ، ذلك اليوم الشديد القاسي الذي هتف فيه الرسول عنــد الهول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، وتلفت عن يمينه وشماله قائلا : يا معشر الانصـــار ، فاذا هم جميعا يسارعون بتلبية النداء واستجابة الدعاء قائلين : لبيك يا رسول الله ، نحن معك .

وكان بينهم المجاهد المسارع الى الاستجابة عباد بن بشر ، وتنتهي الغزوة يوم حنين بانتصار المسلمين بعد الشدة ، وكسبهم مغانم كثيرة ، ورأى النبي لحكمة بليغة أن يوزع أكثرها على المهاجرين الفقراء ، وعلى المؤلفــة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار ، بل قال لهم قولته المباركة المشهورة : ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ .. فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لـكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا ، وسلكت الأنصـــــار شعبا ، لسلكت شعب الانصار ، اللهم أرحم الانصار ، وأبناء الانصار ، وأبناء أبناء الانصـــار ، فبكوا وقالوا : رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسما وحظا .

وقد روى عباد بن بشر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا معشر الأنصار ، أنتم الشعار ، والناس

الدثار ، فلا أوتين من قبلكم » .

***

وأقبلت غزوة تبوك ، فى وقت شـديد الحر قليل المتاع ، بعد أن أنزل الله تعالى قوله : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجـدوا فيكم غلظة ، وأعلموا أن الله مع المتقين » . وخرج عباد الى تبوك فى موكب الرسول عليه الصلاة والسلام ، حيث جعله النبى على حرسه ، فأعطى عباد بذلك دليلا جديدا على وفائه وحسن بلائه ، ولذلك لم يكن عجيبا أن يقول الامام السخاوى فى حقه « وكان فيه بلاء وغناء (١) » ، بل كان جديرا بقول الصـديقة عائشة : « ثلاثة من الانصار ، لم يكن أحد يعتد عليهم فضلا ، كلهم من بنى عبد الاشهل ، سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وعباد ابن بشر » (٢) .

ولحق الرسول بربه ، بعد أن بلغ الرسـالة ، وأدى الامانة ، وترك الناس على المحجة البيضـاء ، ليلهـا كنهارها ، لا يزيغ عنها الا هالك ، وتولى أبو بكر خلافة الناس ، وجاءت معـركة اليمامة العصيبة (٣) ، التى استشهد فيهـا الكثيرون من حملة القرآن ، وحفظـة التنزيل ، وشهدها عباد بن بشر ، وكان من أبطالها ، ثم كان من شهدائها ، حيث لقى ربه فيها مجاهدا شهيدا مع أخيه فى الاسلام ، ورفيقه فى السلاح ، وزميله فى الجهاد أبى حذيفة بن عتبة ، رضوان الله على الجميع .

---

(١) التحفة اللطيفة . ج ٢ ص ٣٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، وقد روى عن عباد أنس بن مالك . وهذا يدل على علمه وفقهه .

(٣) كانت معركة اليمامة فى السنة الثانية عشرة ، وكان عمر عباد عند استشهاده خمسا وأربعين سنة .

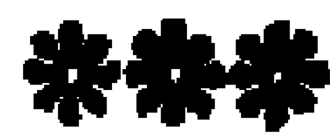
يا اتباع محمد عليه الصلاه والســــلام : المهم هو أن يعرف المسلم طريقه ، وأن يختار رفيقه ، فاذا اهتدى الى نعمة الايمان ، ووضع يده فى يد الصالحين المصلحين، عرف الطريق الى عز الدنيا ونعيم العقبى ، ويد الله مع الجماعة ، ولن تجتمع امة محمد على ضلالة ، والخير فيها بمشيئة الله الى قيام الساعة ، والله ولى العاملين .

مؤمنة وفت لدينـــها

رمـــلة بنت أبى سفيـــان

اذا صدق ايمان الانســـان احتمل فى سبيل عقيدته المتاعب والأهوال ، دون سأم أو ملال . ولعل مصيبتنا الكبرى هى التخلخل المعيب فى تديننـــا . وكأننا نكتفى بتسجيل ديننا فى شـــهادة الميلاد ، أو فيما نختار من أسماء ، ولا نتذكر أن هـــذا الدين يطالبنا بالوفاء له والغيرة عليه ، والاحتمال فى سبيله ، ولذلك ينبغى أن نشترك معا فى استعراض صورة من صور الايمـــان الصادق ، والاعتقاد الكريم ، لنرى كيف يصنع الايمان شتى الأعاجيب فى نفوس الذين استجابوا لله وللرسول : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

وهذه الصورة تتجلى فى سيرة احدى النساء اللواتى شاركن فضلاء الرجال شرف الايمان واليقين : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » .



انها السيدة الجليلة أم المؤمنين أم حبيبة بنت ابى سفيان بن حرب ، وهو زعيم قريش وزعيم المشركين الى

(*) اسمها رملة ، وقيل هى هند ، والصحيح المشهور هو الاول ، وقاله الاكثرون (تهذيب الاسماء ج ٢ ص ٣٥٩) .

ما قبل فتح مكة ، ولـــكنها آمنت على الرغم من كفران أبيها حينئذ ، ولم يستطع أن يثنيها عن عزمها لتبقى مثله كافرة ، بل أظهرت استقلال شخصيتها ، وقوة ارادتها ، وأسلمت وجهها لله رب العالمين .

وتزوجت عبيد الله بن جحش (١) الذى أسلم مثلها ، وحينما اشتد طغيان الكفر على جنود الرحمن ؛ خرجت أم حبيبة مهاجرة فى سبيل الله تعالى الى أرض الحبشة مع زوجها المسلم ، وهناك ولدت له بنتا اسمها «حبيبة» وبها كنيت (٢) .

ومضت الأيام وأم حبيبة تحتمل — من أجل دينها وربها — متاعب الغـــربة والوحشة والبعد عن الأهل والوطن ، ثم شاءت الاقدار أن تجرى الشقوة الكبرى على زوجها عبيد الله ، فاذا هو يرتد عن الاسلام ، واذا هو يتنصر ، فيضل الضلال المبين ، بعد أن هداه الله سواء السبيل : « ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيـــا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وحاولت أم حبيبة المرأة المسـلمة المغتربة الوحيـدة المهجـورة من الأهل والأقارب أن تثنى زوجهـــا عن ضلاله ، وأن تثبته على الايمان فما استطاعت . وتتحدث هى بنفسها فتقول : رأيت فى المنام زوجى عبيد الله بن جحش بأسوأ صورة وأشوهها ، ففزعت ، فأصبحت فاذا به قد تنصر ، فأخبرته بالمنام ، فلم يحفل به ، وأكب على الخمر حتى مات .

---

(١) هذا غير أخيه عبد الله بن جحش الصحابى الجليل شهيد يوم أحد .

(٢) الاستيعاب على الاصابة (ج ٤ ص ٤٢١) .

ولقــــد حاول هذا المرتد التعيس بكل ما استطاع أن يحمل زوجته على ترك دينها ، وجعل يقول لها فيما يقول : يا أم حبيبة ، انىنظرت فى الدين ، فلم أر دينا خيرا من النصرانية ، وكنت قد دنت بها ، ثم دخلت فى دين محمد، ثم رجعت الى النصرانية .

فأبت أم حبيبة كل الاباء ، ولسان حالها يقول : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » . وأراد أن يقيم معها فأبت وتركته ، ولذلك يقول التاريخ بالحرف الواحد : « وأبت أم حبيبة أن تتنصر ، وثبتها الله على الاسلام » (١) .

كان الله لهذه المرأة المسلمة المغتربة ، الوحيــــدة ، الصـــــابرة . لقــد تركت أم حبيبة اباها على كفره ، وأسلمت وجهها لله رب العالمين ، ضاربة بالتقليد الاعمى عرض الحائط ، ولقد تركت أم حبيبة وطنها مكة ، بعد أن لاقت مالاقت فى سبيل الله والاســـــلام ، وخرجت مهاجرة الى الحبشة فى الهجرة الثانية ، لتصون هــذا الاسلام ، وتعيش له ، وتعتز به ، وتحيا فيه .

ولكن ها هو ذا الشقاء يلحق زوجها فيتنصر ، ويرتد عن الاسلام ، وتحاول بكل ما أوتيت أن تعيد اليه رشاده، فلما يئست منه اعتزلته وفارقته ، وصارت غريبة وحيدة بلا رجل : فقدتالأهل والعشيرة ، وفقدتالوطن والبلد، وفقدت الزوج والمسكن . فأين تولى وجهها ؟ وكيف تعالج أمرها ؟ فلتلق أمرها وزمامها بيد الله : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، أن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا » .

---

(١) الاستيعاب على الاصابة ج ٤ ص ٢٩٨

وكان لابد من نجدة ، وليس هناك نجده أكرم ولا أعظم من نجدة تأتى من قبل رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقد سمع النبى بأمر أم حبيبة ، وعز عليه أن تلاقى كل مالاقت فى سبيل دينها وليس لها من ناصر ولا معين ، فقرر فى نفسه أن يتزوجها ، ليصون حرمتها ، ويؤمن حياتها ، ولتنال العز الأكبر ، حين تصبح احدى أمهات المؤمنين .

وكأن الله أراد أن يثبت عزيمة أم حبيبة ، فرأت فى نومها من يناديها قائلا لها : يا أم المؤمنين ، فهزتها الرؤيا، وما كادت تنتهى عدتها حتى كان عندها من يعرض عليها زواجها من سيد الخلق أجمعين محمد النبى الأمين ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

وأرسل النبى الى النجاشي ملك الحبشة وكان مسلما، يطلب اليه ان يزوجه أم حبيبة ، فأرسل النجاشي اليها جارية له اسمها « أبرهة » تقول لها : ان الملك يقول لك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كتب اليه ليزوجك له . .

ففرحت أم حبيبة لأن هذا هو عز الدهر وغاية الفخر ، فقالت للجارية : بشرك الله بالخير ، ونزعت ما فى يديها ورجليها من حلى ، وأعطته للجارية فرحا وسرورا بما بشرتها به .

واضافت الجارية : ويقول لك الملك : وكلى من يزوجك، فوكلت عنها خالد بن سعيد بن العاص لأنه ابن عم أبيها ، فكأنه عمها .

وجمع النجاشي لعقد العقد جمعا فى طليعته جعفر ابن أبى طالب والمهاجرون معه ، وقدم النجاشي اربعمائة دينار (اربعة آلاف درهما) مهرا لها نيابة عن الرسول

صلى الله عليه وسلم . وخطب النجاشي وخطب خالد .
ذكر الامام ابن عبد البر فى كتـــابه « الاستيعاب » ان النجاشي خطب فقال : « الحمـــد لله الملك القـدوس السلام ، المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر . أشـهد ان لا اله الا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، وانه الذى بشر به عيسى بن مريم ، صـلى الله عليـه وآله وسلم .

أما بعد ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الى ان أزوجه أم حبيبة بنت ابى سفيان فأجبت الى مادعا اليه رسول الله صلى الله عليـــه وآله وسلم ، وقـد اصدقتها أربعمائة دينار » .

ثم سكب الدنانير أمام القوم .

وتكلم خالد بن سعيد ، فقال :

« الحمد لله ، أحمده واستعينه ، واشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون .

اما بعد ، فقد أجبت الى ما دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فبارك الله لرسوله عليه السلام » .

ودفع النجـــاشى الدنانير الى خالد بن ســعيد ، فقبضها (١) .

وصنع النجاشي لهم وليمة طعام ، ثم ارسل أم حبيبة الى الرسول معززة مكرمة ، ومعهـا شرحبيل بن حسنة رضوان الله عليه ، وكانت على أبواب الاربعين من عمرها ، وكان ذلك سنة ست أو سبع ، وهناك فى المدينة انضمت

(١) كتاب الاستيعاب ج ٤ ص ٤٢٢ .

أم حبيبة الى تلك الكوكبة المشرقة من زوجات الرسول أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن .

***

وظلت أم حبيبة تجعل لدينها المكان الأول ، وتفضل عقيدتها على القرابة والعصبية ، ومما يدل على ذلك ان والدها أبا سـفيان دخل عليها وهى زوجة للرسول فى المدينة ؛ محاولا أن يستعين بها فى مد عهد الحديبية ؛ بعد أن خان المشركون خيانتهم ، وأراد أبو سفيان أن يجلس على فراش النبى صلى الله عليه وسلم ، فطوته أم حبيبة، وابعدته عن أبيها ، فتعجب لذلك وسألها ، فقالت له : هذا فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانت امرؤ نجس مشرك ، فلا يجوز لك أن تجلس عليه .

فما ملك أبو سفيان نفسه ، بل قال : لقد أصابك من بعدى شر يا ابنتى .

ووالله ما أصابها الا الخير ، فقد قال سيد الخلق : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » . ويقول : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار ، وهكذا رأينا كيف يكون صدق الايمان والاعتزاز بالاسلام .

ولو كان النسـاء كمثل هـذى
لفضلت النسـاء على الرجـال

فهـلا سألنا أنفسنا عن مدى اعتزازنا بديننا ، وحرصنا على اسلامنا ؟.. وهلا تدبرنا قول الحق جل جلاله : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . وهلا فكرنا فى أن نعود الى صراط العزيز الحميد ؟ .

الشهيد الممزق الأشلاء
هشام بن العاص

اذا كان صغار النفوس عند طوائف من الناس يدعوهم الى أن يعيشوا عيشة البهائم والأنعام ، فهم لا يعنيهم من حياتهم الا أن يسبحوا فى ملذاتهم ، ويغرقوا بين شهواتهم ، وهم يتهارشون تهارش الكلاب ، ويتناحرون تناحر الذئاب ، على المغنم الرخيص ، أو المطلب الخسيس ، فان لله تعالى عبادا أوجدهم ليكونوا النماذج الحية للبشرية الفاضلة ، التى برأها مبدعها وسواها ، وسما بمكانتها فأعلاها ، فكانت مصداقا لقوله عز من قائل : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

ونحن نتطلع الى سير هؤلاء الأماجد ، فاذا هم أصفياء فى طباعهم ، أطهار فى سلوكهم ، مؤمنون بربهم ، مجاهدون فى سبيله ، بلا غرض أو مرض أو عرض ، لا يشغلهم عن رسالتهم النبيلة شاغل ، ولا يحول بينهم وبين رضا ربهم حائل ، فقد آثروه على الاهل والولد ، وعلى السبد واللبد ، وأخلصوا لله وجوههم ، فهم لا يريدون سواه ، ولا يتوجهون الى غير حماه ، وشعار كل منهم هو قول مولاه : « قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

وهذا واحد منهم :

انه الصحابى الفاضل ، الخير الصالح ، المجاهد الطالب للشهادة : أبو مطيع (١) هشام بن العاص بن وائل بن هشام القرشى ، السهمى ، وأمه هى : أم حرملة بنت هشام بن المغيرة . وقد أسلم بمكة قديمـــا ، واحتمل ما احتمله المسلمون من عنت الشرك وبغى الكفر ، حتى أضطر الى أن يهاجر الى أرض الحبشة مع الفوج الثانى من المهاجرين الغرباء .

وحينما أقبلت هجرة المصطفى صـــلوات الله وسلامه عليه الى المدينة سارع هشام بالعودة الى مكة ليكون من وراء المهاجر العظيم ، واتفق مع عمر بن الخطاب وعياش ابن أبى ربيعة على التلاقى عند مكان حددوه (٢) ليهاجروا معا ، ولكن عمر استطاع أن يهاجر، أما رفيقاه فقد قبض عليهما جمع من المشركين وسجنوهما فى مكة (٣) .

وظل هشام سنوات فى سجنه ، يتحمل ما يلقاه من صنوف الايذاء والتعذيب .

وكان الرسول عليه الصـــلاة والسلام يدعو لهشام السجين ، كما كان يدعو لأمثاله فى قنوت الصلاة ، فيقول والمســـلمون من ورائه يؤمنون على دعائه : « اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم أشدد وطأتك على مضر ،

---

(١) يروى أن كنيته كانت : أبا العاص ، فكناه الرسـول صلى الله عليه وسلم : أبا مطيع .

(٢) اتفق الثلاثة على التلاقى عند « اضاءة بنى غفار » . والاضاءة أو الاضاة ـ تمد وتقصر ـ هى الغدير ، واضاءة بنى غفار كانت خارج مكة على بعد بضعة أميال منها (الدرر ص ٨٢) .

(٣) يقول ابن عبد البر وهو يتحدث عن محاولة هشام الهجـــرة : ففطن لهشام قومه ، فحبسوه عن الهجرة » (الدرر ص ٨٢) .

واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » . واستجاب الله دعاء رسوله ، فنجا هؤلاء المعذبون فى الارض .

وتروى السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم لأصحابه : من لى بعياش بن ابى ربيعة ، وهشام بن العاص ؟ .

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة الذى كان قد نجا من قبل : أنا لك يا رسول الله بهما . وذهب الى مكة مستخفيا ، واستطاع بلباقة وخفة أن يعرف مكان السجينين ، وتسلق عليهما الجدران ، وقطع قيودهما ، وحملهما على بعير له سرا ، وقدم بهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بعد غزوة الخندق .

***

وواصل هشام بن العاص نضاله مع ركب النبوة وموكب الرسالة ، وشهد الكثير من المشاهد والمعارك ، وأرسله النبى قائدا لسرية فى شهر رمضان قبل فتح مكة ، فصاحبه التوفيق .

ومن العجيب فى أمر هشام أنه كان أخا من جهة الأب لعمرو بن العاص البطل الاسلامى المشهور ، وكان هشام أصغر سنا من عمرو ، ومع ذلك أسلم الصغير قبل الكبير ، فبادر هشام الى الاستضاءة بنور الله عز وجل الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة .

ورأينا كتيبة الايمان تنتظم هشاما قبل الهجرة بسنوات ، أما عمرو فتقاعس وتخلف لأمر يعلمه الله تعالى ، فلم يدخل فى الاسلام الا فى السنة السابعة ـ أو الثامنة ـ بعد الهجرة (١) ، وربك يخلق مايشاء ويختار ، فليست الأسبقية فى الهداية والرشاد بالسن ، وانما

(١) تهذيب الاسماء واللغات للنووى ، ج ٢ ص ٣٠ .

المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، وكم من صغير لاحظته عناية ربه ففاق غيره ممن يكبرونه سنا أو لحما وعظما .

وكان عمرو لا ينكر فضل أخيه هشام ولا يطويه ، بل يتحدث عنه ويبديه ، ولقد حدثنا عمرو فيما حدث أنه شارك أخاه فى احدى المعارك ، فأعان كل منهما أخاه على الاستعداد للمعركة ، ويقول عمرو : « ثم عرضنا أنفسنا على الله ، وكلنا يسأل الله الشهادة ، فقبله الله وتركنى، وحرمتها ورزقها » .

وكان عمرو يذكر أخاه بعد استشهاده من حين الى حين ، ويقــــول منوها بفضله وأسبقيته : « أسلم قبلى واستشهد وبقيت » .

واذا كان لعمرو بن العاص مايؤخذعليه ، أو ما يراجع فيه ، فان ذلك لا يلغى أنه كان علما من أعلام الاسلام ، وبطلا من ابطــال المسلمين فى الفتوح والمعارك . وقوله عن أخيه : « واستشهد وبقيت » قد نفهم منه أنه كان ينظر الى موطن الشهادة على أنه موطن تكريم وتمجيد من الله لعبده الشهيد ، ولقد روى الترمذي والنسائى والحاكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ابنا العاص مؤمنان : هشام بن العاص وعمرو بن العاص » .

***

ولحق الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم بربه جل جلاله ، وظل هشام على مسيرته فى النضال والكفاح ، ووثق أبو بكر رضى الله عنه بعقل هشام وحسن تدبيره ، فأرسله الى ملك الروم ليفاوضه فى بعض الأمور ، فكان سفيرا موفقا للخليفة الاول ، ثم اقبلت معركة اجنادين التى وقعت فى السنة الثالثة عشرة للهجرة ، وأجنادين موضع فى أرض فلسطين ــ أين الآن فلسطين ياجموع المسلمين ،

ردها الله على العرب المؤمنين ــ وخرج هشام بن العاص ضمن المجاهدين فيها مع أخيه عمرو ، ودارت رحى الحرب بين كتيبة الايمان وجموع الشر والطغيان .

وأبلى هشام يومئـذ بلاء حسنا ، وحينما رأى ضعفا عارضا لبعض المقاتلين ، سيطرت عليه الحماسة ، فاندفع نحو صفوف العدو وهو يهتف برفقائه فى الايمان والسلاح قائلا : « يامعشر المسلمين ، أنا هشام بن العاص ، أمن الجنة تفرون ؟ » .

وما زال يقاتل ويصاول وينازل ، حتى سقط شهيدا فى ارض المعركة (١) ، وشاء القدر أن تقع جثة البطل الشهيد فى مضيق لا يعبره الا انسان بعد انسان ، واضطر فرسان الاسلام بسبب غليان المعركة أن يطئوا جسمه بخيولهم .

وكان هذا اشتد على البعض فقـال أخوه عمرو وكان من المجاهدين الثابتين فى المعركة : « أيها الناس ، أن الله قد استشهده ، ورفع من روحه » .

وانتظر عمرو حتى انتصر المسلمون ، وعزت يومئذ كلمة الاسلام ، ثم ذهب الى ساحة المعركة ، يبحث عن أشلاء أخيه : عن أعضاء المجاهد الشهيد المبعثر الأجزاء ، وأخذ يجمعها ويلمها ، ثم حملها وواراها التراب على حالتهـا ، ليجمعها الله بقدرته ، ويبعثها بسلطانه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

بأمثال هذه الأشلاء التى تمزقت وتبعثرت من أجسام المناضلين الشهداء ، قام بناء الاســـلام الضخم الذى عز وساد وقاد ، يوم كان له من يضحى فى سبيله بكل عزيز ونفيس ، وحاضر الأمة من ماضيها ، فهل من سبيل الى عودة لهذا الماضى الجليل ؟ .

---

(١) يقول ابن كثير عن هشام : « وقتل بأجنادين ، وقيل باليرموك ، والاول أصح ، والله أعلم » . البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٥ .

أول شهـيد من الأنصـار
عمير بن الحمام

ان الخطوة الأولى فى أى طريق جديد مجيد تكون لها قيمتها ومكانتها ، لأنها فتح وريادة ، وقدوة وأسوة ، وكلما كان الطريق الجديد المجيد محفوفا بالمخاطر أو الأهوال ، زادت الخطوة الاولى فيه قيمة ومكانة ، فاذا كانت هذه الخطوة الأولى تضحية بالنفس وبيعا للروح ، وتقبلا للموت فى سبيل العقيدة والحق ، بلغ صاحبها القمة ، واستولى على الذروة ، لأنه يضرب بها مثلا رائعا فى الوفاء والفداء : « والجود بالنفس أقصى غاية الجود » .

ولقد حفظ لنا تاريخ الاسلام كثيرا من « الأوليات » التى تحدثنا عن خطوات فواتح لطرق خير ونصر ، فخديجة هى أول من أسلمت من النساء .

وأبو بكر هو أول من أسلم من الرجال .

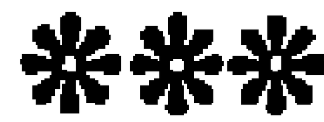
وعلى هو أول من أسلم من الفتيان .

وسعد بن أبى وقاص هو أول من رمى بسهم فى سبيل الله .

وعبيدة بن الحارث هو أول فدائى عقد له لواء فى الاسلام ... وهكذا .

ولقد تكون الخطوة الاولى غير لافتة للنظر عند حدوثها ،

ولكن فتحها للباب الجديد ، واعطاءها القدوة البكر لمن وراءها ، تجعلهاطيبة الخبر، عظيمة الأثر، موصولة الثمر، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « من سن سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » .



وهذا صاحب « أولية » حميـدة مجيـدة فى تاريخ الاسـلام . انه الصحابى المجـاهد ، والمؤمن العـابد ، والشهيد الماجد : عمير بن الحمام بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب الأنصارى ، من بنى سلمة من الأنصار .

وقد كان من الذين سـارعوا الى نداء الحق ودعوة الصدق ، فدخل فى دين الله عز وجل ، فاستحق أن يكون من أولئك الذين مجـد الله مسارعتهم وسبقهم ، فقال فيهم : « والسـابقون الاولون من المهـاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم » .

وحينما تمت الهجرة من مكة الى المدينة ، آخى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه بين عمير بن الحمام وعبيدة ابن الحارث (١) ، وعبيدة هو صاحب أول لواء عقـده الرسول لأمير سرية تجاهد فى سبيل الله .

ولقد أسلم فى صدر الدعوة ، قبل أن يدخل النبى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، وكان له قـدر ومنزلة عنـد الرسول (٢) ، وهكذا تلتقى الابطال بالابطـال ، وتقترن

---

(١) الدرر لابن عبد البر ص ٩٩ .

(٢) اقرأ تفاصيل بطولته فى كتابى « فدائيون فى تاريخ الاسلام » ص ٧٠ ـ ٧٦ .

الرجال بالرجال ، وتقع الصقور على الصقور ، وتجتمع النسور بالنسور ...

ومضت شهور وشـــهور على هذه المؤاخاة الكريمة العظيمة فى الله عز وجل . وآن للمسلمين ان ينتصفوا ممن ظلموهم وهضـــموهم ، واخرجوهم من وطنهم وديارهم ، واستولوا على أموالهم وعقارهم ، فجاءت غزوة بدر الكبرى فى السنة الثانية من الهجرة ، وسارع اليهـا الأخوان المؤمنان ، والزميلان المتمــاثلان ، والفدائيان الوفيان : عمير بن الحمام وعبيدة بن الحارث ، وأخــذ الرسول صلى الله عليه وسلم قبيل المعركة يحث المسلمين على النضال ، ويحرضهم على القتال ، امتثالا لأمر ربه تبارك وتعالى الذى يقول له : « يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ، يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ... » . ويقول : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا .

وقال النبى فيما قال لأصحابه : « والذى نفسى بيده لا يقاتلهم (يعنى الأعداء) رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر، الا أدخله الله الجنة» . ومحتسبا : أى ناويا بعمله وجه الله وحده .

وفى حديث عمر : « أيها الناس ، احتسبوا أعمالكم فان من احتسب عمــله كتب له أجــــر عمله وأجر حسبته» (١) ، وغير مدبر: أى غير فار أو منهزم ، ومنه قول القرآن الكريم : « يا أيهــا الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ... »

وسمع عمير بن الحمام ما قاله أصدق الأنام عليــه

(١) أنظر « فدائيون فى تاريخ الاسلام » ص ٧٠ .

الصلاة والسلام ، فقال معجبا : « بخ بخ » . وهى كلمة تدل على التعجب ، ثم قال عمير : « أفما بينى وبين أن أدخل الجنة الا أن يقتلنى هؤلاء » ؟ .

وكان يأكل من تمرات قليلة فى يده ، فألقاها ، وأخذ سيفه وسارع الى الميدان يقاتل ، حتى قتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر .

وفى رواية أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال يومئذ : « قوموا الى جنة عرضها السموات والارض » .

فقال عمير : بخ بخ . وسمعه الرسول عليه الصلاة والسلام فقال له : لم تبخبخ ؟ (أى مم تتعجب ؟) .

فأجابه : لا والله يا رسول الله ، الا رجاء أن أكون من أهلها .

وكانت معه تمرات يأكلها فقال : والله ان بقيت حتى آكل تمراتى هذه انها لحياة طويلة . وألقى التمرات ، وجرد سيفه من غمده ، ومضى يقاتل فى سبيل الله وحده وهو يردد قوله :

ركضا الى الله بغير زاد
الا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد
وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

وفى رواية أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : قوموا الى جنة عرضها السموات والأرض .

فقال عمير : يارسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟

فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلامه : نعم .

فقال عمير : بخ بخ ! فقال الرسول : ما يحملك على قول : بخ بخ ؟

قال : لا والله ، يا رسول الله ، الا رجاء أن أكون من أهلها .

قال : فانك من أهلها .

فأخرج عمير تمرات ، واخذ يأكل منها ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه انها لحياة طويلة .

والقى التمرات ، وخرج الى حومة الوغى .

وصدق عمير وعده ، وأوفى عهده ، وظل يقـــاتل محتسبا قتاله لوجه الله ، غير ناظر الى شيء من متاع الحياة ، مقبلا على موطن الاستشهاد ، غير مدبر عن ميدان الجهاد ، حتى لقى ربه كريما عظيما ، فكان أول شهيد يفوز بنعمة الشهادة من الأنصار (١) .

وكما فاز عمير بالشهادة في غزوة بدر فاز بها رفيقه في الجهاد ، وأخوه في الله : عبيدة بن الحارث (٢) ، الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشهد أنك شهيد » . وهكذا يعيش الأخيار معـــا متصاحبين على الحق والصدق . ويمضون معا الى ربهم على طريق الوفاء والفداء ، ويبعثون يوم القيامة معا لينعموا برضا من الله ورضوان : «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين». رضوان الله عليهم أجمعين (٣) .

---

(١) قتله خالد بن الاعلم العقيلي ، ويقال ان أول قتيل من الانصار حارثة بن سراقة (عيون الاثر ، ج ١ ص ٢٥٧) وانظر قصة حارثة في كتابي (فدائيون في تاريخ الاسلام ، ص ٢٨٣ – ٢٨٧) .

(٢) الطبقات لابن سعد ، ج ٣ ص ١٠٨ القسم الثاني . وانظـــر « فدائيون في تاريخ الاسلام » . ص ٧٥ .

(٣) تروى السيرة أنه ليس لعمير بن الحمام عقب أي ذرية (الطبقات ج ٢ ص ١٠٨ القسم الثاني) .

يقول امام البلغـــــاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الامام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه : « انه ليس لانفسكم ثمن الا الجنة فلا تبيعوها الا بها » .
وهكذا فعل عمير بن الحمـام ، فحينما تهيأ له موقف الشهادة بذل نفسه لربه ، لينال ثمنها عنده وهو الجنة ؛ وكأن الايمان بالحياة الباقية وبنعيم الله هو مفتاح الوفاء والفداء ، ولو آمن الأخلاف كما آمن الأسلاف . لاقبلوا على حياض المنايا يشربون منهـــــا كئوس التضحية والاستشهاد ، لينالوا خير الجزاء من رب العبــاد : « وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرءوف رحيم » .

المجاهد المحبب للقيادة
عمرو بن العاص

الكمال لله وحده ، وكل امرىء منا له نصيبه من العيب أو النقص ، وجل المنزه عن الاخطاء ، وما فينا من احد الا ويؤخذ منه ويرد عليه ؛ وبين الخطأ والصواب يظل باب العودة بالتوبة والانابة مفتوحا أمام العباد : « والذين اذا فعلوا فاحشة ، أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .

ونحن فى أوقات تعبئة الهمم ، واثارة العزائم ، نحتاج الى اظهار الحسنات وابراز المكارم ، أكثر من حاجتنا الى تعداد السيئات ، وذكر المآثم .

واذا كان هناك أناس يتلمسون العيوب لأهل الفضل ، ويطيرون بها فرحا ، ويرددون المثالب ، ويعكفون على المعايب ، ليزيدوا الطين بلة ، والتثبيط شراسة ، والطريق ظلاما أمام السائرين ، فان أهل الرشاد والصواب يعنيهم أولا أن يتابعوا الصفحات المشرقة من سير الاسلاف ، ويرددوا عنها الحديث ، ليبعثوا بها هامدا ، أو يحركوا بها جامدا ، تاركين ما صدر عن هؤلاء الأسلاف من زلل أو خطل الى رب الأرباب ، وصاحب الحساب جل جلاله ، والله من ورائهم محيط .

على هذا السنن الواضح نمضى فى استعراض السلسلة المضيئة من أعلام رجالنا ، الذين كان لهم نصيبهم فى ميدان البطولة والتضحية والفداء . فماذا يضيرنا لو تعرفنا الى الجوانب المضيئة المشرقة فى سيرة عمرو البطل الفاتح ، والمقاتل الماهر ، والمجاهد المغرم بالقيادة ، وصاحب الفضل فى تحرير ارض فلسطين من أيدى الروم ؟ ..

انه أبو عبد الله (١) عمرو بن العاص بن وائل القرشى السهمى ، ولا ريب فى أنه كان شديد العداوة للاسلام والمسلمين وهو فى ظلمات الجاهلية ، وأنه تأخر عن دخول الاسلام حتى السنة السابعة للهجرة ، حيث أسلم عام خيبر ، بل قيل انه أسلم فى صفر سنة ثمان قبل فتح مكة بستة أشهر ، ولكنه قدم على النبى طائعا مختارا ، مع خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة فأعلنوا اسلامهم ، واعتز بهم جميع المسلمين .

وبعد قليل علم الرسول أن قبيلة قضاعة تتهيأ للانقضاض على المدينة ، فأرسل عمرو بن العاص قائدا لكتيبة عددها ثلاثمائة مجاهد فى غزوة ذات السلاسل (٢)، ورأى عمرو أن الأعداء كثيرون ، فاستنجد بالرسول ، فأمده بمائتى مجاهد ، فيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة من كبار المهاجرين ، وقد انتصر عمرو فى هذه السرية على قضاعة ، وأبلى فيها بلاء حسنا ، وكانت هذه أول مرة تبدو فيها عبقريته العسكرية .

(١) وقيل : أبو محمد ، ويقول النووى عن كلمة « العاص » ان الجمهور على كتابتها بالياء (العاصى) وهو الفصيح عند أهل العربية، وتقع فى كثير من كتب الحديث والفقه ـ او أكثرها ـ بحذف الياء وهى لغة . (تهذيب الاسماء ج ٢ ص ٣٠)

(٢) ذات السلاسل اسم لموضع فيه ماء بأرض جذام ، من مشارف الشام .

ويروى ان الرسول قال لعمرو عند بعثه وكأنه يختبره: يا عمرو ، انى أريد أن ابعثـــك على جيش فيغنمك الله ويسلمك .

فقال عمرو : انى لم أسلم رغبة فى المال .

فقال رسول الله : نعم المال الصالح للرجل الصالح .

***

ومن عبقريته العسكرية فى غزوة ذات السلاسل أنه بعد أن هزم أعداءه أراد رفاقه فى السلاح أن يتوغلوا فى أرض العدو فمنعهم . خشية أن يقعوا فريسة لكمائن تفاجئهم على الطريق ، وارادوا أن يشعلوا نارا بالليل للتدفئة ــ وكان الجو باردا ــ فمنعهم مشددا فى المنع ، لأنه خشى أن يلحظ الأعداء قلة عددهم فيكروا عليهم ، والحرب يقظة وانتباه وتقدير لكل احتمال .

وواصل رسول الله الانتفاع بطاقات عمرو بن العاص ، فارسله واليا على عمان فى ذى الحجة سنة ثمان للهجرة ، فكان سببا فى اسلام الكثير من اهل عمان ، وظل واليا عليها حتى لحق الرسول بربه .

وهنا أقبل طوفان الردة ، فاختـــار أبو بكر عمرو بن العاص ليكون أحد القادة للجيوش المجاهدة ضد المرتدين، ويروى أن عمرو بن العــــاص قال لأبى بكر حينما أراد الاستعانة به : « أما بعد فانى سهم من سهام الاسلام ، وانت ــ بعد الله ــ الرامى بها ، والجامع لها » .

وأظهر عمرو عبقريته فى حروب الردة مع غـــيره من القواد ، حتى دفع الله بلاء هذه النكبة عن كاهل الاسلام ومجتمع المسلمين ، وهنا أرسله أبو بكر قائدا للجيش فى الشام ، فجاهد قدر استطاعته .

ثم أقبل عمر بن الخطاب ، فواصل الانتفاع بعبقرية عمرو ، وكان للروم قائد مشهور هو أرطبون (١) وقد بلغ من ثقة عمر بعمرو بن العاص القـــائد ان قال قولته المشهورة : « قد رمينا أرطبون الروم ، بأرطبون العرب، فانظروا عم تنفرج » .

وكان عمرو عند ظن ابن الخطاب به فتغلب على أرطبون الروم وهزمه ، فى معركة أجنـــادين سنة خمس عشرة للهجرة .

ثم أخذ عمرو بن العاص يحرر الكثير من بلاد فلسطين المحتلة بالروم ، فحرر غـزة ، واللد ، ونابلس ، وبيت جبرين ، وبيت المقدس (القدس الآن) .

ولذلك جعله عمر بن الخطاب واليا على فلسطين ، وظل عليها حتى شرح الله صدر الفـــاروق لفتح مصر باسم الاسلام ، فكان هذا الواجب الثقيل الجليل من نصيب البطل الفاتح عمرو بن العاص ، وبذلك استحق الولاية عليها (٢) وعن طريق هذا الفتح من الله على أجدادنا فى مصر بنعمة الاسلام ، واكرم بها من نعمة يعرف قدرها أهل الايمان واليقين .

ولقد كان عمرو رجلا صاحب شجاعة أدبية ، كما كان صاحب شجاعة ميدانية ، ولعل ذلك هو الذى دعاه الى أن يخبرنا مثلا بأنه ظن حينما أمده الرســـول فى ذات السلاسل بمدد فيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة أن الرسول بهذا الامداد يفضله أو يقدمه على هؤلاء ، وذهب عمرو ــ

(١) يقال أصل اسمه « أريطيون » فنطقه العرب أرطبون .

(٢) ظل عمرو بن العاص واليا على مصر حتى توفى عمر بن الخطاب، وبقى واليا عليها أربع سنوات من عهد عثمان بن عفان ، ثم عزله عنها ، فاعتزل عمرو فى فلسطين ، ثم أعاده معاوية الى ولاية مصر ، فظـل فيها حتى توفى سنة ٤٣ هجرية .

كما يحدثنا عن نفسه ـ الى الرسول صلى الله عليه وسلم وجلس بين يديه وقال له : يا رسول الله ، من أحب الناس اليك ؟ ..

قال : عائشة .

فقال عمرو : انى لست أسألك عن أهلك يارسول الله.

فقال النبى : فأبوها .

قال عمرو : ثم من ؟ ..

قال النبى : ثم عمر .

وجعل عمرو يسأل والرسول يجيب باسم شخص غير عمرو ، حتى عدد طائفة من الرجال .

فسكت عمرو وقال فى نفسه : لا أعود أسأل عن هذا .

انها قوة الشخصية التى تدفع بعمرو الى أن يذكر مثل هذا للناس ليبقى فى التاريخ .

وجاءت ساعة الرحيل ، ورقد عمرو على فراش الموت، وأخذ يدعو ربه فيقول نادما راجيا : اللهم أمرتنى فلم اأتمر ، ونهيتنى فلم أنزجـــر ، ولست قويا فأنتصر ، ولا بريئا فأعتذر ، ولا مستكبرا بل مستغفرا ، لا اله الا أنت . فلم يزل يرددها حتى مات (١) .

جاء فى صحيح الامام مسلم :

عن ابن سماسة المهدى قال :

حضرنا عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وهو فى سياقة الموت ، فبكى طويلا ، وحول وجهه الى الجدار ، فجعل ابنه يقول له :

---

(١) هناك خلاف فى وفاة عمرو . قيل سنة ٤٣ وقيل سنة ٤٢ وقيل سنة ٤٤ وقيل سنة ٥١ والاول أصح كما يقول النووى (تهـــذيب الاسماء ج ٢ ص ٣٠) وكما يقول غيره من المؤرخين .

يا أبتاه ، أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا ؟ ..

أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا ؟ ...

فأقبل بوجهه فقال :

ان أفضل ما نعد : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

انى كنت على أطباق ثلاث :

لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مني ، ولا أحب الى ان أكون قد استمسكت منه فقتلته ، فلومت على تلك الحال لكنت من أهل النار .

فلما جعل الله الاسلام فى قلبى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أبسط يمينك فلأبايعك .

فبسط يمينه ، فقبضت يمينى .

فقال : مالك يا عمرو ؟ ..

قلت : أردت أن أشترط .

قال : تشترط ماذا ؟ ..

قلت : أن يغفر لى .

قال : أما علمت أن الاسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلهـــا ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ ..

وما كان احد أحب الى من رسول الله صلى عليـــه وسلم ، ولا أجل فى عينى منه ، وما كنت أطيق أن املأ عينى منه ، أجلالا له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت ، لأنى لم اكن املأ عينى منه ، ولو مت على تلك الحـــال لرجوت أن أكون من أهل الجنة .

ثم وليت أشياء ما أدرى ما حالى فيها .

فاذا أنامت فلا تصحبنى نائحة ولا نار ، فاذا دفنتمونى فسنوا على التراب سنا (١) ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تنحر جزور ، ويقسم لحمها ، حتى استأنس بكم ، وانظر ماذا أراجع به رسل ربى (٢) .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

يأتى الحـــــلو على المر فيمحوه : « أن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين » ، وقد بذل أسلافنا جهودهم ، وحفظوا عهودهم قدر طاقتهم ، فغفر الله لهم ما فرط منهم ، وضاعف أجرهم وثوابهم ، فليت الخلف يختط طريق السلف ، وما ذلك على الله بعزيز .

---

(١) سن الماء على وجهه : أي صبه ، ومعنى عبارة عمرو : ضعوا التراب على جسدى وضعا سهلا .

(٢) قال النووى فى كتابه « تهذيب الاسماء واللغات » عن حديث عمرو بن العاص هذا : « وفى وفاته حديث مليح فى كتاب الايمان من صحيح مسلم » ج ٢ ص ٣١ .

الناسك المجاهد

عبد الله بن عمرو بن العاص

اذا كان الله تبارك وتعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » ، فانه أيضا قد قال : « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ، أن كنتم تعلمون » . واذا كان رسول الله صلوات الله عليه وسلامه قد قال : « اتق الله حيثما كنت » ، فانه أيضا قد قال : « لغـــدوة فى سبيل الله أو روحة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب » .

ولقد رسم لنا الرسول منهج المسلم الفاضل فى هذه الحياة حين قال : « ليس خيركم من ترك دنياه لأخراه ، ولا من ترك أخراه لدنياه ، ولكن خيركم من عمل لهذه وتلك » . ثم ضرب الرسول القدوة فى ذلك من نفسه فقال : « أنا أصـــوم وأفطر ، وأصلى وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

ونحن حين نتواصى باقامة مجتمعنا على قاعدتى العلم والايمان ، ينبغى لنا ان نتذكر أن العلم يرمز الى القوة التى تجعل أبناء الاسلام يحيون فى الدنيـــا أعزاء شرفاء سعداء ، وأن الايمان يشير الى النور الالهى الضابط لهذه

القوة الموجه لها الى خيرى الدنيا والآخرة ، وان العلم حين يصفو ويعلو يفجر ينابيع اليقين فى صدر الانسان ، ولذلك يقول الرحمن : « انما يخشى الله من عبـــــاده العلماء » .

واعجاب الانسان مستمر دائم بأولئك السابقين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين نجد الواحد منهم يذوب خشية وعبادة لربه فى محرابه ، كأنه لا شاغل له سوى التعبـــد والتهجد ، فاذا نادى المنادى : حى على الجهاد ، نقل محرابه الى الميدان ، وجاهد فى سبيل ربه خير الجهاد ، ثم بذل جهوده هنـــا وهناك فى مسالك الحياة وشعابها ، صالحا مصلحا ، راغبا أن يكون عند الله من المقبولين : « والسابقون السابقون ، أولئك المقربون فى جنات النعيم » .

***

وهذا واحد من أولئك الكرام العظام :

انه الصحابى الجليل ، الناسك المجاهد، أبو محمد (١) عبد الله بن عمرو بن العاص (٢) ، الذى يصفه أبو نعيم فى (الحلية) بقوله : « القوى الخاشع ، القارىء المتواضع، صاحب الصيام والقيام عبد الله بن عمرو بن العاص. كان بالحقائق قائلا : وعن الاباطيل مائلا ، يعانق العمل، ويفارق الجدل ، يطعم الطعام ، ويفشى الســـــلام ، ويطيب الكلام » (٣) .

---

(١) وقيل : أبو عبد الرحمن ، وقيل أبو نصير (بضم النون) .

(٢) وأمه هى : ريطة بنت منبه بن الحجاج . أسلمت . وقالوا : وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : نعم أهـــل البيت عبدالله وأبو عبدالله وأم عبدالله . (تهذيب الاسماء ج ١ ص ٢٨١) .

(٣) حلية الاولياء ج ١ ض ٢٨٣ .

ويقول عنه الذهبي : « كان دينا صالحا ، كثير العلم كبير القدر (١) » . وأعطى عبد الله العلم حقه منذ بداية الطريق ، فتعلم وهو فتى في الجاهلية ، وكتب وقرأ كثيرا، وأحسن اللغة السريانية ، وكان بجوار عنايته الفائقة بشأن القرآن الكريم يطلع على كتب الأديان الأخرى كالتوراة ليحيط بأمرها علما ، وكان يأخذ الحكمة من أى وعاء خرجت .

وقد سارع الى الدخول فى دين الله بعد أن درسه وأيقن به ، وقد أسلم قبل اسلام أبيه عمرو بن العاص (٢) . وكان يتابع نزول القرآن المجيد ، وكلما نزلت من آياته طائفة أو سورة سارع بكتابتها وتلاوتها وحفظها ، والعمل بها وتطبيق ما فيها ، فهو رجل عرف الدين وآمن به واستجاب له ، فليس أمامه حسب يقينه الا أن يتلقى الأوامر وينفذها ، ويطبقها على وعى وبصيرة ، ليحسن الجمع بين العلم والعمل .

وبرغم أن عبد الله كان ماهرا فى شئون الدنيا خبيرا بها ، أقبل على العبادة يتوسع فيها ويتوسع . فكان يقوم الليل الا أقله ، ويختم القرآن كل أسبوع ، ويصوم يوما ويفطر يوما ، ويحاول أن يفعل أكثر من ذلك ،معرضا عن كثير من ألوان التمتع المباح ، ولذلك أشفق عليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ونصحه بالتخفيف والاعتدال ، وقال له فيما قال : « ان لبدنك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا ، وان لضيفك عليك حقا » .

(١) العبر ج ١ ص ٧٢

(٢) يقول ابن كثير عن عبد الله : « كان من خيار الصحابة وعلمائهم وعبادهم ، وكتب عن النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا . أسلم قبل أبيه ، ولم يكن أصغر من أبيه الا باثنتى عشرة سنة ، وكان واسع العلم مجتهدا فى العبادة عاقلا » البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٣ .

ولقد جاء فى الطبقات لابن سعد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو : فى كم تقرأ القرآن ؟ .

قال : فى يوم وليلة .

فقال النبى له : أرقد وصل وأرقد : واقراه فى كل شهر .

فما زال عبد الله يناقض الرسول والرسول يناقضه حتى قال الرسول : اقراه فى سبع ليال .

ثم قال له النبى : كيف تصوم ؟ ..

فأجاب عبد الله : أصوم ولا أفطر .

فقال النبى : صم وأفطر ، وصم ثلاثة ايام من كل شهر .

فما زال يناقض النبى والنبى يناقضه ، حتى قال له النبى : صم أحب الصيام الى الله ، وهو صيام أخى داود : صم يوما وأفطر يوما .

قال عبد الله : فلأن أكون قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الى من أن يكون لى حمر النعم حسبته (١) .

***

ومع هذا التوسع فى التعبد والتهجد كان عبد الله بن عمرو حريصا على أداء واجب الجهاد فى سبيل الله ، كلما دعاه الداعى الى ذلك ، لانه يعلم ان الجهاد فريضة قائمة باقية ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما ترك قوم الجهاد الا ذلوا » . وأن هذا الجهاد عند تحتمه ووجوبه هو رأس العبادات وأساس القربات .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ٧٠ القسم الثانى .

ولذلك كان عبــد الله يقضى ما يقضى من أيامه حليف تلاوته وعبادته وصلاته وقرباته ، فاذا أذن المؤذن داعيا الى صلاة الوفاء والفداء فى الميدان ، لبى عبد الله وأجاب، وبذلك شهد طائفة من الحروب والغزوات ، وكان يضرب بسيفين ، وكان يحمل راية أبيه فى معـــركة اليرموك ، متقدما الصفوف ، راغبا فى نيل الشهادة ، وأبلى بلاء حسنا فى معارك فتوح الشام .. وفى معـــركة اليرموك الكبرى بوجه خاص .

وكان مع هذا يحذر ان يشترك فى فتنة داخليــة أو حرب إهلية بين المسلمين ، فقد أوصاه الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم بألا يضع سيفه على عنق مسلم أبدا ، ولكنه تعرض فى هذا المجال لابتلاء عصيب ، أنقذه الله منه برحمته ، فقد حدث أن كان عبد الله وأبوه عند الرسول ، فقـــــال الرسول لعبد الله : « أطع أباك » ، وحرص عبد الله على تنفيذ أمر الرسول فى أطاعة أبيه ، ثم جاءت معركة صفين التى وقعت بين على ومعاوية ؛ وكان والده عمرو بن العاص فى صف معاوية ، وطلب عمرو من ابنه عبد الله أن يخرج معهم للقتال ، فرفض ذلك .

فقال له : « أتذكر ياعبد الله آخر عهـد عهده اليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أخذ بيدك فوضعها فى يدى ، وقال لك : « أطع أباك » ؟ فانى أعزم عليك الآن أن تخرج معنا للقتال » . فاضطر عبد الله أن يخرج ، وهو ينوى عدم المشاركة فى القتال ، وفى أول المعـــركة نال عمار بن ياسر الشهادة ، قتله أنصار معاوية ، فارتفع صوت عبد الله يذكر المسلمين بقول الرسول عن عمار وهم يبنون مسجد المدينة : « ويح ابن سمية ، تقتله الفئة الباغية » . وايقن عبد الله أن قتلة عمار فئة باغية ، فسارع بالعودة

الى محرابه ، محاذرا أن يناله وبال هذه الفتنة .

وصرف عبد الله جانبا كبيرا من همته فى تحصيل العلم الدينى ، فروى سبعمائة حديث عن الرســـول جاءت فى صحيح البخارى ومسلم . وقال : « حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل » . وكما اجتهد فى العبادة والتلاوة اجتهد فى العلم حتى كان أكثر الناس أخذا للحديث والعلم من الرسول (١) .

وقال عنه أبو هريرة : « ما كان أحد أكثر حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منى ، الا عبد الله بن عمرو ، فانه كان يكتب ولا أكتب (٢) » . وكان عبد الله قد استأذن النبى فى أن يكتب ما يسمعه منه فأذن له ، فكتب ما سمع فى صحف كان يسميها « الصادقة » ، وكان يقول عنها : « هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بينى وبينه فيها أحد » (٣). ومن كلمات عبد الله البليغة قوله : « لخير أعمله اليوم أحب الى من مثليه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، تهمنا الآخرة ولا تهمنا الدنيـــــا ، وانا اليوم مالت بنا الدنيا » .

هذا وقد ولاه معاوية « الكوفة » زمنا قصيرا ، ولما تولى ابنه يزيد الخلافة ، امتنع عبد الله عن بيعته ،وانزوى منقطعا للعبادة ، وكف بصره فى آخر حياته ، رضوان الله عليه .

ولقد لحق بربه تبارك وتعـــالى سنة خمس وستين

(١) تهذيب الاسماء للنووى ج ١ ص ٢٨٢ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الطبقات لابن سعد ج ٤ ص ٨ القسم الثانى .

للهجرة على الصحيح ، ويقول الذهبي في كتابه « العبر » عن سنة خمس وستين : « وفيهـا مات على الصحيح عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي » (١) . واختلفوا اختلافا واسعا في سنة وفاته ، كما اختلفوا في مكان وفاته ايضا .

***

يا اتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

هكذا عاش أصحاب النبي : كانوا أهل علم وعمل ، وأصحاب عبادة وسعي ، وحلفاء قوة وايمان ، وانصـار مادة وروح ، فاقاموا مجتمعا عاقلا فاضلا ، عزت فيه كلمة الله على الدوام ، فأعزهم ربهم بين سائر الأنام ، فهل من سبيل الى عودة لما كان عليه أولئك الأعلام ؟ .

---

(١) العبر ، ج ١ ص ٧٢ .

المجاهد ذو الـــــرأى
الحباب بن المنذر الأنصارى

خلق الله تبارك وتعالى الانسان صاحب طاقة محدودة وأنفاس معدودة ؛ فهو لا يستطيع ــ ولو زعم ــ ان ينهض وحيدا منفردا بكل ما يهوى أو يريد ، وهو لا يستطيع ــ وان حاول ــ أن يحيط بكل شىء علما ، أو يدعى أنه اوتى العصمة من الخطأ والزلل ، أو من السهو والنسيان، وأمور الحياة كثيرة متعددة ، وأحداثها موصولة متجددة .

والعاقل اللبيب هو من أدرك هذه الحقيقة ؛ فلم ينفرد بنفسه ، ولم يستبد برأيه ؛ بل أضاف الى عقله عقول سواه ، ووضع يده فى أيدى قومه وأهل حمـــاه ؛ معينا ومستعينا ؛ وناصحا ومنتصحا ، وهاديا ومهتديا .

والقرآنالكريم يقررذلك المنهاج الرشيد حين يقول : « والعصر ، ان الانســـــان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وحين يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى » .

والأثر الاسلامى الحكيم يقول : « ما ندم من استشار، ولا خاب من استخار » .

وشوقى الحكيم يقول : « شورى ولو كانت من الحجاج خير من استبداد الفرد ولو كان عمر » .

وحافظ ابراهيم يقول :

رأى الجماعة لا تشقى البلاد به
رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

ولذلك جعل الحق جل جلاله مبدأ « الشورى » قاعدة من قواعد الاسلام ، وفريضة من عزائم الاحكام ، فوصف القرآن الأمة المؤمنة بقوله : « وامرهم شورى بينهم » ؛ وأمر الله رسوله بالخضوع لمبدأ الشورى والاخذ به ؛ التزاما لأمر الله من جهة ، وتعليما للمسلمين كي يحرصوا على الشورى من جهة أخرى ، فقال الله لرسوله : « وشاورهم في الامر » .

ولقد استجاب سيد الخلق وامام الانسانية محمد لهذا التوجيه الالهى الحكيم ، فكان بذلك وبغيره خير من استجابت له النفوس ، والتقت على تأييده الهمم ، لانه اعطى الرجال من حوله مكانتهم ، وصان حرمتهم ؛ واستوعب فكرتهم ، واستشارهم فقالوا كلمتهم ، حتى هتف أحدهم يقول له مخلصا : « يا رسول الله ، والله انا لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ها هنا قاعدون ، ولكنا نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا معكما مقاتلون » .

ولقد كان في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبطال صدقوه الرأى والمشورة والنصيحة : « والدين النصيحة » وكانت لأفكارهم وآرائهم نتائج وآثار أثمرت أطيب الثمرات في تاريخ الاسلام والمسلمين ، ولم يكتفوا بالرأى يبدونه ، ولا بالفكرة يستنبطونها ، بل اندفعوا معه في مجالات الحق والصدق ، ينفذون ما اتجه اليه رأيهم ، واتفقت عليه كلمتهم ، ويد الله مع الجماعة كما قال الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا واحـــد من أولئك الذين كانوا من أهل الوفاء والفداء ، فجمعوا بين صفاء النفوس ، ورجاحة العقول ، وروعة التطبيق والالتزام .

انه الصحابى الجليل ، المفكر المدبر، المستجيب المقدام، المقاتل المناضل : أبو عمرو الحباب بن المنذر بن الجموح ابن زيد الأنصـــارى رضى الله عنه (١) وكان بليغا ينظم الشعر ، فشغله الاسلام والقرآن والجهاد عن الهيام مع الشعراء فى أودية الخيال والأوهام ، وكان فى الجـاهلية صاحب تفكير عميق ، فلما استضاء بنور الايمان ســخر طاقة تدبيره وتفكيره لخدمة الحق وأهله ، وصار يقـال له « ذو الراى » لكثرة ما يبدى من توجيه حميد ، وتفكير سديد .

وتروى السيرة انه حينما نزل الرسول فى غزوة بدر على أقرب ماء من مياه بدر جهة المدينة ، جاءه الحباب ، وقال له : يا رسول الله ، ارأيت هـذا المنزل ، أمنزل أنزلكه الله ، فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الراى والحرب والمكيدة ؟ .

فقال الرسول : « بل هو الراى والحرب والمكيدة» .

فقال الحباب : يا رسول الله ، ان هذا ليس بمنزل ، فانهض بنا حتى نأتى أدنى ماء من القوم (المشركين) فننزل ونعور ما وراءه من القلب (بضمتين جمع قليب وهو البئر) ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ، فنشرب ولا يشربون (٢) . وأعجب الرسول براى الحباب وأمر بتنفيذه ، ويروى أن جبريل نزل على النبى يقول له : الراى ما أشـــار به الحباب بن المنذر .

---

(١) أمه هى : الشموس بنت حق .

(٢) انظر تاريخ الطبرى ٤٤٠/٢ والسيرة لابن كثير ٤٠٢/٢ .

فقال النبى : يا حباب أشرت بالرأى (١) .

وفى معـــركة بنى قريظـة والنضير استشار النبى المسلمين ، فوقف الحباب وقال : يا رسول الله ارى ان ننزل بين القصور ، فنقطع خبر هؤلاء عن هؤلاء .

فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم برأيه (٢) .

ولم يكن الحباب عقلية مفكرة مدبرة فحسب ، بل كان الى جوار ذلك مقاتلا بطلا مقداما ، وكان يقول : «نحن أهل الحرب » .

ولا عجب فهو سلالة محاربين ، وهو خال المنذر بن عمرو الساعدى أحد النقباء ، وأحد الشهداء فى بئر معونة ، الذى قال عنه الرسول ، « أعنق ليموت » اى اسرع لينال الشهادة (٣) .

ولقد كان الحباب يحمل لواء قومه الخزرج يوم غزوة بدر ، ومعنى هذا انه كان فى طليعتهم (٤) . وكان الحباب من أوائل الذين اشتركوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة السويق بعد ثلاثة أشهر من غزوة بدر ، وهى احدى غزوات المقاومة الجريئة من المسلمين .



وفى غزوة أحد كان الحباب أيضا يحمل لواء الخزرج ، وكان هناك ثلاثة ألوية فى الغـــزوة . وحينما تبدت شراسة المعركة ثبت الحباب الى جانب الرسول وبايعه

---

(١) الطبقات لابن سعد ١٠٩/٣ القسم الثانى .
(٢) المرجع السابق .
(٣) تحدثت عن المنذر بن عمرو حديثا مفصلا فى كتابى « فدائيون فى تاريخ الاسلام » ص ١٠٥ ــ ١١٥ .
(٤) كان عمره يوم بدر ثلاثا وثلاثين سنة (أسد الغابة ٤٣٢/١ طبعة التعاون) .

على الموت (١)، ولم يقبل لنفسه أن يفر . ثم شهد معه غزوة الخندق ؛ وهي غزوة الأحزاب التي قال عنهـــــا القرآن : « اذ جاؤكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم . واذ زاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنا لك ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزالاشديدا» .

ثم شهد المشاهد كلها مع رسول الله عليه الصــــلاة والسلام (٢) .

وفوق هذا كله كان الحباب بن المنــذر راوية للحديث النبوى . وممن روى عنه أبو الطفيل . وهو آخر صحابة رسول الله (٣) .

وظل الحباب يبذل جهده ، ويصون عهده . حتى توفى فى عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليه . ولم يترك وراءه عقبا ولا ذرية ؛ ولكن ذكراه بقيت كريمة عاطرة باهرة ، تزين صدر التاريخ ؛ رضوان الله تبارك وتعالى عليه . وسلام عليه فى الخالدين .



يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

ان انجاز الأعمال ؛ أوتحقيق الآمال ؛ يتطلب أمرين أساسيين : هما الرأى الصائب ، والعــــزيمة الماضية ، ولذلك قال الشاعر الأول :

الراى قبل شجاعة الشــــجعان
هو أول وهى المحـــل الثـــانى

وقال القائل الآخر :

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١١٠/٣ القسم الثانى .
(٢) المرجع السابق .
(٣) التحفة اللطيفة ج ١ ص ٤٤٥ .

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمـــــة
فان فســـــــاد الرأى ان تترددا

فليتنا نقبل على مجتمعنا المؤمن نعمره بالآراء الناضجة، ونشد بنيانه بالشجاعة والاقدام ، ففى ذلك فلاح الدنيا وسعادة الآخرة .

والله من وراء القصد يرشد ويعين .

عابد فلسطين المجاهد
تميم بن أوس الدارى

ان اعجاب الباحث المتامل لا ينقضى بشأن هذه الامة المحمدية المؤمنة ، التى صنعها ربها ، وأدبها كتابها ، وهذبها نبيها ، وجعلها الاسلام نبراسا للعالمين .

فلو أن فردا من أبناء هذه الامة برع فى الشئون المادية وحدها ، لقلنا منه : انه انسان دنيا أغراه حب الحياة ، فأقبل عليها يعب منها بأوسع المكاييل ، ولو أن فردا منها توسع فى العبادة والقنوت ، لقلنا : انه انسان آخرة ارتضى لنفسه أن يكون حليف مساجد ومحاريب ، ولو أن فردا منها سطع نجمه فى القتال والحرب لقلنا انه : انسان أوتى قوة وشجاعة ، فاندفع الى المعارك يرضى بها نزعته الى البطولة والفخر .

ولكن الذى يثير الاعجاب المستمر هو أن نرى أعلام هذه الأمة المحمدية المؤمنة كأن الله تعالى قد آتاهم ميزانا الهيا دقيقا ، وزنوا به مقومات شخصياتهم الاسلامية فى تعادل وتكامل ، فهم رجال الدنيا ورجال الدين ، وهم أبطال الاولى وأبطال الآخرة ، وهم رهبان الليل وفرسان النهار ، وهم أهل المادة وأهل الروح .

وكأن كلا منهم قد أحسن الاستجابة لقول الحق عز

من قائل . « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولاتبغ الفساد فى الارض ، ان الله لا يحب المفسدين » . فهم الجادون المجتهدون فى العمل والسعى والبناء والتعمير ، وهم القانتون المتهجدون فى ساحات العبادات والقربات، وعمل الصالحات وتقديم الطيبات ، وهم المعـــروفون ببطولاتهم وتضحياتهم فى ميادين القتال والنضال .

وكانهم نذروا انفسهم لاقامة حياة عاملة عاقلة ، عادلة، فاضلة ، يتمثل فى أهلها قول الحق جل جلاله : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ». وقوله : «كنتم خير أمة اخرجت للناس » .

وهذا واحد منهم : انه الصحابى الفاضل ، والمجاهد المناضل،وعابد فلسطين المقاتل : أبو رقية تميم بن أوس بن خارجة الدارى (١) الذى كان فى أول أمره نصرانيا من اتباع عيسى عليه السلام ، ثم شرح الله صدره للاسلام ، فدخل فيه سنة تسع للهجرة ، وكانه استجاب لدعوة عيسى حين قال فيمـا قال : « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .

وكان يقال له فى كنيته : « أبو رقية » لان الله تعالى رزقه بنتا ســـماها « رقية » تيمنا باسم احدى بنات الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يولد لتميم سواها ، ومع ذلك رضى بها ، وكانه تذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما بشروه باحدى بناته قال : « ريحانة اشمها ورزقها على الله » .

---

(١) نسبة الى الدار بن هانىء من لخم ، وهو أحد أجداده ، وقيل فى نسبه : الديرى ، نسبه الى دير كان يتعبد فيه قبل الاسلام ، لانه كان نصرانيا .

وكان تميم راهب عصره ، وعابد أهل فلسطين . كما يقول رواة السيرة ؛ وكان حافظا للقرآن ، مكثرا لتلاوته والتدبر فيه . يختمه كل سبع ليال ، وربما قام الليلة من الليالى متهجدا حتى يصبح بآية من القرآن الكريم، يرتلها ويتدبر فى معانيها ومغازيها .

فقد روى أنه قام ذات ليلة حتى أصبح بقول الله تعالى فى سورة الجاثية : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون » .

وقام ليلة أخرى ، ردد فيها آية حتى أصبح ؛ وهى قوله تعالى : « ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم » .

ومع هذا كان رجل دنيا ، يجيد السعى والعمل والكسب ، وجمع من وراء ذلك مالا طيبا أسهم به فى وجوه كثيرة من الخيرات ؛ وأظهر فى نفسه نعمة الله عليه ، فكانت له كما يقول التاريخ هيأة ولباس ، ولقد اشترى بعض الثياب بألف درهم ليصلى فيها ، مهتديا بقول الحق جل جلاله : « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » .

ولأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « ان الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » ؛ وهذا بعض ما نفهمه من قول القرآن المجيد : « وأما بنعمة ربك فحدث » .

***

وكان تميم الدارى مع هذا رجلا مجاهدا مناضلا ؛ شارك فى غزوات للحق ضد الباطل ومعارك للايمان ضد الكفران ، واشترك معه فى بعض هذه الغزوات أخوه

« نعيم » الذى أسلم معه ، وكان تميم الدارى يعنى باعداد سلاحه وأدوات قتاله ، حتى يكون على استعداد دائم للنفير الى الجهاد ، وكان يقوم بهذا الاعداد بنفسه .

ولقد زار روح بن زنباع تميما الدارى فى بيته ، فوجده ينقى شعيرا لفرسه الذى يركبه فى الجهاد ، وحوله أفراد من أهله ، فقال له روح : أما كان فى هؤلاء من يكفيك هذا ؟ .

قال تميم : بلى ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من امرىء مسلم ينقى لفرسه شعيرا ، ثم يعلفه عليه الا كتب الله له بكل حبة حسنة » (١) .

واذا كان تميم قد قال هذا بالنسبة الى فرسه ، فمن الممكن أن يقال مثل ذلك عن آلات الجهاد المعاصرة ، كالطيارة والدبابة والمدرعة، فليس هناك ما يمنعنا أن نفهم أن من صان دبابته مثلا ، وأشرف على تنظيفها واعدادها وامدادها بالنفط (البنزين) . كان له بكل قطرة من النفط حسنة ، وانما يتقبل الله جل جلاله من المتقين المخلصين الصادقين .

وقد زار تميم « مصر » كنانة الله فى أرضه ، وشهد فتحها ، وتلقى عنه الحديث كثير من أهل مصر ، منهم على بن رباح ، وموسى بن نصير فاتح الأندلس وأكثر بلاد المغرب .

ولم يكتف تميم الدارى بالجهاد على سطح الارض اليابسة ، بل جاهد فى وسط المياه والامواج ، فركب البحر مناضلا مع البحرية الاسلامية الاولى ، فى عهد كانت فيه وسائل التنقل فى البحر قليلة ضئيلة غير مأمونة ، وقد روى تميم لرسول الله صلى الله عليه وسلم اخبارا عن بعض

(١) أخرجه الثلاثة .

رحلاته فى البحر وروى الرسول هذه الأخبار عن تميم رضوان الله عليه .

ومنها قصة «الجساسة» :

فى احدى رحلات تميم فى البحر ، راى فى جزيرة البحر « الجساسة » وهى دابة تتجسس الأخبار ، وقد جاء خبر « الجساسة » فى حديث صحيح رواه الامام مسلم ، وقدروى تميم هذا الخبر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورواه عنه الرسول. وعدالعلماءذلكمنقبةعظيمة لتميم ، فهو الشخص الوحيد الذى روى عنه النبى صلوات الله وسلامه عليه . وفى صحيح مسلم : « أن رسول‌الله روى عن تميم قصة الجساسة ، وهذه منقبة شريفة له لا يشاركه فيها غيره » .

وفى صحيح مسلم عن عامر بن شراحيل انه سأل فاطمة بنت قيس ـ وكانت من المهاجرات الأول ـ فقال :

حدثينى حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تسنديه الى أحد غيره .

فقالت : لئن شئت لأفعلن .

فقال لها : أجل حدثينى .

فقالت : نكحت ابن المغيرة،وهو من خيار شباب قريش يومئذ ، فأصيب (بجراح) فى أول الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما تأيمت (لان ابن المغيرة طلقها) خطبنى عبد الرحمن بن عوف ، فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على مولاه أسامة بن زيد ، وكنت قد حدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أحبنى فليحب أسامة .

فلما كلمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت :

أمرى بيدك، فانكحنى من شئت. وأمرها الرسول بالانتقال الى الاقامة عند عبد الله بن أم مكتوم .

فلما انتهت عدتها سمعت نداء منـــادى النبى : « الصلاة جامعة » .

تقول : « فخرجت الى المسجد ، فصليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكنت فى صف النساء الذى يلى ظهر القوم » .

ولما انتهى الرسول من الصلاة جلس على المنبر وقال : ليلزم كل انسان مصلاه .

ثم قال : أتدرون لم جمعتكم ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : انى والله ما جمعتكم لرغبة ولا رهبــة . ولكن جمعتكم لان تميما الدارى كان رجلا نصرانيا ، فجاء وبايع وأسلم ، وحدثنى حديثا وافق الذى كنت أحدثكم عن المسيح الدجال .

ثم قص النبى ما رآه تميم الدارى مع رفاقه فى جزيرة بالبحر ، وهو دابة غليظـــة الشعر غريبة الشكل تتكلم كأنها من جنس البشر ، فسألوها عن شأنها ، فدلتهم على رجل فى دير ، عظيم الخلقة ، يداه موثقتـــان فى عنقه بالاغلال .

قالوا له : ويلك ما أنت ؟

فقال : أخبرونى من أنتم ؟

فقصوا خبرهم ، فقــال : أخبرونى عن نخل بيسان (مدينة بالاردن) .

قالوا : عن أى شأنها تستخبرنا ؟

قال : أسألكم عن نخلها هل يثمر ؟

قالوا : نعم .

قال : أماانه يوشك أن لا يثمر ، اخبرونى عن بحيرة طبرية ، هل فيها ماء ؟

قالوا : هى كثيرة الماء .

قال : اما ان ماءها يوشك أن يذهب . . .

ثم قال : أخبرونى عن نبى الأميين ما فعل .

قالوا : قد خرج من مكة ،ونزل يثرب .

قال : أقاتله العرب ؟

قالوا : نعم .

قال : كيف صنع بهم ؟

قالوا : قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه .

قال : أما ان ذلك خير أن يطيعوه . . .

ومضى الرسول يقص بقية الخبر ، ويذكر المسيح الدجال ، ثم قال : « انه أعجبنى حديث تميم ، انه وافق الذى كنت أحدثكم » . . .

وهكذا فاز تميم بمفخرة لم ينلها سواه ، وهى أن يروى عنه رسول الله ، وذلك تكريم أى تكريم . ولا عجب فى ذلك ، فتميم قد أسلم قياده لرسول الله ، منذ أقبل على نور الاسلام . ولقد روى التاريخ أن تميما قدم على الرسول لأول مرة فحياه بتحية الجاهلية ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : « ان تحيتنا السلام » فاستمع تميم واستجاب ، واعتدل واستقام .

وأحب تميم رسول الله ، وكان يهدى اليه لطائف الثمار ، وأهدى الى النبى ذات مرة زبيبا ، فوضعه الرسول بين يديه ، ودعا اليه أصحابه ، وقال : « كلوا ، فنعم الطعام الزبيب » .

ونال تميم تقدير الرسول وتكريمه فأقطمه بلدة « حبرون » التى يقول عنها ياقوت : ان حبرون أسم القرية التى فيها قبر ابراهيم عليه السلام بالبيت المقدس،

ثم غلب عليها اسم « الخليل » ويقال لها : « حبرى » .

ومن مآثر تميم أنه كان عميق الايمان ناصع العقيدة ، جاء فى مسند الامام احمد :

عن تميم الدارى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ليبلغن هذا الامر مابلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر الا أدخله هذا الدين بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز به الاسلام ، وذلا يذل به الكفر » .

فكان يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد اصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب منهم من كان كافرا الذل والصغار والجزية » .

***

وفوق هذه المآثر كلها كان تميم الدارى رجلا فقيها راويا للحديث النبوى الشريف ، وقد أورد له الامامان البخارى ومسلم ثمانية عشر حديثا ، وتلقى الحديث عن تميم جماعة من أجلاء الصحابة حسبنا أن نتذكر منهم : عبد الله بن عباس وأنس بن مالك ، رضوان الله على الجميع . ومن الأحاديث التى رواها تميم عن فم النبوة الطاهرة الحديث القائل : « الدين النصيحة » . ولذلك عاش تميم ناصحا لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ... وفى آخر عهد الرسول طلب تميم من النبى أن يعهد اليه بقرية « عينون » القريبة من القدس فى فلسطين ، وهى ـ كما فى معجم البلدان ـ من قرى بيت المقدس (وقيل أقطعه النبى قرية حبرون) ليستخصبها مع أهله وأقاربه المقيمين فيها ، فكتب النبى له كتابا بذلك ، وبذل تميم مع قومه جهودا كبيرة كريمة فى تعمير القرية واستخصاب أرضها ، فكفى نفسه

وأهله ، وزكى ثروته وماله ، وتصدق بالكثير لوجه الله تعالى ، وقد روى أنه أول من أشعل السراج فى مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام (١) ومع ذلك لم ينقطع تميم عن الدعوة والارشاد الى سبيل الله ، فقد استأذن تميم الخليفة عمر فى أن يعقد مجلسا يعظ فيه ، ويقص على الناس ما يذكرهم ويرشدهم ، وظل تميم على عمله للدنيا والدين ، وعلى رباطه استعدادا للجهاد فى كل أوان ، حتى لحق بربه سنة أربعين للهجرة فى فلسطين ، ودفن فى قرية « بيت جبرين » من أرض فلسطين ردها الله على العرب والمسلمين .

***

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : هكذا عاش أحد المجاهدين من تلاميذ رسول الله الذى قال فيما يرويه الامام أحمد : « من مات مرابطا مات شهيدا » . وقد عاش تميم مجاهدا ومات مرابطا ، فليس بكثير على فضل الله الواسع أن يثيبه ثواب الشهداء ، وليس بكثير على فضل الله الواسع أن يأخذ بتواصينا جميعا الى طريق الهدى والرشاد .

---

(١) قيل انه أول من أسرج المسجد النبوى فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، وقيل ان أول من أسرجه هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

المجاهد الشيخ
عمر المختار

ان حديث الفداء فى الاسلام قد صار لحنا محببا ، فقد دبت فينا الحياة الكريمة من جديد ، فأصبحنا نقارع أعداءنا يوما بعد يوم ، وننقض عليهم مضاجعهم ، وننال منهم، والاحرار يقاتلون بلا يأس : « انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

وتاريخنا القديم والحديث يعلمنا ذلك ، فهذه مثلا هى ايطاليا الاستعمارية تقـــدم منذ نصف قرن على احتلال دولة عربية اسلامية شقيقة هى ليبيا ، فقام شعبها العربى المسلم يقاوم هذا الطغيان بكل ما اســـتطاع ، مستمدا حوافز جهاده وكفاحه من تعاليم دينه ومبادىء شريعته ، محتملا فى سبيل ذلك كل أنواع البلاء والعناء ، واذا كنا رأينا فى فلسطين المحتلة مجرما شرسا عضوضا يسمى « موسى ديان » فقد كان له أخ ايطالى من قبل ظهر فى ليبيا المحتلة حينئذ يسمى « الجنرال جرازيانى » فملأ السجون بالليبيين ، وأنزل بهم صنوف العذاب ، وأنشأ محكمة سميت « بالمحكمة الطائرة » ، وهى من أقذر الوسائل الانتقامية التى لجأ اليها الاستعمار الغربى الدنىء ، فهى محكمة عرفية سيارة كانت تتنقل بين البلاد بوساطة الطائرات ، وتعقد جلساتها فى الميادين العامة ،

وتتم محاكماتها بسرعة . ثم تصدر أحكامها بالاعدام . ومصادرة الاموال لاقل شبهة .

ولقد بلغ من فجر ايطاليا المحتلة حينئذ لليبيا أن اخذ مجرموها الشهيد الليبى الشيخ سيد الشرقاوى ومعه خمسة عشر شيخا ، وقتلوهم افظع قتلة ، بأن اركبوهم الطائرات ، والقوهم منها على ارتفاع اربعمائة متر على مشهد من أهليهم المستضعفين .

وكذلك جمعت ايطاليا على يد جرازيانى كل مشايخ السنوسية وأئمة المساجد والفقهاء فى سنة ١٩٣٠ وسجنتهم جميعا فى مركز « بنينه » ، وهو بناء قديم لا سقف له ؛ وأذاقتهم فيه الجوع والعطش والعذاب ، ثم نقلوهم الى سجون ايطاليا ، وبعد أن مكثوا هناك مدة أعادوهم الى بنينة ، حتى عملوا على افنائهم بالجوع والعطش وغيرهما .

***

ثم جاء شهيد الاسلام والعروبة، وبطل طرابلس الخالد السيد عمر المختار ، ليضرب مثلا من أمثلة الفداء فى الاسلام ، فقد ولد سنة ١٢٧٧ هـ ـ ١٨٦٠ م فى « البطنان » ببرقة ، وتلقى علومه الدينية فى جغبوب فى زاوية السنوسية التى كانت مركز الدعوة الاسلامية ، التى قامت بها الحركة السنوسية فى ليبيا .

وكان أساس تعليمه هو حفظ (القرآن الكريم) ، كما كانت العادة جارية بين المسلمين الى عهد قريب ـ هل يعرف أحدنا لماذا انقطعت هذه العادة المباركة ؟ .

واشتغل عمر المختار بنشر الاسلام فى ربوع ليبيا والسودان ، ثم دعته ظروف النضال الليبى الى أن يتزعم كتائب المجاهدين ضد الغزو الايطالى ، وظل يخرج من

معركة الى معركة . حتى روى التاريخ انه اشترك فى ٢٦٣ معركة ضد ايطاليا فى مدة عشرين شهرا ، اى فى اقل من عامين .

وكان المجاهد البطل الشهيد حريصا على تنفيذ تعاليم الاسلام نصا وروحا فى جهاده ، ومن بينها اقامة صـــلاة الحرب او صلاة القتال فى الميدان ، وكان شعاره هـــو التكبير والتهليل ، وكم من شــــدائد تعرض لها عمر المختار ورفاقه ، وكم بذل هؤلاء الأشقاء وتعرضوا لألوان من التضحية والفداء ، وكم جاء أناس الى عمر المختار ينصحونه بالتسليم ، لان القوتين غير متكافئتين ، والعدو متمكن متسلط قاهر ، فيرفض المختار ذلك ، ويصر على أن يقاوم حتى آخر رمق ، موقنا ان النصر اذا لم يتحقق على يديه ، فسيأتي من بعده من يحققه ، ولولا ضحايا فى أول الكفاح ووسطه ، لما تمهد الطريق أمام النصر المبين والفتح الكبير .

***

وجاءت الساعة المشهودة التى ضرب فيها عمر المختار مثلا فى الثبات والبطولة ، حيث واجه أعداءه الغزاة ، فى معركة غير متكافئة فهو يحارب بسلاح يده وحصانه ، وهم يحاربون بالطائرات والسيارات والمدافع والقنابل ، وتكبكب الزبانية على المجاهد البطل ، وصرعوا جواده ، ووقع البطل على الأرض ، ثم نهض ليواصل المقــاومة ، فتكاثروا عليه وأسروه ، وهو فى نحو الثمانين من عمره .

وحينما سألوه لم ينكر أنه حارب وجاهد ، وقاوم الغزو الايطالى بكل ما استطاع .

قال له القاضى : هل أنت رئيس الثوار ضد ايطاليا ؟

قال عمر المختار : نعم ؟

قال القاضي : هل حاربت الدولة ؟
أجاب : نعم .
قال القاضي : هل شهرت السـلاح في وجه قوات الدولة ؟
أجاب : نعم .
قال القاضي : هل اشتركت في القتال اشتراكا فعليا ؟
أجاب : نعم .
قال القاضي : هل أمرت بقتل الجنـود الذين كانوا يحرسون العمل في أثناء انشاء الطرق ؟
أجاب : نعم .
قال القاضي : هل أمرت بالغزو واشتركت فيه ؟
أجاب : نعم .
قال القاضي : هل أمرت بتحصيل العشور من الناس ؟
أجاب : نعم .

وقال : ان وقوعي في الاسر لا يضعف مقـاومة ليبيا للاستعمار ، ولتفعلوا بي ما تشاءون ، ولكن ما كنت في يوم من الايام لأسلم لكم طوعا ، انني قاتلت ايطاليا من أجل ديني ووطني ، وكنت أعلم أنني لن أستطيع طرد الاعداء من بلادنا ، ولكني كنت أقاتل ، لأن واجبي هو أن أجاهد، وتركت النتيجة في يد القدر ، وكأنه كان يستحضر في ذهنه قول سلفه الكريم :

ولست أبالي حين أقتل مسـلما
عـلى اي جنب كان في الله مصرعي

وجاء الطاغية « الجنرال جرازياني » ليلقى عمر المختار متشفيا شامتا ، ودارت بين الاثنين المحاورة التالية :

قال جرازياني : لماذا قاتلت الحكومة الايطالية بهـذه الشدة ؟ .

اجاب البطل الاسير : قاتلتها من أجل دينى ووطنى .

قال جرازيانى : هل كنت تظن أن فى امكانك طردنا من برقة ؟ .

اجاب البطل الاسير : لا ، فقد كان ذلك مستحيلا .

قال جرازيانى : ماذا كنت تقصد اذن ؟ .

اجاب البطل الأسير : كنت أقاتل وكفى ، تاركا النتيجة فى يد القدر ... الخ .

وسيق البطل الأسير الى المحاكمة الصورية الهزيلة التى بدأوها فى جوف الليل ، وكأنهم أرادوا أن يتخذوا من ظلامه وسواده قناعا يحاولون به ستر فضائحهم ومخازيهم ، وسرعان ما بلغوا الهدف الذى يريدونه ، وهو الحكم على عمر المختار بالاعدام شنقا ، وحينما سمع البطل الحكم لم يزد على قوله : « ان لله وانا اليه راجعون » . واقبل يوم التنفيذ وهو السادس عشر من سبتمبر ١٩٣١ م وتقدم عمر المختار الى حبل المشنقة شجاعا مطمئنا ، غير هياب ولا وجل ، وهو يردد الشهادتين : أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وحركوا حبل المشنقة ليجهز على الشيخ الكبير المجاهد ، ولكن الحبل لم يحدث أثره المطلوب ، فأعادوا عملية الشنق مرة أخرى ، وكأنهم كانوا يؤكدون جريمتهم النكراء مرتين ، ليلعنهم القدر بها لعنتين :

قال شوقى :

دفعوا الى الجلاد اغلب ماجدا
يأسو الجراح ويطلق الاسراء
ويشاطر الاقران ذخر سلاحه
ويصف حول خوانه الاعداء

وتخيروا الحبـــل المهين منيـــة
لليث يلفظ حـــوله الحـــوباء (١)
حرموا الممات على الصـــوارم والقنا
من كان يعطي الطعنـــة النجـــلاء

ولحق عمر المختار بربه ، فهل امتلأت ليبيا هما وغما؛ أو حزنا ويأسا ؟ . معاذ خـــلال الأحرار ، بل استمر المجاهدون فى ليبيا على طريق النضال ، ومن وراء عمر المختار تسلم قيادة المجاهدين البطل الشهيد « يوسف بو رحيل » ، وتوالى الشهداء شهيدا وراء شهيد ، بلا يأس ولا قنوط .

فماذا كانت النتيجة ؟ . تحقق النصر لهؤلاء الاوفياء : ورحلت ايطاليا ، وانطوى علمها الاسود عن ليبيا ، وارتفع علم الاستقلال على ربوع البلد المناضل الذى دفع شعبه الثمن كريما وغاليـا ، ومن طلب الحسناء لم يغلها المهر كما قال الأجداد ، ولم تصبح ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة فقط ، بل صارت دولة تؤيد العمل البطولى العربى ، وتسند باقتدارها المادى دعائم الجهاد الموصول.

***

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

ان كتائب الفداء التى تقض مضاجع الصهيونيين الآن هنا وهناك وهنالك من واجبها أن تستضىء على الدوام بأمثال عمر المختار ، ذلك الشهيد الذى آمن بأن شجرة الحرية لا تنبت ولا تنمو الا بالدماء ، وبأن طريق الفـداء مفروش بالعرق والدم وثقيل الابتلاء ، ولذلك كان شوقى صادقا حين قال يخاطب روح عمر المختار :

(١) الحوباء : الروح .

خيرت فأخترت المبيت على الطـــوى
لم تبن جاهـــا ، او تلم ثـــراء
ان البطولة أن تموت من الظمــــأ
ليس البطـــولة أن تعب المـــاء
فى ذمة الله الـــكريم ، وحفظـــه
جسد ببرقة وســـد الصحراء

ومن رثاء خليل مطران لعمر المختار هذه الأبيات :

أبيت والسيف يعــلو الرأس تسليما
وجدت بالروح جـود الحر ان ضيما
تذكر العــرب ، والاحداث منسية
ما كان – اذ ملكوا الدنيا – لهم خيما
ما الموت ان تك منجـاة البـلاد به
من غاصب وانتصاب الشعب مظلوما ؟
هذا هــو العيش والقسط العظيم به
من خالد الفخر فوق العمر تقويمــا
ان الفداء لأعلى ما حمـــدت له
اخرى ، وان كان فى أولاه مذمـــوما
وما اعتــدال زمان لا يقـــومه
بنــوه بالصبر والاقــدام تقويمــا

***

سلاما سلاما على البطل المسلم المناضل عمر المختار ؛ الذى يجب ان يكون قدوة للأخيار الأحرار فى هــذه الديار ...

الشهيد المبادر
ثابت بن الدحداح الأنصارى

ان اكرم ما فى المؤمن أمران : أولهما المعدن النقى الصافى ، القائم على الفطرة الطاهرة ، والاستعداد الطيب، ولذلك يقول الحق جل جلاله : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ويقول سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام ، اذا فقهوا » .

وثانى الأمرين هو المبادرة الى الخير ، والمسارعة بالاستجابة لصوت البر ، ولذلك يقول القرآن المجيد : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه اليه تحشرون » .

ولقد كان من حول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه رجال استعدت نفوسهم للحق ، فلما جاءهم فرحوا به ، وحرصوا عليه ، واستجابوا له ، حتى تحدث عنهم القرآن المجيد بمثل قوله : « الذين استجابوا لله وللرسول ، من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس ، ان الناس

قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

ولقد كانت استجابتهم تظهر فى مجالين أكثر من ظهورهما فى غيرهما : المجال الاول هو مجال البذل لما فى أيديهم ، تقربا الى الله ، وايثارا لما عنده ، والمجال الثاني هو مجال التضحية بأرواحهم ، جهادا فى سبيل الله ، وطمعا فى نعمة الشهادة لوجه الله : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .

***

وهذا واحد منهم : انه الصحابى الوفى ، الباذل التقى، المجاهد الزكى ، أبو الدحداح ثابت بن الدحداح بن نعيم الانصارى (١) الذى كان جنديا مجهولا ، ولذلك اختلفوا فى اسمه ونسبه اختلافا كثيرا ، حتى قال عنه الامام ابن عبد البر : « لا أقف على اسمه . ولا على نسبه ، غير انه من الأنصار حليف لهم » .

وقد أسلم أبو الدحداح وحسن اسلامه ، وتجلت فيه الاستجابة المخلصة لما يأمر به ربه ، أو يدعو اليه رسوله ، ومن شواهد ذلك أن الله تبارك وتعالى أراد أن يعد أمته المؤمنة لحياة العزة والكرامة والحرية ، فدعاهم الى الجهاد ، وطالبهم من أجل ذلك بحسن الاعداد والاستعداد ، فقال لهم عز من قائل : « وقاتلوا فى سبيل الله ، واعلموا أن الله سميع عليم ، من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ، فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط ، واليه ترجعون » .

---

(١) قيل أن اسمه : أبو الدحداح عمرو بن الدحداح . وقيل : ابن الدحداحة . وكلمة الدحداح معناها : القصير السمين .

وسمع أبو الدحداح لأول مرة هـذا التوجيه الربانى الكريم ، فسارع الى رسول الله صلى الله عليـــه وسلم يقول له : يا رسول الله : أيريد الله تعالى منـــــا القرض ؟ .

قال : نعم يا أبا الدحداح .

فقال : فداك أبى وأمى يا رســـــول الله ، ان الله يستقرضنا وهو غنى عن القرض ؟

فقال النبى : نعم ، يريد أن يدخلكم الجنة به .

قال أبو الدحداح : فانى أريد أن أقرض ربى قرضا يضمن لى به ولزوجتى ولصبيتى الجنة ؟

قال : نعم .

قال : فناولنى يدك يا رسول الله .

فناوله يده ، فقال : أن لى حديقتين ، احداهمـــا بالسافلة ، والاخرى بالعالية ، والله لا أملك غيرهما ، قد جعلتهما قرضا لله تعالى .

فقال له الرسول : أجعل احداهما لله ، والاخرى دعها معيشة لك ولعيالك .

قال أبو الدحداح : فأشهدك يا رسول الله ، أنى قد جعلت خيرهما لله تعالى ، وهو حائط فيه ستمائة نخلة .

فقال النبى : اذن يجزيك الله به الجنة .

وانطلق ابو الدحداح الى زوجته وهى مع صبيانها فى الحديقة ، تدور حول النخل ، فبشرها وأنشد يقول :

هـــداك ربى واهب الرشـــــاد
الى سبيل الخـــير والسداد
بينى من الحـــــــائط بالوداد
فقد مضى قرضـــا الى التنـاد

أقرضته الله على اعتمادي
بالطوع لا من ولا ارتداد
والبر لا شك فخير زاد
فارتحلي بالنفس وبالأولاد

ففرحت أم الدحداح ، وقالت : ربح بيعك ، بارك الله لك فيما اشتريت ، ثم أنشأت تجاوبه بقولها :

بشرك الله بخير وفرح
مثلك أدى ما عليه ونصح
قد متع الله عيالي ومنح
بالعجوة السوداء ، والزهو البلح
والعبد يسعى ، وله ما قد كدح
طول الليالي ، وعليه ما اجترح

وأقبلت أم الدحداح على صبيانها تخرج ما في أفواههم ، وتنفض ما في أكمامهم حتى أفضت الى الحائط الآخر ، فقد أصبح ذلك ملكا لله ، لا حق لهم في شيء منه ..

***

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عند ذلك : « كم من عذق رداح ، ودار فياح ، لأبي الدحداح » (١) والعذق النخلة ، ورداح : ثقيلة . والفياح : الواسعة كما روى أنه قال : « كم من عذق معلق ـ أي مدلى أو مذلل ـ في الجنة لأبي الدحداح .

ويروى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « من تصدق بصدقة ، فله مثلاها في الجنة » .

فقال أبو الدحداح : يا رسول الله ، ان لي حديقتين ، ان تصدقت باحداهما فان لي مثليها في الجنة ؟ .

(١) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ج ٣ ص ٢٣٨ .

قال : نعم .
قال : وأم الدحداح معى ؟
قال : نعم .
قال : والصبية معى ؟
قال : نعم .

فتصدق باحدى حديقتيه ، ورجع فنادى على زوجته قائلا : يا أم الدحداح .

قالت : لبيك يا أبا الدحداح .

قال : انى جعلت حديقتى هذه صدقة ، واشتريت مثليها فى الجنة ، وانت معى ، والصبية معى .

قالت : بارك الله لك فيما شريت وفيما اشتريت .

ومضى أبو الدحداح فى طريق الاسلام ، يستجيب له ويعتز به ، ويقدم من أجله كل مايستطيع ، واختار الله له أرفع الدرجات وأصدق القربات ، وهو بذل النفس فى سبيل بارئها وخالقها ، فقد خرج أبو الدحداح مجاهدا يوم أحد ، ثم رأى الناس حينئذ وقد انتشروا وتبعثروا بسبب اشتداد الهول وشراسة القتال وهول المفاجأة ، وأشيع بينهم أن الرسول قد قتل . فلم يفقده كل ذلك صوابه أو ثباته ، بل أقبل نحو الأعداء ، وهو يهتف بين اخوته فى الله وزملائه فى الجهــــاد ، ويقول : يا معشر الأنصار ، الى الى ، أنا ثابت بن الدحداح ، أن كان محمد قد قتل فان الله حى لا يموت ، فقاتلوا عن دينكم ، فان الله مظهركم وناصركم .

وكأن أبا الدحداح بهذه الكلمات قد جعله القدر صدى لهدى الرحمن وصوت القرآن الذى أقبل بعد ذلك يقول: « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه

فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منهـــا ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منهـا وسنجزى الشاكرين » .

وتجمع حول أبى الدحداح عدد من الأنصار ، فجعل يهجم ويحمل معهم على الكافرين ، ثم حملت عليهم كتيبة خشناء (أى كثيرة السلاح) فيها عمالقة المشركين يومئذ، وأصابت أبا الدحداح طعنة قاتلة ، سقط بسببها صريعا شهيدا ، وقتل معه عدد من المهاجرين ، وكانوا آخر من استشهد فى ذلك اليوم العصيب . وأقبل رســول الله عليه الصلاة والسلام فصلى على أبى الدحداح ودعا له ، ثم قال : «كم من عذق (نخلة) معلق ــ أو مدلى ــ فى الجنة لأبى الدحداح» (١) .

واذا كان هناك من أهل الجهل أو الغفلة من ظن أن أبا الدحداح قد فقد الحياة ، فان ذلك باطل من القول وزور، والله أصدق القائلين هو الذى يقرر الحق حين يقول : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ، ولكن لا تشعرون » .

ولقد تصور أحد شعراء الاسلام (٢) ان شهيدا أطل من عالم الخلد على قوم يؤبنونه ويبكون عليه فقال لهم :

فيم احتشـــادكم هـــذا ؟ لتأبينى
أنتم أحق بتـــأبين الورى دونى
فما الشـــهادة الا ميتـــة كرمت
عن ميتة الداء ، أو عن ميتة الهـــون

---

(١) صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٦٤ ، وفى بعض الروايات ان أبا الدحداح شفى من جراحته ثم مات بسبب جرح عند رجوع النبى من غزوة الحديبية.
(٢) الشاعر على أحمد باكثير .

انى نزلت بدار الخلد فى رغـــــــد
بين الخمـــــائل فيهــــا والرياحين
فى جنـــــة ما بهـــا خوف ولا حزن
لولا رثاء لحــــال العرب يشجينى
قامت عليهم ذئاب البغى قاطبـــــة
من ثعلبـــــان ومن دب وتنين
فما انتظـــــاركم والحق حقـــكم
يعدى عليــــه ليعطى للملاعين ؟
لا تطلبوه احتكاما فى مجـــــامعهم
بل استردوه قسرا فى الميـــادين
والمســلمون جميعــا من ورائــكم
بأندونيسيا وباكســـــتان والصين
لا تنـــدبونى فانى لم أمت ضرعا
فـــان علمتم على الذل فابـــكونى
وان تريدوا لوجـــه الحـــق تـكرمتى
فابغوا الشـــهادة للدنيــــا وللدين
فابن الوليد على اليرموك يرقبـــكم
وليث أيوب يرعـــاكم بحـطين



سلاما سلاما على روح الشهيد المبادر ، المنفق فى سبيل الله ، الباذل حياته لوجه الله ، الذى صدق مع الله عهده ، وانجز فى مرضاته وعده ، فاستحق أن يضـاعف الله له الأجر والثواب مصداقا لقوله عز من قائل :

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع ســنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » .

المجاهد ضجيع الرملة

عبادة بن الصامت الخزرجي

تعود كثير من الناس التفاخر والمباهاة بقليل أو كثير من متاع الحياة ، فمنهم من يفخر بقوة جسمه ، وصلابة عضلاته ، وطول قامته ، ووسامة شكله .

ومنهم من يفخر بكثرة ماله ، وضخامة ثروته .

ومنهم من يفخر بانه سليل الحسب والنسب .

ومنهم من يفخر بعظمة المنصب وعلو الرتبة ...

الى آخر ما هناك من مظاهر مادية تواضع الناس على احترامها وتبجيلها ...

وقلَّ بين هؤلاء الناس أن يجعلوا فخرهم معقودا بالنواحي العلمية أو الروحية أو الأخلاقية .

وليس كذلك هدى الاسلام ، فانه قد علم اتباعه أن المظاهر المادية والدنيوية عرض زائل ، وظل حائل ؛ وما أروع القرآن الكريم حين يقول : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » . وما أروع الرسول المصلح ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين يقول : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى والعمل الصالح » .

والعجيب ان الاسلام قد بدأ ظهوره فى جزيرة العرب حينما كان التفاخر بالحسب والنسب ، والجاه والنشب

ظاهرة شائعة ذائعة مستحكمة ، فمـــا زال هذا الدين العظيم بهؤلاء المتفاخرين المتناحرين ، حتى جعلهم اخوة بعد التصدع والتمزق ، وأمة واحدة بعد طول الخلاف والتفرق : « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعــداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » .

وأصبح المسلمون يفخرون – ان فخروا – بسبقهم الى عمل الخير والبر ، وضرب الأمثال فى تقوى الله تبارك وتعالى ، والاعتزاز بحماه ، وتقديم الاعمال الصالحة : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

وصار شعارهم قول قائلهم :

ابى الاســـلام لا اب لى ســواه
اذا افتخــروا بقيس أو تميم

***

وهذا واحد من هؤلاء :

انه الصحابى البدرى الجليل ، الموصوف بالعــلم والورع ، وحفظ القرآن والجهاد فىسبيل الله : أبو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر الخزرجى المدنى الانصارى ، ولد سنة ثمان وثلاثين قبل الهجرة ، وأدرك الاسلام ، ودخل فيه ، وصار من سادات الصحابة، وكان رجلا جليلا ، طويلا ، جسيما ، كما جاء فى « تهذيب الأسماء » و « الاصابة » ، ولكن عبادة لم يفخر بأمثــال هذه الأشياء .

بل حق له ان يفخر بأنه حضر بيعات العقبات الثلاث : الأولى والثانية والثالثة ، فكان أحد الستة الذين بايعوا بيعة العقبة الاولى ، وأحد الاثنى عشر الذين بايعوا بيعــة العقبة الثانية ، وأحد السبعين الذين بايعوا بيعة العقبة

الثالثة (١) ، وكان أحد النقباء فى ليلة العقبة على جماعة «القواقل» ، وهم بنوسالم، وكان يقال لجدهم : «قوقل» ، لأنه كان اذا أتاه انسان يستجير به قال له : قوقل فى هذا الجبل ، فقد أمنت ، أى أصـــعد فيه وارتق دون أن تخاف شيئا ، فانت فى جوارى ، فسر حيث شئت ! .

وشهد عبادة غزوات : بدر وأحد والخندق وبيعـــة الرضوان ، وسائر المشاهد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ويا لها من أوسمة رفيعة ، توضع على صدره فتزينه وتشرفه .

ولعل عبادة يحق له أن يفخر فيطيل الفخر بأنه كان احد الانصار الأوفيـــاء الذين آووا ونصروا ، وآثروا وضحوا ، ولعل أفضل وسام لعبادة هو أن نجد السيرة العطرة تقول عنه :

« وكان عبادة عقبيا نقيبا ، بدريا انصاريا » (٢) .

وكان عبادة نفسه يصرح ببعض ذلك فيقول : « أنا من النقباء الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة » !! .. يقول ذلك كما روى فى « الاصابة » متحدثا بفضل الله عليه ، ونعمته اليه .



ولقد آخى سيدنا ورائدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، بين عبادة بن الصامت وأبى مرثد الفنـــوى ــ واسمه كناز بن الحصين بن يربوع ــ وكان أبو مرثد تربا للبطل الشهيد حمزة بن عبد المطلب وحليفا له ،

(١) كتاب الدرر لابن عبد البر ، ص ٧١ و٧٢ و٧٥ . والاستيعاب ، ج ، ص ٤٤٢ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٣ ص ٩٤ القسم الثانى .

وهاجر أبو مرند مع ابنه مرند الى المدينة ، وشهد ـ كما شهد عباده ـ غزوات : بدر ، واحد ، والخندق ، وسائر المشاهد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وهكذا كانت هـذه المؤاخاة النبوية باسم الاسـلام جمعا بين الاشباه والنظائر .

واختار النبي عبادة ليكون عاملا على الصدقات ، فقد كان يلمح فيه الثقة والأمانة .

كما كان يقوم بتعليم القرآن الكريم لاهل « الصفة » المنقطعين للعبادة فى المسجد النبوى بالمدينة .

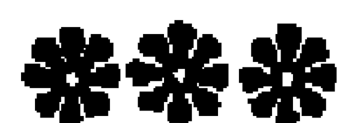
وكان عبادة بن الصامت يجمع القرآن حفظا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومضى الرسول الأكرم الى ربه بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة ، وظل عبادة بن الصامت على العهد قائما ، وللوعد حافظا ، فهو يسير على هدى من ربه ، ونور من سنة نبيه .

وفى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل يزيد بن ابى سفيان الى عمر من الشام يقول :

يا أمير المؤمنين ، قد احتاج أهل الشام الى من يعلمهم القرآن ويفقههم .

فأرسل عمر بثلاثة أعلام من الرجال فى هذا المجال ، هم : عبادة بن الصامت ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، رضوان الله على الجميع .



ولكن عبادة بن الصامت كان أسود اللون ... فهل عابه ذلك فى شيء ؟!

لا والله رب العباد .

ونحن الآن نعيش فى القـــرن العشرين الذى يسمونه

قرن الحضـــــارة والمدنية والنور ، ومع ذلك لا يزال الغربيون الذين يدعون أنهم أئمة هذه الحضارة ، يرتكبون من السيئات والمنكرات ما لا يمكن ان يدخل تحت المعنى الصحيح لكلمة « الحضارة » .

ولعل اقبح السيئات التي يأتيها ابناء الغرب في مختلف بقاع الارض ، هي تلك التفرقة اللونية والعنصرية التي يثيرون غبارها ويشعلون ســـــعيرها بين البيض والسود ، لا لشيء الا لأن الله جلت حكمته قد خلق بعض الناس ببشرة بيضاء ، وبعضهم ببشرة سوداء ..

ومن أجل هذا الاختلاف في اللون نجد البيض الذين يزعمون التمدن والتحضر والرقي يذيقون السود الوان العذاب ، ويسيمونهم أنواع الاضطهاد ، مما لا يتفق مع دين الهي ، ولا اخوة انسانية ، ولا زمالة بشرية ، ولاعهد تنادي فيه بالعدالة والمساواة .

وهنا يشرق نور الاسلام زاهيا باهرا رائعا ، يفيض بآيات الحكمة وينابيع الرحمـــة ، فان الاسلام العظيم لايقيم وزنا لاختلاف الالوان أو الاجناس أوالانساب أو الاحساب ، بل جعل الناس أمة واحدة من ناحية القيمة الانسانية والمكانة البشرية ، وجعلهم سواسية كأسنان المشط في الاســـــتواء ، فلا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي علي عربي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لاسود على أبيض ، الا بالتقوى .

وهذا عبادة بن الصامت ... أسود اللون ، ولكنه على الرغم من سواده ، نراه يعلو في مكانته ، ويرتفع في منزلته ، بفضل دينه وخلقه وعمله ، ولقد اشترك عبادة ـ مثلا ـ في الفتح الاسلامي لمصر ، فكان نجمه ـ وهو

الاسود اللون ـ متألقا فى هذا الفتح ، حتى قاد الوفد الاسلامى الذى توجه لمفاوضة « المقوقس » ، وفى هـذه المفاوضـة جرى حـديث يتعلق بسـواد عبـادة يتضمن ما يستحق التأمل والتدبر :

فى السنة العشرين للهجرة كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ، ليتجه الى مصر ليفتحها باسم الاسلام، بعد أن طال الحاح عمرو على الخليفة ، ليأذن له فى ذلك الفتح . ومضى عمرو فى طريقه حريصا على اتمام هـذا الفتح بأسرع ما يمـكن ، حتى بلغ مع الجيش حصن « بابليون » .

وهناك لقى مقـاومة من الروم المحتلين ، فاستعان بالخليفة فأمده ، ثم اسـتعان به فأمده بأربعة آلاف جندى ، لهم أربعة قـواد ، كل قائد منهم يوزن بألف رجل ، وهم : عبادة بن الصـامت ، والزبير بن العوام والمقداد بن الاسود ، ومسلمة بن مخلد ، وقال الخليفة لعمرو : « واعلم أن معك اثنى عشر ألفا ، ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة » ! .

وحدث أثناء الفتح أن كان عبادة بن الصامت يصلى وهو فى ناحية من معسكر المسلمين ، فهجم عليه جماعة من الروم ، فسلم من الصـلاة ، ووثب على فرسه ، وهاجمهم ففروا أمامه ، فتبعهم ، فجعلوا يلقون فى طريقه بأمتعتهم ونفائسهم ليشغلوه بها ، فما التفت اليهـا ، وما زال يطاردهم حتى اعتصموا منه بالحصن ، فعاد دون أن يلتقط شيئا من أمتعتهم ، ولمـا بلغ مكانه استأنف صلاته من جديد !!

وقوى ساعد المسلمين بالمدد ، وخاف الذين فى مصر العاقبة ، فأرسلوا الى عمرو بن العاص وفدا للمفاوضة ،

فعرض عليهم عمرو واحدة من ثلاث : اما أن يدخلوا فى الاسلام فيكونوا اخـــوة للمسلمين : لهم مالهم ، وعليهم ما عليهم ، واما ان يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ؛ ولهم الامان والدفاع عنهم بقوة المؤمنين : واما القتال حتى تضع الحرب أوزارها ، ويحكم الله بين الفريقين ، والله خير الحاكمين ! ..

وعاد الوفد الى المقوقس حاكم مصر ، فسألهم : كيف رأيتم المسلمين ؟ ..

قالوا : رأينا الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعـــة ، ليس لاحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة (طمع أو ولوع) .

فأكد المقوقس لقومه أن أمثال هؤلاء لو أرادوا ازالة الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتالهم أحد ، وأشار عليهم بالاستمرار فى المقاومة للصلح ، وأرسل المقوقس الى عمرو يطلب منه ارسال وفد من جهته للتفاوض معه ، فأرسل عمرو الى المقوقس عشرة رجال من الجيش ،وعلى رأسهم القـائد الاسود ، والبطل المسلم : عبـــادة بن الصامت . ووكل عمرو الى عبادة أن يتكلم باسم الوفد ، وأن يكون رئيسا له ، كما أمره الا يقبل من المقوقس الا واحدة من الثلاث التى سبق ذكرها .

وتوجه الوفد الى المقوقس ، وفى طليعته عبـــــادة الصامت ...

فلما رآه المقوقس هاب سواده وطول قامته ـ فقد كان طول عبادة عشرة أشبار بمقياس السابقين ـ فقال : نحوا عنى هذا الأسود ، وقدموا غيره يكلمنى !!

فرد عليه الوفد بأجمعه قائلا : ان هذا الاسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا ، والمقدم علينا ، وانما

نرجع جميعا الى قوله ورأيه . وقد أمره الامير – دوننا – بأمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله .

فتعجب المقوقس من ذلك كثيرا ، وقال لهم يسألهم :

كيف رضيتم ان يكون هذا الأسود أفضلكم ، وانما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟! .

فاجابوه بلغة الاسلام الحنيف الذي يسوى بين الناس ، وانما يعرف لهم أقدارهم بما يقدمونه من عمل وجهـاد .

قالوا : كلا ، انه – وان كان أسود كما ترى – من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة ، وعقـلا ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا !! ..

ولم يجد المقوقس مناصا من التسليم والرضى بالأمر، فقال لعبادة : تقدم يا أسود ، وكلمني برفق ، فانني أهاب سوادك ، وان اشتد كلامك علي ازددت لك هيبة ! ..

واحتمل عبادة ما في كلام الرجل من جفوة ، فغرضه الذي جاء من أجله أهم بكثير من شخصه ، فتقدم نحـو المقوقس وقال له بثبات :

قد سمعت مقالتك ، وان فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي ، وأشد سوادا مني ، وأفظع منظرا، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني ، وأنا قد وليت وأدبر شبابي ، واني مع ذلك – بحمد الله – ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعـا ، وكذلك أصحابي .

وذلك انما رغبتنا وهمتنا الجهـاد في الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدوا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ، ولا حاجة للاستكثار منها ، الا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا ، وجعـل ما غنمنا من ذلك حلالا ، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب ، أم كان لا يملك

الا درهما ، لان غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره . وشملة يلتحفها ، وان كان أحدنا لا يملك الا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذا الذى بيده ، ويبلغه ما كان فى الدنيا ، لان نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، وانما النعيم والرخاء فى الآخرة .

بذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا ، وعهد الينا الا لا تكون همة أحدنا فى الدنيا الا ما يمسك جوعته ، ويستر عورته، وتكون همته وشغله فى رضاء ربه ، وجهاد عدوه !! .

فلما سمع المقوقس منه ذلك ازداد هيبة له ورهبة منه ، فقال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هبت منظره ، وان قوله لأهيب عندى من منظره ! .

وبعد أن نوه المقوقس بقوة المسلمين وغلبتهم ، التفت الى عبادة بن الصامت ، وقال له :

أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك ، وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده : قوم معروفون بالشدة والنجدة ، ممن لا يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل ، وانا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم .

ثم عرض المقوقس على عبادة أن يأخذ لكل جندى من جيشه دينارين ، وللقائد عمرو مائة دينار ، وللخليفة ألف دينار ، على أن ينصرفوا .

وأجابه عبادة قائلا :

يا هذا ، لا تغرنك نفسك ولا أصحابك . أما ماتخوفنا

به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وانا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذى تخوفنا به ، ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه . ان كان ما قلتم حقـــا فذلك ـ والله ـ أرغب ما يكون فى قتـالهم ، وأشـد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند الله اذا قدمنا عليه ، وان قتلنـا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوان الله وجنته ، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب الينا من ذلك .

وأنا منكم حينئذ على احدى الحسنيين : اما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفـرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ، وانها لأحب الخصلتين الينا بعـد الاجتهاد منا .

وان الله عز وجل قال لنا فى كتابه : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين » . وما منا رجل الا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة، والا يرده الى بلده ، ولا الى أرضه ، ولا الى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه وأهله وولده ، وانما همنا ما أمامنا .

وأما قولك : انا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا ، فنحن فى أوسع السعة . لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه ، فانظر الذى تريده فبينه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ، ولا نجيبك اليها ، الا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك فى الباطل . بذلك أمرنى الأمير ، وبه أمره أمير المؤمنين ، وهو عهدرسول الله صلى الله عليه وسلم من قبله الينا :

اما اجابتكم الى الاسلام الذى هو الدين الذى لا يقبل الله غيره ، وهو دين نبينا وانبيائه ورسله وملائكته ـ

صلوات الله عليهم ـ أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه، ورغب عنه حتى يدخل فيه ، فان فعل كان له مالنا ، وعليه ما علينا ، وكان أخانا فى دين الاسلام .

فان قبلت ذلك انت وأصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة ، ورجعنـــــا عن قتالكم ، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم . وان أبيتم الا الجـــزية فأدوا الينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، نعاملكم على شيء نرضاه نحن وأنتم فى كل عام أبدا ، ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناواكم ، أو عرض لكم فى شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم ، اذ كنتم فى ذمتنا ، وكان لكم به عهد علينا .

وان أبيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف ، حتى نموت عن آخرنا ، أو نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذى ندين الله تعالى به ، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لأنفسكم .

وبعد مفاوضات تم الصلح ، وفتحت مصر ــ كنانة الله فى أرضه ــ أبوابها لأضواء الاسلام ، بعد أن تألق نجم القائد الأسود : عبادة بن الصامت فى هذا الفتح ، وبعد أن أوقع الهيبة والرهبة فى قلوب أعدائه .

***

وكان عبادة كما يصفه المؤرخون رجلا فاضلا خيرا .

وكانت له مفخرة أخرى علمية فقهية ، فقد كان من رواة الحديث النبوى الشريف ، حتى يقول عنه الامام ابن حجر : « وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا » . وقد روى عبادة عن رسول الله مائة واحدا وثمانين حديثا، اتفق البخارى ومسلم منها على ستة ، وانفرد البخارى بحديثين : ومسلم بآخرين .

وروى عنه من الصحابة : أنس ، وجابر ، وابو أمامة ، وفضالة ، ورفاعه بن رافع ، ومحمود بن الربيع .

وروى عنه جمع من التابعين ، منهم أولاده : الوليد ، وعبد الله ، وداود ، وغيرهم خلائق .

وكان معاوية ينقل الرواية عن عبادة ، ويقف عند المنبر يقول : « الحديث كما حدثنى عبادة ، فاقتبسوا منه ، فهو أفقه مني » (١) ! .

وكان عبادة يراجع معاوية فى أشياء ، مما يدل على قوته فى دين الله ، وجرأته فى الحق ، وحسن قيـــامه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ولم يقبل عبادة أن يشترك فى الفتنة زمن معاوية ، بل كان ينهى معاوية عن الاستمرار فى تلك الفتنة .

ويروى صاحب « العقد الفريد » الخبر التالى :

قالوا : لما قدم عمرو بن العاص على معاوية ، وقام معه فى شأن على ، بعد أن جعل له مصر طعمة ، قال له : ان بأرضك رجلا له شرف واسم ، والله ان قام معك استهويت به قلوب الرجال ، وهو عبادة بن الصامت .

فأرسل اليه معاوية ، فلما أتاه وسع له بينه وبين عمرو بن العاص ، فجلس عبـــادة بينهما ، فحمد الله معاوية وأثنى عليه ، وذكر فضل عبادته وسابقته ، وذكر فضل عثمان بن عفان وما قاله ، وحضَّه على القيام معه.

فقال عبادة : قد سمعت ما قلت . أتدريان لم جلست بينكما فى مكانكما ؟

قالا : نعم ، لفضلك وسابقتك وشرفك ! . .

قال : لا والله ، ما جلست بينكما لذلك ، وما كنت لأجلس بينكما فى مكانكما ، ولكن بينا نحن نسير مع رسول

(١) الاصابة ج ٢ ص ٢٦٠ .

الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة تبوك ، اذ نظر اليكما تسيران وأنتما تتحـــــدثان ، فالتفت الينا فقال : اذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما ، فانهما لا يجتمعان على خير أبدا . وأنا أنهاكما عن اجتماعكما ، فأما مادعوتمانى اليه من القيام معكما ، فان لكما عدوا هو أغلظ أعدائكما عليكما ، وأنا كامن من ورائكم فى ذلك العدو ، ان اجتمعتم على شىء دخلت فيه (١) .

وقد جاء فى كتابى « غربة الاسلام » أن الامام احمد ذكر فى مسنده عن عبادة بن الصامت انه قال لرجل من أصحابه : « يوشك أن طالت بك الحياة أن ترى الرجل قد قرأ القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فأعاده وأبداه ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، ونزل عند منازله ، لا يجوز فيكم الا كمـــا يجوز الحمار الميت . ومعنى يجوز : يسير ويروج ، والمعنى : ان منزلته تكون بينكم ضائعة .

***

ولقد اقام عبادة فى « حمص » بالشام زمنا ، ثم لأمر يعلمه الله انتقل الى فلسطين ، واختار أن يقيم فى مدينة الرملة من أرض فلسطين ، وهى مدينة عظيمة ، كان فيها رباط المســـــلمين ، وكان الصليبيون قد احتلوا هذه المدينة ، واستردها منهم صلاح الدين الايوبى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

وقد تولى عبادة قضاء فلســـــطين ، ويقول الامام الاوزاعى ان عبادة هو أول من ولى قضاء فلسطين ، وكان معاوية قد خالفه فى شىء انكره عليه عبادة ، فأغلظ له معاوية فى القول .

---

(١) العقد الفريد ، ج ٢ ص ١٥٢ طبعة الاستقامة .

فقال له عبادة : لا أساكنك بأرض واحدة أبدا .

ورحل عبـــادة الى المدينة ، فقال له الخليفة عمر : ما أقدمك ؟ .

فقص عليه ما حدث .

فقال له عمر : ارجع الى مكانك ، فقبح الله أرضا لست فيها أنت ولا أمثالك ! .

وكتب عمر الى معـــاوية يقول له : لا امرة لك على عبادة (١) .

***

وظل عبادة بن الصامت يعبد ربه ، ويجاهد فى سبيله ، ويقيم فى أرض فلسطين ـ ردها الله على العرب والمسلمين ـ حتى بلغ عمره اثنين وسبعين عاما ، وحينما أحس بدنو الموت ، دعا اليه ابنه « الوليد » ليوصيه ، فقال له :

« يابنى ، اتق الله ، واعلم أنك لن تتقى ، ولن تبلغ العلم ، حتى تؤمن بالله وحده ، والقدر خيره وشره ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان أول ماخلق الله القلم ، فقال له : اكتب .

فقال : يا رب ، وما أكتب ؟ .

قال : اكتب القدر .

فجرى القلم فى تلك الساعة بما كان ، وما هو كائن الى الأبد (٢) .

***

وفى عام أربعة وثلاثين للهجرة لحق بربه العالم القارىء المقرىء ، القائد الأسود : عبادة بن الصامت .

---

(١) الاستيعاب ، ج ٢ ص ٤٤٢ .
(٢) تفسير القرطبى ، ج ١٨ ص ٢٢٥ .

وكانت وفاته فى مدينة « الرملة » من أرض فلسطين(١).

وقيل :كانت وفاته فى بيت المقدس (القدس) ، وقيل : فى قبرص .

وقيل أن وفاته كانت سنة خمس وأربعين (٢) .

سلام عليه فى المجاهدين الخالدين .

---

(١) الطبقات الكبرى ، ج ٣ ص ٩٤ القسم الثانى .

(٢) انظر في وفاته : العبر ج ١ ص ٣٥ . والاستيعاب ج ٢ ص ٤٤٢ والاصابة ج ٢ ص ٢٦٠ .

المجاهد حامل التراب
عاصم بن عمرو التميمي

لعل أكبر عيب ابتلي به أبناء أمتنا فى أوقات تفرقهم وتمزقهم هو حب الذات ، أو شهوة النفس ، وبهذا العيب الآثيم ضاعت عليهم مغانم ومكاسب ، ولحقت بهم نكبات ومصائب ، لأن رغبات النفوس متعارضة متناقضة ، ومتى تصادمت حطم بعضها بعضا ، ولا يمكن أن يتم بناء، أو يستقر كيان ، اذا كان هذا يشرق وذاك يغرب ، أو كانت هناك يد تبنى وأخرى تدمر ، ومن هنا قال القائل الحكيم :

متى يبلغ البنيان يوما تمامه
اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟

ولقد تبلغ شهوة النفس بصاحبها المنحرف حدا يجعله يضحى بقومه وأمته فى سبيل لذة رخيصة يمارسها ، أو جاه كاذب يحصل عليه ، مع أن الاسلام العظيم قد علم أبناءه أن يسحقوا رغبات نفوسهم أمام عزة دينهم ، وأن يحرقوا شهوات ذواتهم بنيران الغيرة على مصلحة أمتهم .

والقرآن الكريم يهتف : « قل : الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » . ويقول : « الا لله الدين الخالص ».

ويقول سيد الخلق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « من جاهد لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

ولقد تطلع بعض الصحابة الى شيء من الامارة ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « انا والله لا نولى على هذا العمل أحدا سأله ، ولا أحدا حرص عليه » .

ولقد كان المؤمنون الأوفياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينسون أنفسهم وأهلهم وحياتهم فى سبيل ارضاء ربهم ، واعلاء كلمة دينهم ، واعزاز شأن وطنهم ، وكانوا يقبلون القيام بأى عمل مهما قسا أو اشتد من أجل مايسعون اليه ، وهو توطيد كلمة التوحيد ،والاصرار على توحيد الكلمة .

***

وهذا واحد منهم :

انه الصحابى الفارس ، الشاعر المجاهد ، البطل الفاتح : عاصم بن عمرو التميمى ، الذى أبلى فى فتوح العراق ، وحروب فارس أحسن البلاء ، دون فخر أو مباهاة أو منّ ، ودون انحراف عن طريق الاخلاص لله والحق .

ولقد ذهب وفد من الجيش الاسلامى الى كسر ى ملك الفرس للتفاوض معه وكان فيه بطلنا عاصم بن عمرو ، ولما سألهم كسرى عن شأنهم أجابه النعمان بن مقرن : « ان الله رحمنا فأرسل الينا رسولا يدلنا على الخير ، ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر ، وينهانا عنه ، ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة » .

وتجبر كسرى فأساء الحديث مع الوفد ، وقال لجنوده :

« ايتونى بوقر من تراب (أى حمل) فاحملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من البلد » .

وسارع جنود كسرى باحضار كيس التراب ، وقال

كسرى للوفد : من أشرفكم ؟ .. فسكت القوم تواضعا ، ولكن عاصم بن عمرو قال بعد هنيهة : أنا سيد هؤلاء ، فاحملوا التراب على .

ولم يقل عاصم هذا تعاليا أو تعاظما ، بل لحكمة ، دقيقة عميقة ، فقد رأى عاصم فى هذا العمل من كسرى فألا حسنا للمسلمين ، اذ اعتقد أن حمله التراب من أرض فارس رمز الى استيلاء المسلمين عليها عما قريب .

وسارع عاصم بالعودة مع رفاقه الى قائدهم سعد بن أبى وقاص وهو يهتف قائلا : بشروا الأمير بالظفر ، ظفرنا ان شاء الله تعالى ، أبشروا فقد ـ والله ـ أعطانا الله أقاليد (١) ملكهم .

واستجاب الله رجاء عاصم ، فلم يزل أمر المسلمين يعلو ويسمو ، وأمر الفرس يذل ويهون ، حتى أتم الله النصر لعباده ، وسيطر الاسلام على جميع فارس .

وحينما علم رستم قائد الفرس بما فعله كسرى (يزدجرد) مع عاصم تألم وتشاءم ، وقال عن عاصم : « انه ليس بأحمق ، وليس هو بأشرفهم ، وانما أراد أن يفتدى قومه بنفسه ، ذهبوا والله بمفاتيح أرضنا » .

وحاول رستم أن يسترد التراب من عاصم ، ولكنه لم يدركه .

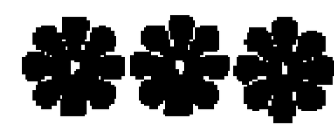
وقد اشترك عاصم بن عمرو التميمى فى معركة القادسية التى قادها سعد بن أبى وقاص ، وكان يوصى الجنود بأن يرددوا قولهم : لا حول ولا قوة الا بالله ، ويرددوا قوله تبارك وتعالى : «ولقدكتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون » .

---

(١) الاقاليد : جمع اقليد ، وهو المفتاح . (النهاية) .

وناضل عاصم حينئذ نضال المؤمن الموقن فى تواضع وخشوع ، ولم لا يفعل وهذا هو الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يظل قلقا من أجل المعركة وهو فى المدينة، وكان يخرج كل يوم منها الى ناحية العراق ، يستنشق الأخبار ، ويستنبىء كل من لقيه من الركبان ، وذات يوم رأى عمر شخصا راكبا يلوح من بعد ، فاستقبله واستخبره عن المعركة ، فقال الراكب لعمر ، وهو لايعرف أنه عمر : لقد فتح الله على المسلمين بالقادسية ، وغنموا غنائم كثيرة . وظل الرجل يحدث عمر عن أخبار المعركة ، وعمر يمشي على قدميه بجوار الرجل وهو راكب ، فلما دخلا المدينة جعل الناس يحيون عمر بامارة المؤمنين ، فعرف الرجل أنه عمر ، فقال : يرحمك الله يا أمير المؤمنين ، هلا أعلمتنى أنك الخليفة ؟ .

فقال عمر فى تواضع وهدوء : لا حرج عليك يا أخى !



وجاءت معركة « المدائن » ، والمدائن مجموعة من المدن بناها الاكاسرة ، كل واحد منهم كان اذا ملك بنى مدينة بقرب التى قبلها ، وسمى الكل بالمدائن ، وقيل أنهما كانت سبع مدائن .

وكان على الجيش الاسلامى أن يعبر نهر دجلة ، وهو يفيض بالماء والزبد والموج ، وكانت مهمة العبور قاسية ، لشدة التيار من ناحية ، وترصد الأعداء للعابرين من ناحية أخرى .

ونادى القائد : من يبدأ العبور ؟

وسارع عاصم بن عمرو بالاستجابة ، وتبعه مئات ، فجعله القائد أميرا عليهم .

واندفع عاصم ومن معه بخيولهم فى الماء ، لا يخافون

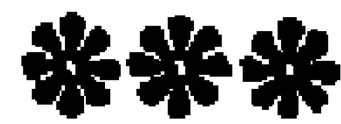
الغرق ، ولا يهابون ترصد الاعداء .

وبعد مشقة نجح العبور ، وشارك فيه الجيش كله بعد ذلك ، وبدات المعركة ، وأطلت بشائر النصر ، وزادت الطمانينة فى نفوس الجنود . لانهم كانوا يحسبون حسابا عنيفا لعملية العبـــور ، فحينما نجحت وثقوا بالفوز والغلبة ، ولم لا وهم مؤمنون بالله ، معتمدون عليه ، معتصمون بحبله ، لا تفرق بينهم ولا تمزق ، بل وحدة فى الهدف ، ووحدة فى الصف ! .

وكانت كتيبة عاصم بن عمرو التميمى هى أول كتيبة تدخل « المدائن » فاتحة منتصرة .

وقد أطلقت السيرة العطرة على هذه الكتيبة العاصمية اسم « كتيبة الأهوال » .

ومع كل هذا الجهد ، وهذا المجد ، لم يزدد عاصم بن عمرو الا تواضعا وخشوعا لله عز وجل .



ولعاصم بن عمرو نوادر ومواقف فى الشجاعة والجرأة، والاقبال على مواطن الأخطار والأهوال ، كما حدث فى بعض المعارك ، حين توغل عاصم فى صفوف الاعداء من الفرس ، حتى غاب عن عيون قومه ، وخافوا عليه مغبة ذلك ، ولكنه بعد حين عاد اليهم ، وقد أسر خباز ملك الفرس ، واســـتولى على كميات كبـــيرة من أطعمته الفاخرة .

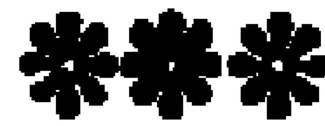
يقول عن ذلك أبو الحسن المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » :

« ... وحمى الوطيس . وخرج عاصم بن عمرو يقول :

قد علمت بيضـــــاء صـــفراء اللبب
مثل اللجين يتغشـــــاه الذهب
أني امرؤ لا من يعنيه السبب
مثـــلي على مثلك يغريه العتب (١)

فبرز اليه عظيم من أساورتهم (٢) ، ثم ان الفارسي ولى ، واتبعه عاصم حتى لجأ الى صفوفهم . وعموه ، وغاص عاصم بينهم ، حتى أيس الناس منه ، ثم خرج من مجنبات القلب (٣) ، وقدامه بغل عليه صناديق موكبية بآلة حسنة ، فأتى به سعد بن مالك ، وعلى البغل رجل عليه مقطعات ديباج ، وقلنسوة مذهبة ، واذا هو خباز الملك ، وفي الصـــناديق لطائف الملك من الاخبصـــة (٤) والعسل المعقود ، فلما نظر اليه سعد قال :

انطلقـــــوا الى أهل موقفه ، وقولوا : ان الأمير قد نفلكم (٥) هذا فكلوه ، ففعلوا (٦) .



سلاما ســـلاما على البطل المؤمن المخلص المجاهد : عاصم بن عمرو التميمي ، أحد الصحابة الاوفياء الذين أخلصوا لربهم دينهم ، وصدقوا مع رسول الله عهدهم ، ووحدوا صفهم ، ووحدوا هدفهم . ووحدوا غايتهم ، ووحدوا قبلتهم ، فاســـتحقوا النصر والأجر والذكر ،

(١) اللبب : موضع القلادة من العنق ، واللجين : الفضة ، والعتب : الشدة .
(٢) الاساورة : جمع أســـوار ، وهو قائد الفرس ، والجيد الرمي بالسهام ، والثابت على ظهر الفرس .
(٣) المجنبات : جمع مجنبة ، وهي المقدمة .
(٤) الاخبصة : جمع خبيص ، والخبيص حلوى تصـــنع من التمر والسمن .
(٥) نفلكم هذا : وهبكم هذا .
(٦) مروج الذهب للمسعودي ، ج ٢ ص ٣١٢ طبعـة دار الاندلس ببيروت .

رضوان الله عليهم أجمعين .

ومن واجب أتباع محمـــد عليه الصلاة والسلام أن يتذكروا دائما وأبدا أن أمر هـــذه الأمة لن يصلح فى حاضرها الا بما صلح به فى ماضيها : ايمان وعمل ، ووفاء وفداء ، واعتصام بحبل الله ولى الأولياء .

وليتذكروا انه لا حياة لأمة تجعل بأسها بينها شديدا. وعدوها من حولها يحاول بكل ما استطاع أن يقـدمها فريسة سهلة لطمعه وجشعه .

ولا حيـاة لامة تستبد بهـا شهوات النفوس ورغبات الأهواء والذوات ، حتى تعميها عن واجبها المقدس ، وهو أن تكون يدا واحدة ، تحت لواء واحد : هو لواء الله الحق الذى يقول : « وان هذه أمتكم أمة واحدة ، وانا ربكم فاتقون » .

المجاهد باللسان والسنان
القعقاع بن عمرو التميمى

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « المؤمن يجاهد بلسانه وسيفه » . والجهاد باللسان لا يقتصر على حديث الحوار أو الجدال بين المؤمن وغيره ، أو حديث التحريض والحث والحض على الاقدام والثبات ، بل يشمل الجهاد باللسان تلك الصيحات المجلجلة التى يرسلها المجاهد فى حومة الوغى ، وهو مقبل على عدوه ليزلزل أركانه ، ويقوض بنيانه ، ويوقد بها الحماسة والشجاعة فى صدور من حوله من رفاق السلاح وزملاء المعركة .

ولذلك كانت « صيحة التكبير » شعار المجاهدين فى الاسلام ، وما يكاد هؤلاء المناضلون المقدمون على المعركة يهتفون قائلين : الله أكبر ، حتى ينسوا دنياهم ، ويتذكروا أن الله أكبر من كل شىء ، وأنه أهل للتضحية فى سبيله بكل شىء ، لانه واهب كل شىء ، فهو واهب الفوز والنصر ، وهو ولى الثواب والأجر ، وهو خير الناصرين .

فليس أمام هؤلاء الا أن ينتصروا ليعزوا كلمة الله العادل فى الأرض ، أو ينالوا الشهادة ليرتفع ذكرهم بين أهل السماء .

وأما الجهـــاد بالسيف فرمز الى استخدام كل عدة وعتاد فى المعركة ، وتوفير كل وسيلة من وسائل الدفاع والهجوم فى قهر الأعداء وتحقيق الانتصار ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ، وهو العزيزالرحيم.

ولقد كان تلاميذ خاتم المرسلين محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ طرازا فريدا فى الجهاد الصادق بالقلب والنية، والجهاد باللسان والكلمة ، والجهاد بالسلاح والعتاد ،حتى استحقوا وصف ربهم لهم وهو أصدق القائلين : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

وهذا واحد من هؤلاء :

انه الصحابى الجليل ، ذو الباع الطويل فى القتـــال والنضـــال ، فارس اللسان ، وفارس السنان ، وبطل الميدان : القعقاع بن عمرو التميمى ، أحد فرسان العرب وابطالهم فى الجاهلية والاسلام ، والناس معادن ـ كمـــا يقول الحديث الشريف ـ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا .

ولقد سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماأعددت للجهاد ؟ .

أجاب : طاعة الله ورسوله والخيل .

فقال له النبى : تلك الغاية .

وكان القعقاع شاعرا فحلا ، يرتفع صوته مرددا أناشيد البطولة وقصائد الرجولة ، ومن شعره :

يدفعـون قعقـاعا لكل كريهة
فيجيب قعقـاع دعاء الهـاتف

وكذلك قوله :

ولقد شهدت البرق برق تهـــامة
يهـدى المناقب راكبـا لعيار

ولكنه لم يكن قوالا دون أن يكون فعالا ، ولم يكن من أولئك الذين قيل فيهم : « أسود الكلام نعام الوغى » .

بل كان من الأوفياء الشرفاء ، الذين يصدقون أقوالهم بأعمالهم ، فهو يتغنى بالشجاعة والاقدام ، وهو يضرب القدوة فى التضحية عند الالتحـــــام ، ولذلك قال فيه الصديق أبو بكر رضى الله عنه :

« لا يهزم جيش فيه القعقاع بن عمرو » ! .

وكانت فيه ميزة محمودة ، هى أنه يصيح الصيحة وسط المعركة ، فيزلزل بها نفوس أعدائه ، ويبعث بها الثقة والشجاعة فى صدور زملائه . وقد عرف أبو بكر أثر هذه الصيحة فى توجيه المعركة فقال :

« صوت القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل » ! . .

ولقد كان القعقاع ــ الشاعر صاحب الصيحة المزلزلة ــ أميرا من أمراء الثغور مع سيف الله خالد بن الوليد وحضر مع الامام على ــ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ــ موقعة « صفين » ، مناصرا للامام ، واثقا أنه على الحق .

وشهد فتح دمشق ، وأكثر المعـــارك التى دارت بين المسلمين والفرس ، ويقول عنه ابن حجر : « وله فى قتال الفرس بالقادسية وغيرها بلاء عظيم (١) » .

وشهد معركة « اليرموك » (٢) فى أرض الشام ، وجاهد فى هذه المعركة جهاد الأبطال ، وهى المعركة التى استطاع فيها الجيش الاسلامى أن يطهر الشام من احتلال الروم ،

(١) الاصابة ، ج ٥ ص ٢٤٤ ، المطبعة الشرقية .

(٢) اليرموك واد بناحية الشام فى طرف الغور ، يصب فى نهـــر الاردن . وراجع تفاصيل معركة اليرموك فى كتابى : « فدائيـــون فى تاريخ الاسلام » ص ٢٥٩ ــ ٢٦٧ .

حتى ان هرقل ملكهم ارتحل مع جنوده منهزما ، وهـو يقول فى لوعة وحزن :

« سلام عليك ياسوريا سلاما لا لقاء بعده » ! ..

وشهد القعقاع بن عمرو موقعة « القادسية » التى كانت فى المحرم سنة أربع عشر للهجرة (١) .

وكانت من أعظم الوقائع الاسـلامية خيرا للاسلام ، وبركة على المسلمين .

ويروى التاريخ أن القعقاع بن عمرو خرج فى معركة القادسية أمام الصف ، ونادى فى أعدائه :

هل من مبارز ؟ .

فخرج اليه عظيم منهم ، فسأله القعقاع : من أنت ؟ .

فأجاب : أنا بهمن بن جاذويه .

فتذكر القعقاع اعتداء « بهمن » هذا على المسلمين فى معركة « يوم الجسر » ، فهتف فى غضب :

ياللثارات أبىعبيد وسليط وأصحابهما يوم الجسر(٢) !

واندفع القعقاع نحوه كالصاعقة ، فما تركه الا قتيلا مجندلا .

وكان أشد ما آذى المسلمين فىمعركة القادسية هى تلك الأفيال الضخمة الهائلة المصفحة بالحديد والزرد ، والتى كانت تهجم على صفوف المسلمين بلا ارعواء .

وأراد القعقاع أن يستريح المسـلمون من هول هذه الفيلة ، فنادى بين المجاهدين بصيحته المعروفة قائلا : من يهب نفسه لله ، من يهب نفسه للجنة ؟ .

فسارع اليه جمع من المجاهدين ، وعاهـدوا على أن

---

(١) هناك خلاف بين المؤرخين فى تحديد وقتها والقادسية بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا .

(٢) انظر كتابى : « بين الوفاء والفداء » ص ٣٠ ـ ٣٩ فهنـاك التفاصيل .

يهاجموا الفيلة مترجلين ، وشرعوا السيوف فى أيديهم ، وأقبلوا بلا خوف ولا تردد على كوكبة الأفيال ، فأخذوا يوجهون اليها ضرباتهم ، فى خراطيمها وعيونها ومقاتلها.

فهاجت الأفيال وماجت ، وارتدت على أعقـــابها ، وأخذت تقلب أصحابها من فوق ظهورها ، وتطأ جنود الفرس وهى تعدو الى الخلف مذعورة مجنونة .

وكان من نتيجة ذلك أن لقى « رستم » قائد الفرس مصرعه ، وتبدد جيشه ، ونصر الله المؤمنين يومئذ نصرا مبينا. ويروى التاريخ ان القعقاع بن عمرو اشترك مع أخيه « عاصم » يومئذ فى قتل الفيل الأكبر .وظل القعقاع يقاتل ويتقدم ، حتى بلغ السرير المخصص لرستم قائد الفرس ، وبذلك كان القعقاع قدوة رائعـــة للمناضلين عن يمينه وشماله .

ولقد كتب الخليفة عمر بن الخطاب الى سعد بن أبى وقاص يسأله : أى فارس كان افرس فى القادسية ؟ .

فرد عليه سعد يقول : انى لم أر مثل القعقاع بن عمرو، حمل فى يوم ثلاثين حملة ، يقتل فى كل حملة بطلا ! .

وهكذا يكون الرجال ، ويكون الأبطال .

والقعقاع هو ــ كما جاء فى الاصابة ــ الذى غنم فى فتح المدائن أدراع كسرى ، وكان فيهـا درع لهرقل ، ودرع لخاقان ، ودرع للنعمان ، وسيفه ، وسيف كسرى .

ومع كل هذه الجهود لم يكن القعقاع طالب دنيا ، ولا متطلعا الى مال أو متاع ، وكان أعظم ما يفخر به هو ما وفقه الله اليه من صدق الجهاد فى سبيله ، ولذلك كان أسمى ما يتزين به القعقاع أن يتقلد سيف هرقل ملك الروم ، وأن يلبس درع بهرام ملك الفرس ، وكان القعقاع قد حصل على السيف والدرع ـ كما عرفنا ــ من مغانم

المعارك التى دارت بين المسلمين وأعدائهم .

ولقد سكن القعقاع مدينة الكوفة ، وتوفى رضوان الله عليه سنة اربعين للهجرة .

***

ان لدولة الايمان جنودا خالطت قلوبهم بشاشة اليقين، ونور الثقة بالله جل جـــلاله ، فانطلقوا فى رحاب الكون مؤدبين لأهل الطغيـــــان (١) محررين لتراب الأوطان ، ضاربين خير المثل لبنى الانسان ، فى العدل والايمان ، فأعزهم ربهم بعزه ، وأيدهم بنصره .

وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم .

(١) من كلام القعقاع : « والقول الذى هو الحق أنه لابد من امرة تنظم الناس ، وتزع الظالم (أى تردعه) وتعز المظلوم » .

المجاهد القائد الشهيد
عقبة بن عامر الجهنى

قد يبرع الانسان فى ناحية من النواحى ، أو صفة من الصفات ، فيذكره الناس بها ، ويثنون عليها ، ولكنه يبقى مع هذا ضعيفا فى عدة جهات ، أو تنقصه جملة صفات .

وقد يبرع الانسان فى أكثر من جهة ، ولكن رذيلة من الرذائل تسيطر عليه ، فتجحف به وتسيء اليه .

وافاضل الناس هم الذين استطاعوا أن يحققوا لأنفسهم ما يمكن أن نسميه : « توازن الشخصية » .

والشخصية مجموعة صفات ومقومات ، اذا توافرت لصاحبها وتعادلت ، جعلته عظيما محمودا عند الله وعند الناس ، اذ يشهدون فيه سلامة الحس ، وطهارة النفس ، ودقة الفهم ، وعمق العلم ، وصحة القول ، وحسن الفعل ، ولين الجانب مع الضعفاء ، وصرامة الشدة مع المجرمين والأعداء ، فهو يستحق أن يعد من أهل الصفاء والفداء ، الذين هداهم ربهم سواء سبيله ، وآتاهم من فضله وحكمته : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا ألوا الألباب » .

وهذا واحد ممن توافر لهم توازن الشخصية ، فكان فى الدين مؤمنا موقنا ، وكان فى العلم كبيرا واسعا ، وكان

فى العمل مجيدا محسنا ، وكان فى الجهاد والنضال مثلا فى الوفاء والفداء .

انه الصحابى الجليل ، الفقيه الجامع للقرآن ، المحدث الشاعر ، القائد الشجاع ، المجاهد الشهيد : أبو حماد عقبة بن عامر بن عيسى بن عمرو بن عدى بن رفاعة الجهنى (١) رضى الله عنه .

وهو رجل تولى امارة مصر سنوات ، وعاش فيها ، واستشهد بها ، ودفن فى ترابها . ولقد أسلم فتى يافعا . فيروى مسلم فى صحيحه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قدم المدينة ، وكان عقبة يرعى الغنم ، فلما سمع بقدوم النبى ، ترك غنمه وذهب اليه ، وقال له : بايعنى . فبايعه النبى عليه الصلاة والسلام (٢) .

ثم ظل عقبة بعد ذلك مايقرب من ستين عاما ، يجاهد ويناضل ،ويسعى فى سبيل الله ، وربط عقبة نفسه بخدمة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وكان يأخذ بزمام بغلته ، ويقودها فى الأسفار ، وكان رديفا لرسول الله ، أى يركب خلفه ، أو يتعاقب معه الركوب فى بعض الأحيان .

ومن هنا استطاع عقبة أن يروى الكثير من الاحاديث عن الرسول . وهو يروى لنا مثلا أنه كان ذات يوم آخذا بزمام بغلة النبى فى بعض غاب المدينة ، فقال له النبى : يا عقبة ، الا تركب ؟ .. فخاف عقبة أن يكون عاصيا لله اذا رفض الركوب ، فركب هنيهة مكان الرسول ثم نزل .

(١) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ١٢٧ .

(٢) المرجع السابق . وقد أخرج هذا الحديث . داود النسائى .

وهنا قال له الرسول عليه الصلاة والسلام : الا أعلمك سورتين ؟ ..

فقال : بلى يا رسول الله .

فعلمه سورة : قل أعوذ برب الفلق ، وسورة : قل أعوذ برب الناس ، وقال له اقرأهما كلما نمت وقمت (١) .

ولقد روى النسائى عن عقبة بن عامر قال :

أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو راكب ، فوضعت يدى على قدمه ، فقلت : اقرئنى سورة هود ، اقرئنى سورة يوسف .

فقال لى : « ولن تقرأ شيئا أبلغ عند الله من : « قل أعوذ برب الفلق » .

وعنه قال : بينما انا أسير مع النبى صلى الله عليه وسلم بين الجحفة والأبواء ، اذ غشيتنا ريح مظلمة شديدة ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ : « أعوذ برب الفلق » و « أعوذ برب الناس » ، ويقول « يا عقبة تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما » .

وعن عقبة كذلك قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل .

قلت : ما أقول ؟ ..

قال : « قل هو الله أحد . قل أعوذ برب الفلق . قل أعوذ برب الناس » .

فقرأهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « لم يتعوذ الناس بمثلهن ، أو : لا يتعوذ الناس بمثلهن » .

وروى عقبة أيضا عن النبى عليه الصلاة والسلام قوله : « عجب ربك من شاب ليست له صبوة » .

ويبدو أن عقبة قد انتفع بهذا التوجيه المحمدى الكريم ،

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٢٩

فكان مجاهداً شجاعا ، فقيها شاعرا ، فصيحا مفوها ، قارئا مقرئا ، عالما بالفرائض ، وكان أحد الذين جمعوا القرآن الكريم وحفظوه (١) .

وبذلك توافرت له مقومات الشخصية الاسلامية المعتصمة بحبل الله عز وجل .

وفى آخر مرة رأى فيها عقبة رسول الله روى عنه الحديث التالي : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على قتلى أحد بعد ثماني سنين كالمودع للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر فقال : « انى بين أيديكم فرط وانا شهيد عليكم ، وان موعدكم الحوض ، وانى لأنظر اليه من مقامى هذا ، وانى لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » .

قال عقبة : فكانت آخر نظرة نظرتها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

وكان عقبة بن عامر احد الصحابة الذين اشتركوا فى فتح مصر مع عمرو بن العاص ، وكان ذلك سنة ست وعشرين (٣) ، فى خلافة عمر بن الخطاب (٤) . وشهد كذلك كثيرا من الفتوح والمعارك ، وكان هو الرائد الى عمر بفتح دمشق (٥) ، ثم تولى الامارة على مصر سنة أربع وأربعين للهجرة ، وظل فى امارتها أكثر من ثلاث سنوات .

وكان الذى ولاه على مصر هو معاوية بن أبى سفيان ،

---

(١) البرهان للزركشى : ج ١ ٢٤٣ . والاتقان للسيوطى : ج ١ ص ٧٤ طبعة حجازى . والعبر للذهبى ج ١ ص ٦٢ طبعة الكويت .
(٢) نفح الطيب ، ج ٥ ص ٣٨٣ طبعة صادر ببيروت .
(٣) وقيل سنة تسع وعشرين .
(٤) صبح الاعشى . ج ٣ ص٤١٩ . والنجوم الزاهرة : ج ١ ص١٢٧
(٥) النجوم الزاهرة . ج ١ ص ٤١٩ .

ثم عزله سرا دون أن يعلمه ، وولى مكانه مسلمة بن مخلد، وفى الوقت نفسه كلف معاوية عقبة أن يخرج الى غزوة فى البحر الابيض المتوسط ، لفتح جزيرة رودس .

ولما علم عقبة بعد ذلك بعزله تعجب من تصرف معاوية وقال : ما أنصفنا معاوية ، عزلنا وغربنا ؟ ..

وفى رواية أنه قال : أغربة وعزلا ؟ ..

ولكن ذلك لم يجعله يتقاعس عن الواجب ، أو يتأخر عن الجهاد ، أو يخاف ركوب البحر .

بل خرج فى شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين ، متوجها الى الاسكندرية .

وهناك ركب البحر مع جنوده ، وتوجه الى جزيرة رودس لفتحها ، ومعه كثير من أهل مصر (١) .

وكان عقبة أول من نشر الرايات على السفن (٢) .

وهكذا نرى أن أسلافنا الأماجد ـ منذ قرابة اربعة عشر قرنا ـ لم يجاهدوا حق الجهاد فوق اليابسة فقط، أو فى بيئتهم التى عرفوها وما حولها فحسب. بل انساحوا فى مشارق الارض ومغاربها ، وفى ايمانهم كتاب الله عز وجل ، الذى « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم » .

وكما احسنوا الجهاد فى البر، احسنوا الجهاد فى البحر، مع أن القتال فى البحر لم يكن معروفا عندهم ، ولا مألوفا لديهم ، ولكن ايمانهم بربهم ، وصدق توكلهم عليه ، وقوة اعتصامهم بحبله ، جعلهم يخوضون الغمرات ، ويقاومون

---

(١) تاريخ الطبرى . ج ٥ ص ٢٣١ . والنجوم الزاهرة . ج ١ ص ١٢٧ و ١٢٨ .

(٢) النجوم الزاهرة . ج ١ ص ١٢٧ .

اللجج والأمواج ، مرددين قول خالقهم فى ثقة ويقين : « قل لن يصيبنا الا ماكتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

وقوله : « فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين ، ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

ومع أن عقبة بن عامر ظل عشرات من السنين يؤدى واجبه أداء حسنا فى ساحات الميادين ، وعند اشتداد المعارك ، كان متفقها فى دينه ، خبيرا بصناعة الشعر وصياغة البيان . وفوق انه جمع القرآن وحفظه ، فانه كتب بيده نسخة من كتاب الله عز وجل ، وكتب فى آخرها قوله : « وكتبه عقبة بن عامر بيده » ؟ ..

وكان محدثا حافظا لكثير من الأحاديث النبوية الشريفة ، وروى عنه الحديث جماعة من الصحابة والتابعين منهم عبد الله بن عباس ، وأبو امامة ، وجبير بن نفير ، وبعجة بن عبد الله الجهنى ، وأبو ادريس الخولانى ، وخلق من أهل مصر ، وكان آخر من روى عنه بمصر أبو قبيل (١) .

ويحدثنا التاريخ بأن أهل مصر وحدهم رووا عنه مائة حديث ، وكان لهم فى عقبة اعتقاد عظيم . والى جوار علمه وفقهه وتحديثه ، مع جهاده ونضاله وثباته ، كان متعبدا خاشع الصلاة ، ولعله قد أحسن الانتفاع بالحديث الذى حدثه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورواه عنه ، حيث قال : « من توضأ فأحسن وضوءه ، ثم صلى صلاة ، غير ساه ولا لاه ، كفر عنه ما كان قبلها من سيئة » .

(١) النجوم الزاهرة . ج ١ ص ١٢٧ .

وكذلك لا ننسى أن الرسول قد حدثه بحديثه الرائع الدال على تعظيم الله للشاب الطـــائع المستقيم ، وفيه يقول كما عرفنا : « عجب ربك من شـــــاب ليست له صبوة » فاستقام على الطريق .

وفى سنة ثمان وخمسين من هجـــــرة المصطفى عليه الصلاة والسلام لقى عقبة ربه شهيدا مجيدا ودفن فى ثرى مصر الطيب ، ويقول عنه المؤرخ ابن اياس « مات شهيدا ، ودفن بالقرافة الصغرى» والى جوار ضريحه مسجد يسمى « مسجد عقبة بن عامر » . وهو مسجد يزار .

ويقول القلقشندى وهو يتحدث عن مصر : « وقد روى انه دخلها من الصحابة رضوان الله عليهم مايزيد على مائة رجل ، ودفن بقرافتها جماعة ، منهم فيما ذكره ابن عبدالحكم من ابن لهيعة خمسة نفر ، وهم عمرو بن العاص ، وعبدالله ابن حذافة ، وأبو بصرة الغفارى ، وعقبة بن عامر الجهنى ، وعبد الله بن الحارث الزبيدى ، وهو آخرهم موتا » (١) .

وينبغى أن نلاحظ أن هناك شخصا اسمه أبو عمرو عقبة بن عامر ، كان يحدث فى خلافة عبد الملك بن مروان ، ومات مقتولا فى النهروان ، وهو من أصحاب على رضى الله عنه . وهذا غير صاحبنا عقبة بن عامر الجهنى الذى مات سنة ثمان وخمسين ، فى خلافة معاوية على الصحيح .

سلاما سلاما على المجاهد القائد الشهيد عقبة بن عامر الجهنى .

---

(١) صبح الاعشى . ج ٣ ص ٢٨١ . ويقول صاحب النجوم الزاهرة عن قبر عقبة : « وليس فى الجبانة قبر صحابى مقطوع به الا قبر عقبة ، فانه زاره الخلف عن السلف » ج ١ ص ١٢٩ .

شهيد من الخليج

الجارود بشر بن عمرو العبدى

لا شك فى أن المؤمن عن ارادة واختيار ، أفضل عند الله وعند الناس ممن آمن عن متـــابعة أو اضطرار : ولا شك أن من استجاب عن يقين واعتقاد ، خير ممن استجاب تطلعا الى الجاه أو الانتفاع بين العباد .

وشتان بين من دخلوا فى دين الله خالصين مخلصين ، مستعدين لبذل الأموال ، وحمل الأثقال ، والصبر على الاهوال ، ومن دخلوا فيه وهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى .

واذا كان عهد النبوة الزكى الطهور ، قد شهد بعض الضعفاء أو المنافقين ، فان أسسه ودعائمه قد نهضت على هامات أبطال من أهل الوفاء والفداء ، أخلصوا لله دينهم ، وصدقوا معه عهدهم ، وثبتوا فى مواطن العسرة والشدة ، ومزالق الفتنة والردة ، مع توافر المكانة والمتعة والجاه ، وكثرة المال وسعة الحياة .

وبمثل هذه المعادن الكريمة الثمينة تدوم المبـــادىء السامية ، وتسود المثل العليا ، وتبقى مكارم الاخلاق .

***

وهذا واحد من هؤلاء :

انه الصحابى الجليل : ابو المنذر (١) بشر بن عمرو بن المعلى العبدى ، المشهور بلقب الجارود وهو من منطقة الخليج العربى ، وكان سيد بنى عبس (٢) . وبيته بيت الشرف فيهم (٣) .

وكسب الغنى والجاه فى الجاهلية ، وقد لقبوه بالجارود بعد غارة قام بها على بنى بكر بن وائل ، فظفـــر بهم واستأصلهم ، حتى قال العرب : لقد جردهم ! ..

وقال القائل :

فدسناهم بالخيـــــل من كل جانب
كما جرد الجـــارود بكر بن وائل (٤)

***

ولقد رحل الجارود سنة تسع للهجرة (٥) من اقصى الخليج الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع جمع من قبيلة عبد القيس . وعلم رسول الله عليه الصلاة والسلام بقدومهم قبل وصولهم ، ففرح بهم ، وقال لأصحابه : « سيطلع من هنا ركب هم خير أهل المشرق » .

ولما دنا الركب ســـارع اليه عمر ، وقال لهم : من القوم ؟ .

فأجابوا : من بنى عبد القيس .

---

(١) وقيل أيضا : أبو غياث ، وقيل : ابو عتاب (انظر الاستيعاب على الاصابة ج ١ ص ٢٥٠) .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، ج ٥ ص ٢٣٦ .
(٤) الاصابة ج ١ ص ٢١٨ . وقيل غير ذلك فى سبب التسمية . انظر الطبقات لابن سعد ج ٥ ص ٤٠٧ .
(٥) وقيل سنة عشر انظر الاستيعاب على الاصابة ج ١ ص ٢٥١ . وشرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٢٣٧ .

قال : فما أقدمكم هذه البلاد ، التجارة ؟

قالوا : لا .

قال : اما ان النبى صلى الله عليه وسلم قد ذكركم آنفا فقال خيرا (١) .

وبلغ الركب مجلس النبوة ، فرحب الرسول صلى الله عليه وسلم بهم ، واستبشر لمجيئهم وقال لهم : مرحبا بالقوم غير خزايا ولا ندامى (٢) » !

وعرض النبى صلوات الله عليه وسلامه على الجارود الاسلام ، وكان نصرانيا .

فذكر الجارود أن له دينا ، فأوضح له خاتم النبيين مافى اعتقاده من خلل ، وانشرح صـــدر الجارود لدعوة الحق ، ولكنه قال يحاور النبى فى صراحة : انى كنت على دين ، وانى تارك دينى لدينك ، أفتضمن لى دينى ؟ .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أنا ضامن لك أن قد هداك الله الى ما هو خير منه .

فعاد الجارود يقول متفهما : ان لى دينا : فلى ان تركت دينى ، ودخلت فى دينك أن لا يعذبنى الله ؟ .

أجاب النبى عليه الصلاة والسلام : نعم .

وهناك انطلق الجارود بلا تردد يعلن اسلامه .

فسر النبى ، وفرح به ، وقربه منه ، وأدناه وأكرمه (٣) .

وكأن القدر أراد أن يعجل للجارود بالدرس الأول فى الاختبار والابتلاء ، اذ لم يجد دواب له ولا لقومه تحملهم الى ديارهم ، فسأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يعطيه

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٤ ص ٩٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٣) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٤٠٨ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٣٦ . والاغانى ج ١٥ ص ٢٥٦ . والاصابة ج ١ ص ٢١٨ .

ما يركبونه ، فاعتذر اليه النبي قائلا : ما عندى ما أحملك عليه .

فقال الجارود : يا رسول الله ، ان بيني وبين بلادى ضوال ، أفأركبها ؟ .

فأجابه الرسول في صرامة قائلا : انما هي حرق النار فلا تقربها ، واياك واياها (١) .

ولم يضق الجارود بذلك ، بل ودع رسول الله شاكرا ، وعاد الى بلاده صابرا ، ودعا الى الله هاديا ، وقام بتعاليم الاسلام مخلصا ، على الرغم من بعد الشقة بينه وبين الرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى يقول ابن حجر : « كان الجارود حسن الاسلام صلبا في دينه » (٢) .

ويقول ابن عبد البر : « كان الجارود فاضلا صلبا في ذات الله » (٣) .

وكان يردد أبياتا تدل على ثباته ويقينه يقول فيها :

شهدت بأن الله حق ، وسامحت
بنات فؤادى بالشهادة والنهض
فأبلغ رسول الله عنى رسالة
بأنى حنيف حيث كنت من الأرض
فان لم تكن دارى بيثرب فيكم
فانى لكم عند الاقامة والخفض
وأجعل نفسى دون كل ملمة
لكم جنة ، من دون عرضكم عرضى (٤)

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٣٠١ ، وطبقات ابن سعد ج ٥ ص ٤٠٨ .
وحرق بفتح الحاء والراء .
(٢) الاصابة ج ١ ص ٢١٨ .
(٣) الدرر لابن عبد البر ص ٢٧١ .
(٤) الاصابة ج ١ ص ٢١٨ .

وتنقل الجارود – فى الاقامة – بين البحرين والبصرة . وهو قائم بأمر ربه ودينه ، مجـــاهد فى سبيل الحق . لا يشغله عن الله تعالى اتساع المال ، ولا علو الجاه ، ولا متاع الحياة ، حتى لحق الرسول عليه الصلاة والسلام بربه عز وجـــل ، ونجمت فتنة الردة عقب ذلك ، فكانت ابتلاء عصيبا للمجتمع الاسلامى الوليد .

وحينما رأى الجارود بعض من حوله قد ارتدوا أنكر ذلك عليهم ، ووقف بينهم فتشهد شهادة الحق ، ودعا الى الاسلام ، فقال فيما قال :

« أيها الناس

انى أشهد ألا لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، واكفر من لم يشهد .

وقال :

رضـــــــينا بدين الله فى كـــل حادث
وبالله والرحمن نرضى به ربا

ويروى انه قال أيضا : « أيها الناس ، ان كان محمد قد مات ، فان الله حى لا يموت ، فاستمسكوا بدينكم ، ومن ذهب له فى الفتنة دينار أو درهم أو بقرة أو شاة ، فعلى مثلاه » (١) .

ورواية تاريخ الطبرى فى هذا المجال أوفى وأوسع ، قال عن الجارود :

فلما قدم على قومه دعاهم الى الاسلام فأجابوا كلهم ، فلم يلبث الا يسيرا حتى مات النبى صـــلى الله عليه وسلم .

فقالت عبد القيس : لو كان محمـــد نبيا لما مات . وارتدوا .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ٥ ص ٣٣٨ .

وبلغــــه ذلك فبعث فيهم فجمعهم ؛ ثم قام فخطبهم فقال :

يا معشر عبد القيس : انى سائلكم عن أمر فأخبرونى به ان علمتموه ، ولا تجيبونى ان لم تعلموه .

قالوا : سل عما بدا لك .

قال : أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ؟ .

قالوا : نعم .

قال : اتعلمونه أم ترونه ؟ .

قالوا : لا بل نعلمه .

قال : فما فعلوا ؟ .

قالوا : ماتوا .

قال : فان محمدا صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا . وانا اشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله . قالوا : ونحن نشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ، وأنت سيدنا وأفضلنا .

وثبتوا على اسلامهم » (١) .

***

وعلى الرغم من قصر المدة التى قضاها الجارود مع سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه فانه قد روى عنه احاديث منها قوله : « ضالة المؤمن حرق النار » (٢) .

وقد روى عن كثيرين ، وروى عنه كثيرون من الصحابة وكبارالتابعين (٣) . وكأنه أراد أن يزين جاهه وغناه بزينة العلم والفقه والرواية ، ليزداد خيرا ، فالرسول صلى الله

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٣٠٢ .

(٢) الاستيعاب على الاصابة ج ١ ص ٢٥٢ . وشرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٣٣٧ .

(٣) الاستيعاب ج ١ ص ٢٥٢ .

عليه وسلم يقــــول : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » .

وكان فوق هذا وذاك لا يخاف في الله لومة لائم ، وكان يطالب بالحق ، ويجهر بكلمة الصدق ، ويراجع عمر بن الخطاب بصراحة وصرامة ، ولذلك اعجب به عمر وقال عنه : « لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان هذا الأمر (يعني الخلافة) لا يكون الا فى قريش ، لمـا عدلت بالخـلافة عن الجارود بن بشر بن المعلى ، ولا تخالجنى فى ذلك الامور » (١) .

ويشاء الحكيم العليم أن يختم لعبده الجارود بخـاتمة المخلصين المؤمنين ، فاذا هو فى السنة الحادية والعشرين للهجرة يقود جيشا من جيوش الاسلام الى فارس فى عهد عمر . وهناك وفى موطن يقال له : « عقبة الطين » ظل الجارود يناضل ويقاتل ، حتى نال نعمة الشهادة والموت فى سبيل الله (٢) غريبا بعيدا عن دياره .

ومنذ ذلك اليوم العظيم صارت هـــذه العقبة تسمى « عقبة الجارود » تخليدا لذكرى البطل المؤمن الذى ذهب فى سبيل ربه شهيدا ، فعطر بذلك سيرة الخليج وسيرة أهل الخليج .

وهناك أقـــوال أخرى فى استشهاده ، قيل انه قتل بنهاوند مع النعمان بن مقرن (٣) . وقيل انه نال الشهادة سنة عشرين (٤) ، وقيل سنة سبع عشرة بمكان يقال له « طاوس » .

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

(١) شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٢٣٧ .
(٢) الاصابة ج ١ ص ٢١٨ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق .

المجاهد المعطاء

عدى بن حاتم الطائى

ما أروع القرآن الكريم حين يقول : « كلا ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى » ، فان هذا القول يصور ظاهرة انسانية شائعة خلال عصور التاريخ ، فالانسان الجاهل حينما يلم به الضعف فى حسه ونفسه ، أو أهله وماله ، يذل ويخشع ، ولكنه حينما تتوافر له القوة فى الجسم ، أو الكثرة فى المال ، أو الاتساع فى المتاع ، يستبد ويطغى ، وينسى الهدى ، ويتبع الهوى ، ولا يزال كذلك سادرا فى غلوائه ، مسرفا فى عناده وكبريائه ، حتى تهب عليه نفحة ارعواء واهتداء ، فتدركه عناية ربه ، فتدير مفتاح شخصيته الى جهة الخير ، فيتدبر ويتذكر ، فاذا البداية من ربه « الذى خلق فسوى » ، واذا النهاية الى ربه كذلك : « ان الى ربك الرجعى » ، واذا هو بين بداية لا يستطيع لها تغييرا ، ونهاية لا يملك فيها تأثيرا ، فتنقشع غشاوة الغرور عن عينه ، ويعود اسراف العناد الى تطامنه ، ويبذل كل ما يستطيع للتكفير عما مضى ، والاستعداد القوى للآخرة والعقبى .

ويصبح نموذجا من نماذج الوفاء والفداء ، بعد أن كان مثلا فى العناد والكبرياء .

ولذلك شهدنا مجموعة من أبناء الاسلام فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام أسرفوا فى عداوة الاسلام ورسوله

وأهله اسرافا شديدا ، ثم استضاءت قلوبهم بنور الاسلام، فناضلوا من أجله نضالا حميدا مجيدا ، مرددين قولهم : الحمد لله الذى هدانا لهـذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

***

وهذا واحد من هؤلاء :

انه الصحابي الجليل ، الفارس الأمير ، الجواد بالمال وبالنضـــال : أبو وهب ـ وأبو طريف ـ عدى بن حاتم الطائى ، المشهور بالجود والشرف ، ولا عجب ، فهو ابن حاتم الطائي الذى يضرب به المثل فى الكرم والعطاء .

وكان عدى معظما عند قومه وعند غيرهم ، وكان شاعرا مقوالا حاضر الجواب ، ولكنه تأخر عن دخوله فى الاسلام حينا من الزمان ، وكان شديد الكراهية لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، وحينما سمع بأن جيش الاسلام قد دنا من منازل قومه ، ركب فرسه وفر هاربا الى الشام .

ووقعت أخته « سفانة » أسيرة عند المسلمين ، فأكرمها الرسول ، وعاملها معاملة نبيلة ، وحينما رجته أن يعفو عنها ويطلق سراحها ، استجاب لها .

وعادت « سفانة » الى أخيها ، فحثته على الذهاب الى هذا الرسول الكريم .

واستجاب عدى ، وقـدم على النبى صـلى الله عليه وسلم ، فى شهر شعبان من السنة التاسعة (١) فأسـلم وحسن اسـلامه ، وكان من قبل نصرانيا . وأكرم النبى وفادته ، وقال لاصحابه : « اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه »

وقصة اسلام عدى من أروع القصص الدالة على خبرة

(١) يذكر الذهبى فى كتابه « العبر » أن عدى بن حاتم أسلم سنة سبع (ج ١ ٧٤) .

النبى بالنفوس ، وحسن علاجه لها ، حتى تعتـــــدل وتستقيم ، وهى مذكورة مبســـــوطة فى كتب السيرة والتاريخ .

جاء فى « تاريخ الطبرى » ان بنت حاتم وضعت بعـد اسرها فى حظيرة بباب المسجد كانت توضع فيها السبايا ، فمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافـد ، فامنن على من الله عليك .

قال : ومن وافدك ؟ .

قالت : عدى بن حاتم .

قال : الفار من الله ورسوله .

ومضى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، حتى اذا كان الغد مر بها ، فاشار اليها رجل من خلف النبى لتعاود سؤاله ، فأعادت قولها : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن على من الله عليك .

فقال : قد فعلت ، فلا تعجلى بخروج حتى تجـدى من قومك من يكون لك به ثقة ، حتى يبلغك الى بلادك ، ثم آذنينى .

وقدم رهط من قومها ، فجاءت الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت : يا رسول الله ، قد قدم رهط من قـومى لى فيهم ثقة وبلاغ .

فكساها رسول الله ، وأهدى اليها ، واعطاها نفقة ، فخرجت معهم حتى قدمت الشام .

هكذا تحدث الطبرى عن موقف « سفانة » أخت عدى مع الرسول ، والاصفهانى فى الأغانى يرويه هكذا :

حدث الامام على كرم الله وجهه قال :

لما أتينا بسبايا طيء ، كانت فى النساء جارية جميلة —

وهي سفانة بنت حاتم — فلما رأيتها أعجبت بها ، فقلت : لأطلبنها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليجعلها من فيىء ، فلما تكلمت أنسيت جمـــالها لما سمعت من فصاحتها ، فقالت :

« يا محمد ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فان رأيت أن تخلى عنى ، فلا تشمت بى أحياء العرب ، فانى بنت سيد قومى ، كان أبى يفك العانى (الأسير) ويحمى الذمار ، ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط : أنا بنت حاتم طىء » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا جارية ، هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك اسلاميا لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق » (١) .

ويواصل الطبرى الحديث عما كان من شأن عدى بعد عودة أخيه فيقول :

قال عدى : فوالله انى لقاعد فى أهلى ، اذ نظرت الى ظعينة (٢) تصوب الى (٣) تؤمنا . فقلت : ابنة حاتم ! .

فاذا هى هى . فلما وقفت على انسحلت (٤) تقول : القاطع الظالم ! احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بنية والدك وعورته ! .

قلت : يا أخية ، لا تقولى الا خيرا ، فوالله مالى عذرى ، لقد صنعت ما ذكرت .

---

(١) الاغانى ، ج ١٦ ص ٩٣ .
(٢) الظعينة : المرأة فى الهودج .
(٣) تصوب الى : تقصد .
(٤) انسحلت : أخذت فى اللوم ومضت فيه بحدة .

ثم نزلت فأقامت عندي ، فقلت لها ـ وكانت امرأة حازمة ـ : ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ؟ (يعنى النبى صلي الله عليه وسلم) .

قالت : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فان يكن الرجل نبيا فالسابق اليه له فضيلة ، وان يكن ملكا فلن تذل فى عز اليمن وأنت أنت ! .

قلت : والله ان هذا للرأى .

فخرجت حتى أقدم على رسول الله المدينة : فدخلت عليه وهو فى مسجده ، فسلمت عليه .

فقال : من الرجل ؟

فقلت : عدى بن حاتم .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق بى الى بيته ، فوالله انه لعامد بى ، اذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها .

فقلت فى نفسي : والله ما هذا بملك .

ثم مضى رسول الله حتي دخل بيته ، فتناول وسادة من ادم (١) محشوة ليفا ، فقذفها الى ، فقال لى : اجلس على هذه .

فقلت : لا ، بل انت ، فاجلس عليها .

قال : لا ، بل أنت .

فجلست وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض .

قلت فى نفسي : والله ما هذا بأمر ملك .

ثم قال : ايه ياعدى بن حاتم ! ألم تك ركوسيا ؟ (٢) .

قلت : بلى .

---

(١) ادم : جلد .
(٢) الركوسية : قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين .

قال : ألم تكن تسير فى قومك بالمرباع (١) ؟ .

قال : بلى .

قال : فان ذلك لم يكن يحل لك فى دينك .

قلت : أجل والله .

وعرفت انه نبى مرسل يعلم ما يجهل .

ثم قال : لعلك ياعدى بن حاتم ، انما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ماترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال يفيض فيهم ، حتى لا يوجد من يأخذه .

ولعلك انما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ماترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها ، حتى تزور هذا البيت ، لا تخاف الا الله .

ولعله انما يمنعك من الدخول فيه انك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم . وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت .

قال عدى : فاسلمت .

فكان عدى يقول : مضت الثنتان ، وبقيت الثالثة : والله لتكونن . قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف شيئا ، حتى تحج هذا البيت ، وايم الله لتكونن الثالثة : ليفضن المال حتى لا يوجد من يأخذه (٢) .

ولم يقتصر اسلام عدى على هداية نفسه ، بل كان السبب فى هداية قومه ، ولذلك يقول التاريخ عن عدى :

---

(١) تسير بالمرباع : أى تأخذ الربع من غنائم قومك ، لانك رئيسهم.

(٢) انظر تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١١٣ . وانظر الروض الانف ج ٢ ص ٣٤٣ . والسيرة النبوية لابن كثير ج ٤ ص ١٢٣ .

انه كان خير مولود فى أرض ، وأعظمه بركة عليهم (١) .

***

وأخذ عدى بن حاتم يجـــــاهد فى سبيل الله بالمال والسلاح ، وسكن الكوفة فى العراق، ثم سكن بلدة قرقيسيا بالعراق أيضا (٢) .

وبعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وامتناع بعض الناس عن دفع الزكاة ، جمـع عدى زكاة قـومه ، وأقبل بها على الخليفة ، وأكد له ثباته وثباتهم على الصراط المستقيم .

وفى عهد عمر اشترك عدى فى فتوح العراق ، فحضر معركة القادسية ، وكان أمير قومه فيها (٣) .

وحضر معركة مهران ، ومعركة الجسر ، ومعـــركة النخيلة ، ومعركة المدائن ، ومعركة جلولاء الوقيعة ، ومعركة نهاوند ، ومعركة تستر ، وغيرها .

وكان مع خالد بن الوليد حين سار الى الجهاد فى الشام ، وشهد معه طائفة من الفتوح ، كما شهد عدى معارك الجمل ، وصفين ، والنهروان ، مع الامام على رضى الله عنه ، وفقئت عينه يوم صفين (٤) .

***

وكان عدى بن حاتم يحب الامام عليـا ويجله ويدعو

---

(١) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٢٥٤ .

(٢) قرقيسياء : وتستعمل كثيرا مقصورة (قرقيسيا) بلد على نهر الخابور ، وعندها مصب نهر الخابور فى نهر الفرات ، وقد فتحها باسم الاسلام حبيب بن مسلمة الفهرى فى السنة التاسعة عشرة ، وجهه لفتحها عياض بن غنم فاتح الجزيرة (معجم البلدان ج ٤ ص ٣٢٨) .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤٨٦ .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٥٢١ .

اليه ، ومن ذلك أن عديا وقف يخطب بين يدى الامام ، والناس من حوله ، فقال :

« أيها الناس ؛ انه والله لو غيره دعانا الى قتال أهل الصلاة ما أجبناه ، ولا وقع بأمر قط الا ومعه من الله برهان ، وفى يديه من الله سبب ، وانه وقف عن عثمان بشبهة ، وقاتل أهل الجمل على النكث ، وأهل الشام على البغى ، فانظروا فى أموركم وأمره ، فان كان له عليكم فضل فليس لكم مثله ، فسلموا له ، والا فنازعوا عليه .

والله لئن كان الى العلم بالكتاب والسنة انه لأعلم الناس بهما . ولئن كان الى الاسلام انه لاخو نبى الله ، والرأس فى الاسلام . ولئن كان الى الزهد والعبادة ، انه لاظهر الناس زهدا ، وأنهكهم عبادة . ولئن كان الى العقول والنحائز (١) انه لأشد الناس عقلا ، وأكرمهم نحيزة ، ولئن كان الى الشرف والنجدة ، انه لأعظم الناس شرفا ونجدة ، ولئن الى الرضا لقد رضى عنه المهاجرون والأنصار فى شورى عمر رضى الله عنهم ، وبايعوه بعد عثمان ، ونصروه على أصحاب الجمل وأهل الشام ، فما الفضل الذى قربكم الى الهدى ، وما النقص الذى قربه الى الضلال ؟ .

والله لو اجتمعتم جميعا على أمر واحد ، لأتاح الله له من يقاتل لأمر ماض وكتاب سابق (٢) » .

***

ولقد استنفر عدى قومه ذات يوم للجهاد ، فكان مما ذكره لهم قوله :

« قد كنتم تقاتلون فى الجاهلية على الدنيا ، فقاتلوا

---

(١) النحائز : جمع نحيزة ، وهى الطبيعة .

(٢) جمهرة خطب العرب ، ج ١ ص ٢٠٢ .

فى الاسلام على الآخرة ، وأنا أدعوكم الى الدنيا والآخرة ، فأجيبوا قولى ، فانكم أعز العــــرب دارا ، ولكم فضل معاشكم وخيلكم ، فاجعلوا فضل المعاش للعيال ، وفضل الخيل للجهاد » .

ولم يكن عدى بن حاتم يدعو قومه الى الجهاد ويترك أسرته ، فلقد كان ابنه مثلا يجاهد الى جواره ، واستشهد ذلك الابن فى احدى المعارك الى جوار أبيه ، فلم يجزع لذلك عـــدى ولم يحزن ، بل تولى دفن ابنه صـــابرا محتسبا ، وهو يقول مخاطبا ولده الشهيد :

« الحمــد لله الذى ابتـــلانى بيومك على حاجتى اليك » (١) .

وكان كبار المسلمين يعرفون لعدى صحة اسلامه وقوة ايمانه ، وممـــا يؤيد ذلك انه جاء الى عمر فى أناس من قومه ، فجعل عمر يعطى هذا وذاك وذلك ، ويعرض عن عدى فلا يعطيه شيئا .

فقال عدى : يا أمير المؤمنين . الا تعرفنى ؟! .

فضحك عمر وقـــال : والله انى لأعرفك ، آمنت اذ كفروا ، واقبلت اذ أدبروا ، ووفيت اذ غدروا ، وعرفت اذ أنكروا ، وان أول صدقة بيضت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجوه أصحابه ، صدقة طيىء ، جئت بها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم ذكر عمر لعدى أنه أعطى هؤلاء لاعانتهم وتطلعهم .

فاستراح عدى وفرح ، وقال : فلا أبالى اذن .

***

ومع هذا الجهاد الموصول ، والنضال المستمر ، كان

(١) تاريخ الطبرى . ج ٥ ص ٨٨ .

عدى بن حاتم رجلا متعبدا محافظا على الصلاة . حتى قال : « ما دخل على وقت صـــلاة الا وأنا مشـتاق اليها » (١) .

وهذا يذكرنا بقول الرسول الأكرم : « جعلت قرة عينى فى الصلاة » .

كما كان راوية للحـــديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، روى عشرات الأحاديث .

وتلقى عنه الرواية كثيرون من الأكابر ، من أمثال قيس ابن حازم ، وســعيد بن جبير ، والشعبى ، وهمام بن الحارث ، وغيرهم .

وهكذا كان عدى بن حاتم الطائى يجمع بين الايمـــان العميق ، والعمل الصالح ، والجهـــاد الدائب ، والعلم الواسع ، والعبادة المخلصة .

وظل كذلك حتى بلغ عمره مائة وعشرين عاما ، مضى بعدها كريما الى ربه الذى لا يضيع اجر من أحسن عملا، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

روى النووى فى « تهذيب الأسماء » أن عدى بن حاتم مات بالكوفة سنة ثمان وستين ، وقيل سنة تسع وستين بعد أن عاش أكثر من مائة سنة (٢) .

ومن الغريب أن الذهبى فى الجزء الاول من كتـــابه « العبر » ذكر أولا أن عدم بن حاتم قتل فى موقعـــة صفين سنة سبع وثلاثين (٣) .

ثم رجع بعد صفحات فقال انه توفى سنة سبع وستين.

---

(١) تهذيب الاسماء ، ج ١ ص ٣٢٧ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) العبر ، ج ١ ص ٤١ .

او سنة ثمـــــــان وستين ، عن مائة وعشرين ســــنة بقرقيسيا (١) .

***

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

يقول رائدكم الاول وقائدكم الاكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من طال عمره ، وحسن عمله ، وشركم من طال عمره وساء عمله » .

فليتنا نتبصر خطواتنا فى حياتنا ، ومواقفنا من دنيانا، فان كنا على حق ازددنا منه ، ودمنا عليه ، وان كنا على باطل بادرنا بتركه والتحرز منه ، وبذلك تصبح الحياة نعمة لا نقمة ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعا الى سواء السبيل .

---

(١) تهذيب الاسماء ، ج ١ ص ٣٢٧ .

الشهيد الزاهد
زهير بن قيس البلوى

ان التاريخ الصادق يحدثنا بأن أبناء الاسلام لم يحققوا الأعمال الجليلة التى حققوها الا فى ظل الاتحاد ، والاعتصام بحبل الله القوى المتين ، وانهم لم يخسروا ولم يتصدعوا الا فى ظلمات الفرقة والشتات ، والقرآن يؤكد هذه الحقيقة الواضحة حين يقول : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » ، وحين يقول : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ان الله مع الصابرين » .

ولقد كان الوطن الاسلامى فى العصور المزهرة يضم الكثير من الأقطار والأقاليم ، ومع ذلك لا تفرقه فواصل ، ولا تمزقه حدود أو حوائل ، بل كان كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، وكأنه لو عطس عاطس من ابناء هذا الوطن فى أقصى المشرق لشمته آخر فى أقصى المغرب قائلا له : يرحمك الله .

وكان الواحد من أبناء الاسلام يولد فى جهة من هذا الوطن ، ثم يقيم فى جهة ثانية ، ثم يجاهد فى جهة ثالثة ،

ثم يلقى الله تعالى فى جهة رابعة ، وهو لا يفرق بين جهة وجهة ، فالكل أرض الله ووطن الاسلام ، والجميع عباد الله ، تحصنهم عقيدة التوحيد ، ويقويهم توحيد الكلمة .

***

وهذا مثلا هو الصحابى المناضل : أبو شداد زهير بن قيس البلوى اليمنى المصرى الليبى ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه : انه من قبيلة « بلى » وهى قبيلة من قضاعة، وقضاعة من اليمن ، فهو اذن يمنى الأصل ، ثم أقام فى الحجاز زمنا حين أسلم ، وصاحب رسول الله ، فصار حجازيا أو مدينيا ، ثم اشترك فى فتح مصر باسم الاسلام، وأقام فى مصر ، فصار مصريا ، ثم جاهد فى ليبيا ، ونال الشهادة ، على أرضها ، وضمه ثراها ، فصار ليبيا ، وهو مع هذا كله عربى مسلم ، راس ماله الأول كلمة : لا له الا الله ، محمد رسول الله . ومع ان زهيرا كان احد الصحابة ، روى عن بعض التابعين ، فقد روى عن علقة بن رمشة .

ولقد كان زهير بن قيس البلوى من قادة الاسلام الشجعان ، وكان يمثل صورة المجاهد أو المرابط الذى لم تكن له غاية سوى اعلاء كلمة الدين ، ولا عجب فهو ابن الاسلام والايمان ، وهو خليفة عقبة بن نافع فاتح شمال افريقية ، الذى وقف على شاطىء المحيط فوق جواده ، وقال يناجى ربه : يارب السماء والارض ، وحقك ، انى لو أعلم وراء هذا المحيط أرضا يابسة ، لخضت اليها هذا الماء ، حتى أرفع اسمك العظيم فى أقصى بقاع الأرض .

وبعد أن زامل زهير عقبة عدة سنوات فى الجهاد ، ظل زهير بعد استشهاد عقبة نحو ثلاثة عشر عاما يجاهد

ويناضل ، لا تغره دنيا ، ولا ينال منه ترف او رفاهية ، بل ظل عابدا زاهدا .

ومتى زهد الانسان فى متاع الحيـــاة ، أصبح ربانيا موصول الأسباب بواهب القوى والقدر .

ويقول التاريخ : وحينما اشتد هجــــوم الروم على ليبيا ، اجتمع المسلمون الى مروان بن الحكم ــ سنة خمس وستين ــ وكان أميرا على الشام ، وسألوه أن يبعث جيشا الى شمال افريقية ، لتخليص المسلمين من سلطان الأعداء ، وأن يعز فيها الاسلام ، كما كان فى عهد البطل عقبة بن نافع .

فقال مروان : ومن للأمر مثل عقبة ؟

فأجمعوا على اختيار زهير بن قيس البلوى ، وكان من رؤساء العابدين ، وأشراف المجاهدين . فاستجاب زهير ، وسارع الى الجهاد ، وأرسلت اليه امدادات ضخمة من مصر (١) . وكانت لزهير مع الروم أعداء الاسلام مواقع ومعارك ، وخاصة بعد أن صار أميرا على « برقة » سنة تسع وستين ، وفى هذه السنة هاجم زهير جموع الروم المحتلين ، وانتصر عليهم ، وسقط قـائدهم « كسيلة » صريعا .

وحينما شاهد زهير ما فى البلاد من رفاهية أعرض عن ذلك كله وقال : « انما قدمت للجهاد ، ولم أقدم لحب الدنيا » .

ومضى يجاهد حتى بلغ القيروان ، وأقام فيها مدة ، وانتهز الروم فرصة غيابه عن برقة ، فأرسلوا اليها حملة بحرية ضخمة من صقلية ، وأعملوا فيها أيدى الفساد ، فسارع اليهم زهير ، مع نفر قليل من أصحابه ، وفى برقة

(١) رياض النفوس ج ١ ص ٣٩ .

ناضل زهير نضال الأبطال ، وتكاثر عليه الاعداء من كل جانب ، وهو يرفض الاستسلام ، برغم شراسة القتال .

وظل هكذا حتى ذاق نعمة الشهادة مع بقية زملائه ، لم ينج منهم سوى رجل واحد ، وكأن القدر قد أبقى هذا الرجل ليروى للأجيال ما كان لهؤلاء المؤمنين المناضلين من رجولة وبطولة ، ولا عجب فهم يؤمنون بقول الحق جل جلاله : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا انا معكم متربصون»

وكان استشهاد زهير بن قيس البلوى سنة ست وسبعين للهجرة ، ودفن فى مدينة « درنة » بليبيا .
ويقول ياقوت عن « درنة » فى « معجم البلدان » : قتل فيها زهير بن قيس البلوى ، وجماعة من المسلمين ، وقبورهم معروفة (١) .

ولقد وقفت أمام قبره فى رمضان سنة ١٣٩١ متذكرا معتبرا ، وشاهدت من حوله قبور جماعة من شهداء الصحابة الذين صدقوا وعدهم مع الله عز وجل ، فانساحوا فى الأرض ، ينشرون الهدى والنور ، ويرفعون لواء الحق ، ويرددون شعار العدل ، فظلت ذكراهم على الدوام نفحا طيبا ، يشهد بأن لله تعالى عبادا اذا أرادوا أراد ، لأنهم لا يريدون الا ما فيه رضاه ، ولا يستضيئون بغير نوره وهداه : « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

ويقول ابن كثير فى « البداية والنهاية » عن شهادة زهير :

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥٢ .

قتله الروم ببرقة ، وذلك أن الصريخ أتى الحاكم بمصر ـ وهو عبد العزيز بن مروان ـ أن الروم نزلوا ببرقة ، فأمره بالنهوض اليهم ، فساق زهير ، ومعه أربعون نفسا، فوجد الروم ، فأراد أن يكف عن القتال ، حتى يلحقه العسكر ، فقالوا : يا أبا شداد ، احمل بنا عليهم . فحملوا فقتلوا جميعا (١) .

***

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

يقول قائدكم ورائدكم ورسولكم : « من سره أن يكون أعز الناس فليتق الله ، ومن أراد أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده » ، فهل آن لامة محمد صلى الله علعيه وسلم أن تعود الى هديه ، ليعزها الله بعزه : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ».

---

(١) البداية والنهاية ج ٩ ص ١٧ .

المجاهد المخلص

قيس بن المكشوح المرادى

انما عز الاسلام وانتصر فى أول أمره لوجود المنهج السليم القويم ، الذى جاء به القرآن الكريم ، ولوجود القائد الحكيم الأمين الذى تمثل فى الرسول العظيم عليه الصلاة والتسليم ، ولاخلاص الصفوة التى استجابت له وسارت معه من الصحابة الأكرمين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، ولرغبة هؤلاء فيما عند الله أكثر من حرصهم على ما بين أيديهم من زخرف الدنيا ومتاع الحياة ، ولاجتماع هؤلاء على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، فلم تفرقهم الأهواء ، ولم تمزقهم الشهوات ، بل أخلصوا دينهم لله ، وصدقوا حبهم لرسول الله، وباعوا أنفسهم فى سبيل الله ، واتخذوا شعارهم قول الله جل جلاله ، « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

واذا كنا قد مررنا فى سنواتنا العجاف بأسوأ مرحلة مرت علينا فى تاريخنا الطويل الجليل ، فانه لا يليق بنا أن

نسأم من أخذ العبرة عن ماضينا وأسلافنا ، فنحن فى ذلك ندرس تاريخا ، ونتعرف طريقا ، ونتفهم صوابا ، ونتجنب خطأ ؛ ونتلمس بابا يفتحه الله علينا بتوفيقه ، لنخرج مما نحن فيه الى ما ينبغى أن نكون عليه : « صبغة الله ؛ ومن أحسن من الله صبغته ، ونحن له عابدون » .



وهذا درس من تاريخنا يتمثل لنا فى أحد أسلافنا ، وهو الصحابى الجليل أبو شداد (١) قيس بن هبيرة بن هلال المرادى ، وشهرته قيس بن المكشوح ، لأن أباه هبيرة كوى على كشحه (أى جانبه) ، وقد كان من الشجعان الابطال الشعراء ، وكان سيد قبيلة « بجيلة » وفارسها، وفارس مذحج (٢) ، ولا عجب فهو ينتمى الى أصول كريمة عظيمة ، فهو ابن أخت البطل المغوار الصحابى العالم عمرو بن معد يكرب (٣) ، صاحب الغارات والغزوات المشهورة ، والذى كان يقال له « فارس العرب جميعا » .

وقد نال عمرو الشهادة عطشا يوم القادسية .

وكان قيس بن المكشوح أحد شجعان الاسلام وأبطال المسلمين ، ومن أهل النجدة والنخوة فيهم .

وكانت له آثار صالحات فى الفتوحات ، فى زمن عمر وعثمان فى القادسية وغيرها (٤) ، وسار الى العراق على مقدمة الجيش الذى قاده سعد بن أبى وقاص رضوان الله عليه ، واشترك فى فتح نهاوند سنة عشرين (٥) .

---

(١) وقيل أيضا : أبو حسان (العبر ج ١ ص ٢٣٩) .
(٢) الطبقات لابن سعد ج ٥ ص ٣٨٣ .
(٣) تهذيب الاسماء ج ٢ ص ٦٤ .
(٤) تهذيب الاسماء ج ٢ ص ٦٤ .
(٥) أو ١٩ أو ٢١ .

وكان شعاره الاخلاص فى العمل لوجه الله تعالى ، حتى قال جابر بن عبد الله : « والله الذى لا اله الا هو ، ما أطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة ، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر ، فما رأينا كالذى هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم : طليحة بن خويلد ، وعمرو بن معد يكرب ، وقيس بن المكشوح » (١) .

وكان قيس يدرك تمام الادراك أن وحدة المجاهدين هى مفتاح النصر ، فاذا قامت الوحدة على الايمان وصدق الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد فقد تحقق الوعد وتم المراد .

ولذلك نسمع قيس بن المكشوح يقول لرفاقه فى الجهاد، وهم متجهون الى فتح فارس : « يا معشر العرب ، ان الله قد من عليكم بالاسلام، وأكرمكم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا ، دعوتكم واحدة ، وأمركم واحد ، بعد اذ أنتم يعدو بعضكم على بعض عدو الأسد ، ويختطف بعضكم بعضا اختطاف الذئاب ، فانصروا الله ينصركم ، وتنجزوا من الله فتح فارس ، فان اخوانكم من أهل الشام قد أنجز الله لهم فتح الشام » (٢) .

واستجاب الله جل جلاله لكتائب الاسلام المخلصة الموحدة ، ففتحت فارس ، وحملت جواهر كسرى التى لا مثيل لها الى الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فحينما رآها قال : « ان الذين أدوا هذا لأمناء » .

وكان على رضى الله عنه حاضرا ، فقال لعمر :

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٩ .
(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٥٤ .

« يا أمير المؤمنين ، ان القوم رأوك عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا » .

***

وانتقل قيس بن المكشوح الى ميدان جهاد آخر، فذهب الى اليمن ليقضي على فتنة المتنبيء الـــكذاب الأسود العنسى ، الذى كان يقال له « عبهلة ذو الخمار » (١) .

واستطاع قيس أن يقتل هذا الكذاب اللعين، واشترك معه فى ذلك الصحابى الصـــالح فيروز الديلمى ، الذى أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

وظل المجاهد الجليل قيس بن المكشوح يتنقل من ميدان الى ميدان ، ومن اتقــان الى اتقان ، ومن احسان الى احسان ، حتى اقبلت سنة سبع وثلاثين للهجرة ، وفى شهر صفر من هذه السنة كانت وقعة صفين المشهورة ، فخرج اليها قيس بن المكشوح ليجاهد فيها تحت لواء الامام الغالب على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ويروى أن قبيلة « بجيلة » وهى قبيلة قيس قالت له : خذ رايتنا .

فقالَ متواضعا : غيرى خير لكم منى .

فقالوا جميعا : ما نريد غيرك .

فقال مصمما : والله لئن أعطيتمونيها لا أنتهى بكم دون صاحب الترس المذهب (يقصد زعيم الأعداء) .

فقالوا جميعا : اصنع ما شئت .

وحمل البطل الراية ، وزحف المجاهد المخلص نحـــو أعدائه ، وقاتل قتالا شديداً ، غير مبق على الحياة أو طامع

---

(١) الطبقات لابن سعد ج ٣ ص ٣٨٣ .

(٢) الطبقات لابن سعد ــ ٥ ص ٣٨٩ . والعبر ج ١ ص ٣٩ .

فى متاعها ، واختار الله له خير الحسنيين ، فتكاثر عليه أعداؤه ، فقتلوه ، وسقط البطل فى ساحة الجهاد شهيدا مجيدا ، وسارع عبد الله بن قلع الاحمسى فتناول الراية، من يد الشهيد المجيد ، ورفعها ليواصل الرسالة ، وهو يقول من قيس الشهيد :

لا يبعد الله أبا شداد
حيث أجاب دعوة المنادى
وشد بالسيف على الأعادى
نعم الفتى كان لدى الطراد
وفى طعان الخيل والجلاد (١)

***

يا اتباع محمدعليه الصلاة والسلام، هذا هوالطريق ، وهذه هى أسباب التوفيق . نريد خطة راشدة ماجدة ، ناخذها من كتاب الله خير الكتب ، ونريد قادة يستهدون على الدوام بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم خير قائد ، ونريد شعبا يتحقق له معنى الايمان بالله ، ونريد مجاهدين يخلصون النضال لوجه الله ، ويؤثرون ما عند الله على ما عند الناس ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم .

(١) تاريخ الطبرى ج ٥ ص٢٥ ووقعة صفين ص٢٦٢ ، وانظر تهذيب الاسماء ج ٢ ص ٦٤ .

المجاهد بقية أهل بدر
جابر بن عتيك الأنصاري

يقول الله تبارك وتعالى : « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » ، والذكرى من الذكر ، والذكر الحميد زينة المؤمنين ، والذكريات الطيبة عطر الصالحين ، والقائل الحكيم يقول :

دقات قلب المرء قائلة له
ان الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها
فالذكر للانسان عمر ثان

وما أجمل الذكريات الجليلة النبيلة ، حين يستعيدها الانسان القويم ، فيجد فيها السلوى والعزاء ، ويحس معها بالنشوة والرضا .

واذا كان هناك من المجرمين والفاسقين من يحلو له ان يجتر ذكريات اللهو والعبث ، أو ذكريات الفجور والشرور ، فيستعيد مثلا ذكرى غرام متحلل ، أو عربدة ماجنة ، أو انحراف شائن ، فان عادة أهل التقوى والايمان أن يستعيدوا الذكريات الحميدة المجيدة التى كانوا فيها أهل وفاء ، وجنود فداء ، ليحمدوا الله على ما وفقهم اليه ، وليزدادوا أذكارا واعتبارا : « فذكر ان نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ،

ويتجنبها الاشقى ، الذى يصـــــلى النار الكبرى ، ثم
ولقد كان المسلمون فى صدر الاســـلام يتذكرون
لا يموت فيها ولا يحيى » .
لانفسـهم ولاخوانهم فى الله تبارك وتعالى «مواقف الوفاء»
ومواطن الفداء ، التـى شـهدوها واسـهموا فيهـا ،
بتوفيق من الله وتأييده .

فهذا مثلا من الاوائل السابقين فى الاسلام ، وهـذا ممن حضروا بيعة العقبة ، وهذا ممن شـــهدوا غزوة بدر ، وهـــذا ممن ثبتوا فى غزوة أحـد ، وهـذا ممن بايعوا بيعة الرضوان ، وهـذا ممن ثبتوا للجوع والبرد والخوف والهول يوم الاحزاب ، وهكذا : «ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

وهذا صحابى جليل ، ومناضل نبيل ، يذكرنا بأروع الذكريات فى تاريخ الجهاد الصابر المؤمن ، الـذى أعز الله به كلمة الصـدق ، ورفع به صوت الحق : «والله غالب على أمره ، ولـكن أكثر النـاس لا يعلمون » .

انه أبو عبد الله (١) جابر (٢) بن عتيك بن قيس بن الاسود بن مرة الانصارى السلمى المدنى ، أحـد بنى عمرو بن عوف ، وهو من كبار الصحابة رضـوان الله عليهم أجمعين ، وأمه هى جميلة بنت زيد بن صـيفى ابن عمرو الانصارية ، أسلمت وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (الطبقات لابن سعد ج ٣ ص ٣٧ و ج

---

(١) وقيل أبو الربيع ، ولكن ابن الاثير ، يقول : ان هذا وهم . أنظر أسد الغابة ج ١ ص ٣٠٧ .

(٢) بعض المصادر تسمه باسم « جابر » وبعضها تسمبه باسم « جبر » ولكن التحريف كان السبب ، أو لعلهم كانوا ينادونه بالاسمين . والعجيب ان بعض مصادر ترجمت له بالاسمين معا . أنظر التحفة اللطيفة للسخاوى. ج ١ ص ٣٩٥ وص ٣٩٨ ، وأنظر أسد الغابة لابن الاثير ج ١ ص ٣٠٧ وص ٣١٦ .

٨ ص ٢٤٠) .. وهو أيضا أخو بشر بن عتيك الصحابى (التحفة ج ١ ص ٣٩٨) .

ولقد كان من سابقى الانصار الى الاسلام ، وحين تمت الهجرة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جابر وخباب بن الارت (١) والاشباه تلاقى الاشباه ، والنسور تقع على النسور ، فخباب بن الارت كما نعلم - أو كما ينبغى أن نعلم - هو المجاهد الصابر المحتسب ، والمناضل المخلص المعذب فى سبيل الله ، الذى كان يقال له : « سدس الاسلام » لانه سادس من أسلم ، وأذاقه المشركون الوانا من العذاب ، وهاجر وصابر وشارك فى الجهاد والنضال ، وكان يردد :

ولست أبالى حين أقتل مسلما
على اى جنب كان فى الله مصرعى

ولما لحق خباب بربه قال فيه الامام على ، رضى الله عنه وكرم وجهه : « يرحم الله خباب بن الارت ، فلقد أسلم راغبا ، وهاجر طائعا ، وقنع بالكفاف (القليل)، ورضى عن الله ، وعاش مجاهدا ، وابتلى فى جسمه أحوالا » (٢) .

***

ولنعد الى بطلنا جابر بن عتيك ، لنراه يشهد غزوات بدر وأحد والخندق ، والمشاهد كلها ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان حامل راية الأنصار يوم فتح مكة ، وعبر عن ذلك بعض المصادر فقال : كانت معه راية بنى معاوية بن مالك فى غزوة الفتح .

---

(١) الطبقات لابن سعد ج ٣ ص ٣٨٠ .
(٢) انظر تفاصيل بطولته فى كتابى : (فدائيون فى تاريخ الاسلام) ص ٢٣٧ - ٢٤٢ .

وقد روى جابر الحديث ، وكان له من الأولاد عتيك وعبد الله وأم ثابت وأمهم هى هضبة بنت عمرو بن مالك ابن سبيع .

ولقد امتد عمر جابر بن عتيك ، حتى جاوز السبعين ، وقيل انه جاوز التسعين ، وجاهد ماجاهد ، وناضل ما ناضل ، واكتسب من الذكريات الحميدة ما اكتسب ، ومع ذلك لازم سكنى المدينة طيلة حياته ، واستمر مقيما بها الى حين وفاته ، وكأنه كان يرى سكناها أفضل من السكنى فى أى مكان آخر من البلاد التى دخلها الاسلام أو فتحها المسلمون .

ولا عجب فى ذلك ولا غرابة ، فالمدينة فى الاسلام هى دار الهجرة ، ودار الايمان ، ودار الفتح ، ودار الاخيار ، ودار الأبرار ، وفيها استقر جدث سيد الانام محمد عليه الصلاة والسلام ، وهي البلدة التى أعطاها الرسول حرمة ومكانة ، فقال : « انى حرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة » وقال : « المدينة تنفى الناس (اى شرارهم) كما ينفى الكير خبث الحديد » . وقال « المدينة كالكير تنفى خبثها وينصع (أى يصفو) طيبها » وقال : « ان الايمان ليأرز (أى يجتمع) الى المدينة كما تأرز الحية الى جحرها » وقال عنها : « من أحدث فيها أو آوى فيها محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » وقال : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

وعمر الفاروق كان يدعو ربه فيقول : « اللهم اجعل موتى فى بلد رسولك عليه الصلاة والسلام » .

وهكذا عاش جابر فى المدينة المنورة يعمل للاسلام ويعتز بالاسلام ، يستعيد فيها الذكريات الجليلة الجميلة،

التى مرت عليه وعلى أبناء الاسلام خلال عشرات من السنين وعشرات .

وكانت هناك ذكرى تبدو فى طليعة هذه الذكريات ؛ وهى ذكرى تساير جابرا وتسامره ، وتفاديه وتراوحه : فقد شهد غزوة بدر الكبرى ، أول لقاء فى الاسلام — شهدها مع ما يزيد عن ثلاثمائة مجاهد مؤمن ، وها هى ذى الأيام والأعوام تمر على جابر : وهو يفقد رفاق الجهاد وأصدقاء الميدان ، بطلا بعد بطل ، وواحدا بعد الآخر ، وهو باق على قيد الحياة ، حتى لم يبق من هؤلاء أحد ، وبقى آخر مجاهد من أهل بدر ، وهو جابر بن عتيك .

وكأنه كان يستعيد الذكريات ويقول لنفسه : أين زملائى ؟ أين أحبائى ؟ أين الذين شاركتهم شرف الجهاد ، وتطلعت معهم الى نعمة الاستشهاد ؟ أين فلان وفلان وفلان ؟ . لقد رحلوا جميعا الى بارىء الارض والسموات ، فما بقائى فى هذه الدنيا ؟ . ومتى يكون اللقاء ؟ .

وكان جابر بن عتيك آخر اهل بدر موتا ، وحين لحق بربه تذكر الناس أهل بدر الذين قال لهم ربهم تبارك وتعالى : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون » . والذين ذكر الرسول عنهم أنهم فئة ان هلكت فلن يوجد فى الارض من يعبد الله ، والذين قال فيهم : « لعل الله أطلع على أهل بدر فقال لهم : « اعملوا ماشئتم فانى قد غفرت لكم » .



رضوان الله عز وجل على المجاهد بقية أهل بدر : جابر بن عتيك ، وسلام عليه فى الخالدين .

فدائى من أبطال الهجرة

عبد الله بن أبى بكر الصديق

تمر علينا كل عام ذكرى الهجرة النبوية التى غيرت تاريخ البشرية ، وحولت مسيرة الانسان من اتجاه الى اتجاه ، وكانت فى تاريخ الاسلام بداية القوة والغلبة والنصر ، فتجدد ذكريات عزيزة غالية .

وقد شارك فى هذا العمل العظيم عدد كريم من المؤمنين: منهم الشيخ الكهل ، والفتى الشاب ، والفتاة المؤمنة .

وقد ارتبطت الهجرة بأكثر من معنى من معانى الوفاء والفداء .

وها نحن أولا نلمح بين صانعيها ، والمشاركين فيها ، وجها من وجود الذين عزموا فأقدموا ، وعاهدوا فصدقوا .

انه وجه المجاهد الشهيد ، أحد الشجعان العقلاء الصحابى ابن الصحابى : عبد الله بن أبى بكر الصديق التيمى القرشى ، رضوان الله عليهما ، وهو الذى أسلم قديما ، وجاهد طويلا ، ومضى الى ربه شهيدا .

وامه هي قتيلة بنت عبد العزى ، تزوجها أبو بكر قبل ظهور الاسلام ، وولدت له عبد الله وأسماء (١) ، ومن هذا

---

(١) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٤٢٥ ، وقد ولدت له زوجته أم رومان : عائشة ، وعبدالرحمن ، وقد تزوج أم رومان قبل الاسلام أيضا (المرجع السابق ص ٤٢٦) .

نفهم بيسر أن عبد الله بن أبى بكر هو شـــــقيق البطلة الفدائية العظيمة أسماء بنت أبى بكر ، ذات النطاقين ، والدة البطل الشهيد عبد الله بن الزبير ، الذى قالت له محرضة على الجهاد حتى الاستشهاد ، دون مبالاة بتمثيل أعدائه به بعد موته : « يابنى ان الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها » (١) .

ولذلك تقول أكثر المراجع الاسلامية عن عبد الله انه « شقيق أسماء » (٢) .

وهكذا يشرف التاريخ عبد الله ، ويعطر سيرته ، بأنه شقيق أسماء التى خلدت على الايام بجهادها وبطولتها .

ومن صنع الله العجيب فى تاريخ الاسلام انه رفع مكانة فريق من النســـــاء حتى صارت النسبة اليهن مفخرة الرجال :

ولو كان النســـــاء كمثـــل هـــذى
لفضـــــلت النســـاء على الرجال



ولقـــد كان نصيب عبد الله بن أبى بكر من واجبات الهجرة ان يقوم بمهمة الاستطلاع لاخبار المشركين وجمعها، وتعرف « رد الفعل » عندهم لاختفاء الرسول ، وخروجه سرا دون أن يعلم منهم أحد أين اتجه ، وتتبع تحركات المشركين وتدبيرهم لمحاولة منع الرسول من اتمام هجرته، وهذه مهمة دقيقة صعبة حساسة ، فيها خطر ولها أثر، وتحتاج الى يقظة وتنبه ، مع رزانة وثبات ، مع شجاعة وروح فدائية .

(١) انظر تفاصيل بطولتها فى كتابى « فدائيون فى تاريخ الاسلام » ص ١٦٩ الى صفحة ١٧٣ .

(٢) انظر على سبيل المثال تهذيب الاسماء واللغـــات ٢٦٢/١ ، والاصابة ٢٧٤/٢ .

فكان عبد الله كل يوم من أيام الغار يحمل الطعـــام وأخبار المشركين الى النبى صلى الله عليــه وسلم وأبى بكر، اذ هما فى الغار، وكان يبيت عندهما ، ويخرج من السحر فيصبح مع المشركين متظاهرا بأنه لم يبرح داره فى الليل (١) .

ولقد روى الامام البخارى فى قصة الهجرة أن الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر قالت : « كان عبد الله ابن أبى بكر يأتى النبى صلى الله عليه وسلم وأباه ، وهما فى الغار برادهما ، وبأخبار مكة اذا أمسى ، وهو غلام شاب فطن ، فكان يبيت عندهما ، ويخرج مع السحر ، فيصبح مع قريش » (٢) .

ويعبر الطبرى فى تاريخه عن ذلك بقوله : « وفى الليالى التى مكثا بالغـــار كان يأتيهما عبد الله بن أبى بكر حين يمسى بكل خبر بمكة ، ثم يصبح بمكة » (٣) .

ويقول ابن الاثير فى كتابه « النهاية » عن المهــاجرين العظيمين : « ويبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو شاب ثقف لقن » (٤) اى فهيم حسن التلقن لما يسمعه ، وهكذا كان عبد الله منذ فتوته يجمع بين حس الفهم ودقة الجمع للاخبار ، وقام عبد الله بعمل آخر يتصل بالهجرة، وهو أنه خرج بأسرة أبى بكر ، وصحبهــا الى المـدينة (تاريخ الطبرى ٢/٤٠٠) .

ولقد كان عبد الله رجلا شاعرا ، صاحب أدب ورقة ، ومع ذلك كان عميق التفكير بعيد النظر ، ومما يدل على ذلك أنه اشترى الحلة التى أرادوا أن يكفنوا فيها النبى صلى الله عليه وسـلم بتسعة دنانير ، ثم عاد فتنبه الى

(١) تهذيب الاسماء واللغات ١/٢٦٢ والاصابة ٢/٢٧٤ .
(٢) التحفة اللطيفة ٢/٣٧٧ .
(٣) تاريخ الطبرى ٢/٣٧٦ .
(٤) النهــاية ٤/٣٦٦ .

أنهم لم يكفنوا الرسول بها ، فزهد فيها وقال : « لو كان فيها خير لـكفن فيها النبي صلى الله عليه وسلم »(١).

ويروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بردي حبرة ، حتى مسا جلده ، ثم نزعهما ، فأمسكهما عبد الله بن أبي بكر ليكفن فيهما ، ثم قال : ما كنت لأمسك شيئًا منع الله رسول منه ، فتصدق بهما » (٢) .

وهذا من عبد الله وعى دقيق عميق في فهم الاسلام ، فهو يحب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ويريد ليتبرك بأثر من آثاره ، وهو الثوب الذى كان سـيكفن فيه الرسول ، ولكنه يعـود فيرى ان الله تبارك وتعالى قد صرف عن تكفين نبيه بتلك الثياب ، وذلك لحكمة يعلمها الله سبحانه ، ولذلك قال : « لو كان فيها خير لكفن فيها النبى صلى الله عليه وسلم » .

ولم يتكل عبد الله على أنه ابن أبى بكر الصديق ، ثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وأول من آمن من الرجال ، والذى بذل فى سبيل الله ورسوله مابذل ، والذى يوزن ايمـانه بايمان هذه الامة . وكذلك لم يتكل عبد الله على أنه شقيق البطلة العظيمة أسماء ذات النطاقين ، بل قام بواجبه فى التعبد ، وفى الجهاد من أجل الاسلام ، فاشترك فى غزوة فتح مكة ، وغزوة حنين ، وغزوة الطائف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأصيب فى هذه الغزوة بسهم احتمله ، ثم انتقض عليه بعد ذلك فمات بسببه (٣). وعبر عنه المؤرخون بأنه مات شهيدا ، فقال السخاوى فى كتابه « التحفة اللطيفة » :

---

(١) التحفة اللطيفة ٢/٣٧٨ .

(٢) الاصـابة ٢/٢٧٥ .

(٣) الطبقات ٢/١١٤ القسم الاول

«قال الزبير بن بكار: قتل (يعني عبد الله) يوم الطائف شهيدا ، أصابه سهم فماطله ، حتى مات بالمدينة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

وغزوة الطائف كانت في شوال من السنة الثانية ؛وتوفي عبد الله بسبب السهم الذي أصابه في شوال من السنة الحادية عشرة ، وهذا يعطينا حكما يتعلق بالجهاد والاستشهاد ، وهو أن من أصيب في معركة من المعارك بجرح أو طعنة ، ثم ظل مدة قصيرة أو طويلة ، ثم مات بسبب هذا الجرح ، فانه يكون معدودا من الشهداء ، اذ لا يشترط أن يلفظ الشهيد أنفاسه وهو في الميدان .

وكانت وفاة عبد الله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين يوما ، وصلى عليه أبوه ، ونزل في قبره ، كما نزل معه عمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبد الله. وعبد الرحمن بن أبي بكر . رضوان الله على الجميع .

---

(١) التحفة اللطيفة ٢/٣٧٧ .

المجاهد الصادع بالقرآن
عبد الله بن مسعود

ان للاسلام العظيم موازين ترفع وتضع ، وهذه الموازين تعنى بالكيف قبل الكم ، وبالنوع قبل الحجم ، وبالمعنويات أكثر من عنايتها بالماديات ، فقد يكون الانسان قليل المال ، رقيق الحال ، ضئيل الجسم بين الرجال ، ومع ذلك يعلو فى نظر الاسلام ويسمو ، حتى يكون علما من الاعلام ، لأنه آمن ايمانا صادقا ، وجاهد جهادا كريما ، وآثر ما عند الله على ما عند الناس : « ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ، ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وهذا مثل على ذلك تقدمه مدرسة النبوة . انه الصحابى الجليل : أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود الهذلى (١) ، الذى كان من أسرة فقيرة رقيقة الحال ضعيفة المكانة ، لا تستطيع أن تدفع عن نفسها أذى المعتدين ولا بغى الظالمين ، وكان راعى غنم عند أحد المشركين المجرمين وهو عقبة بن أبى معيط .

ولكن الله أعز ابن مسعود بالاسلام ، فدخل فى دعوته مبكرا حتى قال : « لقد رأيتنى سادس ستة ما على

---

(١) أمه هى أم عبد بن عبدود ، أسلمت وهاجرت ، فهو صحابى وابن صحابية .

الارض مسلم غيرنا » . واحتمل نصيبه من المتاعب والمصاعب ، حتى هاجر الى الحبشة مرتين ، ثم هاجر الىالمدينة ، وتحمل نصيبه فى الجهاد والنضال، فاشترك فى غزوات : بدر ، واحد ، والخندق ، وبيعة الرضوان وسائر المشاهد ، واشترك ايضا فى معركة اليرموك ، وهو الذى أجهز على الطاغية الاثيم أبى جهل فى غزوة بدر .

وعقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام اراد أبو بكر تحصين المدينة ضد غارات المرتدين ، فوكل الى ابن مسعود حماية الجهات الضعيفة من المدينة ، فقام بذلك الواجب خير قيام ، وكان يحرص على الموت فتوهب له الحياة ، لحكمة يريدها الله ، وكان يردد قوله : « أشرف الموت موت الشهداء » .

وكان ابن مسعود عميق الحب والاخلاص لرسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، طاهر القلب ، نقى الروح ، كأنه مخلوق من النور ، ولذلك كان الرسول يأذن له فى الدخول الى بيته ، ويخلطه بنفسه ، ويقول له : « آذنك على أن ترفع الحجاب وتسمع سوادى (أى سرى) حتى انهاك » . ولذلك قال أبو موسى الاشعرى : « قدمت أنا وأخى من اليمن ، فمكثنا حينا لا نرى ابن مسعود الا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولزومه له » .

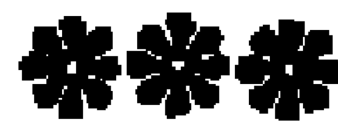
ويالها من مكانة سامية لا يفوز بها الا الاخيار الابرار ، الذين يصدقون فى الاخلاص لسيد الخلق ، ويستكملون الاهتداء به ، والاستضاءة بنوره ، ولذلك قيل لحذيفة : أخبرنا برجل قريب السمت والدل (أى الصورة والهيئة) والهدى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

مانعلم أحدا أقرب سمتا ودلا وهديا برسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن أم عبد ، ولقـــــد علم المحفوظون من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن ابن أم عبد أقربهم الى الله وسيلة (رواه البخارى) .

ويقول النووى فى « تهذيب الاسماء » عن ابن مسعود:

«كان من كبارالصحابة وساداتهم وفقهائهم ، ومقدميهم فى القرآن والفقه والفتوى . وأصحاب الخلق ، واصحاب الاتباع فى العلم » .

وقد روى ابن مسعود ما يزيد عن ثمانمائة حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جمع من كبار الصحابة والتابعين . وكان يتحرى فى الأداء ، ويشدد فى الرواية ، ويزجر أصـحابه عن التهـاون فى ضـبط الألفاظ .



ولـكن ابن مسعود كان قصير القامة ، ضئيـــل الجسم ، دقيق الساقين ، حتى عجب بعض النـاس من ذلك ، او سخروا به ، فقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه عن ساقيه الدقيقتين : « والذى نفسى بيـده لهما فى الميزان أثقل من جبل أحد » ، وشهـد له الرسول بالجنة ، وزاده تكريما بقوله : « تمسكوا بعهد ابن أم عبد » . ولم يقل الرسول ذلك محسوبية أو استثناء او ممالأة ، بل قاله تقـديرا ، وتذكيرا بأن المرء ليس ببدنه وجسمه ، ولـكنه بقلبه وعقله وفهمه ، وبدينه وأيمانه .

ولقـد كان لابن مسعود من هذه الجواهر الغوالى نصيب كبير ، فقد أسلم مبكرا ، ودعا مذكرا ، وجاهد مخلصـا ، وكان أول من جهر بتلاوة القرآن فى مكة ، فقد ذهب فى أول الدعوة الى الـكعبة ، ومن حولهـا

أهل الشرك والبغي ، ورفع صوته بآيات من كلام ربه، قيل انه قرأ جانبا من سورة الرحمن ، فسارع اليه المشركون يضربونه ويعـــذبونه ، ولكنه أحب هــذا الضرب وهــذا العــذاب فى سبيل الله ، ومضى على طريق الحق ، يتلقى الـكلمات الالهية النورانية من فم الرســول ، ويرتلها بصوت جميل أخاذ ، حتى قال : « أخذت من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة » (١) .

وكان يقول : « والذى لا اله غيره ، ما فى كتاب الله ســورة الا انا أعلم حيث نزلت ، وما من آية الا أنا أعلم فيما أنزلت ، ولو اعلم احدا هو اعلم بكتاب الله منى تبلغه الابل لركبت اليه » .

وفى الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابن مسعود يوما : اقرأ على القرآن ، فعجب ابن مسعود وقال : أقرأه عليك ... وعليك أنزل ؟ ... قال الرسول : انى أحب أن اسمعه من غيرى .. وبدأ ابن مسعود يقرأ فى سورة النســاء ، حتى بلغ قول الحق جل جلاله : « فـكيف اذا جئنا من كل أمة بشــهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تســوى بهم الارض ، ولا يكتمون الله حديثا » .

وهنا قال الرسول : حسبك ، فسكت ابن مسعود.

ورفع بصره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا عيناه تذرفان بالدموع .

وقال الرسول بعد أن سمع قراءة ابن مسعود : « من سره أن يقرأ القرآن غضا (أى طربا ناضرا لم يتغير)

---

(١) أنظر الطبقات لابن سعد ج ٢ قسم ٢ ص ١٠٤ ، وفى التحفــة اللطيفة للسخاوى أن ابن مسعود تلقى من فم الرسول سبعين سورة ج٣ ص ٤٨ .

كما أنزل ، فليقرأه قراءة ابن أم عبد » .

وقال أيضا : « خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ومعاذ ، وأبى بن كعب » .

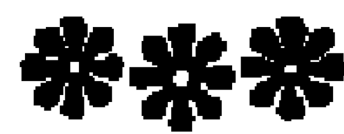
والى جانب هـذا كان ابن مسعود اذا هدأت العيون بالليـل يقوم متهجدا متعبدا ، فيكون له دوى كدوى النحل حتى يصبح (١) .

وكان عبد الله يحفظ حرمة القرآن وآدابه ، وهو القائل كما ذكر الغزالى فى « الاحيـاء » :

« ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله اذا النـاس ينامون ، وبنهاره اذا الناس يفرطون ، وبحـزنه اذا الناس يفرحون ، وببكائه اذا الناس يضحكون ، وبصمته اذا النـاس يخوضون ، وبخضوعه اذا الناس يختالون »

وينبغى لحامل القرآن ان يكون مستكينا لينا ، ولا ينبغى ان يكون جافيا ولا مماريا ، ولا صـياحا ، ولا صخابا ولا حديدا » (٢) .

ويالها من عظة تحوى جلائل الآداب التى يتحلى بها الصفوة من أهل القرآن ، وليت هذه العظة توضع أمام قراء القرآن المجيد ، ليتخذوا منهـا نبراسا يضىء لهم الطريق الى حمى الحق تبارك وتعالى .



وأخذت الايام تمضى ، وابن مسعود على طريق الحق يسير ، فأخلص للرسول الاخلاص كله ، ثم تابع اخلاصه لابى بكر خليفة رسول الله ، ثم تابع الاخلاص للخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، وكان عمر يجل ابن مسـعود وينوه بمكانته ، ويردد قوله عنه : « كنيف (أى وعاء)

(١) ولم يمنعه هذا أن يحرص على التعطر بالطيب الجميل ، حتى روى ان الناس كانوا يعرفون ابن مسعود اذا مر عليهم برائحته الطيبة ، وان لم يروه .

(٢) الاحياء ج ١ ص ٢٦٠ طبعة بولاق .

مليء علما » .

ولقد أرسله عمر مع عمار بن ياسر الى الكوفة ، ليكون عمار أميرا ، ويكون ابن مسعود وزيرا ومعلما ، وقائما على بيت المال ، وكتب عمر الى أهل الكوفة يقول : « بعثت اليكم عمارا أميرا ، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ، وهما من النجباء ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أهل بدر ، فاقتدوا بهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي » .

***

وكانت له كلمات روائع ، ينبغي ان تروى وترددها الالسنة ، وتعيها القلوب .

من كلماته : « انما هذه القلوب أوعية ، فاشغلوها بالقرآن ، ولا تشغلوها بغيره » .

ويقول : « والله الذى لا اله غيره ما يضر عبدا يصبح على الاسلام ويمسى عليه ما أصابه فى الدنيا » .

ومن كلماته : « الاقتصاد فى السنة أفضل من الاجتهاد فى البدعة » .

ومن كلماته : « انى لامقت الرجل أن أراه فارغا ، ليس فى شيء من عمل الدنيا ، ولا من عمل الآخرة » .

ومنهـــا : « خير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، وشر العمى عمى القلب ، وأعظم الخطايا الكذب ، وشر المكاسب الربا ، وشر المآكل مال اليتيم ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يغفر يغفر الله له » .

ومنها : « اذا كان الامام عادلا ، فله الاجر وعليك الشكر ، واذا كان جائرا ، فعليه الوزر وعليك الصبر »

ومنها : « من كان كلامه لا يوافق فعله فانما يوبخ نفسه » .

وكان يقول : « حدث القوم ماحدجوك بأبصارهم».
ويقول : « انى لاحسب الرجل ينسى العلم بالخطيئة يعملها » .

وكان بارعا فى الافتاء اذا سئل .

سأله سائل : يا أبا عبد الرحمن ، ان لى جارا يربى (أى يقرض بالربا) وما يتورع عن شأن أصابه ، وانى أعسر فأستسلفه (أحتاج فأقترض منه) ويدعونى فأجيبه ؟

فقال له : كل ، فلك مهنؤه ، وعليه وزره (١) .

***

ومما يرفع قدر ابن مسعود، ويزكى سيرته ، انطائفة من الصحابة كانوا فى مجلس الامام على ، فقالوا :

يا أمير المؤمنين ، ما رأينا رجلا كان أحسن خلقا ، ولا أرفق تعليما ، ولا أحسن مجالسة ، ولا أشد ورعا ، من عبد الله بن مسعود .

فقال الامام : نشدتكم الله أهو صدق من قلوبكم ؟

قالوا : نعم ...

قال : « اللهم انى أشهدك ، اللهم انى أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل ، لقد قرأ القرآن ، فأحل حلاله ، وحرم حرامه ، فقيه فى الدين ، عالم بالسنة » .

***

ولما كانت لكل بداية نهاية ، وكان مصير كل انسان الى الموت ، فقد مرض عبد الله بن مسعود فى عهد عثمان بن عفان ، وذهب عثمان ليعوده ، فقال له : ما تشتكى ؟ ...

فأجاب ابن مسعود : ذنوبى ! ...

فقال عثمان : فما تشتهى ؟ ...

---

(١) عيون الاخبار ، ج ١ ص ٣٤٢ .

فأجابه : رحمة ربى ...
فقال عثمان : ألا آمر لك بطبيب ؟ ..
فأجاب : الطبيب أمرضنى ...
فقال عثمان : ألا آمر لك بعطاء ؟ ...
فأجاب : لا حاجة لى فيه ...
فقال عثمان : فيكون لبناتك ؟ ...
فأجاب ابن مسعود : أتخشى على بناتى الفقر ؟ ... انى أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
«من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا»
ولا عجب أن يقف ابن مسعود هذا الموقف فهو القائل ضمن عظة له :
« خير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى » .
وهو الذى كان يردد الدعاء بهذه الكلمات :
« اللهم انى أسألك ايمانا لا يبيد ، ونعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، ومرافقة النبى صلى الله عليه وسلم فى أعلى جنة الخلد » .
وتوفى ابن مسعود سنة اثنتين وثلاثين .



يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .
هكذا يكون أحرار الرجال وخيار الابطال ، الذين استضاءوا بنور ربهم ، وآثروا ما عنده على ما عند الناس ، وصدقوا نبيهم ، وأخلصوا له فحرصوا على طريقته ومنهاجه ، وصانوا تراثه بقلوبهم وعقولهم وأيديهم ، وعلموا الدنيا ان موازين الله لا ترجح كفتها بثقل اللحم والشحم ، ولا بضخامة الطول والعرض ، وانما ترجح بالايمان والعمل الصالح : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الالباب » .

المجاهد طويل العمر

أبو أمامة صدى بن عجلان الباهلى

ما أعجب شأن الانسان فى هذه الحياة ، لقد يحرص على الدنيا فتفر منه وتعرض عنه ، ولقد يزهد فيها ويصد عنها ، فتقبل عليه ، وتتزين له ، ولقد يخشى الانسان الموت ويحذره ، فيأتيه الموت عاجلا عن يمين أو شمال ، ولقد يرحب بالموت فيفر منه ويتأبى عليه.

ومن هذه العبرة العملية الواقعية التى تطالع البشرية فى كثير من الاحيان وعديد من الجهات نفهم ـ بتوجيه الاسلام العظيم ـ ان هناك أمرين جعلهما الحق تبارك وتعالى مفتاح العزة والسيادة ، هما عدم الحرص على متاع الدنيا ، وعدم الخوف من الموت ، وأن هناك أمرين جعلهما طريق الذلة والصغار ، هما : حب الدنيا ، وكراهية الموت .

ولذلك قال سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه :

« يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة الى قصعتها » .

قالوا : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟

قال : بل أنتم حينئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن .

قالوا : وما الوهن يارسول الله ؟
فقال : حب الدنيا ، وكراهية الموت .

ولو رجعنا الى السيرة العطرة لرسول الله وأصحابه لوجدناه قد ربى من حوله رجالا أبطالا ، زهدوا فى متاع الحياة ، فتكاثر ذلك المتاع من حولهم وتزين لهم ، وأحبوا الموت فى سبيل الله ، فأبقاهم ربهم طويلا فى دنياهم ، ليواصلوا مسيرتهم على طريق النضال والجهاد ، ثم يختم الله لهم بعد حين أو أحيان بخاتمة الوفاء والفداء : « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .



وهذا واحد من هؤلاء ، يطول به العمر ويمتد أمامه الاجل ، حتى يتجاوز مائة سنة ، ليقدم فى سبيل ربه ودينه وقومه ما يقدم من أعمال طيبات ، وباقيات صالحات ، فيكون اه حميد الذكر وعظيم الاجر عند من لا يضيع أجر من أحسن عملا .

انه الصحابى المجاهد والمؤمن العابد ، أبو امامة صدى بن عجلان بن وهب الباهلى السهمى ، وسهم بطن من باهلة ، وباهلة هم بنو مالك بن أعصر ، نسبوا الى أمهم باهلة (١) .

وقد أسلم صدى وأحسن صحبته للرسول، وأخلص جهاده لله ، وصدق فى نضاله من أجل الاسلام ، فأعزه الرسول وأحبه ، حتى يروى انه لما نزل قول الله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا » .

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٠٠ طبعة التجارية .

قال صدى للرســـول كأنه يستبشر بفضل الله عز وجل : يا رسول الله ، أنا ممن بايعك تحت الشجرة .

فرد عليه قائلا : أنت منى وأنا منك (١) .

فطار بها أبو امامة فرحا ، وكأنه قــد حيزت له الدنيا بحذافيرها .

كما يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل الى الجهاد كتيبة كان فيها أبو امامة صــدى بن عجلان ، فأقبل صدى قبيل التوجه الى المعركة وقال للرسول :

ــ يارسول الله ، ادع لى بالشهادة .

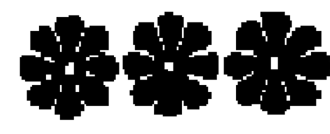
فقال الرســول : اللهم سلمهم وغنمهم (٢) أى أكتب لهم السلامة والغنيمة ، وكأن الرســول صــلوات الله وسلامه عليه قد دعا بذلك ليبقى أمثال هؤلاء الرجال الابطال زمنا يكتبون فيه بجهــودهم وجهــادهم صحائف العزة والمجد .

وقد استجاب الله تعالى دعاء رســوله صلى الله عليه وسلم ، فبقى أبو امامة فى الحياة فوق المائة من السنين ، وكان عند ظن الرسول به ، فواصل النضال فى مواقف التضحية والاقدام .

وشــهد فيما شــهد غزوة اليرموك مع عبــادة بن الصــــامت (٣) وجاهد مع الامام على رضى الله عنه فى غزوة صفين (٤) ، وفى عهد الامويين ذهب صدى الى أرض فلسطين ــ ردها الله على العرب والمســلمين ــ ليهاجم جمع الروم الذى اجتمع فى « العربة » من أرض

(١) الاصابة ج ٢ ص ١٧٥ .
(٢) الاصابة ج ٢ ص ١٧٦ .
(٣) النهاية فى غريب الحديث ج ٥ ص ٢٠٨ .
(٤) أسد الغابة المجلد الثالث ص ١٦ طبعة دار الشعب .

فلسطين . فقام أبو امامة بذلك وصاحبه التوفيق ، بفضل الله عز وجل .



وبجوار بطولة صدى فى ميدان القتال والنضال كان بطلا فى الفقه والعلم ، فأكثر الرواية للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى روى عنه مائتين وخمسين حديثا ، وقد روى عن غيره من الصحابة .

وقد روى الحديث عن صدى كثير من الاعلام .

جاء فى « تهذيب الاسماء واللغات » عن أبى امامة الباهلى :

روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتا حديث وخمسون حديثا ، وروى البخارى له منها خمسة ، ومسلم ثلاثة ، روى عنه رجاء بن حيوة ، وخالد بن معدان ، ومحمد بن زياد ، وسليمان بن حبيب ، وسليم بن عابر ، وشرحبيل بن مسلم ، وشداد أبو عمار ، وأبو سلام ممطور الحبشى ، والقاسم أبو عبد الرحمن الدمشقى ، وسالم بن أبى الجعد ، وأبوادريس الخولانى ، وغيرهم (١) .

ومن الاحاديث التى رواها أبو امامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجب علينا أن نتذكرها ونتدبرها ونديرها على ألسنتنا وقلوبنا وعقولنا قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« لا يعذب الله قلبا وعى القرآن » أى عقله ايمانا به وعملا بمقتضاه ، وتأثرا بمعناه ، وخضوعا لارشاده وهداه ، وأما من حفظ القرآن ، وضيع حدوده ، فانه لا يكون واعيا له (٢) ، وبذلك لا يستحق ذلك الوعد

---

(١) أسد الغابة المجلد السادس ص ١٧ طبعة دار الشعب .
(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٠١ .

الالهى العظيم الكريم : « لا يعذب الله قلبا وعى القرآن » .

وتحدث صدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لم ار رسول الله صلى الله عليه وسلم من شيء اشد خوفا على هذه الامة من الكذب والعصبية ، الا واياكم والكذب والعصبية ، الا وانه أمرنا أن نبلغكم ذلك عنه ، الا قد فعلنا فأبلغوا عنا ما أبلغناكم » (١) .

وكذلك روى عن الرسول قوله :

ـ أكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة : اذا حدث أحدكم فلا يكذب ، واذا اؤتمن فلا يخن ، واذا وعد فلا يخلف ، وغضوا ابصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم (٢) .



وظلت الايام تمر ، والاعوام تكر ، وانتقل أبو امامة صدى بن عجلان الى الشام ، وسكن فى مدينة حمص مرقد البطل الفاتح سيف الله المسلول ، خالد بن الوليد ، وظل صدى يجاهد ويناضل يمينا وشمالا ، قريبا وبعيدا ، حتى جاءت سنة ست وثمانين للهجرة فقضى ربك أن يلقاه فيها عبده الصالح الفاضل ، المجاهد المناضل : ابو امامة صدى بن عجلان الباهلى.

وهناك فى قرية من قرى حمص تسمى « كفر نفد » رقد البطل الذى تمنى الشهادة فى شبابه فأبتها عليه الاقدار ، ليبقى مجاهدا مجالدا ، حتى يتجاوز المائة بست سنوات ، ليشيب شيبته الجليلة فى الاسلام ، فتكون له خير وسام يوم لقاء الله عز وجل .

(١) الاعلام ج ٣ ص ٢٩١ .
(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤٠٦ .
(٣) تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١٧٦ .

إمـــام الـفـدائيـــين
ســـــيدنا رســـول اللـــــه
صلى الله عليه وسلم

اذا كانت جوانب القدوة والاسـوة فى رسـول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة غزيرة ، فمن اللائق بنا ان يشغلنا جانب التضحية والفداء فى شخص الرسـول سيد المجاهدين وامام الفدائيين ، فانه الذى قال له ربه :

« يا أيها النبى جاهد الـكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

وقال له :

« فلا تطع الـكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا » .

والرسـول صلى الله عليه وسلم الذى جعـله ربه سبب الرحمة ، ودليل النعمة ، هو الذى يقول :

« انا نبى الملحمة » اى المعركة الشديدة ، ويقول :

« انا رسول الملاحم » .

ويقول : « نصرت بالرعب » .

ويقول : « انا اذا نزلنا ساحة قوم فساء صبـاح المنذرين » .

ولله در أمير الشـعراء احمـد شـوقى اذ يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم مصورا شجاعته فيقول :

واذا غضـبت فانما هى غضبـة
فى الحق ، لا ضغن ولا بغضاء

الحـــــرب فى حق لديك شريعـــة
ومن الســـــموم النافعــات دواء
الخيل تأبى غير أحمـــــد حاميا
وبها اذا ذكر اسمه خيـــــلاء
شيخ الفوارس لو يعلمون مكانه
ان هيجت آســـــــادها الهيجاء
واذا تصـــــدى للظبـــا فمهند
أو للرماح فصـــــــعدة ســـمراء
واذا رمى عن قـــوسه فيمينــــــه
قدر ، وما ترمى اليمين قضاء
من كل داعى الحق همة سيفه
فلسيفه فى الراسيات مضاء (١)



وحينما جاهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم جهاده الطويل الـكبير ، لم يجاهد لشهرة أو شهوة أو عصبية ، وانما جاهد فى سبيل الله ، ومن أجل الحق وحده ، ولقد اكد أن حياته الشريفة وقف على رسالته، يعيش لها ويفنى من أجلها ، ولا يقبل فيها مساومة أو مداهنة أو مهادنة ، فقال :

والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الامر ، ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه » .

وحمل روحه الطاهرة الزكية على كفه التقية النقية، وخرج بها الى ساحات النضال ، يتقرب بها الى مولاه ، ويقول :

لولا أن أشق على أمتى ما قعـــــدت خلف سرية ،

(١) ضغن : حقد ، والناقعات : القاتلات ، والظبا : جمع ظبة وهى حد السيف . والصعدة : القناة المستوية والرمح ، والراسيات : الجبال

ولوددت أن أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل .. » .

ولقد مر وهو الرءوف الرحيم على جمع من المشركين ، وهو فى طريقه الى عبادة ربه ، فغمزوه وسخروا منه مرة بعد أخرى وهو يحتمل ، ثم يحتمل ، فلما طفح الكيل ، وأسرفوا فى اجرامهم ، أقبل عليهم ، وقال لهم مهددا متوعدا :

أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح . ولما كانوا قوما لا يستحون ، ولكنهم يخافون ، فقد هابوه من شدة ما رأوه فى ملامحه من أصرار على التضحية والفداء ، حتى قالوا له :

انصرف يا أبا القاسم راشدا ، فوالله ماكنت جهولا .

ثم يزداد اجرام الطغاة البغاة حتى يرتضوا لانفسهم اللئيمة الوضيعة أن يتمالئوا جميعا على قتله وهو فرد ، فيأمره مولاه سبحانه بالهجرة ، وفى طريقها يدخل مع صاحبه الغار ، ويتبعهما الكفرة الفجرة حتى يبلغوا باب الغار ، وهنا يقول له صاحبه مشفقا عليه :

ـ يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر الى موطىء قدميه لرآنا ، فتتجلى من الرسول روح الثقة بالله ، والاقبال عليه ، فيقول : « يا أبا بكر ، ماظنك باثنين الله ثالثهما ، يا أبا بكر ، لا تحزن ان الله معنا » .

ويخلد القرآن هذا الموقف أكرم تخليد فيقول فى سورة التوبة :

« الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه : لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ،

وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » .



وكان النبى المجاهد المسارع الى مواطن التضحية والفداء يتقدم الصفوف فى الوغى ، ولا يرتضي لنفسه الاتقاء بها من خلفها ، وكأنه يريد أن يقول لاتباعه وجنوده : اتبعونى من ورائى وأنا أمامكم وفى طليعتكم ، ولا يقول لهم : تقدموا وانا خلفكم أو من ورائكم ، فهو يبدأ بنفسه كما علمه ربه :

« قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

ولذلك قال الامام علي يصور فدائية الرسول صلى الله عليه وسلم واقدامه :

« كنا اذا حمي البأس (يعنى شدة الحرب) أتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب منه الى العدو ، ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ، وهو أقربنا الى العدو ، فكان يومئذ أشدنا بأسا » .

وفى غزوة احد كان النبى يرى عدم الخروج، والاكتفاء بموقف الدفاع داخل المدينة ، ولكن الاكثرية طالبت بالخروج فاستجاب لرأيها ، وارتدى ملابس القتال ، وخرج بلا تردد أو ابطاء ، وحينما أرادوا أن يغيروا رأيهم ، تجلى منه العزم الاكيد والتصميم الوطيد على المعركة ، وقال :

« ما كان لنبى اذا لبس لأمته (درعه أو سلاحه) أن يضعها حتى يقاتل ، ويحكم الله بينه وبين عدوه» .

ويمضي الى المعركة شجاعا أبيا ، مستعدا للاستشهاد، حتى يقول للرماة يومئذ :

« ان رأيتمونا تخطفنا الطير (١) فلا تبرحوا مكانكم هذا ، حتى أرسل اليكم ، وان رأيتمونا هزمنا القوم فلا تبرحوا ، حتى أرسل اليكم » .

وحينما وقع الاضطراب يوم أحد ، وبدأت حركة الفرار الخطيرة بسبب الوطأة الشديدة فى المعركة لم يتزلزل الرسول ولم يتبلبل ، بل أخذ ينادى الفارين قائلا :

« يا عباد الله ، من كر فله الجنة » .

وبقى يجالد ويطاعن ، حتى تمزقت قوسه شظايا ، وما تقهقر ولا انكسر ، برغم الجراح التى أصابته ، والدماء التى سالت منه ، ويصور المقداد ذلك الموقف الرائع بقوله :

« فوالله الذى بعثه بالحق ، ما زلت قدمه شبرا واحدا ، وانه لفى وجه العدو ، تفىء اليه طائفة من اصحابه مرة ، وتفترق عنه مرة ، وهو قائم يرمى عن قوسه ، ويرمى بالحجر ، حتى انحازوا عنه » .

وحينما انتهت المعركة ، وعاد النبى الى بيته ناول سيفه لابنته فاطمة قائلا لها :

ـ اغسلى عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدقنى اليوم .

وفى غزوة الحديبية ، وحينما يحس النبى بتعنت المشركين وتطاولهم ، يقول :

ـ لابد أن نناجز القوم .. ثم يقول :

« والله لاقاتلنهم على أمرى حتى تنفرد سالفتى » . (أى حتى تنقطع رقبتى) .. والسالفة هى صفحة العنق ، وهما سالفتان ، من جانبين ، وكنى بانفرادها عن الموت ، لانها لا تنفرد عما يليها الا بالموت .

(١) أى تسقط قتلى وتأكل الطيور أجسامنا .

وقيل : أراد حتى يفرق بين رأسى وجسدى .

فهو مستعد للفداء على أروع ما يكون الفداء ، وهو الموت بقطع الرقبة . وحينما حدثت المحنة القاسية فى غزوة حنين التى يقول فيها القرآن المجيد فى سورة التوبة :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الارض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » .

وانكسر الاتباع من حوله ، ظل راسخا كالطود ، ثابتا كالخلد ، وجعل ينادى فى طمأنينة المؤمن :

أنا النبى لا كذب ، انا ابن عبد المطلب ، أيها الناس ، هلموا الى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله .

وجعل يقول للعباس : يا عباس ، اصرخ : يا معشر الانصار ، يا معشر أصحاب الشجرة ... ويظل النداء يتردد ، ويجلجل فى ساعة الهول حتى يأتى الجواب من انصار الحق وأتباع الايمان ، قائلين : لبيك ، لبيك، ويعود التماسك من جديد الى الكتائب المجاهدة فى سبيل الله عز وجل .

ان القائد هو روح جنوده ، وان الرائد هو مصباح أتباعه ، ولقد كان سيد الانام محمد خير قائد ، وأصدق رائد ، فاذا اردنا أن ندخل الرضا على روحه الشريفة فلنتخذ منه فى الجهاد قدوة واماما .

فهـــرســـت

كتاب الهلال القادم

العسكرية المصرية
فوق سيناء

بقلم : حمدى لطفى

يصدر ٥ أكتوبر ١٩٧٦
عدد خاص الثمن ٢٥ قرشا

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

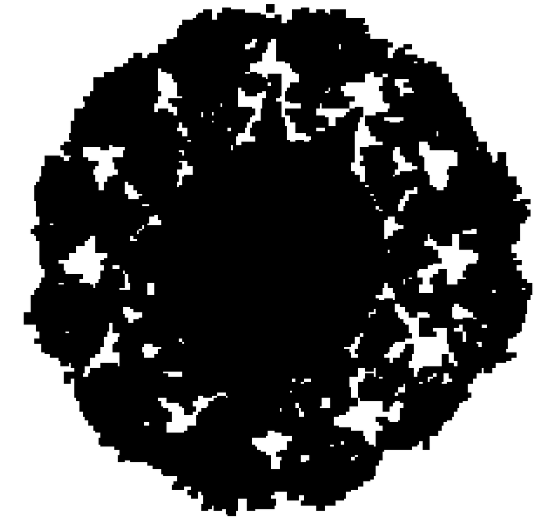
جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Blakopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Marco, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتـــاب

ما قيمة الحياة البشرية اذا لم يأخذ بزمامها مبدأ كريم ، ولم يحصن جوانبها ايمــــان عميق ، ولم يعمر ساحتها نضـــال من اجل الحق موصول ؟ •

وما قيمة الانسان اذا لم يصنع فى حياته خيرا ، أو لم يقدم بين يديه ذخرا ، أو لم يخلف من ورائه ذكرا ؟ •

وتراثنا الروحى والتاريخى يضم فى اعماق اعمـــاقه سيرا مجهولة ـ وان كانت رائعة جليلة ـ لاوناس باعوا لله انفسهم ، واشترى منهم خالقهم هذه النفوس الكريمة باغلى الاثمـــان ، وهو الخلود فى نعيم الجنان ، فلاقوا ربهم وهم على طريق الحق واليقين •

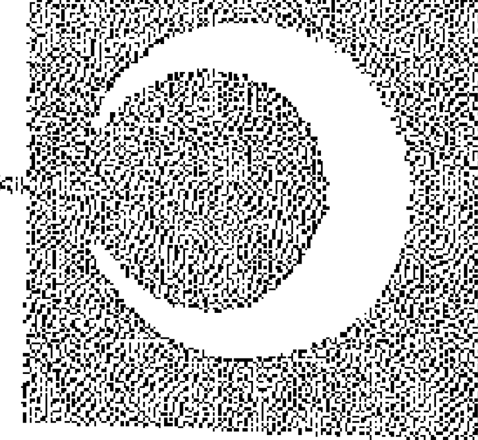
والامة فى اشد الحاجة الى الارتشاف الدائم من هذا الينبوع الطهور لتقوى منها العزائم ، وتسمو الارواح •

وقد واصل فضيلة الدكتور احمد الشرباصى خطواته فى هذه المسيرة ، بحقائق المؤرخ العالم ، وبيان الكاتب الاديب ، فاضاف الى موسوعته فى الفداء والوفاء صرحا جديدا وركنا عتيدا من نماذج البطولات ، وروائع العبقريات التى جلاها السلف الخالد والاباء الاماجد فى ميادين الايمان والاقدام والتضحية ••

وحين ينضم هذا الكتاب الى اخويه « بين الوفاء والفداء » و « رجال صدقوا » ، والى اخوة لهم آخرين ، تزداد هذه الموسوعة عمقا وافقا ، مما يفتح الابصار والبصائر على الزاد الاصيل الجليل للعقول والقلوب

١٢ قــرشـــا

كتاب الهلال



سلسلة ثقافية شهرية

العسكرية المصرية فوق سيناء

حمدى لطفى

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

العدد ٣١٠ – شوال ١٣٩٦ – اكتوبر ١٩٧٦

No, 310 October 1976

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : «١٢ عددا» فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا • فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية أو ٢٫٥ جك – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاة بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشة
الفنـــان جمال قطب

حمدى لطفى

العسكرية المصرية فوق سيناء

دار الهلال

تقديم
بقلم يوسف السباعي

في الصــــحافة المصرية مجموعة قليلة من الشباب ارتبطت بقواتنا المسلحة ارتباطا وثيقا صادرا من أعماق أرواحهم وعقولهم ، فأعطـوا العمل الصحفي العسكري صياغات جديدة ارتفعت بهذا القطاع من مهنة الصحافة الى انضج المستويات على المستوى الوطني ، كما قدمت لجماهير شعبنا نشاط وجهود أبناء قواتنـا المسـلحة وانجازاتهم في ارقى وأرفع صورها عبر ميادين التدريب والقتال .

واحد من هؤلاء رأيته أول مرة وانا أعد مع زملائي مجلة « الرسالة الجديدة » وكانت تجاور في حجراتها حجرات مجلة التحرير عام ١٩٥٥ حيث ضمت حمدي لطفي من أقدم المحررين العسكريين في مصر ، وأذكر انني هنأته عام ١٩٥٤ على مقال كتبه عن الجيش الثائر حين يقوم بمناوراته الحربية ...

ومضت الاعوام ، وكنت أتابع كل مايكتب عن قواتنا المسلحة وخاصة مايكتبه حمدي لطفي في حرب ١٩٥٦ وحرب اليمن ، ثم حرب ٦٧ حتى فوجئت به عام ١٩٦٨ يكتب مستندا الى وثائق عسكرية حقيقة ما دار في هذه الحرب فوق سيناء ، ويشرح كيف أن الصورة لم تكن قاتمة شديدة السواد، بل تخللها قتال يفوق قدرات البشر

ومعـــارك خاضها بعض جنـودنا الذين قـدر لهم ان يصطدموا بالعـــدو ، وكبـــدوه أقصى ما يمكنهم من خسائر ، وروى بالتفصيل الدقيق المعارك الانتحـارية البطولية التى قام بها طيارونا طوال الايام الستة مبرزا معاركهم يوم ١٤ يوليو التى دفعت اسرائيل الى الصراخ والاستنجاد لأول مرة بالأمم المتحـــدة متنقلا بالشرح والاستفاضة بين كثير من المعارك الفرعية التى خاضتها بعض وحدات المشـــاة والمدرعات والمدفعية فى سيناء ، ومنها ما عكف العـــدو على دراستها مثل معركة جبل لبنى ، وقد أثبت المقاتل المصرى خلالها كفاءته وتفوقه واقتداره على الحاق الهزيمة بالعدو الاسرائيلى المتفوق بالطيران والسيطرة الجوية والمعدات الارضية الاحـدث تكنولوجيا والـكترونيا .

وقد كتب هذه المقالات عام ١٩٦٨ ، وكانت كلمـات أشبه ببارقة أمل وسط ظلام المرحلة التى عشناها .

وبدأت مرحلة جديدة من الصراع المسلح مع العـدو الاسرائيلى عام ١٩٦٩ وهى مرحلة ما أطلق عليهـــا الردع وحرب الاستنزاف ثم الدفاع النشط ، وقامت بعض الوحدات العســـكرية المصرية بالعبور الى سيناء وقاتلت دوريات العـــدو ، ثم عادت مرة أخرى الى قواعدها بالضفة الغربية ، تدريبا على العبور الشـــامل يوم يتقرر هذا اليوم .

وعاش المؤلف طيلة هـــذه السنوات والقتال مستمر يوميا بين طائراتنا وطائرات العدو ومدفعياتنا وقواعد صواريخنا وطائرات اسرائيل ، وبين مدفعياتنا الميدانية ومدفعيات العدو وكان للبحرية معـاركها أيضـا عام ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠ عاش الصحفى بجبهة القناة ينقل الى القراء أبعاد هذه المعارك المشتركة .

وحين عهد لى الرئيس أنور السادات رئاسة مجلس دار الهلال ورئاسة تحرير مجلة المصور جاءنى حمدى لطفى وكان يعمل محررا عسكريا للمجلة عارضا نشاطه طالبا رأيى ثم موافقتى على استمراره فى الكتابة من خلال هذا الخط الانسانى ــ العسكرى حتى تقوم الحرب.

وأبديت له تحمسى وتشجيعى لهذا اللون من التحقيقات الصحفية وأذكر أننى أستعنت ببعض معلوماته التى أوردها فى كتاباته عن معارك شدوان وأنا أكتب قصتى الاخيرة « العمر لحظة » .

ورفع الرئيس السادات شعار « الصبر والصمت » من أجل المعركة ، وبقى المؤلف يكتب عن الفطنة والابتكار لدى المقاتل المصرى والعلماء العسكريين ، وعن الابداع فى استخدام الاضافات التى وضعها المقاتل العالم فوق المعدات الحديثة ، وعن صهر المهارات فى برامج التدريب والمناورات ، وعن العمل الجسور الجرىء الذى يقوم به أبناؤنا بجانب مدافعهم أو داخل طائراتهم ودباباتهم أو فوق قطعهم الحربية أو عبور قناة السويس الى الضفة الشرقية استطلاعا فى عمق سيناء.

وأذكر انه جاءنى فى منتصف عام ١٩٧٢ ، وقد أعد كتابا فريدا عن القائد الاعلى للقوات المسلحة الرئيس محمد أنور السادات وقال لى انه يؤمن عن معايشة ميدانية لجولات السادات بين جنوده ، بأننا سندخل بقيادته معركة جدية ، وان النصر سيكون حليفنا بمشيئة الله ، واختار لكتابه عنوانا مثيرا فى تلك الايام من عام ١٩٧٢ « أنور السادات قصة ايمان بالعسكرية المصرية » وطلب منى أن اكتب مقدمة للكتاب ، ففعلت عن طيب خاطر ، وأحسست به يتنبأ مؤكدا وليس مؤملا بقيادة السادات لمسيرة النصر ، فقد كتب فى احدى صفحاته يفسر لماذا

أصدر هذا الكتاب عام ١٩٧٢ ، والجماهير تشعر بأنه لا أمل فى الحـــرب واسترداد سيناء بينما كان الرئيس السادات يقوم بخدعته الكبرى باذلا جهده حتى الحـد الأقصى فى اعداد القـــوات للحرب

وجاء يوم العاشر من رمضان ــ ٦ اكتوبر الخالد على مدى التاريخ وحققت قواتنا المســلحة أشرف وأرقى حروبها ، وتابعت كل ما يكتب عن المعركة ، وتوقفت أكثر من مرة عند رسائل حمدى لطفى الصحفية ، يكتبها من سيناء ، ومن قواعدنا الجوية والبحرية وعن دور كل سلاح مبرزا الجوانب العلمية العســكرية فى المعركة ، والبطولة الفردية فى الضباط والجنود ، والوعى القيادى بين القادة ، عارضا بأسلوب بسيط سهل قيمة وحجم وتفاصيل كل معركة فى البر والجو والبحر محييا بكل الاكبار والخشوع أعظم الشهداء صناع المجد البطولى العسكرى المصرى الذى حققته قواتنا المسلحة فى حرب أكتوبر .

ان حرب رمضان هى حرب الشعب المصرى بأكمله ، ولقد أعطاها كل ذخائره وبقى ينتظر ليشهد شريط نضال أبنائه وتضحياتهم فوق صـــفحات كتاب ، أو فيـلم سينمائى ، يروى بكل أمانة للأجيـــال القادمة ملحمة أكتوبر الشامخة ، الوسام الذى يتحلى به صدر كل عربى قبل المصرى ، فقد استرد العرب بها كما استرد المصريون ، ثقتهم فى أنفسهم وفى قدراتهم وفى طاقاتهم ، وأخيرا فى عملاقهم المقاتل المصرى ، الباقى دواما صامدا كالصخر ، فياضا بالشجاعة والكفاءة ، ما ضعفت أبدا صلابته ، وما وهن عنـــاده ، وما ضاعت كبرياؤه ، وما استسلم على الاطـــلاق ، وما توقفت معاركه عبر التاريخ ...

« يوسف السباعى »

٧ أكتوبر فجرا

أنا بتكلم من سينـاء . . .

أمسكت بجهاز التليفون الميدانى وأنا فوق رمال سيناء ـ فى موقع هجومى ـ وتحدثت مع جندى من قواتنا فى الضفة الغربية ..

وناداني الجندى : ماذا تريد ؟

ولم أستطع أن أرد عليه .. تلعثمت وأصابتنى رعشة برد كأننا فى يناير وجف حلقى ، ثم امتـلأ فمى بالدموع وبصعوبة قلت له :

ـ اننى أكلمك من سيناء .

وقال الجندى :

ـ اننى أعرف هذا .. ماذا تريد ؟

ـ لا شيء اننى أكلمك من سيناء ، ألا يكفى هذا ؟

وشعر الجندى باضطرابى فقال مهدئا :

ـ اطلبنى وقتما تريد .

سيناء ولا شيء غيرها

كان أرض العالم كلها قد ضاقت أمام جنودنا وأمامى ، فأصبحت فى عيوننا ، فى قلوبنا ، فى خيالنا « سيناء » فقط ولا شيء غيرها ..

سيناء لم تعد أسيرة ـ لقد عبر الرجال اليها فى ساعة تاريخية خالدة محفورة فى تاريخ العسـكرية المصرية ،

ساعة حققت عنصر المفـــاجأة الكاسحة القاتلة فأعطت لقواتنا امكانيات السيطرة على مسرح القتال حين فتحوا نيرانهم من كل جانب ، حتى اشتعلت الارض أمامهم ، بل تحت أقدامهم ، وهم ينتقـــلون من مرحلة الأخرى ، يتدرجون بقتالهم أنبل وأشرف القتال ..

لحظات لا تجد لهـــا وصفا ، ولا تبلغ الكلمة العربية قمتها على الاطلاق ، لحظات تشعر بها فجأة وقد أشحنت الروح بمشاعر جليلة سامية ، حين تتدفق وحداتنـــا الضاربة بكامل أسلحتها المدرعة والميكانيكية عبر الجسور والمياه من الضفة الغربية الى سيناء .

ويدور القتال أكثر ضراوة وأشـــــد عنفا ، وأقوى اقتدارا ، وكفاءة . والنيران تنهال كالسيول ، ومعنويات رجالنا تناطح السماء ، وهتافاتهم تدوى عبر الصحراء .. الله واكبر الله واكبر .. منصورة يا مصر ..

عندما كان سلاح المهندسين يقيم الكبارى بين الضفتين كان الفلاحون بالقرى المواجهة للضفة الغربية ينزلون الى الماء حاملين المعـــــدات والآلات بجانب اخوانهم الجنود والمهندســـين ــ والنســـــاء أمام أبواب بيوتهن يطـلقن الزغاريد ..

ان الفلاحين ، أبناء ذلك الرائد العظيم ، أبناء الريف المصرى ، نبع الرجولة والشجاعة والاصالة المصرية ــ هم أول من شاهدوا اللحظات الخالدة لبدء الهجوم ، انها لحظات أكثر أهمية وخطورة من الهجوم نفسه ــ وعليها ــ على دقة التنفيذ للمخطط العسكرى المصرى ووضوح الرؤيا ، ونقاء الفـــكر ــ توقفت نتيجة أول موجة من هجوم قواتنا ، ذلك الهجوم الذى نشر روح النصر بين الجنود والضباط فوق الارض أو فى السماء أو البحر ــ فأعطت نيرانهم أكبر النتائج التـــدميرية وجعلت رجالنا

يمسكون بعامل المبادأة وخصـــائص الكفاءة الديناميكية وسرعة التحرك والمرونة العالية .. تلك الأسس الجوهرية فى نجاح أول موجات الهجوم المصرى .

قوانين القتــال

لقد عملوا فى صمت فى البر والجو والبحر ــ وفى كل تدريب كانوا يطورون أشــكال قتالهم بل طوعوا قوانين القتال الأساليب أكثر مرونة وأكثر تفوقا واقتــدارا على الالتفاف والتطويق والانقضاض الكاسح المفاجىء السريع .. تلك ملامح فتح النيران على دفاعات العدو ومواقعه الهجومية فوق أنحاء سيناء .

لقد عملوا فى صمت من أجل هذا اليوم وواجهوا أعظم التحديات ، بكل التكاليف والايمان والتضحية ، بالنضال الدءوب،بالمناخ العسكرىالراقى بالارادة الجماعية بالتلاحم البشرى المثمر بين الاسلحة المشتركة ، أداروا معـــارك الاختراق والتقـــدم ، معركة طويلة ، ذخيرتها أبناؤنا وايمانهم بشرعية قتالهم ، وأغلى تضحياتهم .. حتى تحقق العسكرية المصرية أشرف مهامها التاريخية تحت قيادة الثائر القائد الأعلى أنور السادات .

من سيناء أكتب ولا أستطيع السيطرة على مشــاعرى أو حواسى .. ان القوات الميكانيكية تطهر الأرض أمامها .. وقواتنا الجــوية تقهر السلاح الذى قال عنه قادة العدو ذات يوم « ســـلاح لا يقهر » وكل الرجال وقد تحولوا الى أطول وأقوى ذرع عرفتها مصر يستخدمون أحدث الأسلحة بكل المهارة والثبات والرسوخ وقد عادوا الى أرضهم الســليبة ــ يمضون من محــور الى محور آخر ، فاتحين لنيرانهم ، رافعين لراياتهم ، عازفين أعذب الألحان وأقربها الى القلوب .. لحن النصر .

لقد أردت أن أبدأ كتابي بهذه الرسالة الأولى التى بعثت بها من الارض الاسيرة وهى فى طريقها الى التحرير ، ليس تعبيرا عنى بقدر ما هى تعبير عن الاستبسال الذى أعطاه أبناؤنا مقدمة لقتالهم ، واستمرارا بعد ذلك طوال أيام الحرب المحفورة فى تاريخ نضالنا ..

ومن هذه السطور ، أردت أيضا أن أقدم جهدى المتواضع ، وهو فى النهاية هذه الصفحات « العسكرية المصرية فوق سيناء » .

لقد عايشت معارك أسلحتنا منذ البداية ، وكنت حريصا على الانتقال من سلاح الى سلاح داخل سيناء حتى أتمكن من تغطية واجبى الصحفى أولا ، وحتى تكتمل الصورة أمامى ، وأنا أشهد على الواقع شكل القتال بين دفاعاتنا المضادة للطائرات والفانتوم الاسرائيلية ، وبين مدفعياتنا الثقيلة ومدفعيات العدو ، وبين مشاتنا والدبابات السنتوريون والباتون ، وبين طيارينا وطائرات اسرائيل الاسطورة !! .. وبين عمالقة الاشارة فى قواتنا ، والكترونات العدو فى صراع الاعاقة والسيطرة ..

ومن هنا فضلت الانتظار هذه الفترة لكى أعمل فى اعداد هذا الكتاب ، فالصورة الكاملة التى أردتها أمامى لم أستطع الحصول عليها بالتفاصيل والخطوط الضرورية أثناء العمليات الحربية .. ففى الميدان تختلف شكل الامكانيات والتقديرات والنتائج تماما ، عما فى حسابات المرء قبل أن تضمه أطهر الأرض المروية بالدماء .

ولم أكن فى الحقيقة أسعى بداية الا لمعايشة الحرب والرجال العمالقة من أبناء وطنى .. ربما تعبيرا عن ثأر شخصى يعيش فى داخلى أنا الآخر .. فقد عدت منذ سنوات مع قواتنا المسلحة الجريحة يوم ٧ يونيو عام

١٩٦٧ الى السويس ، وبقيت شهرين فى بيتى غير قادر على الحركة أو العودة الى عملى ..

وعشت بعد ذلك فوق الضفة الغربية للقناة منذ نهاية ١٩٦٨ ـ أحلم بالعبور والعودة الى سيناء ، وبعد أن توقفت حرب الاستنزاف فى الاسبوع الاول من اغسطس عام ١٩٧٠ ، ضاع الحلم منى تماما وتبدد ، ولكن الامل راودنى مرة أخرى مع الاشهر الاولى من عام ١٩٧٢ ، وبقيت مؤمنا بضرورة تحرير سيناء ، وقد أيقنت كما أيقن كثيرون كانوا يشهدون لقاءات القائد الاعلى للقوات المسلحة الرئيس أنورالسادات بالمقاتلين فى خطوط جبهة القناة وفى خطوط العمق ، ويستمعون الى احاديثه واجاباته على أسئلة أبنائه المقاتلين .. وهى احاديث لم تنشر على الاطلاق قبل الحرب ، أيقنت ان حتمية تحرير سيناء واردة لا محالة ، واصدرت فى منتصف عام ١٩٧٢ كتابا بعنوان « أنور السادات قصة ايمان بالعسكرية المصرية » وقد تفضل الصديق والأخ الكبير الكاتب الفنان الأستاذ يوسف السباعى بتقديم هذا الكتاب ، فكان بصيصا من أمل على طريق الخلاص .. حتى قامت الحرب فى أكتوبر ١٩٧٣ ..

هذه هى معايشتى لحرب رمضان الماجدة ، فوق الأرض المحررة من سيناء الأسيرة ، وأرجو أن يهبنى الله ـ القدرة والبقاء ـ لأشهد تحرير بقية الارض الغالية التى جاد من أجل خلاصها أشرف الرجال وأشجع الرجال وأقدر الرجال.. جيل كرم الله بعضه بالشهادة ، أرفع الشهادة ، دفاعا عن العسكرية المصرية وشموخها ومجدها البطولى فى الاستبسال والثبات والصلابة الفولاذية حتى وهى تعيش الهزيمة التى فرضت عليها عام ١٩٦٧ ، وما أروع تفاصيل بعض المعارك التى خاضتها قواتنا

تلك الأيام فى سيناء .. تلك الايام من ١٩٦٧ ـ مثل « معركة جبل لبنى ومعركة أبو عجيلة » وقد وقف نقاد العالم العسكريون عند كل منها بالتحليل والدراسة .. ذلك لأن المقاتل المصرى استطاع فى هذه المعارك أن يلتقى بالعدو ، وأن يمتلك الفرصة ليكشف عن قدرات ونوعية العسكرية المصرية فى معاركها التصادمية ، أخطر وأقسى المعارك القتالية ضراوة ومفاجأة .. وقد ضربت بهاتين المعركتين مثلا ونموذجا تعرفه وتدرسه أكاديميات عسكرية فى غرب العالم وشرقه ..

انه فى النهاية .. ذلك المقاتل المصرى ، الذى أنجبه ريف بلادنا الرائد العظيم ، الوجه المشرق المخضب بالدماء ، انه العسكرية المصرية فوق سيناء ...

رؤيــــة للمعركــة
من خلال الملف ٢٧٤ ؟؟

لقد عرف الشعب المصرى أنور السادات كأول وجه من وجوه ثوار يوليو ١٩٥٢ ، بل لقد عرفوه من قبل مناضلا وطنيا ، عرفوه قبل ١٩٥٢ بعشر سنوات يزأر باسم مصر خلف الأسوار فى المحاكم والسجون وتحدثت الجماهير بكفاحه الوطنى بين طليعة الفــــدائيين الذين وهبوا أرواحهم لله والوطن ..

سمعوا به أسطورة حية رائدة ، أعطى مصر كل شبابه وحياته ومستقبله ، تحدى الاحتلال البريطـــانى داخل الجيش المصرى وفى أنحاء الوطن ، تحدى سلطان الملك وصنائعه من الزعماء المصريين ، ضرب بالرتبة العسكرية التى يحملهـــا وبالوظيفــة وبالاســتقرار المعيشى عرض الحــائط ، وهو الزوج والأب ، واقتحم السجون وعانى الجوع والحرمان دون أن يهتز ايمانه أو تضعف مبادئه .

وعرفه الشعب كاتبا وصـــــحفيا ، ولكن تاريخه العسكرى ظل مجهولا لقطاعات عديدة من جمــــاهير شعبنا ، ومن خلال أنور السادات الضــابط بالجيش المصرى نستطيع أن نرى حرب أكتوبر الماجدة أكبر الرؤى ، نراها بحجمهـــا الحقيقى وخلفياتها الفريدة ، من خلال عسكريته وايمـــانه بالعسكرية المصرية كان التخطيط للحرب ، والتجهيز لها وضع عدة خطوط تحت كلمة

التجهيز، فحتى اليوم لم تصبح أسرار عمليات التجهيز وتتضمن التسليح والتحضير لفتح القوات ضمن نطاق العلنية ليمكن كتابتها واذاعتها ، ثم كان التنفيذ المشرف الذى أداه مقاتلونا الصناديد العمالقة ..

وفى هذه الصفحات أعرض تاريخ السادات من وقائع ملفه العسكرى الشخصى الذى يحمل رقم ٢٢٧٤ بين ملفات ضباط الجيش المصرى ..

ولقد أغلق هذا الملف تماما بعد قيام الثورة مع ملفات اعضاء مجلس قيادة الثورة ، وهو يضم الوثائق الرسمية والشهادات التى حررها قادته ، وحصل عليها السادات بوطنيته وارادته وسيرته وثقافته وفنونه الميدانية ، وابتكاراته العلمية التى قدمها لجيشه البطل .

انه انور السادات الذى قال فى ١٩ فبراير ١٩٧٤ بين اعضاء مجلس الشعب :

لقد جرت العادة والتقليد أن يقدم القائد العام للقوات المسلحة تقريره الى رئيس الدولة عن المعارك التى خاضتها القوات يعرض فيها الجهود التى قامت بها القيادات ويسجل أعمال البطولة التى قام بها الجنود والضباط ، ولكنى طلبت من القائد العام للقوات المسلحة الفريق أول أحمد اسماعيل على أن يقدم هذا التقرير التاريخى الى تحالف قوى شعبنا العامل ، فهذا الشعب هو صاحب الاسلحة التى حققت المعجزة ، أسلحة لم تصنع من الفولاذ فقط ، وانما صنعت أيضا بالايمان والاصرار صنعت بالعناد والعرق ، صنعت بالدم والتضحية وقوة الاحتمال .

ان تضحيات الشعب المصرى هى التى زادت من فاعلية الصواريخ وهى التى ضاعفت من قوة انطلاق المدافع ، وهى التى دعمت صلابة الدبابات ، وشراسة الطائرات

وسيطرة قواتنا البحرية ، ايمانا وبسالة وبطولة واقتدارا لقد ارتفعت أعلام النصر فوق أرضنا ، وردت قواتنا للعرب كبرياءهم واستردت لهم احترام شعوب الدنيا كلها » .

ولم تكن كلمات القائد الأعلى للقوات المسلحة حين قال المجد لأبطال ٦ اكتوبر محييا شعبه صاحب العطاء العظيم المتجدد دوما « لقد أخرج لكل جيل أبطاله ، وقدم فى كل امتحان أعز شهدائه وان ما برهنت عليه قواتنا المسلحة فى حرب أكتوبر الماجدة يمكن أن يتكرر ، وان قواتنا المسلحة تستطيع أن تكرر البرهان مرات ومرات »

« مرات ومرات » ، لم تكن كلماته صادرة عن انفعال وطنى تأثر به ، بل عن يقين وادراك ، فقد عرفه رفاق السلاح منذ الأربعينات حتى السبعينات رجل تخطيط وفكر ومنطق ، وهبه الله القدرة على الرؤى الناضجة الواعية بأبعاد كل موقف ، والقدرة على الاتصال الوثيق بالحياة والنظر الى الماضى فى شجاعة وكما قال ذات يوم « فلنجعل من هزيمة يونيو ٦٧ قاعدة انطلاق لبناء بلادنا » .

لقد عاش القائد الأعلى للقوات المسلحة الرئيس محمد أنور السادات مؤمنا بالعسكرية المصرية ، فأعطاها من روحه صياغات وطنية جديدة حرص على نشوئها وارتقائها فى أسلحة الجيش التى خدم بها ، وفى تشكيلات رفاق وأصدقاء السلاح ، وكانت نوازعه التى يحملها فى ثناياه تدفعه للعمل بتركيز وتكثيف على التفاف الجماعة المتميزة بنقائها ووطنيتها حول هدف واحد ، وتماسك هذه الجماعة وارتفاعها فوق المثالب والخلافات الصغيرة لتنتشر وتثرى من حولها .

وكان احساسه متدفقا بتأصل الجذور المصرية

العريقة ، ونبتها البشرى من أبنائها وفى طليعتهم أبنـائه أفراد القوات المسلحة ، أولاده كما يناديهم ..

لقد ظلت مقاييسه حية نابضة خصبة دائما ، تعطى وتجود بأثرى الفهم والمشاعر ، وعاش بمكونات الانسان الثورى يرى الفضة فى عروق الظلام .

ومنذ تولى قيـادة الوطن رئيسا للجمهورية ، وقائدا أعلى للقوات المسلحة ، وضع أمامه عدة أهداف . يتقدمها هدف أول وهو اعداد قواتنا لحرب طويلة لابد منها ومن حتمية النصر .

وبدأ يعمل سرا ، وكانت نشاطاته التى تعلن فى الصحف والمجلات داخل قطاعات القوات المسلحة هى جزء من كثير حققه فى دأب مستمر منذ رفع شعاره الشهير « الصبر والصمت » من أجل المعركة .

كتب ذات يوم لأحد أصدقائه :

ـ « أن بعضنا غارق فى احساس الرضاء عن نفسه وعن عمله ، وهذا البعض ببساطة يفتقر الى هزة كبيرة ، هزة تقوده الى فهم جديد ينقذه من التخلف النفسى بل من السجن الانفرادى الذى أغلقه على نفسه دون أن يرى انه قابع بين أسوار هذا السجن » ..

الملف ٢٢٧٤

لقـــد تعددت زيارات الرئيس السادات للوحدات الضاربة ابتداء من نوفمبر ١٩٧٢ ، وكان أغلب هـذه الزيارات يتم سرا ودون أن يعلن عنه ، وفى بعض الأحيان يترك القوات التى يزورها مستأذنا فى الانصراف لساعة من الزمن ويستقل طائرته الهيلكوبتر ويستبدل فيهـا ملابسه العسكرية بملابسه المدنية ويقابل فى القـاهرة زائرا دبلوماسيا أو وزيرا أجنبيا أو رئيس وفد أوربى قدم

من الخارج ، وبعد الزيارة يعود فورا الى القوات التى تركها قبل قليل يكمل جولته وحديثه وتوجيهاته .. وكثيرا ما تناول غذاءه مع أبنائه الضباط والجنود فى السابعة مساء ..

وفى هذه اللقاءات العامرة بشتى الموضوعات واخطر التوجيهات ، كان يفضى بأسرار كثيرة الى المقاتلين .. أسرار خطيرة تتعلق بالقتال وقرب المعركة ، ولم يخرج سر واحد منها الى العلانية قبل ٦ أكتوبر ٧٣ ، ذلك لأن ثقته فى آلاف الضباط والجنود الذين كان يطرح أمامهم رؤيته للمعركة داخل سيناء ، ثقته فيهم كانت تطاول السماء ..

وارتفع المقاتلون جميعا الى مستوى المهمة المطروحة أمامهم ، ولم يردد مقاتل واحد مرة ثانية ما ذكره القائد الأعلى فى لقاءاته بهم من تفاصيل ومعاومات سياسية وعسكرية .

وثائق ملفه العسكرى

نعود الى أوراق الملف العسكرى رقم ٢٢٧٤ ، فنجدها تقول ان صاحبها الملازم ثان محمد أنور السادات انضم الى الاورطة الرابعة مشاة كضابط مشاة ، فى فبراير ١٩٣٨ ، بمنطقة المكس بالاسكندرية ، وظل هناك حتى يوليو من نفس العام ، فنقل الى منقباد ، وهناك التقى مرة أخرى بالزعيم الراحل والملازم احمد اسماعيل ، وظل السادات بمنقباد حتى أول أكتوبر ١٩٣٩ ، وفى اليوم التالى نقل الى سلاح الاشارة ، وظل يخدم فى منطقة المعادى برتبة ملازم أول حتى اغسطس عام ١٩٤٠ ، حينما ذهب الى الصحراء الغربية واستمر هناك عاما كاملا ليعود الى المعادى فى أول سبتمبر عام ١٩٤٠ ويظل

بها حتى أبريل ١٩٤١ ، فينقل مرة أخرى الى الصحراء الغربية فى ٢٥ ابريل ١٩٤١ ، الى ٢٧ يونيو من نفس العام وكان قد رقى الى رتبة ملازم أول كما ذكرت مع بداية عام ١٩٤٠ ، ونشرت الصحف اسمه بين أسماء الضباط الذين ترقوا من دفعته فى ٨ يناير عام ١٩٤٠ .

انضم الى سلاح الحدود ، والتحق بكتيبة اشارةالسلاح بالجبل الاصفر ، وبقى بها حتى ٧ أكتوبر ١٩٤٢ ، ليترك الخدمة بالقوات المسلحة بالرغم منه ـ تحت ضغط الاستعمار البريطانى والملك ، ويبقى بعيدا عن الجيش المصرى الى ١٥ يناير ١٩٥٠ ، حيث عاد الى سلاح الاشارة برتبة يوزباشى وكان قد حصل عليها قبل أكتوبر ٤٢ ، فى الوقت الذى كان زملاؤه يحملون رتبة « بكباشى » .

وابتداء من يناير ١٩٥٠ حتى سبتمبر من نفس العام، ظل ضابطا للاشارة بالقاهرة ، دخل خلالها امتحانين للترقى ، ونجح فيهما ، ورقى الى رتبة صاغ « رائد » الآن وكان ذلك فى ٢٣ سبتمبر ١٩٥٠ ، وقبل ترقيته بثلاثة عشر يوما صدر له قرار نقل الىالقنطرة،وبقىبهاحتى ١٠ أكتوبر ، ثم خدم بالعريش حتى نهاية مارس ١٩٥١ ، وأخيرا فى رفح ، حيث ذهب اليها فى ابريل سنة ١٩٥١ ، ورقى فى ٦ مايو ١٩٥١ ، الى رتبة البكباشى ، واستمر «برفح» كضابط اشارة بالفرقة الاولى مشاة حتى يوم ٢١ يوليو ١٩٥٢ ، حيث عاد الى القاهرة فى نصف أجازة ميدان ، وهى أربعة أيام ، ليقوم بواجبه الى جانب الزعيم الراحل فى ليلة ٢٣ يوليو الخالدة .. وكان الرئيس السادات قد ذكر فى حديث له ، ان «السيد حسن ابراهيم» عضو مجلس قيادة الثورة قد زاره « برفح » حيث التقى به بالمطار الحربى ، وأنبأه بساعة الصفر التى حددها القائد

الخالد عبد الناصر ، لتنفيذ الخطة مصر ثم عدلت الى نصر ، خطة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وكانت هناك معلومات أخرى قد أبلغت للرئيس السادات قبل أيام من وصول السيد حسن ابراهيم اليه، تفيد بأن موعد التحرك « سيتحدد وينفذ » خلال أسبوع، فاستعد لذلك ، كما روى من قبل رفاق السلاح الذين خدموا معه بالاشارة حتى صباح ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، وهو يستقل قطار غزة عائدا الى القاهرة للقاء القائد الراحل جمال عبد الناصر ، والقيام بالثورة ..

تقاريره السرية

ذكر الرئيس السادات فى الاوراق التى حررها بخطه ، لضمها الى ملفه ، انه عند بدء تخرجه فى الكلية الحربية ، وأثناء دراسته العسكرية بها ، كان يسكن مع والده بالقاهرة بالمنزل رقم ١٨٣ بشارع القائد بكوبرى القبة ، ولا زال الشارع قائما يحمل نفس الاسم ، ولا زال البيت موجودا ، وبه الآن مدرسة القائد الخاصة ، وان وظيفة والده هي كبير كتاب القسم الطبى بالمستشفى العسكرى العام بالقاهرة ، واسمه « محمد السادات » .

ثمة وثيقة أخرى حررها بخطه ، ويقول فيهما : « انه يرغب فى دخول امتحان كلية أركان الحرب ، الدورة الثالثة عشرة ، وان اللغة الاجنبية التى يرغب الامتحان فيها هى الانجليزية — توقيع بكباشى محمد أنور السادات — الآى اشارة الفرقة الاولى — سلاح الاشارة الملكى — رفح — فى ٢٤ نوفمبر عام ١٩٥١»

وفى ملف الرئيس السادات عدة تقارير سرية ، وضعها قادته عن عسكريته وسلوكه .. جاء فى التقرير

السرى السنوى الاول ، وهو عن المدة من ٢ نوفمبر عام ١٩٣٩ حتى نهاية ابريل عام ١٩٤٠ ، وكان برتبة ملازم أول ..

« الحالة الصحية ـ جيدة جدا » .

ناشيء يحترم نفسه جدا ويحترم رؤساءه ، يقدس واجبه الرسمي ويقوم به على أكمل وجه . على جانب عظيم من الاخلاق . هادىء الطبع . يعمل فى صمت وسكون . كفايته الفنية والعسكرية تستوجب التقدير مكانته الشخصية موضع احترام زملائه ورضائى التام.

وفى تقرير آخر عنه وضعه قائد اللواء المشباة فى ٢٣ مايو عام ١٩٤٠ ويبدو أن السراى الملكية كانت قد طلبت تقريرا سريعا عنه ، لان الفارق الزمنى بين تاريخ التقرير السابق وهو نهاية ابريل عام ١٩٤٠ ، وتاريخ هذا التقرير ٢٣ مايو عام ١٩٤٠ ، « ٢٣ » يوما ، لا تبرر اعداد تقرير سرى جديد عنه الا اذا كانت هناك تعليمات بذلك من وزير الدفاع أو الملك .. وفى تلك الفترة كان نشاط الملازم أول أنور السادات ضد الاحتلال البريطاني ، قد بدأ يخرج عن نطاق المجموعة الخاصة من الاصدقاء والزملاء ..

يقول التقرير :

أخلاقه حسنة ، نشيط ، ضابط جيد جدا ومثالى قدير فى فنه ، ميال للضبط والربط ، أخلاقه حسنة ، مكانته متينة بين أخوانه .

وفى تقرير ثالث عن المدة من أول مايو عام ١٩٤٢ حتى نهاية سبتمبر ١٩٤٢ ويبدو أن بعض قادته شعر بأن السراى لم تعد تطمئن الى نشاط هذا الضابط الذى يعمل بالسياسة ، فوضعوا فى تقريرهم كلمات مختصرة مثل :

« ضــابط مؤدب ــ هادىء الطبــاع ــ محترم من اخوانه ــ حسن المظهر والهندام ، كفاءته الفنيــة مرضية » .

وكان « الرئيس أنور » فى تلك الايام برتبة يوزباشي ويعمل « قائد ثان » كتيبة لاسلكي بسلاح الاشــارة ثم قرر « الملك » تلبية لرغبة القادة الانجليز اخراجه من الجيش المصرى بدون تحقيق أو محاكمة ، ولم يكن قد حدث من قبل أن أبعد أى ضــابط بهذا الاسلوب الارهابى .. حدث هــذا فى ٨ اكتوبر عام ٩٤٢ ، أى بعد كتابة التقرير السرى السابق بأسـبوع واحـد ، وكان ابعاده عن الجيش بداية لسلسلة من المطــاردات البوليسية ، والزج به الي السجون والمعتقلات .. ولم تتوقف هذه الحملة الملكية الاستعمارية ضده حتى بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية ، الى أن اســتطاع بفضل صموده ، ومعاونة بعض كبار الضباط الشرفاء ، العودة الى الجيش قبل منتصف يناير عام ١٩٥٠ .

ولــكن ماذا كتب قائده عنه ، فى أول تقرير سرى ، بعد عودته ضابطا !

كتبوا هذه الـكلمات « كفء » ، مطيع ، مؤدب ، نبيل الاخلاق ، معلوماته الفنية جيدة .

وفى عام ١٩٥١ ، جاء فى تقريره السرى عن ذلك العام :

متين الاخلاق ، حسن المظهر ، شخصيته محترمة وقوية ، كفء عسكريا واداريا ، ضابط مؤدب ومطيع يمتاز بالرجولة الـكاملة ــ توقيــع قائمقام محمود حسنى ، قائد آلاى الاشارة بالمشاة ، ثم توقيع آخر بالموافقة للأميرالاى محمد سيف ، قائد الفرقة الاولى مشاة ، تاريخ ١ اغسطس عام ١٩٥١ .

وفى آخر تقرير عسكرى وضع عنه كضابط بالجيش، ويحمل تاريخ نهاية ابريل عام ١٩٥٢ ، أى قبل قيام الثورة بثلاثة شهور ، جاء « ان البكباشي محمد أنور السادات ، شخصية بارزة ، أبرز صفاته الوفاء ، والامانة ، والرجولة ، موضع ثقة ومحبوب جدا من مرءوسيه ، نجح نجاحا تاما فى عمله ، وحصل على ثناء قائد الفرقة ـ توقيع قائمقام حسن محمد على قائد آلاى الاشارة » .

وفى الملف أيضا ، عدة شهادات نجاح بتفوق فى امتحانات فرق الشئون الادارية ، والاسلحة الصغيرة وقادة السرايا ، ولقد حصل على هذه الشهادات وهو برتبة يوزباشى ، واختصاصاته « اشارة » وكان قد قضى فور التحاقه بسلاح الاشارة فترة ليست بالقصيرة فى مدرسة الاشارة ، والتقى الاثنان مرة أخرى ، الزعيم الراحل والقائد الرئيس أنور السادات ، وكان الملازم جمال عبد الناصر يحصل على فرقة اشارة « كضابط مشاة » بمدرسة الاشارة وقتها .

ومضى هذا اللقاء الطويل بينهما يصنع كبقية اللقاءات التى تلته ، حلقة جديدة من حلقات الفكر الواحد ، والمشاعر الملتحمة ، والارادة التى لا تلين ، ولا يضيع الهدف يوما منها .. ولقد حقق الرجال بالفعل تلك الاحلام الوطنية التى راودتهم ذات يوم وهم يتقدمون بأوراقهم الى المدرسة الحربية ، وعاشوا من أجلها طلبة وضباطا ، ففجروا ـ بعد ١٤ عاما حافلة بالجهد والعمل والتعبئة والارهاب المسلط عليهم ـ ثورة ٢٣ يوليه الخالدة ، وقد دخلت الآن عامها الخامس والعشرين مليئة باليقين والمعارك المستمرة ، دفاعا عن الحرية والشرعية .

هذه بعض ملامح النسيج البشرى الفريد والاصـــالة المصرية ، التى أنجبها الريف العظيم ، ريفنا الرائد الذى يعطى ويجود فى ثراء الأرض .

انه القـــــائد الأعلى للقوات المسلحة ، وقائد حرب اكتوبر الماجدة ، الرئيس أنور السادات .

بطل من جيل الألم

المشير الراحل أحمد اسماعيل على

من أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية ـ والقائد الأعلى للقوات المسلحة ـ الى المشير أحمد اسماعيل على ، وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة .

تقديرا لرفيع مزاياكم ، ولما نعلم عنكم من ثاقب الرأى ، وواسع الخبرة ، وصادق الجهد فى خدمة القوات المسلحة ، يسرنا أن نمنحكم رتبة « المشير » اعتبارا من ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

راجين تقديم دوام العون فى خدمة القوات المسلحة بجمهورية مصر العربية .

ويسرنا باعزاز تقديم هذه البراءة ايذانا بذلك .

القاهرة : » ١٩ فبراير ١٩٧٤ «

ان رتبة « المشير » التى حصل عليها القائد العام للقوات المسلحة المرحوم أحمد اسماعيل على ـ هى اكبر الرتب التى نالها قائد مصرى ـ عربى ـ خاض الحرب فى منطقة الشرق الاوسط .

ورتبة المشير التى أهداها القائد البطل الرئيس أنور السادات للمشير احمد اسماعيل على ـ هى الرتبة التى يحملها القائد الاعلى نفسه .

هذه هى قصة حياته ، سيرته العسكرية ، سيرة مقاتل أعطى أحلى سنى العمر ، للسلاح .. للميدان .. للوطن ..

لقاء وحوار فبراير ١٩٧٤

كان حركة دوران الحياة توقفت لحظة .. وفجأة تزلزلت الارض تحت أقدام المقاتلين ، وهم يعبرون الى قدس الاقداس سيناء ، فى لحظة ستظل محفورة بأحرف من نور فوق جباه شعبنا وأجياله القادمة ، الساعة ٢ من ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، الخالد على مدى التاريخ .

ان الأعمال العظيمة على مستوى الشعوب ، بل على مستوى الأفراد ، لم تكن أبدا وليدة يوم أو لحظة .. وهى لا تصدر بالتالى من فراغ أو تحت ضغوط الحاجة ، بل تبقى دائما ثمرة رؤى تبصر الأشياء بقدر احجامها الحقيقية ، ولا تخلط بين الصواب والخطأ ، ولا تلجأ الى الاعمال العفوية ، ولا تقبل الحلول الوسط .

ان استجاباتهم الفورية ، لنداء الواجب فقط .

تلك عمد نجاح كل الاعمال التاريخية العظيمة المتعلقة بمصائر الشعوب ، تفرزها نوعية من أقدر الرجال ، أبناء بيئة بالضرورة هى بيئة الصدق والشرف ومناخ الايمان وخشية الله ، وتربية الفكر الذى لايكف عن التقصى ، ولا يتوقف عن اقتحام المعارف ، يتزود منها بسلاح الثقافة والعلوم .

نصف اجازة

« لا المصادفة ، ولا خبطة حظ عشواء يمكن أن تحاق أمانى الجماهير .. »

جملة قصيرة عارضة ، قالهـــا البكباشي محمد أنور السادات ، في رفح بعد منتصف ليلة ٢١ يوليو ١٩٥٢ ، وهو يقضي السهرة مع ضباط الاى اشارة الفرقة الاولى مشاة ، من رفاق السلاح ، استعدادا للسفر فجرا الى القاهرة مستقلا قطار غزة : لقضاء أجازة نصف شهرية « أربعة أيام » .

وقليل جدا من هؤلاء الرفاق كان يعلم أن البكباشي السادات ، ذهب ليؤدي دوره في ثورة ٢٣ يوليو .

كان البكباشي السادات مسئولا عن خزينة النقود في قيادة الفرقة ، وحين تصدق له بالاجازة الميدانية نصف الشهرية لزيارة أمه المريضة بالقاهرة ، تأكد لزملائه بعد ذلك انه خطط لكي يحصل على التصديق بالاجازة مساء ١٩ يوليو أو ٢٠ يوليو ، وقد حصل عليها فعلا يوم ٢٠ يوليو مساء ، ووصل القاهرة عصر يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢.

قبل مغادرته رفح ، بحث عن ضابط من رفاق السلاح يتولى عنه حمل أمانة خزانة الفرقة حتى عثر عليه ، « الصاغ جبران » وسأله جبران :

ــ « لماذا تترك لنا الخزينة بأكملها ، يكفي أن تعطيني مبلغا صغيرا من المال ننفق منه حتى عودتك بعد أربعــة أيام !؟ »

وقال البكباشي السادات :

ــ « قد يطول مرض أمي أو تموت ، وهنا سأطلب مد الاجازة .. من يفتح لكم الخزينة ساعتها ؟ » .

بعد قيام الثورة ناقش ضباط الفرقة الاولى مشاة هذه القصة ، وحين التقوا به بالقاهرة قال لهم :

ــ « لقد وضعت في حساباتي لا قدر الله فشل الثورة والقبض علينــــا ، ولن يتورع أعوان الملك والاحتلال البريطاني عن التشهير بي مستغلين أمانة الخـــزينة

والأموال المودعة بها من عهـــدتى ، فأثرت ان أتخلص منها رسميا وأسلمها بمحضر ، لصديقى جبران .

***

رويت هذه القصة القديمه البسيطة ، لأدلل بها على تخطيطه لكل صغيرة وكبيرة ، ونظرته الاعمق لخطواته يقطعها على الطريق الذى اختـــاره الله منذ صباه ، وبعقلانية مدعومة بالايمان يأخذ قراراته ، ومن هنا كان النجاح دائما حليف خططه ونشاطه ، يزوده الخـــالق به على الاطلاق .

لذلك لم يكن من قبيل المصادفة اختيار القائد الأعلى للقوات المسلحة الرئيس أنور السادات للمشير أحمـد اسماعيل على قائدا عاما للقوات المسلحة ووزيرا للحربية، بل لم يكن من قبيل المصادفة أن يسند اليه قبل هذه المهمة الوطنية الكبرى منصب مدير ادارة المخـــابرات العامة فى مايو ١٩٧١ .

ظل القائد الأعلى للقوات المسلحة منذ صباه يعتمد على التحليل والتخطيط ورسم الحســابات ومناقشة الاوضاع وما يترتب عليها مستقبلا ، حتى فى أصـغر المشاكل الشخصية التى تواجهه .. هكذا يروى عنه زملاء الدراسة الثانوية ، وزملاء دفعة الكلية الحربية ، ورفاق السلاح ، كما كان يختار أصدقاء المناقشة والحوار بالوحدات العسكرية التى خدم بها ، بعد فحص دقيق لسلوكهم الشخصى ، وقـــدراتهم العقلية ، وتربيتهم الاخلاقية ، ثم يفضى اليهم بمشاكله ومتاعبه وأسراره ، وأحيانا تكون من صنع الخيال ، ليضعهم فى مهام اختبار ثلاث مرات ، قبل أن يقـــرر ضم هؤلاء الاصدقاء فى النهاية الى حلقات الضباط الاحرار .

من هذه الاصالة الصلبة فى اختيار الرجال ، والتكوين

البشرى المنفرد الذى تحكمه قوانين وأخلاق وخصال ، لا تحيد لحظة عن خطها الصارم ، أستطيع أن اقول ان الرئيس السادات منذ تولى ولاية الوطن ، وعينه على الرجل المناسب ، ليعهد اليه بجانبه ، قيادة معركة تحرير سيناء .

لقد التقيا منذ سنوات بعيدة ، وتعارفا والتحما ، واختير كل منهما الاخر وهما فى مرحلة الصبا .

ولد الرئيس السادات فى ٢٥ ديسمبر عام ١٩١٨ .

وولد المشير أحمد اسماعيل على ، فى ١٤ أكتوبر عام ١٩١٧ ، بالمنزل رقم ٨ بشارع الكحالة الشرقى فى شبرا ، ثم عاش بالمنزل رقم ٢٤ بشارع بكتمر، فى أرض طوسون بالحى نفسه .

وفى عام ١٩٣٤ ، التقى الاثنان بحى كوبرى القبة ، وشبرا ، والسيدة زينب جمعهما السلوك المتقارب الاقرب الى خشونة الرجال منه الى لهو الصبا ، والاعتداد بالنفس والتعلق باهتمامات واحدة ، وكان لقاؤهما بدء صداقة طويلة ، كتب الله لها الاستمرار ، حتى أثمرت ٦ أكتوبر الخالد على مدى التاريخ .

محاكمة قوات الاحتلال

قال لى أحد أصدقاء هذه المرحلة من العمر :

ــ عشنا أحداثا أكبر من أعمارنا ، ولذلك كنا جيلا خشنا عرف الألم والمرارة مبكرا ، ومنذ طفولتنا والابناء لا يتحدثون فى البيوت الا عن « ثورة ١٩ » وشهدائها .. لسنوات طويلة كان حديث « ثورة ١٩ » هو الحديث الرئيسى الذى يشغل كل مصرى ومصرية ، وقد تركت المحاكمات التى قامت بها سلطات الاحتلال العسكرى البريطانى لجماهير الشعب فى أنحاء الوطن عقابا لهم

على الثورة ، تركت جرحا غائرا فى كل بيت !! ..

لقد أعدموا الرجال وسجنوهم وجلدوهم حتى ماتوا من التعذيب فى « القاهرة وأسيوط والواسطى وديروط وملوى والمنيا وفاقوس ورشيد وقليوب وبنى سويف وطنطا وكوم امبو ودير مواس ومطاى وأبو قرقاص واسكندرية ، وفى شبين الكوم والزقازيق وسوهاج » .

وظلت هذه المحاكمات تملأ خيالنا ، ووجداننا وعقولنا ، ولذلك لم يكن مستغربا أن تكون اهتمامات طلبة المدارس الثانوية فى الثلاثينات والاربعينات محصورة بالعمل الوطنى ، وكان السادات واحدا منا غير أنه لم تكن له حياة خاصة كبقية أصدقاء عمره ، واشتهر بيننا بميله الى العسكرية والخشونة والجدية ، وكراهيته الهائلة لقوات الاحتلال ، وقدرته الشخصية على جذب الطلبة حوله ، وشحنهم دواما بالمشاعر الوطنية ، وكنا نرى الطالب انور السادات والطالب خلوصى ، « المرحوم لواء خلوصى بعد ذلك ، والطالب احمد اسماعيل ، والطالب السباعى ، الكاتب والوزير يوسف السباعى ، معا يتحدثون ويلتحمون بالناس ، ولا يكفون عن الحديث فى الحرية والاستقلال وضرورة الرد على الانجليز » .

ولم يكن الطالب احمد اسماعيل يختلف كثيرا عن الطالب السادات .

***

وجاء عام ١٩٣٤ ، وتقدم الطالب أنور السادات وأحمد اسماعيل على ، الى الكلية الحربية ـ المدرسة الحربية ـ تلك الايام ، ورفضت أوراقهما لانهما من أبناء الشعب الفقراء ! .

والتحق الطالبان بكلية التجارة ، وخلال العام الدراسى الاول ، تقدما مرة ثانية الى الكلية الحربية ،

وأعيدت أوراقهما لهما لنفس الأسباب القديمة .
وانتقل الشابان الى السنة الثانية بكلية التجارة ، وكان الزعيم الراحل جمال عبد الناصر قد رفضت أوراقه هو الآخر بالكلية الحربية فالتحق بكلية الحقـــوق .. لكن الثلاثة ظلوا يمسكون بالهدف ، وبكل العناد يعملون على تحقيقه دون يأس أو هزيمة .
كانت مصر تلك الفترة فى منتصف الثـــلاثينات تمر بمرحلة دقيقــة بالغــة الحساسية عبر تاريخ نضـــالها الطويل ، والجماهير مشحونة انفعــــالا وطنيا متأججا بمطالب الاستقلال ، تطرح بنوازعها الوطنية وبوحى من ضميرها صياغات ولدتها ثورة ١٩ ، وما خاضته من معـــارك ١٩٣٥ ، ودور الشباب المصرى خلالها ، ثم ثم ما أثمرته فى أرواح فتياتها ورجالها ، صلابة ونضج وتجربة وطنية واعية .. فى هذه الفترة جاءت مجموعات شابة من أبناء الشعب الثائر تسعى الى الالتحـــــاق بالمدرسة الحربية ، جاءت من الكفور ، ومن أعمـــــاق الريف الرائد العظيم فى الصعيد والدلتـــا ، ومن قلب المدن الكبيرة الزاخرة بالمشاعر الوطنية ، مجموعات شابة مفطورة على قوة نفاذة محركة ، ولكنها مقيدة محبوسة فى كوامنهم ، وبالرغم من قيودهم عاشوا طاقات متجددة لا تهدأ ولا تفرغ أبدا .
كانت ملامحهم ولهجاتهم مختلفة تنبىء عن موطنهم ، ولكن ما يدور فى رؤوسهم ظل فكرا متقــــاربا ، تماما كأعمارهم ، ولذلك تآلفوا سريعا ، وكان هذا الفكر هو الرباط الوثيق الذى جمعهم ، ووحد كلمتهم وشـدهم بعضا الى بعض .
لم تكن الكلية ، أو المدرسة الحربية ، وهى ترفض قبول الطلبة من أبناء الشعب البسطاء حتى عام ١٩٣٥ ،

نقطة اجتذاب للارستقراطية المصرية أو الاسرة المالكة ، ربما التحق بها عدد قليل من الشباب يمثلون هذه الطبقة أو تلك الفئة ، حرصا من القيادة العسكرية الانجليزية على خلو الجيش المصرى من ضباط مصريين ووطنيين ، سيكون لوجودهم بالضرورة أسوأ الأثر على أوضاع الاحتلال البريطانى لمصر ، حتى وقعت أزمة الحبشة وايطاليا عام ١٩٣٥ ، وباتت هذه الأزمة تهدد الاستراتيجية الانجليزية فى الشرق الاوسط وافريقيا ، كما اقترن هذا العام بالحرب الاهلية فى أسبانيا ، وبتهديدات النازية فى ألمانيا ، وتوقعت بريطانيا أزمة دولية أو مواجهة عسكرية فتصورت أو خططت دورا للجيش المصرى ، يخدم مصالحها وأهدافها ، وعلى الفور فتحت باب القبول بالمدرسة الحربية فى نهاية عام ١٩٣٥ ، وقبلت عددا محدودا ثم عادت وفتحته مرة أخرى عام ٣٦ ، وكان الرئيس السادات بين من قبلت أوراقه ، والتحق بالكلية فى ٦ أكتوبر عام ١٩٣٦ ، وحين أعيد فتح باب القبول مرة أخرى عام ١٩٣٧ ، انضم الطالب أحمد اسماعيل على فى ١٧ مارس ١٩٣٧ ، الى رفاق الشباب ، وكان الرئيس السادات بحكم الاقدمية « شاويشا » على الطلبة جمال عبد الناصر حسين ، وأحمد اسماعيل على .

وفى فبراير عام ١٩٣٨ تخرج الرئيس السادات وذهب الى سلاح المشاة فالاشارة ، وفى أول يوليو من نفس العام ، تخرج المشير أحمد اسماعيل على ، وانضم الى سلاح المشاة .

والتقى الضابطان الشابان مرة أخرى فى معسكرات منقباد والسودان والصحراء الغربية ، ثم عادا الى سيناء ، وبقى السادات ضابطا مقاتلا برفح حتى مساء

٢١ يوليو ١٩٥٢ ، ليعود ويشترك فى تغيير مجرى التاريخ عام ١٩٥٢ ، ومرة أخرى عام ١٩٧٣ وبجانبه رفيق الصبا والشباب القائد العام المغفور له المشير أحمد اسماعيل على ، رجل أعطى العسكرية المصرية كل شبابه ورجولته ، فكانت ملهمته وفكره ووجدانه وشاغله الاول ، وقد كرس لهـا عمره ، بكل الحب والرجاء والايمان .

ولد المشير احمد اسماعيل على ، لأب من ابناء حى باب الخلق وأم من حى السكاكينى ، تزوجا عام ١٩٠٠ ، وكان الأب يعمل مأمورا للادارة « أقسام الشرطة » ، وفى عام ١٩١٤ ، استقر بالعاصمة ، مأمورا لضواحى القاهرة، وأنجب أول أبنائه الدكتور محمد فؤاد عام ١٩٠٥ ، وكان « القائد العام » هو الابن السابع فى ترتيب الابناء الذين صعد بعضهم الى رحاب الله أطفالا ، ثم جاء محمود ، ومن خلال تعلق الشقيق الاكبر « أحمد » بالعسكرية ، والجيش ، التحق الشقيق الاصغر « محمود » بالكلية الحربية عام ١٩٣٨ ، وظل بالقوات المسلحة حتى أحيل الى المعاش منذ سنوات قليلة ، وهو برتبة لواء كى يتفرغ للعلاج .

قال لي الدكتور محمد فؤاد اسماعيل « ٧١ سنة » أمد الله فى عمره ــ الشقيق الاكبر للقائد العام .

ــ رأيت « أحمد » دائما ، جادا ميـالا للصرامة والنظام ، دقيقا فى كل تصرفاته منذ صباه ، لا تشغله اهتمامات الفتيان فى الخامسة عشرة أو العشرين ، باحثا عن كتب التاريخ والسير ، وقادة الاسلام ، وفى المرحلة الثانوية اعتاد شراء الكتب التى تروى قصص القـادة العسكريين ، وحروب القرون الماضية ، وكان يكتب أحيانا

تعليقـــــات على قراءته ، ثم يناقشها مع أخيه الاصغر « محمود » .

وكانت أسرتنا تضم عددا كبيرا من ضباط الشرطة ، ولكن « أحمد » صمم على الالتحاق بالكلية الحربية .

وبعد أن التحق بالتجارة أخذ يذهب ليلعب مباريات كرة القدم مع طلبة المدرسة الحربية . وعدة مرات فاز لكليته التجارة ، حتى أصبح اسما رياضيا لامعا ، بين لاعبى المدرسة الحـــــربية ومدرسيها ، وبكل الاصرار والثبات حقق هدفه والتحق بالكلية الحـــربية ، تاركا التجارة التى نجح فيها بتفوق عامين دراسيين كاملين ، وقال أبوه رحمه الله :

ــ « كنت أعرف أنه لن يسكت ولن يقبـــــل رفض أوراقه ، بل كنت متأكدا أنه سيسعى دون كلل حتى يلتحق بالمدرسة الحربية » .

هو كذلك دائما ، عاش يبذل جهده حتى الحد الاقصى من الطاقة البشرية .

مقــاتل تشكيلات

منذ اليوم الاول لتخرج الملازم ثان أحمد اسماعيل على ــ ١ ــ يوليو ١٩٣٨ ، وهو يخدم ضابطا مقـــــاتلا بين تشكيلات الميدان بالصحراء الشرقية ، أو السودان أو الصحراء الغربية ، وأخيرا سيناء ...

وطيلة عشرين عاما وأكثـــــر قليلا وهو يمر بتسلسل متميز عبر مهامه العسكرية التى عهد اليه بها ، من ضابط استطلاع صغير بفصيلة مشاة الى قائد فصيلة ــ قائد سرية ــ رئيس عمليات كتيبة مشاة ــ قائد كتيبة ــ رئيس عمليات لواء مشاة ــ رئيس أركان لواء ــ قائد لواء ــ رئيس أركان فرقة مشاة فقائد فرقة ــ فرئيس أركان

للقوات البرية ، ثم قائدا للجيش بعد نتائج معركة ١٩٦٧ ، فرئيسا للأركان ، فقائدا عاما للقـــوات المسلحة ، يقودها الى معركة النصر .. أشرف وأغلى النصر ، فى حرب رمضان الماجدة ، وكان أكثر القادة الذين قاتلوا أعظم القتال خلالها ، ممن خدموا تحت قيـــادته فى تشكيلات القوات المسلحة بصحراء سيناء ، مع بداية الخمسينات .

عام ١٩٣٨ ـ التحق بالكتيبة الرابعة مشاة فى منقباد .. وهناك التقى مرة أخرى بالرئيس السادات القـــائد الأعلى للقوات المسلحة وكان الزعيم الخـالد جمـــال عبد الناصر فى الكتيبة الخامسة مشـــاة بجوارهم ، ثم انتقلا معا للخدمة العســـكرية فى السودان ، فالصحراء الغربية عام ١٩٤٠ ، وعمل المشير أحمد اسماعيل على ، ضابطا للمخابرات والاستطلاع فى منطقة الضبعة بالساحل الغربى حتى ١٩٤٢ .. وهناك وفى مواجهة القـــوات البريطانية وتحت قنابل ودانات الطـــائرات والمدفعية الالمانية ، تأكدت النوعية القتالية للمقاتل المصرى ، لعديد من الضباط المصرية والجنود ـ وتحدثت التقـــارير السرية العسكرية الانجليزية ، عن أبنائنا ـ اقتـدارهم تحملهم للمشاق ، عسكريتهم الصارمة ، الضبط والربط لديهم ، نشاطهم القتالى ليلا ونهـارا ، طاقاتهم البدنية الهائلة ، تفاؤلهم ، قيـــادتهم لجنودهم ، حرصهم على تنمية خبراتهم الميدانية القتالية ، اقبالهم على التزود بالمعارف العسكرية المستحدثة ، ابتكاراتهم فى معـدات القتال ، سلوكهم الراقى ، تماســكهم الدينى ، وعيهم الوطنى .

وكان السادات ، وأحمد اسماعيل على ، بين هؤلاء الشباب ابناء مصر وعقلها النابض وذراعهـــا المرفوع

بالحماية لأرضها وكرامتها وحريتها على مدى الاجيال .

وفى عام ١٩٤٥ ، ذهب « الضابط أحمد اسماعيل على» بين عدد من الضباط المصريين الى بعثة تدريب لدى القوات البريطانية فى « دير سنيد ، بفلسطين » وبعد انتهاء فترة الدراسة العملية أدى الجميع ، الضباط المصريون والانجليز ، اختيارا تحريريا وبيانا بالذخيرة الحية ، وكان احمد اسماعيل هو الاول بامتياز فى ترتيب الناجحين من الانجليز والمصريين معا .

الجولة الاولى

سافر بعد ذلك الى دورة تدريبية فى انجلترا ، وعاد ليلتحق بكلية الأركان عام ١٩٤٨ ، ومرة أخرى يحصل على ترتيب أول دفعته ، ثم حارب الجولة الاولى مع العدو الاسرائيلى فى نفس العام ، وأقام خطا دفاعيا حصينا فى رفح ، كان محل اهتمام ودراسة صحف أوربية ، وقيادات عسكرية عالمية مختلفة بعد فرض الهدنة .

وعاد الى القاهرة ، وكضابط صغير حاصل على ماجستير العلوم العسكرية فى كلية القادة والاركان ، تولى رئاسة أركان اللواء الثانى مشاة ، بالقنطرة شرق .

وفى المدينة الخالدة ، يلتقى صديقا الصبا مرة أخرى ، الرئيس أنور السادات والمشير أحمد اسماعيل على ، ويعيشان فى حجرة واحدة ، ويتصل الحديث بينهما حول مصر وقضاياها .. قضايا شباب العشرينات وشاغلهم الاوحد فى الخمسينات ...

وفجأة يصدر قراران ، الاول ينقل الرئيس السادات الى رفح ، والثانى ينقل القائد العام مدرسا بكلية أركان حرب حتى عام ١٩٥٣ .

وفى عام ١٩٥٤ ، عاد الى تشكيلات القتال واشترك فى معركة « الصبحة » الشهيرة ، ثم ذهب الى الشط ، فأبى عجيلة ، قائدا للكتيبة السابعة مشاة ، حيث أنشأ قوات الصاعقة .. نواة الصاعقة ولقنها دورياتها .

وجاء عام ١٩٥٥ ، واشترك فى اعداد صفقة الاسلحة التشيكية الكبرى ، وفى وضع برامج استخدامها ، ثم وقع العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، وكان المشير أحمد اسماعيل على برتبة عقيد ، قائد اللواء الثالث مشاة ، فى رفح ثم القنطرة شرق ، وقد تقدم به الى وسط سيناء . وبين مهامه ـ تأمين وحداتنا المدرعة ، واشتبك فى عدة معارك تصادمية مع العدو الاسرائيلى ، ثم توجه الى مدينة بور سعيد ، فى نهاية ديسمبر ١٩٥٦ .

والتحق بأكاديمية فرونز العسكرية فى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٥٧ حتى ١٩٥٩ ، وعاد الى الوطن ليقود « اللواء السادس تجارب » مطبقا حصيلة دراسته العسكرية ، على السلاح الروسى ، ثم انتقل الى الكلية الحربية كبيرا للمعلمين ، ليطبق مرة أخرى التنظيمات الحديثة ، ووسائل التدريب الجديد بين برامج الكلية .

وترك احمد اسماعيل الكلية الحربية ليعمل بهيئة العمليات ، بعدها تولى قيادة الفرقة الثانية مشاة حيث أعاد تشكيلها ، وكانت أول تشكيل مقاتل فى قواتنا المسلحة بالاسلوب العصرى ، وقد حققت هذه الفرقة فى حرب ١٩٧٣ ، أشرف الانتصارات ، بقيادة لواء حسن أبو سعدة .

وفى تلك الفترة تولى المقاتل احمد اسماعيل على قيادة منطقة سيناء ، ثم رئاسة أركان المنطقة الشرقية بالاسماعيلية .

وفى بداية الستينات وهو برتبة لواء أنشأ القيـــادة الافريقية العسكرية مع عدد ليس بقليل من ثوار أفريقيا خريجي المعاهد العسكرية الاوربية ،وعقد أول مؤتمر لهذه القيادة بالقاهرة ، وسافر الى «أكرا والكونغو» حيث قدم الخبرة المصرية لجيوش البلاد الصديقة المستقلة حديثا .

ووقع الاختيار عام ١٩٦٤ على اللواء أحمد اسماعيل على ، ليتولى رئاســـة أركان حرب قواتنا البرية ، ثم رئيسا لأركان الجبهـــة عام ١٩٦٧ وفى أول يوليو ١٩٦٧ تولى قيـادة الجبهـة ، وكانت مهمته من أشـق واقسى المهام . اذ وكل اليه بناء قوات الجبهة بتنظيم جديد أمام عدو أســكرته خمر النصر السريع وقد أخذ يفتح نيرانه على قواتنا كل يوم ..

وخطط القائد العام لمعركة رأس العش ، بداية معارك الصمود ورفع راية استمرار القتـــال ، واغراق المدمرة الاسرائيلية أيلات ، وقبلها هجوم الطيران المصرى على قوات العدو فى عمق سيناء يومى ١٤ و ١٥ يوليو ١٩٦٧ ، حيث الحقت طائراتنا قدرا كبيرا من الخسائر فى قوات العدو ، واستنجدت اسرائيل يومها بالامم المتحدة ، ثم معـــارك الجزيرة الخضراء وبطولاتها التاريخية .

عاد الرجل بعد ذلك ليتولى رئاسة هيئة العمليات ، ويضع أول خطة لقصف حصون خط بارليف بالمدفعية المصرية ، تلك الدشم الحصينة التى أقامها العدو للمرة الاولى وهدمتها مدافعنا وقواتنا المشاة فى معـــــارك الاستنزاف حتى أغسطس ١٩٧٠ ، وهى غير خط بارليف عام ١٩٧٣ ...

تولى بعد ذلك رئاسة أركان قواتنا المسلحة ، وفى نهاية عام ١٩٦٩ ، وقع خلاف بينه وبين مراكز القوى التى

تدخلت حتى فى تخطيط العمليات ، فآثر الانسحاب ومعه بعض القادة حتى أسند اليه القائد الاعلى للقوات المسلحة الرئيس انور السادات ، فى مايو ١٩٧١ ، ادارة المخابرات العامة المصرية ، ثم قيادة القوات ووزارة الحربية قبل نهاية صيف ١٩٧٢ .

وقال القائد العام للقوات المسلحة فى ذلك اليوم كلمته الشهيرة .. « ان للقوات المسلحة واجبا وآحدا فقط ، ان تتلقى الامر بالقتال ، فتقاتل » .

وكانت كلمة قصيرة ولكنها بالغة الدلالة العسكرية .

وداعا أيها البطل

وحارب الرجل أبرز معارك العرب وأشرفها ، وحقق أغلى وأشرف النصر ، ومضى بالقوات المسلحة الى أرقى المستويات القتالية ، وظل المشير أحمد اسماعيل على ، كما يصفه « السادات » رمزا شامخا للعسكرية المصرية والشجاعة العربية .

ان الأعمال التاريخية العظيمة على مستوى الشعوب كحرب أكتوبر الماجدة لم تكن أبدا وليدة يوم أو لحظة ولم تصدر من فراغ ، بل تبقى ثمرة جهد بشرى يهزم أقصى العقبات ، ورؤى تبصر الواقع بحجمه الحقيقى ، ولا تخلط بين الآمال والحقائق ، ولا تلجأ الى الاعمال العفوية ولا تقبل الحلول الوسط .. ولقد كان المشير احمد اسماعيل على تجسيما حيا لهذه الخصائص ، لم يكف يوما عن التقصى والبحث عن المعارف العسكرية الجديدة ، وكان يعمل أحيانا ٩٦ ساعة دون أن تعرف أسرته أين هو ، بل ان شقيقه الاكبر الدكتور فؤاداسماعيل قال لى فى ابريل ١٩٧٤ ، انه ظل أسبوعين يحاول الاتصال بشقيقه القائد العام دون أن يوفق فى رؤيته

وكان رحمه الله يبحث عن متاعب الجنود قبل الضباط فى كل وحدة عسكرية يزورها ويشهد تدريباتها ، وقال لبعض الجنود ذات يوم قبل الحــــرب « أننا نعيش الاستعداد لأخطر الواجبات ، وهو واجب تحويل شعار « الصبر والصمت » الذى رفعه القــائد الاعلى الى حقيقة عملية ، حتى يصدر لنا الامر بالقتال فنقــــــاتل على الفور مستندين الى أكبر قدر من الثقـــــة فى امكانياتنا كمقاتلين وفى قادتنا وفى سلاحنا ولن يخذلنا الله اذا تزودنا بكل هذه الاسلحة .

لقد ترك المشير أحمد اســــماعيل على كما كان يردد دائما أعظم الرجال وانبل الرجال فى كل وحدات قواتنا المسلحة ، قادرين على تحرير بقية سيناء الأسيرة ، هم أبنــاؤه العمــالقة ... وبهم لم يمت البطل الشهيد احمد اسماعيل على ، الذى كان يعرف تفاصيل وخطورة مرضه فعرض تقديم استقالته الى الرئيس السادات لكى يترك مكانه لمقاتل آخر لا يشغله الصراع مع المرض ، ورفض القائد الأعلى قبول الاستقالة ...

لم يمت البطل العملاق فالأنهار لا تموت ، وسيبقى نبعا فياضا بالرجولة والشجاعة يجود ويعطى كالارض التى انبتته أسخى واغنى الأرض .

وداعا أيها المقــاتل العمــلاق البطل الشهيد القــائد العام ..

وداعا يا من قلت الســــــــلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح .. ولتبق فى وجدان الأجيال حيا وشهيداً ، تاريخا مضيئا متألقا للجندية المصرية ، بقاء اللغة والأيام وميلاد الانسان .

من البتانون
إلى عمق سيناء

« سأبدأ بتقديم زميلى الذى شاركنى واجب التخطيط للمعركة ، ساعةبساعة ، ويوما بيوم ، وكان له الفضل الأكبر فى التقصى والمنـــاقشة ، والبحث والوصول الى أنضج الخطط ـ اللواء محمد عبد الغنى الجمسى رئيس هيئة العمليات » .

كانت هذه كلمات المشير أحمد اسماعيل على ، فى مؤتمر القيادة العامة للقــوات المسلحة مساء يوم الاحد ٢٥ نوفمبر ١٩٧٣ ، واستمع المؤتمرون من المدنيين الى رجل عسكرى لاذ بالصمت طويلا ، وتحدث لأول مرة عن تفاصيل معركة رمضان الماجدة ...

انه واحـــد من أركان الصبر والصمت ، وثروتنـــا العسكرية العربية ، وأستاذ متميز للمدرعات بين أساتذة العالم ، رجل أنبتته قرى ريفنا الرائد العظيم ـ الفريق أول محمد عبد الغنى الجمسى ـ رئيس أركان قواتنا المسلحة ، ثم القــائد العام لها ، بعد رحيل المشير أحمد اسماعيل الى رحاب الله .

هذه هى قصة حياته ، من البتانون منوفية ـ حتى عمق سيناء .

لقاء وحوار فى مارس ١٩٧٤

للشدائد يتصـــدى الرجال .. وأمام محن الأوطان ،

يتقدم الأشداء ، الاكثر ايمـــانا ، الاكثر صلابة وثباتا ، فيرتفعون بأوطانهم فوق الكبوات ، ويحفرون بأظافرهم وسط الصخور طريقا للنصر ، وتنطلق من صدورهم قوة خفية لا تفرغ طاقاتها ، كأنها الارض تعطى وتجود كلما دار النهار والليل .

وجاءت معركة رمضان الماجدة ، وتألق الجوهر الأصيل لشعبنا فى قتال أبنائه المقـــاتلين المصريين استطاعة واقتدارا ، وتجلت كالشمس فى كبـــد السماء مآثرهم البطولية خلال العبور والاقتحام وتطوير الهجوم .

لم تكن هذه الانجازات تستند الى قبض الريح ، ولم تكن نتائجها فى طيات الغيب ، أو تعتمد قواتنا على ضربة حظ عشواء .. كانت هنـــاك « خطة » وسعى جدى صامت متماسك دءوب مكثف ، لتحويلها الى واقع حى ، وتحول عسكرى جذرى شـــامل يمضى فى اصرار الى « هدف محدد » وضعه القـائد الأعلى للقوات المسلحة الرئيس أنور السادات منذ تولى ولاية هذا الوطن، وضعه امام قيادة عسكرية مؤمنة تصحح وتلفظ السلبيات ، وتخلق أمثل المناخ لاعادة فتح النيران وتحـــرير الارض الاسيرة ، وانتزاع النصر .

وكان بين عناصر هذه القيادة ، رجل برز بعلمه ، وعقله ونسيجه العســـكرى ، هو الفريق « محمد عبد الغنى الجمسى » ، رئيس أركان قواتنا المسلحة ثم قائدها العام واحد من أعلام قادة العرب العسكريين ، وأســـاتذة المدرعات فى العالم ، وبطل من أبطال حرب اكتوبر الخالدة على مدى التاريخ ...

بداية الطريق

ولد الرجـــل يوم ٩ سبتمبر عام ١٩٢١ فى قرية

البتانون مركز المنوفية ، وليس فى قرية جمصة دقهلية ، كما تخيل البعض نسبة الى اسم أسرته ، وكان هو الابن الخامس بين سبع أبناء لأب بسيط عمل فى تجارة الاقمشة بالقرية ثم تفرغ للزراعة ، وبجانبه ابنه الاكبر الشقيق الوحيد لرئيس الأركان ، وقد حذا حذو أبيه .

وحرص الأب على تعليم أبنائه ، وهو ايمان وسلوك يتميز به أكثر فقراء الفلاحين فى المنوفية ، والدلتا ، وفى عام ١٩٣٦ حصل الطـــــالب محمد على شهادة اتمام الدراسة الثـــــانوية بمدرسة المساعى المشكورة بشبين الكوم ، ثم اتجه على الفـــور الى المدرسة الحـــربية عام ١٩٣٧ .

قلت للفريق الجمسى :

لماذا المدرسة الحربية ، وكيف قبلت بها ؟ ..

ـ جاءت نهاية عام ١٩٣٦ ، والبـلاد تغلى كالبركان والجماهير بين مؤيدة ورافضة لمعاهدة الاستقلال المشهورة بالعام نفسه ، وأرادت القيادة الانجليزية صاحبة السلطة الحقيقية أيامهـــــا ، امتصـــاص غضب الشعب على الاحتلال والمعاهدة ، ففتحت باب القبول بالمدرسة الحربية لأبناء جيلنا من الفقراء ، وكانت محـــرمة تماما علينا ، فالتحق بها الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، والرئيس القائد الأعلى أنور السادات ، والمشير أحمد اسماعيل « رحمه الله » وعدد كبير ممن برزوا بأدوارهم أو قادوا مسئوليات الخمسينات والستينات بعد قيـــام الثورة عام ١٩٥٢ ..

كنت عاشقا للعســـكرية ، وأذكر وأنا طالب بالسنة الثالثة، ثانوى غرامى بالكتب التى تروى سيرة حروب القرن الماضى ، ثم قرأت فتوحات الاسلام وقادته العباقرة، حتى بلغت نقطة أتوقف عندها قليلا ، وهى اهتمـــامى

بكل ما ينشر أو يكتب عن حرب الدروع مبتدئا بحصان طروادة ، حتى الحرب الهندية ـ الباكستانية .

وفى ١ نوفمبر عام ١٩٣٩ ، تخرجت فى الكلية الحربية، والتحقت بسلاح الفرسان . « المدرعات » بعد ذلك ..

وانضم الملازم ثان محمد عبد الغنى محمد الجمسى الى سلاح الحدود بشـــكل مؤقت ، وذهب للعمل فى الصحراء الغربية ، لكنه ظل بهـــا حتى عام ١٩٤٤ ؛ واشترك فى الحرب العالمية الثانية متنقلا بين المنـــاطق العســـكرية المصرية والانجليزية بواحة سيوة ، ومرسى مطروح والسلوم ثم الواحات البحرية بعد ذلك ..

ولقد زادته تلك الاعوام وقسوة العمل فى الصحراء ، صقلا وجسارة وخبرة ، ورؤى جديدة لتطبيقات قوانين الهجوم والدفاع ، واقترابا مؤثرا من الدبابات الانجليزية والألمانية .. فقد عاش رئيس الاركان المصرى فترة دخول روميل ومدرعاته الى العلمين ، وكانت فرصـــة ذهبية لتدعيم معارفه العسكرية وثقافته الخاصة فى تكتيكات ومناورات الدبابات هجوما فوق رمال صحراء مكشوفة ، هى الصحراء الغربية المشابهة تماما لصحراء سيناء ، وقد شهدت عام ١٩٧٣ ، معركة من أبرز وأكبر واخطر معارك الدبابات على مستوى العصر كله .

قال لى رئيس الاركان « وكنا فى مارس ١٩٧٤ » :

ـ « تركت الصـــحراء آسفا الى ادارة المدرعات .. لقد أحببت حياة الصحراء الى درجة الارتباط النفسى الكامل بها ، لست وحدى الذى وقع فى غرامها ، بل كل العسكريين الذين يعشقون العسكرية،ستجدهم بالضرورة مغرمين بخدمة الصحراء رغم قسوتها وضراوتها ، انهـــا تمثل الخبرة والتـــدريب والتحصيل الجديد للضابط الحديث ، الذى لا يكف عن البحث والتقصى وتطـــوير

ذخيرته من الثقافة العسكرية .

وجاء عام ١٩٤٨ ، وذهب اليوزباشي محمد عبد الغنى الجمسي الى بعثة دراسية بأمريكا تخصصت فى الدبابات ؛ ثم اتصلت بها بعثة تكميلية أخرى عام ١٩٤٩ ، فى أمريكا ، أيضـا ، وطـار الى الوطن ليلتحق بكلية أركان حرب مباشرة عامى ١٩٥٠ و ١٩٥١ ، ومن بين الأساتذة الذين درسوا له ، المشير أحمد اسماعيل على ، خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة من عام ١٩٥١ .

عاد اليوزباشي الجمسي الى المـدرعات بعـد ذلك ، ضابطا بارزا بدرجاته وتفوقها ، ليشغل أركان حرب آلاى استطلاع ، حتى قامت الثورة .

وفى جولة عام ١٩٥٦ وكان برتبة مقـدم تولى قيادة الآلاى الخامس مدرعات بمنطقة القنال ، واجتـــاز بوحداته كوبرى الفردان متجهـــا الى سيناء ، عندما صــــدرت اليه الاوامر بالانســحاب والعـــودة الى الاسماعيلية .

المشوار الطويل

وفى عام ١٩٥٧ تولى رئاســة أركان حرب ســـلاح المدرعات ، وأدخل على فنـــون التدريب اضافات بارزة فريدة ، وأخذ السلاح ينمو ويتدعم بأســـلوب عسكرى عصرى وبمستوى متقدم من المقــــاتلين حتى جاء عام ١٩٥٨ ، فعهد اليه بقيادة اللواء الثانى المدرع بمنطقـــة القناة ، وبقى هناك الى أن التحق ببعثـــة مدرعات فى أكاديمية فرونز بالاتحاد السوفيتى عام ١٩٦٠ ، وعاد فى نهاية عام ١٩٦١ ، ليتولى قيادة أحدث مدرسة مصرية للمدرعات بمعدات وتكتيكات جديدة، وكانت بداية مشوار طويل أعطانا فى النهاية أقوى سلاح ، وقد تأكدت قدراته

الهجومية فى حرب ١٩٧٣ الماجدة ...

ظلت هذه المدرسة تحصل على كأس أحسن مدرسة عسكرية لمدة ثلاث سنوات متتالية ، وقد تخرج فيها جميع ضباط مدرعاتنا ، وضبط الصف من المعلمين .

صدرت الاوامر بنقل رئيس الاركان بعد ذلك ، الى رئيس فرع المدرعات بهيئة التدريب ، والتحق بأكاديمية ناصر وتخرج فيها بعد عام ونصف عام ، فى يوليو ١٩٦٦ ، وكان المشير أحمد اسماعيل على وقتها برتبة لواء رئيسا لهيئة اركان‌حرب القوا ت‌البرية ، فاختاره ليتولى رئاسة هيئة عمليات القوات البرية ...

ومنذ ذلك اليوم تلازم الرجلان ، أخوة وصداقة ، يعززها ايمانهما المنفـــرد بالعسكرية المصرية ، وزاد ارتباطهما حين أسندت الى المشير أحمد اسماعيل على ، بعد نتائج جولة يونيو ١٩٦٧ ، مهمـة اعادة بناء وتنظيم وقيادة قوات الجبهة ، فعهد الى « الجمسى » برئاسة أركانه ، ووقف الرجـلان جنبا الى جنب يتصـديان للشدائد ، ويتجاوزان المحنـة ، ويستخدمان فى جراة وثبات بعض أسلحتنا ووحداتنا الجريحة ، عبر مجموعة من معارك الرد على العـدو ، أبرزها معركة رأس العش الخالدة ، ولم يكن قد مضى على الهزيمة أربعة أسابيع .

كانت هذه المعارك التى خاضها المقاتل المصرى رغم الجرح النازف فى الصدور ومرارة العلقم فى الأفواه ، والألم المخيم على الارواح... كانت معارك يوليو ١٩٦٧ ، دليلا حيا على ارتفاع المقاتل المصرى فوق الكبوات ، واصالته القتالية الغالية ، واندفاعه للقتال بالأظافر اذا لم يتوفر لديه السلاح .. تلك العلامات التى أشار اليها القـائد

الاعلى الرئيس أنور السادات أكثر من مرة ، وهـــو يقول :

« انني أعرف جيدا الجيش المصرى والمقاتل المصرى ، ولذلك فضماني الاول والاخـــير ، هو الشعب وأبنائه القوات المسلحة » ...

ووقعت معارك الجزء الاخير من عام ٦٨ ثم عام ٦٩ ، والجمسى رئيسا لهيئة عمليات قيادة قوات جبهة القناة ، ثم نقل نائبا لمدير ادارة المخابرات الحربية والاستطلاع حتى عام ١٩٧٠ ، بعدها تولى رئاسة هيئـــة تدريب القوات المسلحة ، وعاد بعد ذلك فى يناير ١٩٧٢ ، ليرأس هيئة العمليات ، وفى فبراير من نفس العام أسند اليه منصب نائب رئيس الاركان الى جانب رئاسته لهيئـة عمليات قواتنا المسلحة ، وظل يؤدى واجبه حتى قامت حرب اكتوبر ١٩٧٣ واثبتت وجهـــات نظرة وخططه العسكرية .. كفاءتهـــا ، وكان التخطيط الرفيع الذى شارك به فى عمليات ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، ثم تطوير الهجـوم فى سيناء ، فمحاصرة الثغرة وضربها أعظم الاثار والنتائج الايجابية ، وقد أشاد بها القـائد العام ووزير الحـربية خلال مؤتمر عسكرى عقدته القيادة العامة وحضره الوزراء والصحفيون وعدد كبير من الفنانين فى ١٩٧٣/١١/٢٥ .

وفى بداية ديسمبر ١٩٧٣ ، أصدر القـائد للقـــوات المسلحة الرئيس أنور السادات قراره باسناد رئاسة أركان القوات المســـلحة الى اللواء الجمسى ، وفى ١٩ فبراير ١٩٧٤ ، بمجلس الشعب ، كان رئيس الاركان أول من نال رتبة « فريق » تقديرا لكفاءته وقيـــادته العسكرية التى قدمها فى حرب رمضان الماجدة .

المشاة والدبابات

سألته :

ـ تعد معارك الدبابات المصرية الاسرائيلية فى حرب ١٩٧٣ من أخطر وأكبر معارك القرن العشرين ، ورغم خطورتها فقد قال المعلقون العسكريون ، ان المشاة المصريين انهوا دور الدبابة فى أية حروب مستقبلة ، ما هو رأيكم بصفتكم احد قادة المدرعات ، خلال الستينات ! .

ـ ليس تحيزا للدبابات التى انتمى بشبابى اليها اذا قلت ان الدبابة ستظل بتأثيرها القوى فى المعارك القادمة ، من حيث قوة نيرانها وخطة حركتها ، كما ستظل الدبابة هى القوة الضاربة للقوات البرية فى اى مكان فى العالم ..

غير أننى أحب أن أقول أن أنواع الدبابات وتسليحها سيتطور بالضرورة أمام نتائج ٦ اكتوبر .

لقد بدأت أمريكا فعلا فى تطبيق هذا التطوير ، وقد علمت أنها أخذت فى انتاج دبابة أخف وأسرع قادرة على مواجهة المدافع الصغيرة المضادة للدبابات ، التى يحملها المشاة وجنود المدفعية ، على ان الدبابة الجديدة نفسها ستكون مدعمة بصواريخ مضادة للدبابات أيضا ، كجزء من تشكيل المشاة .

ما هو تقييمكم كرجل دبابات لمقاتل المشاة المصرى ؟

ـ كان جندى المشاة المصرى بقتاله وسلاحه وتكتيكه هو المفاجأة التى قدمتها مصر للعالم أجمع ، مفاجاة وقفت كل الشعوب فضلا عن القيادات العسكرية أمامها بالتقدير والدهشة والاعجاب ..

عندما درسنا العدو ، مصادر قوته ، كل مصدر على حدة لكى نضع القوة اللازمة التى يجب توفيرها واعدادها لنتغلب بها على كل مصدر من مصادره ، وجدنا أن

مصدره الأساسي هو عنصر الدبابات،وحتى نهزم الدبابات الاسرائيلية بالمدفعية المضادة لها ، وذلك يستلزم وقتا لنقلها الى الميدان عابرة للقناة فعمق الضفة الشرقية .. كان علينا أن نواجهها بأجسامنا ، بالمشـــاة بعد العبور مباشرة ، وبالتالي لا مفر من تزويد مقاتل المشاة بالسلاح الخفيف القادر على تدمير مدرعات العدو ، فحمل جنودنا المدفع الصاروخي الصغير « م . د . » وحقق المعجزة ، وكانت معارك اللحم ضد الصلب كما وصفها الصحفيون الاجانب .

استطرد رئيس الاركان قائلا :

ـ نعود الى مصادر قوة العدو ، ونقيس ما فعلنـاه مع دباباته على مستوى الاسلحة الاخرى ، الطيران ، البحرية ، حتى شرم الشيخ وتمركز قواته هنـاك ، حاصرناها باغلاق باب المندب .

كانت استراتيجيـة العدو مبنيـة على بعض الاسس المحددة ، وجاء تخطيطنا ليتغلب على هذه الاستراتيجية ويحولها الى اجراءات فاشلة ، ذلك أساس عملنـا ، التخطيط المبصر بكل الابعاد ، والقـائم على امكانيات حقيقية نملـكها ، وفى حدودها نعمــــــل ، فهزمت استراتيجيتنا جميع مصادر قوة العدو .

قلت لرئيس الاركان :

ـ بعد تخفيض قواتنا فى سيناء ، اليس محتملا أن يقوم العدو بهجوم مفاجىء ليسيطر على بعض المناطق التي حررناها فى سيناء ؟

أجاب الفريق الجمسى :

ـ ان قواتنا المسلحة التى قامت بعمليات اكتوبر عام ١٩٧٣ ، فى ظروف عقبة المانع المائى الفريد فى العالم امامها ، وامام تحصينات خط بارليف الهندسية القوية ،

وامام صعوبة اخفاء معدات العبور التى جهزتها قواتنا ما قبل اكتوبر ، واخفاء نوايانا فى الهجوم وهذا عمل شاق وصعب وخطير لم نشرحه بعد ، استلزم جهدا خارقا على مستويات عريضة عسكرية وسياسية ومدنية .. هذه القوات التى قامت بتلك العمليات قادرة ان ترد على العدو ، لو حاول القيام بضربة مفاجئة ، مستغلا الموقف السياسي الاخير ، أو محاولا استرداد ما خسره خلال حرب اكتوبر .

ان المصاعب الرئيسية التى كانت تواجه قواتنا قبل العبور ، لم تعد قائمة الآن ، فضلا عن استعداد مختلف أسلحة قواتنا الذى لم يتوقف تدريبا واعدادا بالسلاح ، وتقديرا لكل موقف جديد وطارىء ..

ان استراتيجية العدو كانت تقوم أساسا على توجيه الضربة الوقائية المسبقة وقد حطمنا هذا الاساس ليس على مستوى العام الماضى فقط ، بل على مستوى المستقبل .

زلزلة المفاجاة

سألت الفريق محمد عبد الغنى الجمسى ، وقد شهد عن قرب جنرال دافيد اليعازر رئيس الاركان الاسرائيلي السابق الذى عزلوه أخيرا من منصبه .. بعد التحقيق فى أسباب هزيمتهم ..

هل كان حقيقة من الضباط الاكفاء ؟

ـ لا استطيع الحكم عليه حكما سليما ، الا من خلال ما قرأته ودرسته عنه ، اننى أميل الى اعتباره ضابطا ممتازا ، ولكنه لم يكن وحده المسئول عما حدث لاسرائيل ، انه كبش فداء ..

كنا نعلم تماما ان القيادة الاسرائيلية اذا تأكد لها

تجهيزنا للهجوم لن يترك الفرصة وستوجه ضربة كبيرة لنا ، ولـكنها لم تتـأكد ، لو شـعر العـدو حقيقـة باستعداداتنا يوم ٥ اكتوبر لما وقعت المفاجأة بالنسبة له ، ربما يكون قد شعر بشيء صباح ٦ اكتوبر ، شاهد بعض نشـاط قواتنا ، ولـكنه كما قيل : : « رأى ولم يفهم » .

ـ ان ما حدث فى اسرائيل من تغييرات وتحقيقات ، وكل ما يحدث حاليا ومستقبلا فى قيادتها أو وزاراتها ، هو زلزلة المفاجأة المصرية ، واحدة من أبرز انجازات القائد الاعلى للقوات المسلحة الرئيس السادات .

٢٦ سبتمبر ١٩٧٣

لقد ابعدت مراكز القوى هذا المقاتل العملاق قائد سادة البحرين الاحمر والابيض ، عن مسرحه العسكرى بعد ان اغرق المدمرة الاسرائيلية « ايلات » مستخدما الصاروخ البحرى لاول مرة أبعدوه عن قيـــــادته البحرية يوم ١٢ سبتمبر عام ١٩٦٩ ، مع اللواء احمد اسماعيل رئيس الاركان ايامها ، ثم عاد الى قواته مكرما مع المشير احمـــــد اسماعيل على القائد العام للقوات المسلحة يوم ٢٦ اكتوبر عام ١٩٧٢ ، ليخــوض اشرف الحروب واعظمها فى اكتوبر ١٩٧٣ ، ولتمتـــد ذراعه بقبضتها المتحكمة عبر اربعة الاف كيلومترا امام سواحلنا العربية ..

هذه صفحات فخار من معارك البحرية الخالدة على مر الايام ..

لقاء وحوار فى يونيو ١٩٧٤

قلت للفريق فؤاد ذكرى :

أعلن القائد الاعلى للقوات المسلحة ان قواتنا البحرية بدأت مهامها فى حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، قبل يوم ٦ الخالد بعشرة أيام ، ولم نفسر سبب ذلك للجماهير ..

ـ لقد تحركنا « مدمرات وغواصات وكاسحات الغام

ولنشات » الى البحر الاحمر لغلق باب المندب ، مبكرا حتى نقطع المسافة بيننا وبين منطقة الهدف فى هدوء ، ودون ان يشعر العدو بنشاط يثيره ، وحتى تكون فى تمام الاستعداد للعمل ، ابتداء من ٢٦ سبتمبر ١٩٧٣، فاذا جاء يوم ٦ اكتوبر ، كنا مالكين لجميع عناصر السيطرة على مداخل البحر الاحمر ..

والمعروف ان حركة الفواصات أبطأ من غيرها ..

ـ قبل الحرب ، هل أستطيع أن أقف على بعض ملامح الايام التى سبقت ٦ اكتوبر ، خاصة وان قرار القائد الاعلى بساعة الصفر أصدره الرئيس السادات فى قيادتكم هنا بالاسكندرية ؟

ـ منذ عام ١٩٦٧ ، وأيدينا فى النار ، غير ان عملية اغراق المدمرة الاسرائيلية ايلات بواسطة لنشات الصواريخ المصرية فى ٢١ أكتوبر ١٩٦٧ ، رفعت معنويات مقاتل البحرية واعتقد كل أبناء قواتنا المسلحة ، بل جماهير الشعب العربى بأكمله .

ومرت الايام وبدأنا مهام مختلفة بعد ذلك ، وقدر كبير من التفاهم الشخصى بين القادة على مستوى القيادة العامة .. خاصة طوال العام الذى سبق الحرب، عبر بنا الى مناخ هائل من التفاهم العسكرى جعل الرؤية أمامنا واضحة ، وارتفع بحجم التعاون بين الاسلحة.. وعن نفسى كقائد بحرى فقد أسعدتنى هذه البيئة العسكرية التى كنا نعمل من خلالها فى واجبات التنسيق مع هيئة العمليات بقيادة الفريق محمد عبد الغنى الجمسى .

كان للبحرية نصيب كبير فى خطة خداع العدو ، بل خداع اى أجهزة مصرية وبالتالى أجنبية ولم يستطع

احد اكتشاف أهدافنا الحقيقية ، وهـذا عمـل عظيم بالمقاييس العسكرية .

لقدخرجت قطعنا البحرية لتقوم بمناوراتهاالسنوية، ولما كانت مناوراتنا بالذخيرة الحية دائما ، فقد قمنـا بنقل الذخيرة والصواريخ فى هدوء وطبيعية تامة ، غير اننى أردت استكمال خطـة التمويه ، فقلت لمقـاتلى الوحدات البحرية المختلفة « هـذه المناورات اختبـار عمل لما سيتم فى العمليات ، اختبار أشبه بحرب فعلية وكان قولى هذا تبريرا لـكمية الذخيرة التى حملناها»

ولقد فهم كثيرون ان الحرب على الابواب .

هنا أحب أن أسجل ملاحظة صغيرة ..

قبل العمليات وفى اجتماعنا بالقـائد الاعلى الرئيس انور السادات نتدارس الخطة والتطبيق .. رأيتـه حريصا بالدرجة الاولى على تامين الرجـال من أبنـائه المقاتلين خلال الحـرب وعلى حمـاية القطع البحـرية المختلفة من غارات الطيران الاسرائيلى ، ولم يكن حرصه هذا من خلال مشاعره فقط بل من خلال بحثه العملى فى ايجاد وسيلة ناجحة لذلك ، وادراجهـا ضمن بنود الخطة ، وكان له جهده فى تلك المهام من خلال اتصاله برؤساء الدول الشقيقة والصديقة لهذا الفرض .

لقد أرسلنـا بعض قطعنا البحرية الى ليبيـا والى باكستان ، وقبل فترة ليست بقصـيرة ، ذهبت لجنة من سلاحنا الى كراتشى وطلبت تصنيع بعض متطلبات الغواصات فى مصانع باكستان ، ودرسوا مع الاصدقاء الباكستانيين عملية القيام « بعمرة » لهـــذه القطع المصرية ، وكان من بنود خطة خداع العدو ، كما أعددنا برنامجا لزيارة بعض مدمراتنا لعدة دول عربية مطلة على البحر الاحمر ، وسرى نبأ هذا البرنامج الى الخارج ،

وهدفنا هو وصول المدمرات الى مدخل الخليج فى البحر الاحمر ، والتمركز أمام باب المندب ، بينما الغواصات على سطح الماء نهارا ، وفى عمق البحـــر ليلا تمضى الى هدفنا مع المدمرات .

سكت القائد البحرى قليلا ، وكأنه يســـــتعيد الذكريات ، ومال برأسه ناحيتى ، وقال وهو يضغط على كلماته :

ما يدعو الى الفخر هو أن ما خططنــاه ، نفـذناه حرفيا ، وهذا العمل يعكس صــــورة ممتازة للفكر والمستوى القيادى ، فى التخطيط والتنفيذ ، والروح التى تربط القوات البحرية ، بالاســـلحة الاخرى فى القوات المسلحة .

لم نخطط شيئا غير قادرين على تنفيذه ، لم نحـلم أو نأمل ، بل كل صغيرة وكبيرة من الواجبات القتالية فى الخطة العامة ، طبقهـا المقـاتلون على الواقع بجزئياتها كلها .

البحرية وبترول اسرائيل

سألت أمير البحرين الذى اكتسب لقبه بجدارة عبر انتصاره المشرف فى حرب ١٩٧٣ :

للبحرية المصرية خطة استراتيجية الى جانب خطـة هجماتها التكتيكية .. هل نستطيع ان نقترب من هذه الخطة ؟

ـ باختصار كانت شغل العدو على أطول وأكبر مواجهة بحرية وفى وقت واحد ، مما يجعله عاجزا عن تغطيــة سلاحنا وانتشارنا فى كل هذه المناطق فيصــــاب بالتشتت فى طاقته ، فالبحرية ذات مسرح قتــالى يختلف عن المسرح البرى وفى خطتنــا الاستراتيجيـة

عملنا على توسيع المسرح البحرى حتى بلغ ۲۰۰۰ كيلومتر فى البحر الاحمر ، ونفس المساحة تقريبا فى البحر الابيض ، وجهدنا فى البحر الاحمر كان له تأثيره الكبير بفضل جغرافية الوطن العربى ، وفى تلك المنطقة المطلة منه على البحر الابيض جنوبا فالعدو كان يعتمد على بترول يرد له من الخارج مارا بالبحر الاحمر عبر خليج العقبة ، الى ايلات ، ليضخ فى عسقلان بالبحر الابيض ثم يصدر الى الخارج بعد ذلك فعملنا على تلغيم خليج السويس ، وتجمد كل هذا النشاط الاسرائيلى على الفور وتأثرت أسعار البترول داخل اسرائيل بعد بدء العمليات الحربية بأيام قليلة ، ليست أسعار التصدير فحسب بل الاسعار الداخلية ايضا ، والبترول يدخل فى جميع صناعات اسرائيل .

حرمنا العدو أيضا من استغلال آبارنا البترولية شرق خليج السويس التى استولى عليها فى عام ١٩٦٧ ، وقد استطاع رفع قدرتها الانتاجية وكان مقدرا لها أن تصل هذا العام الى خمسة ملايين طن ، وبالتالى اصبحت اسرائيل بلا مصادر بترولية ، كما اضطرت لتحويل خطوطها الملاحية البحرية عبر افريقيا حول رأس الرجاء الصالح أو ايران ، وتعطلت خطوط العدو فى البحر الابيض بنسبة ٢٠ ٪ من كثافة خطوط مواصلاته ، ورفضت شركات التأمين العالمية تغطية خسائره فى الحرب .

وفى البحر الاحمر أغلقت المدمرات والغواصات واللنشات المصرية الف ميل تقريبا امام العدو الذى حوصر بموقف ونشاط البحرية السورية وقد ظل اتصالنا وتنسيقنا للعمل وثيقا ناميا فأغلقت البحرية السورية ـ المياه ـ شرق قبرص ، بينما تولت البحرية

المصرية واجباتها أمام قبرص وغربها .
سألت :
هل حاولت بعض السفن أن تتهرب من الحصار ؟
ــ فعلا حاول البعض فى البحر الابيض واصيب ، ولم يحدث اى تسلل أو تسرب فى البحر الاحمر .. غير قطعة بحرية واحدة فوجئت بالحرب وكانت بالمياه وأصيبت هى الاخرى ..
المهم .. استطعنا فى النهاية ان ننزع الشريان الحيوى لاسرائيل نزعا تاما ، وهو اتصالها بالخارج عن طريق البحر ، والملاحة الجوية لا يمكنها تعويضها ذلك الشريان المتمثل فى سفن الملاحة البحرية .
ــ تردد ان قواتنا البحرية كانت ستقوم بعملية ابرار بحرى ضد العدو ، على مستوى مشاة الاسطول .. ثم تأجلت هذه المهمة .
قال القائد البحرى :
فى خطة الخداع ، كان هناك ابرار بحرى ، اذ أرسلنا ناقلات جنود الى بور سعيد حتى نوحى للقيادة الاسرائيلية بذلك ، ولم يكن مدرجا فى الخطة مثل هذا العمل ، وحققنا خطوة هامة فى تشتيت طاقته القتالية حين نفذنا هذه الجزئية من مهام التمويه والخداع . .
قام الفريق فؤاد ذكرى الى البلكون الملحق بمكتبه ، المطل على البحر الابيض ووقف قليلا يتنسم رائحة السفن كأنه يتزود بشحنات جديدة من المعنويات ..
وحين عاد بعد دقيقة أو أكثر من الوقت .. قلت له هذا الخاطر ..
وقال القائد :
انها ليست رائحة السفن ، بل رائحة البحر ، ان البحر حبى ، ولقد تعلقت به منذ زمن طويل ، وكل يوم

عشته فوقه شعرت بسعادة أكثر ، ان من يخدم مائة عام فى البحر فسيرى فى كل يوم جديدا ..

الـكاب القديم

هل تعرف شيئا ؟

ان ضابط البحرية يفخر بأنه يرتدى كابا قديما فوق رأسه ، وقد خبت لمعية القصب بمقدمة الـكاب نتيجة الملح فى البحر ، معنى ذلك ان هذا الضابط من قدامى رجال البحرية ، ساقه تعودت اكثر على البحر ، داس البحر أكثر من غيره ، وامتلك خبرات أكبر.. فالبحرية ذات عراقة مع التاريخ .. ولولا تدخل الاستعمار لما فقدنا تلك الفترة ما بين انتقال الاسـطول من خشب وشراع ، الى حديد وبخار ، لقد كان لنـا الاسـطول الذى نفخر به أيام محمـد على والمماليك ، والقـاعدة الجيدة لصناعة السفن الحربية ، والفـكر العسـكرى الممتاز المتقدم على عصره ، ثم تجمد كل هذا النشاط ، واصبحنا دولة لا تنتج السلاح بل تستهلـكه فقط ، ورغم ذلك بقيت البحرية المصرية رائدة دائما بخبراتها وتطبيقاتها العملية وليست النظرية ، وهى تطبيقـات ادت الى ارساء مبادىء جديدة فى فنون القتال بالبحر، اثبتت صلاحيتها وتفوقها .

كيف يا سيادة الفريق ؟

استخدمت البحرية المصرية أول صاروخ بحرى فى عملية اغراق المدمرة ايلات عام ١٩٦٧ ، وجاءتنا برقيات تهنئة ليس من العرب فقط بل من جماهير عديدة فى استراليا ، وامريكا ، وانجلترا ، ومن جامعات أمريكية ، واسبانية ، وفرنسية ، فضلا عن جماهير الشعب العربى فى أنحاء الدنيا وكانت فرحتى كبيرة ببرقيـات المصريين

البسطاء منهم فى الدرجة الاولى .. واذكر ان بائعا متجولا من أبناء الاسكندرية اشترى مصحفا كبير الحجم وجاء به يهديه الى قواته البحرية ..

هذا الحدث العسكرى البحرى يعادل انقلابا فى موازين وتخطيط المستقبل ، وثورة فى الفكر البحرى عالميا ، وفى رأيى انه يماثل الانتقال من مرحلة الشراع والخشب الى مرحلة البخار والحديد ..

ان البحرية المصرية اعلنت تطويرا عالميا فى فنون القتال البحرى يوم ٢١ اكتور ١٩٦٧ .

لقد تصارعت الوحدة البحرية الصغيرة والكبيرة ، وانتصرت الصغيرة ، وتبدلت نظريات الغرب وعملوا على تعميم الصاروخ البحرى فوق القطعة الصغيرة كسلاح أساسى للقوات البحرية.. ولكنى أعود وأقول ان هذا التطوير ينطبق عمليا على السواحل المصرية أكثر منها فى المحيطات .

وجاء عام ١٩٧٣ ، وقامت أول معركة بحرية تصادمية فى تاريخ البحار بواسطة اللنشات ، وأعطى أبطال لنشاتنا الصاروخية أروع صفحات الاقتدار والعلم والاستطاعة خلال عملياتهم فى حرب اكتوبر ، وطبقوا كل برامج تدريبهم بأرقى الكفاءة والاستعداد لاستيعاب الخطة واتقان تحويلها الى واقع حى بثبات ارادى حطم توازن العدو فى البحرين الاحمر والابيض .

عدت أسأل :

ــ كم من الاعوام مضى ونحن نستوعب حرب الصواريخ ؟

ــ مع بداية الستينات دخلنا فى بناء قاعدة فنية تكتيكية صاروخية ، وكان لا بد من فترة طويلة ليصبح لدى قواتنا قاعدة بشرية قادرة على سيادة السلاح ،

ان الصاروخ بلا المقاتل المدرب علميا ومدرب عمليا وتثقيفيا يصبح قطعة حديد خردة ، وسلاح البحرية فى اى مكان بالعالم لا يستطيع قطع طريق تطوره بخطوات سريعة ، ولقد أصبح للبحرية المصرية فى السبعينات تكامل فى نوعياتها وقوة متزنة فى أسلحتها .

قبضة اليد المتحكمة

وقال الفريق ، القائد البحرى :

ـ وهنا أحب ان اسجل تلك الاعمال العريضة ، والنشاط الضخم والجهد الجبار الذى قام به قادة آخرون ، تولوا قيادة قواتنا البحرية قبلى ، وأتيحت لهم الفرصة لانجاز أعمال عظيمة على المدى الطويل ، حتى بلغت قواتنا وهى تواجه اخطارا مستمرة فى السلم الى جانب اخطار الحرب هذا المستوى القتالى الذى قاتلت به حرب اكتوبر العظمى .

كانت أرواح مقاتلى البحرية ـ ابنائى العمالقة ، نابعة من عراقتهم ، من معنوياتهم العالية ، من شدة ايمانهم بالله ، من ترابطهم وهم فوق الوحدة البحرية صغيرة أو كبيرة ، من تدريبهم الطويل .. ان الغريزة كانت من أقوى أسلحتنا الضارية .

ان نشاط البحرية يظل نشاطا جماعيا دائما ـ الكبير والصغير يتحولان الى مقاتل واحد ، التقارب بين الضابط والجندى المشفوع بضبط وربط جيد يولد أقوى الارتباط والتلاحم ، ومن هنا يصبح طاقم المركب الذى اتقن واجباته ، كقبضة اليد القوية المتحكمة ..

لقد قلت لرجالى مشبها :

ـ ان القائد بمثابة كف اليد ، وانتم ايها المقاتلون اصابع هذه اليد ، والبحرية مثل بقية الاسلحة تمثل

بالتالى أصابع فى قبضة يد قواتنا المسلحة .. قبضة لها تأثيرها فى جميع المجالات ضد العدو .

نعود الى معارك البحرية فى حرب ١٩٧٣ .. ليلة ٨ و ٩ اكتوبر بدأ العدو يجمع وحداته من موانئه لشرق بور سعيد ليوهمنا بأنه سيقوم بابرار بحرى وكان ذلك فى حساباتنا ، ثم وقعت معركة الصواريخ التصادمية بين دمياط والبرلس وحققت البحرية واحدة من ابرز معارك البحار وأول معركة بحرية تصادمية بالصواريخ.

لقد ضربت لنشات العدو فى أحد أيام الحرب بعضها البعض ، وطائراته ضربت بعض لنشاتها نتيجة المناورة المصرية المتفوقة التى أصابته بالتخبط .. كان ذلك فى الخطة أيضا .

المدفعية الساحلية فى بور سعيد فتحت نيرانها على قوات العدو شرق البحر الابيض .

وضربنا مواقع القوات الاسرائيلية الاستراتيجية فى رمانة وبالوظة ثم شرق بور فؤاد ، وراس برون ، وعلى امتداد الساحل الى رمانة دمرنا له محطة رادار لتوجيه طائراته .. دمرناها بالمدفعية الصاروخية ، ثم استطلعنا بالقوة المنطقة بأكملها ، استطلاعا شاملا تستطيع ان تطلق عليه مسحا شاملا بالقوة .

هذا على مستوى الجيش الثانى ..

أما على مستوى الجيش الثالث ، فقد قامت المدفعية الساحلية فى ميناء الادبية بفتح نيرانها المعاونة على العدو ضمن خطة منسقة مع القيادة العامة وقيادة كل من الجيشين ، وكان لنا مدفعية ساحلية متحركة ، تعمل فى مواقع عديدة وتبادلية فعجز العدو عن قصفها ، وفى منطقة الخليج اشتبكت المدفعية الساحلية والمدفعية الصاروخية فوق وحدات البحرية مع قوات العدو ثم

قمنا بضرب المراكز البترولية فى الخليج ، وبعد ذلك دمرت الصاعقة البحـــرية والضفادع البشرية آبار بلاعيم ، ومخازن الوقود والذخيرة عبر تقاطع طرق خليج السويس ولغم هؤلاء الانتحاريين مداخل عديدة فى مراسى العــدو البحرية وأهمهـا مدخل الطور ، وانفجـرت قطـع بحرية اسرائيلية أمام عيون رجالنا،كما تولت اللنشات الصاروخية ضرب المواقع الفنية للعدو حول شرم الشيخ ومطاره الفرعى هناك وبعض مناطق اعاشة قواته ، ومخازن ذخيرة هـذه القاعدة الاسرائيلية المتقدمة للعدو فى البحر الاحمر .

ولقد حاولت ضفادعه شل حركة وحداتنا فى بورسعيد والغردقة ، ولم يخرج ضفدع بشرى اسرائيلى جاء الينا كل مسطحاتنا المائية تحت الحماية ، وجـاءت لنشـاته تبحث عن ضفادعهم يوم ١٨ اكتوبر ليـــلا ، وفتحت مدفعيتنا الساحلية عليها نيرانها ، ثم نشرنا صورالضفادع الاسرائيلية وهم قتلى فوق أرصفتنا ..

ومن هنا بقيت الحركة الملاحية من والى الاسكندرية سليمة مائة فى المائة ، كما بقيت اقتصـــاديات الدولة واستمرت تدعيمات المعركة بالسلاح .

سألت قائد قواتنا البحرية :

لقد صنعنا اللنش المصرى صناعة مصرية .

وقيل انه اشترك فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ بكفاءة عالية. اننى اطمع فى الحديث عن هذا العمل العظيم .

ـ كان العقل المصرى متفوقا داخل السلاح ، الابتكارات المصرية والاضافات التى قدمهـا رجالنا أعطت نتــائج متالقة فى مجال اللنشات .

بالفعل صنعنا اللنش المصرى ، وطورنا فى استخدامات الصواريخ والمدفعيات وكانت هـذه المهام محل دهشـة واستفســار السوفييت والفرنسيين ، وأذكر اننى قلت

لاحد القادة العالميين الذين زارونا هنا بعد الحرب :

ـ ليس النصر الذى حققناه مصدره سلاح معين ، أو نابعا من استخدامات حديثة للتكنولوجيا كما يعتقد الناس ، ان مصادر النصر فى حربنا المشروعة هى المقاتل المصرى بنسيجه البشرى ، وستظل أهميته متزايدة كلما تقدمت فنون التكنولوجيا والالكترون .

كان الجندى البحرى غير المتعلم رائعا وهو يقاتل فوق الماء وطيران العدو مكثفا فوقه ، لم يفكر فى حماية على الاطلاق .. وكان المصابون يعودون الى وحداتهم ويقاتلون من جديد رغم اصاباتهم .. كنا جميعا فى أشد الحاجة الى مذاق النصر وقد طال شوقنا له .

القائد الاعلى

السيد القائد ..

أحسست من حديثكم ان الرئيس السادات أعطى كثيرا من وقته لمعارك البحرية قبل ٦ اكتوبر ، واستعدادا لهذا اليوم .. هل يمكن ان تحدثنى عن القائد الاعلى وهو يخطط للمعركة ؟

وكأن سؤالى أدهشه ، فقد قال لى متعجبا :

ـ وهل يتحدث قائد ما عن قائده الاعلى ، المفروض عسكريا ان يتحدث القائد الاعلى عنا ، لا نحن الذين نتحدث عنه ..

ـ من الناحية الانسانية .. انه لن يتحدث عن نفسه على الاطلاق فلا مفر من أن يتحدث قادته عنه الى جماهير شعبنا .

وكأن تفسيرى اقنعه ، فقال :

انه من الناحية العسكرية قائد أعلى بكل ما تعنيه الرتبة ، اقصد انه قائد أعلى كمقاتل ، لا كرئيس جمهورية

استمر يستمع الينا كثيرا ، فى الاجتماع الواحـد كان يستمع من ٣ ـ ٥ ساعات متصلة ، ثم يتكلم فيركز على نقاط لها تأثير سياسى وعسكرى وينبه اليها ، وهو كما يعلم كثيرون له ثقافته العسكرية النامية باستمرار، تلك احدى ميزاته ، وكل ما نبـه اليه يعكس اسـتيعابه للموقف العسكرى استراتيجيا ثم تكتيكيـا ، لم يطلب المستحيل من احد قادته ، بل طلب ما فى استطـاعة كل منا ، وثقته كبيرة جدا فى قادته ، جعلتنا نحرص كل الحرص على صيانة هذه الثقة ، وتنفيذ ما خططناه وصدق به فى أكمل صور التنفيذ ، وكقائد أعلى شـاركنا المسئولية العسكرية ، وهـذه المشاركة لها دلالة لم يهتم احـد بدراستها حتي الان ولذلك استمر جهدنا موجها الى تنفيذ المهام لا الى الحرص على حياتنا ..

ولقد قلت لابنائى ذات يوم بعد الحرب :

« لم أر عاشقا لمصر مثله ، لانه عبر عمليا عن عشقه » .

من هو قائد البحرية ؟

- من مواليد العريش ، ٨ نوفمبر عام ١٩٢٣
- عاش طفولته وصباه فى الاسماعيلية .
- تخرج فى الكلية الحربية عام ١٩٤٦ .
- قضى عاما بالكلية البحرية بعد ذلك ، وكان التحاقه بها تحقيقا لرغبة شخصية .
- التحق بالمدمرات ضابطا للمدفعية .
- قضى عامين بين سفن الاسطول البريطانى فى البحر الابيض .
- حصل على بعثتين الى انجلترا ، درس فى الاولى جميع تخصصات البحرية ، ثم تخصص المدفعيـة والطوربيد .

- حصل على كلية الاركان من الهند .
- قام ببعثة قيادة مدمرات الى انجلترا مرة أخرى عام ١٩٥٥ .
- حصل على فرقة دراسة عسكرية سوفييتية داخل قواتنا المسلحة ، وهى فرقة قيادة وأركان بمستوى قائد تشكيلات ، عام ١٩٦٣ .
- كان فى مقدمة خريجى الدفعة الأولى بأكاديمية ناصر العسكرية العليا مع المرحوم المشير احمد اسماعيل على والفريق أول محمد عبد الغنى الجمسى عام ١٩٦٥ - ١٩٦٦ .
- تولى قيادة قواتنا البحرية فى ١٢ يونيو عام ١٩٦٧.
- أخرجته مراكز القوى عام ١٩٦٩ .
- عاد الى القوات البحرية عام ١٩٧٢ .
- قاد أول معركة يطلق فيها صاروخ بحرى فى تاريخ العسكرية العالمية ، وهى معركة اغراق « ايلات » ٢١ اكتوبر عام ١٩٦٧ ، ثم أول معركة بحرية تصادمية بالصواريخ فى تاريخ البحر خلال حرب اكتوبر المجيدة .

المعركة التصادمية البحرية

أصبحت اللنشات الصاروخية تتصدر فنون القتال الحديثة المتطورة فوق البحار ، وتوارى دور المدمرات أو القطعة البحرية الكبيرة قليلا ، لتتقدم وتسود تلك القطعة البحرية الصغيرة « الزورق أو اللنش .. »

وفى حرب رمضان الماجدة أدار مقاتلو سلاح اللنشات فى قواتنا البحرية معاركهم بأرفع الكفاءة القتالية ، وأعطوا للوطن العربى باقتدارهم واستطاعتهم ونوعية تدريبهم صفحات فخار وشرف فوق البحرين الاحمر والابيض .

فى احدى هذه المعارك ، واجهت « ٤ » لنشات مصرية « ٨ » لنشات اسرائيلية ، تحميها مظلة جوية من الفانتوم و ٦ طائرات هليكوبتر حاملة للصواريخ ، واغرق عمالقة زوارقنا خمسة لنشات عدوة ، وأصابت السادس

هذه بعض ملامح السيطرة والسيادة التى امتلكها « سادة البحرين الاحمر والابيض قواتنا البحرية » بمختلف أسلحتها الضارية فى حرب اكتوبر .

لقد سجلت لنشات الصواريخ المصرية تأكيدات جديدة بارزة على التحول الفعلي فى معارك البحر الحديثة ، من القطعة البحرية الكبيرة — الى القطعة الصغيرة ، وهى « اللنش » خلال حرب التحرير فى رمضان الخالد ...

ففي أكتوبر عام ١٩٦٧ ، ظهر للعـــالم أول هذه المؤشرات عندما اغرق احد زوارقنا ، المدمرة الاسرائيلية ايلات ، ووقع بعد ذلك انقلاب هائل فى استراتيجية القوات البحرية غرب العالم وشرقه ، وتبـــدلت دوليـــا موازين وخطط ترسانات الاسلحة البحرية ، وجاء اكتوبر عام ١٩٧٣ ، وحققت قواتنا البحرية بوحدات اللنشات الصـــاروخية أرقى الانتصارات ، كما قدمت لدول العالم وجيوشـــها نموذجا عاليا فى كفاءة ادارة القتـــال التعرضى والمعركة التصادمية البحرية الـكبيرة باستطاعة وسيطرة ، وهى قابضة بذراعها الفولاذى على زمام القتال فوق البحر ، مالـكة لاحدث فنونه ، قادرة على توجيه أكبر حجم مؤثر من النيران ضد أجنحة العدو البحرية ، فى قتـــــال حاسم سريع ، تكرر كثيرا ، وأبرزها واحدة من العمليات البحرية التى وقعت لاول مرة بالعالم ، ودارت على مدى ليلتين وتلاحمت فيهالنشاتنا مع لنشات العدو ما بين البرلس ودمياط ليلتى ٨ و ٩ أكتوبر عام ١٩٧٣ .

فى هـــــذه المعركة هاجمت اللنشات الاربعة المصرية تشكيلا معاديا يتكون من ضعف عدد لنشاتنـــــا مدعوما باكثر من ٦ طائرات هليكوبتر مسلحة بالصواريخ ، ومظلة جوية من الفانتوم وقاتلت وحداتنا ببسالة .ورباطة جأش وطبقت بيانات تدريباتها ، وأصرت على تدمير العـــدو البحرى أمام سيطرته جويا ، واســـتطاع مقاتلونا تدمير خمسة لنشات اسرائيلية ، وأصابوا السادس ، فى نهاية المعركة ، وقد أسقط مقاتلو المدفعية المضادة للطـــائرات فوق لنشاتنا ثلاث طائرات هليكوبتر ، وهربت الطـــائرات الثلاث الاخرى حين ظهرت طائراتنا الميج ٢١ ، لتطـــارد الفانتوم الاسرائيلية فوق سماء البحيرة .

وعاد الرجال خلال اجازة قصيرة الى الميناء ، وذهبت أسعى اليهم والى بطولاتهم .

الترابط الاخوى

روى لى المقاتل ابراهيم :

ــ نحن فى اللنش كأفراد الاسرة الواحــدة المتحابة ، فالقطعة البحرية الـكبيرة أو الصغيرة مكان ضيق متنقل، وفوقه نتعرض لاخطار القتال البحرى بل واخطار البحر نفسه ، ولذلك يسودنا قدر كبير من الترابط الاخوى ، ويظلل علاقاتنا ضباطا وجنودا مناخ ثرى بالعاطفة التى تنشرها رفقة السلاح ، وتنميها المشاركة بالدم ، ويرتقى بها الى أغلى العلاقات البشرية الانسانية ذلك المصــير الواحد الذى نواجهه جميعا نحن طاقم اللنش فوق الماء .

عندما غرق احد لنشاتنا بعد ان تعرض لهجوم جوى مكثف ، وصدرت الاوامر الى الطاقم بالنزول الى الماء ، وكنا جميعا صياما فى رمضـــان الـكريم ، شاهد القائد جاد جنديا يصارع المـاء ، فقفز خلفه وحمله سابحا الى لنش آخر ، وضابط ثان حمل جنديا جريحا لمدة ساعتين فى المـاء يحميه بجسده من انفجارات قنــابل طــائرات العدو ، بل خلع اكثر الضباط جاكتات الانقاذ وأعطوها للجنود الذين لا يرتدونها ، وكان مشهدا رائعا لا ترقى اليه الـكلمة لتصفه فوق الورق على الاطلاق .

وفى جلسة حوار بين المقـــاتلين « شيرين ، ويحيى ، ورضا ، وطارق، واسماعيل ، وفاروق ، وسمير، وأمير، وسيد » ، من عمالقة لنشات الصواريخ المصرية ، عدنا للوراء قليلا :

ــ ان اكثر مقاتلى اللنشات تمرسوا بالقتــال الفعلى فوق الزوارق فى يونيو ، واكتوبر عام ١٩٦٧ ، وفى عام

١٩٦٩ وعام ١٩٧٠ ، وطوال سنوات الصبر والصمت التي نادى بها القائد الاعلى الرئيس انور السادات ، كان التدريب عمليا وعلى نطاق واسع فوق أطول خط قتال بحرى فى الشرق الاوسط من اقصى الشمال الغربى على حدود ليبيا حتى بور سعيد ـ بالبحرالابيض ـ ثم شمال قناة السويس ممتدا الى نهاية حدودنا الجنوبية مجتازا البحر الاحمر .. وبذلك ، تمثل قواتنا البحرية أول خط هجومى ـ دفاعى ـ فى المعارك الشاملة أمام البحرين ، الاحمر ، والابيض ، وفوق هـذا الخط ١٦٠٠ كيلومتر كانت برامج التدريب الدموية تطبـق بالذخيرة الحية ، وتحت كل ظروف وأجواء البحر المختلفة ، كى تزداد اطقم الوحدات اتقانا لمهامهم ، ثم تجرى المناورات لاختيار نتائج هـذا التـدريب .

وجاءت الايام الحاسمة القريبة من اكتوبر عام ١٩٧٣، وفى وقت مختار بعناية شحن الرجال صواريخهم واحتلوا اماكنهم دون ان تؤدى تحركاتهم الى كشـف نواياهم ، وكانت وحدات العدو تتمركز فى موانىءاشدود ، وحيفا بالبحر الابيض ، وموانىء ايلات وشرم الشيخ ، ورأس سدر ، وأبو رديس بالبحر الاحمر ، ورجال الاستطلاع حولهم دائما ، يرصدون نشاطهم وأحجامهم وتسليحهم عبر ٤٠٠ كيلومتر ، هى مساحة ما تبلغه سواحل العدو بما فيها الارض المحتلة .

وفى يوم ٦ أكتوبر الخالد ، اشتركت جميع تشكيلات القوات البحرية بالهجـوم على العـدو .. مدمرات ، غواصات ، مدفعية ساحلية ، قناصات ، صاعقة بحـرية ضفادع بشرية ، لنشات الطوربيد ، ولنشات الصواريخ حيث قامت الوحدات الاخيرة بتوجيه قصفات مكثفة الى مناطق شرق بور فؤاد ، ورمانه ، ورأس برم ، وشرم

الشيخ ، وميناء رأس سدر ، ووقعت المعركة التصادمية الشهيرة مع بداية يوم ٨ اكتوبر عام ١٩٧٣ ، أول معركة فى التاريخ البحرى تشترك فيها صواريخ ـ ضد صواريخ ، غير ان بطولة مقاتلى لنشاتنا لا تنحصر فى هذا اللون من القتال فحسب ، بل فى هجومهم المقتدر ضد لنشات العدو وهى ضعف لنشاتهم .

ليست معجزة !

ماذا حدث ، خلال القتال ؟

كيف دارت هذه المعركة التعرضية ، التصادمية بين البرلس ودمياط ، وكيف حقق عمالقة لنشاتنا هذا القدر من النصر التكتيكى ؟ !

يجيب الرجال :

ـ ليس فى الامر معجزة ، حقيقة كان الله حولنا يزودنا بالحماية ويلهمنا التصرف الحكيم خلال احرج اللحظات ، ولكننا جميعا نعلم أن الله يطالبنا قبل كل شىء بقسط كبير من الكفاءة ، ولم نكن لنملك هذه الكفاءة الا بالتدريب والدراسة ، والمران العملى على مواجهة مثل هذه المعارك ، والبقاء بكل اليقظة على تطور دراستنا لامكانيات العدو وامكانياتنا ، بأنضج الرؤيا وأصدقها عرفنا نقاط الضعف لدينا ونقاط الضعف لديه ، عملنا باصرار على معالجة أوجه القصور فى وحداتنا ، لم نترك صغيرة الا وواجهناها بشجاعة ، واستمر تحصيلنا لمعارف فنون القتال فوق البحر لا يتوقف أو يتجمد ، وحين نمل التدريب أو نشعر بطول مسافته ، نلجأ الى الله ليملأ صدورنا بالامل والثقة والتماسك حتى يأتى يوم لم يطرأ على بال أحدنا انه قد بات على الاطلاق ، فالصورة لدينا كانت تختلف عن

الصـــورة التى يمكن ان تتراءى لخيال الجماهير ، كان الاستعداد للقتال بأقصى الاحجام المتوفرة لدى قواتنا ، هو شاغلنا وحاضرنا وغدنا .

ومن هنا دخلنا المعركة معززين بعوامل الثبات الانفعالى الارادى ، مزودين بأحسن الانجازات واثقين فى قادتنا ، مستعدين للعمل الجرىء الفورى وقد فرغنـــا من رؤية العدو ، عملياته المحتملة ، تشكيلاته ، سرعات الحركة الممكنة له ، خط الســـير حين يقوم بهجومه المضـــاد ، خطوط انتشاره ، نقط ارتكازه ، صفات التمويه لديه ، سيكولوجيته وقراراته المتوقعة ، تربيتـــه العسكرية ، باختصار كانت بين أيدينا كراسات خاصة بالعدو البحرى والجوى ، هضمناها جيداً ، بما يجعلنا قادرين على توجيه الضربات المدمرة لقواته فى البحرين الابيض والاحمر .. بل وفى عقر موانيه » .

كانت مناورات لنشاتنا اكثر من رائعة .. ان الصراع من أجل السرعة فى قتال البحر ، واحراز الســـــيطرة يتطلب ارقى فنون المناورة التى تعكسها برامج التدريب المتفوقة الجيدة وتستطيع اللنشات احراز هذا المستوى، انه لا يقل أهمية أو خطورة عن صراع القـــدرة الاعلى والوزن الاخف فى معارك الطيران ، وكما يقول المقـــاتل القاضي ان نوعية تدريبنا تساعد القائد على أصدار قراراته الصائبة فى زمن قياسى ، والفروق الزمنية الصـــــغيرة تصنع بمعارك اللنشات الصاروخية فروقا عظيمة ، هى نتائج هذه المعارك وتأثيرها التدميرى .

لقد تلقى أحد لنشاتنا ١٢ قنبلة من طائرات الفانتوم وسكاى هوك ، و ١٠ صواريخ جو ـ أرض وقاتل لمدة ٩٠ دقيقة كاملة ، وناور طوال هذه الفترة انجح المناورة ودمر لنشين للعدو وعاد سليما برجـاله دون شهيـــد

واحد أو جريح ، وبعد ١٢ ساعة راحة فقط كان طاقم هذا اللنش يقاتل مرة ثانية أمام رشيد ـ أبى قير .

علق أحد الضباط بقوله :

ـ كان الجنود يلقون النكات حول العدو أثناء القتال، ومعنوياتهم تفيض حماسة ونضارة وكأنهم يقومون بنزهة فوق الماء ، وفى احدى المهام طارت فوقنا طائرات العدو على موجات متتابعة ومن كل اتجاه حولنا ، ولم يطرأ أى تحول على مشاعر الرجال ، نفس البسمة والبأس والوقفة الجماعية الشامخة فهجومه المكثف بالطيران واللنشات علينا ، ومحاولته المستميتة لتحويل الليل الى نهار ، اذ كان يلقى عشرات القنابل فى اللحظة الواحدة من نوع « الفليزر » وهى مشاعل مضيئة لكى يفاجئنا بالصواريخ ، هجومه بهذا القدر لم يحقق أدنى مفاجأة لنا ، فكل هجماته حتى عدد قنابلها المضيئة المتوقع القاؤها فوق وحداتنا البحرية وهى تهاجم ليلا كانت مقدرة أمامنا من قبل ، وعلى ضوئها وضعت القيادة خطة العمليات المسندة الىاللنشات المصرية الصاروخية.

بطولة السيد

وروى الرجال قصص بطولات عديدة قام بها رفاق السلاح وقد علقت بذهنى قصة المقاتل بحرى « السيد » ابن المنصورة ، وكان فوق اللنش الذى التحق به حين ظهر هدفان معاديان فى الطريق الى منطقة أبى قير ، واستعد الطاقم للتعامل معهما ، وفجأة اكتشف «السيد» ان عطلا أصاب القاذف الصاروخي، وبعد ثوان اشتعلت النيران بالقاذف بعد ان سقطت بالقرب منه قنبلة اسرائيلية نتيجة غارة جوية ، ولم يتمكن من الاتصال بقيادة اللنش لانفجار مناطق المرور ، ولم يرتبك أو

يتخبط ، أخذ طفـــاية الحريق وبدأ يطفىء النيران ، فامسكت بملابسه ، وسرعانما تخلص منها ، ليجد جزءا من الصاروخ وقد حشر فى القاذف فعطله عن العمــل ، وكان هــذا الجزء يهدد بانفجار اللنش ومن عليه فى أى لحظة .. ولم يهرب السيد ، بل واجه الموقف بشجاعة ، واستطاع هو وزملاؤه السيطرة على الحريق ، وتبـريد مخازن الذخيرة التى كادت تنفجر داخل اللنش ، وبدأ التعامل مع العدو ودمر الرجال الهدفين المعاديين .

يقول السيد :

ـ كنت اطفىء القاذف وملابسى مشتعلة بالنيران ـ وزميلاى يمسكان بطفايات أخرى يطفئان النيران المسكة بى ، وحين أدركت ما يحدث ابتسمت وضحكت عاليا من منظرنا نحن الثلاثة ، وســاعدنى الضــحك على تحقيق السيطرة وحصار النيران ثم اخمادها .. حدث كل هذا فى ثوان ، ثم تفرغنا للنشات الاسرائيلية .

قال لى بعض قادة اللنشات المصرية :

ـ قبل اكتوبر عام ١٩٧٣ ، كان العدو يتلقى ضربات بحريتنا ، وفى اكتوبر وقع الالتحام والتصادم والاختبار لـكلينا .. لقد كان ظهور لنشاتنا أمامه هو كل المفاجأة التى لم تفقدها قط ، وفى كل مرة كنا نظهر فى المنطقة التى لم يتوقع أبدا أن نظهر فوقها ..

فى يوم ١٥ و ١٦ اكتوبر اقمنا عدة كمائن باللنشات على سواحل البحر الاحمر .

أول كمين أصيبت به ثلاثة أهــداف وغرقت تماما ، والرابع أصيب واستطاع الافلات منا ، ثم جاءت طائراتنا وأغرقته .

وحين أصيب أحد لنشاتنا واشتعلت فيه النيران كان رجال اللنش يكافحون الحريق من داخل الحريق نفسه

وكل مقاتل حرص على معدات وأجهزة اللنش كحرصه على أبنائه ..

ان لنشات العدو لم تستطع طوال أيام الحرب مواجهة لنشاتنا الا اذا توفرت لها الحماية الجوية الكثيفة ، وليس معنى ذلك هو الاستهانة بامكانيات لنشاته المزودة بصواريخ جابرييل ومداها ١١ ميلا ، ولديه من اللنشات ما يحمل الواحد منها ٨ صواريخ واطقمة مدربة فى بلاد أوربية متقدمة .. واحقاقا للحق لا نقول ان العدو فوجىء بالسلاح المتطورالذى نملكه ، انه يعلم عنه كما نعلم نحن عن تسليحه ، ولكنه فوجىء بالمقاتل المصرى يتفوق عليه ، ويستبسل فى قتاله حتى الموت .

لقد قصفت لنشاتنا ميناء شرم الشيخ ، ورأس محمد بالمنطقة ، ومحطة رادار وانذار سطحى للعدو كان يكشف له عن نشاط بحريتنا ، وتدخل الطيران الاسرائيلى لمدة ثلاث ساعات ضد وحداتنا البطلة وأفلت رجالنا بمناوراتهم فوق الماء من صواريخ الطائرات وحين جاء العدو يوم ١٧ اكتوبر عام ١٩٧٣ فى عملية انتحارية جريئة لتوجيه قصفه ضد ميناء الغردقة مستخدما أربعة لنشات « برترام » الامريكية التى يستعملها كوماندوز البحر حاملين للمدافع الصغيرة، فوجىء برجالنا ينتظرون قيامه بهذه المغامرة بعد الخسائر الكبيرة التى أصيبت بها لنشاته واطقمها ، وفوق اللنش يعمل ما يقرب من ٣٠ فردا بحريا ، كان متوقعا ان يقدم على مثل هذا العمل الجرىء لتعويض خسائره ، واستعد له الكوماندوز المصريون وقد فاقوهم جرأة وهجوما ، وقضوا عليهم تماما ، وأرسلت صورهم قتلى الى اسرائيل ، ولم تتكرر المحاولة الاسرائيلية الجريئة مرة أخرى بعد ذلك .

تحية للابطال

تحية للذين صعدوا الى رحاب الله فدية للنصر ، وللأحياء الذين حملوا السلاح بجانبهم ولا زالوا فى وقفتهم على تمام الاستعداد للقتال مرة أخرى ، تحية للأبطال سليم، وشبل ، وغنيم، ومحمود، وعدلى ، والسرساوى وعبد المحسن ، وعوض الله ، للذين التقيت بهم ، والذين حالت الظروف بينى وبينهم ..

لقد عاد جميع رجال لنشاتنا الى قواعدهم ووجوههم مزدحمة بالاصابات والجروح والشظايا ، أذرعتهم ، سيقانهم ، كل قطعة فى أجسادهم كانت مزينة بشظايا قنابل الفانتوم ، وصواريخ جابرييل ، ولم تخفت حدة اندفاعهم ، ظلوا أشبه بالماء المنطلق بعد احتجازه خلف السدود ، بكل اللهفة والشوق أداروا لنشاتهم ، فاتحين لنيرانهم ، رافعين لراياتهم ، محققين اشرف وأغلى النصر

أول طلقة فى الحرب

لقد قاد الفريق الماحى قوات المدفعية المصرية التقليدية والصاروخية فى حرب اكتوبر المجيدة ، وقال عنه القائد الاعلى للقوات المسلحة الرئيس أنور السادات « انه رجل رهيب مثل مدفعيته التى لعبت أخطر الادوار فى الحرب ، ولكنه دائما الرجل الهادىء الصامت الذى يتحدث فى همس .. »

هذه قصة « البطل الماحى » واحد من ألمع أساتذة المدفعية فى جيوش العالم ..

لقاء وحوار معه فى يوليو عام ١٩٧٤

فى كل معركة ، الطلقة الاولى لها دائما ..

ان قذائفها هى اشارة البدء لكى تشتعل بعد فترة معينة من قصف المدفعية أرض ومواقع العدو بالنيران ، ثم تقتحم قوات المشاة حصونه ومراكز حشد دباباته وتجمع قواته .

انها المدفعية المصرية ، أول طلقة فى حرب أكتوبر المجيدة كانت لها ، لقد بدأت مدفعيتنا الحرب قبل الموعد المعروف وهو الثانية ظهرا بثلاث وخمسين دقيقة ، هى فترة قصف مدافعها بمختلف الاعيرة .. ثلاث وخمسين دقيقة من أخطر لحظات الهجوم ، حتى جاءت ساعة الصفر فعبرت طائراتنا مياه القناة ، وفوق الارض

كانت ارتال المشاة والقوات الخاصة تبدأ واحدة من أبرز معارك العصر ..

وفى العام الماضى قال الرئيس أنور السادات وهو يتحدث عن المعركة :

ــ ان المدفعية المصرية الرهيبة لعبت أخطر الادوار الى جانب الصواريخ . ان قائد المدفعية فى الميدان هو الفريق الماحى الذى يعمل معى الان كبيرا للياوران رجل رهيب مثل مدفعيته ، انه هادىء صامت يتحدث فى همس ، وقد تلقى منى التعليمات بضرب العمق فى اسرائيل اذا بدأت ، وكانت تعليمات تفصيلية حاسمة .. انه رجل رهيب فعلا .. كنا فى غرفة العمليات وكنت اصدر اليه الامر بضرب المواقع المحددة بآلاف الاطنان من القذائف ويتلقى الامر فى هدوء ، ويعود لى بعد دقائق وفى هدوء هامس يتقدم بورقة صغيرة ويقول فى صوت غير مسموع : تم التنفيذ .. وينصرف وكأنه لم يفعل شيئا ، وكأنه لم يقلب مواقع العدو رأسا على عقب . »

١٩٥١ بجانب الرئيس

ان رجل المدفعية الاول قضى ٣٢ عاما بجانب المدافع ، فهو من مواليد دمياط ــ اول فبراير عام ١٩٢٢ ، وحصل على شهادة الدراسة الثانوية فى المدرسة نفسها التى تخرج فيها الرئيس السادات « فؤاد الاول الثانوية » ثم تخرج فى الكلية الحربية عام ١٩٤٢ .

وفى عام ١٩٥١ ، خدم بجانب الرئيس السادات فى الفرقة الاولى مشاة برفح ، وهناك كان اول لقاء لهما ، وقامت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، واختير « الماحى » مدرسا بالكلية الحربية .

لقد قاتل الفريق الماحى اول معاركه بالمدفعية فى جولة

عام ١٩٤٨ ، شارك فى معارك دير سنيد وغزة والمجدل ، وعاد الى القاهرة ليتخرج فى كلية الاركان عام ١٩٥١ ــ بعدهاالتحق بالفرقة الاولى مشاة فى رفح حيث التقى بالقائد الاعلى الرئيس السادات .

وفى عام ١٩٥٣ ، أسند اليه الرئيس السادات دورا قتاليا فى عمليات الفدائيين ضد قوات الاحتلال البريطانى بالقنـــاة عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ ، ومنح الرجـل نوط الشجاعة العسكرية .

وجاء عام ١٩٥٥ ، وذهب الى بعثة عسكرية فى انجلترا .. وعاد الى هيئة العمليات ، ثم تولى قيادة لواء مدفعية .. وظل يتدرج فى وظائف السلاح ، حتى أسند اليه الرئيس السادات قيادة المدفعية المصرية عام ١٩٧١ ، وقام بدوره فى حرب اكتوبر المجيدة ، وفى فبراير ١٩٧٤، اختاره الرئيس كبيرا للياوران تـكريما واعزازا .

عنصر السبق

قال لى الفريق المـاحي :

ــ ان المدفعية المصرية بأصالتها الموروثة ، وبأخطر مهامها التي أوكلت اليهـا ، ظلت متفوقة على المدفعيـة الاسرائيلية دائما حتى بعد أن تطورت مدفعية العدو فى مراحلها الاخيرة ، فان المدفعية المصرية ظلت تحتفظ بعنصر السبق عليها ، وأثبتت فى فترة حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، بل وما قبل ذلك خلال مراحل الصراع المسـلح منـذ عام ١٩٦٧ ــ الصمود والردع والاستنزاف ــ تفوقهـا الـكامل على المدفعية الاسرائيلية بفضـل وعي وكفاءة وتضحية أبنـاء السلاح ، ولقد شهد للمدفعية المصرية اكثر من معلق عسكرى أوربى فى كتب الامس البعيـد عن حرب عام ١٩٥٦ ، وحرب عام ١٩٧٣ ، ويحضرنى فى

هـذه المناسبة قول الـكاتب الامريكى كينت لاف فى كتابه « السويس ـ الحرب المتجددة » :

ـ ان المدفعية المصرية ظلت تقاتل ضد السفن المغيرة عليها وضد المدرعات والطيران المعادى فى وقت واحد ، حتى أمسكت النيران بكل شبر من الارض فى شرم الشيخ وأصبح من المتعذر اطفاؤها .

ولقد تطور أسلوب العمـــل فى المدفعية المصرية من الاسلوب الانجليزى الى الشرقى ، واستطاع رجـال السلاح من المقاتلين الذين أعطوه أحلى سنى حياتهم استيعاب التطوير الذى أدخل على النواحى الفنيـة وعلى السلاح الحديث ومتابعة التقدم العلمى عبر العالم تكنولوجيا حتى أدخلت المدفعية المصرية عام ١٩٧١ ، الاجهزة الحاسبـة الالـكترونية ، وواكبت بذلك تطور المعدات الفنية ، كما استوعبت التعديلات الاخرى فى التسليح من الصواريخ المضادة للدبابات الى الصواريخ أرض ـ أرض ليس على المستوى التكنيكى فحسب ، بل على المستوى الاستراتيجى ، واثبتت كفاءتها فى سيناء خلال الحرب بصورة متفوقة.

قلت :

ـ لقد تحدث الرئيس الســادات عن صـواريخنا الموجهة الى ثلاث مدن رئيسية فى اسرائيل استعدادا لضرب العمق الاسرائيلى اذا لجأ العدو الى الهجوم على العمق المصرى .. هذه المهام كانت من المهام الموكولة الى المدفعية المصرية .. اليس كذلك ؟

ـ نعم ، ومن هنا ذكرت لك أن حساباتنا كانت على المستوى الاستراتيجى أيضا ، ففى يوم ٢٢ اكتـوبر ١٩٧٣ ، اطلقت المدفعية المصرية أول صواريخها الموجهة ضد العدو ، واعطى قوة تدميرية هائلة .

لقد قام الرئيس السادات بتعيين الاهداف فى عمق اسرائيل ، واستعدت المدفعية المصرية لضربها بالصواريخ اذا صدرت التعليمات بذلك ، ولما كان للمدفعية المصرية اليد الطولى فى المعركة ، والذراع القادرة على الوصـــول الى أى مدينة فى عمق اسرائيل ، فقد قرر القائد الاعلى ان تصبح مدن القناة عمقا هى الاخرى لجمهورية مصر العربية .

عدت أسأل :

ـ ما هى أنواع المدفعية التى اشتركت بها قواتـكم فى حرب ١٩٧٣ ، وكان لها هذا التفوق نوعا أو كما ؟

ـ لقد اشتركت المدفعية المصرية والصواريخ بمختلف الاعيرة فى مراحل الحرب المختلفة عام ١٩٧٣ وكان بينها اسلحة جديدة متطورة ، ولذلك استطيـــع ان اقول ان المدفعية قامت بأخطر الادوار فى هــذه الحرب وشــكرا للقائد الاعلى الذى سجل هذه الحقيقة للسلاح قبل ان يتحدث احد عن دوره .. انه اعظم التقدير من رئيس الجمهورية لرجل المدفعية سواء من وحدات الصواريخ المضادة للدبابات التى ادخلت تعديلا كبيرا فى مفهوم معارك الدبابات فى الحرب الحديثة ... أو من وحدات المدفعيـــة ميدان فضلا عن الصواريخ التى قامت بمهام حاســمة خـلال الحرب على المستوى الاستراتيجى والتـكتيكى ، لقد نالت بما قاله الرئيس السادات عنها اعظم الاوسمة.

واحب ان اذكركم بأن المقاتل عبد العاطى بطل معــارك الدبابات فى ١٩٧٣ ، وكان له شرف افتتاح معرض الغنائم حين دعاه القائد العام الى ذلك هو من جنود المدفعيـــة وليس المشاة كما ذكرت بعض الصحف ، خطأ غير مقصود بالطبـــع .

عبور المدافع الثقيلة

متى عبرت المدفعية الثقيلة الى سينـاء .. هل كان عبورها يوم ٦ اكتوبر ١٩٧٣ أيضا ؟

ـ عبرت بعض أجزاء المدفعيـة الثقيلة المصرية الى الضفة الشرقية يوم ٦ اكتوبر فعلا حتى تتمكن من التعامل مع العدو بأقصى مسافات تسمح لها بمدى نيران مؤثر، واحتفظنا بجزء اخر فى غرب القناة كعمق للمدفعيـة يتعامل مع أسلحة العدو فى الوقت المناسب وتم تنفيـذ عبور المدفعية بكامل أعيرتها طبقا للتخطيط الموضوع الا ان هناك بعض المواقف الطارئة التى اضطرتنا الى تعديل فى برنامج العبور وخاصة ذلك الموقف الطـارىء الذى ووجه به الجيش الثالث فى الليلة الأولى للقتال ٦ ـ ٧ اكتوبر ١٩٧٣ ، حيث لم يتمكن من انشـاء الـكوبرى المخصص لاحدى فرق المشاة مما حال بين عبور وحدات المدفعية الثقيلة والدبابات الى الضـفة الشرقيـة فى التوقيتات المحددة ـ وكان هـذا الموقف يشكل خطورة على قواتنا التى عبرت واحتلت رءوس كبارى محدودة فى سيناء ، وظلت تواجه نيران الدبابات الأسرائيليـة المكثفة فى بطولة أقرب الى المعجزات ، هنا صـدرت تعليمات القيادة العليا بدفع احتياطى من وحـدات الصواريخ المضادة للدبابات وتعاونها مع المشاة الى سيناء حتى تمكن المهندسون من انشاء الـكوبرى وعبرت الدبابات والمدفعية الثقيلة الى المعركة ، وكان جنـود المدفعيـة الصاروخية المضادة للدبابات قد حققوا الـكثير من المفاجأة التى تحدث عنها العالم بعد ذلك ووصفوها باللحم ضـد الصلب .

قلت لرجل المدفعية وبطلها :

ـ كيف كان الرئيس يعمل معكم ، اريد بعض الملامح من قريب لقيادة القائد الاعلى الرئيس انور السادات خلال الحرب .. ؟

ـ كان دائما فى مركز القيادة الرئيسى للعمليات يشاركنا كل صغيرة وكبيرة ، وهو يتمتع بهدوء أعصاب ورباطة جأش غير عادية كان لها فى الحقيقة وزن كبير خلال عملنا ... فهناك قرارات حاسمة أصدرها فى هدوئه وثباته غيرت من بعض نتائج الحرب وأدت الى النصر . كان دائما مع كل قائد بمشاكره ورؤيته فزودنا بالتفكير السليم ، ولم يكن يبخل بأى وقت ليلا أو نهارا يقضيه قبل الحرب بين المقاتلين يشجع أو يتقصى أو يرى بعينيه ولذلك كانت صورة مسرح العمليات بامكانيات قواته كلها فى ذهنه تماما عندما بدأت الحرب ، واذكر انه حين فقد البعض منا قدرته على التفكير السليم ان حزم الرئيس وثقته ورؤيته للموقف بكل الابعاد ، وقدرته على اصدار القرار السليم الحكيم ، كانت خلف استعادة الموقف والسيطرة على أرض القتال مما اعطى قواتنا فى النهاية طريق النصر .

كان الرئيس السادات يتدخل مع المدفعية حتى أبسط التفاصيل وكأنه ضابط متفرغ فى السلاح ، وقد حدد لنا الاهداف وأسبقيتها حيث يجب ان تتعامل معها المدفعية المصرية ، وراجعناها فوجدناها سليمة ١٠٠ ٪ وحين تم التنفيذ كبدنا العدو خسائر باهظة .

بارليف الاول

سيادة الفريق :

ـ لقد نسى الناس ان قواتنا المدفعية دمرت خط بارليف الاول ، وان حصون بارليف التى دمرتها قواتنا

عام ١٩٧٣ ، هى الحصون التى أقامها العدو للمرة الثانية .. هل نتكلم فى هذه العمليات ؟

ـ فعلا بعد عمليات ١٩٦٧ ، بدأ العدو فى اقامة خط حصين على طول شرق القناة ، منتهزا وقف اطلاق النيران ، وبمرحلة كسر وقف اطلاق النار بدأت المدفعية المصرية بمختلف أعيرتها فى التعامل مع هذه التحصينات ودمرنا اكثرها حتى صدر قرار وقف اطلاق النار فى اغسطس عام ١٩٧٠ ، وكانت هذه المهام ذات نتائج تدريب طيبة بالنسبة لنا حين عاد العدو وأخذ ينشىء خط بارليف الجديد مستعينا بما حصل عليه أيضا من خبرات المرحلة السابقة ، وقد أقام هذه التحصينات بمستوى هندسى عال ، وبالتالى زاد العبء على مدفعيتنا وقبل الحرب استطعنا مع سلاح المهندسين ان نقيم نقطا قوية فى العمق المصرى مشابهة تماما لحصون بارليف ، حتى ندمرها ونصل بذلك الى المعدلات الصحيحة المطلوبة من قذائف المدفعية لتدمير النقط القوية الاسرائيلية ، وكانت النقط المصرية التى اقمناها تفوق نقط العدو من حيث القوة والمناعة والتحصين والاسلاك والالغام ، وبقى هذا العمل رغم تكاليفه هو السبيل الوحيد السليم لتدمير خط بارليف بالقذائف المصرية ، ومن هنا استمر قصف المدفعية يوم ٦ اكتوبر وقبل ٢ ظهرا ـ ٥٣ ـ دقيقة متواصلة للوصول الى النتائج المطلوبة ـ بعدها عبرت قواتنا وطائراتنا .

لقد قامت المدفعية ايضا ببعض المهام التى لم يكن من المعتاد أن تقوم بها كفتح الثغرات فىحقول الالغام والاسلاك على مستوى حصون بارليف ، وكان قصفا محكما نتيجة التدريب والتجارب والمعلومات التى حصلنا عليها حتى الدقائق الاخيرة قبل الساعة صفر من ٦ اكتوبر، وبذلك

استطاعت قواتنا المشاة اقتحام هذه الحصون والاستيلاء عليها بعد أن أصبحت حصوننا غير صالحة للاستعمال ، وبقيت المعركة جندي مصري أمام جندي اسرائيلي وجها لوجه .. والنتيجة معروفة .

وأحب أن أضيف حقيقة عسكرية تغيب عن ذهن القارىء العادي ، وهي انه ما من قوة كبرت أو صغرت حين تواجه العدو في عمليات صغيرة أو كبيرة الا ورافقها رجال المدفعية لادارة نيران المدفعية ولتصحيح الضرب ، ولقد قدمت المدفعية المصرية خلال مراحل الاستنزاف وعبور بعض وحداتنا لتقاتل في سيناء ثم تعود الىالغرب اروع الامثلة في التضحية بالروح في سبيل الحصول على النصر حتى جاءت حرب عام ١٩٧٣ ، وكان للمدفعية دورها وشهداؤها الابطال .

انني اذكر مثلا واحدا من أمثلة البطولة والجراة خلال حرب الاستنزاف ، كانت وحدة مدفعية تفتح نيرانها على العدو ووجد قائدها انه في حاجة الى من يصحح له الضرب ، فاستقل طائرة هليكوبتر وطار بها الى الضفة الشرقية ، وقام بتصحيح ضرب مدفعيته لرجاله . قام بذلك وهو يعلم انه لن يعود ، فالعدو لن يترك هليكوبتر مصرية تدخل حتى قواته ويتركها تعود سالمة ، لقد قدم البطل حياته مقابل قصف سليم لمدافعه يعطي النتيجة المطلوبة في النهاية ولتذهب حياته مقابل هذا الثمن ، انه المقاتل المصري ابن هذه الارض الطيبة الثرية بمعدنها ورجالها .

ولقد تكررت هذه الاعمال البطولية عام ١٩٧٣ ، وقد رفض بعض المقاتلين ان يترك مدفعه حتى اقتحمته دبابات العدو دون أن يترك ابدا سلاحه أو يتخلى عنه مقابل نجاته .

أربعة الاف مدفع

سؤال أخير ..

ـ قيل ان حجم المدفعية المصرية فى حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، لم تصل اليه من حيث العدد والحجم أى معركة فى الشرق الاوسط من قبل .. بما فيها معركة العلمين.. هل هذا صحيح ؟ ..

ـ نعم كان عدد المدافع التى حشدت على طول المواجهة يزيد على اربعة الاف مدفع وقد قصفت العدو بواقع ١٧٥ قنبلة كل ثانية فى فترات القصف أو الدقائق الاولى من التمهيد بالنيران .

لقد كان حشد هذه المدافع على خط المواجهة عملا ممتازا تميز بالخداع الكامل للعدو .. هذه الالاف من المدافع وذخيرتها دخلت الى أماكنها دون أن يدرك العدو ماذا نفعل !

وكانت النتيجة اننا دمرنا نسبة كبيرة من الاحتياطى المدرع الاسرائيلى خلال الايام الاولى للحرب ، ذلك ان جماعات المدفعية المصرية التى قامت بالعبور يوم ٦ اكتوبر الى سيناء ومع الموجات الاولى للمشاة بعد ذلك قاموا بتوجيه ضرب المدفعية فى غرب القناة وتحققت اكبر مستويات الفعالية فى القصف المصرى داخل مناطق تشوين الذخيرة الاسرائيلية وحشد الدبابات فى عمق العدو ثم تقدمت تشكيلات المدفعية عابرة الى سيناء فاتحة نيرانها رافعة رايات النصر .

بـدأ الحـرب وأنهاهـا

لقاء وحوار معه فى اغسطس ١٩٧٤

كانت عين القائد الاعلى عليه منذ عام ١٩٦٩ .

ففى ابريل من ذلك العام تولى الفريق محمد حسنى مبارك رئاسة أركان قواتنـا الجوية ، وبعد ذلك بفترة بسيطة تصاعدت عمليات حرب الاستنزاف الى هجمات واعتراضات جوية شبه يومية ، أدارها الرجـل بكفاءة واقتدار ، والتفتت جماهير شعبنا الى أعمال بارزة مميزة قام بها طيارونا الشبان ضد قوات العدو الاسرائيـلى فى سيناء .

ومرت الايام ، وفى ابريل عام ١٩٧٢ ، التقى الرئيس السادات باللواء حسنى مبـارك ، ودار بينهما حـديث طويل حول الحرب ودور الطيران ، ثم أسند اليه قيادة قواتنا الجوية العملاقة ، ليؤدى البطـل دورا وطنيـا تاريخيا ، استرد به الشعب المصرى بصفة خاصـة ، والشعب العربى بصفة عامة كرامته وكبرياءه الوطنية ، حين خاضت قواتنا المسلحة أشرف وأعظم معارك العصر فى حرب رمضان المجيدة ، وكانت قواتنا الجوية أول من أطلق « الشرارة » الاولى فى الخطة .

لقد بدأ الطيران المصرى الحرب ، وهو الذى انهاها كما قال « الفريق عبد الغنى الجمسى » رئيس الاركان

وجاء عام ١٩٧٤ ، ومنذ بدايته وانا أحاول اقتناص بعض الوقت للقاء القائد ، واحد من ألمع نجوم العسكرية المصرية وقد خطط وقاد معركة جوية اعطت أرقى أشكال التفوق والابداع والسيطرة ، وكانت « اضافة » رجاله فى السماء أو فوق الارض من طيارين ومهندسين وفنيين طوال الحرب ، الى فنون القتال هجوما أو اعتراضـا اقرب الى الاعمال الخارقة ألتى تفوق امكانيات مقاتلى احدث اسلحة الطيران فى العالم .. فهدأت قلوب الجماهير القلقة اللاهثة فى الصدور ، وعادت البسمة الى الوجوه

ولقد انتظرت هذه الشهور بطولها حتى التقيت به فى صيف عام ١٩٧٤ ، ذلك لاننى أعلم ان الرجل لم يحصل على راحة منذ عام ونصف عام ، وان اعباءه اليوم أخطر وأكثف من أعباء الحرب ، فقد عاد الرجال الى التدريب، وبقيت العيون والعقول والاعصاب مفتوحة يقظة مشدودة الى مواجهة مختلف الاحتمالات .

قلت للفريق طيار حسنى مبارك :

وصفت بعض الاقلام عربية واوربية ، حرب رمضان بأنها حرب « الساعات الست » أليس هـذا التحديد الزمنى أجحافا بما قامت به قواتنا ، أو خطأ مقصود ؟

ــ هو كذلك فعلا، فحرب رمضان استمرت على مستوى الجو والبر والبحر ١٧ يوما ، شـهدت أعنف المعارك الجوية والبرية والبحرية ضراوة فى سيناء وغرب القناة، والبحرين الابيض والاحمر ، ولكنى لا اعتقد انه خطـأ مقصود ، ذلك لاننا فى حرب عام ١٩٦٧ فقدنا السيطرة الجوية فى ساعات قليلة وطائراتنا فوق الارض ، وبالتالى تعرضت قواتنا البرية للابادة فى سيناء ، وفى حرب عام ١٩٧٣ أحرزنا السيطرة والسيادة الجوية ، كما أحرزنا التفوق المطلق رغم قوة طيران العدو، وهى قوة لايستهان

بهما من ناحية الكم والنوع .. احرزنا هذه المعجزات فى الساعات الاولى من المعركة ، حطمت قواتنا المشاة خلالها حصون بارليف الهرمية ، فجاءت هذه التسمية التى أطلقتها الصحافة « حرب الساعات الست » لان العدو فقد توازنه خلال هذه الساعات .

ولكنها عمليا وتاريخيا حرب السبعة عشر يوما ..

ما قبل ٦ أكتوبر عا م١٩٧٣

كيف علمتم بقرار الحرب ، ما هى المقدمات التىسبقت تحديد يوم ٦ اكتوبر ، وكيف كانت ملامحها ؟

طلبنى القائد الاعلى الرئيس السادات بعد أن أسند لى قيادة قواتنا الجوية ، وكان لقاء ذا طابع خاص، فقد قال لى سيادته :

ـ سنحارب معركتنا ، والطيران هو فيصل الحرب ، وعليك منذ هذه اللحظة اختيار أسلوب جديد فى الهجوم، اسلوب هو المفاجأة بعينها للعدو ، وفى الوقت نفسه يضمن سلامة قواتنا الجوية وقدرتها على الاستمرار واحراز النصر .

ساعتها احسست بجسامة المهمة وخطورتها ومسئوليتها التاريخية ، وظللت ٧٢ ساعة دون نوم ، افكر على الورق ، ثم عدت الى الرئيس بمشروعى ، وكان باختصار شديد بعيدا عن التفاصيل يتضمن العمل الجوى المركز بما يضمن تحقيق ضربة السيطرة الجوية بنجاح ، وقد وفقنا الله عز وجل الى ابتكار هذا التكتيك الجديد وتطبيقه فى أرقى أشكاله الهجومية .

وقبل الحرب بعدة أشهر ارتفع معدل التدريب وظللنا نعمل طوال النهار والليل مع الاحتفاظ ببعض النشاط الوهمى لتضليل العدو عن حقيقة نوايانا وقد استلزم

هذا النشاط جهدا وطاقة اضافية طوال عام كامل .

وفى اغسطس عام ١٩٧٣ ، اعطانا القائد الاعلى قرار الاستعداد الكامل لساعة الصفر ، تحددت بعد ذلك بيوم ٦ اكتوبر - ٢ ظهرا ، وكانت حرب رمضان المجيدة وقد مررت على جميع قواعدنا الجوية ثلاث مرات قبل اسبوع من اليوم الخالد .

قيل عن حرب عام ١٩٦٧ ، ان الخدمة الارضية فى مطاراتنا كانت ضعيفة للغاية ، هل يؤدى ضعف الخدمة الارضية الى هزيمة الطيار المدرب جيدا ؟

- نعم ، ان الطيران ما هو الا طيار وملاح ومهندس وفنى واداري ، وكل طائرة تحتاج لجهود تستغرق مابين ٢٠ و ٢٤ ساعة لتحقيق سلامة مهمتها ، وحين بدأنا الاستعداد لمعركة المصير كان علينا التخلى عن الاساليب النمطية فى اعداد واصلاح الطائرات ، واستخدام وسائل بديلة مستحدثة مدروسة ، الفضل فى ايجادها يعود للعقل المصرى ، فأقمنا مدارس عسكرية خاصة لتأهيل كل الاطقم الفنية فوق الارض وفى السماء ، حتى يمكننا بعد ذلك ترجمة عمل هؤلاء الى قتال ناجح ...

ظل التدريب التعبوى يتم على هيئة مشروعات مشتركة مع بقية أسلحة قواتنا ، مع تدريب الطيارين ليل نهار على الطيران بارتفاعات منخفضة لتفادى الكشف الرادارى وأجهزة الانذار المبكر لدى العدو ، وتدرب الرجال على اطلاق المدافع والصواريخ بدقة وكفاءة عالية فى تمييز الاهداف والمناورة بميادين رمى مزودة بأهداف هيكلية ، كما تدرب الطيارون على الاقلاع بطائراتهم فى زمن قياسى ، وبالتالى استوعب التدريب بأطقم الملاحة الجوية ، والتصوير الجوى وتفسير الصور التى تعود بها طائرات الاستطلاع ، مع رفع كفاءة الاصلاح الهندسى للطائرات .

اعمال خارقة

واستطرد الفريق طيار حسنى مبارك قائد قواتنا الجوية فى حديثه ، وهو يستعيد صفحات الشرف التى حققها العمالقة من ابنائه نسور الجو ..

ـ لم يكن ما حققته قواتنا الجوية أملا قائما على المصادفة او المفاجأة أو ضربة حظ عشواء .. بل كان نتاجا لبرامج التدريب القاسية ، ولحسابات تحمل طابع الرؤية العلمية للمعركة وتصاعدها ، لما يملكه العدو وما نملكه نحن ، لتخطيط مبنى على معارف دقيقة بكل نقاط الضعف لدينا ولدى العدو من طائرات وطيارين ومدفعيات وصواريخ مضادة للطائرات ، ومن هنا جاءت حرب اكتوبر ودور قواتنا الجوية خلالها ، صفحة مشرفة للتخطيط والتجهيز والتسابق فى التنفيذ.

لقد كنا نعمل.وايماننا بأن النصر لايتحقق عفوا ...

ـ ان الزمن التقليدى على جميع المستويات لاى معركة جوية طويلة ، وبالقياس العالمى يتراوح بين ٧ و ١٠ دقائق ، وفى حرب رمضان قاد طيارونا معارك جوية استمرت ٥٠ دقيقة .

قلت :

فنيا .. كيف يتحقق ذلك ؟

ـ بتوفير الوقود لدى طائراتنا ، فبعض هذه المعارك وقع فى مناطق غير بعيدة عن مطاراتنا مما وفر كميات كبيرة من الوقود أطالت زمن القتال فى الجو ومنحت طيارينا حرية المناورة والسيطرة والتفوق على طائرات العدو ..

لقد قام طيارونا فى احدى المعارك باعتراض الطائرات الاسرائيلية وبلغ عددها ٧٠ طائرة اعترضوها فى معركة

مستقلة ، وكان عدد طائراتنا مماثلا ، واحدة من معارك الجسارة والاقتدار ، وقاتل الطيارون المصريون بمعنويات تكاد تعانق السماء ، وحقق كل منهم عملا بطوليا فريدا متميزا ، واستشهد البعض فدية للنصر وكان أداؤهم من أنبل واشرف الاداء .

طار الطيار المصرى على ارتفاع أقل من ثلاثة أمتار حتى ٤ أمتار ، وألقى صواريخه على دفاعات العدو ومناطق حشد مدرعاته ومطاراته بكل المفاجأة وابعادها.

حدد المعدل العالمى للطيران ، من ثلاث حتى أربع طلعات للطيار ، فقام طيارونا بست وسبع طلعات ، وبعضهم قام بتسع طلعات .

تدمير الدبابة الواحدة فى جداول التدمير العالمية يستلزم من هجمتين حتى ثلاث هجمات ، فجاء طيارونا ودمروا أرتال المدرعات الاسرائيلية فى سيناء بهجمة واحدة والصور لدينا دليلنا على ذلك .

فى معركة جوية قوامها ٨٠ طائرة لنا وللعدو ، أسقط طيار مصرى بطل خمس طائرات اسرائيلية ، دمر ثلاث طائرات بصواريخه ،ثم اقتحم بطائرته طائرتين للعدو ... وانفجرت الطائرات الثلاث فى الجو والبطل يهتف فى اللاسلكى « الله اكبر » ..

تشدقت اسرائيل بقدراتها فى اعداد الطائرة للاقلاع بعد تزويدها بالوقود والذخيرة واعادة الكشف على اجهزتها الالكترونية فى ٨ دقائق ، استطاع المهندسون والفنيون فى قواعدنا الجوية اختصارها عام ١٩٧٣ الى ٦ دقائق فقط .

كان المهندسون والفنيون يختصرون عمل أسبوع الى عشر ساعات .. وأحيانا اقل خلال فترة الحرب ، طوال ١٧ يوما حافلة .. ولم يتعطل مطار واحد من مطاراتنا

بعد قصفه بالقنابل الا ساعات قليلة فقط ليعود بعد ذلك الى حجم كفاءته العادية .

مهندس « برتبة عميد » قام بزيارة عمل لمطار من مطارات الدلتا ، وتصادف وقوع غارة جوية على المطار .. فأخذ المهندس يجمع بيديه القنابل الزمنية بعيدا عن الممرات . ! ؟

وهناك عشرات من قصص البطولة التى قام بها المهندسون والفنيون نشرتها الصحف والمجلات عقب الحرب ، وكلها تعكس اصالة المقاتل المصرى وارادته وتماسكه وقدراته التى تفوق كل تصور على البذل والعطاء .

لقد اخذ مساعد فى احد المطارات يدفع قنبلة سقطت امام باب دشمه طائرات بسيارته وهو يعلم تماما ان القنبلة قد تنفجر فى اللحظة القادمة .. وقد حدث ذلك فعلا بعد ان ابتعد البطل بالقنبلة الى أرض فضاء بعيدا عن الدشمه .

لقد استطاع المهندسون بالتعاون مع بعض مؤسسات القطاع العام انتاج « خلطات اسمنتية » لسد الحفر التي تحدثها القنابل فى ممرات الطائرات ، وكانت خلطة اسمنتية رائعة تعيد الممر الى حالته الاولى فى ساعات معدودة .

وقبل ذلك قام القطاع العام بدور كبير وخطير حين بدأنا بناء الدشم وانشاء المطارات الجديدة عديدة الممرات الى جانب قواعد الصواريخ التى اشار اليها القائد الاعلى اكثر من مرة .

نطح الصخر

عدت اسأل بطل القاذفات القديم ، وبطل حرب اكتوبر

عام ١٩٧٣ ، قائد قواتنا الجوية :

ـ بذلك نستطيع ان نقول ان اسرائيـل عجزت عن تقديم مفاجأة واحدة طوال حرب رمضان ضد قواتنـا الجوية على جميع المقاييس العسكرية ..

ـ هذا بالتأكيد ولـكنها بعيدا عن المقاييس العسكرية لجأت الى أعمال الخسة والغدر ، حين استعملت قنابل « الجوافة » أو قنابل البلى الممنوعة دوليا ، وهى قنابل ضد الافراد ولا يلجأ اليها الا من هو على غرار اسرائيل وتاريخها الاجرامى وليس العسكرى .

لقد فاجأنا العدو عام ١٩٦٧ بنوع معين من القنابل لم يكن مستخدما من قبل ، وهى قنابل الممرات ، شحنة متفجرة ذات حربة فى مقدمتها تطلق أثناء الطيران الفاطس أو من الطائرات حين تطير على ارتفاعات منخفضة جدا، فتحقق هذه القنابل واسمها « كابم » اختراقا فى الممرات وفجوات كبيرة بها ، وبذلك تعطلت اكثر مطاراتنا .

ـ عام١٩٧٣ ، عجز العدو عناستخدام هذه الاساليب لان عنصر المفاجأة تحول ضده وكانت المبادأة فى أيدينـا باستمرار ، ونطحت طائراته رأسـها فى الصـخر وهى تهاجمنا ، اذ اصطدمت بجدار البالونات فوق كل موقع أو هدف حيوى وبيقظة المقاتلات المصرية تعترضـهـا وتسقطها وبحائط الصواريخ المضاد للطائرات ، فلجأت الطائرات الاسرائيلية مضطرة الى الطيران على ارتفاعات عالية جدا ، وكثيرا ما أسقطت حمولاتها فوق الصحراء.

قلت للفريق حسنى مبارك :

ـ قبلالمعركة.. تحدث العدو عن النسور والعصافير ما تفاصيل هذه الاحاديث ؟ ..

ضحك القائد وقال :

ـ قبل المعركة ، قال العدو ان الطيران المصرى اذا

فكر فى الهجوم أو الدخول مع الطيران الاسرائيلى فى معركة جديدة ، فستكون أشبه بمعركة بين نسر وعصفور وبالطبع يقصدوننا بالعصفور ! !

انه أحد ألوان النشاط الدائم والحرب النفسية التى مارسوها ضدنا قبل معركة رمضان المجيدة .

ان الكلمة مهما بلغت من قدرة التعبير لا تستطيع ان تصور مدى الشحن المعنوى لدى الطيارين قبل اكتوبر وطوال فترة الحرب المجيدة .

لقد قام أحد الالوية الجوية بـ ٢٥٠٠ طلعة خلال أسبوع ضد قوات العدو ومطاراته .

لواء آخر قام بـ ٣٤٠٠ طلعة خلال ثلاثة أسابيع ، بل ان هناك « لواء » قام بخمسة الاف طلعة خلال ١٧ يوما هى فترة الحرب .

وكانت الطائرات تقلع من دشمها قبل مرور « ١٥٠ » ثانية وكثيرا ما أقلعت فى « ١٣٠ » ثانية ، يتخللها تلقى الانذار ، ثم تقويم الطائرة بالمقوم الكهربائى ، وفتح باب الدشمه ، وسيرها على الممر الأول ، ثم الممر الرئيسى ، الى أن تحلق فى السماء .

قبل هذا يظل الطيار مربوطا فوق مقعده بالطائرة داخل الدشمه حتى يتلقى الانذار ..

ــ ذكرتم فى حديثكم جدار البالونات ، وقيل أن قواتنا الجوية استخدمت فى حرب عام ١٩٧٣ وسائل المراقبة بالنظر .. أليست هذه من أساليب الحرب العالمية الثانية ؟ ..

قال القائد الذى بلغت ساعات طيرانه ما يقرب من ستة الاف ساعة :

ــ نعم ، وهى أساليب لها فعاليتها حتى الان ، ان جدار البالونات من انجح وسائل الدفاع الجوى عن

المطارات ضد الطيران المنخفض ، ويمكن استخدامها فى الدفاع عن المنشئات الحيوية الهامة فى انحاء الوطن .

أما بالنسبة للمراقبة بالنظر فقد كانت خير معاون للمقاتلات والدفاع الجوى ، بل انها تجاوزت فى بعض الاحيان امكانيات الرادار ، وبيانات جماعات المراقبين بالنظر ظلت تصل الى قادة الوحدات الجوية مباشرة ، وطوال أيام المعركة والحرب المجيدة ، قام هؤلاء العمالقة بواجبات ضخمة وفشلت جميع غارات العدو على مطاراتنا حين اعترضتها مقاتلاتنا فى اللحظة المناسبة ، نتيجة بلاغات المراقبين بالنظر الذين نالوا اقساطا هائلة من التدريب على تلك المهام .

لقد أسقطنا طائرات كثيرة للعدو قبل أن تتمكن من اسقاط حمولتها من القنابل ، وكم كان مضحكا حين يرى الطيار الاسرائيلى ـ الميج امامه ، فيلقى حمولته كيفما اتفق ليستطيع الفرار وقد خف وزنه .

الفانتوم والميج

معنى هذا ان الفانتوم تأكد عجزها امام مطاردة الميج ؟

ـ لقد جعلوا من الفانتوم اسطورة من ناحية التجهيزات التكنولوجية ، ولكنها عجزت امام الميج ٢٢ و ١٧ ، وقد اسقطها طيارو تلك المقاتلات ، ومن ابنائنا الابطال الذين تفوقوا على تفوق التكنولوجيا الامريكية ومعنى ذلك هو التأكيد على قول الله عز وجل :

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ، باذن الله ، والله مع الصابرين » .

انه الطيار فى النهاية الذى يحسم الامر ، وليست الطائرة على الاطلاق .

وكما قيل فى الأمس البعيد ، ليس المدفع : بل الرجل الواقف خلفه ..

وبهذه المناسبة يحضرنى قول رائع للمشير المرحوم احمد اسماعيل على :

« السلاح بالرجل ، وليس الرجل بالسلاح » .

عدت اسال الطيار الاول فى وطننا العربى :

ـ هل يستطيع الطيـــار المصرى ان يقود الميراج الفرنسيه بنفس الكفاءه التى يقود بها الميج الروسيه ؟

ـ لقد قادها بالفعل بنفس كفاءه الميج ٢١ .

سؤال آخر :

ـ ما مدى الاسهام الذى قامت به قواتنا الجوية مع الشقيقة سوريا ؟

ـ منذ البداية وطيارونا يؤدون واجباتهم هناك تحت قيادة القيادة السوريه ، وقد اشتركوا مع الاشـــقاء السوريين فى ضربة السيطرة يوم ٦ اكتوبر حـين قامت بها سوريا بجانبنا ، بل وقاتلوا العدو الاسرائيلى فى حرب « الـ ٨٠ يوما » بعد ذلك ، ولنا شـهداء أعزاء قدموا الروح وهم يبذلون أقصى الطاقة والجهد ، حتى توقعت اتفاقية فك الاشتباك بين القوات السورية والاسرائيلية

ـ تردد أن عدد طائرات ضربة السيطرة يوم ٦ اكتوبر كان أكثر من مائتى طائرة ، وانه كان مخططا «لضربتين» وليست ضربة واحدة .. فما حقيقة هذا كله ؟

ـ بالفعل كان عدد طائرات ضربة السيطرة اكثر من مائتى طائرة ،وقد حققت الضربة الاولى أهـدافا كنا نأمل تحقيقها فى الضربة الثانية ومن هنا اكتفينا بضربة واحدة مركزة خير من مائة ضربة ضعيفة .

لقد دربنا الطيارين طويلا وبثمن غال جدا وبالذخيرة الحية فى ميادين تكتيكية ، ولذلك كان قصـفهم محكما

جسورا مرتفع الكفاءة ، وحصلنا على نتائج مذهلة لم تحققها فى أعنف مستويات التدريب وتلك اضافة هامة أضافها الرجال الى فنون القتال .

وحين أصدرت الاوامر ببدء المعركة كان تنفيذها بأسرع ما يتخيله العقل والمنطق .. اننى اذكر ان السيطرة على الطيارين فى الدقيقة الواحدة بعد الساعة ٢ ظهرا كانت شاقة للغاية ، بل كانت شاقة قبل ساعة الصفر بوقت ليس بقليل أمام الشحن المعنوى والعقائدى بالحرب وشرعيتها .

قبل المعركة بأسابيع والطيارون يعرفون انها أتية حتما وبأسرع ما يتخيلون ، فبقى اكثرهم بالقواعد دون ان يسمح لنفسه بزيارة أسرته أو منزله وبعضهم كتب على صدورهم « لا اله الا الله » وبعضهم كتبها فوق غطاء الرأس ، وسجلوا أحكام القصف مع تفادى الكشف الرادارى وأجهزة الانذار المبكر التى وضعها العدو بكثافة فى الضفة الشرقية ، وبلغوا عمق سيناء فدمروا قاعدة ومحطة « أم مرجم » رأس العدو، ومطار « المليز » أكبر المطارات التى استخدمها فى سيناء فظل متعطلا عن العمل اربعة أيام ، ومحطة « أم خشيب » التى تقوم بالشوشرة الالكترونية .

مع القوات البحرية

سألت الفريق الطيار حسنى مبارك :

ـ هل لجأنا الى الطيران الليلى ؟

ـ نعم ، حين كنا نعمل مع قواتنا البحرية ليلا فى ضرب لنشات العدو الصاروخية ، وقبل ظهور أول ضوء دمرنا لواء مدرعا اسرائيليا كان فى طريقه الى الجيش الثانى الميدانى ، وقد ذكر اللواء فؤاد عزيز غالى قائد

الجيش هذه الحقيقة أمام السـيد الرئيس ، ودمرت طائراتنا أيضا ١١ عربة تحمل صواريخ س.س ، المضادة للدبابات ، وهى صواريخ فرنسية محموله على عربات ، كما قصفت قاذفاتنا ابار بترول ابو رديس ، وأهدافا استراتيجية جنوب وشمال سيناء .

وفى الثغرة ؟

ـ دمرنا ما يقرب من ٤٠٠ دبابة اسرائيلية وكان طيارونا يقومون بست هجمات فى الطلعة الواحدة ، والمعدل هجمتين أو ثلاث هجمات فى اقصى الظروف الى جانب معاونة الجيش الثالث البطل ، بطائرات الهليكوبتر

وفى الثغرة قام أبناؤنا بآلاف الطلعات عبر فترة لا تزيد على ٩٦ ساعة ، تكبد العدو خلالها خسائر جسيمة لم تكن فى حساباته على الاطلاق ..

وهذه الخسائر تحملها الافلام التى التقطتها طائراتنا أثناء القصف ، فى سجلات الحرب .

أحب أن أسر اليك بأن الروح المصرية العالية جعلت العقاب الذى يوقع على الطيار أثناء الحرب لمخالفة ادارية ارتكبها ، هو حرمانه من طلعة أو أكثر ..

قلت لقائد قواتنا الجوية معلقا :

ـ ان دروس حرب اكتوبر لا حصر لها .. فهل يمكن التركيز على بعضها .

واستطرد البطل :

ـ لقد غيرت كثيرا من المفاهيم العسكرية ووضعت علماء الاستراتيجية والتكتيك امام حقائق جديدة ، وكما قال القائد الاعلى « سيتوقف التاريخ طويلا بالفحص والدرس امام حرب السادس من اكتوبر » ..

ان حرب اكتوبر ليست البطـولات التى تحققت ، وليست المعارك الضارية التى دارت فوق سيناء أو غرب

القناة فحسب ، بل هى برامج الاعـداد بكل احجامه ، والتخطيط بكل أبعاده والتدريب والتنسيق بين مختلف الاسلحة ثم التجهيز ، والتنفيذ فى النهـاية ، لنعزف جميعا جوا وبرا وبحـرا ، سيمفونيه مصريه لا نشاذ فيها .

ـ يعودنا حديثكم الى سؤال رددته مجـلات الغرب العسكريه ، هل سيعتمد المستقبل فى الدفاع الجوى على المقاتلات دون النيران الارضيه ؟ ..

ـ رايى انه لا غنى عن العنصرين مستقبلا المقـاتلات والصواريخ الارضيه ، كما يقول التحديد العلمى للدفاع الجوى، اذ يتشكل عنصريها من المقاتلات والصواريخ معا ، غير ان الطيار يخشى فى الدرجة الاولى الطيار الخصم ، لانه يستطيع الافلات من شبكات الرادار وضرب حوائط الصواريخ ، ولكنه قلما يفلت من طائرة معادية يقـودها طيار مقتدر ، لان الطائره تناور وتطارد ، وفرصة الافلات ضعيفة لدى الطيار الاقل ثقة وثباتا وخبرة .

وفى عصرنا الحديث انتقل العالم من المقاتلات ذات السرعات دون الصوتية الى المقاتلات سوبر سونيك ثم الى سرعات ١ و ٣ ماخ ، حتى أربعـة ماخ على مستوى المستقبل ، وقد بلغت سرعة احـدث الطائرات الان ٣ر٣ ماخ ، ثم ٨ر٣ ماخ ، ولابد من ملاحقة هذه الطائرات ذات السرعات العالية بوسـائل توجيه جديدة ، وصواريخ مضادة تلاحق التطور الالكترونى والتكنولوجى فى هـذه الطائرات .

وحتى يتم ذلك ، سيبقى الدفاع الجوى قائما على الصواريخ والمقاتلات معا .

صناعة الطائرات

سؤال أخير :

ـ هل سيشهد جيلنـــا صناعة الطائرات المصرية والصواريخ المصرية خاصة واننا نملك تجربة سابقة حين انتجنا منذ سنوات الطائرة المقاتلة الصغيرة القاهرة ٣٠٠ بالاشتراك مع الهند ؟ ..

ـ لقد وضع القـائد الاعلى فى مخططاته وهـو صاحب المخططات الواعية المدعومة بحسابات ورؤى يقظة واقعية .. وضع بين برامجنا احياء صناعة الطائرات والصواريخ ولدينا الخبرات البشرية الفنيـــة التى تقف مع خبراء الخارج على مستوى واحـد ، قادرة على تنفيذ هـــذه المخططات ، وهناك دفعات للامام بوزارة الانتاج الحربى لست فى حل من التحدث عنها ، ولكنى أستطيع أن أقول بامكاننا مفاجأة العالم ذات يوم بصناعات مصرية حديثة للطائرات والصواريخ .. خاصة مع نمو حركة الانفتاح التى نعيشها بعد أكتوبر ٧٣ ..

ولأننى لا أستطيع الاستفاضة حديثا فى هذا المجـال فسأذكر لك جملة قالها الرئيس السادات ، ونحن نحتفل بيوليو شهر الثورة هذا العام « يقصد » عام ١٩٧٤ ..

ـ « ان عظمة الشعوب وأصالتها لا تتكشف وهى تمضى تحت أقواس النصر ، ولكن عظمتها الحقة ومعدنهـــا الاصيل انما يتجلى وهى تتفوق على اقسى المحن وأشـد الازمات ، ثابتة راسخة صامدة قادرة ، تنتزع الامل من ظلام اليأس » .

وتركت القائد البطل الشاب ، الى مجموعة صور ، جاء بها رفاق السلاح بعد أن التقطتها طائرات الاستطلاع، يضعونها مع تفسيراتهم وقراءاتهم الفنية أمامه .. وكان لحظتها يقول :

ـ « ان جيلنـا سيشهد بالضرورة قفزات جريئة ، كانت بالامس القريب ضربا من الاحلام .. »

الطيار محمد حسني مبارك

تاريخه العسكري

تخرج في الكلية الحــربية أول فبراير عام ١٩٤٩ ، بعدها التحق مباشرة بالـكلية الجـوية ، وحصل على بكالوريوس الطيران في مارس عام ١٩٥٠ .

منذ ذلك التاريخ وهو يخدم في تشكيلات قتالية ، فطار على الطائرة الانجليزية « سبيت فاير » وهو برتبة ملازم .

عمل مدرسا بالكلية الجـوية منـذ عام ١٩٥٣ حتى ١٩٥٩ .

قادة القاذفات الخفيفة اليوشن ٢٨ ، بعد ذلك ثم سافر في بعثة دراسية الى الاتحاد السوفييتي .

في منتصف عام ١٩٦١ ، قاد القــاذفات الثقيلة « تي ـ يو ١٦ » .

وفي عام ١٩٦٨ تولى قيادة الكلية الجوية ، حتى أختير رئيسا للأركان في ابريل ١٩٦٩ ، وكانت ساعات طيرانه قد بلغت مايقرب من ستة آلاف ساعة .

في ابريل عام ١٩٧٢ ، أسند اليه القائد الاعلى للقوات المسلحة قيادة قواتنا الجوية .

تزوج عام ١٩٥٨ ، وأنجب علاء وجمــال في المرحلة الاعدادية .

من مواليد مايو ١٩٢٨ ـ قرية كفر مصـيلحه ـ مركز شبين الكوم .

خفة الحركة الجوية

سيناء ـ اليوم الخامس للحرب ...

امتلك الطيارون المصريون والسوريون، عنصر السيطرة الجوية طوال صراعهم بالمقاتلات ضد طائرات ومدرعات العدو ومدفعيته الميدانية ـ وأداروا معـــــاركهم جوا « بخفة الحركة المقتدرة » التى اثبتت المعركة الحـديثة ان القوات الجوية كالقوات البرية لابد من خفة الحركة ، لكى تظل مالكة للحرية الجوية فوق سماء سيناء .

لم يكن ماحدث فى سماء سيناء أو سوريا ،.أملا قائما على الحظ الاعمى .. لقـــد خرر طيـارو المقـــاتلات الاعتراضية المصرية والسورية بقتالهم،ببسالتهم ، صفحة جديدة مشرفة فى تاريخ العسكرية العربية ، صفحة أو نتائج عملية ، هى التطبيق الواعى لحسابات قتالية أكثر دقة ، ولتدريب أحسم فعالية واعدادا كاملا للمهمة .

لقد قاموا بطلعاتهم الاعتراضية وقتالهم فى الجو عبر أقصى ظروف التشويش اللاســلكى ، وكان التشويش بالنسـبة لهم لا يشكل مفـــاجأة .. لانه أمامهم على شاشات الرادار ، وقد أتقنوا الوسائل التكنيكية لتنفيذ مهمة اعتراضهم لطائرات العدو على الوجه الاكمل .

ان معارك الطيران القليلة التى قامت بها القوات الجوية السورية الشقيقة أو قواتنا الجوية خـلال ســـنوات التدريب الماضية ، انما هو اختيـــار عمل لقـوة الارادة

والصلابة ، والذخيرة التى يملكها الطيـــــار العربى من مهارة قتالية يحسب لها العدو أكثر من حساب ، لانها المعنويات العالية المدعومة بالايمان ـ تمنحه فى النهـاية طريقنا الاوحد للنصر فى معارك الطـــيران ، والقوات الاسرائيلية الجوية تملك التفوق العـــددى أمام قواتنا العربية ، كما امتلكت من قبل زمام المبادرة ، ولكنها لم تستطع قط أمام اقتدار طيارينا أن تحقق أهدافها رغم كبر حجم تشكيلات طائراتها القاذفة والمقاتلة التى تقذف بها فى كل معركة كى تخضعنا لارادتها .

ومنذ بدء معارك أكتوبر ١٩٧٣ أنزلت المقاتلات المصرية والسورية بالطائرات الاسرائيلية ضربات صاروخية محكمة فتحت أمامها الطريق لمطاردة العـدو ، وحققت لنــــا ولاشقائنا السوريين تنفيــذا ناجحا للمهام الاعتراضية والهجومية الجوية ..

لا حسابات عشوائية

ان المعارك الجوية أو البرية ذات الرصيد المتميز لم تكتسب خصائصها لانها أديرت بمعدات أو طائرات حديثة فحسب ، بل لان مقاتليها يملكون أكبر قسط من الجسارة والعلم ، والتخطيط للنصر لا بحسابات عشوائية ، بل بتخطيط مبنى على المعرفة الدقيقة بالموقف بكل أمكانياته وجميع ثغراته ، فتحمل العمليـــات طابع الرؤيا العلمية لتكتيكات العدو ولسيكولوجيته القتالية هجوما ودفاعا ، ومن هنا جاءت قرارات القتال السورية خلال المعـــارك الاخيرة أو قرارات الهجـــوم والاعتراض المصرية وفق حسابات متبصرة للقوى والوسائل فى حوزة طيارينا وفى حوزة العدو ، ومراعاة يقظة للموقف النـــاجم عن فتح النيران .

ان النفاذ الى مصير القتال وتطور أشكاله أو التنبؤ بالاحتمالات الحقيقية هو بالمعنى التطبيقي يساوى الكفاءة والقدرة على الرؤية الصحيحة لتطور المعركة ، والوقوف سلفا على نشاط العدو ، وما قد يقوم به .

ان التنبؤ العلمي لدى القـــادة المدعوم بمعلومات الاستطلاع وأجهزة المخابرات الحربية يرسم شكل المعركة، ويصنع أهم عوامل النصر ، وكلما كانت عناصر التنبؤ آخذة فى الاعتبار لقوانين القتـــال العصرية ، مستنبطة استنتاجات واحتمالات مسبقة للاوضـــاع ، كقرارات العدو التقليدية والمتوقعة وأساليب خداعه حسم مقاتلونا نضالهم المسلح لصالحنا ، وتطور قتـــالهم بكل الثقة والاطمئنان ، وفتح أمامنا آفاقا جديدة لملاقاة العدو .

التفوق على الكم ..

ان الطيارين من أصحاب الكفاءات التكتيكية العـالية يستطيعون بعدد قليل منهم التفوق قتاليا فى معـــاركنا الجوية فوق سماء سيناء والقناة كما حدث فوق سوريا عبر المناطق المحتلة وأبطـال قواتنا والشقيقة السورية يقاتلون أرقى وأشجع معاركهم الانتحارية ضد الفانتوم والميراج وسكاى هوك ..

ان معارك الجو العصرية تتخذ عادة أشكالا متنوعة ـ والتكتيك العالى هو سبيل المناورة التى تنشر جو الارتباك بين طيارى العـــدو .. ثوان لا دقائق ـ تحرز قواتنا العربية خلالها ضمانات النصر الحاسم .. ينطبق هـذا الموقف على المعارك الجوية الجماعية ـ أو معارك التشكيل الصغير ، انها كما يقول قادة الجو القدامى ، العـــلم الحديث للحركة الجوية ..

ان معركة اليوم غير معركة الامس القريب وفى كل

معركة قادمة ستحتاج فنون القتال لمتطلبات فنية عالية ـ وصلابة نفسية قـوية ـ هى والحمـد لله ثروة نامية باستمرار فى أرواح مقاتلينا فى الجو أو فوق الارض أو فوق صفحات البحر .. غير أن امتلاك العدو لطائرات مزودة بالتعـديلات المستحدثة والامكانيات الالكترونية الجـديدة ـ تجعلنـا ندخل التعديلات الايجـابية على أسلوبنا التكتيكى ـ لقد أصبحت المنـاورة لدى الطائرات فى المستوى الافقى أكثر امتـدادا ـ ولكن فى مقابل ذلك تزودت الطائرات بأجهزة التصويب الرادارية وارتفعت قوة دفع المحـركات بالنسبة الى وزن الطائرة ، وتطورت الى فعاليات هامة امكانيات ومهام نقط التوجيـه الجوى للطائرات وهى تقـاتل معـركتها على السماء ..

ان نجاح رجال التوجيه الجوى وهم فوق الارض يجعل مثلا طائراتهم الاعتراضية مالكة للمسافات التى تسمح لها باطلاق نيرانها ـ واصابة طائرات العدو ، والسيطرة على سماء المعركة .

ان المعركة الحديثة فى الجو أسندت الى هؤلاء الرجال خلف أجهزتهم فوق الارض أدارة المعركة جنبا الى جنب المقاتلين وهم فى اعلى طبقات الجو .. لانهم يضعون أمام الطيارين المقاتلين خط أعتراض الطائرات العـدوة ، ويضعونهم فى اللحظـة الحاسمة التى يطلقون عليهـا قذائفهم الصـاروخية .. وتسقط أسـطورة الفـانتوم أو الميراج أو السكاى هوك كما أسقطتها من قبل فعـالية الضربات السورية أو المصرية قبل وقف اطلاق النار ، وعبر جولات جوية بعد أغسطس ١٩٧٠ ـ وكانت محور احاديث الجماهير العربية ، لانها عكست صراعا رهيبا من من أجل حرمان العدو تلك الحرية التى امتلكها لفترة ما

فوق سماء الوطن العربى . حتى قامت معركة ١٩٧٣ الخالدة .

ان المعركة الجوية الحديثة تمثل صراعا متشابكا متعدد الاطراف ، والطيار بيقظته ، بخبرته ، بقدراته ومعــارفه العسكرية وفنونه القتالية التى أجادها من قبل واعطته شحنات الثقة ــ الطيار هو العنصر البشرى الذى يعيش مواجهة الخطر أو النصر ، وعلى كل هذه العوامل ويمكن تلخيصها « بالكفاءة » وعلى مدى كفــاءته تتوقف نتيجة المعركة الجوية .

ان قدراته ونوعيته القتــالية وهو فى السماء لابد أن تساير سرعة المقاتلات النفاثة ومن هنا تتأتى خطــورة المهمة وخطورة نتائجها أو اهميتها فعندما تقترب طائرات العدو من المجال الجوى فى طريقها للهجوم علينا ــ وهو ليس هجوما مرتجلا وانما قد خططوا له من قبل ــ تكون كل أجهزة الانذار لدينا قد اكتشفتها .

واجب من أدق الواجبات يقظة ودقة وسرعة ــ وعلى القيادة الجوية أن تضع القرار الفورى للرد على هجــوم طائرات العدو يساندنا تجدد المعلومات أمامنا باستمرار ودون توقف .. ان قرار القيادة لابد أن يكون أحــــد قرارين ــ مواجهة طائرات العدو بالصواريخ أرض ــ جو ــ وبالمدفعية المضادة للطائرات ــ أو يكون قرارها ــ اعتراض طائرات العدو بالطائرات المقاتلة ــ وربما بجمع القرار وهذا حدث كثيراً أن تكون مواجهة العدو بالطائرات والمدفعية م . ط . هذه هى رؤية القيادة وأسلوبهـــا القتالى صراعا بين قيادتين جويتين وليس صراعا بالدرجة الاولى بين طائرات أو طيــــارين ــ حتى يتحقق تعزيز الموقف ويصبح الجزء الاخير ، الجزء الفاصل فى المعركة معتمدا على كفاءة الطيار المقاتل وقدراته وتعاون الاجهزة

الارضية الموجهة من الارض له .. ان أى خطأ عفوى فى تقدير الموقف وتطوره من دقيقة لاخرى أو أى خطأ فى التوجيه الارضى يضع التشكيل الجوى أو التشكيلات الجوية التى تقوم بالاعتراض فى أحرج المواقف بل فى أخطر المواقف أمام الطائرات العدوة ، ذلك لانها قد تصاب بالاضطراب فى تنفيذ المهمة أو تطبيق الهجوم أو التصاعد به — وكل هذه القرارات تستغرق ثوانى لا دقائق بكل الثبات العقلى والذهن المتيقظ — والاعصاب الفولاذية — والايمان بالله .

وبعد — ان كل ما وقع من معارك جوية أو برية أو بحرية خلال السنوات « ٦٧ — ٧٤ » ورغم ضراوتها واستبسال مقاتلينا الاشقاء فى سوريا أو فى قواتنا الجوية فى قتالهم خلال معارك ٧٣ ليس الا مقدمات فقط — وقد تعكس تصاعدا بالطيران فى معارك قادمة — ولابد أن نتوقع محاولات متكررة من العدو لاجهاض قواتنا ولحرمانها من التقدم والاختراق فى معركة التحرير . ولكن ايماننا وعملنا هو وحده الذى جعل رجالنا يديرون صراع السيطرة وقد امتلكوا عامل المفاجأة والمبادرة والقدرة على حرمان العدو من امتلاك الحرية الجوية التى أسكرته فترة من الوقت تخيل بعدها انه لن يفقدها على الاطلاق .

ان الصدمات الجوية التى تلقاها — تعكس هى الاخرى موقفا لديه — لان طيارينا تلقوا جرعات عالية من التدريب والمعارك الحقيقية ، وحققوا معدلات قتالية فى الجو تشير الى صدام المعارك القادمة واحتمالاتها وأشكال قتالها ..

السيطرة الجوية

المعارك الحربية الكبرى فوق الارض تبدأ دائما من الجو ..

وفى معركتنا المجيدة يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ـ وما بعده من ايام حافلة بأشرف القتال ، اطلقت قواتنا الجوية « الشرارة » الاولى فى الخطة « بدر » .

لقد أعطى الطيارون المصريون ، بل وكل الاجهزة الارضية المعاونة لهم بقواعدنا الجوية ، قبل المعركة وطوال ايامها الخالدة ، أرقى اشكال التفوق والابداع والسيطرة من خلال العمل الجماعى الملحمى فوق سيناء ، وغرب القناة ، وكان اداؤهم من انبل وأعظم الاداء ، كما كانت اضافاتهم المتميزة الى فنون القتال هجوما أو اعتراضا من الجو ، اقرب الى الاعمال الخارقة التى تفوق امكانيات مقاتل العصر الحديث ، وقد تزودوا بكل التكنولوجيا والالكترونات ..

لقد اسقط طيار مصرى يقود طائرة هليكوبتر تحمل صواريخ ـ جو ـ جو ـ فانتوم اسرائيلية .

وقبل ان يحتوينى الانفعال ـ اعود الى ٦ اكتوبر المجيد ومدفعيتنا الثقيلة من غرب القناة تعزف سيمفونيتها فتدمر مرابض اسلحة العدو فى الشرق ، وتسكت مدفعيته ، وفى نفس اللحظات كانت القاذفات المصرية ، والمقاتلات القاذفة ، والمقاتلات الاعتراضية

بكل المفاجاة فوق سيناء تقصف بقنابلها وصواريخهـــا مطارات العدو وطائراته فوق مطـــار العريش ، تمادا الميز ، وتحرق مراكز سيطرته الالـكترونيه وأجهـــزة رداراته وخطوط مواصلاته وتشعل النيران فى محـــازن وقوده وتموينه ، وتجمعات قواته التعبوية والاستراتيجية فى عمق سيناء ..

فى نفس الوقت كانت المقاتلات المصرية الاعتراضية من طائرات الميج ٢١ و ١٧ تعترض فى الجو طائرات العـدو التى حاولت الوصول الى قواتنا البرية وهى تفتـــح خطوتها الامامية الاولى فوق مياه الفناة ، لتندفع قوات المشاة ثم القوات الميكانيكية عبر الجســـور التى أقامها مهندسونا ، الى تحرير سيناء من الاسر ..

فى نفس الوقت أيضا كانت القوات الخاصة تؤدى اعظم المهام الانتحارية خلف قوات العـدو فى جنوب وشمال شرق سيناء ، وعلى الساحل الشمالى لها ..

صفحات من الشرف ، من نور ، مضيئـــة على مر الاجيال ، حررها عمالقة قواتنا المسلحة من الجو والبر والبحر وحفروها فى مقدمة التاريخ الوطنى لنضـــال شعبنا الذى انجب هؤلاء الابطال نسور الجو ، محطمى خرافة نوعية الطيار الاسرائيلى وتفوقه ..

ان بسالة الطيـــار المصرى وكفاءته الجســورة ، ثم اقتداره الهجومى واستطاعته القتالية البارزة فوق عمق سيناء أو القناة غرب ، وسيطرته على أرض المعركة طول الصراع المسلح ضد طائرات اسرائيل وهى تملك التفوق العددى أمام قواتنا وضد بطاريات صواريخه ، ومدفعيته المضادة للطيران ، ان هـــذه الذخائر البشرية المدعومة بالايمان ، والتى يملكها الطيـــار المصرى لم تكن عملا أو أملا قائما على المصادفة أو المفاجأة أو الحظ على الاطلاق ا

لقد كان امتلاك الطائرات المصرية للحرية والسيادة الجوية ، تطبيقا عمليا لبرامج التدريب الطويل فى سماء بلادنا وفى خارج الوطن ، لواجبات ضخمة عديدة مسبقة قبل ٦ أكتوبر ، لحسابات تحمل طابع الرؤية العلمية للمعركة وتصاعدها ، لتخطيط مبنى على معرفة دقيقة بكل امكانياتنا وثغراتنا ، وما يملكه العدو ، وما يلجأ اليه من خلال سيكولوجيته وعقيدته القتالية ..

الميج ١٧ ..

بين مفاجآت الحرب التى تلقاها العدو بجرعات كبيرة هى ظهور طائرات الميج ١٧ فوق مطاراته فى العمق واشتراكها مع القاذفات فى تدمير طائراته فوق الارض وهى ما يطلق عليه « ضربة السيطرة » ثم استدارتها لتفجر فى اشتباكها الجوى طائرات الفانتوم « ف ٤ » وسكاى هوك وميراج .

ان ضربة السيطرة كانت مؤثرة بحجم كبير ــ لقد استمرت داخل العمق من ٢٥ الى ٣٠ دقيقة ــ وبعد ذلك اخذ الطيارون يقومون بطلعاتهم من خمس الى سبع طلعات وكانت الطائرات تعد للاقلاع بواسطة المهندسين والميكانيكيين والملاحين والفنيين من رجال التسليح والوقود فى مسافة زمنية تتراوح بين ٦ و ٧ دقائق ــ وهذا ما يعتبر اعجازا فى مستوى الخدمة الارضية للطائرات المقاتلة القاذفة كالميج ١٧ و ٢١ ..

كان مقاتلو الميج ١٧ من فرط الحماس يحملون القنابل بأيديهم مع الميكانيكيين ليلحقوها بطائراتهم دون انتظار لوصول الاوناش التى تقوم عادة بهذه المهمة ، ومهندسو ازالة القنابل يطهرون ممراتنا من القنابل الزمنية ، وآخرون يعدونها للعمل فى ساعات قليلة ــ

وكان الله رغم كثافة طيران العدو فوق مطاراتنا ..
كان معنا دائما يقلل حجم الخسائر ويحمى الرجال ..
بعض طيارى الميج ١٧ - المقاتلة القاذفة التقى بأربع طائرات فانتوم ويشتبك معها ويسقط اثنين منها .
طيار آخر قاد ٤ فانتوم وسكاى هوك الى مدى بطاريات صواريخنا لتصطادها بأكملها ولم يكن هذا الطيار قادر على سحب هذه الطائرات لولا براعته فى المناورة وخفة الحركة .
طيار مقاتل أسقط سكاى هوك وميراج ودرجة حرارته ٤٠ ، وقد أخفى ذلك عن قائد السرب وطبيب القاعدة تستر عليه من فرط الحماس والشحنة القوية التى ملأت أرواحهم وجعلتهم جميعا فى شوق جارف للقتال ..
ملازم ثان طيار « نقولا » أسقط وهو الطيار الحديث طائرة ميراج بطائرته ميج ١٧ ..
المقاتل طيار « شريف » كان أول مقاتل ميج ١٧ يسقط الفانتوم يوم ٦ اكتوبر خلال ضربة السيطرة ..
المقاتل طيار « فكرى » والمقاتل طيار « يحيى » أسقطا الفانتوم فى سوريا خلال الساعات الاولى من المعركة أيضا ..
المقاتل طيار « وليم » وهو فى طريقه الى قاعدته بعد ان دمر هدفه اكتشف رتل مدرعات اسرائيلية فدمرها عن آخرها - وكان يطلق رشاشه على أفراد العدو الفارين من دباباتهم ولقد فعل الآخرون مثله على الطريق الساحلى لسينا وفى شرم الشيخ ورأس نصرانى وشرق البحر الاحمر ..
وفى احدى المعارك التى دارت بالقطاع الاوسط كان ابطالنا مقاتلو الميج ١٧ يقصفون مدرعات العدو فى مساحة لا تزيد على ٥٠٠ متر - فجاء القصف من «٨» اتجاهات

.. وقال احد ضباط المدرعات الاسرائيلية من الاسرى بعد ذلك :

« لقد وصفنا هؤلاء الطيـــارين بالجنون ... كان اندفاعهم في قصفنا يفوق كل تصور .. لقد اطلقوا علينا صواريخهم ورشاشاتهم وهم فوق الارض بمسافة لاتزيد ارتفاعها على ٢٠ مترا » .

وقال الأسير « ان خسائرنا في الافراد بعد هذه المعركة بلغ اكثر من ٢٠٠ قتيل » .

٤ طائرات ميج واجهت ١٢ ميراج ـ وأسقط طيارونا اثنتين وفرت الباقي ـ وقام رجالنـا بتكملة مهمتهم ـ قصفوا اكبر مستودع بترول للعدو واكبر مخزن ذخيرة شرق رمانة ـ وتكرر قصفهم للمدفعية المضادة للطائرات الموزعة حول أهـــداف العـدو الحيـــوية ـ وبطاريات صواريخه الثابتة فوق الارض ومســـــتودعات الوقود وحولها كتيبة دبابات لحمـــايتها من القوات المصرية الخاصة ـ والقيادة الاسرائيلية للمنطقة الجنوبيةفتدمرت تماما وقائدها بداخلها كما احترقت عدة أتوبيسات كانت تحمل مجاميع قواته الاحتياطية القادمة من انحاء اسرائيل لتشترك في القتال ضد قواتنا .

منصورة يا مصر

قال القائدان حسن وسعد :

ـ أحد الابطال وكان وقوده على وشك الانتهاء ويعلم تماما بذلك الا أنه عندما شاهد ٣ دبابات للعــدو ، انقض عليها فقصفها وفرغ وقوده فرشق فيها وفجرها بذخيرته وهو يهتف باسم مصر .

بطل آخر سقطت به طائرته وهو يقصـــــف مواقع الصواريخ المعادية ـ وأبلغ قائد تشكيله باستشهاده ،

ثم فوجئنا به يحدثنا تليفونيا من المستشفى ، لقد كتب الله له النجاة ، واستطاع رغم كسر ذراعه وامتلاء جسده بالشظايا أن يصل الى قواتنا فى سيناء ويعود الى القاهرة ..

كان الرجال يهاجمون من نهاية الشرق الى الغرب لا من الضفة الغربية الى العمق ـ حتى يتمكن كل منهم من تدمير اكبر حجم من مدرعات وصواريخ قوات العدو الميكانيكية ـ بما فيها عربات القيادة التى تقبع عادة فى المؤخرة ـ وعربات التموين والذخيرة والوقود بل وقواته الاحتياطية الاستراتيجية ..

الطياران «نور وسمير» عادا بطائراتهما وقد انصهرت الطائرات وتحطمت أجنحتها .. عادا بكل الثقة ، وبعد دقائق كانا يقودان طائرات جديدة ويشتبكان مع العدو ويسقطان الميراج وسكاى هوك .

لقد تدرب الطيارون المصريون طويلا على أساليب اختراق الدفاعات الجوية التقليدية والصاروخية للعدو فى سيناء وعمقها ، فضلا عن معرفتهم الهائلة بكل موقع اسرائيلى فوق الصحراء يمكن أن يفتح عليهم نيرانه ـ كما تحصن كل طيار مصرى بذاكرة قوية حفظت كل صغيرة وكبيرة فى مدى انتشار القوات الاسرائيلية فوق صحرائنا التقطتها طائرات الاستطلاع المصرية عبر أقصى الفترات حشدا للعدو .. حفظوها عن ظهر قلب بنسبة الف فى المائة ..

المقاتل نبيل ورجاله

ان الطيارين المصريين الاثرياء بكفاءاتهم التكتيكية العالية ، وبمناوراتهم فى المعارك الجوية الجماعية أو فى معارك التشكيل الصغير ، وبامتلاكهم معارف العلم

الحديث للحركة الجوية .. كانت ارصـــدتهم طوال أيام القتال المجيدة تسجل نتائج ومعدلات نامية باستمرار ، جعلت خبراء الطيران وأجهزة المخابرات فى حلف الاطلنطى بل فى الاتحاد السوفيتي الصديق يعقـدون الاجتماعات المتعددة لدراسة ابداع الطيـارين المصريين فى استنباط اساليب قتال تكتيكية جديدة وقـد منحتهم السـيطرة والحرية والسيادة الجوية فوق سيناء وعمق قوات العدو

فى لقاء مع الطيارين « نبيل ورجاله » وبينهم اطقم الخدمة الارضية من المهنـدسين والفنيـين ـ والحوار حول طلعات العدو عام ١٩٦٧ ـ وطلعاتنا عام ١٩٧٣ ، والحديث فى استطراد للطيار البطل :

ـ المعدل العالمى للطلعات ٤ طلعات فى اليوم ، الطيار المصرى قام فى الشهر الماضي بست وتسع طلعات ..

العدو عام ١٩٦٧ كان يقوم بتجهيز تشـكيل من ٤ طائرات للهجـــوم فى ١٥ دقيقة ـ استطاع المهنـدسون والفنيون المصريون اختصارها عام ١٩٧٣ الى ٧ دقائق

طائرة اصيبت ، كان اصلاحها يستغرق ٦٠ يوما ـ قام المهندسون المصريون باصلاحها فى ٤٥ ساعة .

عام ١٩٦٧ ـ اقلع الطيارون المصريون من المطـــارات وقنابل طائرات العدو تتساقط فوقهم والممرات مضروبه وأسقط طيارونا فى أقل من عشر دقائق وفى قـــاعدة واحدة ٨ طائرات اسرائيلية لقد عشت هذه المعركه ـ والحديث مستمر للطيار نبيل ـ وكان طيارونا ما زالوا فوق الارض حين بدأ قصف طـائرات العـدو ـ واقلع الرجال بكل الجراة والبسالة والمهارة ـ وتصدوا للطائرات المغيرة واسقطوا منها كما قلت ٨ طائرات .

عام ١٩٧٣ حين هاجمت قاذفاتنـا مطـاراتهم ـ لم يستطع او يجرؤ طيـــــار اسرائيلى واحد أن يقفز الى

طائراته ويتصدى لنا ! ..

يوم ١٦ اكتوبر عام ١٩٧٣ ــ اسقط الطيار مقاتل « ضياء » ٣ طائرات للعدو فى طلعة واحدة ..

الطيار مقاتل « انس » كان ظهره ملفوفا فى حزام من البلاستير وأخفى المه وطار واسقط الفانتوم ..

الطيار مقاتل « بهاء » طارد وحده تشكيلا للعدو ، وعاد ليقوم بخمس طلعات بعد ذلك ــ وحين سمع نبأ وصول مولوده الاول الى الحياة ــ رفض اجازة منحها له القائد لكى يذهب ويرى طفله ، واستمر يؤدى واجبه ، ولم يكن قد رأى زوجته منذ اكثر من شهرين ــ كانت القاعدة هى أسرته وبيته وكل حياته الخاصة..

الطيار مقاتل « علاء » كان يقوم بنقل طائرته من قاعدة الى اخرى وفجأة واجه طائرتين للعدو ــ اسقط واحدة ــ وهربت الثانية .

لم يكن مكلفا بهذا الواجب ، قاتل من تلقاء نفسه شأنه شأن المقاتل المصرى فى أى زمان ومكان .

الطيار مقاتل « باسيلى » اسقط ميراج وأصاب أخرى فى اشتباك واحد .

وابطال آخرون حققوا أعلى المعدلات فى تحطيم طائرات العدو ــ عويس ورجاله ــ وعبد الصمد ــ ممدوح ــ ولدى كل منهم صور الطائرات العدوة التى أسقطها أثناء اصابتها المباشرة ــ أغلى ما يمتلكون فى حياتهم ــ والدليل الحى على استطاعتهم ــ تلك الميزة البشرية التى تتوقف عليها نتائج المعارك الجوية ..

ليت كل الاسماء تحضرنى فأذكرها ، لقد انزلوا بالمقاتلات القاذفة الاسرائيلية ضربات صاروخية محكمة، وقاموا بطلعاتهم الاعتراضية بين اقصى ظروف التشويش الالكترونى عليهم ، وكانت معاركهم هى مواجهة الموت

بكل ما تعنيه الـكلمة ، وفى احدى العمليات واجهت ٤ طائرات ميج اعتراضية ٨ طائرات للعدو ـ سكاى هوك وفانتوم ـ واسقط طيارونا فى نهاية الاشتباك ثلاث طائرات ولم تصب لنا طائرة واحدة .

صلابة وارادة ومعنويات تكاد تعانق السماء نابعة من نوعية بشرية قتالية فريدة ـ هى باختصار ملامح الطيار المصرى قاذفا أو مقـــاتلا اعتراضيا ـ تلك الملامح التى مهدت أمام وحداتنا الضاربة آفاقا جديدة ، ومنحت القوات البرية فعاليات حاسمة فى قتالها الهجومى فوق صحراء سيناء وجعلتها بالغطاء الجوى المقتـدر طـــوال الهجوم والهجوم المضاد ـ مالكة لعنصر المباداة ـ ودرجات استعدادها غنية سخية بأكبر جرعات التجربة عبر معارك أكتوبر على مستوى الجو والبر والبحر .

القاذفات ..

ان الحديث عن القاذفات يعيدنا الى بناء قواتنا الجوية بعد ١٩٦٧ ـ اعتمادا على أكثر الاساليب العلمية المتقدمة المتاحة ـ ولذلك كان علينا ان نملك سلاحين للجو (سلاحا استراتيجيا) يستطيع تدمير مناطق العدو فى العمق بما يؤثر تأثيرا محسوبا وفعالا على قدراته الاقتصـــادية وامكانياته الصناعية والبشرية ـ ومن هنا قال الرئيس السادات أكثر من مرة موجها حديثه لاسرائيل « العمق بالعمق » ثم « سلاحا تكتيكيا » يستطيع العمل ضـد أهداف تكتيكية محددة وفق خطة عمليات مرحلية فوق مسرح العمليات فى سيناء ويضم القاذفات التكتيكية التى يمكن أن تقوم بتدمير مطارات العدو ، والمقاتلات القاذفة والمقاتلات الاعتراضية التى تحمى القاذفات أثناء تأديتها لمهامها التدميرية ثم تتولى التعرض لطائرات العـدو اذا

ظهرت فى سماء المعركة ..

ولقد كان الاهتمام كبيرا بالعنصر البشرى الى جانب الطائرات ، ثم التزود بأجيال جديدة من الطيارين والأطقم الفنية التى تعمل بجانبهم من فوق الارض — وخـــلال السنوات القليلة الماضية كان الطيارون الجدد فى مصاف المتخصصين بما اكتسبوه من خبرات ومهــارات أجروا صقلها باستمرار ، كما كانت دراساتهم وتدريباتهم وافية ونشاطهم متزايدا أبدا وقدراتهم متنامية وطـــاقاتهم الشابة كماء البحار لا تفرغ أبدا .

ولقد رأيتهم أسرة متلاحمــة فى كل قاعدة ، يؤدون عملا يوميا دمويا بعاطفة عميقة نحو الطائرات واخلاص وحرارة ودفء انسانى يشيع الامل والقوة فى كل خطواتهم واشكال المنافسة بينهم تتميز بالنبل الثابت فى روح كل مقاتل أو قاذف .. المنافسة على العمل البطولى والمبادرات المتفانية للقيام به والاحساس بالواجب الى درجة تأديته بالاسلوب الانتحارى .. هذا هو ما يتحلى به طيارونا..

أحدهم كان عائدا الى قاعدته وقد فرغ وقوده حينما علم بتشكيل مضاد فى الجو .. لم يتردد لحـظة .. استدار وعاد الى الهجوم وهو يعلم أنه ينهى حياته بهذا القرار ..

وضابط آخر كان متألما الى حد الشكوى لان قائده يعطيه واجب حماية القاعدة من الجو ولا يدعه يشترك فى قصف العدو داخل عمق سيناء .

ان الالـكترونات والتكنولوجيا مهما بلغت من التقدم ليست قادرة على احراز النصر فى الحرب ، انه الانسان بقواه الذهنية والروحية ، ببواعثه ، بمفاهيمه ، بايمانه، فيصبح قادرا على استخدام منجزات المعدات الإلكترونية

المتطورة أمثل استخدام .. وبدونه تصبح آلات عديمة الجدوى ..

ان طيارة مصرية واحدة لم تصب وهى فوق الممرات، وكل خسائرنا كانت فى معارك الشرف وقد اشعلها ابطالنا صفحات خالدة من نور ، أضاءت طريق التحرير أمام قواتنا البرية والبحرية .

قال لى أحد القادة :

ـ أصيبت مقاتلة قاذفة وهى تقصف مطارات العدو وطائراته فوق الارض ـ ثم تأكد لقائدها البطل عدم قدرته على العودة بطائرة سليمة ـ ورفض ان يهبط بالمقعد القافز ـ بل ابلغ باللاسلكى موقفه وقراره وفى ثوان كان يقود طائرته الى قلب ثلاث طائرات فانتوم رابضة على أرض المطار فأشعل فيها النيران واستشهد العملاق

مدن لا تنام

ان قواعدنا الجوية أشبه بمدن صغيرة لا تنام ـ رغم ان أنوارها مطفأة طوال الليل ـ وهى ليست مكانا موحشا كما تبدو لاول وهلة ـ لقد نشر الطيارون والموجهون الارضيون والمهندسون وأطقم الخدمة الارضية جوا يغمره الحب والمرح ، ان طمأنينتهم وفورات حماسهم من حجم تدريباتهم ونتائج معاركهم التى تفيض بالكثير ومشاعر أبناء الاسرة الواحدة التى تسود حياتهم مستمدة من فنون القتال ..

لقد انضجت تلك المعارك من خبراتهم العملية التى اكتسبوها خلال عمليات ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ وزادت من ادراكهم العميق بطبيعة معارك الغد وما يخبئه من احتمالات ، وعزز برامج التدريب المستمر التى لم تتوقف لديهم على الاطلاق .

كل خطوة ، كل حركة ، كل تصرف صغير أو كبير محسوب ومخطط له ، والكل ملتزم بقواعد وواجبات محددة ، محكومة بخطة عمليات .. لا مجال للاجتهاد الفردي .. وللوقت ألف حساب .

ان القواعد الجوية تعمل بالثانية قبل الدقيقة ، ودرجات استعدادهم للاقلاع والاشتباك يخطط لها بالدقائق والثواني .. لقد شاهدت طياري الميج يقلعون بطائراتهم خلال دقائق قليلة وجزء من الثانية ـ ذلك المستوى هو ما جعلهم في مصاف أبرع قذافي ومقاتلي العالم .

ان أطقم المهندسين والفنيين الذين يعملون معهم هم العنصر الايجابي خلف تحقيق هذا المستوى ـ ان الميكانيكي بالنسبة لسلامة وكفاءة الطيارة لا يقل أهمية عن الطيار .

وبين هذه المجاميع البشرية الارضية الساهرة في قواعدنا الجوية يتعاون مهندسو تسليح الطائرات مع مهندسي اللاسلكي والرادار والوقود والميكانيكا ـ في اعداد القاذفات أو المقاتلات للعمل في أقل فترة من الوقت ـ فترة محسوبة بالدقيقة ، وتحكمها خبرة وامكانيات هؤلاء الابطال ـ وعليها يتوقف عدد طلعات الطائرة ، وسلامتها ، وكفاءة قصفها واشتباكها مع طائرات العدو .

ولقد أعطى الرجال أغلى ما لديهم ، وتجاوزوا المعدلات القياسية والمأمولة ، واستوعبوا أحدث الاساليب العلمية وطبقوها في معارك أكتوبر المجيدة أمثل تطبيق .

ـ « شاهدت ميكانيكيا يعدو خلف قنبلة زمنية ألقاها العدو أمام دشمة طائرات ، ويحملها ليلقيها في الصحراء وتنفجر بعد ١٠ ثانية من التخلص منها » .

لم يكن هذا عمله أو اختصاصه ، ولكنها الروح المصرية التي تفوق كل تصور والارادة الموحدة،والتماسك البطولى والالتحام العظيم لابناء القاعدة طيارين وفنيين وأطباء ، ضباطا وجنودا ، مقاتلين وقذافين وميكانيكيين .

المناورة الراسية

من هذه البيئة وهذا المناخ ـ كانت ضرباتنا الجوية المكثفة ضد طائرات العدو ، وتجهيزات مواقعه الهندسية خلف الممرات وفى عمق دفاعاته الاستراتيجية المدرعة ـ كانت هذه الضربات اختبارا عمليا عريضا لرجالنا ومعدنهم القتالى وتفوقهم العلمي واقتدارهم البشرى .

فى احدى العمليات الجوية أخذت طائرات العدو فى الارتفاع لركوب طائراتنا واتخاذ الوضع الملائم لكى تمتلك عامل السيطرة فى ادارة المعركة ، وكان ذلك فى حسابات طيارينا ، قادوا طائراتهم بكل الثبات الى وضع أكثر مهارة ، فعادت طائرات العدو الى المناورة الراسية ـ وهنا « الثغرة » التى لا يتبينها حتى يستغلها الطيار الاكثر يقظة ، الاكثر تدريبا ، الاكبر وعيا بسلوك عدوه ، وتكتيكاته فى الجو ـ ثغرة ـ استغلها طيارونا فى دقة بالغة وتعاون جماعى بين مقاتلى التشكيل ، فأطلقوا صواريخهم فى اللحظة الحاسمة المناسبة ـ جزء من الثانية وليس من الدقيقة وانفجرت ٤ طائرات اسرائيلية فى وقت واحد ولم تصب لنا طائرة واحدة .

معركة بارزة وما أكثر وقوعها طوال أيام القتال بهذه النوعية والسيطرة الجوية فى أدارة معارك الاعتراض ، وقد عادوا الى سماء سيناء متجاوزين كل السلبيات ، مالكين لاعظم المهارات ، فترجموا هذه الثروات عمليا الى أقصى انظمة التشغيل والارتفاعات وبأكبر السرعات ، محققين

عنصر المباغتة والقتال الساحق الكاسح ، بعيـــدا عن الإساليب والقوالب المتجمدة فى صراع الطائرات الإسرع من الصوت .

ان معركة الغد تحتاج الى متطلبات فنية جوية عالية وصلابة نفسية كالفولاذ هى احدي الخصائص النامية باستمرار فى أرواح طيارينا ـ غير ان امتلاك العــدو لطائرات مزودة بالتعديلات الالـــكترونية المستحدثة تلك التي لم يستعملها الجيش الامريكى حتى الان تجعلنـــا بالضرورة تطبق تعديلات ايجابية فى طائراتنا ، تعــديلات ذات فعاليات جديدة لسنا فى حل من الكتابة عنها حتى الآن .

لقد انصهر الصلب وتدمرت الطائرات والاسلحة ، ولكن ارادة قواتنا المسلحة لم تلن ولم تضعف ، بل ازدادت صلابة ونموا وايقاع مقاتلينا صارم مطرد متين ...

وجاء ٦ أكتوبر وما بعده من أيام ، وقاتل الرجال وأعطوا أعظم العطاء ، وتكفل قتالهم بالنصر واسترد شعبنا ثقته بغده ومستقبله وجيشه البطل .

لذلك ستغمر بهجة انتصارات قواتنا المسلحة مآسى الماضى ، وسترتفع مآثر الباسلين الابطـــال من الشهداء والاحياء ، لتعلن أمام شعوب العالم ، أن مصر لم تصب أبدا بالعقم ، وان نضال شعبنا الموصول منذ فجر التاريخ ، سيظل أخلد ملاحم الانسانية وأشرفها ، لان وقوده كان دائما من أبنائه الصناديد ..

العودة الى السماء

ان طيارينا بكل المشـــقة والصمود والرجولة الفــذة يصلون الآن الليل بالنهار ، برؤى مشفوعة بالعلم والايمان ، بالتجربة القتالية المجيدة ، باكتشف مظاهر التغيير الجذري

الذى تعيشه قواتنا الجوية ، ابتداء من ٦ أكتوبر المجيد، اخذوا أوضاع التأهل والاستعداد . ان الطيارين بجانب دشم طائراتهم منذ توقف اطلاق النار .. جاهزين لسماع القرار ، للتنفيذ ، للعودة الى السماء .

تحية لكم أيها العمالقة ، لقد انتفض الشعب العربى في أنحاء الوطن العربى لمعاركم ، لاقتداركم بكل التقدير والاكبار .

تحية لقتالكم ، ووقفة بالخشوع أمام سيرة شهدائكم الابطال الذين أعطوا أغلى ما لديهم ـ اعطوا الحياة ـ لكي تبقي لنا الحياة فوق سيناء المحررة .

القاذفات بدون مقاتلات

قامت « القاذفات المصرية » منذ اللحظة الاولى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ باجراء الهجوم العميق والقصف الضخم ضد قوات العدو الاسرائيلى المتمركز فى عمق سيناء ..

لقد طارت « القاذفات المصرية تى يو » فى بعض مهامها دون حماية من المقاتلات الاعتراضية ، أعظم المخـــاطرات المحسوبة المشفوعة بالاقــــدام الجسور ، وحققت أرفع الاهداف .

لذلك ستبقى معارك طيارى القــاذفات والمقـــاتلات الاعتراضية والمقاتلات القاذفة ، شعلة ضوء لا تنطفىء فوق تاريخنا ، فقد قاتل طيارونا ـ العدو وكانوا أساطير للبذل والفداء .

هذه هى رسالتى الثانية عن قواتنا الجوية فى حــرب رمضان التحريرية المجيدة .

استمع السائق « خليل » الى قائد سرب القــاذفات المصرية حين قال له :

ـ « لا تأت مرة أخرى الى هنا ، والاشتباك دائر » .

ولقد عاد السائق الشاب بسيارته الى دشم الطائرات مرة ثانيـــة حاملا الشـــاى والوجبات الخفيفة لطيارى القاذفات والمقاتلات الاعتراضية حين يهبطون من طلعاتهم ، غير عابىء بقنابل العدو تتساقط حوله .

وقال السائق للقائد ، معتذرا :

ـ « لم أستطع أن أبقى بعيدا عنكم بلا عمل » .

وكما توقع القائد ، أصيب « خليل » بشظية في ساقه ، ولكنه استمر بكل العناد يؤدى واجبه جريحا يقطر دما ، حتى اجبروه على الانتقال الى المستشفى ، وقال « للطيار القائد » وهو محمول بين أيدى زملائه :

ـ « ألم تقل لنا أن النصر يتطلب التعاون الجماعى بين افراد المطار بلا استثناء .. سأعود سريعا ، أرجوكم .. لا تدع سائقا غيرى يأخذ مكانى » .

بيئة عسكرية تحمل كل الدلالات على رقى العلاقات البشرية التى تحكم دستور كل من ضمته قواعد قواتنا الجوية . طيارا كان أو مهندسا أو ميكانيكيا او جنديا كالسائق « خليل » .

ان الطلعات الناجحة التى قام بها طيارونا من قادة القاذفات والمقاتلين منذ اللحظة الاولى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، والتى بلغت تسع طلعات وأكثر للطيار الواحد فى اليوم الواحد ، لا يمكن أن تبقى وتستمر الا اذا عكسها « الطابع الجماعى » فى كل خطوة عمل فوق الارض ، تؤديها الاطقم الفنية لاعداد الطائرة قاذفة أو مقاتلة ، لكى يصبح الطيار قادرا على اصابة الهدف ، وتحقيق المهمة أكمل تحقيق .

القاذفات

حين جاءت اللحظة الخالدة ظهر ٦ أكتوبر كان للقاذفات المصرية شرف توجيه أول الضربات الاستراتيجية للعدو الاسرائيلى ، تلك الضربات التى مهدت لقواتنا البرية أكبر قدر من حرية الحركة نحو العبور الى الضفة الشرقية ، بينما وحدات أخرى تقابل فى عمق سيناء بعد أن حملتها جوا طائرات الهليكوبتر .

لقد قصفت القاذفات المصرية « تى يو » مطارات العريش وتمادا والمليز بقنابلها الثقيله وضربت طائراتها التى كانت تستعد للطيران ، ودمرت منطقه « أم مرجم » شمال سيناء وكان بها غرفة العمليات الرئيسية لقوات العدو على مختلف أسلحته مما أصاب قياداته بالارتباك والتخطيط عدة أيام ، كما قصفت تجمعات دباباته فى مواقع الاحتياطى الاستراتيجى ، وألقت قنابلها فوق منطقه البترول فى « أبى رديس » فحولتها الى نيران مشتعلة .

لقد كانت الضربات التى أنزلتها القاذفات المصرية « تى يو » بالعدو الاسرائيلى لغزا كبيرا يحمل كل المفاجأة له ..

ان القاذفات طارت على ارتفاعات منخفضة جدا ، وهذا وحده من اجرأ واكفأ أشكال الهجوم بالطيران ، وبالنسبة للقاذفات فهو يعطى مؤشرات أكبر حجم من الجسارة والتحكم فى القاذفة الاشبه بالقلعة الطائرة ..

ان « طائرات تى يو » لا تتقيد بحالة الجو ولا بالطيران فى الظلام أو الضوء فى أى لحظة وفى أى ظرف تستطيع بكل الكفاءة أن ترسل قنابلها للعدو ، وان تطير عبر مسافات ضخمة جدا فى الشرق الاوسط ، مطبقة لاحدث أساليب المعارك الجوية ، ومن هنا كانت السعادة بنجاح مهام قاذفاتنا فى اليوم الاول للمعركة ثم بقية أيام الحرب غامرة، أعادت الدفء الى القلوب المجهدة ، والبسمة الى الوجوه القلقة طوال سنوات « الصبر والصمت » ذلك لانه كلما صعب تحقيق النصر ازدادت فرحة الانسان به .

ان الهجوم المنخفض الذى قامت به القاذفات المصرية من أصعب واخطر أشكال الهجوم من الجو ، خاصة اذا كانت الطائرات النفاثة هى التى تقوم به ، ففى عصر الطائرات التى تفوق سرعتها سرعة الصوت ووسائل الرادارالحديثة، واجهزة الالكترونالمتطورة لكشفوتضليل

طيران الخصم ، وأدوات الرؤية الكاملة فى الطبقات العليا ، ومدافع العدو المنتشرة ذات السرعات الخارقة والمضادة للطائرات ، والصواريخ الموجهة من الارض للجو ، والمقاتلات الاعتراضية المالكة لاخطر الامكانيات العلمية وما أكثرها لدى العدو .

فى هذا العصر ، وفى ذلك الموقف الذى واجهته قواتنا الجوية بأدق الحسابات اليقظة ، يصبح ثمن النصر من اغلى الاثمان ، ولقد قدمه طيارونا العمالقة بتفوقهم على العدو فنيا وتدريبيا ومعنوية وروحيا ، فاستخدموا أجرا الاساليب فى توجيه الضربات الاستراتيجية والتكتيكية ضد قواته ، وأجبروه على تنفيذ الخطـة المصرية بفرض ارادة قواتنا عليه ، ودفعوه الى فقد الوقت الثمين هباء ، الوقت الذى كان يتعين عليه أن يهب لانقاذ مطاراته ومواقـــع تجمعات مدرعاته ومراكز دفاعاته الجوية الصـــاروخية ، وكانت قياداتنا الجوية بما أظهرته من ابداع ومبــــادرة وسيطرة مستمرة على سماء سيناء ــ وغرب القنـــاة ، ومرافقنا الحيوية فى أنحاء الوطن طوال القتال تؤكد المامها التام بتكتيكات العـــــدو بكل دقة وتفصيل ، ودراستها لاساليبه وامكانياته الهجومية والدفاعية ، وخصـــــائص طيرانه ، وجوانب قوته وضعفه ، والفجوات والثغرات فى قطاعات دفاعاته .. فأنزلت به الضربات المفـــــاجئة الكاسحة ، وكانت معدلات التدمير فى قواته تزداد ســـاعة بعد أخرى ، ويوما بعد يوم دون اتاحة أدنى فرصة واحدة أمامه تهيئى له القيام بمناورة جيدة ضد طائراتنا ، ولذلك كان طيارونا الابطال يطورون قصفهم ونجـاحهم فى سرعة فائقة وتنسيق دقيق ، وقد تجلت روح الثقة التامة فى جميع معاركهم ..

٣ ساعات قصف

قال لى الطيار القاذف رضا ، واحد من المجامع الشابة قادة « الطائرات تى يو » :

ـ « احدى العمليات التى قمنا بها استمر قصفنا للعدو من ١٢ ليلا حتى ٢ صباحا ، وكانت معركة من أبرز معارك القاذفات المصرية المؤثرة فى سير الهجوم فوق الارض ، وما كان فى امكاننا تنفيذ ذلك الشكل من الاستخدام الراقى لولا أعظم صور التعاون بين أطقم الخدمة الارضية فى المطارات وأطقم الطيارين والملاحين فى السماء .

ان المهندسين والفنيين اختصروا « ثلثى الوقت » الطبيعى لاعداد القلاع الطائرة لكى تقلع وتؤدى مهامها ، وكان عملا باهرا مثيرا للاعجاب لا للدهشة ، فلدى قواتنا الجوية جيل ممتاز من خريجى مدارس ومراكز التدريب المهنى التى أنشأتها قواتنا ، وقد تفوقوا فى تخصصاتهم المختلفة وأثبتوا هذه القدرة عمليا خلال حرب أكتوبر المجيدة .

وقال لى الملاح القاذف عفيفى :

ـ « أن تجهيزات الطائرات تى ـ يو ، عديدة ومعقدة ومن هنا يرتفع مستوى أطقم انجازات هذه التجهيزات ..

كل قاذفة لها حمولة من القنابل ، وكل حمولة تعد حسب الفرض المعد له ، وما من واجب قام به الرجال فوق الارض الا وحققوه فى أوقات قياسية خيالية ... حتى الاعطاب الفنية التى أصيبت بها بعض قاذفاتنا أصلحوها فى زمن نموذجى لم يكن يتوقعه أحد بفضل تعاونهم وتضحياتهم ، ونوعية تدريبهم فترات طويلة قبل الحرب » .

كانت شجاعتهم فى ذروتهـا وما زالت ، وانطبع فى

عيوننا وقلوبنا تعاونهم من أجل سلامتنا وأداء واجبنا أمثل الاداء ، ومضات عظمة الانسان المصرى وعطائه من أجل الوطن ، ظلت مضيئة للطريق أمامنا ، فحققنـــا واجباتنـــا ، ولم يكن الخطـر أمرا مدرجا فى وعيننا أو حساباتنا » . .

لقد حقق عدد ليس بقليل من طيارى القاذفات « تى يو » وملاحيها ومدفعييها فى مؤخرة الطائرة ، بطـولات بشرية ستظل صفحات فخار وشرف للمقاتل المصرى أمام الاجيال القادمة ، وسيتوقف المرء عندها خشوعا وصلابة للبطولة وأغلى التضحية ، لقد واجهوا الخطـــر والموت واجتازوه فى أكثر المهام بفضل مهارتهم وثقتهم فى هــذه المهارة ، وكانت هجماتهم تفيض بالعاطفة حبا فى الوطن ، عاطفة فياضة مكتومة ، انطلقت يوم ٦ أكتوبر وما بعـده من أيام كما ينطلق الماء المحتجز وراء السدود فطاروا فوق سيناء يقاتلون بكل الجراة وبكل ما منحهم الله من طاقة ، فتحت أمامنا آفاقا جديدة ، وأشاعت النضارة والامل فى وجوه شعبنا .

القاذفات والمقاتلات

قال لى الطيار مقاتل حسن ، أحد قادة أسراب الميج ٢١ الاعتراضية :

ـ « ان طلعات القاذفات لابد أن تضم معهـــا طائرات مقاتلة اعتراضية كالميج ٢١ لحمايتها فى الذهاب والعودة .. أمر أساسى ومفروض لدى جميع القوات الجوية فى انحاء العالم، غير ان طيارى قاذفاتنا قاموا ببعض واجباتهم بدون الميج، طلعات فدائية انتحارية حققوها بجســارة مذهلة .

وكان الطيارون والملاحون يتنافسون على طلعات القاذفة

« ثى يو » بدون الميج الاعتراضية ٢١ ، أعمال لا تصدر الا من مقاتل آمن بوطنه فأعطاه كل حياته ، وأضاف الجديد الى سجل نضال عسكريتنا وبطولات انسانها المصرى .

تحية لاصحاب المآثر الخالدة عبر الزمن، تحية للطيارين سرى ومحسن وآدم وناجى ، للملاحين نجم وحسن وراضى وعليوة ، لكثير التقيت بهم وضاعت منى أسماؤهم وأنا أستمع لبطولاتهم يرويها آخرون عنهم من رفاق السلاح ورحلة الخطر واحراز النصر .

لقد كسروا الروح القتالية للعدو الاسرائيلى ، ازالوا كبرياءه وغروره ، وخيلاءه رداسوا بأقدامهم وهم فى السماء فوق معنوياته وعسكريته التى تغنى بها طويلا ، ولم يكن ذلك سهلا بسيطا على الاطلاق .. كان بأغلى الثمن ، وبأغلى التضحية .

اجمل المذاق

ان المزايا القتالية التى امتلكها طيارو المقاتلات الاعتراضية والمقاتلات القاذفة وغرامهم بمهامهم وثراء تدريبهم ، واستيعابهم لكل ما قدمه طيارو الاستطلاع العمالقة من معلومات عن العدو وقواته فى عمق سيناء — ومهاراتهم فى المناورة وخفة الحركة الجوية هى التى جعلت هجمات قواتنا الجوية فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، ملحمة تاريخية عظمى توقف امامها بالدهشة كلها قادة طيران وجيوش العالم ..

احد أسراب الميج ٢١ الاعتراضية ، والحديث هنا لقائد طيار ... كان يعمل من أول ضوء حتى ما بعد آخر ضوء ، وبعد كل طلعة يهبط فى أقرب مطار له ليتزود بالذخيرة والوقود ، ويقوم بالطلعة الاخرى مختصرا دقائق قليلة من الوقت يلحق فيها بمعركة كبيرة مؤثرة ..

الطيار « اسكندر » أسقط بذلك الاقتـــــدار خمس طائرات للعدو فانتوم وسكاى هوك وميراج ..

الطيار « امام » أسقط ٧ طائرات مثلها ..

الطيار « صبحي » دمر ٣ فانتوم فى أقل من دقيقتين وكانت رابضة فوق الارض ..

الطيار « بشير » دمر طائرتين فانتوم فى لحظة خروجهما من دشمتها الثنائية .

الطيار « عاطف دمر بطارية صواريخ أرض جو للعدو ومخازن للنابالم والسولار ورتلا من دباباته : وفتح الطريق أمام الموجة القادمة من طائرات رفاقه .

طيار آخر « عاطف » أحدث الطيارين وأصغرهم سنا دمر ميراج للعدو ، وكاد طيار اسرائيلى آخر يقتاله لولا يقظة قائد السرب حول طياره الحديث ، يرعاه بخبرته أثناء الاشتباك فى الجو ..

الطيار « مجدى » دمر طائرتين سكاى هوك للعــدو فى طلعة واحدة وفى دقيقة واحدة .

الطيار صلاح ، الطيار هانى ، الطيار الحارثى ، الطيار بشارة ، الطيار خيرى ، الطيار منير ، الطيار نصر ، الطيار خطاب ، وقد عشت بين رفاق ســـــلاحهم أسمع عنهم ما يخاطب القلب والعقل والاذن ، وهم يتحرقون بعــد كل طلعة شوقا للقتال ، بقلق وغيرة ولهفة وشوق يعودون الى سيناء .. ان التضحية بالروح كما قال لى أحدهم فريضة مقدسة ، ولقد قاتلوا بأثرى الثقة والثبات المعنوى الارادى وبمهاراتهم تفادوا أى ارتباك أمام أشد الظروف حرجا .. ان طيارين واجها ٨ طائرات للعدو وأسقط الاول طائرتين وأسقط الثانى طائرة ، وفرت خمس طائرات للعدو مذعورة مرتاعة .. فوق عيون موسى ، وعاد الطياران « ماجــد وسامى » الى قاعدتهما سالمين .

قال لى قائد أول سرب اعتراضى قام من قاعدة جوية متقدمة الى سيناء يوم ٦ أكتوبر المجيد :

ـ شعرنا بارتباك العدو حين كنا نهاجم طائراته فى الجو واذا بصواريخه ومدفعيته المضادة للطائرات تنطلق فى الوقت نفسه ـ أكبر دليل على تخبط قياداته حتى ترسل طائراتها الاعتراضية وتفتح صواريخها ومدفعيتها فى الوقت نفسه وطيرانها فى الجو .

« ١٢ » طائرة عدوة جاءت لقصف مطارنا واذا بهـــا تلقى قنابلها على بعد ٥ كيلو مترات من القاعدة نتيجة خوف وهلع طياريها ..

وحين كانت طائراته تصاب اصابة مباشرة ، وفى وسع طياريها القفز والنجاة ، كان الطيار لا يلجأ الى هـــذه الفرصة الوحيدة أمامه للبقاء حيا ، بينما نرى طيـارا اسرائيليا آخر يقفز من الطائرة وفى امكانه الافـلات بهـــا ـ وعندما تحققنا من الامر بدراسة طائراته المدمرة ، وجدنا الطيارات التى سقطت بطياريهـا ممن لم يلجـــأوا الى القفز ، وخرطوشة المقعد القافز منزوعة منها حتى لايهرب الطيار من الطائرة ... وعرفنا أنهم الطيارون المأجورون من المرتزقة ، بينما خرطوشة المقعد مثبتة فى طيارة الطيار الاسرائيلى حرصا على حياته ..

تحية اكبار وتقدير الى كل بطل فى قواعدنا الجـــوية طيارا أو فنيا ، وتأهبهم النفسى لاخطـــر الاحتمالات القادمة لا يفرغ أبدا ، تحية لجهدهم الخلاق ، للابتكار ، للمعطيات الجديدة فى فن أعـداد الطائرة وفن القتـــال فى الجو ، تحية الى الذين عاشوا الموت وتجاوزوه بدأب ومثابرة واصرار على تحقيق الهدف الرفيع الذين وقف

الله برعايته معهم ليلا ونهارا يزودهم بالفطنة والمهـــارة والابداع .. تحية الى كل من اشـــترك فى نشر كابوس هائل الحجم سيظل طويلا مخيما فوق العدو ، وكانوا فى جميع طلعاتهم يسعون بالعقـــل الواعى والروح الطموحة والقوة الذاتية الى مزيد من الخطر .. لان النصر الذى يتحقق بعده ، له أجمل المذاق ، وأطول البقاء ، انه أشرف النصر .

الأم التى رفع القائد الأعلى أمامها يده بالتحية العسكرية

لقد تجاوزت قواتنا الجوية مرحلة البطولة الى تحقيق المعجزات فى حرب رمضان الماجدة وكانت قبضتها الفولاذية الطولى الى عمق العدو ، منذ لحظة ضربة السيطرة يوم ٦ أكتوبر الخالد على مدى التاريخ ، من قبضة الله ..

ان طيارينا فوق القاذفات الثقيلة ، أو الميج ٢١ و ١٧ ، أو فوق طائرات الهليكوبتر الهابطة خلف خطوط العدو ، أبدعوا وتألقوا بطائراتهم المقـــاتلة الاعتراضية ، وكانت معطياتهم واضافاتهم ومهاراتهم ، نابعة من سعى طموح وعقل واع وتدريب راق ، ومعارف جوية حديثة يمتلكونها وتزودهم بعنصر السيادة والمبادرة وخفة الحــــــركة الجوية .. وقبل هذا كله ، كان الله ينشر حمايته فوقهم وهم فى السماء ، وفوقهم وهم فى طائراتهم بأرض الممرات وداخل الدشم والمطارات .

ان امتلاك الالكترونات واستيعابها تكنولوجيا وقتـــاليا مهما بلغت من مستوى متقدم مؤثر ليست قادرة على احراز النصر ، الا بالانسان وحده فى الدرجة الاولى ، الانسان المقاتل بايمانه ، وقواه الذهنية ، وبواعثه الروحية والعقلية ، وثروته العسكرية التى حققهـــــــا فى برامج التدريب ، انه سيد المعدات المتطورة ، والقادرة عـــلى استخدامها أمثل وأكفأ استخدام فى جسد العدو .

لقد قامت بعض طائراتنا بأكثر من « ٣٥٠٠ » طلعة جوية ،

ما بين قتال اعتراضي وقصف جوى ، وفى خلال هـذه الطلعات كانت المفاجآت التى أهداها طيارونا للعالم ، عندما أسقط البطل طيار « شريف » الحاصل على وسام نجمة سيناء طائرة فانتوم بطائرته الميج ١٧ ، لاول مرة فى تاريخ الطيران الحديث ، بعده أسقط البطل طيـار « لطفى » بطائرته الهليكوبتر فانتوم أخرى ، ثم جاء البطلان الطياران « ضياء ووفائى » وأسقطا ست طائرات فى طلعة واحدة ، كل واحد منهما أسقط ٣ طائرات عدوة فى أقل من ١٤٠ ثانية ، وحصلا كلاهمـا على أعلى الاوسمة « نجمـة سيناء » .

وخلال الايام المحفورة فى تاريخ شعبنا البطل ، أسقط الطيار « اسكندر » خمس طائرات ، وجاء الطيار « البطل الشهيد على » وأسقط ٧ طائرات للعدو ، وقام البطـل « العوضى » بأربعين طلعة أو أسقط ٤ طائرات ، ثم هناك البطل « حسن محمد حسن » أحد الذين كرمهم القائد الاعلى بمجلس الشعب ، ممثلا لسلاحه الجوى ، وقـد قام ب ٣٢ طلعة ناجحة دون أن تتمكن طائرات اسرائيل من اصابة طائرته على الاطلاق .

لقد أسقط « نقولا » الطيار الحديث الذى لم يمض على تخرجه الا أيام قليلة وقامت الحرب ، أسقط بطائرته الميج ١٧ ـ ميراج ٤ ،واشتبك الطيار الصغير « وليم » ، وكان بجانب قائده الطيار « سعد » مع طابور مدرعات للعدو خلف ممرات سيناء فى طريقه لمواجهة قواتنا البرية المقتحمة المتقدمة بخط العـرض كله ، ودمراه تماما ، وخسر العدو كما قال الاسرى لدى قائد احدى فرق المشاة المصرية ، أكثر من مائتى ضابط وجندى اسرائيلى فى هذه الطلعة الجوية البارزة .

ان بسالة الطيار المصرى ، وكفاءته الجسورة واقتداره الهجومى ، وقتاله المدعوم بالايمان والشرعية ، وسيطرته البارزة فوق أرض المعركة فى سيناء أو غرب القنـاة ، وتجاوزه العدد الهائل من بطاريات مدفعية وصواريخ العدو المضادة للطائرات ، وتدميره لها ، ليمارس قنصه الحـر ضد القوات الاسرائيلية الميكانيكية والمدرعة ومراكز قيادتها ومخازن ذخيرتها ومناطق تشوينها ، وبطاريات مدفعيتها الميدانية الثقيلة ، ومطاراتها وطائراتها وهى تغـــادر دشمها الثنائية والثلاثية والرباعية فوق الارض .. لم يكن أملا قائما على الحظ ، أو مفاجأة لقواتنا ، أو ضعفا وتهاونا لدى العـــدو ، وهو يملك التفوق العددى فى الطيارين والطائرات الالكترونية الامريكية المستحدثة والصـواريخ المضادة للطائرات والقنابل التليفزيونية التى أشار اليها القائد الاعلى ، فى أحد أحاديثه للشعب .

كانت عودة طيـارينا للسماء ، وامتلاكهم للسيـادة والسيطرة الجوية ـ ايمانا بالواجب المدعوم بالشرعية ثم تدريبا عمليا داخل وخارج الوطن ، وتخطيطا للامكانيات التى نملكها وكيف نستخدمها فى مواجهة امكانيات العدو ، وحسابات تحمل طابع الرؤيا العـلمية الواعية لتصاعد المعركة ، ومهام محسوبة محكومة بخطة عمليات وضعهـا أقدر قادة قواتنا الجوية ممن صقلتهم التجربة ومعـاناة السنوات الطويلة الماضية خبرة ونضجا وتفانيا فى سـبيل التفوق على العدو .. ولقد امتلكناه فى النهاية ، وذراع الله تحوطنا بالرعاية ، وتزودنا بالحماية ، وتلهمنا الايقـاع الصارم المطرد المتين ، ايقاع طيارينا العمالقة الذين قاتلوا

حرب ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ مالكين لاعظم المهارات ، طاردين كل السلبيات ، مترجمين ثروات التدريب الى أقصى أنظمة التشغيل والطيران ، محققين عنصر المباغتة للعدو ،مجددين لاساليب الهجوم والمناورة ، راكبين طائراته ، مطلقين صواريخهم ، رافعين راياتهم .. رايات البطولة والاقتدار والاصالة مستبسلين فى قتالهم ، متألقين فى ادارة نيرانهم واسقاط طائرات العدو وكسر روحه العسكرية وازالة كبرياؤه وغروره وخيلاءه ، مسترخصين أرواحهم .. جادوا بها فدية وجزية للنصر ..

أننى أعرض اليوم قصة بعض هؤلاء العمالقة الذين صعدوا الى رحاب الله ـ من أبطال قواتنا الجوية ، وهم يمثلون بتوعياتهم ونسيجهم البشرى ، تلك القاعدة العريضة من مقاتلى السلاح البطل ، أحياء وشهداء .

ان الابطال لا يولدون أبطالا ، ولكنهم يصنعون فى بيئة الايمان والشرف والصلابة ، والمناخ الوطنى النقى ، فالبطولة تنمو مع عمر الانسان ، حتى تأتى اللحظة الخالدة التى يتوهج فيها البطل ، ويعطى اعظم وانبل العطاء ، يعطى الحياة ، لكى تبقى لنا الحياة .

زكريا وعاطف وطاهر

تميزت حرب ١٩٧٣ الماجدة بصورة فريدة لالتحام الضابط والجندى خلال مراحل القتال ، وتأكد هذا الالتحام فى تقدم الضابط لجنوده منذ اللحظةالاولىللهجوم وطوال العمليات ، على مختلف اسلحة قواتنا بأكملها وقبل الساعة صفر يوم ٦ أكتوبر الخالدة كان القادة يتقدمون الجنود فوق الضفة الغربية للقناة عبورا الى الضفة الشرقية تحت طلقات مدفعية العدو وأقواس نيران رشاشاته وقنابل طائراته التى ظهرت فوق بعض المناطق

بعرض الهجوم أثناء العبور ، وعلى مستوى التشكيل المقاتل الكبير من فرقة مشـــاة أو مدرعة أو ميكانيكية ، ومهندسين وصاعقة ، ومظلات ، حتى التشكيل الصغير فى حجم فصيلة تقدم القائد جنوده ، ولذلك كان لنا فى هــذه الحرب التحررية العظمى عدد ليس بقليل من قادة الوحدات الشهداء ، وقد قادوا أشرف الهجوم التكتيكى الناجح الكاسح ، البارز فوق صفحات العســـكرية المصرية ، ويوميات الحرب المسجلة رسميا ، وكان لتقدم جنــودهم أثناء الهجوم أعظم الاثر الايجابي لدى المقـــاتلين الذين تحولوا الى موجات بشرية هادرة تصب نيرانا كالجحيم فوق مواقع العــدو وجنوده ، لا يوقف زحفهـــا شيء على الاطلاق .

وكما حدث لدى القوات البرية فوق الارض ، حــدث الشيء نفسه بين القوات الجوية فى السماء .

ان بطلنا الاول هو العقيد طيار الشهيد زكريا كمال ـــ قائد تشكيل البطــل الشهيد عاطف السادات ، وقد استشهد القائد والطيار معا ، بعد عمليات قصف مكثفة بالصواريخ جو ـــ أرض أصـابا فيهـا العـدو بالشلل التام ..

كان « البطل الشـهيد زكريا » يقول دائما :

ـــ « ان المقاتل المصرى هو أكرم المقاتلين فى المعركة ، انه يجود بحياته ولا يبخل بها أبدا من أجل وطنه ، لقد رأيته كذلك خلال الاعوام التى قضيتها مقاتلا ارتدى هذا الزى » .

ولقد أنجبت زوجته « السيدة هدى برعى » مولودها الثانى بعـــد استشهاد زوجهـــا وجاء ذكر فأسمته كريما » .

والبطل زكريا كمال محمد أحمد عثمان من مواليد عام

١٩٣٥ حصل على فرقة قادة الاسراب والرفوف الجوية فى معهد دراسات الحرب الجوية عام ١٩٧٠ ، قبل ذلك حصل على شهادة طيار « سوخوى » من الدرجة الاولى بمواصفات ممتاز « طيران ليلا ونهارا » كما حصل على ست شهادات فنية أخرى فى قيادة الميج وسوخوى ، وشهادة من قائده فى نهاية عام ١٩٧١ ، بأداء المهــــام والواجبات الموكلة اليه على أكفأ وجه .

كان « الطيار زكريا » نموذجا رائعا لعشاق الطيران ، والعسكرية المصرية ، قارئا متابعا ممتازا لكلّ ما يصدر من كتب ومعـــارف جوية ، مقاتلا وقاصفا فوق الميج وسوخوى ،محققا أقصى الاهداف ، مقتدرا بكفاءته وتدريبه ومعنوياته العالية ، قائدا بخبرته وثقافته القتــــالية الجوية ، وتجاربه السابقة فى الجولات الماضية مع العــدو الاسرائيلى .

وقد ظل الشهيد متقدما صفوفه فى الطيران وفى الرياضة بطلا بارزا فى السباحة والغوص وسباق المراكب الشراعية وصيد الغزال فى الصحراء ، والاسماك فى عمق المــاء ، والتصوير الملون ، واقتناء الكتب العلمية والدينية ، فهو ابن لأب عمل طوالَ حياته مشرفا على جمعية مكارم الاخلاق فى حى شبرا بالقاهرة .

وتزوج « زكريا » عام ٦٢ وأنجب « ايمان » بعد زواجه بعامين ثم « كريما » بعد استشهاده بأسابيع .

وفى ضربة السيطرة الجوية البارعة التى قامت بهــــا مائتا طائرة ضد العدو الاسرائيلى كان « البطل » زكريا وبجانبه البطــــــل عاطف السادات ومعهما البطل طاهر « يهاجمون مطار المليز ، ومحطـــات الردار به ، ومراكز التشويش الالكترونى التى تحميه .

وحقق الابطال مهمتهم ، ثم قصف الطيار البطل عاطف

مخازن النابالم والسولار بالقرب من مطار العدو ، واشتبك مع رتل مدرعات اسرائيلية ، وجاءت طائرات الميراج فى تشكيل مكون من ١٢ طائرة ووقع اشتباك جوى تابعته قيادتنا لاسلكيا والكترونيا ، وأسقط أبطالنا خمس طائرات عدوة ، وأصيبت طائراتنا ، ورفض الابطال الثلاثة « زكريا وعاطف وطاهر » القفز من الطائرات والوقوع أسرى فى أيدى العدو ، حاولوا العودة بها وهى مصابة ، وشاءت ارادة الله أن يستشهدوا وهم يقودونها ، مرددين نشيدهم الخالد الله أكبر تحيا مصر ، الله أكبر منصورة يا مصر .

وتقدمت قواتنا المشـــاة مطورة اقتحامها ماضية فى اكتساحها للقوات الاسرائيلية ، وقد امتلكت حرية الحركة والسيطرة التى حققها الابطال العمـــالقة زكريا ورفاق سلاحه من الطيارين المقتدرين ، المسترخصين ارواحهم فدية لعبور قواتنا الى سيناء .. فقلب العدو .

عمر عبد العزيز

بطلنا الآخر المقدم الطيـــار الشهيد عمر عبد العزيز اسماعيل ، ولد لاب من مهندسى الزراعة عام ١٩٤٧ .

قال لى والد الشهيد ، ورنة الفخر تملأ صوته :

ــ « كانت مصر كل حياته وغرامه وعقله ، ولذلك لم أندهش حين علمت بنبأ استشهاده بل قلت لحظتها ، انه قدم روحه فداء للهجوم ، انه يومه بل يومهم جميعـــا ذلك النهار العظيم من ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، ولن يكن ليقبل أقل من الشهادة » .

واشتركت الام والاخوة فى الحديث :

ــ « أسرتنا كلهـــا من مهندسى الرى أو الزراعة أو الميكانيكا ، هو وحده ومنذ طفولته رأيناه عاشقا للطيران ، وحين كانت تحلق طائرة فوق بيتنا يهرع الى رؤيتهـــا

ويتأملها فى حب ورغبة ، وكثير من أقاربنا تنبأوا له بمهنته التى اعطاها فى النهاية حياته » .

فى مرحلة الدراسة الاعدادية ظهر تفوقه فى عالم الكهرباء حين اخترع جهازا للارسال اللاسلكى ، وأهدته مدرسة دمنهور الاعدادية وثيقة شرف لنبوغه فى هذا العلم .

وفى المرحلة الثانوية حافظ على تفوقه الدراسى ، ثم انضم الى جمعية كشافة جوية للطلبة ، وقاد مجموعة من زملائه أعضاء جماعات الفتوة للتدريب عمليا على الطائرات الشراعية بمطار امبابة ، وكان اهتمامه بالطيران قد امتلك كل حواسه .

والتحق « عمر » بالكلية الجوية ، وكان مجموعه بالثانوية العامة يؤهله للالتحاق بالطب أو الهندسة مثل شقيقاته وأفراد أسرة أبيه أو أمه ، ولكنه آثر غرامه ، وتخرج طيارا بارزا عام ١٩٦٦ ، وأسقط فى طلعات انتحارية خلال حرب ١٩٦٧ من ٦ حتى ٩ يونيو ١٩٦٧ ــ سبع طائرات للعدو ، كما دمر المدرعات الاسرائيلية حول العريش ، وأسقط طائرتين يوم ١٤ يوليو ١٩٦٧ ، وفى حرب الاستنزاف اشتهر بالقنص الحر ، ضد الميراج وسكاى هوك وفانتوم العدو ، ولم تنل منه الطائرات الاسرائيلية على الاطلاق .

ان عمليات القنص الحر فى السماء « دخول منطقة الهدف بدون حماية الطائرات » تعتبر من أقسى وأشق واصعب مهام القتال الجوى ولقد دفع الطيار عمر حياته بعد أن اتم مهمته وفى عملية خالدة بالاصالة والعراقة لها . من أجل تلك الهجمات التى اشتهر بها البطل .

قالت لى السيدة أم المقدم الطيار العملاق عمر :

ــ « كان يصلى به وبأخوته « اماما » كلما جاء لزيارتنا ،

ان مجموع اجازاته التى قضاها بيننا منذ عام ١٩٦٧ حتى ١٩٧٣ ، لم تزد على ساعتين كل شهر ، وقته كله للتدريب ولزملائه الطيارين وقد حصل على رتبة رائد فى منتصف ١٩٧٣ ، وكان يصوم ثلاثة أشهر فى العام ، واستشهد بعد أن أدى صلاة الفجر ، صائما كعادته ، بل كان ينزل ، كما روى لى زملاؤه ، من الطلعة ليؤدى ركعتين صلاة شكر لله عز وجل ، ثم يقود طائرته ويعود الى السماء مرة أخرى .

ح وطار المقاتل « عمر » وهو قائد سرب ست طلعات يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، وقام فى اليوم الثانى بخمس طلعات، وقال لرفاق السلاح من الطيارين والمهندسين والملاحين ، قبل أن يقوم بآخر طلعة له :

ـ « لقد أصبحت حسودا ، اننى أحسد الان من نال شرف الاستشهاد قبلى » .

اسماعيل امام

البطل هذه المرة ، واحد ممن حققوا شهرة واسعة لدى قواتنا الجوية باقتداره القتالى ، بسيطرته الفولاذية على معارك الجو ، بانفعاله الارادى الثابت حين يلتقى بطائرات العدو ، بالسيادة الجوية التى ظل يمتلكها وهو فى السماء ، مسقطا لثمان طائرات اسرائيلية ، طائرتين عام ١٩٧٠ ، وست طائرات فى حرب ١٩٧٣ ، حتى أستشهد بعد ١١ يوما من القتال المتواصل .

انه البطل الشهيد رائد طيار مقاتل اسماعيل حسين امام ، من مواليد فاقوس سبتمبر ١٩٤٦ ، ولد لأب يملك مصنعا للبلاط وكان من ثوار ١٩٣٥ .

هبط اسماعيل من احدى الطلعات ليكتشف ان سيارته أصيبت بصاروخ واحترقت ، وكان قد تركها بالقرب من

المطار وابتسم البطل مرددا الحمد لله .. لانني لم اكن بداخلها !

وقال له أحد مهندسي القاعدة الجوية ـ « لا تهتم ، سأصنع لك سيارة جديدة ، من حطام الطائرات الاسرائيلية التي أسقطتها .

وعلق آخر :

ـ « أن الحطام الذى تتحدث منه يكفى لصنع خمس سيارات ، وليست واحدة فقط ! » .

قال لى الآب والفخار ببطولة ولده يحتويه :

ـ « لى شقيقة أكرمها الله بخمسة أبناء يقاتلون جميعا فى صفوف قواتنا المسلحة ، مشاة واستطلاع ودفاع جوى، وقاذفات تى يو وميج ٢١ ، وكان ولدى « اسماعيل متعلقا بهم فعشق الطيران والعسكرية المصرية من خلال صداقته لهم وارتباطه الوثيق بحياتهم .

وبعد حصوله على الثانوية العامة التحق بالمعهد التجارى العالى فى القاهرة ، فظل به ٤ شهور ، وفجأة عاد وقال لى :

ـ « لا تحرمنى يا أبى أملى ورجائى ، أريد الالتحاق بالكلية الجوية » .

وتخرج اسماعيل بعد حرب ١٩٦٧ ، طيار مقاتلا للميج ١٧ ثم الميج ٢١ ، وتبعه شقيقه ابراهيم وتطوع مقاتلا بالقوات البرية عام ١٩٧٠ ، حين لم يستدعوه لاداء الخدمة الوطنية .

وفى عام ٦٩ ، اسقط اسماعيل طائرة للعدو ، وحاصرته ٣ طائرات اسرائيلية واصابت طائرته اصابة كبيرة فى مؤخرتها ، ولكنه عاد بها الى قاعدته ، اقتدارا واستطاعة .

وطار ذات مرة وقدمه مصابة ، ولم يفقد سيطرته أو كفاءته .

وتزوج البطل عام ١٩٧١ ، وانجب « داليا ومحمد »
وفى حرب اكتوبر الماجدة طار الى المعركة وظهره ملفوفا برباط البلاستر ورفض أن يخبر طبيب القاعدة أو قائدة بألمه واستطاع منذ ضربة السيطرة الجوية يوم ٦ أكتوبر حتى ظهر ١٧ أكتوبر الخالد اسقاط ست طائرات فانتوم وميراج للعدو ، وجاد بحياته وهو يقهر هجوما جويا معاديا فوق بور سعيد .

صبحى الشيخ وبشير

بين النوعيات القتالية الراقية التى أعطت أبلغ صور الاصالة الرائدة المتجسدة فى نسيج المقاتل المصرى ، يبرز أمامنا عدد من المقاتلين على مستوى مختلف الاسلحة جوا وبرا وبحرا .
وفى قطاع قواتنا الجوية ، يتقدم « الطيار المقاتل البطل الشهيد طلال » الذى جاد بحياته عام ٦٩ ، يتقدم سلسلة طويلة من البطولات الخفاقة .
لقد أسقط طائرة للعدو فى عمق سنيناء ثم واجه تشكيلا معاديا من ٤ طائرات أصابت طائرته ، واكتشف انه من المتعذر أن يعود بها ، فأبلغ موقفه باللاسلكى ، ثم اقتحم بالطائرة موقع صواريخ هوك اسرائيلى ليدمر البطـــارية المعادية ، ويفجر طائرته داخلها ، رافضا أن يقفز بالمظلة ليسقط أسيرا بين أيدى العدو .
وفى حرب ١٩٧٣ ، فعل الطيـــاران البطلان الشهيدان صبحى الشيخ ، وحسين بشير ، نفس الشىء ، تجاوزوا قوانين البطولة وارتفعا الى القمة حين فرغ كل منهما من مهمته وقد أسقط « صبحى » طائرتين ميراج ثم أصيبت طائرته فاقتحم دشمة رباعية لطائرات العدو ، فى اللحظة التى تخرج منها ثلاث طائرات لتصعد الى الجـو ، ويفجر

« صبحى » طائرته فى الطائرات الثلاث وهى تغادر دشمتها فوق الارض وتشتعل النيران فيها وفى القاعدة باكملها .

وجاء « بشير » واقتحم هو الاخر دشـــمة ثنائية لطائرات ميراج اسرائيل يدمرها ويدفع حياته ثمنا لتحقيق الهدف فى أعلى مستويات تحقيقه .

ان صبحى الشيخ نموذجا للمواطن المصرى الكادح ولد عام ١٩٥٠ بالاسكندرية لاب سائق فقير تركه قبل ميلاده واختفى تماما وظلت الام وهى « نوبية المولد ، السيدة فردوس فرحات » حانية راعية لولدها ، مارست جميع أنواع العمل البسيط الفقير الشريف لكى تحمى وحيدها من مصير مظلم ، ورفضت أن تتزوج مرة أخرى ، حتى تخرج صبحى طيارا متفوقا .

لقد تقدم الى الكلية البحرية والجوية ، وقبلته الكليتان ولكنه آثر الطيران ، وتخرج فى الكليه الجوية عام ١٩٦٩ ، وحصل على رتبة نقيب فى منتصف عام ١٩٧٣ ، لكفاءته فى ادارة القتال الاعتراضى بالميج ٢١ ضد الميراج الاسرائيلى، واسقاطه ثلاث طائرات للعدو منـــذ نهاية عام ٦٩ ، حتى اغسطس ١٩٧٠ ، وظل نشاطه فى طلعات الاستطلاع بعد ذلك فوق مواقع العدو ومطـــاراته ناميا متطورا معززا بالخبرة والقيـــادة الواعية والتدريب على تطبيق فنون معارك الجو الالكترونية الحديثة ليلا ونهارا .

وتردد اسم الطيار المقـــاتل صبحى الشيخ فى جميع قواعدنا الجوية خلال الايام الاخرى لمعارك ١٩٧٣ ، وكان البطل جديرا بكل ما قيل عنـــه ، وقد توج سيرته بأعظم النهايات ، تاركا فى جسد العدو خسائر واصابات لاتمحوها الايام ، مستشهدا كأبطال الاساطير الاولين ، هاتفا وهو يفجر طائرته فى طائرات العدو ، كما فعل بعده رفيق سلاحه بشير .. « الله أكبر الله أكبر .. منصورة يا مصر » .

كانت مصر آخر كلماتهما ، وظلت مصر آخر صورة فى عيونهما ، وفى خيالهما وقلبهما ، ومن أجلها بلغا ذروة المجد فى القتال والهجوم ، ومن أجلها أيضا جادا بأغلى الجود ، جادا بالحياة لتبقى لمصر الحياة .

وجاء أحد المقاتلين ليقدم « للسيدة فردوس » أم البطل العاملة البسيطة ، كلمات العـــزاء ، ونزلت دمعة من عينيه . وهو يتحدث عن صبحى ، وقالت الأم :

ــ « لا تحزن أيها الضابط من أجل ولدى ، لقــد حقق « الله » أمانيه كلها منذ امتاد الصلاة والتحدث اليه قبل أن ينام لقد عاش وحيدا بلا أب يستمع الى أحلامه ، وكان الله بجانبه دائما ، فراح ينجح ويتفوق فى كل مراحل دراسته ، ويشفى من امراضه قبل أن أجمع نقـــود العلاج ، وفى معارك ١٩٧٠ ، قال لى صبحى أن الله رفض أن يكرمه بالشهادة ، ولما قلت له ، وهل تتركنى وحدى ، قال مندهشا :

ــ « أن الله لن يتركك ، بل انه أعظم تكريم لقصــــة كفــاحك معى ، يهـديه الله لك ، اذا قبلنى بين عــداد الشهداء » .

ولقد أكرمت الدولة أم البطل ، ووقف القائد الاعلى للقوات المسلحة يرفع أمامها يده بالتحية العسكرية حين نودى اسم ولدها فى مجلس الشعب ، صبحى على قطب الشيخ واحد من رواد القدرات الخـــارقة ، حماة مصر وعشاقها وذراعها المرفوعة بالحماية ، وقد وضع الله فى قبضتها من قبضته .

الخبير الأول فى الصواريخ

لقـاء وحوار معه فى سبتمبر ١٩٧٤

قال عنه القائد الاعلى للقوات المسـلحة الرئيس انور السادات « لدى القائد المصرى للصواريخ الذى أستطيع أن أعتبره بلا مبالغة الخبير الاول فى ألعالم . لانه مارس عمليا حرب الصواريخ .

« ولدى أيضا أداة لحرب الصواريخ ، التى لم تدخلها بعد أى من القوتين الأعظم » .

هذه قصة « القـــائد » الذى تحدث عنه الرئيس السادات ، وقصة أداة الصواريخ المصرية ، أو السلاح الحديث العملاق ، سلاح دفاعنا الجوى .. وقائده الفريق محمـد على فهمى ، الذى تولى بعـد ذلك رئاسة أركان قواتنا المسلحة ..

لم يعـد سرا ، ان الرئيس السادات أخـذ على عاتقه مهمة تدعيم سلاح الدفاع الجوى ، منذ اصبح سـلاحا رابعا مستقلا فى قواتنـا المسلحة ، بينما القـائد الاعلى وقتها كان نائبا لرئيس الجمهورية ، وقد انشغل تماما ببناء قواعد الصواريخ الشهيرة خلال أربعين يوما ، أنفقنا عليها أربعين مليونا من الجنيهات .

ملحمة من ملاحم الشعب المصرى البطل ، اشترك فيها المدنيون بجانب العسكريين ، وجاد بالروح من أجلهـا

مقاتلون وعمال وفلاحين .. وعملت الصواريخ بأقصى كفاءتها .

وفي أسبوع واحد تساقطت طائرات العدو كالذباب بعد أن دخلت كتائب الصواريخ المضادة للطائرات مسرح جبهة القناة غرب ، تطبيقا لخطة موضوعة ، كان للسادات دور فيها ، ونفذت تحت اشرافه ، بينما الزعيم الراحل جمال عبد الناصر يقوم بزيارة سريعة الى موسكو .

ومرت الايام ، ويبدأ ايقاع الدفاع الجوى المصرى يتصاعد الى السماء ، حتى بلغ الذروة في حرب رمضان الماجدة .

وشرعت أكتب هـــذه السطور ، وكان لابد أن اربط بالضرورة بين مفاجأة هذا السلاح في أكتوبر ١٩٧٣ ، تلك المفاجأة التى حققت ارقاما خيالية في خسائر طائرات العدو وطياريه ، فوق كبارى العبور ، وفي عمق سيناء ، كان لابد من الربط بين ايجابية المفاجأة التى قدمهـــا السلاح بحجم نيرانه المؤثرة ، وبين الاهتمام غير العـادى الذى أولاه الرئيس السادات للســـــلاح نفسه منذ عام ١٩٦٩ ، ومنذ قاد معركة ٢٥ ديسمبر ١٩٦٩ بين دفاعاتنا الجوية وطائرات العـــدو ، بينما كان الزعيم الراحل جمال عبد الناصر بالرباط أيضا هذه المرة ، وقد جاء العدو بـ ٢٦٤ طائرة مع انه جاء يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ بـ ٢٢٠ طائرة فقط ، وكانت خطة القيادة الاسرائيلية هى تحطيم كتائب الصواريخ المصرية التى أعطاها السادات وقادتنا كل كيانهم وطاقاتهم .. فى ذلك اليوم أصدر السادات قرارا جريئـا على مختلف المستويات العسكرية فقد أمر بنقل بطاريات الصواريخ وتغيير أماكنها قبل صباح اليوم التالى ، وكان عملا جريئا مقتدرا قام به رجالنا العمالقة من المقـــاتلين والمهندسين والفنيين ، وحين جاءت الطائرات الاسرائيلية مع أول ضوء ، لم تجد البطاريات فى مواقعها وعنـــد

استدارتها للعودة الي الشرق ، اصابتها الصواريخ المصرية من مواقعهـا الجديدة ، وقال « السادات » كلمته الشهيرة بعد ذلك :

ــ « ولم يحدث أن انكسر أولادنا أبدا .. »

ان ملحمة الدفاع الجوى هي واحدة من أعظم واشرف ملاحم نضالنا الوطنى المعاصر ظلت مسموعة بكل دقائقها وبطولاتها وعظيم تضحياتها الاقرب الى الاساطير لشعوب العالم أجمع ، لتكشف عن صلابة المقاتل المصرى واصالته، عن شموخه وايمانه فوق أرض ملتهبة بالنيران ، ورجال الدفاع الجوى بكل الثبـــــات والارادة الفولاذية فوق مدافعهم يسقطون طائرات العدو بينما قنابلها الالفى رطل تنهال كالامطار فوقهم، ويستشهد الرجال وأيديهم متصلبة قابضة على المدافع واجسادهم متفحمة فوقها .. صورة لا تستطيع الكلمة حتى الاجيال القادمة ان تبلغ من المعانى ما يمكن أن يرتفع الى قمة البطــولة والثبات والتضحية التى بلغهـا رجال بطاريات المدافع والصواريخ المضــادة للطائرات .. لا تستطيع الكلمة رغم ثراء اللغة العـــربية أن ترقى الي عمل هؤلاء العمالقة وهم يستقبلون بأجسادهم كتلا ضخمة من نيران القنابل والصواريخ جو ــ أرض ــ وطلقات الفيـــكرز ، ويبقى الابطال فى مواقعهم فاتحين لنيرانهم ، حاصدين للطـــائرات ، مستشهدين بجانب أسلحتهم ، صانعين اشرف الايام المضيئة بقبس من نور ارواحهم ، خالدين بقتالهم .. خلود الشمس والقمر واللغة وميلاد الانسان ..

انني اكتب هذه السطور من خلال معـــايشة كاملة لبطاريات المدافع المضادة للطائرات طوال عامى ٦٩ ــ ٧٠ وخلال حرب ١٩٧٣ ، بقيت التحم بمقاتلى الدفاع الجوى فور وصولى جبهة القتال ولا اقوى على مغادرتهم منذ أن

شهدت بعيني رأسي جنديا فوق مدفعه ، وقد فصلت شظية من قنابل العدو نصفه الاسفل عن نصفة الاعلى ، وما أعظمك يا ربي مانح القوة والرحمة ، يبقى العملاق حيا صارخا بأعلى صوته وقد غطى على صوت تشكيل الطائرات الاسرائيلية .. منصورة يا مصر .. ثم يحمله رفاق السلاح أقصد يحملون ما تبقى من جسده ، ليسلم الروح بعد أن علم انه أسقط طائرتين ..

لحظات وأيام من الصعب أن يطلق عليها الانسان أى مسميات ، صنعها نسيج بشرى حى خلاق هادر مقتدر بالاصالة والخصوبة يعطى كالارض أعظم البطولات ، ويزود رجالنا بقوة خفية ترتفع فوق الزمان والمكان وقدرات البشر .

القائد المصرى

وقامت حرب ١٩٧٣ ، وقال القائد الاعلى للقوات المسلحة الرئيس أنور السادات فى نهاية ابريل ١٩٧٤ ، وصفه الرائع المشرف لدفاعنا الجوى وقائده ، خلال الحديث الذى أدلى به الى « صحيفة الحوادث » اللبنانية :

ـ « هذا تاريخ يجب أن يكتب ، لدى اليوم أداة لحرب الصواريخ التى لم تدخلها بعد أى من القوتين الاعظم ، عندى اليوم قائد مصرى للصواريخ اعتبره بلا مبالغة الخبير الاول فى العالم ، لانه مارس حرب الصواريخ بالفعل ، واصبح لديه خبرة قتال فيها ، الآخرون عندهم صواريخ ولكن لم يستعملوها ، وليس لديهم خبرة عملية ، لقد اكتسبنا نحن الخبرة فى هذا السلاح خلال حرب الاستنزاف عندما كانت طائرات اسرائيل تضرب بعنف محاولاتنا لاقامة جدار الصواريخ الشهير ، يومها انهينا أسطورة السيادة

الجوية المطلقة لاسرائيل فى الايام الثلاثة الاولى للقتال ، وخسرت اسرائيل أفضل طياريها وطائراتها على يد مقاتلى سلاح الصواريخ من أبنائى ،وامتلكوا الخبرة القتالية التى لا تقدر بثمن » .

لقد كان حديث القائد الاعلى للقوات المسلحة مدخلا لحديثى مع الفريق محمد على فهمى قائد سلاح الدفاع الجوى ، وأبرز قادة الدفاع الجوى فى جيوش العالم أجمع، وواحد من عمالقة العرب الذين أعطوا شبابهم وأحلى سنى العمر للمدفع المضاد للطائرات ، منذ نهاية عام ١٩٣٩ ، وحتى اليوم يعيش أسعد لحظاته حين يتواجد بجانب بطاريات م ــ ط ، أو وحدة صواريخ أرض ــ جو .

وقال القائد معلقا :

ــ ان حديث السيد الرئيس بهذه الصورة عن السلاح والرجال أرفع عندى من نجمة الشرف والنجمة العسكرية التى أتشرف بحملها .. لقد أدمعت عيناى وأنا أقرأ هذه الكلمات .. انه القائد الأب .

قبل الحرب بفترة قصيرة طلب منى القائد الاعلى ان أستعد لأصحبه فى زيارة لبعض الدول الشقيقة ، وتصورت انه مطلوب منى أن أدرس شيئا ما ، أو ان لى واجبا فى هذه الزيارة يتعلق بالسلاح ، وشعر الرئيس السادات بما يدور فى رأسى ففاجأنى بقوله :

ــ « اننى أعرف انك فرغت من مهام الاعداد للمعركة بأرقى المستويات ، ليس مطلوبا منك شىء آخر ، لقد أردت ان أمنحك أجازة اجبارية تعوضك عن مشاق الايام الماضية،حتى تدخل الحرب وأنت فى كامل لياقتك البدنية والمعنوية » .

ــ مرة أخرى ، انه القائد الأب الفياض بأذكى الرؤى وأذكي الحنان » .

والفريق محمد على فهمى من مواليد ١١ أكتوبر عام ٢٠ ومن أبناء مديرية الجيزة ، كان والده وكيلا لادارة مباحث السكك الحديدية ، وتوفى الأب ، والابن فى نهاية المرحلة الابتدائية . فرعاه شقيقه الاكبر الموظف مثل أبيه بالسكة الحديد أيضا وانتقلت الاسرة وهى مكونة من الأم وولداها وابنة واحدة ـ مستشارة اقتصاد منزلى بوزارة التربية والتعليم حاليا ـ الى حى العباسية .

وحصل التلميذ « محمد على فهمى » على شـــهادة اتمـــام الدراسة الابتدائية فى مدرسة الحسينية بميدان الجيش حاليا ، والتحق بفؤاد الأول الثانوية ، حيث التقى بالرئيس السادات والســـفير حافظ اسماعيل والمهندس سيد مرعى والاطباء أنور المفتى وعلى المفتى ، طلبة فى عام البكالوريا ، حين كان هو بالسنة الدراسية الاولى ..

وتفوق الطالب « محمد على فهمى » وانضم الى كلية الهندسة تحقيقا لرغبة شقيقه الاكبر ، وحصل على ربع مجانية لتفوقه الدراسى،ونجح فى اعدادى الهندسة،ولكنه ما لبث أن عاد وقـــدم أوراقه الى المدرسة الحربية ، ويتخرج فى عام ١٩٣٩ ، دفعة الفريق محمد عبد الغنى الجمسى ، رئيس الأركان .

سلم الخدمة

قلت له :

ـ لماذا .. لماذا لم تستمر بالهندسة ؟ ..

ـ انه الميل الشديد الذى عرف عن جيلنـــا نحو العسكرية ، كانت نزعتى للعســـكرية المصرية أقوى من رغبتى ونجاحى فى اعدادى هندسة ، وأيدتنى أمى رحمها الله ، ومنذ تخرجت وأنا ضابط مدفعية مضادة للطائرات

ولقد تدرج الفريق محمد على فهمى فى سلم الخدمة

العسكرية من قائد صف ، وهو ما يساوى قائد فصيلة الآن ، الى مســـاعد لاركان حرب آلاى ، فأركان حرب آلاى ، بعدها عمل معيدا بمعهد الدراسات للضباط العظام ، والتحق بكلية أركان حرب مع رفيق الدفعـــة الفريق عبد الغنى الجمسى عام ١٩٥٠ ودرس لهما المشير احمـد اسماعيل فترة من الوقت ، وكان برتبة بكباشى ، عاد بعدها ليتولى أركان حرب لواء مدفعية مضادة للطائرات ، مسئولا عن حماية سماء القاهرة ، وبعد قيام الثورة عين مدرسا بمعهد الدراسات للضباط العظام ، حيث قام بتدريس مادة المدفعية والدفاع الجوى ، لينتقل بعد المعهد الى هيئة عمليات قواتنا المسلحة .

وفى حرب ١٩٥٦ ، تولى أركان حرب العمليات لمنطقــة القناة ، وكان مفروضا أن يتقدم الفريق أول على على عامر بقواته الى سيناء وتبقى منطقة القناة تحت قيادة الفريق فريد ســلامة ، ثم تبدلت الخطط وأسندت الى الفريق فريد سلامة مسئولية الدفاع عن سلامة العاصمة .

وفى عام ١٩٥٧ ــ عاد الى سلاحه الاول وتولى قيــادة فوج مدفعية ميم ــ ط ، ثم قائدا للواء مدفعية ، فرئيسا لاركان فرقة ، حين أختير ليلتحق ببعثة عســـــكرية الى الاتحاد السوفييتى عام ٦٣ــ٦٤ ، أول بعثة مصرية تضم قادة الدفاع الجوى ، وقد درست عاما ونصف عام فى اكاديمية كالينين العســـــكرية بين لينينجراد وموسكو ، وكانت دراستها تمثل مختلف مستويات أسـلحة الدفاع الجوى وجميع عناصره ، من صواريخ ورادار ومدفعية الكترونية ومقاتلات .

وقبل ذلك ، عام ١٩٦١ ، كان الفريق محمد على فهمى رئيسا للجنة تنظيم وتدريب الوحدات المخصصة للعمل على الصواريخ ، وعملت اللجنة فى سرية شديدة ، ظهرت بعدها

فجاة تجمعات الصواريخ م ـ ط حول أهدافنا الحيوية .

وبعد عودته من روسيا عهد اليه بقيـــادة أكبر فرقة عسكرية للدفاع الجوى ، تقوم بحماية سماء القاهرة .

وقد أصدر الفريق محمد على فهمى ، عدة مؤلفات ، فكتب كتابا من جزئين من حملة فلسطين ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ثم أصدر كتابا ثانيا بعنوان أحلاف وأحلاف ، وكتابا ثالثا « ألمانيا تهدد السلام » ثم أصدر جزئين لكتابه « ألمانيا بين الشرق والغرب » فكتاب القومية الافريقية ، بخلاف الكتب العسكرية الخاصة بتنظيم وادارة عمليات الدفاع الجوى عن الدولة . وهى كتب تصدر على مستوى القوات المسلحة فقط .

معركة ١٩٦٧

قال لى القائد ، وهو يتحدث عن معركة ١٩٦٧ :

ـ لقد خرجنا من هذه المعركة بدروس كبيرة ، كانت المنطلق لنا فى سنوات الصبر والصمت ، ثم فى تحقيق النجاح الذى أحرزناه عبر معركة أكتوبر ١٩٧٣ ، وتأثيرها العالمى .

وهناك قول عسكرى يحضرنى الآن .. « أن الحرب .. تعلم الحرب » .

أن نتائج يونيو ١٩٦٧ ، دفعتنا الى ايجاد العمل القائم على التخطيط ، التخطيط الذى يحقق لقواتنا نجـــاحا أكيدا ، نجاحا ليس مشكوكا فيه ولو واحد فى المائة ، نجاحا ليس عفويا ، نجاحا قائما على الاداء والايمـــان والتدريب الجيد ، وقد ظهرت بوادره فى معارك الدفاع ضد طائرات العدو خلال النصف الاخير من عام ٦٩٠ وعام ١٩٧٠ ، حين بدأنا فى حرمان العــــدو من حرية الحركة والسيطرة الجوية التى امتلكها بعد ١٩٦٧ ، فوق سماء

سيناء أو غرب القناة ..

هامش :

« كان اللواء محمد على فهمى فى مرحلة حرب الاستنزاف رئيسا لاركان الدفاع الجوى ، وفى عام ١٩٦٩ ، أنشىء السلاح كسلاح مستقل بين أسلحة قواتنا المسلحة وأصبح الرجل أول قائد له » .

قلت :

ــ بعد أن تساقطت طائرات اسرائيل بالعشرات مع بداية النصف الثانى من عام ١٩٧٠ ، كتب صحفيون من الغرب يقولون ان سلاح الدفاع الجوى المصرى نشر احساسا رهيبا بالرعب لدى طيارى اسرائيل ، وان هــذا السلاح المصرى لم يهزم قط من قبل وانه يتمتع بكفاءة عالية .. منذ الاربعينات .

ولم يتركنى القائد لاسترسالى حين قال :

ــ عدد كبير جدا من كبار ضباط الدفاع الجوى عاش تجربة الحرب العالمية الثانية ، وهى تجربة غنية بالنسبة لنا ، كان الالمان يركزون هجومهم بالطيران على الصحراء الغربية والاسكندرية ، واشترك ضبــاطنا المصريون فى اسقاط الطائرات الالمانيــة يوما بعدآخر ، بل أذكر ان وحدتى كانت تتلقى يوميا خطاب شكر وثناء من القيادة البريطانية على العمل واليقظة والكفاءة التى نبذلهــــا ضباطا وجنودا فى افشال جميع هجمات الطيران الالمانى والايطالى أيضا ، وكانت المدافع التى نستخدمها بدائية « ٣ بوصة ثم ٣ر٧ بوصة » .

لقد كان لنا فى هذه الحرب شهداء ومصابين بعــاهات مستديمة ، وذلك لان المدفعية المضادة للطائرات هى السلاح المصرى الوحيد الذى اشترك اشتراكا فعالا وايجابيا فى فى الحرب العالمية الثانية ، وخرجنا بأحسن الخبرات .

ـ قبل عام ١٩٤٠ ،أين تدربتم ؟

ـ فى مدرسة المدفعية المصرية المضادة للطائرات حيث حصلت مع زملائى على فرقة عسكرية كاملة ، وكانت هذه الدراسة سبيلنا الى السيطرة والجهد والتضحية التى قدمناها ونحن نسقط طائرات المحور ، وقرب نهاية الحرب عام ١٩٤٥ ، حصلت على فرقة عسـكرية دراسية لدى الجيش البريطانى فى حيفا ، فرقة قادة بطاريات مدفعية م ـ ط .

المثل والدليل

وفى حرب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، أستطيع أن أقول بكل الطمأنينة ، ان المدفعية المضادة للطائرات أدت دورها بأقصى الامكانيات المتاحة لها ، وكان اداؤها شرفا للعسكرية المصرية ، وفى حرب الاستنزاف ، أعطت المثل والدليل على اقتدارها وصمودها وكفاءة مقاتليها .

لقد قرأت مقالا لاحد الصحفيين الانجليز يتحدث فيه عن الدور البارز وفاعلية المدفعية المضادة للطائرات المصرية أثناء عدوان ١٩٥٦ ، فاذا به يقول ان قادة هذا السلاح من الضباط المصريين يتمتعون بخلفية متفوقة من أمكانيات التدريب لانهم عملوا فى بداية حياتهم مع ضباطنا الانجليز بالصحراء الغربية أيام الحرب العالمية الثانية ، وحصلوا منهم على الخبرة الراقية ؟ ..

لقد عجزوا عن انكار سيطرة السلاح المصرى ، فاذا بهم ينسبون اقتداره للخبرات التى حصلنا عليها من ضباط عام ١٩٤٠ !! ..

صحفى آخر كان قد أشاد بالدفاع الجوى المصرى من قبل ، كتب عام ١٩٧٣ قبل حرب رمضان بأسابيع ..ربما فى مجلة نيوزويك ، على ما أذكر ..

كتب يقول :

ـ « ان قوات الدفاع الجوى المصرى دون المستوى المطلوب لشن حرب ضد اسرائيل ، وحالة السلاح بعد خروج الخبراء السوفييت اصبحت ضعيفة وسيئة للغاية ولذلك فمن المستبعد أن تقوم مصر بأى هجوم ، حتى لا تكتسح اسرائيل طول وعرض البلاد المصرية .. »

مثل هذه المقالات وهى جزء من الحرب النفسية المخططة ضدنا ، صدقها العدو نفسه وقبع مطمئنا على ضوء تقديراته فى عام ١٩٦٧ ، وهى تقديرات مبنية على افتراضات خاطئة ، ذلك لانه افترض أن الجيش المصرى حارب وانهزم .. وهذا لم يحدث ، وأصبح واضحا ان الموقف فى صالحنا فدعمنا كل الظواهر التى تشير الى عدم قدراتنا على الدخول فى حرب هجومية ونمت بذلك أفكارهم التى تقول بانتصارهم الاكيد ، مما ساعدنا على تحقيق المفاجأة للعدو وللعالم أجمع ..

كان من عوامل النصر اكتشاف ودراسة أساليب وسلوك وحيل العدو فى سلاحه الجوى ، وبذلنا الجهد المتصل لاستنباط الوسائل المضادة سواء بتطوير السلاح أو تطوير استخدامه ، وللحقيقة تعتبر مرحلة الاستنزاف فترة تدريب عملى واقعى تحت ظروف الحرب الحقيقية بمعاركها اليومية مع الطائرات الاسرائيلية ، أرقى التدريب فعالية، فتطعمنا للمعركة الكبرى ، وامتلكنا خبرة التخطيط، واثبت التخطيط فى عمليات صغيرة قمنا بها نجاحا باهرا برز فيه عنصر الذكاء المصرى ، ومن هذه العمليات اسقاط معمل الاستطلاع الطائر « الطائرة ستراكوزا » عام ١٩٧١ وهى طائرة أمريكية من احدث طائرات الاستطلاع ، ومن الصعب اصابتها لما تقوم به من أعمال تداخل الكترونية ، ولم يكن اسقاط هذا المعمل محض مصادفة

بل نتيجة اعداد وخطة وكمين للعدو ، وقد أطلقنا عليها عملية ٢٧ رجب ، وأسقطناها فعلا فى هذا اليوم ، ومنحنى القائد الأعلى فى سبتمبر عام ١٩٧١ ، وسام النجمة العسكرية .

هامش :

مجلة « أفيشن ويك » العالمية نشرت فى عددها الصادر يوم ١٦ نوفمبر عام ١٩٧٠ ، احصائية ومقالا عن خسائر اسرائيل فى حرب الاستنزاف ، وعن المرحلة ما بين يناير ومايو ١٩٧٠ فقط ، قالت ان الطيران الاسرائيلى خسر « ٦٦ » طائرة فانتوم وسكاى فى تلك الفترة ، فضلا عن الطائرات المصابة التى لم تسقط أو تنفجر فى الجو .

قلت لقائد الدفاع الجوى :

هل توارى دور المدفع المضاد للطائرات أمام الصاروخ مفاجأة حرب أكتوبر ؟ ..

لا .. لقد قام رجال المدفعية بمختلف أعيرتها بدور كبير أسقطوا خلاله طائرات العدو فوق الكبارى ، وفى عمق سيناء ، الصواريخ أصبحت أكثر تقدما وأكثر دقة فى اسقاط الطائرات ، وستظل المدفعية نوعا من أنواع التكامل فى أسلحة الدفاع الجوى ، وان كانت قد احتلت المرتبة الثانية فيها .

غير أننى أحب أن أشير الى مسألة هامة ، وهى انه ليس المدفع أوالصاروخ بل الرجل الواقف خلف المدفع ، ان المقاتل المصرى هو مفاجأة حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، بمستوى تدريبه واقتداره وايمانه .

صحيح انضم الى الدفاع الجوى منذ نشأة الصواريخ العنصر المتعلم تعليما عاليا وثانويا ، لمواجهة المعدات الالكترونية وتفهم استخدامها ، فى النهاية لابد من تسييد هذا العنصر على المعدات الالكترونية بمستوى ايجابى

رفيع : لابد من تسيد المقاتل على المعدة ، الصاروخ أو المدفع ، حتى نحقق المفاجأة والمبادأة دائما .. ومن هنا .. وبهذا الشكل المحدد من التخطيط المصرى البحت : سيطرنا على شرق القناة ومنعنا استطلاع العدو جـوا . ووفرنا لقواتنا البرية المنـــاخ اللازم لتعد تحضيرات الهجوم ، بعيدا عن ملاحقة طائرات الاستطلاع الاسرائيلية .

ولقد أعلن الامريكان فى « الصنداى تايمز » ولو ان عائلة سام .. يقصدون وحدات الصواريخ سام أرض ـ جو » أمكنها أن تحرم طيران اسرائيل من العمل ، الا أن أمريكا اطلقت القمر الصناعى « ساموس » يوم ٢٨-٩-١٩٧٣ وأمكن أن يكتشف تحضيرات الهجوم المصرى ، غير ان الامر انتهى الى ما صوره دكتور هنرى كيسنجر بقوله « كان من الصعب أن نكتشف النوايا ، رغم ما قدمته المعاونة الامريكية والقمر الصناعى »

سام ٦ و ٧

عدت أقول :

تحدث العالم عن الصاروخ الجـــديد المضاد للطائرات « سام ٦ و٧ » الصاروخ الصغير الذى حمله المقاتل المصرى فوق كتفه وسيطر به تماما على سماء سيناء وغرب القناة .. هل نستطيع أن نتحدث عنه بعيدا عن اعتبارات أمن السلاح ؟ ..

أجاب القـائد :

.. ـ كما قلت لك سواء كان الصاروخ الفردى أو الصاروخ الذى تقوم مجموعة من الافراد بتشغيله هو الذى اشترك فى حرب رمضان فانه لم يكن ليحقق هـذه النتائج بدون المقاتل سيد الصاروخ ، بثبات أعصابه ، بتدريبه ، بارادته

الحديدية ، بمستواه القتالى ، بشرعية معـــركته . ان الصاروخ الفردى يحتاج الى اكفأ الرجال لانه يتعامل به فى ثوان لا دقائق .

كذلك الأمر بالنسبة للصواريخ الاخرى ، لابد ان يكون الاداء فى مسرح المعركة قائما على سيمفونية أو هارمونية واحدة ، أى مقاتل يشذ أو يقـــاتل بمستوى أقل من الآخرين ، تظهر النتيجة فورا فى السماء .

لقد استخدمنا فى حرب رمضان جميع أنواع الصواريخ الخفيفة والثقيلة والمتحركة وبعيدة المدى ، وكان دفاعنا الجوى متكاملا وغطى جميع الارتفاعات ، ولم تكن هناك أدنى ثغرة .

فى مرحلة اقتحام القناة واحتلال رءوس الكبارى أمكن لوحدات الدفاع الجوى تحييد الطيران الاسرائيلى تحييدا تاما ، ووفرت بذلك الوقاية التامة للقوات البرية ، وحماية المعابر فتمكنت قواتنا من القيام بعمليات كاسحة على طول المواجهة ، وفقد الطيران الاسرائيلى خيرة طياريه خلال الايام الاولى للقتال .

لقد عبر مقاتل الدفاع الجوى قنـــاة السويس ظهر ٦ أكتوبر ليوفر الحماية بأقصى مدى فى شرق سيناء ، ثم دفعنا عناصر من السلاح عبر المراحل المتقدمة لرءوس الكبارى ، فى عمل الارض التى حررتها قواتنا .

وطوال الايام الاولى للقتال حاول العـــــدو تدمير مطاراتنا الامامية ، واسقطت دفاعاتنا الجوية طائراته، وقال احد الاسرى من طياريه :

ــ ان قيادتنا قررت عـدم الهجوم على مطـــاراتكم لـكثافة دفاعات الصواريخ م ــ ط عليها ، ولفشلنا فى غلق مطـار مصرى واحد .. كنا نبلغ بتدمير المطـــارات المصرية ونتصور اننا أغلقناها تماما ، واذا بها تعود للعمل

بعد مسافة زمنيــة واحدة أو ساعتين على الأكثر ، وتعود الطائرات المصرية للاقلاع منها !

وقال الاسير أيضا : « ان خسائرنا التى لم نعوضها هى فى الطيارين ، وليست فى الطائرات ! !

لقد حاربنا وهاجمت طائراتنا القوات الاسرائيلية ، ومطاراتنا دافعنا عنها بأقسى الحماية بواسطة شــبكات الصواريخ ، واكتشفنا ان العدو يجهل الـكثير عنالدفاع الجوى المصرى ..

استخدم العــدو جميع أنواع التــداخل الالـكترونى المختلفة ضدنا ، ورغم محاولاته ومعداته المتقـــدمة الا ان طائراته كانت تتساقط متفجرة ، فأخــذت القيــادة الاسرائيلية تتشكك فى فاعلية أجهزة التـــــداخل التى تملـكها ، وأعلنت امريكا بعدذلك انها ستجرى تعديلات وتحسينات على وســائل الاعاقة والتداخل التى انتجتها حديثا ، وقال وزير دفاع امريكا انه قــدم تقريرا الى وزراء دفاع حلف الاطلنطى ، وتقريرا ثانيا الى اللجنــة التخصصية فى البيت الابيض ، لتطوير الاســـــلحة الالـكترونية على ضوء تجارب ٦ اكتوبر ..

قلب النظريات

عاد الفريق محمد على فهمي يقول :

ـ يمكنك ان تكتب ان مقاتل الدفاع الجوى المصرى قلب النظريات العسكرية التى نادت بها امريكا رأسا على عقب ومن بينها النظرية التى تعطى الاسبقية الاولى فى الدفاع الجوى للمقاتلات دون الوسائل الارضيـــة من الصواريخ أرض ـ جو وان اسرائيل بنت قواتها معتمدة على الطيران والدبابات ، فاعددنا السلاح المضــاد الذى حطم استراتيجية اسرائيل ، وعادت امريكا لتعترف بأن

النيران الارضية يمكنها تحييد الطيران أو النيران الجوية كما فعلت القوات المسلحة المصرية ، وهى النظرية التى فرضها مقاتل الدفاع الجوى بقتاله وتضحياته ..

ان قوات دفاعنـا الجوى أجرت فى حرب رمضـان أول اختبار عملى على السلاح الحديث ، لم يقم أحد من قبل باستخدامه ، حتى فيتنام لم تكن لديها هـذه الـكمية من السلاح أو هذه النوعية المتطورة منه ، فضلا من اختلاف المسرح العسكرى فى سيناء عنه فى فيتنام.

كانت تقديراتنا وتقديرات العدو مقامة وفق نظريات، وليس لها سابق تجربة .

غير ان الحـروب الحديثة تأتى بنتائج حقيقية لتأثير السلاح .. فمعظم الاسلحة التى أنتجتها كبرى الدول يقومون بتجربتها فى ميادين الرماية العادية ، وقد تصوروا ظروف معركة ، وعلى أساسها يجرون التعديلات ..

ان الحروب الحقيقية تأتى بنتائج غير متوقعة . ليس من السهل التنبؤ بها أثناء التجـارب الميدانية ، فالسلاح فى يد مقاتل يختلف فعالية فى يد مقاتل آخر .. كذلك من مسرح قتال لآخر .

وهذا ما اكده واعطاه فى معظم اشكاله ، مقاتل الدفاع الجوى المصرى .. العملاق .

الدفاع الجوى والمفاجأة

سيظل قتال قوات دفاعنا الجوى من بطاريات الصواريخ أرض ـ جو ، والمدفعية المضادة للطائرات الى جانب طيارى قواتنا الجوية ، مقاتلى الطائرات الاعتراضية والقاذفة ، فى حرب اكتوبر المجيدة ، ملحمة بطولية تتغنى بها الاجيال .

لقد تفوق العمالقة بايمانهم ، بتدريبهم ، بقدراتهم العلمية والالكترونية ، على طيارى اسرائيل واحدث معدات التسليح فى الطائرات الامريكية ..

وتساقطت طائرات اسرائيل منذ ظهر اليوم الاول للحرب ، وسقطت الاسطورة .. اسقطها العملاقان مقاتل الدفاع الجوى ، والطيار المقاتل فى أبرز معارك العصر ..

الدفاع الجوى بالقاتلات ..

وكتبت الصحافة العالمية تعليقاتها عن فاعلية الدفاع الجوى المصرى « الغابة الكثيفة من الصلب » و« حائط الصواريخ الرهيب » . وقالت جولدا مائير فى الكنيست الاسرائيلى « ان الصواريخ المصرية كعش غراب مشئوم كلما ضربنا احداها نبتت أخرى » .

هذه التعليقات جاءت بعد أن حقق الدفاع الجوى المصرى مفاجأة مذهلة فى حرب أكتوبر أذهلت العدو وأفقدته توازنه واصابته بخسائر فادحة فى سلاحه

الجوى المتطور الذى وضعت فيه اسرائيل كل أملهـا وقد أطلق عليه موسى ديان « ذراع اسرائيل الطويلة » ..
لقد بتر دفاعنا الجوى هـذه الذراع .. ولم يكن ذلك بالطبع نتيجة للمصادفات بل جاء محصلة محسوبة لجهد الرجال وفكر العلماء المصريين .. ان وراء ذلك كله قصة رائعة توجت تاريخ العسكرية المصرية .

أول : هذه القصص تكمن فى بطولة الشعب كله لان الدفاع الجوى سلاح متطور علميـا وتكنولوجيا ولم تحصل عليه الا باصرار الشعب على امتلاك هـذه الاجهزة التى تمثل شبكة الـكترونية متكاملة وهذا يعنى ان بلادنا من الدول المتطورة فنيا واقتصاديا ، وهـذا الانجاز الضخم هو وفاء من القوات المسلحة للشـعب الذى وفر لها مثل هذه المعدات الحديثة .

وثانيا : فان الصواريخ سلاح الـكترونى معقد يواجه سلاحا جويا متطورا يملـكه العدو ويزيد من تعقيـد المواجهة تلك التعديلات المستمرة والتطوير الدائم الذى يدخله العدو على أسلحته الجوية وهى عملية سبـاق فى العلم والتكنولوجيا .. ولذلك دخلت فى هذا السباق كل مراكز البحث العلمى فى بلادنا التى وقفت الى جانب الدفاع الجوى برجالها وعلمائها وبحوثها .. ومما أعطى لهذه البحوث قيمة تطبيقية ذلك المقـاتل الواعى الذى استوعب تـكنولوجيـا العصر ..

ثالثا : ان الصواريخ المصرية كانت فى دشم حصينة من تصميم وابتكار العقل المصرى وبلغت قدرتها التحصينية حدا أذهل خبراء حلف الاطلنطى وحلف وارسو وسارع الخبراء فى الحلفين الى استخدام مقاييسها وتصميماتها فى اعادة بناء دشم قواتها سواء كانت للطائرات أو للصواريخ ، وبهذه المناسبة فان كل مصرى يحنى راسه تقديرا واجلالا

لعمال البناء المصريين الذين بذلوا الجهد والعرق والدم لمساعدة المهندسين ورجال الاشغال العسكرية فى بنـاء هذه الترسانات الضخمة .

رابعا : اكتسب الدفاع الجوي خبرة قتالية بدأت بدرس الصمود الرادع الشجاع فى الجزيرة الخضراء عام ١٩٦٩ وهذه التجربة الناجحة اثبتت قدرة المقاتل المصرى على الصمود فى ظل أسوأ وأعنف الظروف لحماية قطعة أرض جرداء فى الجـزيرة الخضراء تحت كميات ضخمة من النيران .. والتجربة السابقة هى التى ألهمت الرجال أعظم الصمود فى ظل اقسى الساعات خلال حرب رمضان المجيدة ..

حينما رئى اقامة شبكة الصواريخ استخدم أسلوب النطاقات أو المراحل وبدأت المرحلة الاولى سنة ١٩٦٩ للدفاع عن القاهرة وبعدها نطاق الجبهة ثم أقيم النطاق الثالث للحد الامامى لقوات العدو .

تمت هذه الجهود تحت قصف يومى مركز من العدو لدرجة انه كان يهجم باعداد هائلة ، وكما قال الرئيس السادات فى مجلس الشعب أنه كان يهجم بالطائرات على الموقع الواحد بأعداد تصل الى ٢٦٩ طائرة وكان يلقى بكميات خيالية من القنابل والصواريخ ولـكثافة القصف لم يكن فى حاجة الى التنشين ، وكل ذلك بدافع الاضطراب والخوف بعد اقامة هـذه القواعد . وكان صمود الخط الثانى من يونية ١٩٦٩ الى ديسمبر من نفس العـام وعندما أمر الرئيس السادات وكان يومئذ نائبـا لرئيس الجمهورية فى ٢٥ ديسمبر بالمواجهة الشرسة لطـائرات العدو . فأسقطنا الفانتوم . بعد ذلك بدأت مرحـلة جديدة الى يونية سنة ١٩٧٠ وهى مرحلة تساقط الفانتوم وأسر طياريها مما صدم العـدو فبدأ قادته منذ يونية الى

توقف اطلاق النار فى تطوير سلاحهم الجوى واستخدام أساليب وأجهزة مستحدثة ومع ذلك أسقطنا له طائرة الاستطلاع الالكترونية « ستراتوكروز » وفشل هجـــوم العدو بصواريخ « شرايك » جو ـ أرض ـ وجن جنون العدو وأصيب بخيبة الامل فتحول من الخيلاء والغرور الى أسلوب جديد وبدأت سلسلة الشكاوى الى مجلس الامن من حائط الصواريخ المصرى الرهيب .. لقد حول دفاعنا الجوى تبجح اسرائيل وعدوانها الى الشكوى ..

وخلال فترة وقف وامتناع النيران بدأ المقـــــاتلون سباقا رهيبا مع الزمن لالتهام المعلومات الفنيـــــــة والتكنولوجيا بثبـــات واصرار .. واكتملت حـــوائط الصواريخ .

وخلال فترة بناء هذه الترسانات الهائلة للصـواريخ كان هناك جهد آخر شاق وعبء دفاعى كبير على كاهـل ابطال المدفعية المضادة للطائرات لحماية سماء مصر .. والدفاع عن انشاءات الصواريخ أثنـاء التشييد وأدى الرجال واجباتهم بأمانة واقتدار خلال مرحلتى الصـعود والاستنزاف والى الآن وكما قال الرئيس الســـادات فى أحد مؤتمرات الاتحاد الاشتراكى : « لقــد أدى رجال المدفعية المضادة للطائرات دورا تاريخيا خالدا فاذا ما انتهت الغارة كان يوجد الجندى وهو يمسك بمدفعه .. اذا احترق المدفع احترق معه » .

كل هــذه الجهود مكنت الدفاع الجوى من القيـــام بواجبـاته القتـالية والدفاعية بصورة اذهلت العـدو والصديق خلال حرب اكتوبر .. وكان من مهامه حماية المعابر ورءوس الكبارى للجيوش وقيـام دفاع جوى متحرك اثنـاء تطوير الهجوم لحماية المدرعات. ومن مهامه أيضا قيام دفاع جوى استراتيجى لحماية القـــوات

المسلحة فى الجبهة وحماية انحاء الوطن .

ونتذكر الان تصريحات قادة اسرائيل وموسى ديان عندما قال ان اسرائيل ستقضي على الهجوم المصرى فى ساعات وكان ديان يتحدث وهو يضع فى اعتباره اسطورة الطيران الاسرائيلى وبالفعل بدأت أسراب الطائرات الاسرائيلية تتابع فى موجات منذ يوم ٦ اكتوبر سنة ١٩٧٣ وتصدت لها شبكة الدفاع الجوى الحديثة بجميع اعيرتها ونظمها وتحطمت طائرات العدو .. وكما قالت الصحافة العالمية « تساقطت كالذباب .. »

ولا ينسى الرجال جرعات الامل الكبيرة وشحنات الحماس والتشجيع من زيارات الرئيس السادات لهم أثناء عمليات الاعداد الشاقة والتدريب القاسى ، وقد يبقى بينهم عدة أيام حتى أثناء الاعياد .. ولا ينسي الرجال احتضان الرئيس لقادة الدفاع الجوى ضمن قادة القوات المسلحة ومنحهم الامكانيات لتنفيذ أفكارهم مما جعل الدفاع الجوى يتألق عاليا فى حرب أكتوبر ..

عبور الصواريخ واحتلالها مواقع شرق القناة يعتبر فى حد ذاته قصة ممتعة وفى نفس الوقت قصة من أروع نماذج البطولة .. وخصوصا عندما نعرف ان الوحدة الواحدة من الصواريخ تتكون من عربات ثقيلة وجرارات يصل بعضها الى وزن دبابة وهى تسير على عجلات وليس على جنازير مما يجعل حركتها على الرمال وخصوصا رمال سيناء الناعمة أمرا صعبا يقارب المستحيل ..

كان من الضرورى ان يسبق يوم ٦ أكتوبر بشهور طويلة تقديم أفكار لعبور وحدات الدفاع الجوى .. وخصوصا الصواريخ وبالفعل وضع الفكر العسكرى المصرى كل تصوراته للمعركة وخلق هذا الفكر المبتكر أسلوبا جديدا وهو لم يكن بالامر الهين اذا وضعنا فى

الاعتبار قوة العدو الجوية الكبيرة المتطورة وطائراته الفانتوم الحديثة وطياريها المدربين على الطيران المنخفض الى ارتفاع يصل حتى ٣٠ مترا فقط .. هذا مع قلة الطرق فى سيناء ورمالها الناعمة .. واستلزمت هذه الظروف تعديلات وتجهيزات كثيرة واستلزمت تدريبا خاصا وقاسيا للقيام بمهامها المنتظرة ليلا ونهارا ..

كان المطلوب عبور وحدات الصواريخ الى الشرق من اتجاهات مختلفة وتوقيتات مختلفة .. وللحقيقة وللتاريخ كان قادة الدفاع الجوى الكبار جميعا على رءوس المعابر .. وكل قائد منهم على معبر يقوم بمهام مثل أى مقاتل فى التحميل والتفريغ والسير ..

وقصة العبور فى حد ذاتها تحمل عشرات المواقف البطولية الرائعة .

ركز العدو قذائف مدفعيته من جميع الاعيرة على المعابر التى كان مقررا أن تعبر عليها وحدات الصواريخ وكان ذلك اكثر تكثيفا فى الموعد المحدد للتحرك وزاد من تركيز قذائفه بجنون هستيرى وردت عليه مدفعيتنا لاسكاته وتحولت المنطقة كلها على شاطىء القناة الى كتلة مشتعلة من اللهب وكأنها الجحيم بعينه وفى وسط الجحيم بدأ عبور الصواريخ الاسطورى .

الى سيناء

حدث اثناء العبور أن أصيب الجزء الخلفي لاحد الصواريخ من مدفعية العدو المسعورة وتدفق السائل الصاروخى وأصبح الموقف فى غاية الخطورة انه يهدد بانفجار رهيب يؤدى الى نسف المعبر باكمله وبتدمير كل الوحدات القائمة بالعبور فى تلك اللحظة .. وببطولة خارقة تقدم أحد المقاتلين الى الصاروخ وفصل رأسه

المدمرة عن جسمه ويعد هذا العمل الفدائى معجزة تفوق شهرة اليابانيين فى الاعمال الانتحارية . ان مقاتلنا البطل يدرك تماما وهو يقوم بعمله ان الصاروخ المشتعل يمكن فى اى لحظة ان يحدث انفجارا رهيبا .. ومع ذلك تقدم بكل ثبات وأدى عمله بنجاح ..

وحدث أثناء عبور الصواريخ على معبر آخر بالناقلات الطويلة ان تبدد السكون المؤقت بدوى دانات مدفعية العدو مستهدفة المعبر ولم يتوقف مقاتل واحد .. بل استمروا جميعا باصرار عجيب فى تحركاتهم المرسومة وكانت عناية الله تحرس الرجال وتؤكد ان الله لا يترك المؤمنين البواسل .. وتناثرت القذائف فى كل اتجاه .. وأصابت كل حجر فى المنطقة الا المعبر والالات الفتاكة.. ورأيت بعينى أبطالنا الشجعان وهم يهتفون بايمان رائع « الله أكبر .. الله أكبر » ورأيتهم يقومون بكل المهام تحت رذاذ الماء المتطاير وسحب الرمال وكل منهم يبتهل الى الله .. جنبا الى جنب كان الدعاء من المقاتلين الاشقاء المسلمين والمسيحيين ، وسلم المعبر .. وعبرت وحدات الصواريخ بأمان ..

وحدث على معبر ثالث أثناء عبور الصواريخ ان وقعت دانة على احدى ناقلات الصواريخ وأصابت عجلاتها .. فاحترقت تماما وبقى الصاروخ سليما من غير أضرار .. ولكن قافلة العبور توقفت وأجريت محاولات لسحب الماكينة المصابة التى تحطمت عجلاتها وفشلت كل المحاولات وكان الموقف خطيرا لاستمرار قصف العدو على المنطقة واحتمالات كارثة تسحق المكان تزداد مع الدقائق والثوانى فانفجار الصاروخ شىء مروع وخصوصا فوق المعبر المزدحم بقوافل فى الطريق الى سيناء مكان ضيق لا يسمح بالمناورة والتقهقر الى الخلف أو اجتياز الناقلة المصابة .

أى ان القوافل كانت تقف فى انتظار رحمة السماء ، وتقدم مقاتل ومعه معدات خاصة به وهى من ابتكاره الشخصى وتحت القصف المروع قام برفع الصاروخ الضخم وأصلح الناقلة وأعاد تحميل الصاروخ .. واستمر تدفق القوافل

البطل وفائى

نعود الى قواتنا الجوية ، وابطالها - ومنهم من حاز نجمة سيناء - الى احدهم ، المقاتل وفائى واحد من ابطال الدفاع الجوى فوق المقاتلات .

طيار بطل ، من ابناء الارادة المصرية جيل سنة ١٩٤٥ وأب لطفل فى عامه الخامس .

فى كل مطار ، كانوا دائما يشيرون اليه ، الى نشاطه المتوهج ، وطاقته المتجددة دائما ، وتفانيه فى أداء عمله، وابتسامته التى لا تفارق وجهه رغم قسوة الايام والظروف التى واجهها فى طفولته ، ومرارة الفترة التى عشناها وطعم العلقم يملأ أفواهنا ، والالم يعتصر قلوبنا ، ويمزق شبابنا ، وكان « وفائى » فى تلك الايام طيارا صغيرا ناشئا خلال حرب سنة ١٩٦٧ ، ولكنه مثل كثير غيره لم يتخبط ، لم يتجمد ، لم يفقد ايمانه وحماسته للرؤيا الصحيحة ، لم يجر وراء سراب الوهم أو خداع الفراغ ، ولم يقدم على خطوة واحدة تطيش فى غير الاتجاه السليم ..

بقى مؤمنا بأن المعركة لم تنته ، وعليه ان يعد نفسه لجولة اخرى ، ليس أمامنا غيرها بديل .

وبدا طريق الميلاد الجديد ، وقبول رجالنا وشبابنا من أبناء القوات المسلحة بكل مشاقه ومخاطره ، ولكم تحملوا وذاقوا من ألوان العذاب والقلق ، حتى جاءت اللحظة الخالدة ، وخلف القيادة الواعية المؤمنة قاموا

بحرب سنة ١٩٧٣ ، وكان قتالهم دليلا حيا على صدق دعواهم ، وجدوى استعدادهم ، فأحالوا العقم الى خصوبة ، والمرارة الى حلو الامل ، وعاش شعبنا فجره الجديد ..

شاغلهم الوحيد ..

اذا كانت عقولنا خلال السنوات الست الماضية قبل اكتوبر سنة ١٩٧٣ ، قد ازدحمت بالام وأحلام الثأر وغسل العار ، فعقول قلوب مقاتلينا فى الجو والبر والبحر ، عاشت الثأر « كل لحظة » من هذه الفترة الطويلة ، كانت حياة كل منا الخاصة تشغله أحيانا عن المعركة والثأر ، ولكن مقاتلينا ، أبناءنا ، اخوتنا ، الذين ارتدوا الزى العسكرى ، أشرف زى ، كان التدريب والتحصيل ، والاستعداد للمعركة ، هو نهارهم وليلهم ، واجبهم وشاغلهم الوحيد .. القتال ولا شىء غيره .

يقول لى البطل طيار وفائى :

ــ قبل أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، كنت أخجل من زوجتى وأكاد أصاب بالشلل أمامها حين تسألنى :

ــ ألم يحن الوقت بعد ، لنلقن اسرائيل درسا ، وهى تعتدى بالطائرات والدبابات هنا وهناك ؟

وكثيرا ما فضلت البقاء فى القاعدة الجوية رافضا قضاء اجازتى القصيرة الممنوحة لى بين أسرتى ، حتى لا تقتلنى تساؤلات أبى واخوتى ونظراتهم لى .. كنت اشعر انهم يتعجلون القتال ، وأفهم جيدا لهفتهم على الثأر والنصر ، وكيف تنسيهم هذه اللهفة اننا لا نستطيع ان ندخل معركة سريعة لنخسر مرة أخرى ، وأن شعار « الصبر والصمت » الذى نادى به القائد الاعلى الزعيم الرئيس انور السادات ، هو حقيقة كبرى نصنعها كل

يوم فى الميادين العسكرية بالتدريب ، وامتلاك الاسلحة ، وقطع الغيار ، وتوفير الذخيرة ، والاستعداد للخطة المصرية ، وان بعضنا يدفع حياته فى برامج التدريب بالذخيرة الحية من أجل اليوم الذى انتظرناه جميعا ، الجيش والشعب .

هل تعلم شيئا ؟

ـ لقد ظل أبي طريح الفراش عدة سنوات ، واتذكره وهو يقول لى وأنا أودعه حين اغادر البيت الى قاعدتى الجوية ، وأوصيه بتناول الدواء ..

ـ لا تخف يا وفائى ، ان الله لا يرفض لى دعاء ، لقد دعوته حين أنجبتك وانا الموظف الفقير البسيط ، ان يجعلنى قادرا على تربيتك احسن تربية ، وحقق لى امنيتى ، بل مدنى بالعون على تربية اخوتك التسعة ايضا .. ومنذ مرضت ولازمت الفراش دعوته ان يمد فى عمرى حتى يحارب جيشنا وينتصر ، وحتى أراك وقد حققت انت وشقيقك بطولة فريدة كعهدى بكما دائما ، وانا واثق بأن الموت سيتركنى حتى يهدأ قلبى ويطمئن على مصر .

ومسح البطل دمعة تسللت الى وجهه ، وتحشرج صوته ، وقال وهو يعبث فى جيوبه :

ـ ولقدكرمه الله ، مات بعد ثلاثة أشهر من انتصارنا ، وكم كان سعيدا كالاطفال بالنصر الذى حققته قواتنا ، وبالطائرات الاسرائيلية التى اسقطناها فى معاركنا الجوية وبأخى المقاتل فى سلاح المهندسين ، بل ان النصر جعله يغادر الفراش ويسترد صحته عدة أسابيع ، ويبذل من الجهد ما كان يعجز عنه قبل عشرة أعوام ، كان فخورا بأبوته لاثنين من المقاتلين ..

نعم ـ أنجب ذلك الرجل البسيط ابن اخميم ، مركز سوهاج ، والموظف الصغير باحدى الوزارات ، والممتلىء

وطنية وايمــانا ، والمزود بالشرف ، والمعتصم بالدين ، انجب بطلا ، مقتدرا ، وكان ولده هو ورفاق ســلاحه عروقا من الفضة في ظلام الليل ..

لقد اشترك البطل طيار « وفائى » فى كل المهام التى أوكلت الى « سربه » منذ ضربة السيطرة التى قامت بها قواتنا الجوية الساعة صفر يوم ٦ اكتوبر سنة ١٩٧٣ ، حتى هذه اللحظة وما يليها من واجبات ، لم يتوقف عن اداء مهامه الاعتراضية ، نهارا أو ليلا ، فوق سيــناء ، غير ان معركته البطولية البارزة الشاهقة وقعت فى الساعة الثالثة ظهرا من يوم ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٧٣ ، واستغرقت ثلاث دقائق فقط ، بينما المعركة بالنسبة للتشكيل الجوى الذى قاده « وفائى » استغرقت ٦ دقائق ، وهو وقت كبير ، ويعد من أطول معارك الطيران على المستوى العالمى.

فى طلعة واحدة ، فى معركة واحدة أسقط البطل ثلاث طائرات للعدو ، كان تشكيل طائراتنا رباعيا ــ وقد واجه تشكيلا رباعيا للعدو ــ تدعم على الفور بتشكيل رباعى اسرائيلى آخر ، فأصبحت المعركة ٤ طــائرات ميج ٢١ لنا ، ضد ٨ طائرات فانتوم وميراج .

واسقط « وفائى » أول طائرة بمدفعه الرشاش .. وكانت فانتوم ، ثم استدار بحركة مناورة بديعة ليهاجم قائد التشكيل الاسرائيــلى وكان يقود طــائرة ميراج ، فأسقطها بصاروخ جو ــ جو ، وفى بداية الدقيقة الثالثة، وبسيطرة تامة امتلــكها هو ورفاق تشكيله أطلق مدفعه الرشاش على ميراج أخرى أشــعل فيها النيران ، وبقى لديه من الذخيرة والوقود ما يكفى لتدمير طائرتين عدوتين اخريين .. غير ان العدو فر هاربا من سماء المعركة ، وقد تأكدت خسارته الجسيمة امام باقى طياريه .

هذه الطائرات المدمرة الثلاث ، واحدة فانتوم ، واثنتان

ميراج التى أسقطها بطلنا الشاب ابن اخميم مسجلة فوق فيلم التصوير فى كاميرا الطائرة ، تلك الافلام التى تلتقط الكترونيا كلما يحدث خلال معارك الاعتراض الجوى أو القصف الجوى بالقنابل فوق أهداف العدو ، وتسجل تدمير طيارينا للطائرات الاسرائيلية ، وتحصى عددها ، انها وثائق الشرف التى أهدتها قواتنا الجوية للوطن فى حرب رمضان المجيدة .

هناك ايضا فضلا عن هذه الافلام أوالوثائق ، وسائل أخرى لتسجيل اسقاط الطائرات العدوة ، وهى وسائل حديثة تعتمد على الالكترونات ، حتى انها تنقل للقيادة المحلية كل ما يدور بين طيارى العدو أثناء المعركة ، الى جانب رؤية الموجهين الارضيين الذين يسهمون بأعظم الجهد فى توجيه طيارينا نحو الاهداف الطائرة المعادية ، وعدة نقاط مراقبة أرضية فى سيناء أو غرب القناة وحول الاهداف الحيوية للوطن ، تحصى بكل الكفاءة واليقظة تدمير الطائرات الاسرائيلية بها .

اطقم الخدمة الارضية

قال لى الطيار البطل وفائى :

ــ ان الأسس التى أرسينا عليها نجاح معركتنا هى التعاون الوثيق بين الطيارين والمهندسين والميكانيكيين ، واطقم الخدمة الفنية فى قواعدنا الجوية ، ان أرواحنا وانتصارنا معلقان بجهد وابتكار وتفانى وحب رفاق السلاح من الفنيين الذين يعدون الطائرة أحسن اعداد ، لاستخدامها أمثل استخدام خلال المعارك ، أن بعض هؤلاء الابطال استمر يعمل أسبوعا كاملا بدون نوم ، ولم تكن أجسادهم فى حاجة الى النوم أو الراحة ، كان الانتصار يزودهم بالطاقة والقدرة والاداء المتكامل دون

خطأ بسيط على الاطلاق .. كان الله معنا يحمينا ويحمي كل خطوه نقوم بها .. لقد القى العدو على مطارنا ذات غارة ١٤٢ قنبلة ، زنة القنبلة الف رطل ، ولم يتوقف المطار عن العمل ، كل ما وقع كان محسوبا فى تخطيط الاحتمالات ، وقد أعددنا له البديل ، ولذلك لم يفاجئنا العدو ، وحقق الرجال معجزات فى اصلاح الاعطاب عبر زمن قياسى لم تحققه حتى فى برامج التدريب ، وفى غاره أخرى ، ومطارنا يتلقى قنابل العدو صعدت ٨ طائرات من طائراتنا وواجهت ٢٤ طائرة للعدو ، اسقطت منها خمس طائرات قبل مرور ٦٠ ثانية ، وفر الباقى عندما شهد طياروها بداية المعركة ..



تحية اكبار وتقدير ، ووقفه بالخشوع أمام جسارتكم .. أمام اقتداركم ، أمام معاركم الفياضة بالثراء والبطولة وأرقى أشكال البذل والتضحية ، التى توجت رأس شعبنا العربى بتاج الشرف ، تحية لمن جاد بالحياة لكى تبقى لنا الحياة حرة كريمة نقية ، للعمالقة ذراع مصر الطولى الصلبة القوية من رفاق السلاح وهم يجتازون بكفاءاتهم وانجازهم وسيطرتهم وسيادتهم الجوية التى نشروها فوق سماء سيناء وغرب القناة ، كل اقتدار للعدو ، فامتلكوا المبادأة دائما فى اطلاق صواريخهم وفتح نيران مدافعهم ، وأضاءوا بنوعية قتالهم شعلة نور أمام أجيال شعبنا القادمة .

انه نور رمضان المجيد .. نور النصر ..

قاتلوا وظهورهم لا تستند إلى حائط

لم تكن مهامهم يوم ٦ اكتوبر المجيد ـ هى المهمة الاولى لهم داخل سيناء ..

لقد واجهت قوات الصاعقة المحمولة جوا وبحرا .. والمقتحمة للعدو برا قبل ذلك اليوم ـ قوات العدو الاسرائيلى فى عدة معارك بارزة بمناطق تمركزها بالعمق جنوب سيناء ، وكانت معاركها المدعومة بأكبر قدر من المفاجأة بمثابة تدريبات حقيقية على دورها الكبير فى ملحمة الحرب التحريرية الخالدة عام ١٩٧٣ ، حيث قاتلت قوات الصاعقة المنقولة جوا ، أكثر المعارك ضراوة وجرأة وظهورهم لا تستند الى حائط ، أخطر وأعنف أنواع القتال الهجومي القاتل الكاسح ، ورفعوا العلم المصرى فوق العمق فى سيناء ، وسيطروا على أرض المعركة طوال أسبوعين كاملين ..

ستبقى معاركهم تجسيدا حيا لبطولة المقاتل المصرى.

لقد صنعوا بأجسادهم سدا بشريا فى عمق سيناء ، امام تجمعات احتياطى العدو المدرع التكتيكى والاستراتيجى وابرزوا بقتالهم دور المحارب المترجل امام زحف الصلب ومواسير المدافع فوق مئات الدبابات امامهم ، فحالوا بينها وبين التقدم لملاقاة قواتنا المشاة ومفارزها الاولى تعبر القناة .

لقد انهار سد بارليف وحصونه فى ست ساعات ،

وظل السد البشرى الذى اقامته قوات الصاعقة فى جنوب وشمال سيناء ٢٣ يوما كاملا يقاتل بلا هوادة ، ويدمر دبابات العدو ومخازن ذخيرته وآبار بتروله فى بلاعيم ، ثم يستبسلون فى معاركهم غرب القناة حتى نهاية يناير عام ١٩٧٤ ، وقد جاد بعض العمالقة بالروح فدية وجزية للنصر ..

سينحنى الزمن اكبارا وخشوعا امام اندفاعهم الخلاق فى الهجوم واستبسالهم المطلق وهم يعطون المثل والقدوة .. وقدراتهم اليافعة كمياه الشلالات المنطلقة من خلف سدود مفتوحة .

انها فصائل الصاعقة ، تجاوزوا فى معاركهم امكانيات البشر وقدراتهم ، وكان لهم سبق الشرف بالشهادة .. فشهداؤهم دائما فى الطليعة والمقدمة ..

وقبل نهاية يونيو عام ١٩٦٧ ، عادوا الى سيناء يحرمون العدو من استخدام مخازن الذخيرة والوقود التى تركناها سليمة اثناء الانسحاب، وكانت بدء معاركهم التى لم تتوقف قط حتى اغسطس عام ١٩٧٠، فاكتسبوا خبرات عملية واسعة بعبورهم المتكرر الى الضفة الشرقية وهجماتهم الانتحارية على حصون بارليف وعلى دوريات العدو المدرعة ٦٩ ــ ٧٠ بشمال سيناء ، وكانت مهامها حافلة بأثرى الانتصارات الصغيرة ، أعطتنا تلك البيئة وذلك المناخ ، القاعدة البشرية التى انطلقت الى انتصارات قواتنا المسلحة فى حرب اكتوبر المجيدة ..

لقد اخذت الصاعقة مهامها القتالية فى هذه الحرب قبل ان تبدأ قواتنا الرئيسية اقتحامها لقناة السويس ، حين حملتها الطائرات الهليكوبتر الى عمق سيناء شمالا وجنوبا خلف قوات العدو ، وفى نفس الوقت انطلقت بهم زوارق سريعة فوق البحر الابيض والاحمر الى سواحل

سيناء بهدف اقتحام أهداف ساحلية للعدو ، ثم جاءت الساعة الخالدة وهم فوق زوارق سريعة فى البحر الابيض والاحمر عناصر عديدة منهـــا مع المشاة طلائع الموجات التى عبرت الى الضفة الشرقية لتفاجىء أفراد العــدو داخل حصون بارليف وليتسلل رجال منهــا الى الطــرق المؤدية لهذه الحصون يقطعونها ويعزلون الدشم عنها ، وفى ساعة زمنية وأحيانا دقائق أسقطت الصاعقة تلك الحصون الهندسية المنيعة التى أعدها العدو لكى تقاتل شهورا ، اعتمادا على ما حشده بها من وسائل ومعدات قتال واعاشة ..

لقد كان للصاعقة ومع الدقائق الاولى لاقتحام ســــد بارليف الترابى حسابا قديما فى النقط القوية للعـــدو جنوب وشمال القنطرة شرق ، ولسان بور توفيق ، وفى منطقـــة الـكيلومتر ١٠ والـكيلومتر ١٩ ، بالقرب من مواجهة بور سعيد ، ودارت فى هــــذه المواقع معارك بالرشاشات والسلاح الابيض والقنابل اليدوية ، وذاق رجالنا أول رشفات الانتصار .

نابالم العدو ..

قبل هذا كله ، وفى آخر ضوء من يوم ١٥ اكتوبر عام ١٩٧٣ تحركت قوات الصاعقة لتفسد فى هدوء وصمت خزانات النابالم والمواد الملتهبة بالضفـــة الشرقيـــة وهى مقامة على مسافات متقاربة بحيث يستطيع العدو أن يدفعها فوق سطح المـــاء ويشعلها ليتحول سطح القناة الى جحيم يحرق كل انسان أو قارب فوق المـــاء ، ويستطيع العدو أن يتحكم فى استمرار نشر هذه النيران اذا عبرت قواتنا اليه .

ومن التجارب التى قامت بها قواتنا قبل العبور تجربة

اطفاء هذه النيران اذا اشـعلها العـدو ، وأجريت عمليات فى مناطق شديدة الشبه بالقناة ، وظهر ان النيران ستبقى مشتعلة لاكثر من نصف ساعة اذا لم يتم تزويدها بكميات اضافية من النابالم مما يعرقل قواتنا العابرة لاخطار شديدة .

وقامت الصـاعقة وعنـاصر أخرى من المهندسين باستطلاع هذه الخزانات ، ووجدوا أنها مدفونة تحت سطح الارض حتى يصعب تدميرها بالمدفعية ، وانهـا متصلة بمواسير تحت السطح يندفع منها النابالم الى سطح المياه. ولو أمكن اغلاق هذه المواسير قبل العبور فلن تشتعل القناة . وقبل يوم ٦ اكتوبر الساعة ٢ ظهرا ، قام بعض العمالقة بسد المواسير بالاسمنت ، وقطع بعض الخراطيم فى مناطق أخرى ، وامسكوا بمهندس اسرائيلى كان فى طريقه لاصلاح بعضها وجاوءا به أسيرا ، وقـد تمت العملية بنجاح ، ولم تتمكن نقطة حصينة واحدة من اشعال أى حريق على سطح القناة ، واستولت قواتنـا بعد ذلك على هذه الخزانات سليمة تماما .

عملية صغيرة ولـكنها ذات أهميـة كبرى بالنسبـة للعبور وهى أول مهام الصاعقة فى حرب أكتوبر ، قام بها الرجال بأرفع الـكفاءة والسيطرة والاقتدار ، ولم يشعر بهم جندى واحد من جنود العدو ..



قلت للعميد نبيل شكرى قائد قوات الصاعقة :

ـ ما هى المهام التى قامت بها قواتك فى عمق العدو وكان لها نتائج طيبة على الضفة الشرقية ثم رءوس الكبارى التى اقامتها قواتنا المشاة والمدرعات ؟

ـ مهام رئيسية على الطرق المؤدية من عمق سيناء الى القنطرة والاسماعيلية والسويس ورأس البر ، وفى

وادى فيران جنوب سيناء وفى الخطة ان العـدو سيعمل على دفع وحداته المدرعة من الاحتيـــاطى التكتيكى ثم الاستراتيجى الى انقاذ سمعته على الضفة الشرقية قبل أن تنتهى قواتنا من الاستيلاء على نقطه القوية على طـول المواجهة وقتل وأسر أفراده بها ، وواجبنا هو منع هذه الوحدات الاحتياطية من الوصول الى قواتنا ، واجبارها على الارتداد شرقا لتستمر قواتنا فى هجومهـــا الكاسح وانشاء رءوس الـكبارى دون تدخل كبير من العدو .

ولقد نجحنا فى ذلك ، وكان أفراد الصـــاعقة يعتلون ظهور الدبابات التى تفلت منهم ليلقوا بداخلهـــا قنابلهم اليدوية وهم يعلمون انهم سيموتون مع تدمير الدبابة ، وتكررت هـذه النوعية عدة مرات ، حتى لا تمر دبابة اسرائيلية سليمة من بين أذرعتهم .

وفى مضيق وادى فيران بجنوب سيناء دمر رجالنـــا بقيادة المقاتل زيادة اوتوبيسين كان بهما ٦٥ طيـــارا وملاحا اسرائيليا فى طريقهم الى قاعدتهم الجوية عبر كمين أقامته مجموعة قائدهم المقاتل كمال .

ـ كم بلغ عدد مجموعات الصاعقة التى قاتلت فى حرب اكتوبر المجيدة ؟

ـ خمس مجموعات ، مجموعة المقاتل هيكل مع الجيش الثانى ، ومجموعة المقاتل بسيونى مع الجيش الثالث ، ومجموعة المقاتل الشرقاوى فى رأس سدر بسيناء وشرق البحيرات ، ثم فى جبلى شهابى وعتاقة خلال الثغرة ، ومجموعة المقاتل أسامة وقاتلت فى الطاسة ورمانة بسيناء ثم غرب القناة ، ومجموعة المقاتل كمال بجنوب سينـــاء والبحر الاحمر .

قلت لقائد الصاعقة :

ـ استمرت معارك مضيق رأس سدر ١٦ يوما كاملة

.. هكذا نشرت بعض صحف الغرب .. هل نقترب من هذه المعارك ؟

بين رأس سدر ورأس مسلة مرت طائرات الهليكوبتر حاملة جنود الصاعقة وضباطها شرق وغرب المضايق .. وأذكر أن رجال البطل الشهيد رفعت عبد الوهاب عامر هبطوا فى منطقة أخرى ، وقطعوا ثلاثين كيلومترا على اقدامهم معتمدين على لياقتهم البدنية العالية ووصلوا الى منطقة الهدف وقاتلوا معاركهم بكل البطولة .. ففى الحرب يمكن أن تقع مفاجات عديدة .. المهم هو امتلاك القدرة على تجاوزها .

لقد أصيب أيضا قائد احدى الكتائب بعد ابرارها جوا ، وأصيب بعده مباشرة رئيس عمليات الكتيبة ، واحدة من مصادفات أو مفاجات الحرب .. وهذا موضوع فى تخطيطنا ، ولا يشكل أدنى مفاجأة للوحدة المقاتلة ، بعد ذلك قاد الكتيبة ضابط برتبة نقيب وحقق أعلى مستويات التنفيذ .

عندما أصيب البطل محمود ، قائد الكتيبة ثم البطل عادل رئيس عملياتها حاول رجالهم حملهما والتقدم الى منطقة هدف أخرى ، لكن البطلين رفضا ذلك ، وطلبا الى الرجال تركهما والمضى الى المعركة وهددا باطلاق الرصاص على نفسيهما اذا حاول أحد حملهما عنوة ، وتحققت رغبتهما ومضى الرجال الى مهامهم وبقى معهما طبيب وممرض .

لقد بقى رجال هذين البطلين مسيطرين على محور رأس سدر ـ رأس مسلة طوال ١٦ يوما ، حاول العدو بوحداته المدرعة اختراقه فى عدة هجمات مضادة ، ولكن الصاعقة منعته ودمرت له الكثير من دباباته وقتلت العديد من افراده ، وأقاموا له عدة كمائن ناجحة . فاستعان

بالطائرات ، ولم يستطع رغم طيران الهليكوبتر والفانتوم وقصف المنطقة أكثر من مرة أن يمر أو يستخدم المضيق حتى أخلاه رجالنا بأوامر قيادتهم بعد ايقاف اطلاق النار تاركين خلفهم كميات ضخمة من الالغام والشراك ..

لقد دارت معارك الصاعقة فى مضيق رأس سدر ، وكانت شبه يومية ، افراد لا يستر ظهرهم شىء على الاطلاق ، لا مدفعية ، ولا دبابات ، ولا طائرات تحمى نشاطهم ، وهم يواجهون عشرات من دبابات العدو وطائراته الهليكوبتر القاذفة لصواريخ جو ـ أرض .

فى هذه المعارك أستشهد البطل رفعت لانه صمم أن يستر آخر جنوده ، وهم يتنقلون من منطقة لاخرى حتى لا يصبحوا هدفا سهلا لطائرات العدو ، واستشهد معه البطل رقيب الشربينى ، والبطل الشهيد العريف حداد وكانا قائدهما البطل رفعت وقد واجهوا ثلاثتهم قولا مدرعا اسرائيليا ، دمروه عن آخره ، ثم تعرضوا لقصف جوى ، وصعد الثلاثة الى رحاب الله وأسلحتهم فى أيديهم .

وأنا أتحدث عن الشهداء هناك أذكر البطل شومان الذى دمر ٨ دبابات اسرائيلية شرق البحيرات ، وقام مع رجاله بتوجيه ضربة جريئة الى تجمع كبير للعدو فى هذه المنطقة ، ثم دمر ثلاث دبابات فى فنارة ولم يكن هو ورجاله يزيد عددهم على عشرة أبطال ، لم يستشهد منهم غيره ، أنه البطل رائد شومان من رجال المقاتل الشرقاوى .

جنوب سيناء ..

نتحدث عن عمليات جنوب سيناء .. لقد صرخ العدو بأن هناك غزوا كاملا لجنوب سيناء ، وكثير منا يعرف ان هذا الغزو لم تقم به غير مجموعة واحدة من مجموعات الصاعقة .. اليس كذلك ؟ .

وبصوت مشوب بالشجن والحنان ، روى القـــــائد الشاب قصة مقاتلى محور جنوب سيناء ..

كان تقديرنا فى الخطة هو فتح جبهة ثانية فى هذا المحور لجذب قوات العدو الاحتياطية المدرعة بعيـدا عن مسرح قواتنا الرئيسية وهى تقاتل وتحرر الارض فى سيناء وفى الحقيقة لم يحارب الرجال العدو فقط ، بل حاربوا الطبيعة ايضا ، وظل قتالهم عبر مسافة بين ٤٠ ــ ٨٠ كيلو مترا ، ضد لواء دبابات ولواء مشاة ميكانيكى ،وعشرات من طائرات الفانتوم والهليكوبتر الباحثة عنا المزودة بصواريخ جو ــ أرض واستطاع الضباط والجنود اقامة سد بشرى منيع يؤمن الاجناب اليمينية للجيش الثالث ، وقد ظلوا هناك حتى بعد وقف اطلاق النار بكل السيطرة والثبات والقدرة على معاودة القتال .

ان معارك هذه المجموعة استطاعت بالدرجة الاولى اشاعة الاضطراب فى توزيع قوات العدو وتشتيت نشاطه ، حتى انه لم يدرك طيلة ٤ ايام بعد ٦ أكتوبر ، أين مجهود قواتنا الرئيسى ليتصـــدى له ، وحين صرخ باننا نغزو جنوب سيناء ، كان يتوقع هجوم جيش كامل على هذه المنطقة ، ولم يكن ماتريده ونهدف اليه غير هذا على الاطلاق ، تطبيقا للخطة العامة لقواتنا المسلحة .

بعد ذلك قام بعض رجالنا بتفجير عدد من مستودعات البترول فى أبى رديس ، واشـــتركوا مع دوريات مدرعة للعدو ، واستمرت الكمائن التى يعدها الرجال لدبابات اسرائيل فى نجاحها من كمين لآخر ، نتيجة صفاء ذهن القادة الاصاغر وتشبعهم بالتدريب المسبق عـلى مثـل هذه العمليات وتوقع كل المفاجآت وكيفية التغلب عليها .. فاذا أفلتت دبابة أو أكثر للعـــــدو من كمين للصاعقة تلقفتها مجموعة كمين آخر ، ولذلك ظلوا محرزين لعامل

المفاجأة دائما مما دفع القيـــــادة الاسرائيلية الى القاء منشورات تخاطب فيها بدو المنطقة وتغريهم بمكافأة قدرها ألف جنيه لمن يرشد عن المناطق التى يختفى فيها جنـــود الصاعقة المصرية بعد كل ضربة يوجهونهـــا لقواته المدرعة وعلى حد تعبير أحد جنودى الذين عادوا بالاوسمة تزين أجسادهم وأقصد الجروح والاصابات .

ــ ان العدو فى وادى فيران كان يقف كالمجنون ليتلقى ضربة من أمام ثم من خلف ثم حول أجنابه ثم من هنا وهناك ، وهو يقاوم محاولا الوصول الى منطقةالغرب فيعجز ويصاب بالانهيار ، وعندئذ يفتح نيرانه فى كل مكان وبأحجام كبيرة ، ونحن فى مخابئنا لا يصل الينا على الاطلاق .. وحين يهدأ ويحاول اعادة تنظيم قواته نعاود فتح نيراننا عليه مرة أخرى .

قاتل الرجال بعد ذلك قتـالا ضاريا فى رأس ســدر وأبو زنيمة وجبل تنكة وجبل حمام فرعون وفى رأس مسلة فى الطور ، وحدة المقاتل عبد الصـــادق أسقطت طائرة هليكوبتر للعدو ودمرت عربيتين مجنزرتين له بأفرادهما وقتلت وحملت معها الدليل ٥٢ قتيلا ، وكانت هـذه الوحدة قد انتهت من تنفيذ مهمة سابقة وفى انتظـــار وصول بعض طـائراتنا لتحملهـا الى قاعدتها ، لـــكن الطائرات لم تصل ، وما فقد الرجال أبدا عامل الطمأنينة والاقتدار ، ولذلك دخلوا معركتهم الثانية وحققوا فيهـا هذه المعدلات من الهجوم الكاسح القاتل ، وكانوا محـل تقدير القيادة العـــامة حين قطعوا مائة كيـلو مترا على أقدامهم وينضموا الى رفاق السلاح .

ليلة ٣١ أكتوبر ، كانت وحدة أخرى من الصـــاعقة تستقل قواربها بقيادة المقاتل بحـــرى سيف اليزل الى جنوب الطور ، وأغار رجالنا بقيادة البطوطى على موقعى

مدفعية صاروخية مضادة للطائرات ومنطقـــــة ادارية ، وقطعوا رحلة العودة فى ضوء النهار ، رغم ما قد يتعرضون له من أخطار ، لكنها الصاعقة لا تهتم بسلامة الافراد قدر اهتمام كل مقاتل بسلامة الاداء .

عقيدة العدو ..

سألت المقاتل الذى بدأ حياته العسكرية ضابطا برتبة ملازم ثان فى الكتيبة السادسة مشاة كتيبة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، فى منطقة الشط شرق سيناء ، ثم تولى قيادة الصاعقة بعد نتائج يونيو ١٩٦٧ .. سألته :

المعروف ان عقيدة العدو القتالية قائمة على العمليات الخاصة ، لماذا لم ينجح فى استخدام هذه العمليات ضد قواتنا ؟ .

ـ لان قواتنا الخاصة حرمته تلك الميزة ، فرجالنا فى عملياتهم الخاصة كانوا يملكون سلاحا أقوى وأخطر مما يمتلكه العدو ، كانوا يمتلكون العقيدة القائمة على الايمان وعلى شرعية القتال لرد الثأر واسترداد الـــكرامة التى فقدناها فى ١٩٦٧ ، وعلى الروح المعنـــوية التى جعلت رجالنا يضحون بالروح وكأنهم يضحون بطلقة رصـاص وعلى التدريب الذى أستمر متصلا منذ ٦٧ حتى ٧٣ ، وكانت عملياتنا كلها اغارات على العـدو لم يكن هنـاك فاصل بين ٦٩ و ٧٣ نتوقف فيه عن العمل والاستعداد حتى جاء عام ١٩٧٢ ، واستمر نشاطنا أشبه بالمعجزات طوال عام كامل الى أن قمنا بمهامنا فى ٦ أكتوبر وبعده ، وجعلنا العدو عاجزا عن اللحاق بنا .. كنا نحـــارب بالاقتراب من العدو وجها لوجه وكان هذا الوضع يشكل مفاجاة له تصيب ضباطه وجنوده بالشلل ، لقد هبطنا فى قلب قواته . بالطائرة بالزورق بالسير على الاقـــدام

برا ، فى شمال وجنوب سيناء .

وقال لنا أحد الاسرى من ضباطه :

ــ « لابد أنكم من نوعية خاصة .. لقد شاهدت جنديا منكم يحمل لغما فوق صدره وينام تحت احدى دباباتنا لتمر فوقه ويموت مع الانفجار الرهيب ، ما هـــذا الذى يفعله !!

وقال ضابط اسير آخر :

ــ « كنا نحاول الامساك بالصاعقة ، فيتضح لنا فى النهاية اننا نمسك الهواء .. ولم يكن أحد من قادتنا فى تل أبيب يتصور ان الدبابات ستعجز عن المرور أمام سد بشرى بلا مدافع ولا طائرات بلا دبابات تقف أمامه ولكنهـا الحرب ، وفى كل مرة تحقق شيئا جديدا لو تحدث أحـد عنه قبل الحرب لوصفوه بالهذيان » .

مضت لحظة صمت بعد هذه العبارات : وكان الرجل يستعيد أعذب الذكريات ثم عاد واستطرد قائلا :

أكتب عن المقاتل زغلول قائد معركة لسان بور توفيق الذى شهدت صحافة العالم جنود العدو وهم يستسلمون له أمامهم ، والضابط الاسرائيلى الاسير يرفع يده بالتحية للعلم المصرى فوق النقطة القوية التى كان يحتمى بهـا ، وكان عدد الاسرى أكثر من ثلاثين .

أكتب عن المقاتل الجيشى قائد معـــركة تحرير رأس العش شرق مع المشاة ، أكتب عن عبد العابد ، عن صيام عن رضوان ، عن كثـــيرين لو احصيت لك بطولاتهم فستحتاج الى كتاب ضخم وليس الى عدة صفحات فى مجلة أو جريدة .

بودى أن أذكر لك أعمال كل شهيد من رجال الصاعقة من الضباط والجنود ، كل أعمال الاحياء الذين عادوا بالاصابات فوق أجسادهم وكلهم فخور بها كأوسمة من

الدرجة الاولى ، بودى أن أتحدث طويلا عن المقاتل زيتون الذى فقد ذراعه فى عملية انتحـــارية ثم جاءت حرب ١٩٧٣ وقاد رجاله الى الشرق وقاتل فى مقدمتهم ، عن عبد الرازق وقتاله فى القنطرة شرق ، عن شنودة العملاق أحد جنود المقاتل الحاج فؤاد ، عن شلبى فى الفردان عن عليمى وعلاء ، عن عبد الجواد الذى قاتل ٤ أيام وهو جريح حتى استشهد فى القطاع الاوسط .

لقد أصيب عليمى بشظيتين فى وقت واحد ، احداهما كسرت عظام ذراعه والثانية كسرت عظام ساقه ، واستمر البطل يقود رجاله .

أكتب عنهم جميعا .. عن هؤلاء الفدائيين الذين امتلكوا من المعنويات العالية ما يعادل ثلاثة أحجام السـلاح فى أيديهم ، وقاتلوا وكل منهم يؤمن تماما أن السلاح هـو الوسيلة وليس الاساس .. هؤلاء العمـالقة حين كانوا يظهرون فجاة أمام العدو ، يصرخ مقاتلو اسرائيل بالعربية، وكأنهم تدربوا عليها من قبل ، يصرخون بكل ما لديهم من بقية طاقة :

ـ « ارحمنى يا صاعقة » .

طيـــار الهليكوبـــتر
ومقاتـــل الصاعقـة

« ليس من السهل تحقيق أى عمل جرىء فى القتال الا بقدر من المخاطرة .

ولقد خاطرنا بكل رباطة جأش ، وبأثرى المعنويات ، وأبلغ صور الاندفاع ، ولو كان هناك أدنى تردد ، ذرة تردد ، لمـا نجحت مهامنا .. » .

واضطر محدثى للسكوت عندما غطت على أصـــواتنا محركات طائرات الهليكوبتر ، وهى تهبط حولنا ..

أحد هؤلاء العمالقة « الطيار فرماوى » من طيــارى الهليكوبتر ، أو « الهل » ، كما ينطقونها اختصارا للكلمة أصيبت طائرته قبل أن يصل الى منطقة الهدف فى عمق سيناء ، واستطاع أن يقودها ، ويهبط بها فى المنطقـــة المحددة له ، ويخرج الابطال الصناديد « مقاتلو الصاعقة » المحمولون جوا ــ تحت قصف طائرات العدو ، وقد أخذت وضع المظلة الجوية فوق الارض لينفذوا خطتهم الجريئة الحاملة لاكبر قدر من المفاجأة ، والانقضاض على القيادات الاسرائيلية بالمؤخرة ، ووحداتها المدرعة ، وبطـــــاريات صواريخها التى كانت تتعامل مع طائراتنا القاذفة فى ضربة السيطرة المصرية .

كان طيار الهليكوبتر الذى حمل هـــــذه الوحدة من الصاعقة قد تأكد له بعد أن أفرغ حمولته البشرية ، انه لن يستطيع العودة بالطائرة ، فمضى مشيا على الاقــدام

حتى التقى بوحدة مدرعة من قواتنا ، التقطته على الفور، وقادته الى وحدة متقدمة ، وفي سيطرة تامة على أعصابه وهدوئه بلغ قاعدته الجوية ، واستقل هليكوبتر اخرى وعاد بها الى منطقته الاولى ـ مجتـــازا مئات المدافع الاسرائيلية المضادة للطائرات والصواريخ هوك أرض ـ جو ـ وفي اللحظة المناسبة أخذ ينقل مقاتلى الصاعقة بعد أن أدوا مهامهم ـ الى قاعدة الانطلاق ـ وكان عملا بطـوليا فذا ، قدمه أكثر أبناء قواتنا فى حرب أكتوبر الشامخة .

القصة نفسها تكررت فى يوم واحد ، وكان بطلهـــا الطيار جورج .

ليس سرا أن مثل هذا الاداء كان معدا له من قبل ، لم يكن مصادفة أو قدرا ، نجاة الطيار فرماوى أو الطيار جورج أو غيرهما ـ من الاسلحة الاسرائيلية المضادة وهى مكثفة داخل سيناء .. كان الله فوقهم يرعاهم ويزودهم بالحماية وكانوا هم أيضا يملكون الاقتدار لتجاوز هـذه المواقف ولم تكن مفاجأة لهم على الاطلاق ، أن طيارينا فى جميع مستويات الطيران تدربوا طويلا على أسـاليب اختراق الدفاع الجوى الاسرائيلى من مدفعية وصواريخ ـ وهى أساليب علمية فنية لست فى حل من الاشارة اليها ، فضلا عن امتلاك كل طيـــار لقـــدر كاف من المعلومات عن مواقع مدفعيات العدو وبطاريات صواريخه، وعليه أن يناور ، ليكون فى مأمن منهـا ، ومنـــاورته هنا هى الابداع والاتقان بعينه ، نتاج بيئة القاعدة التدريبية القتالية العريضة الجيدة ، والاسس الحديثة فى معـارك الجو ، المدروسة نظريا والمطبقة عمليا ، هى وحدها التى دعمت ديناميكية قتـالنا سـواء على مستوى التركيب الكثيف فى حجم الهجـوم بالطـيران ، وا على مستوى التشكيل الواحد .

المهمة الكبرى ..

لقد بدأت عمليات حمل القوات الخاصة « مقـــاتلى الصاعقة » الى خلف قوات العدو الاسرائيلى بعمق سيناء من عدة مطارات حربية ، وأكثرهم طار الى « المسرح » عدة مرات خلال عمليـــات الاستنزاف ٧٠/٦٩ فعرف الارض وخبرها وفى يوم ٥ أكتوبر ١٩٧٣ ، كانت أسراب الهليكوبتر المخصصة « للمهمة الـــكبرى » قد تجهزت تماما ، كل مهمة وحسب نوعها أعدت لها القيادة عددا مناسبا من الطائرات ، واعدادا مضاعفة من الطيارين ، بعضهم كان مريضا بالمستشفى العسكرى وشعر بحاسته السادسة ان هناك عملا كبيرا سيقوم به زملاؤه ، فحصل بكل الوسائل على تصريح طبى بلياقته للخـدمة ، وجاء ليقف فى طابور الابطال الذين اختيروا لهذا العمل ، ولم تخنه حاسته .

طوال السنوات الماضية ، خلال مرحلة الصبر والصمت التى طرحها القائد الاعلى نداء للجماهير ، كان ترتيب طيارى الهليكوبتر قائما على تحقيق مثل هذه المهـــام ، والطيران بارتفاعات بسيطة جدا لتفادى رادارات العـدو ولمسافات طويلة لم يتخيل العدو أيضا أن طيارينا قادرون على تطبيقها ، والهجوم بتشكيلات كبيرة نهارية وليلية ، واختصار الدقائق الى ثوان .

كان المفروض كاجراء من اجـراءات طيران الهليكوبتر والتحرك الى مسرح الخصم أن تتسلل الطائرات اليه ليلا « لا » نهارا ، لكن أبطالنا تدربوا على الهجوم فى وضـــح النهار ، وسيطروا واقتدروا على تجاوز كثافة مدفعيـة العدو المضاد للطائرات وصواريخه ، بفضل عنصر المفاجأة الذى منحهم السيادة الجوية طوال العمليات ..

لقد وقع بالفعل أكثر من اشتباك ، وناور طيـــارونا

جيدا ، وبالمناورة أفلتوا من طائرات العدو الاعتراضية وفي احدى هذه المناورات وقع العمل البطولي البارز الدال على الثبات الارادي واليقظـــة والتألق أثناء القتـال اذ استطاع الطيـار « المقـاتل البطل لطفي » أن يسقط الفانتوم ، نعم أسقطت « الهليكوبتر المصرية » فانتوم ٤ ، هذه الطائرة « الهل » لم تكن معدة للاقلاع ، ولكن الفنيين من المهندسين ورجالهم أصلحوها سريعا ، واستقلهـا الطيار ، وكان قادما من تأدية واجب آخر ، وطار بهـا ، وأفرغ حمولته من الصاعقة خلف القطـاع الاوسط في سيناء ، وارتفع مرة أخرى الى السماء ، واذا به يواجه طائرتي فانتوم ، وبالسيطرة كلهـا والثقة والايمان بالله أطلق صواريخه فانفجرت واحدة وفر الطيار الاسرائيلي الثاني مذعورا ، وكانت معجزة في تاريخ جيوش العـالم حققها الطيار الشاب « لطفي » .

لقد تدخلت طائرات سوبر ميستير التي يملكهـا الطيران الاسرائيلي والفانتوم على مسافة من ٢٢ الى ٣٠ كيلو مترا شرق سيناء ، ضد الطائرات الهليكوبتر في رحلة الذهاب والعودة ، وكان صمود طيارينا وصلابتهم فـوق طاقة البشر ، ولذلك هبطوا في مناطق الابرار المحددة لهم وسط النيران وانفجارات القنابل والدانات ، هبطوا في كثير من المناطق العسكرية التي تسيطر عليها القـوات الاسرائيلية بتشكيلاتها الاحتياطيةالتكتيكيةوالاستراتيجية من البحـر الابيض شمالا حتى رأس سدر جنوبا ، وفي توقيت واحد ، وقام رجال الصاعقة والابرار الجوي بتدمير المدرعات الاسرائيلية من الاحتياطي المدرع وقـواعد الصواريخ المضادة للطـائرات والدروع المصرية وفجروا النيران في مخازن الوقود والذخيرة .. مجموعة من القوات المنقولة جوا « قوات الصاعقة » سيطروا على طريق القطاع

الاوسط بسيناء ٦ ســـاعات كاملة ، كانت قواتنا البرية الرئيسية تتقدم خلالها على خط المواجهــة وتقيم رؤوس الجسور وتجتاح قوات العـــدو خلف خطوط بارليف بعد أن دمرت حصونه ، وطوال ١٢ ســاعة بعــد ذلك تمتعت قواتنـــا الرئيسية بحرية كبــيرة فى الاقتحــــام وتطوير الهجوم ..

طيار بطل حمل مجموعة الصاعقة بعد تأدية مهامهـا واقلع بالفعل ، واذا به يشاهد جريحا من ابطالنـــا فيعود مواجها احتمال اصابته ١٠٠ ٪ ليلتقط الجريح ، ولقد كان الله يحميه بعنايته .

الانقضاض المفاجىء

ان نجاح هجوم الانقضاض المفاجىء للقوات المحمولة جوا ، وما قامت به بالفعل قوات الصــاعقة فى حــرب اكتوبر عام ١٩٧٣ كان يعتمد بالدرجة الاولى على طيارى الهليكوبتر ، على تغطيتهم ودقة ملاحظاتهم ودرجـــــة استيعابهم للمناطق التى سيهبطون فوقها ، وتفـــوق استطلاعهم ، ان ابرار قوات الصاعقة فى المنطقة المحددة فوق خرائط العمليات دون وقوع اخطاء ملاحية أو أخطاء أخرى يقع بالضرورة على نضج طيارى الهليكوبتر وملاحيها .. فضلا على اكتسابهم لخبرة الهبوط والاقلاع فى كل الظروف الجوية وفوق أراضى مختلفة من جبــــال الى سهول ووديان ومزارع ، وفى كل مهمة يختصرون دقائق من الوقت المخصص لها ، دقائق هى فى حساب الهجوم بالانقضاض ، تساوى ساعات وأياما ..

وجاء اليوم الخالد ، وأثبت طيارونا استطاعتهم حين طبقوا برامج تدريبهم على الواقع وصنعوا منها صفحات فخار وشرف للمقاتل المصرى .

بعضهم وهو فى طريق العودة شاهد دبابات العدو ، ففتح عليها صواريخه ولم يكن هذا العمل لديهم واجبا مطلوب تأديته ، قاموا به من خلال مبادرتهم الفياضة بالاقتدار والثقة والايمان بحتمية النصر .

ولقد تكررهذا الهجوم فىجنوب سيناء يوم ١٦ اكتوبر وكان هجوما جماعيا بطوليا بصواريخ الهليكوبتر تحت مظلة العدو الجوية ، والعوائق الجبلية ، والرؤيا الصعبة .. والزوابع المستمرة ، والنيران المتفجرة ، ولكن رجولة طيارينا كانت تهزم كل هذه العوامل ، وجسارتهم تجاوزت فى شمول كل هذه الصعاب .

لقد كانت مهامهم ومعاركهم هى نقطة التحول الاولى فى صالحنا عند بداية الهجوم ، وظلت واجباتهم الفنية داخل الطائرات تعكس فى جوهرها قدراتهم على استمرار الطلعات الى عمق متعدد الانساق للعدو ، وذلك ثمرة ما اكتسبوه من معلومات ودراسات وتطبيقات عملية ، ارتفعت بهم الى مصاف العلماء المتخصصين وكان التحامهم بالاطقم الفنية من المهندسين والميكانيكيين وعلاقاتهم الانسانية النبيلة خلف ذلك المستوى الرائع من الاداء .

قال لى أحد القادة :

ـ لولا هذا المناخ الذى يفرزه مجتمع قواتنا المسلحة، وتعاون أسلحتها المشتركة لما استطاع طيار واحد أن يحقق تلك الاعمال البطولية التى تبحثون عنها ..

هناك الطيار منير ، ضرب مسقط وأبو رديس .

الطيار سمير ضرب رتلا من مجنزرات العدو وكان « وحده فى السماء » طائرا الى قاعدته . ولكنه لم يسمح لنفسه ان يترك المجنزرات الاسرائيلية تمر بسلام، لتواجه قواتنا المتقدمة من الشرق ..

الطيار « اشرف » اشترك فى نقل الامدادات الىقوات

الجيش الثالث ، وواجه ٤ طائرات فانتوم للعدو استطاع الافلات منهما ليقوم بهذا العمل البطولى عدة مرات بعد ذلك ، وقد تصدت الميج ٢١ للفانتوم .

عشرات من أسماء الأبطال الخـــالدين عبر صفحات الفخار والشرف لا تحضرنى أسماؤهم الان ، اعطـــوا وجادوا بأعظم العطاء ، وقاتلوا اشرف وأنبل القتال .

تحية لجساراتــكم ، لبطولاتــكم التى رفعتم بها رأس الشعب العربى عاليا ، لمعدنــكم القتالى ، تحية اكبــار وخشوع للطيارين «فريد وشبارة وعبد الهادى وميخائيل وأبو بركات الذى حمل رفيق سلاحه الجريح وسبح به البحيرات ، تحية لعادل وعبد الباسط وللبطل الملاح على ، لخيرى وصلاح وحسن ، لنعامة وصبحى، وداود» وبعضهم اشترك فى كشف تحركات غواصـــات العدو بالهليكوبتر المخصصة لهذه المهام ، ورصد نشـــاط لنشاته الصاروخية ، وآخرون كانت مهامهم حمـــاية الشواطىء المصرية ، فى أنحاء الوطن بكل السيطرة البارزة المتجسدة فوق سماء سيناء أو غرب القناة .. رافعين رايات النصر ..

١٦ يوماً
بدلاً من ١٨ ساعة

هذه هى قصة وحدة الصاعقة المنقولة بالهليكوبتر والتى كلفت بواجب هجومى لمدة ١٨ ساعة فقط ، غير انها استمرت ١٦ يوما فى عمق العدو ، تقاتل باقتدار أشرس المعارك ، وقد التحم مقاتلوها بدبابات ومدرعات العدو ، تحت مظلة جوية دائمة من طائراته الفانتوم والميراج والهليكوبتر المزودة بصواريخ جو – أرض .

صهرتهم التجربة طوال حرب الاستنزاف داخل اعماق العدو ، وخلال سنوات الصبر والصمت – وهم يعبرون الى سيناء ثم يعودون الى الضفة الغربية للقناة ، وقد تطعموا قتالا بالارض التى سيديرون فوقها معركتهم الكبرى ذات يوم كانوا يعلمون انه آت لا محالة ..

انهم طوروا أشكال التفافهم وتطويقهم للعدو .. ان عمليات الصاعقة تتميز بخواص قتالية فريدة ، لم تفارقهم ولم ينفصلوا عنها قط ، أهمها الهجوم بالانقضاض المفاجىء ، طابع قتالهم الذى يحكم مهامهم سواء قدموا من الجو أو البر أو خرجوا من البحر ، وبقدر حجم المفاجأة القاتلة الكاسحة التى حملوها الى قلب مواقع العدو الاسرائيلى فى عمق دفاعاته وقواته التعبوية ، والسيطرة التى امتلكوها منذ ليلة ٦ اكتوبر عام ١٩٧٣ ، داخل سيناء ، كانت نسبة الخسائر التى الحقوها بالقوات الاسرائيلية ، وقد أصيبت بالشلل والعجز عن

التقدم لمنع قواتنا الرئيسية من عبور القنـاة ، وتدمير حصون بارليف والتقدم اقتحاما لتحرير الارض الاسيرة.

نهار ٥ اكتوبر عام ١٩٧٣ ، كانت الصاعقة فى بعض المطارات الحربية التى يعملون منها ، وفى قواعد قليـلة أخرى على الضفة الغربية للقناة مزدحمـــة بالحركة النشطة حتى القمة ، مشحونة بأعظم الانفعالات ، كانوا يعيشون أخلد لحظات العمر بأشرف القلق وأنبل المشاغل وأقصى الاندفاع لتحقيق اعظم المهام التاريخية فى حيـاة شعبنا ، فقد كلفوا بأخطر المسئوليات الاولى فى حرب اكتوبر المجيدة ، وبعد ســـاعات تقترب خطواتهم من سيناء ، خطوات مقدرة محكومة بحسابات ، أعتمدت على استطلاع مكثف لقوات العدو ، ومعاومات متوفرة متجددة باستمرار ، ظلت تصل الى الرجال حتى آخر ضـوء من ٥ اكتوبر ، بعدها مباشرة عبرت « طلائع الصاعقة » مياه القناة بعرض خط المواجهة كله ، الى سـيناء ، لتقوم بأبرز الواجبات الانتحارية الموكولة اليهم .

وبزغ فجر ٦ اكتوبر الخالد وقد احتلت المفارزالمتقدمة للصاعقة مواقعها خلف النقط القوية للعدو « دشم بارليف الحصينة » وقواته التكنيكية ، والاحتياطى الاستراتيجى فى عمق سيناء .

وفى سرية كاملة قطعوا خراطيم النابالم وأفســـدوا مضخاتها العديدة ، بعد أن أعدها العدو بجانب كل نقطة قوية ، لتحيل ميـاه القناة الى جحيم من النـيران اذا عبرتها وحداتنا ..

ونجح رجالنا فى أولى هذه المهام الدقيقة ، دون أن يكتشف أمرهم ، وقد قتلوا بالســـلاح الابيض وبدون صوت بعض أفراد العدو فى نقط الحراسة ، ثم لغموا مصاطب الدبابات الاسرائيلية فى الضفة الشرقية وحين

قدمت دباباته لتفتح نيرانها على قواتنا العابرة .. حولتها الالغام الى كتل من الحديد المحترق .

يوم ٦ اكتوبر أيضا عبرت وحدات من الصاعقة بقيادة المقاتل كمال ، ميـاه البحر الاحمر لتامين جانب اليمين للجيش الثالث ، ثم تقدمه الى جنوب سيناء . وهنـاك اشتبكت مع لواءين مدرعين للعدو ، ودار قتال مرير بين الانسان والصلب انتصرت فيها وحداتنا الصاعقة ، وظلت مالـكة لعامل السيطرة على أرض المعركة«١٥٠كيلومترا» في مواجهة خط الجنوب شرق .

ولقد أشعل هؤلاء الرجال نيرانهم في « آبار شراتيب » جنوب سيناء ، اثناء معاركهم .

وفي نفس الوقت والشرارة الاولى للحرب تنطلق الى الارض الاسيرة ، كانت قوات الصاعقة تعبر ميـــاه القناة في القطاعين الاوسط وشمال سيناء ، ووحـدات أخرى محمولة جوا بالهيلكوبتر تهبط في رأس ســدر حول المضيق ، تلك الوحدات التي كلفت بمنع قوات العدو الاحتياطية المدرعة من التقدم لمدة ١٨ سـاعة فقط ، لتستطيع قواتنا الرئيسية المشاة والمدرعات خلالها عبور القناة ، وتدمير بارليف ، والتقدم الى العمق في حرية حركة تسمح لها بالاقتحام المستمر ، وتطوير قتـالها شمالا وجنوبا .

ولقد ظل رجال معركة رأس سدر يقـاتلون « ١٦ » يوما لا « ١٨ » ساعة ، ويسيطرون على مضيق ســدر ويدمرون دبابات ومدرعات العدو في معارك يوميـة .. ويسطرون اعظم صفحات البطولة واقدرها على الاطلاق

تلك هي الخطوط العريضة لمعارك هؤلاء العمالقة في حرب رمضان المجيدة ، وقد تمرسوا بأقسى الوان النضال المسلح ، وتجاوزوا أسوأ الظروف القهرية وأشـــد

المواقف القتالية الحرجة .

ان « المقاتل حرب »» حين فقد عينه اليمنى اثناء الاشتباك ، نقل رشاشه الى ذراعه اليسرى وظل فاتحا نيرانه يديرها بعينه السليمة الباقية ، دون أن يتوقف لحظة ، حتى نقلوه الى المستشفى ..

وذهبت الى معايشتهم ، أستمع اليهم ، انقل منهم ، بادئا بالقائد سيد ، رابضا فى مقدمة رجاله بأرض المعركة ...

ـ لقد كانت معارك العبور والقتال داخل سيناء عامى ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ ـ بمثابة برنامج تدريب حقيقى عملى للمعركة الكبرى بحجمها المكثف ، كالمقاتل نادر وكان ضابطا صغيرا حين اشترك فى معركة شدوان ، قاتل فى حرب التحرير عام ١٩٧٣ ، قائدا لوحدته .. وغيره كثيرون ..

ان الترابط والتلاحم بين ضابط وجندى الصاعقة ، وحصولهما معا على برامج تدريب واحدة بكل مشاقها وخطورتها ، واستمرار اعاشتهما معا ، والتصاقهما الفريد خلال مجابهة الموت والهجوم الانتحارى عبر جميع عملياتهم هو الذى أعطى فى النهاية ذلك الترابط الانسانى المذهل ، بين الضباط والجنود ، وقدم لنا أثرى ملاحم التضحية .

عندما أصيب المقاتل رقيب رشدى صالح ، حمله قائده الضابط السحيمى ساعة ونصف ساعة حتى بلغت الوحدة قاعدتها .. ورفض القائد أن يحمل الجنود زميلهم الشهيد ، أصر أن يحمله فوق كتفه الى النهاية .

احدى الوحدات أصيب قائدها الاول لحظة هبوطهم خلف العدو ، ولسوء الحظ أصيب القائد الثانى أيضا ، فتولى أقدم الضباط قيادة الوحدة ، وفى ايقاع صارم

قاتل الرجال دون اضطراب أو تخبط ، قاتلوا بكل الثبات الارادى وهاجموا الاحتياطى الاسرائيلى التعبوى المدرع وهم يرعون فى الوقت نفسه قائديهما الاول والثانى .. وحققت هذه الوحدة البطلة أعلى درجات الاقتدار والاستطاعة ، والحاق الخسائربقوات العدو فوق أرض قتال تصادمى وكمائن سرية ، بلغت مساحتها قرابة مائة كيلومتر ..

ـ فى هذه المعركة وبين مقاتلى تلك الوحدة ، برزت نوعية الضباط الاصاغر فى قيادة رجالهم ، واظهروا من الكفاءة ما هو أشبه بالمعجزات .. كان معهم من الغذاء والماء ما يكفيهم يومين فقط ، واستمروا بهذا القدر من الاعاشة عشرة أيام ، حتى وصلت اليهم أول كمية من الامداد ، ليواصلوا القتال بعد ذلك ستة أيام أخرى .

التقيت بأحدهم ، المقاتل محمد ، قطعة حية من الصمود والامل والرجاء ، وكان بين عدد ليس بقليل من رفاق السلاح ضباطا وجنودا ، عاشوا التجربة الثرية طوال ١٦ يوما خالدة محفورة فى قتال الصاعقة .

ـ ونحن فى الطريق الى سيناء ، يوم ٦ اكتوبر العظيم داخل طائرات الهليكوبتر ـ فوجئنا بالصواريخ هوك تنهال على طائراتنا ، وما أبرع طيارينا فى مناوراتهم التىأنقذونا بها كما أنقذوا طائراتهم ، ناوروا ببراعة ليس أمام الصواريخ هوك فحسب ، بل امام الفانتوم والميراج التى حاولت حصارنا ونحن فى السماء ، وفشلت كل محاولاتها

وهبطت الهليكوبتر فى المنطقة المحددة ، واتجهنا الى منطقة المضيق بعد اصابة قائدنا ومساعده ، وقد وزع القائد مسئوليات القيادة على أربعة مقاتلين .

.. مجموعة بقيادتى ، ومجموعة ثانية بقيادة المقاتل معداوى ، ومجموعة ثالثة بقيادة المقاتل درويش ومجموعة

رابعة بقيادة المقاتل رفعت .

واستطعنا التجمع وتنظيم صفوف قواتننا ، وسيطرنا تماما فوق المضيق ، وانتخبنا من بيننا جماعة للاستطلاع ولم تظهر طوال يومين أى قوة مدرعة للعدو تحاول عبور المضيق لتفتح نيرانها على قواتنا الضارية الرئيسية بعد عبورها الى الشرق ، ومعنى ذلك استمرار تمركزنا فى سدر ، وكان الطعام قد فرغ منا ومثله المـاء ، والجو حار مشبع بالرطوبة ، فعشنا نتناول الاعشاب والثعابين وتركنا مناديلنا للندى مساء نعتصرها فى الصباح داخل أفواهنا لعلها تبلل جفاف حلوقنا ، حتى أكرمنـــا الله باكتشاف بئر هى بئر « أبو جراد » .

وفى السابعة صبـــاح احد الايام تقدمت مفرزة لواء مدرع للعدو ، واشتبكنا معها ودمرنا ١١ دبابة و٢ عربة مجنزرة وعربة جيب كان بها « القائد الاسرائيلى ابراهام مندلر » حيث أصابته قذيفة مباشرة ، وكان خارج عربته الجيب .. أطلقها المقاتل البطل ابراهيم ، بعد أن رصده منذ لحظة دخول مدى نيرانه .

وفى سرعة خارقة قام المقاتل ضياء بقيادة مجموعة من الرجال لتطويق العدو من الخلف ومنعه من الانسحاب ، وقد وجدوا عربة مجنزرة بها ١٢ فردا للعدو ، فجروها بالطلقات المضادة للدبابات .

ودارت معركة فى بطن الوادى واستشهد البطل رفعت وبجانبه الرقيب البطل صالح وتولى المقاتل سامى مكان رفعت ، وطهرنا الارض ، وحصلنا على وثائق عســكرية هامة تتصل بالهجوم الاسرائيلى المضاد .

اخذ رجالنا القناصة بعد ذلك أماكنهم وقنصوا قنصا حرا ، وقاتلت وحدات الهاون مؤخرة للعدو وأجنـاب لوائه المدرع ، والتحمنا بـ ١٥ دبابة دمرنا منهـا ثمانى

دبابات ، وفى اليوم التالى دمرنا ١٢ دبابة ، بعدها وخلال ١٢ يوما من القتال كان الاسرائيليون قد خسروا ٢٣ دبابة جديدة .

وحاول العدو أن ينتقم فربط بعض جنوده بالاحزمة الجلدية فوق طائرات الهليكوبتر يطلقون مدافعهم الرشاشة أملا فى اصطيادنا ثم القى قنابل النابالم نهاراً وليلا ، واخيرا لجأ الى الصواريخ جو ــ أرض ، غير ان استطاعتنا وتصميمنا وارادتنا جعلت باب المضيق مغلقا أمام اى وحدة مدرعة له حاولت العبور لتواجه قواتنا البرية والمدرعة .

وتوقفنا لنسعف الجرحى ، وننظم صفوفنا وقد أخذنا مواقع واتجاهات جديدة ، بعد أن انتقلنا الى قاعدة دوريات مجاورة ، وخرجت مجموعة بقيادة البطل الشهيد المهدى للاستطلاع غير انه اشتبك مع العدو ، قاتل هو ورجاله الاربعة خمس ساعات ، ضد ٤٨ مشاة ميكانيكى اسرائيلى .

وفى يوم ١٤ اكتوبر فوجئنا بالمقاتل أبو النجا ، وقد قدم من الضفة الغربية يقود بضعة جمال حملت لنا الغذاء والذخيرة والماء ، وكان معه ثلاثة مقاتلين من سلاح الحدود « السنوسى وفراج وصالح » ، فوق الخمسين من العمر ، واستطاعوا السير خمسة أيام ، قطعوا خلالها ٤٥ كيلومترا ، ليلا فقط ، ليصلوا الينا وينقذونا بالذخيرة والمياه ، فالطعام لا يعد مشكلة أمام مقاتل الصاعقة ، ثم عادوا الى الغرب بنفس الاسلوب مرة أخرى .

وقال لى المقاتل معداوى :

ــ أحلى ما حصلنا عليه من قافلة الامداد ، خطاب اشادة بقتالنا ارسله لنا العميد نبيل شكرى قائد قوات

الصاعقة ، وكان له فعل السحر في نفوسنا ومعنوياتنا ، ثم أرسل لنا خطابا ثانيا به بعض توجيهات القيادة قمنا على الفور بتنفيذها .

لقد جعلت هذه الخطابات اكثر جرحانا قادرين على التحرك والسير فوق أقدامهم ، بل وقاتل بعضهم حين وجدنا بعض الطيارين المصريين الذين قفزوا من طائراتهم بعد اصابتها ، ولحسن الحظ قفزوا في أرض تحت سيطرتنا وحافظنا على حياتهم بحياتنا ، حتى عادوا الى قواعدهم الجوية ، والى السماء مرة أخرى .

تحية لكم أيها العمالقة ، تحية لقتالكم الذى سيتوقف المرء عبر الاجيال القادمة امام اصالته ، ووقفة بالخشوع امام جسارتكم ، بكل الاكبار والتقدير سيظل شعبنا العربى شامخ الرأس موفور الكرامة بدمائكم ، بشهدائكم بقتالكم وانتم لا تستندون الى حائط ، واعتمادكم على ارادتكم الحديدية التي صممت على النصر واسترخصتم الروح من أجله ، فحققتم لنا اشرف وأغلى النصر .

معركة غريب وشنودة

وواجهت مجموعة من مقاتلى الصاعقة بقيادة «المقاتل غريب احمد » وحدات اسرائيلية مدرعة ميكانيكيــة ، اتجاه الشط شرق القناة ، فى هجوم مكثف مضــاد . واشتبك رجالنا مع الدبابات الاسرائيليــة وهى تحاول احتلال مصاطبها ، وفرغت ذخيرة البطل غريب ، فاعتلى اول دبابة . وحين فتح برجها اصيب فى ظهره . لـكنه استطاع القاء قنابله اليــدوية داخلها . فى تلك اللحظة كان « البطل شنودة » فاتحا رشاشــه حاصدا لجنود العدو وقد قفز الى قائده ليحمله بعيــدا عن منطقــة القتل . واستشهد البطلان وكل منهما يحتضن الأخر.

وتوقف زحف دبابات العدو على الفور خلف الدبابة المدمرة بعد أن سدت الطريق . لتتلقى عشرات الطلقــات الصاروخية من مقاتلى الصاعقة قناصى الدبابات .

واستمرت المعركة ، وتصاعد ايقاع الرجال ..

كانت قوات الصاعقة هى « الشرارة » عمليا فى الخطة بدر يوم ٦ اكتوبر عام ١٩٧٣ ، فقد كلفت وحداتها بأولى المهام القتالية داخل عمق سيناء . قبــل عبور قواتنــا الرئيسية المشاة والمدرعة ، قناة السويس .

ولذلك عبرت وحدات انتحارية من الصاعقة مع آخر ضوء يوم ٥ اكتوبر ، الى خلف حصون بارليف ، وانتشرت بين نطاق دفاعات قوات العدو التكنيكية ، وقامت بأخطر

المهام قبل ان تفتح نيرانها وتقاتل معاركها الضارية ، أشرف صفحات الفخار فى سجل قواتنا المسلحة .

قال لى المقاتل غنيم ، احد العقول العسكرية الشابة التى اشتركت فى التخطيط لمهام الصاعقة :

كان لخطتنا عدة أهداف أبرزها وأهمها :

١ ـ الاشتباك مع العدو بالانقضاض عليه فى عمليات هجومية مباغتة متعددة بحيث تجعله غير قادر على صد هجوم قواتنا الرئيسية بكل قواه ، وحتى تصبح مفارز العبور المصرية المتقدمة مالكة الحرية والحركة التى تجعلها قادرة على تدعيم رءوس الكبارى والتمسك بها أمام مداخل سيناء .

٢ ـ جذب قوات العدو اتجاه جنوب سيناء ، وهو محور ثانوى بالنسبة لهجومنا الشامل ، وهجوم وحدات الصاعقة على هذا القطاع يدفع اكبر حجم من القوات الاسرائيلية المدرعة للتحول الى الجنوب ، وبالتالى لاتواجه قواتنا الضارية فى الشمال قوات عدوة مكثفة .

وأخذت الصاعقة واجباتها وقد انتشر مقاتلوها من الطور جنوبا حتى بور سعيد شمالا ، ومن الضفة الشرقية للقناة حتى عمق العدو تكتيكيا وتعبويا بمختلف الوسائل .. ابرار من الجو ومن البحر بالزوارق ، وبعض الوحدات قطعت مسافات طويلة سيرا على الاقدام بلغت ٤٠ كيلومترا فى الذهاب فقط ، أما العودة فكانت أطول مسافة لانهم يسلكون طرقا غير مباشرة لتأمين الرجال من احتمال مواجهة كمائن عدوة تنصب لهم .

ومع بداية تحرك القوات العدوة الرئيسية من العمق لنجدة الضفة الشرقية للقناة فوجئت هذه القوات بكمائن متعددة من مقاتلى الصاعقة على المحاور الرئيسية فى سيناء تمنعهم من الوصول الى القناة ، مما قدم فرصة

ضخمة لقواتنا البرية كى تحارب مراحلها الاولى بحرية ، ولذلك كانت هجمات العدو المضادة عبر تلك المراحل مستنزفة ، اذ وصلت قواته الى القناه بعد اشتباكات كثيرة على طول الطريق مع كمائن الصاعقة ، وفشلت بالضرورة عبر الساعات الاولى تلك الهجمات الاسرائيلية المضادة بهدف تدعيم وحماية حصون بارليف من التدمير والسقوط .

وفى اتجاه جنوب سيناء من ٦ حتى ١٣ اكتوبر عام ١٩٧٣ ، فوجىء العدو بظهور مجموعات الصاعقة بين جبال سيناء فى مناطق الطور وابار شراتيب للبترول ، ومنشآت البترول فى أبو رديس ،.ومناطق التعدين فى ابى زنيمة ، وراس ملعب ، ووادى غرنول وهو مضيق يمر بالطريق .

زيادة وصقال

والتحمت الصاعقة بقيادة المقاتل كمال مع عناصر النحال الاسرائيلية بجنوب سيناء ، واضطر العدو لدفع لواء مدرع للقضاء على موجات الصاعقة المتتالية ثم بلواء ميكانيكى وعناصر مظلات لتأمين أهدافه ، وماكان أحوجه الى هذه القوات لتقاتل قواتنا الرئيسية الضاربة فى اتجاه الشمال .

وقاتل فى هذه المعارك التى انتهت بغلق جميع مسالك جنوب سيناء أمام القوات الاسرائيلية « البطل زيادة » بعد أن دمر اتوبيسا كان يضم اكثر من ٦٠ فردا للعدو بين طيارين وقادة دبابات كانوا فى طريقهم الى قاعدتهم ، واستشهد أيضا « البطل صقال » وقد أحرق دبابتين سنتوريون ، وكان خارجا لتوه من معركة أخرى دمر فيها عربتين مدرعتين بأفرادها .

وفى معارك الصاعقة خلف حصون بارليف شمال وجنوب القنطرة ، ومواقع العدو فى الكيلو متر ١٩ بجانبها ، سطر الرجال أخلد وأبرز المعارك الجسورة الضارية حتى ارتفع العلم المصرى عاليا فوق القنطرة ، ونادى « المقاتل زين » معتليا مئذنة مسجد المدينة .. الله اكبر .. تحيا مصر .

لقد أسر رجالنا ١٧ فردا اسرائيليا خلال اللحظات الاولى لمعركة القنطرة شرق ، وكانت وحدات الصاعقة بقيادة « المقاتل هيكل » تهاجم حصون ومواقع مدفعية العدو ومدرعاته وهى تحاول يائسة استرداد مداخل المدينة ، وتشن الهجمات المضادة ضد رجالنا ، لتقوم الطائرات الاسرائيلية بعد مدرعاتها بقصف المدينة شرقا وغربا ، وأبطالنا العمالقة يؤدون أولى مهامهم بكل اليقظة والمهارة والثقة المدفوعة بالايمان .. وقبل ان يأتى مساء ٦ اكتوبر ، أسر المقاتل « على » طيارا أسرائيليا انفجرت طائرته ، وقفز بالمظلة بين رجال الصاعقة بينما انفجرت ثلاث طائرات اسرائيلية أخرى بطياريها قبل أن تسقط فوق الارض .

وفى وسط الملاحات خلف الموقع الاسرائيلى بالكيلومتر ١٩ ، عند الكاب شرق بعد القنطرة فى اتجاه بورسعيد تقدم العدو بأربع دبابات لتدعيم الموقع اثناء مهاجمته ، ودمر قناصو الدبابات من جنود الصاعقة ثلاث دبابات وبقيت الرابعة تفتح رشاشاتها وتطلق قذائفها على المنطقة التى يتجمع فيها رجالنا ، وعلى الفور قام أحد ضباط الصف بالزحف نحو الدبابة ، تصرف شخصى تلقائى ، ثم ركبها ، وفتح برجها ورشاشه فى يده ، اجبر طاقم الدبابة الاسرائيلية على التسليم أحياء ، والدبابة ما زالت سليمة حتى اليوم فى أيدينا ، بمدخل بور سعيد .

قبل الساعة صفر

يقول المقاتل « عبد الرازق » قائد مجموعات الصاعقة التى قاتلت معركة القنطرة شرق :

ــ قبل العبور بساعتين جاء العدو ببرج مراقبة متحرك على عربة مدرعة امام الليدو شرق ليكشف نشاط قواتنا .. فى تلك اللحظات كانت الضفة الغربية تضم الاف الرجال من المقاتلين الذين سيحملون شرف اولى موجات عبور القناة فى وضح النهار خلف الساتر الترابى الغربى ، يصارعون الزمن من اجل تمام عمليات التجهيز لمعدات العبوروالاسلحة والذخائر ، وعلى الفور انتشر القادة الاصاغر بين رجالهم وأخذوا يقذفون بالقوارب اسفل الساتر ويغطونها بفروع الاشجار ، بينما خرجت مجموعات أخرى من المقاتلين الى الترعة الموازية للقناة يسبحون ويمرحون ، والبعض يتوضأ ويصلى ، وآخرون يمصون أعواد القصب ، وضابط يلعب الكرة أعلى الساتر مع جنوده ، وهبط رجال العدو من برج المراقبة الحديدى المتحرك ، وانصرفوا من حيث أتوا ، وبعد وقت قصير رأينا قاذفاتنا الميج ١٧ تعبر القناة لتبدأ مرحلة التمهيد بالهجوم الجوى ، وتقوم بضربة السيطرة الجوية وعلى الفور اندفع أول قواربنا الى المياه يحملنى ومعى بعض جنودى من الصاعقة وكان الجنود يجدفون بالكوريك المخصص للحفر لكى تشق القوارب صفحة الماء بسرعة اكبر ، ولقد فتح العدو عندما شعر بموجات العبور الاولى نيران مدفعيته علينا ، فازداد الرجال قوة وبأسا وتعالت صيحات « الله اكبر » لحظة وصول أول موجة بشرية الى الضفة الشرقية ، وبدا القتال كالجحيم وقد فتح أبوابه ، ودفعات الرشاشات تختلط بانفجار القنابل وهدير جنازير دبابات العدو ، ٨ دبابات أخذت تتقدم

صوبنا فدمر المقاتل « رزق » اولى هـذه الدبابات حين توسطت مدى التنشين أمامه ، وخرج منهـا الطاقم فحصدهم المقـاتل اسماعيل ، وفى الوقت نفسـه كان المقاتلون « محمود ، وشوقى ، ومحمد » يدمرون بقيـة الدبابات ويقتلون أفراد العدو من راكبى العربات المدرعة وبعضهم تركها وحاول الفرار عدوا ، واندفعنا الى طريق الهناجر خلف المدينة ، وبعضنا أخـذ يعمـل فى اقامة تجهيزات مواقع قتال لنا نواجه منها هجوم العدو المضاد المحسوب فى خطة الاحتمالات وكنا نتوقع هجوما واسعا مضادا للدبابات مدعما بطائرات الفانتوم ، بينما بقيـة الرجال يقاتلون بعض الدبابات المعادية التى ظهرت سريعا لتحاول الالتفاف حولنا وتطويقنا بالنيران ..

وجاءت طائرات العدو فى السـاعة الرابعة والنصف ظهرا وتعامل معها أبطال الدفاع الجوى بالصواريخ أرض ـ جو ، وكان لتساقط الفانتوم وسكاى هوك .. أمامنا فعل السحر فى نفوسنا ، وشعرنا بقرب النصر ، وانشحن الجميع بالثقة والقوة ، وكل موجة من طائرات العـدو تظهر فوقنا او فوق الضفة الغربية فى تشـكيل رباعى تسقط منها طائرتان أو تسقط كلها ، وقبل ان ينزل الليل كانت قوات المشاة بقيادة اللواء فؤاد عزيز غالى قد عبرت القناة لتقاتل معاركها الواسعة ، ويصعد الرجال فوق الدشم الحصينة فوق السلالم المصنوعة من الحبال المثبتة فى أوتاد حديدية لتساعد المشـاة بأسلحتهم على تسلق الساتر الترابى المرتفع الى ٣٠ مترا فى بعض النقط

واندفع المشاة فى احتلال مواقعهم عندما هبط الظلام استعدادا لمعارك أكثر ضراوة مع ظهور أول ضوء ، فمن المتوقع ان يحاول العدو بالطيران والمدفـعية والمدرعات استعادة المدينة .

كان بعض رجالنا من الصاعقة مصابين فى أذرعتهم وسيقانهم وقد رفضوا جميعا مبدأ الاخلاء ، واستمروا فى مواقعهم المتقدمة بعد ان اسهموا فى تدمير احتياطى العدو ومنعه من اختراق مدينة القنطرة ، وسيطروا على بعض مواقعه الحصينة وفجروها بالديناميت شديد الانفجار ، وأمامها أقمنا مقابر شهداء هذه المعارك الباسلة من الصاعقة والمشاة .

صباح ٧ اكتوبر

وقبل صباح يوم ٧ اكتوبر ظهرت قواتنا المدرعة تعبر القناة فوق كبارى العبور التى اقامها المهندسون ـ والمشاة تحرر النقط الاخرى من دشم وحصون بارليف بشهدائها وكانت جثث أفراد العدو تتساقط بين رجالنا وهم يطهرون مبنى مبنى ، والتفت احدنا وصرخ « العلم المصرى ارتفع فوق دشم العدو » .. ونزلت الدموع من عيوننا ، وانحنى البعض يقبل الارض ويبتلع رمالها ، واحسسنا بسيطرتنا على الموقف ، وبدأت عمليات القنص الحر لجنود العدو .

وتحركت وحداتنا فى مجموعات مختلفة الى عمق القنطرة ، ورجالنا يحفرون ويجهزون المواقع الجديدة فى كل منطقة نسيطر عليها لكى تستعملها دباباتنا بعد ذلك وحين صافحت اذاننا جنازير الدبابات المصرية تعالت الهتافات تملأ السماء والارض « الله اكبر » واندفع رجالنا لتأمين جوانب المدينة وفى كل متر نحرره يسقط لنا شهداء أعزاء ، كان العدو يختفى داخل المسجد ، وانقاض المبانى ، والبيوت المتهدمة ، وخلف الاشجار ، وفى عزبة الصفيح قبل ان تصل اليها نجدات اسرائيلية مدرعة من الكاب شرق ونتعامل معها بكل السيطرة

والاقتدار ، فى معركة مستمرة طوال النهار ، وبين ايدينا أسرى أحيــاء ، سرعان ما يتم نقلهم بواسطة أبطالنا من الصاعقة أيضا الى الضفة الغربية ، فالقاهرة .

المقاتل « شفيق » أسر وحده طاقم دبابة أحياء ، المقاتل جاب الله ، عاد بخمسة اسرائيلين جرحى ، وحــين جاء المساء كانت مجموعة الصاعقة فى جنوب القنطرة قد التفت حول المدينة وهاجمت المواقع الاسرائيلية المدعمة بالمدفعية وتقاتل فى دشمه العدو الحصينة رقم ٣ ولم تكن قد سقطت بعد ، ووحدة أخرى تقاتل فى الدشمة رقم ٤ والمشاة تندفع فى قتـــال مرير أمام الساتر الترابى الشرقى وخلفـــه لتدمير النقطتين الباقيتين ومدفعيتنا الثقيلة فى الغــرب تشتبك مع مدفعية العـــــدو فى عمق سيناء وطـائراتنا لا تتوقف عن قصف مسرح قواته الاحتياطية ومطـــاراته ومناطق قيادته ومراكز سيطرته الالكترونية على قــواته بأكملها .

كان القتال لتحرير مسجد القنطرة مستمرا ، وقـــد استطاع المقاتل جاب الله اخراج أفراد العدو أحياء من داخله فى أشد حالات الهلع والفزع وبعضهم يبكى رعبا ، وازدحمت شوارع القنطرة بجثث الاسرائيليين ، وأصوات الانفجارات تملأ شرق شمال سيناء وغرب القناة ، ذلك أن القتال بمختلف الاسلحة لم يهدأ لحظـــــة واحدة ، ومدفعية العدو الثقيلة تكثف نيرانها على المدينة فى محاولة لتدميرنا والحيلولة بين وحداتنا وبين التقدم عمقا وفى كل ساعة يرتفع عـــدد الاسرى لدينا وأطباؤنا يعالجون الجرحى ويقومون بالعمليات الجــراحية وسط ساحة القتال ، والقنص الحر ضد أفراد العـدو فى كل مبنى بالمدينة ، والدبابات الاسرائيلية المحترقة تكومت بجانب بعضها أشبه بمقبرة فوق الارض للدبابات والمشاة والمدرعات

المصرية تنتشر وتتمركز فى أنحـــاء المسرح ، وقبل أن تنتصف ليلة ٨ أكتوبر قبل الثانية عشرة مساء كانت القوات الضاربة والصاعقة قد ســـيطرت على المدينة تماما ، واندفع المقاتل زين العابدين وسط طلقـــات الاضاءة يطلقها رجاله الى مئذنة مسجد القنطرة مؤذنا بأعلى صوته « الله أكبر الله أكبر .. تحررت القنطرة شرق .. تحيا مصر . تحيا مصر .. »

وجلسنا نتنفس عبير النصر ، وامتـــدت أيدينا الى الاشجار حولنا ، وأكلنا البرتقـــال الاخضر وكان مذاقه كالعسل فى أفواهنا .

مجموعة زيتون وبسيونى

وعلى الطريق الاوسط لسيناء والمحور الساحلى قاتل رجال الصاعقة بقيادة المقاتل زيتون لواء مدرعا للعدو ، ودمروه تماما فى جنوب رمانة ، وحصد رجال المقاتل حمدى عشرات من جنود دبابات العدو وهم يستعدون لقيادتها .

لقد فقد المقاتل « زيتون » ذراعه فى احدى المعـارك السابقة واشترك فى معارك ١٩٧٣ بذراع واحدة طـوال يومى ٦ و ٧ أكتوبر ١٩٧٣ ، وأحرق مع رجاله ١٨ دبابة فى صدام واحد وضربة واحدة بارعة .

وفى معركة أخرى جنوب شرق سيناء ، دمر رجال المقاتل بسيونى مرابض مدفعية العدو على ممر الجدى ومحطات الاعاقة والشوشرة الالكترونية فى اتجاه جبل المر ، وقطعوا خطوط مواصلاته لمدة ٦ أيام أمام قـوات الجيش الثالث البطل ، واشتبكت وحدات بسيونى مع احتياطى العدو الذى حاول أن يشن هجوما مضادا على قوات رأس الكوبرى للجيش الثالث ، ودارت معارك

ضارية بين مقاتلي الصاعقة ووحدات مدفعية العـــدو الهــاوتزر المحمولة على شـــاسيهات دباباته ومدرعاته ومشاته الميكانيكية ، وقاتل رجالنا أجسر القتال وتساقطت الدانات والنيران كالامطــار فوق ابطـــالنا ، وأفــراد العدو يستسلمون طلبا للنجاة ويصرخون فى رعب بعربية ركيكة « الله أكبر يا مصريين الله أكبر » ..

قال لى المقاتل بسيونى « حين فرغت ذخيرة « البطل غريب » وهو يواجه دبابات العـــدو ، صعد الى الدبابة المتقدمة وفتح برجها وألقى بقنابله داخلها .. لحظتهـــا أصيب بدفعة رشاش فى ظهره ، ورآه « المقاتل شنودة » فأسرع اليه وحمله فوق كتفه محاولا الابتعاد به عن منطقة القتل ، وفتح « شنودة » رشاشه على أفراد العدو من المشاة الميكانيكية ، وكانت معركة بطولية انتحارية جريئة مثيرة .. شنودة يقاتل حاملا قائده غريب جريحا حتى استشهدا معا وتوقفت دبابات العـــدو خلف الدبابات المحترقة وقد سدت الطريق ـ ليتعامل معها بقية مقـــاتلى السرية المصرية وترد العدو على أعقابه وتلحق به أكبر الخسائر وتسيطر على أرض المعركة ، وتتحرر منطقـــة الشط ـ شرق » .

مقدمة النصر

لقد قاتلوا وحافظوا على توقيتات معاركهم ، والتقــدم اقتحاما الى ما بعد الممرات فى الساعة المحـــددة فـــوق خطط العمليات ، وكان أكثرهم حريصا على اختصـــار بعض الوقت من ٢٥ دقيقة الى ٣٥ دقيقة .. اختصروها من المدة الزمنية المخصصة لهجومهم ، وما فقـــــدوا أبدا عامل السيطرة طوال القتال والانقضاض الكاسح على العدو ، محررين أرضهم ، فاتحين نيرانهم ...

من عمق الضفة الغربية حتى الممرات

معركة الهجوم الشامل ـ الاسبوع الثانى من الحرب ..

« الاسبوع الثاني من الحرب .. »

من جنوب شرق سيناء ، أبعث بهذه الرسالة ...

ان المعارك التصادمية فوق جبهة سيناء أصبحت أكثر اتساعا واستخداما لمعدلات أكبر من النيران ...

ان القتال الان أشد ضراوة برا وجوا وبحرا ـ لا دقيقة واحدة يتوقف خلالها اطلاق القذائف الصاروخية من قواتنا أو القوات العدوة .

ان المعركة بالنسبة لاسرائيل ـ معركة نهاية أو بقاء ، ولذلك هى تضع فيها أقصى ما تمدها به أمريكا من سلاح .

أن قواتنا تستعد لهجوم أشمل وأكبر ، وهو الهجوم لاحباط الهجوم المضاد .

أن القتال يتصاعد ... كما يرتفع ايقاع هجومنا فى معارك صلدة .. هى أشرف معارك العسكرية المصرية على الاطلاق .



كان يفضي بأسرار كثيرة الي المقاتلين ..

أسرار كثيرة وخطيرة تتعلق بالقتال ـ ولم يخرج سر واحد منها الى العلانية على الاطلاق .

ذلك لان ثقته فى آلاف الجنود والضباط الذين كان

يطرح أمامهم رؤيته للمعركة ، ويفتح النيران على العدو الاسرائيلى .. ثقته فيهم كانت تطاول السماء .

وارتفع الرجال جميعا الى مستوى المهمة الوطنية المطروحة أمامهم ، ولم يردد مقاتل واحد مرة ثانية ، ما ذكره القائد الاعلى للقوات المسلحة فى لقاءاته بهم من تفاصيل أو معلومات .

انها احدى خصال الاصالة المصرية ـ والمفرزة البشرية لمناخ قواعدنا العسكرية ـ مناخ التماسك والاقتدار على تجاوز الضعف البشرى ، الى أقصى الصلابة والالتزام ، من أجل الهدف الاسمى .. هدف المعركة وتحقيق النصر .

كانت ثقتهم فى نتائج قتالهم كالثقة فى تجدد الليل والنهار ـ ثقة ـ هى المحصول الطبيعى لبرامج التدريب بالذخيرة الحية التى قطعتها قواتنا طوال السنوات الماضية .

ولكن لماذا الحديث عن « التدريب » بينما القتال مشتعل بين قواتنا وقوات العدو ؟!

ـ الاجابة ببساطة تقول ـ بأن القيادة العليا للقوات المسلحة ـ حين حشدت وحدات الموجة الاولى من الهجوم للرد على عدوان العدو فى البحر الاحمر كان أكثر هذه الوحدات حتى صباح يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ لا يعلم بساعة الصفر .. كانوا سيقومون بأحد مشروعات التدريب الكبرى ـ ولان التدريب يتم بالذخيرة الحية ـ وفى مسرح قتال لا يختلف اطلاقا عن المعركة الحقيقية اذا نشبت ـ بل وفى الخطوط المتقدمة ـ فقد صدرت اليهم التعليمات بتنفيذ أبرز المهام الوطنية التاريخية .. قبل ساعات قليلة من الواحدة والنصف ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ـ اليوم الخالد فى صفحات العسكرية المصرية .

خطة محكمة السرية ، ذات تفاصيل ثرية بالتفوق فى نضج العقل العسكرى المصرى ـ ورؤيته الاعمق التى تجاوزت بمراحل طويلة ذكاء وقدرات القيادات العسكرية الاسرائيلية .

كانت هناك عملة ذات وجه واحد هى التى تعامل بها رجالنا ، مع العدو ، وواجب واحد متعدد الوجوه ، استوعبه الجميع قبل أن تصدر اليهم اشارة التحرك ، ولذلك لم يصدر قرار فرعى بعيد عن الواقع أو الامكانيات التى نملكها أو الارضية التى نقف فوقها أو الخلفية التى تعزز استعدادنا القتالى .. وبالتالى لا خطوة تطيش فى غير الاتجاه الصائب .

بعد ٧٢ ساعة

ان المفاجأة التكتيكية للعدو ممكنة على الدوام ، بالتنبؤ بعوامل التأثير فى المعركة وتصعيدها ـ وبذلك يستطيع القائد توجيه القتال حيث الوجهة التى يريدها .

ولقد امتلك قادتنا بعد أن بدأ العدو هجومه الغادر ، وأداروا من خلال مركز السيطرة والقوة فتح النيران على قوات العدو ، ووجهوا الضربات التى أخلت بتوازن قوات اسرائيل الضارية ـ وجعلتها تترنح طوال ٧٢ ساعة قبل أن تدفعها الى الانسحاب .

ان القتال فى جبهة سيناء ليس نزهة تقوم بها قواتنا ، انها تحرر الارض مترا مترا بشهدائها ، بكفاءة قتالها والعدو يدفع كل امكانياته وهى امكانيات أمريكا فى الواقع ـ لوقف اختراق قواتنا فى عمق مواقعه ووحداته المدرعة .

انى أكتب من القطاع الجنوبى فى شرق سيناء ، حيث كان لى شرف مرافقة وحدة مدرعة من قواتنا ـ ان ظروفا

جديدة نشأت هنا فى مسرح المعركة جعلت القتال يتصاعد ليملأ كل دقيقة من الوقت ـ القتال فى الجو بالطيران ، وفوق الصحراء بالمدرعات والمدفعية والمشاة الميكانيكية .

ان نوعية معارك الايام الاولى من الاسبوع الثانى للقتال تمثل مرحلة ذات اهمية محسوبة فى حرب الصحراء المكشوفة ولذلك كان من المهم جدا أن تملك وحداتنا الضاربة دوام امكانيات تحريك ذراعها داخل سيناء ، رغم كثافة طيران العدو فوقها ـ دوام الاحتفاظ بعناصر المبادأة فى عمليات تحركنا الهجومى ولمسافات طويلة ، وتحت ظروف بالغة الضراوة .. ولكن ليست كل هذه العوامل حدثا طارئا أمام قواتنا .. انها محسوبة كعمل مادى فوق موائد غرف العمليات والقيادات العسكرية المصرية ، ان قواتنا تقاتل بايمان قوى وفن عسكرى مقتدر ، وتتابع موجات هجومها عبورا واختراقا فى كفاءة ديناميكية راقية ـ وأكثر الرجال هنا حاربوا العدو خلال ٦٩/٧٠ ـ ويعرفون طبيعة أرضهم فى سيناء ، حتى المناطق التى لم تحرر بعد ـ خبروها من قبل ، ركبوا مواقعها الاسرائيلية ، وتوغلوا داخل عمقها ، وقاتلوا فوقها ، ورفعوا العلم المصرى عدة مرات فوق الدشم الهندسية الحصينة العدوة بعد تحويلها الى تراب .. ولكن حجم النيران اليوم يختلف عن نيران الامس ومعاركه المحدودة .

ان جنودنا يتحولون الى بحر من المشاعر الفياضة ، بأرقى الدوافع الملتهبة ، بخزين من العواطف نحو سيناء .. وهم يطهرون موقعا لينتقلوا الى آخر ، تحت قصف طيران العدو ومدفعيته ذات المدى البعيد .. رأيت جنودنا وهم يقبلون الرمال مبللة بدموعهم كأنهم عثروا على انسان غال فقدوه ، بعد لهاث من البحث والقلق والالم ،

مثل اب أخرجوه عنوة من بيته ، فرقـــوا بينه وبين أطفاله ، ثم التقى بهم بعد طول عذاب ، وكانت حبـات رمال سيناء المزوجة بالدموع والدم هى الابناء والامل والمستقبل ..

رأيت شعور الاب الذى خرج مقهورا من أرضـه ، من بيته ، ثم عاد اليه بقوة السلاح ، فى عيون كل مقاتل عبر القناة ، فى ملامحهم الشــــابة ، فى دورانهم حول دشم العدو الاشبه بالقلاع ورءوسهم تسابق سيقانهم ، فى التزاحم على رفع العلم المصرى فوق أعلى مكان بالموقع المطهر ، فى مد الاسلاك التليفونية بين قياداتهم بالضفة الغربية ومواقعهم فى سينا ، فى أعمـــــالهم الهجـومية الاستثنائية المجيدة ، تلك التى نصفها باختصار شـديد فنطلق عليها « الاعمال الانتحارية » .

الهجوم المضاد

لم يعد فتح النيران بالدرجة الاولى من الاهمية فى الموقف العسكرى خلال هذه الايام ، انما المهم الان هــو الحفاظ على فعالية النيران طوال مراحل التقدم والالتفاف وتطويق العدو ..

ان العسكريين يقولون « ســـوف يوجد دائما سباق عنيف عبر القتال بين القدرة على الاختراق وقدرة الطرف الاخر على وقفه وتجميده .. »

انها مسئوليات القتال .. التى توفر لموجات الهجوم خفة الحــــركة ، والربط بين عوامل السرعة والوقت والمسافة ..

لقد نجح هجومنا ، وبات الواجب الان هــو الهجوم لاحباط الهجوم المضاد ، وستقع معارك تصادمية أشـد عنفا من معارك الاسبوع الاول ، بين الاقتحام للاختراق

ومحاولة ايقافه .

ان المعارك التصادمية هي الاحداث الاساسية فى القتال ولهـا سمة الاعمال الحربية العصرية ، وفتحهـا تطلب أقصى امكانيات المبادرة واستقلال القيادات ـ أى تطبيق لا مركزية القيادة ، حيث يعمل قائد التشكيل القتالى بتصرف مطلق ، بناء على طبيعة المعركة التى يواجههـا والمعلومات المتوفرة لديه .

وفى المعارك التصادمية خلال الاسبوع الماضى اشترك الطيران الى جانب قواتنا المشاة الميكانيكية ، ووحدات الدبابات والمدفعية القادرة على المناورة المقتدرة فى أرض المعركة ، ولقد رأيت بعينى كيف فرضت وحداتنا ارادتها على العدو بأسلوب قتالى فاق ابتكارات وخفـة حركة القوات المدرعة الاسرائيلية ، رغم حجمها الكبير ، وحجم نيرانها وقوة طيرانها المساند .

تلك هى خصال المقاتل المصرى النابعة عن ايمانه بشرعية قتاله .

ان ضراوة النيران فى المعركة التصادمية هى التحصيل الطبيعى لما حدث من تغيير جذرى فى الاسلحة الصاروخية الكبيرة المدى والتأثير التدميرى مما أتاح للقوات استخدام معدلات كبيرة من النيران داخل سيناء ، واتساعا على الجبهة ، وبالتالى أصبح متعذرا حصر المعركة فى مساحات أو أيام محدودة .

الحديث مع بعض القادة هنا يملأ الروح ثقة وأملا ، والحشد واسع للطـاقات تقع عليه العين أينما وليت الرؤيا ، وأولويات تطل برأسها لما بعد عمليات التطهير ، وحسابات تتجدد باستمرار وكل لحظـة ، تفرض انجازات تكنولوجية وبشرية لا تتوقف ، لا تراخى لثانية من الوقت . ان المتابعة لامكانيات العدو مستمرة والى

أقصى حد مستطاع ــ عمل بالغ الاهمية والخطورة يقوم به رجال الاستطلاع لاستقصاء ظهر وباطن الارض التى تسيطر عليها القوات الاسرائيلية .

ان القادة الابطال يحرصون على توجيه النقــــد المستمر لنشاطهم القتالى فى الميدان ــ ان هذا النقــد ينتقل الى أكبر المستويات القيادية ، فيمثل حجر الزاوية الايجابية فى معركتنا ، بل يمثل أشرف المنافسة الذكية الناضجة فى ادارة النيران بين مختلف وحداتنا الهاجمة .

ان مواجهة الثغرات والعقبات وتحليل أسبابها سريعا، وتكشف عواملهــا لتجـاوزها هى القضية التى تفجـر الطاقات الخلاقة الكامنة فى أرواح رجالنـــا وتمنحهم الابتكارات الدقيقة فى القتال الكاسح المفــاجىء السريع داخل قلب مواقع العدو وعمقه ، فتجعــله يتخبط فى محاولات الدفاع والهجوم المضاد .

الاسلحة المشتركة

ان المعـــركة التى تدور الان من أجل تحرير سيناء هى معركة الاسلحة المشتركة ــ لقد أدت المدفعية دورها البارز فى البداية ولا زالت تؤديه حتى هذه اللحظة .

ان فعالية هجوم المدفعية لا تتوقف على عدد المدافع فحسب بل على فتح النيران المركزة الدقيقة ضـــد العمق التكتيكى لدفاعات العدو ــ ستائر النيران الزاحفــة التى تقذف بها مدفعيتنا ثم تحريك هذه الستائر بوثبات عالية داخل سيناء ، مهدت الطريق أمام الوحدات البرية فى تحركها الهجومى وفى معاركها التصادمية ، بل ومن قبل مهدت لعبور قواتنا مياه القناة ، بالاشتراك مع سلاحنا الجوى .. لتركب القوات الخاصة ، مواقع خط بارليف

الحصينة الاشبه بالقلاع ويقوموا بانقضاضهم المفاجىء الكاسح السريع القتال بالرشاشات وبالسلاح الابيض .

وفى نفس الوقت كانت قوات الموجة الاولى من الهجوم تعبر المياه تقدما الى الارض الاسيرة بينما القوات الخاصة خلفها تقوم بالهجوم على قوات العدو المتمركزة مع أحدث الاسلحة الصاروخية فى دشم بارليف ـ معركة من أشرف معاركنا قامت بها الوحدات الخاصة ـ وقدم الرجال خلالها أغلى التضحيات لكى يتم عبور قوات المشاة الميكانيكية والمدرعات والمدفعية الى سيناء ـ وتفتح نيرانها من البر ـ بينما قواتنا البحرية فى البحر شمالا ، امام الشاطىء الشرقى لخليج السويس ، تقوم بهجماتها المؤثرة على مراكز تجمعات القوات الاسرائيلية فى بالوظة وراس سدر وتدخل فى عدة معارك فرعية مع بحرية العدو ـ ويحقق البحريون المصريون كما حققوا من قبل فى معارك لم يكشف عنها الستار حتى اليوم « كنا فى الأسبوع الثانى من الحرب » اقتدارا وتفوقا وهجوما حاسما ـ على أمتن حواجز وموانع قوات اسرائيل .

وتشتعل سيناء بالنيران ، وبروح تعانق الحياة وبارادة تستوعب كل ما حولها ، وبعطاء النفس المصرية العريقة المتأصلة صلابة ونضالا يقيم المهندسون العسكريون الجسور والمعابر بين الضفتين الغربية والشرقية ـ وتتدفق الموجات التالية للهجوم ويتحول الميدان الى أتون مستعر ، ورجالنا يقاتلون كهدير بشرى صاخب مقتدر خلاق ، وتتدعم واجبات التعزيز ، وتصبح قوات اسرائيل التى لا تقهر ـ عديمة الجدوى ـ وتتحول مواقعهم القتالية الحصينة الى أرض مفتوحة أمام قواتنا ..

ويرتفع ايقاع الهجوم ..

المقاتل المترجل في الصحراء العارية

تحولت الرمال الصفراء الى سوداء .. والتفت صحراء سيناء فى ستائر ضخمة من الدخان الاسود .. وهدير جنازير الدبابات وانفجارات القنابل يصم الاذان ، وتساقطت النيران أشبه بكتل ضخمة متكورة مشتعلة من الصلب ، تلقيها الطائرات أو ترسلها دانات الدبابات والمدفعيات الصاروخية ، وتصلبت أجساد الرجال كأنهم ولدوا تلك اللحظة ، ولتلك اللحظة فقط ، وامتزجت رائحة الدخان والدم برائحة البارود وشحومات المعدات الجديدة التى جاء بها العدو سريعا كنجدة ، لتحترق تحت قصف مكثف من المشاة المصريين .. أولئكم العمالقة الذين وصفتهم الصحافة العالمية « باللحم فى مواجهة الصلب » أبلغ وأصدق تعبير كتبته أقلام الغرب خلال الايام الاولى من حرب رمضان الماجدة ، مقاتل المشاة المترجل بسلاحه الصغير فى مواجهة دبابات حديثة صنع أمريكا ، وينتصر الجندى المشاة وتحترق الدبابات العدوة ، ويقفز أفرادها من الاحياء ليصرخوا بعربية ركيكة « فى عرضك يا مصرى » !!

بدأت معارك قوات المشاة المصرية ضد الدبابات الاسرائيلية ـ منذ لحظات الالتحام الاولى فوق الضفة الشرقية وقواتنا تهاجم حصون بارليف بينما وحدات اخرى تقوم بتلغيم مصاطب الدبابات المعدة بها ، وتشتبك المشاة مع المدرعات الاسرائيلية التى قدمت بأعداد كبيرة

لمواجهة هجومنا وكسره ، ورد القوات المصرية الى الغرب ولم تكن قيادتها العدوة تتوقع هجوم المشاه المصريين ضد دباباتها بهذا القدر من السيطرة وامكانيات التدريب والاقتدار الهجومى .

وللحقيقة كان هجوما مكثفا ضخما لتدمير نجدات العدو من المدرعات ، والاحتياطى المحلى الاسرائيلى المدرع ، ثم الاحتياطى التكتيكى ، وتطوير الهجوم بعد ذلك لتدمير دبابات الاحتياطى الاستراتيجى فى عمق قوات العدو ، وكانت قوات الصاعقة قد انتشرت خلف خطوطه وبدأت هجومها على الاحتياطى التعبوى والاستراتيجى الاسرائيلى المدرع ، منذ الساعة صفر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، بعد ان تمركزت فى أرض هجومها بسيناء وقد عبرت مياه القناة سرا ، قبل أن تنتصف ليلة ٦ أكتوبر ، تنفيذا لمخطط الهجوم الشامل .

قامت قوات المشاة بهجومها على طول خط المواجهة بأكملها من جنوب القناة شرق حتى رأس العش شمالا ، وقد تزود مقاتل المشاة بالسلاح الصاروخى الخفيف المضاد للدروع ، مالكا لاكبر قسط من خبرات التدريب ، فأعطى مؤشرات النجاح المطرد بعد ٦ ساعات من هجومنا العام ، وكانت معارك « اللحم ضد الصلب » صفحة مشرفة للفكر العسكرى المصرى ـ صفحة تفخر بها أجيال شعبنا ، أعدتها قيادتنا العسكرية بأقصى السرية تخطيطا وتجهيزا وتدريبا وتنفيذا ، على ذلك المستوى الكبير الذى برز فى يوم عصرنا الخالد ، ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، وكانت مفاجأة الحرب التى أهدتها قواتنا لقيادات وجيوش العالم ، وفى الدرجة الاولى قوات العدو ، اهدتها وزنا عسكريا جديدا ، وانقلابا جريئا ، فى عمليات قوات المشاة المترجلة . . حين صدرت الصيحات العالية فى دول الغرب « بأن المصريين قضوا

تماما على دور الدبابة فى الحرب ! »

كانت ضراوة هجوم مشاتنا ، قد جعلتهم يتخبطون فى اصدار التفسيرات العسكرية لنتائج قتالنا ...

القائد .. والجنود

لقد تميزت معارك قوات المشاة المصرية فى حرب تحرير سيناء عام ١٩٧٣ بهدير بشرى خاص ، فظل هجومنا قبل أن يتدعم بالدبابات والمدفعيات عابرة فوق كبارى العبـــور التى أقامها سلاح المهندسين ، مكتسحا صاخيا متفانيا مقتدرا خلاقا ، وقبل نهاية الساعة الرابعة ، أى بعد الهجوم بساعتين ، بدت ملامح السيطرة التى توطدت ســـاعة بعد أخرى ، بمزيد من الاقتحام والتقـــدم والتوغل الى تشكيلات العدو ، وهى تقوم بهجومها المضـــاد ، ورجالنا يقاتلون فى تفان ملتزم بعقيدة وفكر وقد زادتهم انتصارات الساعات الاولى تواضعا حيويا ، وتآخيا عاليا ، وتعـاونا راقيا ، عززه الدم المشترك الذى انسال يروى الرمال المتعطشة للتحرير .

قال لى بعض الجنود ، ونحن نتناول وجبـــة عشاء ساخنة فى الاسبوع الثانى للحرب فوق منطقة طوسوم شرقا :

ـ « اذا كانت سنوات الصبر والصمت قد أنتجت الكثير من الاعمال العسكرية الخالدة بين تشكيلات قواتنا ، فقد أعطت فى المقدمة أنقى المناخ البشرى الذى تنفسناه جيدا ، والبيئة العسكرية المتجانسة التى تجاوزت ضعف الانسان ومثالبه ، فأنبتت المقاتل المصرى المدعم بالايمان ـ المزود بكفاءة علوم التدريب وخبراته ، المتفهم لشرعية قتاله ، بل ووثقت تلك البيئة عقليا ومعنويا وروحيا وقتاليا بين الضابط والجندى ، بين القادة والجنود ، وصنعت

من ذلك التلاحم حقيقة ناصعة كالشمس والقمر هى روح ٦ أكتوبر ، حيث تقدم القادة جنودهم منذ اللحظـــــة الاولى للهجوم فنشر هذا الاسلوب القيادى الميدانى أعظم الاثر المعنوى لدى الجنود ، حين تحولوا الى موجات بشرية أشبه بجدران الصلب المتحركة لا يوقف زحفها أو هجومها شىء على الاطلاق ، كماء السدود المنطلقة بعد طول احتجاز تكتسح ما يعترضها وتطويه ، والله فوقنا يزودنا بالحماية والاستطاعة والفطنة والابداع » .

وتفسير هذه المعانى التى حدثنى بهـا جنودنا ، يظهر عمليا فى نسبة شهدائنا من القادة والضباط ، لقد صعد الى رحاب الله عدد ليس بقليل من أبطالنا ، قـادة كتائب وقادة لواءات ، بل وقائد فرقة أيضا .. لانهم كانوا فى مقدمة جنودهم يقاتلون العدو ، ويقـــودون وحداتهم أو تشكيلاتهم الكبيرة ، وهم فى طليعة المفارز الامامية للهجوم ، لا فى مراكز القيادة بالمؤخرات .

ولقد وقف القائد الاعلى للقوات المسلحة الرئيس أنور السادات مع اعضــــاء مجلس الشعب والوزراء وقيادات الاتحاد الاشتراكى العربى . يكرمون سيرة القادة المصريين من عمالقة شهدائنا ، الخالدين فوق صفحات نضــــــال شعبنا الموصول منذ أبطال الاساطير الاولين ، وقد جادوا بالحياة لتبقى لنا الحياة استرخصوا الروح ، بذلوها فدية وجزية للنصر ، وكانوا فى بذلهم يتسابقون .

اللواء البطل الشهيد شفيق مترى سدراك مقـــــاتل المشاة الذى حارب معركته بالقطاع الاوسط بسيناء ، وقد استشهد يوم « ٩ » أكتوبر ١٩٧٣ ، وكان يتقدم قواته بمسافة كيلو مترا داخل عمق بلغ مداه ما يقرب من ١٤ كيلو مترا فى سيناء .

العميد البطل مقاتل المشاة عادل يسرى ، الذى تشرف

بفقد ساقه اليسرى وهو يقود معركة هجوم مضـــاد على مسافة ١٩ كيلو مترا ورفض أن يخلي للخلف ، وظـل يقود قواته ويصدر تعليماته ، ويضع الرمال فوق الاصابة ليمنع نزيف الدم طوال ٤ ساعات حتى نقلوه عنوة بعد ذلك الى المستشفى بعد أن نجح هجوم رجاله ، واجروا له تسع عمليات جراحية لتلوث الاصابة .

ان الكلمة مهما بلغت من عطاء التعبير لا تستطيع أن تبلغ شجاعة وثبات وصلابة واعصاب هذا القائد وقد شـــهد الاصابة عشرات المقاتلين حوله .

وحين حملوه الى سيارة مدرعة ، رفض أن يركب معه أحد من ضباطه ، رافقه أحد جنوده وسائق العربة فقط .

ويروى السائق :

سالنى القائد : هل تعرف الطريق ، ستتحرك وحدك .

قلت/آسفا : لا .

وكان الجندى المرافق لنا ، لا يعلم مثلي معالم هـــذا القطاع من سيناء ، ومضى وقت طويل على الاصابة ، والليل يوشك أن يلف الصحراء ، واذا « بالعقيد عادل » برشدنا الى الطريق وهو طريح أرض العربة المدرعة ، من خـلال معرفته بطبيعة الارض ، مستعينا بالنجوم ، حتى قادنا الى كوبرى العبور ، وقد قطعنا ثلاثين كيلو مترا ، حيث نقل الى أحد مستشفيات الميـــدان تحت الأرض ، ثم مستشفى القصاصين ، فالمعادى وهناك أجريت له بقيـة العمليات الجراحية التسع » .

الفرقة البطلة ١٦ مشاة

ان معارك الدبابات والمشاة فى القطاع الاوسط من سيناء هى ابرز معارك العصر ، وقد شدت انتباه العالم « قيادات عسكرية وصحافة ووكالات انباء » طوال عشرة أيام خالدة،

لم تفقد قواتنا خلالها سيطرتها وضراوة هجومها وتطهيرها للأرض الأسيرة بقيادة البطل اللواء عبد رب النبى حافظ وكان له أيضا شرف الاصابة .

ان الحرب العالمية الثانية ، وما بعدها من حروب لم تشهد معركة بمثل هذا الحجم من النيران والمفاجأة .

نعود الى البدء ، الى الساعة الواحدة والدقيقة ٤٥ ، من ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فى محاولة للاقتراب من معارك « النسق الاول للفرقة البطلة ١٦ مشاة » التى قامت بواجب القتال والهجوم ثم الهجوم لاحباط الهجوم المضاد

قبل الساعة ٢ من ظهر أمجد أيامنا بحوالى ١٥ دقيقة عبرت ثلاث كتائب مشاة هى وحدات « قوة لواء » بقيادة العقيد البطل عادل يسرى ، مياه القناة الى الضفة الشرقية حيث أخذت المفارز الامامية للقوات اتجاه نقط العدو القوية على اجناب ، يسار القطاع .

قهرت قواتنا الساتر الترابى الشرقى ، وارتفاعه فى هذه المنطقة حتى شمال القناة يبلغ من ١٨ حتى ٣٠ مترا ، وبعد الانقضاض على قوات العدو فى النقط الحصينة ـ دشم خط بارليف ـ واجهت مفارز متقدمة أخرى من مشاتنا قوات عدوة تشكيلها كالآتى :

قوات اسرائيلية احتياطية تتواجد فى العمق القريب ، وتتكون من عناصر دبابات ومشاة ميكانيكية يمكنها أن تتدخل وتهاجم فى فترة زمنية من عشرين الى ٣٠ دقيقة ، وذلك تحت ستر طائراتها ، ومدفعيتها بعيدة المدى فى العمق البعيد ..

ـ احتياطى محلى .
ـ احتياطى تكتيكى .
ـ احتياطى تعبوى .

وهناك فروق فى حجم كل من هذه القوات ، وحجم

نيرانها ، والزمن الذى تستغرقه لكى يمكنها التدخل بهجوم مضاد ، فضلا عن ان قوات الاحتياطى التعبوى للعـدو الاسرائيلى تصل فى بعض القطـاعات الى مجمـوعات عمليات .

لقاء مع البطل

يقول لى الرجل ، وأصابعه تنقر فوق ساقه المقطوعة ، ورنة الفخر والتفاؤل تملأ صوته ، والابتسامة لا تغادر ملامح وجهه :

« الحديث هذا دار بيننا فى بداية عام ١٩٧٤ »

ـ « أهم من المعركة بالنسبة لنا كمقاتلين كان الاعداد للمعركة ، وطوال السنوات المـاضية الى جانب الاعداد النفسى المستمر استمر التدريب ليلا ونهارا وبواقعية كاملة ، وبالنسبة للمشاة تركز التدريب بالدرجة الاولى فى تدمير دبابات ومدرعات العدو دون أن تساند مشاتنا دبابات مصرية ، وكان القادة يبتكرون ويبتدعون خلال سنوات الصبر والصمت ، للتغلب على نقص الاجهزة ، بل طور بعض المقاتلين فى أسلحة موجودة بين أيدينا فعلا ، وكانت المدافع المضادة للدبابات « ب ١٠ و ب ١١ » ووزن المدفع بذخيرته يصـل الى نصف طن .. تمثل أمامنا مشكلة ، كيف نعبر فوق الساتر الترابى وارتفاعه من ١٨ الى ٣٠ مترا .. ؟ كيف نعبر هذا السـاتر بالعربات اليدوية الحاملة للذخيرة والالغام ؟! ..

، وعملت العقول العسكرية التى حملت شرف الواجب معى وجهزت فى قوارب العبور تجهيزة خاصة بحيث يرقد المدفع فوق القارب وبسلالم حبال نرفعه فوق الساتر ، ورغم بدائية هذا الابتكار الا أنه اثبت ايجابيته ونجاحه ، اثنان من المقاتلين كل مقاتل يحمل سلما من الحبـل ،

ومقاتل ثالث يصعد الساتر ويلقي بالسلم من أعلى ، بعد تثبيته بأوتاد متينة ، ثم يلقى أيضا بحبلين عاديين بجانب السلالم الحبال ، ويربط الرجال ماسورة المدفع وعجلاته على السلالم وتجرى كل عجلة صاعدة على حبل من الحبلين العاديين والجنود خلف مدافعهم .

وأجريت التدريبات على ساتر ترابى بنفس حجم ساتر العدو ، بل وقمنا بالتدريبات فى بعض الفترات بجزيرة البلاح ، وبعرض مماثل لعرض القناة ، وحسبنا الازمنة التى استغرقتها وحداتنا فى حمل المدافع وثقلها ، وفى حمل الالغام والذخيرة ، وتكتيك رص الالغام أمام قوات العدو بعد العبور ، الى سيناء لتأمين وقفة قواتنا التكتيكية ، وصد الهجوم المضاد الذى ستحاول اسرائيل شنه بكل طاقاتها لاعادتنا مهزومين الى الضفة الغربية !!

ان رجالي من المشاة والمهندسين قاموا بعد العبور برص عشرات المئات من الالغام المضادة للدبابات أمامالارض التى ستمر عليها دبابات العدو للاقاتنا ، والعدو خطط من قبل وفوق الارض أيضا طريق ومناطق قواته الساترة ، وطريق ومناطق الهجوم المضاد .. كل صغيرة وكبيرة خططها لوحداته فوق الارض وليس على الورق فقط ، هكذا رأينا ، وروى عنه الاسرى من الضباط ، ولذلك من الخطأ القول بأن اسرائيل آمنت بأن قواتنا المسلحة لن تعبر سيناء مرة أخرى .. كان عبورنا فى حساباتهم وتوقعاتهم .

لقد ابتكر الضباط والجنود خلال التدريب مبتكرات، هامة ليوم العبور ، ابتكروا وسائل اضاءة لكل الاسلحة لاستخدامها ليلا بكفاءة عالية ، ابتكروا شدة القتال « ملابس المقاتل » التى يرتديها لحظة الهجوم وبدء تحرير سيناء ، شدة قتال مصرية تحمل احتياجاته لمدة ٤٨

ساعة من ذخيرة وأطعمة جافة وأدوات اسعاف ، وقد ارتداها الضابط والجندى معا ، وكانت رائعة .

وعلى ضوء التدريب قبل العبور أخذت تنكشف أمامنا احتياجاتنا الرئيسية .

وضعنا أسسا تكتيكية لاقتحام الموانع المائية تعتبر من الاسس الجديدة فى العالم .

ـ فى البداية يقتحم قائد قوة اللواء فى مقدمة ضباطه وجنوده كذلك قائد الفرقة .. تطبيقا لمبدأ تواجد القائد مع الجزء الاغلب من قواته ، وفى اتجاه المجهود الرئيسى، ولذلك أستشهد فى هذه الحرب عدد ليس بقليل من القادة .

وقد عبر القادة مترجلون لا فى عربات لاسلكى أو عربات قيادة ، وحمل الجنود أجهزة الاشارة فوق ظهورهم ، وكان عدد من الضباط قد تدرب على قيادة الموتوسيكلات .

كل دبابة حملت متفجرات معها لايجاد حفرة لها فى سيناء بالتفجير بدلا من البلدوزرات قبل ذلك كان التدريب على قنص الدبابات الاسرائيلية ، وقد قام به مقاتلونا بأكبر قدر من المفاجأة للعدو .

فى الضفة الغربية وطوال سنوات الصبر والصمت الماضية أقمنا مدارس صغيرة لابناء الفلاحين بالمنطقة ، هؤلاء الفلاحين لعبوا دورا هاما فى الحرب ، ظلوا حماة أمن لنشاطنا ، ويوم العبور كانت الامهات والزوجات من الفلاحات على الضفة الغربية يطلقن الزغاريد ، ونداء الله اكبر يزلزل الارض أمامنا .

من الدفاع للهجوم ..

ثمة اعتبار هام آخر من عوامل نجاح العبور وهو « الخداع » ولفترة طويلة .. وفقا لخطة حتى أعتقد

الجميع أن قواتنا لن تحارب معركتها ، وانعكس هـذا الوضع على العدو ، وبات توقيت القتـال سرا كبيرا لا يعرفه أحد . وطوال ٦ شهور قبل الحرب كنا نجهز فى عمليات التخطيط ..

كانت قواتنا فى أوضاع دفاع . وعلى مواجهة واسعة ، ولابد من تغيير الاوضاع الى وضع هجوم ، ويحتـاج هذا التغيير الى تجهيز هندسى يستغرق ٣ شهور بحيث لا يشعر العدو به ، وقبل موعد الهجوم بيومين تكدس السلاح لدينا ولابد من اخفائه ، وبأسلوب يسهل عملية اخراجه للاستعمال ، وتطلب هذا العمل تجهيزا هندسيا آخرا ..

استمر استطلاعنا للعدو حتى الساعة صفر ، استطلع رجالنا السواتر الترابية الاسرائيلية طوال ٣ شـهور متصلة حتى الواحدة والنصف من ظهر ٦ أكتـوبر ، استطلعوا المناطق الصالحة لارساء الكبارى والصالحة للمعدات ، وأعد المهنـدسون ماكينات لها ، استطلعوا حقول الالغام فى الضفة الشرقية .. ويوم الهجوم عاد جنودى بـ ٢١ لغم حملوها فى هدوء تام من منطقة مواجهة معدة لفتح ثغرة بها فى خطة الانقضاض .

وفى صباح اليوم الخالد ، كنـا قد انتهينا من اعداد منازل فى الضفة الغربية لكتيبة دبابات برمائية ولم يفطن العدو اليها .. لقد حسب العدو أن دباباتنا لن تستطيع العبور قبل ٨ ساعات من بدء هجـومنا .. هكذا قال الاسرى من ضباطه ، وفوجىء بكتيبة دبابات كاملة الساعة ٢ ظهرا يوم ٦ أكتوبر فوق الضفة الشرقية ، وكانت كتيبة الدبابات البرمائية التى حفرنا لها منازلها حتى صباح يوم العبور وقلبت جميع موازينه !

قلت للرجل :

ـ حدثني أكثر عن الايام القليلة السابقة للهجوم ، ان الجماهير عطشى لتفاصيل هذه الساعات التى سبقت الميلاد العظيم .

طوال ٣ ليال وجزء من نهار ٦ اكتوبر ، والقيادات تعمل فى اعادة تجميع القوات للهجوم ، وهى عملية من أصعب المهام ، لانها تتم تحت اخفاء الهدف الحقيقى للتجميع ، وقد استمر بعربات فردية ، وقوات تحركت نهاراً حتى يقتنع العدو بأننا نعد لمشروع تدريب ،وطوال هذه الليالى أخذت المدفعية المصرية أوضاعها لضرب احتياطيات العدو فى عمق سيناء ، وتجمعت وحدات الدفاع الجوى البطل ، تحت ستر هذا النشاط ، وفى الوقت المحدد وصلت قوارب العبور وتوزعت ليلا فى حفر مجهزة لها مغطاة بألواح الصاج والرمال ، واعلنت ساعة « س » بتسلسل معين ، كل مستوى قتالى عرفه فى توقيت محدد .

وجاءت طائراتنا وضربت ضربة السيطرة ٢ ظهرا ثم عاودت القصف ٥ مساء .

كانت مفارز اقتناص الدبابات العدوة ومعها أسحلتها مدى قريب ومدى بعيد ، خلال نصف ساعة قبل الهجوم جاهزة للعمل ، وبدأت عملية انزال القوارب وازالة العوائق التى وضعناها من قبل أمام الفتحات فى ساترنا الترابى الغربى ، وفى الوقت نفسه فتحت مدافعنا نيرانها بحجم مكثف على نقط العدو القوية ، وردت مدفعية العدو بعد نصف ساعة تقريبا ، وعبرت مجموعات الصاعقة والتحمت باحتياطى العدو خلف خطوطه ، ثم عبرت السرايا الامامية للمشاة ، وبدأت المعركة وقد اشتعلت الضفتين الشرقية والغربية بالنيران .

فى الخطة العامة للهجوم كانت هناك « وقفة تكتيكية » على بعد ٨ كيلو من الضفة الشرقية ـ لضرب جميع احتياطات العدو المدرعة ، وخلال هذه الوقفة تتم مهام سلاح المهندسين ، وتصل المعدات الثقيلة ، ثم يتطور هجومنا .

وقد عبرنا فى نصف الزمن المقدر لنا ، وهاجم رجال مشاتنا مدرعات العدو فى مناطق تمركزها وداخل تجهيزاتها الهندسية المحصنة وحققنا سرعة عالية فى الهجوم الفريد ، مشاة مترجلة تهاجم دبابات متمركزة ، سرعة فاقت جميع المعدلات العالية !

وتعامل معنا طيران العدو حوالى الخامسة مساء حتى السادسة ، ركز فى البداية على الغرب وسلاح المهندسين، وأسقطت المدافع المضادة للطائرات ثلاث طائرات للعدو عبر اللحظات الاولى للهجوم علينا ، ثم توالى سقوط طائراته طوال الحرب بفضل كفاءة واقتدار سلاح الدفاع الجوى العملاق .

ان المعركة فى الدرجة الاولى كانت معركة « الفرد المقاتل » العقائدى المؤمن المدرب تدريبا عاليا » .

نجمة سيناء

لقد أهدانى القائد الاعلى للقوات المسلحة وسام نجمة سيناء ، هو فى الحقيقة تقديرا لقتال جنودى ، فلست غير رمز لهم ..

رمز للمقاتل حمدى الذى استشهد وهو يلتحم بدبابة للعدو بعد أن دمر عددا كبيرا منها ، لعاطف ، لمحسن ، للدمرداش لعلم ، لانيس بطل الاشارة الذى أستشهد وهو على عمق ١٨ كيلو مترا بجانب القائد لحسين عبد العزيز الذى قاتل وهو يحمل امعائه بيده ، ورفض

القاء السلاح وصعدت روحه الى الخالق ويده قابضة على رشاشه .. ويده الاخرى تجمع أمعائه المصابة .

وجاءت ليلة ٧ أكتوبر ، وحاولت عربات العدو المدرعة وجنازيرها مغطاة بكاوتش ، استطلاع قواتنا ودفع بكمائن حولنا ، كمين للعدو بلغ مسافة ٨٠٠ مترا من قواتنا ، فقام المقاتل أحمد سليمان على الفور وبعض الجنود ودمر عربات ودبابات الكمين ، تصرف ذاتي ناضج قادر دائما على العطاء والبذل .

جاءت بعد ذلك دبابات العدو وشنت هجوما مضادا ودارت معارك المشاة ضد الدبابات فى أعتى صور الضراوة والالتحام ــ اللحم فى مواجهة الصلب .

ومع أول ضوء يوم ٧ أكتوبر تعاملت طائرات العدو معنا ، وتساقطت أمام مدفعية الدفاع الجوى المحمولة والمنقولة ، وفتحت مدفعيته الثقيلة من عمق سيناء نيرانها ، ثم تكررت الهجمات المضادة بالمدرعات والمشاة الميكانيكية فى محاولة لنشر الدبابات العدوة حول رأس كوبرى قواتنا ، التي أخذت تستقبل تدفق المعدات الثقيلة قادمة من الضفة الغربية .

وبين قنابل طائرات العدو ، بلغ وزن بعضها أربعة آلاف كيلو جرام أى ٤ أطنان للقنبلة الواحدة .

وفى يوم ٨ اكتوبر بدأنا تطوير الهجوم ، ورأيت منظر لا أنساه مدى حياتى ، تكرر أمامى كثيرا ، الدبابات الاسرائيلية تجرى هاربة كالحيوانات المذعورة ، والجندى المصرى ــ يجرى خلفها للحاق بها حتى تأتى طلقته فى البرج مباشرة ..

وتبدلت تكتيكات قواتى ، هاجمت المشاة أولا ثم الدبابات ، عكس ما هو مفروض ، وفتحت مدفعيتنا الثقيلة نيرانها بعد ان عبرت الى الشرق وتمركزت ..

وقام العدو ب ٨٣ هجمـة مضادة ، واخترق قواتى ٦ مرات وظلت كلها محاولات فاشلة ..

لقد قلت لجنودى وضباطى :

ـ أى درع قابل للاختـــراق ، ولـكنه غير قابل للسقوط ، وبذلك كانت وحدات العـــدو التى تخترق قواتنا تتحول الى أكلة دسمة لرجالنا فى اللحظات الاولى للاختراق ..

ومضت الايام .. وتصاعد ايقاع الرجال ..

فن تحريك الرجال

« رسالة كتبتها في نوفمبر ١٩٧٤ »

لقد حدث تغيير جوهرى على جبهة سيناء ..

ان العدو الاسرائيلى قد يفتح النيران فجأة ، ولكنه لن يمتلك قط عنصر المفاجأة ضد قواتنا المسلحة ..

لذلك سيبقى مسرحنا العسكرى فوق سيناء المحررة مزدحما بالحركة المصرية النشيطة ، محسوبة كل دقيقة قادمة من الوقت ، مشحونة بأرقى الانفعالات الارادية.

ان أبناء قواتنا المسلحة منذ قرار وقف اطلاق النار وهم يطلقون العنان لطاقاتهم البشرية — وأيامهم الحالية تكثيف بأقصى المسئوليات ، بأثرى الاستجابات النفسية يتحركون بين احضان الحب الكبير ، بين أحضان سيناء وقد بذلوا أغلى الدم من أجلها ، يعطونها اليوم أشرف العرق والجهد ، ويواصلون تنفيذ واجبات جديدة خطيرة لا استطيع الافصاح عنها الان ، ومناقشاتهم فوق الارض أو تحتها تصويب وتقييم بلا قصور أو استعلاء لما واجهوه من ثغرات أو أخطاء أو متطلبات عاجلة .

ان هناك تدفقات من المهام الحيوية العسكرية مع وقف اطلاق النار ، يؤديها الرجال العمالقة نهارا وليلا ، لا وقت للراحة لا تستطيع لواجبات : ولا توقف عن التقصى ، ولا خطوة محلك سر .. لقد تجاوز الجميع مراحل التعب والارهاق والالم ، وفاقوا بنشاطهم قدرات البشر

ان هذه المهام ستكون ذات فعاليات حاسمة ، اذا وجدت قيادتنا العليا انه لا مفر من معاودة القتال ..

لقد طبق خلال العمليات القتالية فى نهاية الاسبوع الثالث من حرب اكتوبر احدث واخطر امكانيات الهجوم الصاروخى الالكترونى من الجو للارض ، ومن الارض للجو ، ومن الارض للارض ، وتزودت اسرائيل بتلك الاسلحة الامريكية الجديدة التى اشار اليها القائد الاعلى للقوات المسلحة يوم ٣١ اكتوبر١٩٧٣ — ومن بينها القنبلة التليفزيونية — تصور الهدف ثم تنطلق اليه مباشرة ، والصواريخ المضادة للاجسام المعدنية كموتورات العربات المدرعة — ولكن قواتنا بامكانياتها وبتوعية رجالها اجتازت هذه التعزيزات العدوة فى ثبات ووضوح رؤيا، وظلت وحدها مالكة لليد الطولى فى معركة تحرير سيناء

ان هناك تطورا قد شمل واقع القوات المصرية ، ودخل ليضيف جديدا الى الموقف العسكرى اذا تصاعدت حساباته ، ولم يعد سرا ان تكتيكات العسكرية المصرية تجاوزت مرحلة هجوم اكتوبر المجيد —بل ان استراتيجية العسكرية المصرية بلغت الاقتدار على تغيير الواقع الحالى فى عمق اسرائيل .

لقد اوجدت تشكيلات قواتنا الموجودة فى سيناء لا فى غرب القناة عدة ثغرات فى تمركز عمق القوات الاسرائيلية — وفى مواقع تنفصل وحداتها أمام الممرات ، وقد ساعدت هذه الثغرات على تجزئة قوات العدو وعزلها عن بعضها — نتيجة الهجمات المضادة التى قامت بها قواتنا المشاة والدبابات والمدفعية ، فضلا على الاعمال الانتحارية التى قامت بها قواتنا الخاصة خلف خطوطه — وهى أعمال لم يذع عنها شىء حتى الان .. « كنا فى نوفمبر ٧٤ » .

فن تحريك الرجال

ان الفن العسكرى الحديث هو فن تحريك الرجال ، فن استخدام القوات لتحقيق الهجوم الناجح باقل خسائر، فالحرب عمل مادى تحكمه حسابات عقلية علمية ـ تمثل ارضية العسكرية لقواتنا المسلحة ـ الارضية التى أخرجت اعظم قصف للمدفعية المصرية وللطيران المصرى وعبور مشاتنا بكل الكفاءة مياه القناة ، ثم تدمير حصون بارليف ، فانتقال المدرعات والقوات الميكانيكية من الغرب الى الشرق لتقاتل معاركها الضارية الخالدة على مر الاجيال ـ بشمال وجنوب سيناء ، ثم فى قطاعها الاوسط، حيث دارت معركة الدبابات الشهيرة التى جعلت مخططى قوات حلف الاطلنطى يجتمعون علنا ويتدارسون سير هذه المعركة وتكتيكاتها واسلحتها الصغيرة فى ايدى مشاتنا حاملى الأسلحة المضادة للدروع .

هذه الأرضية العسكرية المصرية ليست حدثا عارضا لمواجهة القوات الاسرائيلية المدعومة بأحدث اسلحة امريكا . انما هى فى الحقيقة بناء دائم لقواتنا ودمها الجديد ، الفتية الشابة المتعلمة التى تعطى ثقافتها ومعارفها بالعلوم الرياضية والكيماوية والطبيعية للجيوش المصرية ، فتمتلك المناخ الانسانى الراقى حيث ترى وتلمس ذلك الالتحام البشرى الرائع بين القادة والجنود، الالتحام الذى احدث تحولات جذرية فى اسلحتنا الضاربة ـ فاضاءت الطريق أمام قواتنا حين فتحت خطوتها الامامية لجولة الصدام الرابعة مع اسرائيل .

لقد حققت قواتنا المسلحة معركة عسكرية نموذجية خلال زمن قياسى ـ وقدم العمالقة ارقى انواع القتال بكل الاسلحة ومن بينها الالتحام بالسلاح الابيض مع قوات العدو ـ وكانوا يعلمون ان الانتصار فى المعركة

الاولى هو الطريق الى تحقيق النصر فى المعارك التالية ، وان النصر الذى تطلبه مصر وثأرها ، ليس نصرا رخيصا سريعا ، بل هو أغلى النصر بأفدح الثمن ، وكما يقول أحد القادة المصريين فى شمال سيناء :

ــ وجدنا أنفسنا ، بل استرد الرجال ثقتهم فى قتالهم وفى قدراتهم ، وتأكد للمقاتل المصرى عمليا أنه يستطيع أن يهزم المقاتل الاسرائيلى الذى ملأ الدنيا صراخا وضجة حول نوعيته القتالية العلمانية وخصائصه البشرية المتميزة ، كما تأكد للجندى والضابط الاسرائيلى عمليا أيضا انه فى مقدور المقاتل المصرى ان يهزمه ويقتله ويأسره !

ــ لقد عبر الرجال العمالقة الصناديد اضخم معبر مائى على وجه الارض ــ ان بعض الوحدات عبرت مياه القناة ذات السرعة الكبيرة لكونها مياها بين بحرين فى مناطق بلغ عرضها مائتى متر ــ وعمقها من ١٨ الى ٢٠ مترا ، وسيطرت على المانع الرهيب المزدحم بالالغام فوق وتحت الماء ، وطلقات الرشاشات تنهال من مزاغل بالدور الارضى فى حصون بارليف على سيقان ابنائنا ، ومن مزاغل اخرى فى اجناب المواقع القوية لدشم العدو التى اطلقت رصاصها على شكل « القوس » وقواتنا تمتص وتقاتل وتدمر وهى مترجلة ، المشاة الخالدون من أبناء مصر وقد ركبوا المواقع الاسرائيلية الهندسية الحصينة ، وقاتلوا اعظم القتال واشرسه ، ثم اخذوا الاوضاع المؤمنة لتبدأ عمليات دفع القوات الميكانيكية الى الشرق ، ويؤدى رجال المدفعية المضادة للطائرات وبطاريات الصواريخ م.ط دورهم القتالى أمثل الاداء ــ أمام موجات الطائرات الفانتوم وسكاى هوك والميراج ــ وتسيطر طائراتنا الاعتراضية ــ على سماء سيناء ، بعد

معارك جوية مشرفة للطـيران المصرى ، وتتطور المعركة ويتسع حجمها عبر الصحراء فى الطريق الى العمق .

((أبو سعده)) ورجاله

قال لى المقاتلون ((أبو سعده ، وزهدى ، وبشارة ، ومرعى ، وتادرس ، والتهامى ، وعازر ، وأمر الله)) ، ونحن جلوس حول مائدة الطعام تحت ارض سـيناء بالقطاع الاوسط نتحدث عن معركة الفردان :

ــ فى ((الفردان)) أقام العدو أضخم وأقوى نقطتين حصينتين مزودتين بمرابض للدبابات والمدافع المحمولة شمال وجنوب الـكوبرى شرق ، وما يقرب من مائة جندى عدو مسلحين بأحدث الاسلحة ، من بينها مضخات النابالم لـكى يطلقوها على المصريين ..

ودار القتال ضاريا عنيفا ، كل خطوة مرسومة ومعروفة فى أذهان المقاتلين المصريين ، فقد تدرب رجالنـا على اقتحام هذه المواقع القوية ما يقرب من ٣٠٠ تدريب عملى بالذخيرة الحية خلال السنوات القليلة الماضيـة ــ كان سلاح المهندسين يشيد الدشم المصرية المقـابلة تماما للدشم الاسرائيلية ويزودها بكل ما يملكه العدو بداخلها ، ويدور التدريب لاقتحامها وتدميرها بالمدفعيـة والعبـور اليها بقوات المشاة والمهندسين .

وتتجدد المعلومات كل يوم عن هذه المواقع وما يضيفه العدو اليها من تحصينات .. بعضها كان يحميها ٣٠ نطاقا من الاسلاك الشائكة وحقول الغام حولها .. ومضخات النابالم خلف الساتر الترابى ــ ثم نجدات للعـدو على عمق ٦ كم واحتياطى صواريخ ، فضلا عن احتياطى أكبر من كتائب القوات المدرعة بالعمق ، واحتياطى استراتيجى على مستوى لواء وفرقة مدرعة اسرائيليـة فى منـاطق

التجمع خلف الممرات .

ونفخ الرجال قوارب الاقتحام ، ورصد العدو هـذه العملية وكانت مدفعيتنا ترسل قذائفها التدميرية بنيران كثيفة مستمرة لتشعل الارض تحت أقدام الاسرائيليين واطلقت مدفعيته النيران علينا ، ودارت معركة رهيبـة بين المدفعيتين ، وكان الساتر الترابى الذى يحمى مواقع العدو يرتفع الى ٣٢ مترا بميل طبيعى ومحـكوم بأكبر حجم من النيران .

وهاجم رجالنا جنود العدو اقتحاما للدشم .. بينما وحدات أخرى لنا تسيطر على خلفية ارض المعركة لتضرب قوات الامداد الاسرائيلية وتحبط اى هجوم مضاد ، وكما توقعت الخطة المصرية جـاءت الدبابات ـ وحـاصرها ابناؤنا بنيرانهم ـ بينما كانت طائراتنا تقصف مطـاراته ومواقع تمركز قواته ومخازن اعدادها وطرق مواصلاته الرئيسـية ، وقد امتلـكت موجات الهجوم المصرية الاولى عامل المفاجأة وعنصر السـيطرة على الارض ، ليتتابع هجومها بعد ذلك ، وتفتح خطوة إمامية أكبر . والعلم المصرى يرفرف فوق كل قطعة ارض تطهرت من الاحتلال الاسرائيلى .

اللحم ضد الصلب

لقد قاتل مشاتنا الذين يحملون أسلحتهم الصاروخية المضادة للدبابات أكثر من ٣٠٠ دبابة امريكية حديثـة الصنع يقودها الاسرائيليون داخل راس كوبرى الفردان ، كانت معاركهم من اثرى الملاحم الانسانية ـ ملحمة مواجهة اللحم البشرى للصلب المسلح ـ المشاة المترجلون وأمام الدبابات والمدرعات الاسرائيلية التى تحمل فوقها مدفعية الهاون والمدفعية الذاتية والصواريخ ارض ارض وحاملى

الرشاشات من جنود العدو ، وفى كل دقيقة يمسك رجالنا بناصية النصر ..

بعض عمليات التطهير حددوا لها ٦٥ دقيقة من الوقت .. نفذها الابطال فى ٣٥ دقيقة فقط .. واجب اخر كان مقدرا له ٤٥ دقيقة ، أداه العمالقة فى ٢٣ دقيقة ــ حدث هذا فى معركة « البيت الانجليزى » اسم يطلقونه على هذا المكان من سيناء منذ الاحتلال البريطانى ، وفى معركة « الشجرة » وفى معركة « تبة السبعات » حيث دار القتال ليلا ونهارا .. ولم تتوقف النيران دقيقة واحدة من الليل حتى اقتنع أبناء قواتنا المسلحة انهم أيضا نجوم القتال الليلى وليس جنود العدو وحدهم كما أذاعوا وأشاعوا فى سنوات « الصبر والصمت » الماضية .

لقد تحول مسرح المعركة طوال ليالى القتال الى نهار يملؤه الضوء ، كانت قواتنا تضيء الميدان ، كما كان العدو يفعل فى كثير من الاحيان وهو يقاتل بكل الضراوة تدعمه المدرعات الحديثة المتدفقة عليه من مطار العريش الى قواته رأسا فى مواجهة قواتنا ولعبت الاضاءة ليلا دورا بارزا فى الحاق الخسائر به .

لقد دمر قائد سرية مصرية ٦ دبابات مخندقة للعدو ، اصعب اشكال الهجوم والتدمير ضد المدرعات ، وبعض رجالنا يرصون الالغام خلف ظهر العدو حتى اذا استدار وحاول التقهقر وقع فريسة لحقل الالغام المصرية ، وفى منطقة « كسيب » دمر عمالقتنا المشاة كتيبة دبابات كاملة للعدو ــ وقفز ضابط اسرائيلى من دبابته المحترقة صارخا بعربية ضعيفة :

ــ الله اكبر يا مصرى .. انا فى عرضك ؟ ! ...

خط المعلومات

واليوم وقد توقف القتال ، تحولت العقول العسكرية المصريه الى موائد الدراســـــة والحوار حــول الموقف واحتمالاته، وفى بصيرة قيادية ناضجة واعية بكل الصورة يعملون من أجل خطة جديدة ـ تحمل تقديرات وحسابات وتنبوات لا تعرف الخطأ العفوى أو المواقف الارتجالية ، تقديرات صادرة من التحام مستمر متيقظ ببقية الارض الاسيرة فى سيناء وما فوقها وتنبؤات تســتند الى خط عريض من المعلومات المستحدثة عن العدو، تنساب فى نظام دقيق بين المستويات القيادية المختلفة ، ابتداء من القائد الاعلى حتى أصغر القيادات الفرعية فى جنــوب وشمال سيناء مرورا بقوات الجيشين غرب القناة .

لقد تألق رجالنا استطاعة واقتدارا فى قتالهم ، وأكدوا للعالم أجمع ان روح الاصرار على القتال والتحرير التى تحدث عنها القائد الاعلى كثيرا خلال أيام « الصــــبر والصمت » لم تــكن مستندة الى قبض الريح ..

انه المقاتل المصرى .. للشدائد دائما يتصدى ..

وأمام المحنة يتقدم ، هو أكثر ايمانا وثباتا ،أكثر صلابة أكثر وعيا ، ومن صدره تنطلق قوة خفية لاتفرغ أبدا ، وبها يشق مقتدرا ومجتازا كل الكبوات، مسارا لارادته، تماما كما شق أجداده الاولون انهارا من النضال والكفاح الموصول .

المشـــاة الميكانيكيـة

لـكل عمل .. هدف وخطة .. وفى اجتماعات القيادة لقواتنا المسلحة ، يضعون تصورهم لسير الخطة القتالية وقد امعن خبراء هيئة العمليات تفكيرهم وتقديراتهم فى كل تفصيلاتها ، وحاولوا بكل خبـراتهم التنبـؤ العلمى بأشكال التطبيق ، والتطورات المحتملة لمراحل القتال .

ان الافكار العسكرية النموذجية هى حصيلة خبـرة ثرية بالتجارب ، ومن هنا يتحقق الابداع والابتــكار ارتكازا على دعامتين : هما فكر القيادة العسكرية ، ثم نوعية التنفيذ فى الميدان .

هـذه الـكلمات القليلة البسيطة فوق الورق هى فى الحقيقة تعكس جهــدا شــاقا أشــبه بجبل الحديد الذى لا يظهر غير سطحه ، وفى الاعماق نشــاط مكثف للقادة لا ينقطع على الاطلاق عبر جميــــع المستويات القتالية ، من اصفر تشغيل الى مجموعة عمليات .

منذ ٦ اكتوبرسنة ١٩٧٣ وحتى اليوم وغدا ، وحلقات الرجال الذين يحصلون على شرائط المعلومات الطـازجة أولا بأول عن العدو لا تتوقف عن العمل ، والذين يقومون بقراءة هـذه الشرائط وترجمتها الى صــور مقروءة يزدادون علما ومهارة وعددا ، لتعمل حلقات اخرى من العمالقة فى استيعاب جزئيــات أخرى من المهــام عبر التغيير العميق الذى احدثته قواتنا خلال حرب اكتوبر

المجيدة فوق مسرح سيناء ، وفى عمق الاحتيـــــاطى الاستراتيجى للعدو ، ويضع القادة فى النهاية خطط عمل نابعة من قوانين الحرب الموضوعية والتمثيل الجوهرى غير النمطى او التقليدى لحقائق الاستراتيجيه والتكتيك ، طارحين سلسلة اجراءات طويلة لا يمكن تطبيقها الا مرة واحده وبنجاح تام ، فمثل هذه الاعمال لا يمكن تكرارها مرة ثانية أو ثالثة كما يفعل علماء الصنـــاعة أو الزراعة فى معاملهم حتى يحصلون على أفضل النتائج ، فالخطأ الواحد يأتى بأخطر العواقب الوخيمة .

ان المعركة المعاصرة ليست فقط صداما مسلـــحا وصراعا بالنيران ، انها بالدرجة الاولى سباق بين عقول الرجال ثم امكانياتهم .. فالتطوير لا يقف عند استحداث المعدات والاسلحة فقط بل ايضا تطوير عقلية المقاتل ، والدليل على ذلك قريب جداً ، وهو نتائج معارك حرب اكتوبر على مستوى الجو والبر والبحر .

وفى عدة لقاءات مع قطاع كبير من سادة المعـــارك ، ابطال وحدات المشاة الميكانيكية ممن قاتلوا فى اكتوبر عام ١٩٧٣ حتى بلغوا « ممرى متلا والجدى » شهدت هـــذا الواقع المعاصر ..

مهمة اخرى ..

لقد حققوا واحدة من أهم المفاجآت التى اهـــدتها قيادتنا للحرب المجيدة ، ففى يوم ٦ اكتوبر سنة ١٩٧٣ عبرت بعض الاليات المدرعة حاملة جنودها ميـــاه القناة الى الشرق بعد ان اخترقت الفتـــــحات التى اجراها المهندسون فى الساتر الترابى الشرقى ، وفى فترة وجيزة جدا قاتل المشـــــــاة الميكانيكيون قوات العدو المدرعة والميكانيكيةوقداختصروا الزمن وحققوا المفاجأة التكتيكية التى منحتهم فعالية كبرى فىانتـــاج نيرانهم ، وحســـما

أقوى تأثيرا فى الهجوم المستمر من الحركة لا من الثبات. واقتدارا عسكريا فى امتلاك المبادأة ، وفى الالتفاف وتطويق العدو، واستمرارهم كمفارز قتال متقدمة مالكة لخفة الحركة والقدرة على المناورة ، فدخلت هذه الوحدات بعد ذلك معارك تصادمية متصلة حتى ، ممرى متلا ، والجدى ، امام غرب المضايق ، وتعتبر هذه المعارك من الاحداث الاساسية فى حرب أكتوبر ومستويات المبادرة واستقلال القيادات الصغرى بعيدا عن مركزية القيادة أثناء العمليات حيث عمل كل قائد تشكيل بتصرف مطلق مهتديا بطبيعة المعركة التى يواجهها ، وبمقدرته على التنبؤ بسير القتال وتطوره ، خلف استمرار تقدم المشاة الراكبة فى سيناء ، خاصة خلال الاسبوع الثانى للحرب حتى بلغوا خط المضايق ، رغم كثافة غارات طيران العدو وقنابله التليفزيونية التى أمدته بها امريكا لانقاذ اسرائيل من الهزيمة المحققة .

ان ميكنة المشاة هى بمثابة تحول جذرى هائل فرضته المعركة الحديثة ، وفى كل يوم يدخل الخبراء تعديلات حيوية على العربات أو الاليات المدرعة ، وفى الاستعراض العسكرى الذى قامت به قواتنا فى أكتوبر سنة ١٩٧٤ ، ظهرت احدث هذه العربات السوفييتية الصنع ، وليس سرا ان هناك انواع اخرى لم تظهر فى العرض ، وقد اضاف اليها الخبراء المصريون اضافاتمتميزة قبلالحرب وبعدها ، وحققت معدلات مرتفعة فى انتاج النيران فى عمق خطوط العدو .

لقد تبدلت الصورة القديمة لجندى المشاة المترجل ، رغم ما حققه من بطولات فى عبور القناة وتحطيم حصون بارليف ومواجهته لدبابات اسرائيل فى معارك رءوس الكبارى .

والمشاة الميكانيكية تقاتل ليلا كما تقاتل نهارا وهى محمولة فوق عرباتها ذات الجنزير الكامل ، المزودة بالاسلحة الصاروخية والمدفعيات التقليدية .

ومن خلال هذه العربات المدرعة المغلقة يكتسب مقاتل المشاة قدرا من الاحساس بالامان وهو يقاتل داخل عربته يختصر بها المسافات البعيدة ، وتوفر له عامل الامن ضد الاخطار التى قد يتعرض لها المقاتل المترجل اثناء التحرك كما أعطته حرية المناورة وقللت من الخسائر الكبيرة التى يتحملها المشاة عادة عند بدء الهجوم وفتح القوات.

ان مقاتل المشاة الميكانيكية اكتسب اليوم تطعيما هائلا بالمعركة وارض القتال ، مما جعل القادة يستنبطون أساليب جديدة فى قتال وحداتهم ، أساليب تتميز على القوانين النمطية لادارة النيران ، وتفوقها فى الشمول والاتساع على المستوى التكتيكى ثم الاستراتيجى ...

السعى الدءوب المتصل يوميا بأنبل الجهد وأشرف المهام هو عمل مقاتل المشاة الميكانيكية اليوم وغدا ، للتزود دوما بمعارف وفنون معركة العصر التى لم تقع بعد ، وبروح اكتوبر يعيش عمالقة قواتنا مناخا شامخا عمليا ينشر المعرفة والادراك والخبرة والابداع بين الجميع جنودا وضباطا ، ذلك هو طابع القوات التى استطاعت بجهدها وأرواح شهدائها أن تفرض ارادتها العظمى فى حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ وما بعده من أيام ، وكلهم على ايمان كبير بأن معركة الغد تتطلب الكثير من العلوم والتدريبات ، ويتعين على كل مقاتل ان يعى جيدا دروس الغرور والصلف الذى اصاب جيش اسرائيل الذى لا يقهر ، فقهرناه بتحصيلنا وروح الثأر المتأججة فى صدورنا ...

تلك الروح هى التى تزود ابنائنا المقاتلين بقوة العضد فتمنحهم القــدرة على تجاوز مخاوف الانسان ومثالبه ، وتجعلهم يتألقون فى هجومهم واقتحامهم وتضحياتهم .. بأغلى ما فى الحياة ..

فى الدراسة العسكرية الرائعة التى كتبها اللواءان حسن البدرى ، وطه المجذوب ، والعميد ضياء زهدى ، يقول الخبراء الثلاثة :

ـ ظهر من سير اعمال القتال فى المرحلة الاولى للعملية الهجومية الاستراتيجية ان العدو يركز جهوده الرئيسية لايقاف هجوم القوات السورية كأسبقية أولى ، وذلك لعدة عوامل أهمها قرب القتال هناك من الاراضى الاسرائيلية ، الامر الذى يهدد العمق الاسرائيلى بصورة مبــاشرة ، ولاحباط مخطط العدو واجباره على نقل جهوده صوب سيناء ولتخفيف الضــغط على القوات الســورية تقرر التعجيل بقيام القوات المصرية بالضغط شرقا على العدو فى سيناء مبكرا عما كان مخططا له من قبل . وذلك بأن يقوم الجيشان الميدانيان الثانى والثالث بتطوير الهجوم شرقا بجزء من قواتهما مع استمرار تمســكهما برءوس الـكبارى بواسطة القوات الاصليــة التى كانت موجودة هناك منذ بداية العبور ونعنى بها الفرق المشاة الخمس.

وفى صباح ١١ اكتوبر الباكر أتمت أجهزة القيــــادة العامة المصرية تقدير الموقف والتخطيط لتطوير الهجوم شرقا بجزء من القوات المدرعة والميكانيكية ، للوصـــول الى المداخل الغربية لسلسلة المضايق الجبلية .

وتلخصت فكرة العملية فى استخدام مفارز قوية من القوات المدرعة والميكانيكية للسيطرة على شريحة من الارض يصل عمقها الى ٣٠ كيلومترا من القناة شرق حتى المداخل الغربية للمضايق والممرات . وأوكل اليها مهمــة تدمير

قوات العدو الموجودة هناك وحرمانه من استخدام الطريق العرضي الذي يقع على هـذه المسابقة والذي قد يمنح العدو حرية الحركة والعمل ضد رءوس الـكبارى .

ولقد قام العدو فى الإيام السابقة باستخدام ذلك الطريق العرضي للمناورة باحتياطياته المدرعة من الاتجاهات المختلفة وحشدها لشن الهجمات المضـــادة والضربات المضادة القوية المتتالية ضد قواتنا فى رءوس الكبارى . والتى كان يهدف منها الى شق الطريق للقنـــاة وعزل القوات المصرية عن قواعدها فى الغرب تمهيدا لحصدها وتدميرها بعد ذلك ، وان كان العدو قد فشل فى تحقيق هدفه فى الايام السابقة .. الا ان التفكير العســكرى السليم كان يقضي بسرعة حرمان العدو من استخدام ذلك الطريق العرضي تجنبا لأى مفاجآت قادمة .

ولقد كلفت تلك المفارز بأن تمنع تدفق قوات العـدو من الشرق الى الغرب عبر المضايق والممرات تمهيـدا لتحقيق المهمة النهائية للقوات المسلحة فى الايام القليلة التالية وفقا للخطة الموضوعة .

وقد أحاط بهذا القرار عدة مخاطر ، اهمهـا خـروج القوات بعيدا عن ستر غطاء صواريخ دفاعنـا الجوى المتمركز غرب القناة وتعرضها بالتالي لضربات العـدو الجوية بعد ان اشتدت وازدادت كثافة ابتـداء من ١٠ اكتوبر سنة ١٩٧٣ بفضل الدعم الامريكى الكبير والسريع

ولذلك نصت التوجيهات على أن تكون المفارز المتجهة الى قرب المضايق ذات قوة نيران كبيرة مع صغر حجمها نسبيا ، وتكون من خارج التكوين الاصلى للفرق المشاة الخمس المستمرة فى التمسك بمناطق ورءوس الـكبارى حفـاظا على التوازن الاستراتيجى والتعبوى لقواتنـا المسلحة .

وهكذا تقرر ان يتم الضغط شرقا بمفارز مدرعة وميكانيكية بقوة كتائب والوية ويتوفر حمايتها ضد طائرات العدو بواسطة وسائل الدفاع الجوى الارضية من صواريخ ذاتية الحركة وصواريخ محمولة ومدفعية مضادة للطائرات بالاضافة الى مقاتلاتنا الجوية .

وفى الساعة ١٥ر٦ يوم ١٤ اكتوبر وجهت قواتنا الجوية ضربة جوية جديدة ضد أهداف العدو الهامة فى سيناء كما تم تنفيذ ضربة بالصواريخ التكتيكية أرض ـ ارض متوسطة المدى ضد مراكز سيطرة العدو ومحطات الاعاقة الالكترونية .

وفى الدقيقة نفسها فتحت نيران اكثر من ٥٠٠ مدفع ميدان متوسط وثقيل وعربات اطلاق صواريخ ، لمدة خمسة عشر دقيقة كى تمهد الطريق أمام القوات المهاجمة .

وفى الساعة ٣٠ر٦ بدأت المفارز المصرية هجومها على النحو التالى :

ـ قوة لواء مدرع وكتيبة ميكانيكية فى اتجاه ممر متلا .

ـ قوة لواء ميكانيكى فى اتجاه مضيق الجدى .

ـ قوة لواءين مدرعين فى اتجاه المحور الاوسط .

ـ قوة لواء مدرع فى اتجاه المحور الشمالى .

وتقدمت المفارز فى وجه ستارة عنيفة من نيران العدو وأسلحته المضادة للدبابات وقد وصلته توا ، كما وجه العدو الجزء الاعظم من قواته الجوية لاحباط تقدم قواتنا ـ وركز نيران مدفعيته الثقيلة على مواقع صواريخ دفاعنا الجوى التى مدت الغطاء الجوى الى أبعد مايمكن شرقا بما فيها المناطق المطهرة أمام رءوس الكبارى .

ورغم ضراوة المعارك التى استمرت طوال ٢٤ ســاعة كاملة بلا توقف ، واتساع ساحة القتال حتى اشتملت على كل شريحة الارض فقد تمكن رجالنا من التوغل داخل أوضاع العدو لمسافة تراوحت بين ١٣ حتى ١٥ كيلو مترا واثبتت الوحدات الميكانيكية والمدرعة صغيرة صغيرة الحجم انها قادرة على احراز التفـــوق النوعى القتالى طوال المعارك التصادمية التى دخلتهـــا ، ففى نهاية هذا اليوم المحفـــور فى سجل العسكرية المصرية سيطرت مفارزنا المشاة على مساحة من الارض المطهرة بلغت ١٨ كيلو مترا .

دبابات أمام دبابات

قامت الدبابات المصرية فى حرب اكتوبر المجيدة بدور بارز على المستوى العلمى العسكرى .. دفعت خبراء القيادات العسكرية العالمية الشرقية ، والغربية الى طلب المعلومات والتفاصيل عن معارك مدرعاتنا ضد المدرعات الاسرائيلية ذلك انه منذ الحرب العالمية الثانية لم تقع تجربة ميدانية كبيرة «دبابات أمام دبابات» حتى خاضتها قواتنا المدرعة فى حرب اكتوبر ، وحققت مجدا قتاليا متميزا .. ان معاركها التصادمية الفريدة التى تمت فى ظروف معقدة وبالغة الضراوة ، وقد أعطت فى النهاية آفاقا جديدة وتحولت الى أبجديات ، قتال فى عالم الدبابات ومعاركها التى لم تقع بعد ..

لقد حطمت سرية دبابات مصرية بقيادة البطل مجدى كتيبة دبابات العدو ... ودخلت التاريخ العسكرى مثالا دراسيا لجيل المقاتلين الجدد فى الكليات والمعاهد الحربية .

حين تصدى بعض الملقين العسكريين فى انحاء العالم لدراسة وتحليل نتائج حرب اكتوبر خلال عام ١٩٧٤ ، كتب اكثرهم يقول : « ان جندى المدفعية المصرية المضادة للدبابات قد قضى نهائيا على الدبابة فى هذه الحرب ، ومن المؤكد ان دور الدبابات سيتوارى كثيرا فى المعارك القادمة » بل ان قائدا عسكريا امريكيا

كان فى زيارة قواتنا المسلحة قال « ان المصريين هم الذين صنعوا أول مركبة قتال فى عهـد رمسيس الثانى ، وهم الذين انهوا دورها فى القرن العشرين ! »

وفى مايو سنة ١٩٧٤ ، رد الفريق اول محمد الجمسى وزير الحربية ، وكان وقتها رئيسا للاركان ، فى حديث صحفى نشرته مجلة « المصور » فى ١٧ ـ ٥ ـ ١٩٧٤ :

ـ ستظل الدبابات بتأثيرها القوى فى المعارك القادمة ، من حيث قوة نيرانها وخفة حركتها ، كما ستظل الدبابة هى القوة الضارية للقوات البرية فى اى مكان بالعالم ، غير انه بالضرورة سيدخل على أنواع الدبابات وتسليحها تطور كبير فرضته نتائج حرب اكتوبر سنـة ١٩٧٣ ، ومقاتل المشاة العملاق حامل المدفع الصـغير المضـاد للدروع » .

ولقد علق بخيالى حديث القائد الامريكى طويلا ، حتى التقيت بأحد عشاق الدبابات من دارسى تاريخها العريق ليحدثنى عن نشأتها تلك التى لا يعرفها كثيرون من ابناء جيلنا المتعجل دائما ..

ـ فعلا ، ظهرت « المركبـات » لاول مرة فى عهـد رمسيس الثانى ، صنعوا نوعين فقط ، ثقيلة وخفيفة.

الخفيفة ، للمناورة والاستطلاع ، والثقيلة لعمليـات التدمير ..

وتطورت « المركبات » فى عهد الاشوريين ، تطورا عاليا ويمكن القول بأنهم طبقوا تكتيكات قريبـة الى التكتيكات الحديثة ، كتحقيق المفاجاة ، والالتفاف حول العدو ..

وجاء عام ١٤٢٠ ، وظهر «القائد أسكا» فطور العربات المدرعة ، كساها بجلد سميك ... يجرها حصان محاط بجلد سميك ايضا لوقايته ، ووضع على ظهرها مدفع

وهزم بها الالمان حين حاولوا احتلال تشيكوسلوفاكيا .

ثم عاشت الدبابات بعد تلك الفترة التاريخية مرحلة تطور اخرى وهي مرحلة البارود والبخار ، الى ان وقعت الحرب العالمية الاولى ، وظهرت الاسلحة النارية نتيجة اختراع البارود ، وادى هذا التطور الى الغاء استخدام الفرسان المدرعة ، كما ادى الى ظهور البخار الى ميلاد المعدات ذات المحرك البخارى حاملة المدافع البارودية .

وفى نهاية القرن التاسع عشر ظهرت المحركات ذات الاشتعال الداخلى ، وكانت بداية نشأة الدبابات ما بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٠٨ ، حيث ظهرت نماذج مختلفة للدبابة وفى عام ١٩١١ ، انتجت روسيا دباباتها « ماندليف » وقد سميت باسم مصممها ، وبلغ وزنها ١٧٠ طنا .

وفى عام ١٩١٤ ظهرت الدبابة « فيزدنجور » بقيام الحرب العالمية الاولى واشتهرت فى بدايتها بحرب الخنادق ، حتى ظهرت المفاجأة الاولى .. ذات يوم .

مع اول اضواء الفجر يوم ١٥ سبتمبر عام ١٩١٦ ، والحرب العالمية الاولى دائرة ، ظهرت اشباح كبيرة تتحرك بين الانجليز والالمان ، وعبرت هذه الاشباح مواقع الاسلاك ، واقتحمت الخنادق ووصلت الى عمق الدفاعات والاحتياطيات الالمانية ، ولم تكن هذه الاشباح غير الدبابات الانجليزية التى اطلقوا عليها « الام » مسلحة بمدفعين من الاجناب الى جانب الرشاشات ، وفى هذا اليوم حققت ٣٠ دبابة ما فشل فى تحقيقه ٣٠٠ الف مقاتل .

ولقد تفوق الالمان بعد ذلك نتيجة هذه المعركة التى دفعوا فيها ثمنا باهظا من ارواح جنودهم ، تفوقوا فى انتاج الدبابات واخذوا يعملون فى تطويرها باستمرار

لتلبى حاجات المستقبل ، وكان اهتمامهم بالدبابة وخطورتها ، عملا عسكريا ناجحا بدليل اكتساح الدبابات الالمانية لاوربا خلال الحرب العالمية الثانية .

بعد الحرب الاولى ظهرت الدبابة « شيتنانوسكا » الروسية عام ١٩١٩ ، وقبلها ظهرت « سين شامون » الدبابة الفرنسية .

ثمة مرحلة ثالثة فى تاريخ الدبابات ، بدأت حين نقلت المانيا معارك دباباتها الى شمال افريقيا عبر الصحراء خلال الحرب العالمية الثانية ، ووقعت اكبر معارك العصر الحديث ، وكانت بمثابة محك حقيقى كبير لاختيار الدبابات ، وقد بلغت قمة التطور الصناعى لدى المانيا وانجلترا ، ولم يقع صدام دبابات بمثل هذا المستوى بعد ذلك حتى قامت حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، وحققت القوات المصرية المدرعة بمعاركها البارزة ، وبنوعية قتالها على المستوى التكتيكى معارك عالمية تدرس الان ، فى اكبر المعاهد العسكرية بالشرق والغرب .

اولى الاعمال التى حققتها قواتنا المدرعة ، هى تجاوزها قناة السويس كمانع مائى له خطورته ، وتجاوزها للساتر الترابى الضخم الذى اقامته اسرائيل على الضفة الشرقية للقناة ، لا هذا ولا ذاك حال بين دباباتنا والعبور عام ١٩٧٣ ، بل تقدمت تحت قصف مدفعيات العدو ، وقصف دباباته فى مرابضها ، وتحت كثافة طيرانه وقدرته الهائلة على قصف الدبابات من الجو وقد تزودت طائرات اسرائيل بالقنابل التليفزيونية ، وتحت قصف طائرات الهليكوبتر حاملة الصواريخ المضادة للدبابات ، تقدمت وحدات دباباتنا فاتحة لنيرانها ، مطورة لخفة حركتها ، يحدوها الايمان والصلابة ورباطة الجأش والارادة الخلاقة ، والقدرة على الابداع والانجاز المتميز ،

وكلها صفات اكتسبها مقاتلونا من خلال برامج التدريب المتصل قبل اكتوبر عام ١٩٧٣ ، فحقق العمالقة المصريون امجد صفحات الحرب المجيدة فى معارك رءوس الكبارى ثم معارك التطوير فى عمق سيناء .

وفى البداية أعرض بعض مهام وحدة مدرعة صغيره من وحدات دباباتنا الضاريه ، شاءت الظروف أن التقى بمقاتليها أثناء الحرب واتحدث اليهم بعدها .

هؤلاء الرجال أبناء « المقاتل البطل شنن » دفعهم الى الضفة الشرقية مع بداية الحرب للقيام بمهمة تطوير القتال على المحور الشمالى فى سيناء .

ولقد واجهت هذه الوحده قوة لواء اسرائيلى مدرع هاجم بفرعى هجوم موجه جنوب احدى فرقنا المشاه ومنتصفها وشمال فرقة مشاة اخرى من قواتنا بالقطاع الشمالى شرق .

بدا الاشتباك دبابات ضد دبابات فى عمق راس الشاطىء الذى اقامته قواتنا المشاة ، ولم تكن المسافة بين الدبابات المصرية والاسرائيلية تزيد على ٣ كيلومترات

٣٦ دبابة اسرائيلية فى المقدمة وأمامها ٧ دبابات مصرية وفى اللحظة الاولى للقتال دمر أبطالنا دبابتين للعدو الذى تراجع سريعا فى محاولة للالتفاف حول الدبابات المصرية ، وظهرت « ٤ ابراج » دبابات هدوة ، واستطاع أبناؤنا بكل الثبات تدمير دبابابتين جديدتين، وعلى الفور اسرع جنود مشاتنا بالتقدم نحو مواقع الدبابات الاسرائيلية ، اذ شاهدوا أطقم ٤ دبابات اسرائيلية أخرى يغادرون دباباتهم طالبين التسليم ، وأسرنا ٤ دبابات جديدة م ــ ٦٠ لم يصبها خدش واحد مع اطقمها .

ولجأ العدو الى طيرانه وغاراته الجوية المكثفة ، كما

تقدمت نحونا عرباته المزودة بالصواريخ ارض ـ ارض ، واشتعلت الرمال بالنيران نتيجة طلقات المدفعية الاسرائيلية التي تشعل الرمال بالنيران ، واستمر تقدم وحداتنا وبعض معاركهم أداروها «بالضرب الاعمى» وهو اصطلاح يستعمله مقاتلو الدبابات في المواقف المفاجئة حتى لايفلت المبادأة من ايديهم على الاطلاق ، ومعارك أخرى بين الدبابات المصرية والاسرائيلية دارت في مسافة لا تزيد على ٢ كيلومترا فقط ، ومعارك دارت ليلا حين حاول العدو اقتحامنا مستعملا أجهزة الاشعة الحديثة لديه ، في محاولة واحدة أمام اصرار مقاتلونا المردة ، الذين قاتلوا لمدة ٤٨ ساعة في بداية الحرب دون أن يتناولوا وجبة طعام واحدة أو شربة ماء أو فكر أحدهم في تدخين سيجارة ، بل ان اكثرهم قضى في هذه الحرب ١٠٠ ساعة متصلة بلا نوم .. تلك هي شريعة الحرب وماتفعله بأعصاب الرجال المحاربين المؤمنين بحربهم وشرعيتها .

وتقدمت هذه الوحدة الصغيرة والى جانبها وحدة اخرى مماثلة في الحجم لحقت بها ، للهجوم على كتيبة دبابات اسرائيلية مخندقة ، واحدة من أقسى واصعب العمليات الهجومية ، تلك هي الهجوم على دبابات في خنادقها .

وأعد رجالنا خطتهم من الحركة ، التجمع ، الهجوم يتم من الحركة أثناء العمليات بفاصل وقتي ضئيل للغاية ميزة فريدة امتلكها الابطال من خلال التدريب المسبق ، ووجدوا العدو في منطقة عالية بالتدريج .. كتيبة ستوريون كاملة ، واذا بعدد كبير من دبابات العدو تظهر خلفنا في نفس الوقت .. !

وكانت معركة من أشرف وأخلد وأروع معارك التاريخ الحديث ، معركة تصادمية خطيرة ، دباباتنا تواجه العدو

المدرع وفجأة تظهر خلفها دبابات معادية اخرى ، ويتصاعد القتال ضاريا .

ووقعت المعركة التصادمية التى اظهر فيها المقاتل المصرى اقتداره وتفوقه .. وثبات ارادته ونضجه وسيطرته على ارض المعركة رغم هذا الموقف المفاجىء ، وامكانياته فى الالتفاف والتطويق بعد ذلك ، واحتلاله التبات العالية حتى اصبحت المسافة بين دباباتنا والدبابات العدوة — ١٦٠٠ مترا — فقط ، وهنا انتشر فى اللاسلكى نداء لا زال يتردد حتى اليوم فى سهرات رجال الدبابات المصرية حين تأتى سيرة المعارك التى خاضوها ... كان النداء يقول « ١٦٠٠ — الله أكبر » وفتح الرجال نيرانهم .

فى دقيقتين احترقت ٦ دبابات سنتوريون ولا دبابة لدينا خسائر ، وتراجع العدو عن محاولة تطويقنا ، وأسرنا بعض الضباط الاسرائيليين ، وأخذنا على الفور نتقدم فى مواجهة نيران مدفعية العدو من العمق ، وعربات صواريخه المضادة وأشعلنا النيران فى عربتين متقدمتين بالذخيرة شديدة الانفجار ، وناورنا جيدا ، وأحصينا فى نهاية المعركة خسائر العدو ، فوجدناها ١٣ دبابة غير العربات المحترقة ، والطائرات التى أسقطها مقاتلو الدفاع الجوى ، وكانت خسائرنا ٤ دبابات مصابة بأعطاب ولكنها تحركت وعادت للاصلاح السريع .

سأل ضابط اسرائيلى أسير ، المقاتل درويش :

— كيف حدث هذا ؟ .. كيف استطعتم القضاء علينا وكنا نرى عدد دباباتكم قبل أول طلقة ! ؟ ..

وأجاب المقاتل المصرى الشاب :

— الجواب ببساطة شديدة هو المقاتل المصرى ، النصر الان للمقاتل المتفوق وليس للدبابة الاكثر امكانيات ومعدات تقدير مسافة أو أشعة أو ذخيرة بدليل أن كل

هذا كان لديك ، وعجزتم عن هزيمتنا رغم تفوقكم العددى فى الدبابات والاطقم ، الى جانب طائراتكم ، ومدفعيتكم فى العمق .

وهكذا تصاعد ايقاع ابنائنا الابطال الصناديد فى وحدات الدبابات والدفاع الجوى والصاعقة والمهندسين فى معاركهم ذات الاسلحة المشتركة وعبر الابطال الى عمق دفاعات العدو فى مراحل التطوير والهجوم المضاد الذى قمنا به مع الاسبوع الثانى من الحرب .

قال لى مقاتل مدرعات :

ــ ذهن قائد الوحدة المدرعة لا بد ان يعمل اثناء القتال بسرعة جنزير الدبابة .. ولقد كانت اذهاننا تفوق سرعة الجنازير .. ذلك لاننا كنا عطشى للنصر ..

تحية لكم يا عمالقة المدرعات المصرية ، يا ابناء ذلك العهد العظيم الذى أعطاه المعلم المقاتل الفريق أول محمد الجمسى وزير الحربية ، وجندى الدبابات المتميز بعلومه وابتكاراته منذ عام ١٩٦١ ، احلى سنوات العمر ، فأصبح وطننا يملك احدث واعظم مدارس الدبابات فى الشرق الاوسط ، وقدم للقوات المسلحة جيلا فريدا من الضباط والمهندسين وضباط الصف والجنود ، أولئكم الذين احرزوا النصر مع رفاق القتال الاخرين ، وكانت قبضتهم الحديدية هى الصخرة التى تحطمت عليها جميع الهجمات المدرعة المدعمة بأحدث القنابل الامريكية الصنع ..

تحية للابطال الشهداء عمالقة دباباتنا الضارية ، للبطل أنور ، للبطل مصطفى ، للبطل حسين ، للبطل علاء ، للبطل أبو شادى ، للبطل كامل ، للبطل هشام ، للبطل سمير ، لكل من العمالقة رفاق السلاح الشهداء

التحام المدرعات

انهم يقاتلون اشرف واشرس المعارك ، لقد تجاوزوا الماضي فى شمول كامل ، رأيتهم الوية خفاقة للنصر ، دماء شهدائهم نبراسا لكل الاجيال القادمة ، حين يكتب التاريخ قصة الحرب الرابعة بين مصر واسرائيل .

لقد أنتزعت الدبابات المصرية فى موجات متتابعة ، مكاسب حيوية مرحلية هامة ، أخلت بتوازن مدرعات العدو وتكتيكاتها .

اقتربت منهم وهم يقاتلون فى ذروة الشجاعة ، ولقد كان عشقهم الهائل لسلاحهم خلف هجومهم الحاسم فى معاركهم وامتلاكهم مميزات المبادرة والابداع الخلاق والنضج التكتيكى فى قتال الالتحام بالمدرعات مع العدو ..

انهم يعشقون دباباتهم ، بل هى كل حياتهم ، وبعضهم يطلق على دبابته حياتى أو اسم ابنته ..

ومن خلال المشاعر الانسانية الراقية نحو السلاح ، استطاعوا تطويع قوانين القتال الى مستويات أرفع تتفق وامكانياتهم الحديثة المتدفقة التى خاضوا بها هجماتهم الضارية ، وكانوا كماء الشلالات بعد فتح السدود أمامها ، ونيرانهم واختيار ضرباتهم ولحظات توجيهها تصدر من مناخ المعارف العلمية العسكرية التى حملوها خلال السنوات القليلة الماضية بكل الاقتدار والتواضع ، وثبات الواثق بشرعية نيرانه .

اضافات فنية قتالية جديدة اضافوها الى معـــــارك الدبابات الشهيرة ، ومن خلال هذا المناخ الفريد استخدم مقاتلونا الخواص الحديثة فى دباباتهم أقصى واحســـــن استخدام كانوا يجرون امام العالم اختبارا حديثا لحرب المدرعات ، اطلقوا نيرانهم اثناء التحرك هجوما ضـــــد حشود العدو المدرعة ـ اصعب واشق اشكال القتـال بالدبابات ، حين تهاجم من الحركة لا من الثبات ، وكانت معدلات كفاءة نيرانهم تترك أكبر الاثر التدميرى فى وحدات العدو على خط المواجهة وحشوده بالقطاع الاوسط ...

كانت المدفعية المصرية الثقيلة وذات المدى المختلف تقوم بتدمير وحدات الصواريخ المضادة لدباباتنا « منها صواريخ س . س ١٢ » وهى وحدات تمثل عقبة أمام القوات المدرعة التى تستعد للاقتحام ـ فثمـة مرابض نيران مخفاة جيدا وهى المرابض الاسرائيلية التى تضـــم الاسلحة المضادة للدبابات فضلا عن وجود نظام انســاق بالعمق والمواجهة لهذه الاسلحة ، الامر الذى يجعــــل اختراقها صعبا وخطرا ـ وهى تملك نموا مطردا لمسافات الرمى المؤثر التى تتميز بها .. ان الصواريخ الموجهـة المضادة للدبابات أصبحت الان تملك نيرانا دقيقة لمســافة ٢٥٠٠ و ٤٥٠٠ متر .

ولقد دمرت مدفعيتنا المعاونة لدباباتنا عمق دفاعات العدو فى مناطق حيوية ـ فى الوقت الذى اخذت فيــه تطلق قذائفها ضـــد الدبابات الاسرائيلية ـ مما جعــل زمن تعرض الدبابات المصرية للنيران المضادة قليلا وبأقل الخسائر .. ان اكثر وسائل معاونة الدبابات فاعليـــة هى المعاونة التى قدمتها مدفعيتنـــا فدمرت كثيرا من وحدات الاسلحة « م . د » العدوة خارج مدى رؤية اطقم دباباتنا وبعضها كان مختفيا ومموها جيدا حيث

يتعذر على رماة المدرعات رؤيته عبر مناطق تأثير النيران

تعاون وثيق متين ومستمر بين الدبابات والمدفعية التى تساندها بأعلى الكفاءات فى استخدام النيران والحركة المؤثرة ـ ويؤدى هذا التعاون الوثيق الى اختصارالوقت بين وقف نيرانالمدفعية وهجوم الوحدات المدرعة ـ الدبابات او المشاة الميكانيكية . .ان اختصار الوقت الى اقل جهد ممكن يعد أحد عوامل نجاح الهجوم

الالتفاف والتطويق

تحولت الصحراء امام العين الى كتل نيران سوداء فى حجم الجبال ، وقد تناثرت بينها الرمال ، وأصوات الجنازير وقذائف الدبابات تصيب الانسان بالصمم ، ولكنها تمنح رجالنا ابداعا تجلى فىقدرتهم علىالمبادرات الخلاقة عبر الهجوم المضاد ، ابداعا فى خفة الحركة ، والمناورة وفى عمليات الالتفاف والتطويق ، ودقة انتاج النيران الدائرية وسد ثغرات التراجع أمام دبابات العدو .. وقد حدث ان قفز الاسرائيليون من دباباتهم وتركوها عدوا أو هربا من الموت ، ليقعوا فى الاسر ، وذلك حين وجدوا الثغرات مسدودة أمامهم ، وكان لهذا النشاط اكبر الاثر النفسى المحسوس فى انهيار قواد وقوات اسرائيل وارتفاع نسبة الخسائر والاسرى فى حشدها المدرع .

لقد استخدمت قوات دباباتنا خواصا تكتيكية جديدة .. واجهت بها طيران العدو ، الى جانب الاعداد الهائلة من دباباته الامريكية الحديثة المزودة بالالكترونيات ووسائل الدعم التكنولوجى ، عديمة الجدوى أمام قبضة رجالنا المدرعة ..

ان الدبابات هى أقوى سلاح هجومى برى ، انها

تستطيع القتال كما حدث بمفردها أمام القوات العدوة على مستوى الجبهة فى سيناء .

لقد تميزت عمليات قواتنا المدرعة خلال الاسبوع الاول من الحرب بالقدرة التامة على تنفيذ مهام الالتفاف والتطويق، أخطر وأدق وأصعب المهام القتالية ، ولقد قاتلت حول اجناب العدو وتميزت بسرعة الاندفاع فى عمق دفاعاته والانتشار خلف قواته التعبوية .

والمفاجأة من أهم مبادىء القتال ولذلك تشكل قوات العدو المدرعة نفس الخطر على قواتنا البرية اذا تمكنت من مفاجأة قواتنا .

ولقد حاول العدو استخدام طائرات الهليكوبتر المزودة بصواريخ مضادة للدبابات .. الا أننا كنا أسرع منـــه فى استخدامها ضد ارتاله المدرعة ـ فحرمناه من فرصة تحقيق المفاجأة ولو لهجمة واحدة ..

سبـــاق مهارات . . .

ان معارك الدبابات المصرية ـ الاسرائيلية اثبتت ان المعركة الحديثة هى بالدرجة الاولى سباق بين المهارات العسكرية للقادة والمقاتلين .

ان الاعمـــــــال الديناميكية الدقيقة لقواتنا المدرعة استوعبت ارقى استخدامات الدبابات الحديثة ، وبعضها مضاد للطائرات ، وكان رد الفعل لدى رجالنا حين يهجم العدو بحشد مدرع كبير ـ كان رد الفعل لدينا نابعا من التفاعل بكل ظروف القتال ومفاجآته وحساباته ..

ان دراسة اشكال المفاجأة المتوقعة قبل فتح النيران لا يشكل خطرا اذا وقعت هذه المفاجأة ، بل يشكل موقفا مطروحا ومطلوب التعامل معه من خلال معارف قواتنا العلمية العسكرية وما قطعوه من شوط هائل فى طريق

تثبيتها عمليا ــ هى حاصل الثقة فى السلاح والمهارة فى القتال ، والقدرة على تقييم الموقف والتنبؤ العـــلمى والتقديرات الصائبة لتصاعده .. انها كما يطلقون عليها الفطنة التكنيكية أو النضج التكنيكى لمواجهة أعمـــال العدو المضادة المفاجئة .

ان القتال ضار وعنيف ولم يسبق لقواتنا ان خاضت معارك بهذا الحجم ، كما لم يسبق للعدو أن واجه قوة نيران مثلما واجه ، وكان طبيعيا أن تتطور بعض العمليات والضربات العدوة الى مستوى لا يتطابق مع خطـــــة قواتنا المسبقة .. ومن الطبيعيان تبرز عقبات وصعوبات خلال المعارك التصادمية بالدبابات ، ولـكن هذه العوامل لا تخلق أدنى شك فى فعالية شبكة نيراننا ، بل تتلاشى امام الثبات والمرونة ، واتخاذ القرار الجديد بدون تردد، لتجاوز التغييرات الطارئة وترتيب المهـام الجديدة على ضوء القرار الاخير .

لقد واجهت دبابة مصرية ثلاث دبابات للعـدو خلال الايام الاولى للحرب وخاضت القتال ضـدها ودمرتها بكل الكفاءة والقيادة الماهرة .

ويتطور القتال . ويرتفع أيقاع هجومنا ..

الغلاف الصلب لحين الجمل

قائد دبابات أكتوبر ..

لقاء وحوار معه في أكتوبر عام ١٩٧٥

ـ كانت معارك الدبابات المصرية والاسرائيلية شديدة الضراوة ولم يتعود الاسرائيليون على خوض غمار مثل هذه الحروب ، وقد اظهرت المعارك التى دارت فى القطاع الاوسط ان المصريين لم يكونوا على الاطلاق اقل مستوى من الاسرائيليين ..

هذه سطور قليلة من دراسة صحفية عسكرية كتبها الصحفى البريطانى « شارلز ويكبردج » فى المجلة الامريكية العسكرية « ناشيونال ديفنس » عدد يونيو عام ١٩٧٥ .

و « وشارلز ويكبردج » خدم بالجيش البريطانى خلال الحرب العالمية الثانية وقام بتغطية معظم الحروب التى نشبت منذ ذلك الحين ..

ومن دراسة الصحفى البريطانى أعرض هذه السطور عن معارك الدبابات فى حرب اكتوبر المجيدة ..

ـ أكثر من ٢٠٠٠ دبابة اشتركت فى هذه الحرب فوق صحراء سيناء عام ١٩٧٣ ، ولا يعلم احد على وجه الدقة كم كان عددها .. وهو عدد تزيد على عدد الدبابات التى اشتركت فى معركة العلمين حوالى ١٥١٨ دبابة ، واستمرت

معركة سيناء دبابات أمام دبابات ستة أيام عندما بدأت تهدأ وتخف حدتها نتيجة الانهاك التام ونفاذ الوقود والذخيرة كما يقول الصحفى الانجليزى الذى بدا يعانى منه كلا الجانبين بعد ان دار القتال بينهما فى منطقة القطاع الاوسط فوق رقعة من الارض يبلغ طولها ٤٠ ميلا وعرضها ٢٥ ميلا وعلى الرغم من أن المصريين قد تجاوزوا نطاق الحماية الجوية التى توفرها لهم شبكة الصواريخ المضادة للطائرات مما ساعد الطيران الاسرائيلى على العمل ضدهم الا ان المدرعات الاسرائيلية لم تتمكن من السيطرة على الموقف حتى يوم ١٨ اكتوبر عام ١٩٧٣

هامش ـ قال لى مدير الدبابات ان نفاذ الوقود والذخيرة يتعلق بالقوات الاسرائيلية حيث كان الامداد للقوات المصرية فى رءوس الكبارى يسير بانتظام ووفرة تخوفا من حدوث اعطال للكبارى بين جبهة القناة وجبهة سيناء ..

ـ لقد حقق رجال المدرعات المصرية انجازات ضخمة على كل المستويات تطلبت درجة عالية من الكفاءة والدقة المتناهية ، والتدريب المستمر الجيد قبل الحرب والقدرة الفنية والمناورة الميدانية فى الصحراء المكشوفة التى اظهرها المصريون .. وقد عملوا على سد الفجوة التكنولوجية الموجودة لديهم خلال ٦ سنوات ، بينما اعلن اللواء « موردخاى هود » فى عام ١٩٦٧ ، وكان قائدا للقوات الجوية الاسرائيلية ، انه سيمر جيل كامل قبل ان تتعادل مهارات المصريين مع المهارات الاسرائيلية ..

ـ على « الجنرال هود » أن يراجع تقييمه ، وسيجد ويقول الصحفى البريطانى :

انه تقييما متعسفا لقدرات المصريين .

وفى القــاهرة التقيت برجل الدبابات المصرية الاب المعلم لقطاع كبير من جيــل النصر فى معــارك المدرعات ومجدها البطولى فوق صحراء سيناء ـ الرجــل الذى اعطى أحلى سنى العمر للدبابات ، ورصــع جســـده بثلاث اصابات خلال المعارك التى خاضها فوق دبابته ـ اللواء كمال حسن على ـ مدير المدرعات فى حرب رمضان المجيدة ، وقائد معركة المدرعات فى مضـيق الجدى عام ١٩٦٧ ـ واحدة من اشرف المعارك التى خاضتها قواتنا المدرعة فى حرب عام ١٩٦٧ ، وحجبتها نتــائج الجولة المشئومة عن جماهير الشعب .

من مواليد ١٨ ـ ٩ ـ ١٩٢١ .

تخرج فى الــكلية الحربية عام ١٩٤٢ ، وخدم بمنطقة القناة وبقى بها حتى عام ١٩٤٣ ..

التحق بمدرسة المدرعات بعد ذلك مدرســا للملاحة البحرية والاشارة .

فى حرب عام ١٩٤٨ ، كان اركان حرب الأورطــــة الخفيفة ـ وهى اورطة دبابات شكلت ورحلت الى فلسطين واشتركت فى العمليات الحربية بخان يونس ، ومعــركة التبة ٨٦ ، ومعركة رفح .

اصيب فى ذراعه الايسر اثناء القتال واعيد للوطن .

سافر الى انجلترا فى بعثة مصرية والتحق بمدرســة المدرعات الانجليزية فى « بوفنجتن » عام ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ ثم عاد الى مدرسة المدرعات المصرية .

قامت الثورة فأسندت اليه العمل برئاســة ســلاح المدرعات .

التحق بكلية أركان حرب عام ١٩٥٥ وتولى عام ١٩٥٦

اركان حرب المدرعات لشئون التدريب الى جانب الاشراف على عمليات الأحتياطى الاستراتيجى للقوات المسلحة .

عمل بعد ذلك رئيسا لاركان المجموعة الثانية المدرعة ثم قضى عامى ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ فى بعثة قادة الوية بالاتحاد السوفييتى ، وعاد الى الوطن ليتولى اركان حرب المنطقة الشرقية بالقناة .

حتى عام ١٩٦٠ ، كان رئيسا لاركان « اللواء ٧٠ » المدرع فى قطنة بسوريا ، وفى أول يونيو من نفس العام تولى قيادة اللواء ، فكان اول ضابط مصرى يقود تشكيلا سوريا على مستوى لواء ــ حتى قام الضباط السوريون فى ذلك الوقت بانقلابهم الانفصالى .

عاد ليعمل مدرسا بكلية أركان حرب حتى عام ١٩٦٣ ثم اختير مديرا للعمليات فى حرب اليمن وبقى هناك الى يناير عام ١٩٦٥ حيث أصيب للمرة الثانية فى يناير عام ١٩٦٤ .

تولى بعد ذلك رئاسة مكتب قائد القوات البرية الفريق اول عبد المحسن مرتجى لمدة سنة ثم عهد اليه بقيادة اللواء الثانى المدرع فى يونيو عام ١٩٦٦ ــ ودخل به معاركه فى صحراء سيناء خلال عمليات عام ١٩٦٧ ، واصيب للمرة الثالثة يوم ٨ يونيو عام ١٩٦٧ ، بعد معركة بارزة من احداث تلك الجولة امام مضيق الجدى، وهى المعركة الثانية للمدرعات المصرية ــ التى اهتم بها المعلقون العسكريون فى الغرب وكانت الاولى معركة جبل لبنى .

قال لى اللواء كمال حسن على :

ــ صدر أمر التعبئة يوم ١٤ مايو عام ١٩٦٧ وتحركنا يوم ٢٤ ضمن الفرقة الرابعة المدرعة الى منطقة التمادا بوادى المليز .

وفى صباح ٥ يونيو التاسعة صباحا الا خمس دقائق كنت أقوم بالمرور على كتيبة الدفاع الجوى باللواء .. وفوجئنا بدون سابق انذار على الاطلاق بالطيران الاسرائيلى فوق المطار ، واعطيت أوامر الاشتباك على الفور واسقط الرجال ثلاث طائرات من الموجة الاولى فركز العدو طيرانه فوق اللواء الذى كان فى وضع ممتاز بالنسبة للحفر والخندقة واجراءات الدفاع الجوى فلم تصب لنا غير دبابة واحدة نتيجة التجهيز الهندسى الجيد فى انتشار دبابات اللواء .

وخرجنا من خنادقنا حين صدرت الاوامر لنا بالتحرك الى « مطلة خرم » على مسافة ٣٥ كيلومترا من الحدود الدولية ، وتحركنا ليلا لمسافة مائة كيلومترا دون أى خسائر أو أعطال ، واتخذنا مواقعنا حتى الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم ٧ يونيو وهنا صدرت الينا الاوامر مرة أخرى بالعودة الى نفس المكان السابق نهارا ! ..

فى اليوم السادس من يونيو عام ١٩٦٧ كان واضحا ان طيراننا اختفى من سماء المعركة فطلبت باشارة ان تتحرك عودة ليلا بدلا من النهار ، غير ان الاوامر جاءت بضرورة التنفيذ فى الموعد الاول أى نهارا .

وتحركنا ١١ ظهرا ، وبعد ٢٠ دقيقة من التحرك ظهرت طائرة استطلاع اسرائيلية ، وبعد ١٥ دقيقة ، كانت طائرات العدو فوقنا ، ولم يتوقف اللواء واستمرت الغارة الجوية ثمان ساعات متصلة حتى ٨ مساء . كنا قد بلغنا منطقة التمركز مرة اخرى وخسائرنا حوالى ٤٠ ٪

قصة اغرب من الخيال

فى « تما دا» وجدنا ان أوامر جديدة صدرت بالتحرك

الى مضيق الجدى واحتلاله حتى ظهر يوم ٧ يونيو ، وفمنا بالمهمة ، وطوال الايام الثلاثه لم نقاتل ولم نشتبك الا مع العدو الجوى ومع طائراته .. وحتى يوم ٧يونيو لم يتوقف اشتباكنا مع الطائرات الاسرائيلية ، صدرت الاوامر بعدها بالتحرك الى غرب بالقناة ، وتحركنا وحرصت على أن تنتشر مدرعات اللواء شرقا وليس غربا .. فجاءت أوامر جديدة بالعودة الى مدخل مضيق الجدى شرقا بمنطقة تمادا ..

كانت الدبابات حتى ذلك الوقت قد قطعت أكثر من ٣٠٠ كيلو مترا على الجنزير دون اعادة تزويد بالوقود ، وقد بدا رجالى فى منتهى الصلابة والتماسك ، وتزودنا بالوقود ، وتحركنا صباح يوم ٨ يونيو الى مضيق الجدى وتقدمت عناصر الاستطلاع الى مخرج المضيق شرقا ، وأبلغت عن تقدم دبابات للعدو ، وقد اشتبكت مع عناصر الاستطلاع بالفعل ثم بدأت الدبابات الاسرائيلية تنسحب داخل المضيق .. ولايمانى بعدم وجود طيران لنا وحتى لا يصبح المضيق مصيدة لقواتى ــ أمرت رجالى باتخاذ مواقع على مخرج المضيق من الغرب ، ثم استمر العدو فى التقدم حتى ظهر من المضيق وهنا وقعت المعركة مدرعات أمام مدرعات ، واستمر القتال ٩٠ دقيقة أو أكثر قليلا خسر العدو خلالها ٨ قطع وأصيبت لنا قطعتان .

وظهرت طائرات العدو لانقاذ مدرعاتها ، واستمر القصف الجوى حتى ٣ ظهرا فتدمرت تقريبا جميع دباباتى وعرباتى المدرعة ــ وقد أرسلت قيادة الفرقة عربة قيادة جديدة لى فدمرت هى الاخرى أثناء المعركة .

انسحبت دبابات العدو داخل المضيق ، وتقدم خلفها

ثلاث دبابات مصرية تكون فصيلة كان فى الدبابة الاولى ملازم أول لطفى ، وفى الثانية قائد الكتيبة رائد فوزى .

هامش ـ فى الدبابة الثالثة كان اللواء كمال حسن على .

وأثناء القتال أصيبت على مخرج المضيق ، وأخلتنى آخر عربة غادرت سيناء ٥ مساء يوم ٨ يونيو بعدها دمرت قواتنا كوبرى جنوب البحيرات ..

دبابات ضد دبابات

قال لى قائد دبابات أكتوبر :

ـ رغم نتائج المعركة ككل الا أن الصورة لم تكن قاتمة السواد كما كتب أحد الصحفيين فى الغرب عام ٧٢ وكان يتحدث عن معارك قواتنا المسلحة فى سيناء عام ١٩٦٧ ـ رغم ذلك فقد استوعبنا الدرس جيدا ، وكانت معارك الدبابات مع الجيش الثالث أو مع الجيش الثانى عام ٧٣ محصلة قائمة على الخبرة والتدريب والمعارف الميدانية، وايمان الرجال بشرعية حربهم .

ان معارك عديدة قامت بها المدرعات المصرية فى حرب ١٩٧٣ تعد من أرقى دروس حروب الدبابات ، وقد تتبعها بالدراسة معلقون عسكريون من أنحاء الدنيا .

معركة البطل الشهيد جمال المهدى فى الجيش الثالث كانت قمة فى المناورة والنيران ، وهى معركة كتيبة مدرعة مصرية ضد كتيبة مدرعة اسرائيلية بعدها استمرت المعارك التى تألقت فيها دباباتنا ـ خاصة فى صد هجمات العدو المضادة حيث تدمرت مدرعاته ، ومعاركنا حين ركز العدو على الحد الايمن للجيش الثانى قطاع الفرقة ١٦ و ٢ مشاة ، وهدفه خلق الظروف المواتية لكى يعبر الى الغرب ، ولذلك استخدم ٣ لواءات مدرعة كانت

تهجم بالتتالى ، واستطاع مقاتلونا تكبيده أقصى الخسائر .. فكانت الساحة رهيبة بالنيران حيث وجدنا دبابات اسرائيلية مدمرة على مسافة مائة متر من دباباتنا ،ولذلك حصل كثير من ضباط المدرعات على وسام نجمة الشرف والنجمة العسكرية .

ان بين رجالى قائد سرية دمر ٣٤ دبابة للعدو ، دمرها بعشر دبابات مصرية أصيبت منها أربع دبابات فقط .

لم تكن تلك المعارك بنتائجها العالية عفوية أو ضربة حظ ، بل كانت حصيلة جهد وايمان وكفاءة فى التدريب طوال سنوات الصبر والصمت .

لقد صمد جندى المشاة المصرى بصلابته واقتداره وبالمصاطب المصرية للدبابات حققنا أروع صور التلاحم الميدانى وأثناء توسيع رءوس كبارى قواتنا فى سيناء قادت الدبابات الهجوم بحكم امكانيات نيرانها وتدريعها وسرعتها وقد حدث ذلك فى معظم مناطق توسيع رءوس الكبارى .

فى الجيش الثالث وفى بعض المناطق قادت المشاة عمليات توسيع رءوس الكبارى وذلك ليس مجافيا للتكتيك بل تقتضيه ظروف وطبيعة الارض .. حتى حطمت دباباتنا جميع الموجات المدرعة المضادة التى قام بها العدو .

غلاف عين الجمل

ان الدبابات بالنسبة للمشاة والمدفعيات كما يقول القادة القدامى هى الغلاف الصلب لعين الجمل ... ولذلك كانت دباباتنا هى الدرع الذى تحطمت فوقه موجات الهجوم الاسرائيلى المضاد على طول الجبهة .

ولقد استمدت الدبابات المصرية عناصر تفوقها من خلال

التعاون الراقى بينها وبين المشاة والمدفعية المضادة للدبابات والمدفعية ، وحققت الدبابات المصرية من خلال التنسيق مع الاسلحة الاخرى أعلى صور المناورة طبقا لحجم هجوم العدو .

هناك رجال كثيرون اظهروا من البطولات ما يفوق الخيال وأذكر على سبيل المثال البطل « القرش » غير دبابته ثلاث مرات ، فى المرتين السابقتين على استشهاده كانت دبابته تصاب فيتركها ويستقل دبابة جديدة مستمرا فى القتال عبر معارك القطاع الاوسط وكان له شرف الاشتراك فى تدمير اللواء الاسرائيلى المدرع ١٩٠ بقيادة عساف ياجورى ، ذلك اللواء الذى تجدد أيضا ثلاث مرات أثناء القتال وقد دمرته قواتنا مرتين ، وأسرت قائده فى هجومه الاخير علينا .

لقد كان للدبابات المصرية دورا قتاليا متألقا متميزا فى معارك الدبابات ضد الدبابات ، وفى المعارك التصادمية التى خاضتها وفى تدمير اللواءات الاسرائيلية المدرعة المدعومة بالحماية الجوية .. ومن هنا نستطيع أن نقول بكل الرضى والايمان أن المدرعات المصرية كانت فعلا وبحق « الغلاف الصلب لعين الجمل » .

المعركة غير المعلنة

ان البطل اللواء كمال حسن على مدير دبابات أكتوبر هو أحد نجوم معركة الصبر والصمت ، المعركة غير المعلنة التى قادها القائد الاعلى للقوات المسلحة الرئيس أنور السادات مع رجاله قادة قواتنا المسلحة ، استعدادا لمعركة مصيرية هى الخلاص للشعب العربى من عار الهزيمة فى ١٩٦٧ .

لقد نقل اللواء كمال حسن على بعد اصابته فى يونيو ١٩٦٧ نائبا لمدير شئون الضباط بالقوات المسلحه ،حتى التئمت الاصابه ــ فتولى رئاسه اركان احدى الفرق المدرعة ثم تولى قيادتها .

وساهم بعد ذلك فى هيئة عمليات قواتنا المسلحة كمدير للعمليات ، وكان اللواء سعد مأمون محـــافظ مطروح حاليا وهو أحد نجوم المدرعات المصرية رئيسا للعمليات فى تلك الفترة ، وبعد معركة التصحيح عام ٧١ تولى اللواء كمال حسن على ، رئاسة أركان المدرعات ، وفى يوليو ١٩٧٢ عين مديرا للمدرعات المصرية ، ثم تسلم أخطر تلقين من القائد العام المشير أحمد اسماعيل على ، بالاستعداد للحـــــرب .. ومضى أكثر من عام حافل بالتفاصيل والمهـــام حتى بزغ فجر ٦ أكتوبر وعبرت المدرعات المصرية الى سيناء ، فاتحة نيرانهـــا مطـورة هجومها ، موسعة لرءوس كبارى قواتنا ، محققة أرفع الاساليب فى ادارة معاركها التصادمية .

وقد اختار الفريق أول محمد الجمسى القائد العـام لقواتنا المسلحة وأحد أساتذة المدرعات فى الشرق الاوسط، اللواء كمال حسن على فى مايو ١٩٧٥ مساعدا له ، وكان أول لقاء لهما بالمدرعات فى بداية عام ١٩٤٧ .

بعد ذلك أسند الى البطل مهام أخرى على المستوى القومى .

شرايين الدم فى الجسد

أبو المهندسين ..

لقاء وحوار معه فى يناير ١٩٧٤

لم يكن الساتر الترابى الضخم الذى أقامه العدو على الضفة الشرقية للقناة لتغطية حصون بارليف هو المشكلة التى يجب أن نتغلب عليها .. كانت المشكلة حقيقة هى « الساتر الترابى » الذى اقامته قواتنا على الضفة الغربية ، فقد كان محتما اجراء فتحات فى ساترنا الترابى على الشاطىء تستقبل ارساء الكبارى حتى يتقرر عبور قواتنا ، وكان العدو بالضرورة سيشهد عملنا ، وكأننا بذلك نكشف له عن نوايانا ومناطق عبورنا ..

كيف واجهنا هذا الموقف ؟ ..

ـ انه أحد المواقف العديدة التى تجاوزها سلاح المهندسين فى نضاله المتصل منذ عدة سنوات استعدادا لليوم الخالد ٦ اكتوبر ١٩٧٣ ، يكشف عنها مدير السلاح « اللواء مهندس جمال الدين محمد على » الرجل الذى ظل يعمل ضابطا بالمهندسين ٣٠ عاما حتى عام ١٩٧٤ .

يبقى « سلاح المهندسين » فى كل جيوش العالم بمثابة شرايين الدم فى جسد الانسان تمد القلب بل كل الخلايا الحية بعنصر البقاء والنمو والحركة .

وفى حرب رمضان الخالدة ، أعطى « سلاح المهندسين » شجع العطاء ، وكانت مهامه من اطول واصعب واجبات القتال ، وقد جاد بعض أبطال السلاح بأرواحهم فـدية للنصر ، صعدوا الى رحاب الله وهم يصنعون دعائم الهجوم تحت قصف مكثف من طائرات العـدو بقنـابل الف رطل .

وعبر لحظة راحة ، تحدث أبو المهندسين العسكريين اللواء مهندس جمال الدين محمد على ، مدير سـلاح المهندسين ، حيث قضى الرجل ٣٠ عاما بالسلاح ، عن المعركة شـارحا الدور البطولى للمهندسين فى حرب رمضان الماجدة .

ـ بعد يونيو ١٩٦٧ ـ وتدمير طائراتنا فوق الارض ظهرت مشكلة حماية الطائرات الجديدة وتطوير وزيادة شبكة المطارات العسكرية بهدف زيادة كفاءةاستخدامها، وقد حمل سلاح المهندسين شرف هذا الوجب ، وبدأ الرجال العمل على الفـور قبل أن ينتصف شهر يونيو ١٩٦٧ ..

قلت لمدير السلاح :

ـ قالت بعض الصحف العالمية أن مصر تعتبر « رائدة » فى العالم ببنائها دشم الطائرات .. كيف حدث ذلك ؟

نعم ، نحن نعتبر « روادا » بدون أى مبالغة ، فقد أخذ حلف غرب أوروبا « حلف الاطلنطى » بأسلوبنا وأقام دشم الطائرات على غرار ما فعلنا ، كما طبقته دول أخرى فى قواتها الجوية .

لقد طلبنا عقب يونيو ١٩٦٧ ، ووصول الطـائرات الجديدة الينا ـ الخبرة ـ من أنحاء الدنيا ـ حتى من الاصدقاء السوفييت ، ولم يكن لديهم دشم أو ملاجىء لحماية الطائرات .. الاتحاد السوفييتى مثلا عمقه ١٣

الف كيلو متر طول مما يوفر له حماية جوية طبيعية، فلماذا يقيم دشما للطائرات ؟ ..

بدأنا العمل باجتماعات اشترك فيهـــا أكبر مهندسى الدولة لاقرار تصميمات الدشم التى وضعها ضباط من أخصائى التحصينات الوقائية بالسلاح ، وهى تصميمات مصرية صميمة ، ومررنا بعدة تجارب ، وتطور التصميم أثناء الانشاء ، فقد وضعنا فى الاعتبار مختلف الاسلحة والنيران التى يمتلكها العدو وما سيحصل عليه مستقبلا، لضرب هذه التحصينات ، مدتنا بهذه الدراسات جميـــع مصادر المخابرات ، وبالتالى حددنا درجة الوقاية اللازمة فى البناء نفسه .

وفى حرب ١٩٧٣ ـ ألقى العدو قنابله الضخمة ألفى رطل فوق هذه الدشم وأثبتت صلابتها وكفاءتها ، وقال وزير الدفاع الامريكى أخيرا فى تصريح له « ليس هناك علاج على الاطلاق لحماية الطـــائرات من اغارة الطيران المنخفض غير دشم الطائرات » وكان يتحدث عن الجولة الرابعة بيننا وبين اسرائيل .

حلف وارسو

قلت لِلواء مهندس جمال الدين محمد :

ـ قيل أيضا أن حلف وارسو أخذ أيضا بالاسلوب المصرى فى بناء قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ايمانا بالتفوق العقلى الهندسي المصرى.. فهل هذا صحيح ؟ ..

ـ نعم هذا صحيح ، كما أخذت به بعض الدول العربية الشقيقة أيضا ، وقد حدث ذلك بعد غارات الطيران الاسرائيلى يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٦٩ ، بكثافة شديدة ، أكثر من ٢٤٩ طائرة قاذفة ومقاتلة عدوة هاجمت مواقع الدفاع الجوى المصرى وبطاريات صواريخه بهدف كسر

السلاح الحديث وتحطيمه نهائيا ، ووقف الرجال بكل الصلابة والايمان يسقطون الطائرات المغيرة ، واكتشفنا بعض الثغرات فى بناء قواعد الصواريخ حسب التصميم الروسى فطورنا التصميم تطويرا مصريا من واقع خبرة المعارك اليومية بين قواتنا والقوات الاسرائيلية طوال ٦٩ ـ ٧٠ ـ وقد استفاد الاصدقاء فى حلف وارسو بهـذا التطوير وكما قلت لك بعض الدول العربية الشقيقة .

لقد كانت عملية بناء قواعد الصواريخ المصرية من أروع وأعظم ملاحم شعبنا البطل ، وهى التى أشار اليهـا القـائد الاعلى الرئيس أنور السادات أكثر من مرة فى خطاباته الى الشعب ، حيث التحم سـلاح المهندسين والقطاع العام ، وشيدوا مواقع الصواريخ فى أربعين يوم خالدة ، انفقنا خلالها أربعين مليون جنيه بواقع مليون جنيه لليوم الواحد .

وقد اشتركت فى هذه الملحمة مؤسسات مدنية عديدة من قطاعات التشييد والطرق والنقل واستصلاح الاراضى ، وكل قطاع استغل معداته الميكانيكية ومهندسيه وعماله .

واشتركت المراة الريفيـة بجانب زوجها فى اقامة القواعد ، كان نشاطها مشهودا وجسورا عملت الفلاحة المصرية تحت قصف القنابل الاسرائيلية فى بناء الدشم ـ ولم تتراجع او تخف ، كانت قوية صـامدة تعى دورها وما يقوم به أولادها وزوجها من أجل سلامة مصر .

كنا ننشىء المواقع ليلا مع آخر ضوء حتى أول ضوء ويحاول العدو ضربها نهارا ، فنعيد بنائها بكل الثبات والارادة الصلبة ، وكان حجم العمـالة ضخما جدا ، واستشهد لنا أبطال من المدنيين والعسكريين بجانب هذه المواقع من أسوان حتى الاسكندرية ، وكانت معركة تحدى بين المقاتل المصرى والعدو الاسرائيلى وأمكننا تنفيذ المهمة ،

وتساقطت الفانتوم وسكاى هوك وميراج العدو كالذباب تحت أقدام قواتنا .

ولقد أنشأنا مواقع مختلفة للدفاع الجوى وبطاريات صاروخية فى توقيت سريع ، وهي مواقع ميدانية ، وكانت مفاجأة للعدو حين تساقطت طائراته بين القاهرة والقناة ، وتكفلت هذه المواقع الصاروخية بحماية التحصين الثقيل بمنطقة القناة غرب ، من السويس حتى بور سعيد ، ولم تستطع الطائرات الاسرائيلية أن تنال من المواقع الهندسية المصرية بعد ذلك ـ فضلا عن دورها فى تدمير الطـــائرات المهاجمة بأعداد هائلة .

ممرات المطارات

ـ بعد ١٩٦٧ ، رأينا وكان ذلك ضروريا ، زيادة عـدد ممرات كل مطار ـ فى البـــداية كانت على شكل صليب فيضربها العدو فى التقاء الممرين وبالفعل أصبح لنا مطارات عسكرية كثيرة وبها ممرات عديدة أيضا تزيد من كفـاءة الطائرات المصرية ، لقـــد خططنا هندسيا لبناء الممرات ولست فى حل من الاشارة الى نوعية هذه التصميمات ، كما أعددنا شبكة مطارات تغطى أنحاء الجمهورية بأكملهـا وقد انشأنا وحدات مهندسين قادرة على صيانة الممرات واصلاحها اذا ضربت فى زمن قياسي ، وازالة القنـــابل الزمنية التى تسقط ولا تنفجر ، والعـدو يمتلك دائما أحدث أنواع هذه القنابل الامريكية المتطورة ، فى حـرب ١٩٧٣ القى على مطاراتنا قنابل زمنية تبقى من ساعة الى ١٥ ساعة يوميا . وأنواع أخرى لها طبات الكترونية ضد الاهتزاز ، وفى هذه الحرب المجيدة عمل قطاع من المدنيين مع سلاح المهندسين فى اصلاح الممرات ، كان معنا رجال من مؤسسة الطرق والكبارى ، يعملون جنبا الى جنب

مع رجالنا فى كل مطاراتنا الحربية .

ولقد واجهنا هذه القنابل بأجهزة حديثة ، ومن قبل استطعنا بالتعاون مع وزارة البحث العلمي وعبر دراسات استغرقت نصف عام ـ أن نصنع كثيرا من التجهيزات المصرية لمطاراتنا الحربية ـ وجاءت حرب رمضان لتؤكد كفاءة ونجاح التخطيط والتحضير الذى طبقه أيضا سلاح المهندسين والقطاعات المدنية الاخرى ، وقد تحولوا جميعا الى عقل واحد ، وقلب واحد .

قلت للواء مهندس جمال الدين محمد على :

ـ لقد كان لسلاح المهندسين دور ضخم فى الاعداد لحرب التحرير مع القوات البرية . . هل نستطيع التعرض له بقدر من التفاصيل . .

ـ كان دورنا فى تجهيز المسرح العسكرى لقواتنا هندسيا على مستوى القوات الجوية والدفاع الجوى والقوات البحرية ـ أما على مستوى القوات البرية ، فقد قمنا بانشاء نطاقاتها الدفاعية ، وطرق المناورة ، والمواقع والسواتر الترابية فى غرب القناة ، ومواقع القتال التبادلية ومراكز رئاسات الوحدات الضاربة ومناطق الحشد للهجوم ، وكان اهم عمل تميز به العام الماضى قبل الحرب هو بناء المصاطب الترابية على الضفة الغربية للقناة ، حتى تسيطر النيران المصرية على خط بارليف خلال الساعات الاولى للهجوم ، نيران الدبابات والمدفعية المضادة للمدرعات ، لوقاية قواتنا المشاة وهى تعبر القناة خلال اقامة كبارى العبور الثقيلة والخفيفة .

مع عام ١٩٦٨ بدأنا فى اعداد مهمات العبور ، صنعنا محليا كبارى مصرية صميمة ونسبة كبيرة من معدات العبور لتلبى احتياجات قواتنا البرية .

لقد استغل مهندسونا كل قطعة خردة ، كل البراطيم القديمة ، وصنعا الاحزمة العائمة ، صنعا أجهزة الرباط للكبارى : سطحها العلوى ، قواعـــدها فى الماء ، طورنا المزلقانات الكبيرة عند بداية ونهاية الكبارى لتصبح عملية الترسية على الشاطئين الغربى والشرقى سهلة متيسرة كى تمر المعدات الثقيلة بلا عقبات .

هناك المقاتل مهندس فؤاد الذى قام مع رجال وحدته ببعض هذا العمل البطـولى فى سرية تامة وبكفاءة مصرية عالية ..

الساتر الترابى

لم يكن التغلب على الساتر الترابى لخط بارليف من ٨ الى ٢٠ مترا ارتفاعا الى جانب ٨ أمتار حتى ١٠ أمتار تراب مسطح فوق الخط ، وهى التى يستعملها العـــدو كمصاطب نيران لدباباته ومدفعيته ــ لم يكن ذلك بالمشكلة الاولى أمامنا ، بل كانت المشكلة هى اجراء فتحات خداعية بالساتر الترابى المصرى على القناة ــ فتحات خداعية يطلق عليها منازل وساحات اسقاط الكبارى .. ولقد أجرينا هذه الفتحات على طول القناة حتى لايعرف العدو من أين ستعبر قواتنا .

كل ٢٥٠ مترا أوجدنا فتحة ولم يستطع العدو على الاطلاق تحديد اتجاه عبورنا .

وكان الساتر الترابى الشرقى جزءا من خط بارليف الذى يشمل النقط الهندسية الحصينة وعـــددها ٢٧ نقطة ، ولم يتوقف رجال الاستطلاع من المهندسين عن العبور تسللا الى الشرق . ودراسة كل تدعيم فى حصــون العدو وقد حرص منذ بداية عام ١٩٧١ على دعم تحصيناته باستمرار هندسيا وقتاليا .

ـ هل تستطيع ان نعرف خط بارليف هندسيا من خلال تجاربكم ودراستكم لحصونه ومواقعه ؟ ..

ـ كل ٤ كيلو مترات أقام العـــدو نقطة قوية وقام بتوصيلها بالساتر الترابى فى بعض المناطق بلغ ارتفـــاعه ٣٠ مترا ـ وكانت النقط بمثـــابة هيئات حاكمة على المحاور الرئيسية فى المناطق الصالحة للعبور وتبلغ مساحتها فى المتوسط ٢٠٠ × ٣٥٠ م ومحاطة بأسلاك شائكة وحقول الغام بعمق ٢٠٠ م فى المتوسط أيضا وبها جميع مرابض نيران الاسلحة ودبابات فى شكل دفاع دائرى بمدخل واحد وبها ملاجىء للافراد من طوابق متعـــددة وبدرجة وقاية عالية جدا لمقاومة قنابل الطائرات زنة ألف رطل وأكثر ، ومزودة بأجهزة تهوية وتنقية ضد الغازات وأسلحة التدمير الشامل ، وبها وحدات انارة وتكييف هواء وغيرذلك من المرافق الصحية ، وقد تكلف خط بارليف حسب تقدير العدو نفسه ٣٣٨ مليون دولار .

ـ قمنا بتجارب كبيرة ـ ميدان تجارب بالحجم الطبيعى أقمناه على كثير من فروع النيل فى مناطق مختلفة ـ وقد شيد المهندسون المصريون حصونا مطابقة تماما لحصون العدو ، وتعاملت معها أجهزة القيادة العامة والاجهـــزة الفنية المختصة فى القوات المســـلحة الى جانب الاسلحة الضاربة ، واستخدمنا المواد الناسفة التى اظهرت مزايا وعيوبا ، وبدأ الموقف كالاتى :

ـ حتمية معاونة المشاة التى ستولى اقتحام النقط القوية العدوة وذلك بفتح ثغرات فىحقول الغامها ، وقد رافق المهندسون موجات العبور الاولى مع الدقائق الاولى للهجوم وقاموا بهذا الواجب ، وجاد الابطال بأرواحهم فدية للعبور التاريخى .

ـ سرعة عمل فتحات فى الساتر الترابى الشرقى وفى

وقت قصير جدا ، واقامة الكبارى فى الوقت نفسه وكل ذلك محدود بفترة زمنية قياسية .

وكنا قبل ذلك قد توصلنا الى نجاح هدم الساتر الترابى بطلمبات تعمل بموتورات توربينية كموتورات الطائرات ، وفى سرية شديدة عملنا على اختصار الوقت الى فترة قصيرة جدا تتفق مع انزال وتركيب الكبارى ـ وعملت وحدات الكبارى ـ وسبق هذا كله دراسات مستمرة من خلال معلومات مقاتلى الاستطلاع التى تتجدد باستمرار عن العدو .

وفى مناطق أخرى أخذت وحدات الكبارى بقيادة البطل الشهيد لواء مهندس أحمد حمدى عبد الحميد ، تقوم بانشاء وتشغيل العدد الكافى من الكبارى والمعدات والناقلات البرمائية لعبور معدات القتال الثقيلة كالدبابات والمدفعيات والصواريخ والامدادات بالذخيرة وخلافها .

خبرة السد العالى

لقد كان هدم السد الترابى الشرقى عملا معجزا لتربته الطفلية وتحولها الى جبل من الطين أمام قذائف الماء .. لقد تزحلق المشاة وهم يعبرون فما بال المعدات المجنزرة ، لقد هبطت كميات كبيرة من تراب ساتر بارليف الى الماء فحدث الاطماء ، وكان لابد من رفع الاطماء حتى لا يعوق تركيب الكبارى ، ولقد حرص المهندسون على اطلاق الماء فى أعلى الساتر ثم فى أسفله لمكافحة عملية ترسيب التراب فى القناة .

وهنا يهمنى أن أذكر أصدق المعاونة التى قدمها لنا المهندس صدقى سليمان من خلال خبرة بناء السد العالى ـ وعمليات التجريف التى تمت فى أسوان على السدود الترابية .

وفى الجيش الثالث قاموا بأعظم الاداء وكانوا يصلحون ويعيدون تركيب اجزاء الكبارى المضروبة بقنابل العـــدو فى زمن قصير .. كانت الكبارى وسلامتها هى كل حياتهم ورجائهم ، كما كانت وحدات المهنـــدسين المتخصصة فى انشاء حقول ألغام داخل سيناء تحت نيران العـدو قادرة على تحقيق المفاجأة للقوات الاسرائيلية التى تورطت فى هذه الحقول وتدمرت لها عشرات الدبابات .

ان استعداد المهندسين للمعركة لا زال قائما ومستمرا ، فى سيناء أو فى غرب القناة ، أو فى أنحاء الوطن ، فى كل مطار ، فى كل قاعدة جوية ، فى مواقع الدفاعات الساحلية بين قواتنا البحرية ، فوق كل طريق أسفلتى أو ساحلى ، مع كل كراكة تعمل فوق سيناء المحررة ، وكل ماسورة مياه تمتد الى قواتنا ، وكل قارب خشبى تخرجه مصانعنا الحربية ، مع كل قطعـــة صلب صغيرة تزيد من دعامة كبارى العبور ، مع كل حصيرة صاج تنتشر فوق الرمال لتعبر عليها وحداتنا الميكانيكية والمدرعة ، يعمل سـلاح المهندسين البطل ليل نهار ، رافعا راياته ، فاتحا لنيرانه ماضيا بايمان وصلابة واستطاعة واقتـــدار . تسبقه معداته ، لتشق دائما طريقا للنصر .

مهندسو النصر

عاشوا السنوات الست المريرة بكل كيانهم .. جهدا وفكرا وابتكارا ، واتصل ليلهم بنهارهم ، وعيونهم دائما على الفجر وقد آمنوا بحتمية مجيئه ، حتى بزغ نهار ٦ اكتوبر الخالد على مدى التاريخ ، فأرسوا بدمائهم وأرواحهم دعائم النصر ..

أولئكم الابطال العمالقة مقاتلى سلاح المهندسين .

انهم زراع قواتنا المسلحة الصلبة الممتدة الى قلب مواقع العدو ، ظلت استطاعتهم وقدراتهم كمياه الشلالات المنطلقة من خلف السدود ، تلك القدرات التى تملكها فصائل بعينها من الرجال ويتجاوزون بها امكانيات البشر ، فكان أداؤهم لمهامهم فى حرب رمضان الماجدة ، جريئا غنيا بالعلامات المضيئة ، تزينه أشرف البطولات ، وأغلى التضحيات .

لقد أوكلت القيادة العامة للقوات المسلحة اليهم مهام وواجبات من أخطر وأهم أركان الاعداد للمعركة ، وبدأ نشاطهم على الفور مع بقية الاسلحة الاخرى منذ رفعنا راية استمرار القتال بعد نتائج معركة يونيو ١٩٦٧ ، وانضمام الطاقات الشابة الجامعة الى صفوفه المقاتلين ، وبناء الجيش بأسلوب عسكرى علمى حديث ، وبمعدات

متطورة تساير متطلبات العصر ومعركة تحرير سيناء من الاسر .

كان عليهم بناء مطارات حديثة وعديدة لقواتنا الجوية ودشم جديدة متفوقة على مثيـــــلاتها فى أسلحة طيران العالم ، وقد وضعوا فى الاعتبار مختلف الاسلحة والنيران التى يمتلكها العدو ، وما يمكنه أن يحصل عليه مستقبلا لضرب هذه الدشم ـ مدتهم بها مصادر المخابرات المختلفة، وعلى هذا الاساس حددوا درجات الوقاية اللازمة لبناء الدشم التى تلقت فى حرب ١٩٧٣ ، قنابل العدو زنة ألفى رطل وأثبتت كفاءتها وصلابتها ... ونجح مجهود الرجال

وما أكثر هذه الدشم وشبكة المطارات التى غطت أنحاء الوطن ، وما أعظم الجهد الذى بذله المهندسون لبنائها بمثل هذا الحجم كثافة وبنيانا ، حتى أخذ بها حلف الاطلنطى وطبقها فى مسارحه العسكرية الجوية ، كما أخذت به دول أخرى عربية وصديقة أيضا .

ومع بناء المطارات والدشم كان لابد من زيادة عـــدد ممرات كل مطار حتى اذا ضرب العـــدو بعضها استمر الباقى يعمل بلا توقف ، وبالممرات العديدة ترتفع كفاءة الطيارات والنتائج الايجابية التى يمكن تحقيقها ...

ولقـــد صمم المهندســـون العسكريون ممرات ذات تصميمات هندسية تدخل فى نطـــــاق السرية : وتكونت وحدات من المهندسين لصيانة هذه الممرات ليلا ونهارا قادرة على اصلاحها بوسائل فنية حديثة فى زمن قصير اذا أصيبت بقنابل العدو ، وعمل عـــــــدد ليس بقليل من المهندسين المدنيين ، وكذلك من الفنيين أبناء القطاع العام فى مطاراتنا العسكرية خلال حرب اكتوبر المجيدة ، حين تعرضت ممرات الطائرات لقنابل زمنية من أحدث انتـــاج

ترسانات أسلحة أمريكا ، وبقيت من ساعة حتى ١٥ يوما دون انفجار ، حتى يكتشفها هؤلاء العمالقة ويجمعونها ، وبعضهم جاد بحياته كما ستتعرض له خلال السطور القادمة ، جاد بحياته مقابل رفع هذه القنابل دون تفجيرها ليضمن سلامة الممر وسلامة اقلاع طائراتنا .

لقد واجه مهندسونا وهم فوق ممرات مطاراتنا قنابل تلقيها طائرات العدو لم يستعملها من قبل ، غير أنها لم تشكل مفاجأة للرجال الذين تلقوا عليها دراسات طويلة سابقة كانت سبيلهم الى السيطرة على تلك القنابل المضادة للاهتزاز وتبقى بلا انفجار مختفية عن العيون غير اليقظة .. ٥٠ ساعة ، ويذهب اليها « المقاتل المهندس كما فعل البطل مهندس ، مرتضى » ابن قرية العجمين بالفيوم ، وهو لايعرف توقيت ضبط لحظة الانفجار فى الساعة الزمنية داخل القنبلة ، وبعضهم لم يكن يعرف نوع طابة هذه القنبلة أو تلك ، يذهب اليها ليعمل بيديه فيها قلب وعقل واحد ، لحركة ارادة فولاذية صلبة ، وتخطيط هندسى بارع تدربوا عليه مئات المرات ، وكان والضباط والجنود أبناء السلاح العملاق يتحركون امامى لانزال البراطيم واقامة الكبارى واجراء الفتحات فى الساتر الشرقى ، وتلغيم مصاطب دبابات العدو بالضفة الشرقية ، وتخريم بعض مواقع دشم بارليف الحصينة بالديناميت فى وقت واحد ، كل مقاتل فى المكان المحدد له ، لا تزحزحه قنبلة من طائرة عدوة ، أو دفعة رشاش اسرائيلى ، أو دانة دبابة باتون ، أو قصف مدفعية للعدو فى عمق سيناء ، وحين تصاب براطيم ومعديات العبور يعيدون اصلاحها بكل الثبات الانفعالى والخبرة المدعومة بالايمان ، والثقة فى قدراتهم الفنية واقتدارهم

على تجاوز خسائرنا فى الكبارى : واعادتها الى العمل عبر زمن وجيز ..

يقول لى أحد قادة وحدات الكبارى :

— « بعض المقاتلين معنا لم يكن مضى على انضمامهم للسلاح الا عام أو أقل ، ووجدتهم أول من أسقطوا معداتهم فى مياه القناة ، ولم يتركوا الكبارى التى شيدوها بكل أعصابهم حين تعرضت للقصف الجوى ، ان الكبارى كانت كأبنائهم ، احتضنوها وظلوا فوقها حتى استشهد البعض وهو يحاول اصلاح الاجزاء المصابة قبل أن تنتهى الغارة ، لهفة وحبا وارتباطا بالكوبرى ..

اننى أذكر « المقاتل البطل المهندس الصواف » ابن قرية برما بطنطا ، كان فى مقدمة جنوده وهم ينقلون معدات بناء الجسور ويقودون المعديات لتنضم الى بعضها وتتحول الى كوبرى جديد ، كان يعمل مع الجنود والضباط فى انزال البراطيم والبولدزورات الى الضفة الشرقية ثم ينتقل الى وحدات مدفعية المياه التوربينية ، فيرفع اطلاق الماء حتى يبلغ ٥٠ مترا ، ولكن ساتر العدو الترابى لم يزد على ثلاثين مترا على طول الجبهة ..

وعبر الرجال ، وجاءت دبابة اسرائيلية أفلتت من الالغام وأطلقت طلقاتها على المعديات فوق الماء ، وأصابت طاقة مباشرة معدية المقاتل الصواف واستشهد البطل العملاق بجانب كوبرى القنطرة شرق ، وبين جنوده الذين تقدموا ونسفوا الدبابة ، ثم عادوا لتكملة بناء الكوبرى ، وقد أطلقوا اسم قائدهم عليه ، تخليدا لشجاعته وقيادته الناضجة وحياته التى أهداها لجسور العبور ..

المقاتل البطل مهندس أبوزيد ، من أبناء أبو كبير شرقية ، كان دينامو الكبارى وصيانتها ، قضى ليلة ٧ أكتوبر بمنطقة الشط فى اصلاح الجسر ، وفى فجر اليوم

التالى ، أستشهد البطل وهو يقـــود مجموعة صيانة الكوبرى تحت قصف قنابل الفانتوم بعد أن أدى أعظم الاعمال يوم ٦ أكتوبر ..

البطلان المقاتلان المهندسان هنداوى ونبيه جرجس ، ابنا دمنهور ومفاغة ، ظلا بأقصى الصلابة والارادةالحديدية مع جنودهما فوق الكبارى يحميانها بالاصلاحات السريعة كلما تعطلت أو أصيبت بعض أجزائها ..

وحين عبرت وحدات المشاة مياه القناة عبر معهـــا « البطل نبيه جرجس » كعنصر مهندسين ..

حمل السلاح واشترك فى قتال أفراد العدو داخل دشم بارليف فى منطقة جنوب البحيرات ثم أستطلع الشاطىء وحدد أماكن فتح الثغرات مع وحدات الالغام والمفرقعات، وعلى الفور عمل معهم فى تجريف الساتر الترابى بطلمبات الماء التوربينية ، وتم فتح الثغرات ، كل كوبرى فتح له الرجال ٣ ثغرات لتصلح احداها ، وتولى البطل مسئولية صيانة مخرج الجسر من ناحية الشرق ، وكشف العدو هجومه المضاد على غرب وشرق الكوبرى ، ولم يلجـــأ «نبيه» ألى الملجأ القريب ، لم يختف لينجو بحياته ، بل فتح رشاشه ضد أفراد العدو دفاعا عن حماية الكوبرى ، وصعدت روحه الى الخالق وهو يواجه كتلا ضخمة من النيران تنهال فوقه وحوله ... كالامطار ..

واستشهد البطل فى مقدمة جنوده ، مع أول أضواء الفجر ، وكانت آخر كلماته لرفاق السلاح ، بعد أن علم باستشهاد زميله البطل هنداوى :

ـ « احموا الكبارى بأراحكم ياولاد ، الكوبرى ده هو مصر » .

انه الفداء بعينه ، ولا وصف آخر يمكن أن نجده لنطلقه على من يذهب سريعا بكل اللهفة الى الموت بقدميه طلبـا

لنجاة الممرات والمطارات والطائرات ...

لقد ظل « البطل مرتضى » طوال ٦ أيام منذ أقلعت طائراتنا الى ضربة السيطرة الســاعة ٢ ظهر ٦ اكتوبر ١٩٧٣ ، يقظا نشطا رافضا النوم غير ســـــاعتين كل ٢٤ ساعة فقط مفجرا لقنابل العدو ويوم صعدت روحه الى رحاب الله يوم ١٢ أكتوبر كان قد أبطل لتوه ثلاث قنابل زمنية ، فجر الاولى بعيدا عن المطار ، كذلك فعل مع القنبلة الثانية ، لكن القنبلة الثالثة لم تمهله طويلا ، انفجرت وهو يحملها بين يديه ، وحوله اثنان من جنوده الابطال بهجت ومحمد ..

القاتل الخفرجي ابن المنصورة نفس الظروف ونفس القصة ونفس الأداء ، ولكنه جاد بحياته فى مطار آخر ..

لقد اشتهر « البطل الخفرجي » بالمعجزة ، أبطل فى يوم واحد عشرات من القنابل الزمنية التى ألقتها طائرات العدو فوق مطاراتنا وحول قواعد الصواريخ المضـــــادة للطائرات ، ثم تكرر هذا العمل البطولى الفريد يوميا والله يحوطه بالرعاية فيفجرها بعيدا قبلأن تنفجر فى رجالنا ، وكان بعض رفاق السلاح يصفونه خلال حرب الاستنزاف واقامة قواعد الصواريخ وازالة مئات القنابل التى تلقى فوقها كل يوم وكل ليلة ، كانوا يصفونه بصاحب الذراع المحجب ، حتى استشهد وهو يؤدى واجبه البطــولى خلال الاسبوع الثانى من المعركة .

ان أبطال وحدات ازالة القنـــابل من المهندسين قاموا بأعظم الاعمال الانتحارية خلال أكتوبر ــ نوفمبر ــ ١٩٧٣ ومن قبل عام ٧٠/٦٩ وكانت معطياتهم تتميز بالابتكار والسيطرة الفنية على الكترونات العدو ، وبعضهم تعامل مع قنابل لم يرها من قبل وتحولت فى دقائق الى لعبة من الحديد بين أصابعه ــ أمام قدراته العلمية وثروته من

المعارف العسكرية فى صنــع القنــابل الحديثة بمختلف أحجامها .

عمالقة الكبارى ..

وفى سلاح المهندسين بزغت كفاءات وعقليات هندسية راقية بين مقاتلى وحدات الكبارى طوال سنوات الصبر والصمت والاعداد للعبور العظيم .

استغل مهندسو قوات الكبارى كل قطعة خردة لديهم ولدى القطــاع العــام ، استغلوا البراطيم القديمة الى جانب الجديده ، صنعوا الاحزمة العائمة ، وأجهزة رباط أجزاء الكبارى وسطحها العلوى وقواعدها المائية ، صنعوها وطوروا فيها ، فى مصانعها الوطنية وبأيدى وتصميمات مصرية مائة فى المائة ، صنعوا المزلقانات الكبيرة عند نهاية وبداية الكبارى حتى تصبح عمليات الترسبة للكبارى عند الشاطئين الغربى والشرقى للقناة سهلة متيسرة تستغرق أقل الوقت ويتيسر مرور المعدات الثقيــلة كالدبابات وعربات الصواريخ المنقولة الى سيناء ..

وقام المهندسون بالتجـــارب على المواقع لاكتشاف العقبات وتذليلها ، فوق كثير من فروع النيــل فى أنحاء الوطن ، أقاموا حصونا مطــابقة لحصون العدو ، خط بارليف ودشمه الهندسية الاشبه بالقــلاع ، وشيدوا الكبارى فى توقيتات محددة ، الكبارى الثقيلة والكبارى الخفيفة ، وقامت وحدات أخرى بأعمال النسف والتلغيم ، بل وأعدوا الساتر الترابى الشرقى ليتدرب المهندسون على عمل الفتحات السريعة فيه ، حتى توصلوا الى نجاح هدم الساتر الترابى الذى أقامه العــــدو بالموتورات التوربينية « موتورات الطائرات » وعملت وحدات هدم الساتر تحت قيادة وحدات الكبارى جنبا الى جنب ، فقد

كانت الخطة العامة للهجوم يوم ٦ أكتوبر الخالد تقضى بأن يؤدى رجال كل من الوحدتين وفى وقت واحد ، مهامها التاريخية خلال فترة زمنية محددة قابلة للاختصار ، ولكنها غير قابلة للزيادة .

وجاء اليوم الحق ، وتحول مهندسى الكبارى الى رجل واحد ، ذراع واحدة .

رص الالغام

بين مهام سلاح المهندسين ، تبرز واحدة من اعظم واخطر المهام : تلك هى تعزيز مواقع الهجوم برص حقول الغام ، وبعضها لابد من القيام به تحت طلقات المدفعية أو الدبابات من الجانبين،ولذلك تعتبر مثل هذه المهمة واحدة من العمليات القتالية الانتحارية ، يقوم بها عمالقة وحدات الالغام من ضباط وجنود المهندسين ..

فى القطاع الاوسط ومعركة الدبابات الشهيرة اكبر معارك العصر ، فى بداية أيامها التسعة ، كان هجوم مشاتنا ودباباتنا ضاريا كثيفا على لواءين مدرعين للعدو ، وقد اشترك الطيران المصرى فى القتال ثم جاءت الطائرات الاسرائيلية وحاولت كسر هجوم قواتنا المشاة والمدرعة والمشاة الميكانيكية : وهى تطور الهجوم وتتقدم الى عمق سيناء .. فى تلك الساعات الدقيقة تقدم عدد من أبطال المهندسين وقاموا برص حقول ألغام أمام دبابات العدو لمنعها من التقدم مسافات جديدة ولفرض حصار على حركتها ، يساعد مشاتنا على الالتفاف حولها وتطويقها .. وهى عملية لا يجرؤ مقاتلوا العدو على القيام بمثيلها لانها احدى واجبات الفداء والتضحية أغلى وأرقى التضحية..

ولقد قام بها متطوعان « البطل المقاتل مهندس التميمى، والبطل المقاتل المهندس البحيرى ، وظلا مع جنودهما

يرصان الالغام أمام انتشار الدبابات الاسرائيلية والنيران تتساقط حولهما ، فى منطقة قتال لايزيد طولها على ٢ كيلو متر فقط ، وكان للعمل البطولى المجيد الذى قام به العملاق ، ودفعا حياتهما تمنا له ـ فضل حصار رجال المدفعية المضادة للدروع المصرية ونسف أفرادها الذين حاولوا الفرار ، فوقعوا فى « حقول الغام التميمى والبحيرى» ورفاق السلاح ، وظلت بقية الدبابات التى يتكون منها الاحتياطى التعبوى للعدو عاجزة عن نجدة الاحتياطى التكتيكى الذى انضم الى مقبرة الدبابات العدوة فى سيناء ..

سلام عليكم ايها المهندسون .. عقل ومستقبل مصر ..

سلام على شموخكم ، على بطولاتكم ، على أغلى تضحياتكم ، على ابتكاراتكم الهندسية التى أخذ عنها مهندسو أكبر جيوش العالم ..

سلام على المقاتلين المهندسين الذين لم التق بهم ، وكنت قد سعيت اليهم ..

سلام على من استمعت الى بطولاتهم صدفة وعبر جولتى مع السلاح البطل ...

سلام على المقاتلين المهندسين ، منتصر وعابدين وفتح الباب وحمودة وشطا وحربى وشفيق » .. وعشرات. غيرهم من رفاق المعركة الابطال أحياء وشهداء .

سلام عليكم يا جنود المهندسين العمالقة ...

سلام عليكم يا مهندسى النصر ، وقد رفعتم عاليا راية مصر ..

السويس وجيشها الثالث

أعطى مقاتلو الجيش الثالث ، قوات الفرقتين ١٩ و ٧ مشاة ووحدات الصاعقة ، وأسراب الطائرات الهليكوبتر، أرقى صفحات الشرف والاستبسال خلال مائة يوم من أبرز وأمجد أيام حرب أكتوبر الخالدة على مدى التاريخ ، وقد توجها القائد الاعلى للقوات المسلحة فى برقيته الشهيرة الى اللواء أحمد بدوى قائد الجيش الثالث وهو يعيش ذروة قتاله المشروع :

« لتبق مقاومتكم وهجماتكم فى قمتها والله معكم ».

هذه بعض معارك الملحمة العسكرية التاريخية المصرية ملحمة الجيش الثالث البطل . .

أرهف العالم أذنيه وهو يستمع الى ملحمة الجيش الثالث البطل فى السويس وجنوب شرق سيناء ، وجبل المر ورأس مسلة وعيون موسى ، طوال مائة يوم محفورة فى تاريخ نضالنا المسلح ، تلك التى أطلق عليها العدو فترة الحصار ، ووصفها بعض المعلقين العسكريين العالميين بقطع الاتصال . . فعلى مدى التاريخ لم يحدث أن واجه جيش مقاتل تلك الصعوبات التى تجاوزها مقاتلونا دون أن يستسلم مقاتل واحد على الاطلاق ، بل قاتل أبطالنا خلال ماسموه بالحصار وحرروا مزيدا من الارض واستولوا على بعض الدبابات الاسرائيلية ، وقتلوا العديد من أفراد العدو

فى معارك كبريت المجيدة ، ورددت جماهيرنا اسم البطل الشهيد ابراهيم عبد التواب قائد كبريت وواحد من أبرز وأشجع أبنائنا .

ان ثمة بطولات رائعة قام بها عدد من الرجال الصناديد وقد تدربوا جيدا من قبل تدريبا رفيعا على هذه المهام : مهام نقل الامدادات الى قوات الجيش الثالث ، عبر طائرات الهليكوبتر فى طلعات انتحارية ناجحة ، وفى قوافل برية اخترقت الارض التى ادعى العدو سيطرته عليها ، وفى زوارق عديدة صنعت جسرا بحريا الى شرق سيناء حيث الجيش الثالث البطل .

كان أبرز أوضاع الموقف ان قوات الثغرة الاسرائيلية بقى مصيرها مرهونا بارادة مصر ، أو كما كتب صحفى انجليزى فى بداية عام ١٩٧٤ ، ان قوات اسرائيل فى منطقة الثغرة أشبه بوجودها فى فم تمساح كبير لم يطبق فكيه بعد » .

وصحفى فرنسى آخر قال عبارة أوقع « ان القوات الاسرائيلية فى منطقة الثغرة كما رأيتها هى المحاصرة بالقوات المصرية وليس العكس » .

السادات والسويس

لذلك كان « السادات » مشحونا بأنبل المشاعر ، وارقى ثبات الاعصاب ، وهو يشرف على خطة فتح نيران الجيش الثالث من الغرب والشرق فى وقت واحد على قوات العدو المدرعة التى قطعت الطريق عرضا بين البحيرات والادبية ، وتقدمت نحو مدخل المدينة ، وكان ذلك خلال اليوم الخالد يوم ٢٤ اكتوبر ١٩٧٣ ، يوم الالتحام الشهير بين جماهير السويس ومقاتلى الجيش الثالث « من المشاة والمدفعية والصاعقة » داخل المدينة بينما طائراتنا تلقى بقنابلها فوق

قوات العدو عبر آلاف الطلعات تحت قيادة الفريق حسنى مبارك .

وكان يوما مشهودا بالبطولات الاقرب الى المعجزات...

لقد حمل جندي شرطة ضابط شرطة أصيب معه ، حمله الى سيارة الاسعاف والدماء تنزف من الجندى والضابط معا ، واستشهد الاثنان وذراع كل منهما تلتف حول خصر الآخر ، وفى اليد الاخرى بندقية آلية .

وفى السويس وقعت معركة شنودة وغريب ، شنودة جندى الصاعقة الجريح حاملا قائده أحمد غريب وقد أصيب هو الآخر ، وشنودة فاتحا رشاشه بيمناه على جنود العدو، حاملا قائده غريب بيسراه ، والدماء تنزف من سيقان شنودة العملاق ، واذا بجنود العدو يفتحون رشاشاتهم على السيقان الجريحة والضابط الجريح فوق كتف البطل ، ويستشهد البطلان بعد أن دمرا أربع دبابات اسرائيلية وحصدا عشرات من جنودها ..

وانتهى اليوم بانتصار الشعب والجيش ، وامام كل شارع ، وأمام بعض البيوت بقيت الادلة الدامغة ، دبابات وعربات مدرعة اسرائيلية محترقة ومدمرة ، وقد وجدوا « ٣٤ » دبابة لم يسحبها العدو ثم اكتشفوا وجود دبابات اخرى حاولت الدخول الى أزقة حى الاربعين طلبا للنجاة .

وقال السادات بعد ذلك كلمته الشهيرة :

ـ « ربما كنت مدفونا الآن بمنطقة القناة » .

اربعة من العسكريين

بين العسكريين أبناء الجيش الثالث ، تقدمت أسماء اربعة رجال ، سلسلة الابطال الذين قادوا حرب السويس من الضباط وأبناء المدينة ، ذلك كان دورهم وقدرهم وقد

حققوا انجازات رائعة على مستوى العبور والهجوم فى سيناء ، وتجاوزوا العقبات الفنية التي واجهت الجيش الثالث منذ ساعة الصفر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، واستطاع الرجال التغلب عليها ، وعلى مستوى العمل العسكرى الذى توج العسكرية المصرية بتاج الفخار والشرف حين صمدوا وقاتلوا وحرروا مزيداً من الارض خلال ما اسماه العدو بالحصار ، وأسماء بعض الملقين العالميين بقطع الاتصال ، وقد تجاوز الاربعة هذه المسميات كلها بواقعها الهزيل ، ابتداء من ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، حتى انسحب العدو الى خلف المضايق .. انهم :

لواء أحمد بدوى قائد الجيش الثالث وكان قائداً للفرقة السابعة مشاة برتبة عميد .

لواء يوسف عفيفى وكان قائداً للفرقة ١٩ مشاة برتبة عميد أيضا ، والفرقتان من فرق الجيش الثالث .

العميد فتحى عباس أحد قادة المدينة .

المقاتل بسيونى من قادة الصاعقة المحليين وقد قاد معارك وحداته تحت اشراف العميد نبيل شكرى قائد قوات الصاعقة .

لقد أستعد جنودنا باحتلال الساتر الترابى على ضفتى القناة ونيرانهم موجهة نحو العدو اذا أقترب من السويس ، وتقدمت مجموعات الأستطلاع ليلة ٢٢ أكتوبر الى الضفة الغربية لرصد نشاط العدو المدرع .

بعد ذلك قام القادة بتوجيه بعض مدفعيات الفرقة ١٩ مشاة لتغطية قطاعات معينة غرب القناة ودفعت مركز ملاحظة الى هناك لأدارة نيران مدافعنا المصوبة نحو القوات الاسرائيلية .

وقد فتحت المدفعية المصرية نيرانها خمس مرات يوم ٢٢ أكتوبر على مدرعات العدو التى حاولت احتلال مركز

قيادة الجيش الثالث المتقدم غرب القناة وحطمت هـذه المحاولة تماما .

بعدها مباشرة تحركت مجموعة صواريخ مضادة للدبابات قادها البطل حسام الى أرض الغرب ، وقد عبرت القناة فوق ناقلات برمائية ، وحاول العدو قصفها بالطـائرات ولم ينجح اذ تصدت لها مدافعنا المضادة لها ، واحتلت المجموعة مواقعها على بعد ٨ كيلو مترات شمال المدينة لمواجهة الدبابات الاسرائيلية اذا توجهت الى مدخل المدينة على طريق المعاهدة شرق مطار الشلوفة .

السويس .. لا

وجاء العدو أمام منطقة المثلث ، لواء اسرائيلى مدرع يضم ١١٠ دبابة و ٩ عربات جنزير كامل ، ودفع كمفرزة أمامية ٥٠ دبابة أو أقل قليلا ، وتعامل معها رجال مدفعيتنا الصاروخية والميدانية ، وكانت معركة من معـارك ثبات الارادة المصرية والتدريب الجيد ، كما أخذ المقـاتلون المصريون يقتربون من الدبابات وهى فاتحة لنيرانها حتى ٢٠ مترا ، ويطلقون صواريخهم ، فدمروا ٩ دبابات على المواجهة ، و ٤ دبابات فى الجانب الايمن للواء الاسرائيلى المدرع خلال الاشتباك الاول ، وارتد العدو مذعورا ، وقال أحد ضباطه فى اللاسلكى مخاطبا قائده وهو يلهث :

ـ السويس .. لا .. السويس .. لا ..

من السويس للبحيرات

وفى يوم ٢٤ أكتوبر قاد العميد أحمد بدوى اللواء بعد ذلك ، كتيبة مشاة من الفرقة السابعة عبر القناة الى الغرب وهذه الكتيبة تضم بين رجالها ضباطا من صغار الرتب

حملوا نجمة سيناء وهم أحياء تقديرا لبطولاتهم في معارك الثغرة .

قال لى المقاتلان « برعى وعلوان » من ضباط هـذه الكتيبة :

ـ لقد ذهبنا الى منطقة البحيرات وأخذنا نعمل فى تدمير مدرعات العدو وعربات صواريخه ، وقد فوجىء بنا تماما ، وكانت المفاجأة كما هى العادة مناخا رائعا لفتح نيراننا ، ثم عدنا الى الشرق فى سيناء .. بعد ذلك تكرر عبورنا والتحامنا بالعدو فى غرب القناة .

وفى يوم ٢٤ أكتوبر أيضا دمر رجال الفرقة ١٩ على طريق المعاهدة ١١ دبابة وعربة مدرعة .. ثم عاد رجالنا الى السويس حين فرغت ذخيرتهم وتفرقوا الى مجموعات اقتناص والتحموا برجال المقاومة الشعبية ، ورجال منظمة سيناء ، ورجال الشرطة ، وعناصر تمثل بعض أسـلحة قواتنا المسلحة التى وصلت قادمة من الشرق .. وحمل الجميع مدافع آر ـ بى ـ جى وقاموا بمعركة شعبية مسلحة وأحرقوا العدو الذى استطاع التسلل من المثلث والاربعين عن آخـــره . وارتفعت ألســـنة اللهب الى السماء ..

كانت معركة من أروع وأخلد معارك جماهير الشعب الملتحمة بوحدات الجيش ، وفى الوقت نفسه تعاودالوحدات العسكرية المضادة للدبابات الحصول على ذخيرتها المحمولة من عمق الجيش الثالث بسيناء ، استعدادا لمعركة أكبر ، فالعدو استمات فى دخول السويس وقد تخيل أن المقاومة ستضعف ساعة بعـد أخرى ، ولم يدر بحساباته العكس تماما وهو ما حدث .

حاول العدو غزو المدينة بعد ذلك من ثلاثة اتجاهات :

الجناين فى خط السويس ..

طريق مصر – السويس ، نحو حى الاربعين .

طريق الزيتيات فى اتجاه بور توفيق .

وبدأنا القتال رغم كثافة دبابات العدو وعرباته المجنزرة وغارات طائراته التى دمرت بعض كبارى قواتنا فاستعاض رجالنا بالمعديات والناقلات البرمائية ، وظل القتال ضاريا لا هوادة فيه من الساعة الحادية عشرة ظهرا حتى الخامسة والربع مساء ، دمرنا خلالها ١٩ دبابة و ٩ عربات مجنزرة و ٣ حاملات جنود وأربعة لوارى ، ووجدنا بعد ذلك ٤١ جثة محترقة تماما لجنود العدو ، عجز عن حملها حين فر عائدا الى الغرب ..

وفى يوم ٢٥ اكتوبر ورجالنا انتهوا تماما من اعادة توزيع مواقعهم المختارة عسكريا ، وقد تمركزت فيها عناصر شعبية وأفراد من القوات المسلحة استطاعوا تدمير دبابات العدو على طريق الزيتيات ، بقيادة المقاتل عبد الرحيم ، والمقاتل عزت ، وانضمت بعد ذلك عناصر الصواريخ المضادة للدبابات الى عناصر الآر بى جى لتحمى مداخل المدينة ، وقد اشتركت فى قتال الدبابات الاسرائيلية التى حاولت التقدم يومى ٢٦ و ٢٧ أكتوبر ، أول وثانى أيام عيد الفطر الماضى على طريق المثلث وعلى طريق حوش الدرس تحت مظلة جوية من الفانتوم وسكاى هوك تحاول قصف قواتنا فى الغرب وفى شرق سيناء ، وقد أسقط رجالنا من مقاتلى الدفاع الجوى عديدا من طائراته فوق المسرحين ، طوال يوم ٢٦ أكتوبر ، وتدمر له ٧ دبابات جديدة و ٣ عربات جنزير ، وكانت السويس ملفوفة باكملها فى غطاء ضخم من النيران والدخان الاسود والشظايا المتناثرة ، والطلقات الطائشة ودماء الشهداء ، غير أن مستوى الضبط والربط بين المدنيين ظل عاليا تحت قيادة المقاتل عميد فتحى عباس ومعاونيه ..

محمد الصغير

وبقيت السويس شامخة ، صـــامدة بفضل الذراع الواحدة القوية ، ذراع الجيش الثالث وجماهير المدينة ، شرطة ، ومقاومة شعبية ، وأعضاء منظمة سيناء ، بل واطفال السويس الذين عملوا فى نقل الذخيرة الى المقاتلين ، ومن بينهم الصبى محمد ، الذى اهتم الرئيس السادات بالسؤال عنه والالتقاء به .. ذلك ان محمد ابن الاربعة عشرة عاما دمر وحده دبابة سنترين بقاذف آر ـ بى جى ، كان قد سقط من ذراع شهيد بطل بجـــانبه ، ولم يهتز الصبى العملاق ، أمسك بالسلاح الصغير ، وبدون تدريب أطلق الطلقة الاولى وكانت فى قلب الدبابة العدوة .

قال محمد الصغيرة للرئيس السادات وهو يصف تلك اللحظات وقد ارتدى ملابس الميدان :

ـ « كنت قاتل يا مقتول » .

انها الحرب ، الحرب تعلم الحرب ، كلمات قليلة قالها « السادات » وهو يصافح البطل محمد ابن السويس ، مودعا .

وحين جاء حاخامات العدو الى سيناء يطلبون جثث قتلاهم فى معارك السويس كانوا يطلبون كشفا سجلوا به الآتى :

أسماء ٣٧٣ جندبا اسرائيليا قتيلا .

٦٨ ضابطا اسرائيليا قتيلا .

٢٣ طيارا اسرائيليا قتيلا .

وضحك ضابط الاتصال المقاتل فؤاد سلطان ، وقال للحاخامات بالانجليزية :

ـ ربما كانوا أكثر من هذا العدد .. ألا تظنون ذلك ؟!

ونظر الحاخامات فى دهشة بعضهم الى بعض ... ثم أعادوا قراءة سجلاتهم مرة أخرى .

صراع الإعاقة والسيطرة

فى لقـــاء القـــائد الاعلى للقوات المسلحة الرئيس أنور السـادات مع قادة حرب أكتوبر مسـاء الثانى من أكتـــوبر ١٩٧٤ ، قدم للجماهير العربية بعض القـــادة الذين ظلت أسماؤهم بعيدة عن العلنية فترة طويلة قبل وبعد الحرب .

ومن بين هؤلاء القادة اللواء محمد رفعت وهبة قائد سلاح الاشارة ــ السلاح العمـــلاق الذى ينتسب اليه الرئيس السادات ضابطا بالقوات المسلحة .

وفى هذه الصفحات نعرض بقدر من التفصيل قصة هذا السلاح الذى تفوق دائما برجاله .. وامكانياته العلمية المتطورة .

لقاء وحوار فى نوفمبر ١٩٧٤

انه كالشريان التاجى أو الاورطى بالنسبة لجسم الانسان ... هو سلاح الاشارة بين أسلحة الجيوش ، وكما وصفه بعض اساتذة العسكرية فى العالم « لسان القادة وآذانهم بل وعيونهم يرون بها أعمق ما حولهم » .

ــ « أن الاشارة هى حواس القائد » .

سمعت فى لقاء مع أحد مقاتلى « الاشارة » بقواتنا المسلحة، ممن حققوا أقصى الخبرات وأعطوا السلاح أحلى سنى العمر قصة طريفة قبل أن يمضى بنا الحديث الى دور « الاشارة » فى معركة تحرير سيناء .

ـ هل تعلم لماذا أطلقت جماهير شعبنا منذ البداية ، على ادارة التجنيد ، اسم « النضارة » ؟

أيام محمد على ، كان على طريق مصر ـ السويس عشرة أبراج مراقبة لارسال البرقيات « بالمرايات » وفوق كل برج وضعوا « الهليوجراف » أو التلسكوب أمام المرايا حتى يرى العامل فوق البرج عشرة كيلو مترات أمامه بوضوح أثناء استقبال البرقيات أو ارسالها، وكانت الابراج نواة سلاح الاشارة فى مصر ، ثم أنشأوا « ادارة التجنيد » بجانب أول برج طريق مصر ـ السويس ، فأطلق الشعب اسم « النضارة » على ادارة التجنيد ، وما زالت فئات عديدة من الجماهير تتداول الاسم القديم حتى اليوم .

ولقد قيل ان مهندسى سلاح الاشارة ، قد طوروا وابتكروا فى المعدات الحديثة ، وان بعض الدول الكبرى أشادت بهذه الاضافات التى قامت على دعامتين قويتين .

الاولى وهي الاقتدار العقلي لمهندسي الاشارة وكفاءتهم الهندسية ـ النامية باستمرار ، والثانية ما فرضه الموقف علينا ، فقد بذلوا نشاطا ضخما متواصلا للحصول على معدات اشارة من الشرق والغرب . وكان لابد لمهندسينا من الربط بين هذه الاجهزة وتشغيلها معا بأقصى كفاءة استخدام . ومن هنا استطاع البعض أن يطور ويضيف الى المعدات الشرقية والغربية ، وكان الاختبار الاول خلال عمليات الاستنزاف ، حتى جاء الاختبار الكبير فى حرب ١٩٧٣ ، وبرز دور سلاح الاشارة :

ـ كان بين المشاكل الرئيسية الاولى التى يجب أن تتجاوزها قواتنا لنبدأ عبور القناة ، مشكلة الاشارة ، وضرورة توفيرها بكثافة عالية الكفاءة حتى يتم توصيل جميع قيادات وعناصر القوات بعضها ببعض خلال الدقائق الاولى للتحرك ، بل قبل الدقائق الاولى بوقت كبير ، ولم

يعد هذا سرا الان ، كي تتم السيطرة القيادية على الموجات الكثيفة من أبنائنا المقاتلين ، وكان على الاشارة نقل معدات كبيرة الحجم ودقيقة الحجم الى الضفة الشرقية ، وقد عبروا بنجاح رائع بفضل التدريب الذى استمر واقعيا خلال سنوات الصبر والصمت .

لم يكن التدريب فى نطاق تمثيلنا للقناة بعيدا عن منطقة القناة فحسب ، بل كان التدريب فى القناة نفسها ، عبر جزيرة البلاح ، وخلال « العمليات » لم يشعر أحد فى سيناء أو الغرب ، حتى أثناء ما أطلقوا عليه قطع الاتصال بالنسبة للجيش الثالث البطل ، انه منقطع عن بقية القوات اشاريا ، وجاء الفريق أول الجمسي رئيس الاركان وقتها ، ووزير الحربية ، وقال تحيته للاشـــارة ، وتضمنت كلماته :

ـ « ان سلاح الاشارة على مستوى القيادة العـــامة والجيوش والمناطق العسكرية ، جعلنـــا لا نفقد الاتصال اطلاقا فى أى مرحلة من مراحل القتال » ..

لقد كان فى اعتبارها قبل الحرب أن العدو الاسرائيلى سيقابلنا بموجة كثيفة من الاعاقة اللاسلكية على مواصلاتنا وكان درسا من ٦٧ ، وقد قام العدو فعلا باستغلال كل امكانياته العلمية فى توجيه الاعاقة وكانت وســـائلنا مضادة ١٠٠ ٪ ، وبعد فترة من الوقت أقلع العدو عن محاولاته تماما ، وقد تأكد له فشلها .

ان سلاح الاشارة أصبح يضم الان جميع المعـــدات الالكترونية ، وعلى مستوى الدول الكبرى لا يطلق عليه سلاح الاشارة بل يسموه سلاح المعدات الالكترونية ، لانه يشمل المواصلات الاشارية ومعدات الحرب الالكترونية ، ووسائل الادارة الآلية الالكترونية للصواريخ عابرة القارات ، والصواريخ المضادة للصواريخ ، ومن هنا استطاع سلاح

الاشارة المصرى التفوق على العدو بنوعية المقاتل المصرى نسيجا وتدريبا وعلما ، وامكانياته الالكترونية التى سادها بخصائصه مجتمعه .

لذلك قال بعض الصحفيين الاجانب ان سلاح الاشارة المصرى تفوق على اسرائيل بعشرات السنين .

واذا كان التاريخ يسجل أن مصير عمليات العاشر من رمضان قد تحدد فى الساعات الاولى للعمليات بنجاح العبور ، واقتحام دفاعات العدو فالاثر الكبير فى استمرار احراز المبادأة يعود الى وسائل الاتصال الاشارية الرئيسية فى هذه المرحلة ومن بينها المواصلات اللاسلكية وفى بعض العمليات الخاصة كانت هى الوسيلة الوحيدة وقد أمكننا أن نحدد تماما الدور الذى لعبته المواصلات اللاسلكية وخاصة فى المستويات التكتيكية الصغرى ، والوحدات المقاتلة حتى مستوى قوة لواء وفرقة ، عندما كان أجزاء منها شرق القناة والجزء الآخر ما زال فى الغرب .

وكان لاستخدام أجهزة لاسلكية متطورة مع بعض القوات التى قامت بعمليات ذات طابع خاص مثل قوات فتح الثغرات فى الستائر الترابى وقوات الصاعقة خلف خطوط العدو ، أثر كبير فى استمرار احراز المبادأة والسيطرة على عناصر هذه القوات طوال العمليات — الى جانب عمليات القوات الجوية والبحرية والاتصال اللاسلكى ظل مستمرا بين وحداتها بأساليب اتصال مختلفة وليس أسلوبا واحدا دون تخلخل على الاطلاق عبر حلقات السيطرة على التشكيلات .

ثمة مناخ له دلالات هامة حين بقى المقاتلون من أفراد المحطات اللاسلكية قبل الحرب وخلالها وبعدها يعملون جميعا كفريق واحد بمعنى ان كل واحد يعرف الآخر تماما بكل ما يحتمله هذا المعنى من أبعاد ، كل فريق يعرف

الافراد الاخرين فى المحطات المقابلة ليس فقط على المستوى الشخصي بل يعرف ويلم بأسلوب وخصائص عمله بحيث أصبح الفرد يعلم على الفور أن زميله المقابل له قد تغيب عن محطته بمجرد كشفه ان خصائص عمل المحطـــة قد اختلف عما اعتاده ، ولا شك ان هذا المستوى من التدريب سهل استمرار الاتصال اللاسلكى بل وحمى مواصلاتنا من تدخل عناصر الاعاقة والخداع الذى لجأ اليه العدو من قبل وعجز بعد ذلك فى حرب عام ١٩٧٣ عن ممارسته ضدنا ..

لقد ظل سلاح الاشارة يواصل التدريب الراقى حتى ٦ اكتوبر المجيد يواصلون التدريب التخصصى والتنسيق الدقيق مع التسلسل الزمنى بما يتناسب والاشكال المختلفة لدفاعات العدو ، ويتفق فى الدرجة الاولى مع العمليــات الهجومية غير التقليدية التى ستقوم بها قواتنا المسلحة والتى تتطلب من « الاشارة » ترتيبات خاصة .

مثلا كوابل المواصلات الاشارية أنشئت عبر القناة خلال الدقائق وليس الساعات الاولى لعبور قواتنا قناة السويس، وبقيت الوحدات الفرعية الصغرى على اتصال متكامل خلال تنفيذ المهام ، وحققنـــا أعلى السرعات فى اتصـــال مراكز القيادة وبالتالى مراكز الاشارة فى مستويات القتال التكتيكى والتعبوى ، كما استخدمنا معدات الاتصـــال اللاسلكى تكتيكا وتعبويا واستراتيجيا أيضا مما زاد ودعم ثبات نظام المواصلات الاشارية لقواتنا .

ان الاتصال اللاسلكى متعدد القنوات يجمع بين خصائص الاتصال الواحد عبر المواقع الثابتة وبين أسلحة مختلفة مما ساعد على سهولة توصيل الاوامر القيادية الى المقاتلين وتلقى البلاغات والمعلومات بنفس السرعة والسهولة .

ان وحدات الاشارة التى تعمل فى الانشاءات الخطيـــة

الميدانية استطاعت خلال أعوام قليلة سابقة للعمليات انشاء عدة آلاف كيلو مترات من الكوابل الخطية الثقيلة ـ وهذه المواصلات هي أكثر الوسائل الاشارية تعرضا للقطع والتدمير من قصف المدفعية أو الطيران ونتيجة تحرك قواتنا المدرعة والمجنزرة ، وقد بقيت هذه الخطوط بفضل يقظة الرجال ونشاطهم وجرأتهم وتدريبهم بقيت متوفرة سليمة لكافة عناصر قواتنا طوال العمليات ، وجاد رجال الاشارة بأرواحهم لكي يبقى الاتصال مستمرا وسليما ومفتوحا بين القائد والمقاتلين عبر جميع مستويات القتال .

انني أذكر بالاكبار والخشوع لذكرى الرجال المعطرة .. البطل المقاتل شلبي ،البطل المقاتل نور ، البطل المقاتل جرجس ، البطل المقاتل على ، البطل المقاتل نعمان .. وغيرهم كثيرون كان تقدمهم الى الخطوط الامامية ، واستشهادهم دفاعا عن استمرار الاتصال أوسمة ترصع سلاح الاشارة وتاريخها النضالى الطويل ، وصراعها المستمر منذ العشرينات لكي يبقى لها التفوق دائما تصنعه عقول مصرية شابة قادرة على الابتكار والاضافة العملية ، وكان الرئيس السادات أحد هؤلاء الشباب حين عدل وطور وابتكر فى معدات الاشارة ، وتحدى المستعمرين الانجليز وظل يكافح دفاعا عن تمصير السلاح حتى جاء فى نهاية عام ١٩٧٣ ، ليقول لسلاحه الذى عاش به أحلى سنى العمر :

ـ « أريد الاشارة فى الطليعة حين نحارب معركتنا ، مستطيعة دائما بعقول وايمان رجالها قبل معداتها » .

« ان معدات الاشارة فى امكانى توفيرها لكم ، ويبقى فى الاهم الرجل الذى يجيد استخدامها ، ان مقاتل الاشارة لابد أن يكون فى الدرجة الاولى من المغرمين بهذا السلاح ..

وقامت المعركة وتصاعد ايقاع الرجال ...

معارك المظلات

حين قدم القائد الاعلى للقوات المسلحة قادة حرب أكتوبر الماجدة ، وهو يتوسط غرفة العمليات ، مساء الثاني من أكتوبر ١٩٧٤ ــ قال مشيرا ، الى قائد وحدات المظلات :

ــ « العميد محمود حسن عبد الله قائد وحدات الابرار الجوى التى قامت بمهام قتالية من أمجد واروع معارك الحرب . . كل معركة من معاركهم تحتاج الى مجلدات » .

هذه صورة من قريب لقوات المظلات المصرية وقد حصلت على وسام الجمهورية العسكرى يزين علمها ، كما حصل قائدها البطل على وسام نجمة الشرف فى فبراير ١٩٧٤ بجلسة التكريم التاريخية التى أقامها الرئيس السادات وأعضاء مجلس الشعب تمجيدا لاغلى التضحية والفداء ، فى ميدان القتال وتحرير سيناء الأسيرة .

صرخ الجنرال الاسرائيلى ايريل شارون فى اللاسلكى يستنجد بقيادته :

ــ « أمامى قوات مصرية تقاتل بضراوة ، خسائرى كبيرة ابعثوا لى بنجدة مدرعة » .

والتقطت أجهزة التصنت الالكترونية المصرية استغاثة شارون ، ولم تكن هذه القوات المصرية التى تحدث عنها الجنرال الاسرائيلى غير وحدات مظليين بقيادة المقاتل « عزمى » قاتلت واستبسلت ضد قوات أسرائيل المدرعة

والميكانيكية ، وكبدتها خسائر ضخمة فى عمق سيناء ، والضفة الغربية .

لقد أضافت المعركة الحديثة بأسلحتها الالكترونية تحولا بارز فى نتائج القتال ، غير ان مصدر هذه النتائج كما أثبتت حرب اكتوبر سوف يظل دائما نابعا من قدرات الرجال الذين يستخدمون هذه الاسلحة ، والروح النضالية التى تعكسها نوعيتهم القتـــــالية وايمانهم وتضحياتهم الخالدة .

وكما يقول الفريق أول محمد الجمسي وزير الحربية :

ـ « لم تكن انتصارات قواتنا المسلحة فىحرب اكتوبر تتم على هذه الصورة المشرفة بدون المقاتل المصرى ، فهو المفاجأة ، وهو القيمة الحقيقية لهذه الانتصارات » .

وفى هذه الحرب الماجدةقامت قوات المظـلات المصرية بأعمال بطولية رائعة بين قوات الجيشين الثانى والثالث عبر جميع مراحل الحرب .

لقد اشتركت المظلات فى اقامة السد البشرى الذى واجه الدبابات الاسرائيلية .

وكان قرارا تاريخيا باستخدام رجال المظلات ليقتحموا مع الموجات الاولى قناة السويس حاملين أسلحتهم الخفيفة والصواريخ المضادة للدباباتعلىطول المواجهة منالسويس جنوبا حتى بور سعيد شمالا ، وأسهموا بالروح فى مهــام بناء رءوس الكبارى وتأمينها ثم الاشتراك فى صد الهجمات الاسرائيلية المدرعة المضادة ، الى أن اندفعوا فى عمق العدو وقاتلوا فى كمائن ناجحة واقتنصوا خلالها دباباته ومشاته الميكانيكية المدرعة .

فقد تمكن رجال المظلات خلال هذه المرحلة الاولى من تدمير ١٥٥ دبابة اسرائيلية بخلاف العربات المدرعة وذلك فى مواجهة الجيشين الثانى والثالث .

وحارب المظليون المصريون فى معارك جبل المر بقطاع الجيش الثالث معارك مشرفة شرسة وفى منطقة الفردان شرق ، وشرق بور فؤاد مع قطاع الجيش الثانى معارك أخرى لا تقل ضراوة ، وصعدت الى رحاب الله أرواح أبطاله عمالقة من المظليين أصحاب الرصيد الكبير فى الاقتدار والشجاعة والاقتحام والقتال المتلاحم بالسلاح الابيض .

بعدذلك أسقط رجال المظلات حاملو الصواريخ المضادة للطائرات تسع طائرات للعدو بينها ثلاث طائرات فانتوم .

وفى معركة أخرى قاتل ٦ من رجال المظلات وحدة ميكانيكية للعدو ، وأحصوا جثث القتلى الاسرائيليين بعد المعركة فكانت ١٥ فردا .

ان حرب أكتوبر قدمت الدليل العملى على أن خفة الحركة هى احدى وسائل النصر بالقدرة على الالتفاف والتطويق فى المعركة الحديثة ، واستطاع المظليون المصريون فى معاركهم الميزة بخفة الحركة المشفوعة بالقدرة على المناورة ، امتلاك وسائل فعالة نابعة من كفاءة انتاجهم للنيران ، تدمير طلائع الدبابات الاسرائيلية ، وكانت كل هجماتهم وكمائنهم على طول المواجهة ...

ان المظلات أو القوات الخاصة أصبحت اليوم عنصرا رئيسيا متقدما فى مهام القتال المتنوعة ، لما تنفرد به من خصائص وصفات ذات تأثير حيوى فى نتائج المعركة ، قبل أن تنطلق أول طلقة فى هذه المعركة أو تلك .. ولذلك يتم تدريبهم بأقسى وأشق وأطول برامج التدريب الواقعية بالذخيرة الحية وهى ما قامت وأدت وخططت وارتبطت به وحداتنا المقاتلة قبل حرب أكتوبر وبعدها .. عبر مهام ذات توقيت زمنى محدد ، يقبلون عليها برغبة ملؤها الايمان والامل فى تحرير بقية الارض الاسيرة بسيناء .

ان التـــدريبات تتم الان وسط مناخ ينم عن مجتمع عسكري يتنفس أعطر الذكريات .. ذكريات معارك أكتوبر المضيئة على مر الايام ومعارك الشهداء العمالقة من رفاق السلاح ، وفى شمول تام وروح جماعية هائلة وفكر متقارب وثقافة عسكرية نامية ، وخط معلومات متكامل يخدم هذا كله ، يتلقون مهامهم يؤدونها بالتمام باذلين أقصى الطاقة البشرية فى معسكرات مترامية انعدمت فوقها مظـاهر الفوارق الاجتماعية بين الضباط والجنود ، وتوجدت في اطار ضخم من الضبط والربط وربطت بين مقاتليها وحدة الدم واخوة السلاح وشرعية الهدف .

ثمة مهام موكولة لوحدات المظلات أبرزها مساعدة القوات الرئيسية بسرعة القضاء على العـدو فى العمق ... أو حتى تنسحب قواته ..

الاستيلاء على الخطوط الهامة والممرات الجبلية لمنـع احتياطيات العدو من التقـدم عبر العمق أو انتشـار قواته .

تدمير الاهداف الحيوية للعدو مثل أســـلحة التدمير الشامل ومراكز قياداته والمطارات الحربية .

العمل فى ارباك سيطرة العدو على قواته وارباك نشاط عناصره الادارية ووحداته الضاربة .

تأمين عمليات الابرار البحرى بالاستيلاء على قطاعات ساحلية .

احتلال المطارات والتمسك بهـــا ، وأراضى النزول والقواعد البحرية .

تدمير مخازن ذخيرة العدو .

القيام باغارات مفاجئة على مؤخرة العدو .

هذه بعض المهام ، وكان للمظليين المصريين شرف القيام بأكثرها ، حتى ان احد الاسرى من ضباط اسرائيل قال

لضباطنا « ان وحدات مظلاتكم قاتلت أمامنا كصخرة كبيرة من الصعب زحزحتها » .

ان خبرات رجال المظلات بالملاحة وقدرتهم على تمييز معالم الارض التى قد يسقطون فوقها أو يصلون اليهـا برا الى جانب امكانياتهم العلمية فى قراءة الخرائط والصور الجـوية بسهولة تجعلهم قادرين على التعرف بالهدف فى وضوح رؤيا ثم اســتطاعتهم على التجمـع السريع عقب الاسقاط والتقاط عبوات السلاح والذخيرة الملقاة خلفهم، أو أمامهم واعدادها لفتح النيران والاشتباك الفورى مع العدو فى أقل وقت ممكن .. هى خصائص ومميزات قتال رجال المظلات ، ولقد أثبتت حرب أكتوبر ان معرفة المقاتل بالارض التى سيقاتل فوقها واستيعابه لما تحمله من أسلحة معادية وموانع تقضى على الرهبة التى يمكن ان تصيب المقاتلين اذا قاتلوا فوق أرض يخطون نحوها لاول مرة ، ولذلك كانت هناك برامج مستمرة فى الانتقال الى مسرح سيناء قبل ٦ اكتوبر ١٩٧٣ ، للاستطلاع أو للقيام بغارات مفاجئة ، وعمليات الالتفاف والتطويق، تطعم بها كل مقاتل من أبناء قواتنا المسلحة ، وفق خطة زمنية معينة ، وكان لها أعظم الاثر فى نتـــائج اقتحام مواقع تمركز قوات اسرائيل التكتيكية والتعبوية والاستراتيجية المنتشرة بين صحراء سيناء عمقا... قبل عبور قواتنا الضاربة الرئيسية مياه قناة السويس ظهر السادس من أكتوبر ، وفى العمق قاتلوا معاركهم، وهى معارك انتحارية مائة فى المائة، فقد قاتل العمالقة وظهرهم للحائط ، وظلوا لاسابيع متصلة يفتحون نيرانهم بأثرى الصلابة وأغلى التضحية ، ولم تكن انتصاراتهم الخالدة على مدى الايام غير محصلة طبيعية لتدريبهم المتكامل الذى استمر بلا توقف وبلا هوادة قبل اكتوبر المجيد وبعده ...

ابراهيم الرفاعى
البطل الملحمى

هل يموت الجبل ؟ ..

هل يموت النهر ؟ ..

ان الشهداء فى ساحة القتال هم طليعة النصر وألويته الخفاقة ..

وفى قتالنا مع العدو الاسرائيلى تألق كثير من أبطالنا ، وأضافوا الجديد الى سجل معارك قواتنا ، ومنحوا الوطن أغلى ما فى الحياة ، لكى تبقى لنا الحياة ، منحوه أرواحهم فدية وجزية للنصر والكرامة .

ولذلك سيأتى يوم ما يظهر فيه بين قرى ريفنا الرائد العظيم ، عازف ناى وأرغول ، ومؤلف مجهول يغنى الملحمة والاساطير ، ولكنه سيروى هذه المرة أسطورة حقيقية . سيغنى للاجيال .. قصة البطل الملحمى الغائب ، أمثال نجم ومدنى والاتربى وطلال ، ومن قبلهم وبعدهم كثيرون ، تسابقوا فى البذل وحققوا بدمائهم أشرف وأغلى النصر ...

وجاء «الرفاعى» وظل مثلا يحتذونه ، وعلما يتبعونه، وبطلا ومعلما ومقاتلا وشهيدا ، فى المقدمة دائما .

هذه صفحات من طفولة الرفاعى ، من صباه ، من ألبوم شبابه وعسكريته ، قبل أن يجود بحياته ، لتظل مصر رافعة لرايات النصر .

لم يصدق أحد من رفاق السلاح ، أو ممن عرفوه مقاتلا واقتربوا من أعماله القتالية الانتحارية البارزة ، أن الموت قد غلب المقاتل ابراهيم الرفاعى !

ولقد استشهد البطل العميد أركان حرب ابراهيم السيد الرفاعى فى مقدمة رجاله يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ وهو يقاتل العدوالاسرائيلى بعد أن قام بعشرات الغارات الانتحارية على مواقع القوات العدوة بالضفة الشرقية للقناة وفى عمق سيناء ، منذ نهاية الاسبوع الثانى من يونيو ١٩٦٧ ، وكانت جسارته دائما تتجاوز الموت ، بل ان أحد جنوده قال عنه :

ـ « ان الموت يخاف الاقتراب من القائد الرفاعى » .

قاتل « الرفاعى » قائدا لوحدات العمليات الخاصة بين قوات الصاعقة فترة طويلة ، وكانت المهام الانتحارية التى يقوم بها مع جنوده وضباطه تمثل اقتحاما للموت وانتصارا أقرب الى المعجزات منه الى النصر فى اغارة أو هجوم الانقضاض المفاجىء على القوات الاسرائيلية .. ومن هنا كانت أسطورته !

وكللت مهامه دائما بالنجاح ، وبأقل خسائر فى أرواح رجاله ، وبمكاسب ونتائج بارزة لها أقصى الاهمية فى حسابات قيادتنا العسكرية ، وعلى حد تعبير ضابط صغير من قواته « كانت جرأته المذهلة فى الهجوم تصيب العدو بالشلل فنمتلك السيطرة الكاملة على منطقة القتل » ..

بقدر شراسته وقدراته المتفجرة أثناء القتال ، وضراوة هجومه على قوات العدو ، كان بعيدا عن مسرح المعركة فى سيناء ، هادئا مبتسما رقيقا كالنسمة عطوفا محبا لجنوده وضباطه ، فنانا يرعى هواية الفن فى رجاله قارئا للسير والآداب والتاريخ ، متدينا قارئا دائما للقرآن الكريم ، أبا وزوجا ، وابنا بارا قبل كل شىء بوالديه وأفراد أسرته فى قرية « الخلالة » مركز بلقاس دقهلية .. القرية الصغيرة

النائمة فى أحضان الدلتا وقد أنجبت البطل ، مدعومة بالاصالة المصرية فى تاريخ نضالنا الوطنى .

ان تقييم البطولة الفذة التى يمثلها المقاتل العميد ابراهيم الرفاعى قائد كوماندوز قوات الصاعقة ، تتطلب بالدرجة الاولى العودة الى طفولته وصباه ، فالبطل لا يولد بطلا ، والبطولة ليست وليدة لحظتهـــا ، بل هى تربية واستقبال تنمو مع الانسان حتى تأتى لحظة يتوهج فيها البطل ويصبح واحدا من رواد القدرات الخارقة التى تجتاز امكانيات البشر ، فتعطى أعظم وأغلى العطاء .

عمره العسكرى

قبل الغوص فى حياة البطل ابراهيم الرفاعى ، ما هو التقييم القيادى لعسكريته ، وعملياته الهجومية ، وكلهـــا لم يدع عن قائدها شيء على الاطلاق ، بينما العالم أجمع كان يتحدث عن جسارة وضراوة تلك المهام ؟

ـ أبسط جواب ، هو مجموعة الاوسمة والانواط التى أهدتها القيادة العليا للقوات المسلحة ، الى صدره خلال عشرين عاما ، هى عمره العسكرى .

ولد البطل يوم ١٩٣١/٦/٢٧ وتخرج فى الكلية الحربية يوم عيد ميلاده ، عام ١٩٥٤ .

والتحق بقوات الصاعقة ، فى بدء تكوينها بأبى عجيلة بسيناء ، تحت قيادة المشير أحمد اسماعيل على ، وكان برتبة مقدم ، وحصل « ابراهيم » على وسام بطولة الجيش ثم نوط الجلاء فى نفس العام .

وحارب فى ١٩٥٦ معركة بور سعيد . وتأكدت هناك شجاعته ومعدنه القتالى وروحه النضالية ورباطة الجأش التى يتمتع بها ، فقد واجه وحده فى بور سعيد عربتين انجليزيتين محملتين بجنود الاحتلال البريطانى ، وقادهما

بدهاء الى كمين أعده زملاؤه من رجال الصاعقة ، وقامت معركة ناجحة تكررت عدة مرات وكانت بمثابة نقطة البداية لمآثر ابراهيم الرفاعى الباسلة .

حصل بعد ذلك على نوط الاستقلال عام ٥٦ ونوط النصر عام ٥٧ ، ونوط الشجاعة العسكرى من الطبقة الاولى عام ١٩٦٠ ، ونوط الوحـــدة عام ٦١ ونوط الجيش عام ١٩٦٣ .

وبعد نتائج معركة ١٩٦٧ ، وقيامه بالمهام الانتحارية خلف قوات العدو فى سيناء خلال بداية النصف الثانى من عام ١٩٦٧ حصل مرة أخرى على نوط الشجاعة العسكرى فى ٢١ اغسطس ١٩٦٨ ، وكانت القوات الخاصة تقوم بعمليات هجومية ضد القوات الاسرائيلية دون أن تعلن قيادتنا عنها او تذيع شيئا من تفاصيلها ، ذلك لان الموقف العـــام لم يكن يسمح باذاعة مثل هذا النشاط ، فى الوقت الذى اختار فيه مقاتلو هذه الوحدات أصعب الطرق الحافلة بالموت ، وقد توحدت ارادتهم ، وتسابقهم نحو عبور القناة غنى بالعلامات المضيئة ، بالدلالات على أصالة المقـــاتل المصرى ، بالبطولات وأغلى التضحيات .. أعطاها الرجال بلا حدود أو حساب ، وفى أقصى ظروف السرية والكتمان ، فكانوا وقوداً للمعركة .

وقام البطل ابراهيم الرفاعى بدور قيادي مكثف فى تدريب الرجال ، ثم قيادتهم الى سيناء ، ومن الصاعقة كان اول شهيد من أبنائنا يدفع حيـــاته ثمنا لنصر مجموعته وسترها اثناء عودتها الى قاعدتها ، وهو « البطل الشهيد فاروق نجم » ، وقد استشهد فى أكتـــوبر أيضا ــ عام ١٩٦٨ ، وحصل على نجمة الشرف العسكرية ، ولم تعلم الجماهير ببطولته حتى يونيو ١٩٧٠ .

حصل الرفاعى ومنذ شهر اكتوبر ١٩٦٨ على النجمة

العسكرية ، ثلاث مرات ، تقديرا لبطـولته ، وقيادته الناضجة ، واستطلاعه لمواقع العدو بأعظم أشكال الجرأة والخبرة والايقاع الصارم فى الهجوم ، وفى احدى هـذه المهام دمر قطارا محملا بالذخيرة والسلاح للعدو ، وفى مهمة اخرى دمر المناطق السرية التىتضم مخازن تشوين الذخيرة الاسرائيلية .. حصل على النجمة العسكرية الاولى فى ٥ أكتوبر ١٩٦٨ ، وعلى الثانية فى ٢٣ أكتوبر عام ١٩٦٩ ، وعلى الثالثة فى ١٨ ديسمبرمن نفس العام ١٩٦٩ وكان قد ذهب الى فدائيي فلسطين يدربهم على أسلوب الصاعقة فى القتال الخاطف ويقود بعض عملياتهم ..

وجاء عام ١٩٧٠ ، واستمرت ذراعه القوية تطول قلب مواقع العدو قادما اليها من الاردن وسيناء ، يفجر فيها النيران والديناميت ويمارس القنص الحر ضد أفراده فى عرباتهم المدرعة ودباباتهم ، وفى اغسطس عام ١٩٧٠ توقف اطلاق النار ، لكن نشاط البطل فى سيناء هو ورجاله لم يتوقف أبدا حتى دارت حرب ١٩٧٣ ، الماجدة ، وهو فى تمام الاستعداد لها .

نعود الى عام ١٩٧١ ، وفى ابريل يحصل الرفاعى على نوط الواجب العسكرى من الدرجة الاولى مرة ثانية ، وفى اغسطس من نفس العـام يحصل على ترقية استثنائية تكريما لنشاطه العسـكرى السرى فى مسرح العـدو وابتكاراته فى تطوير واستخدام السلاح الخفيف ويهديه القائد الاعلى للقوات المسلحة الرئيس أنور السادات ، هو ورفيق سلاحه «على» وسام نجمة الشرف العسكرية، أرفع وسام عسكرى حتى نهاية عام ١٩٧٣ ، وكان يهـدى لابرز الشهداء الابطال فقط ، حتى عام ١٩٧٠ .

كان البطل الرفاعى جديرا بكلّ هذه الاوسمة ، لقد ازداد حجم أعمال قيادته ومهامها ونشاطها وحوله رجاله

العمالقة . يعملون خلف وحدات العدو ، ومناطق تمركز قواته التكتيكية واحتياطها الاستراتيجى طوال سنوات الصبر والصمت ، كما ارتفع معدل التدريب ومستوى برامجه ، على أساس الخطة العامة لتفاصيل الهجوم ومدى اتساعه ، وتضاعفت جولات الاستطلاع ، وجلب المعلومات عن كل جديد لدى العدو ، وظل الرفاعى يعمل بلا هوادة حتى أجازات الاعياد لم يكن يفارق خلالها ضباطه وجنوده، صقلتهم خبرات المعارك السابقة وقد تطعموا بها ،وصهرتهم التجربة العريضة الفنية بأرقى أشكال الهجوم الانتحارى طوال ٦٨ ــ ٦٩ ــ ٧٠ فاكتسبوا صلابة فولاذية على مجرى الحياة ، ونضجا وجسارة لخوض الحرب فوق مناخ قتالى يعززه الدم المشترك والتآخى العميق بين الضباط والجنود، والخصال المعنوية العالية ، والثبات الارادى الذى زودهم بالفطنة والابداع وامتلاك السيطرة .

أصيب البطل ثلاث مرات فى اليمن ورمانة ورأس التمساح .

وجاءت حرب ١٩٧٣ ــ الماجدة ــ وقبل أن تنزل ستائر اليوم الخالد ، كان الرفاعى ورجاله قد دمروا خزانات البترول فى بلاعيم وحرموا العدو منها ، ثم قام بعدة عمليات هجومية أخرى ، وسعادته كمياه البحار لا تفرغ أبدا ، تألق هو وعمالقته وأبدعوا أشرف وأنبل القتال وأشرسه ، وأصابته شظية وهو يواجه دبابات العدو ، وكان وساما جديدا فوق صدره ، واستشهد البطل مقاتلا فوق قدميه بمقدمة جنوده ، وأهدى القائد الأعلى سيرته العسكرية ، وسام نجمة سيناء فى أعظم حفلات التكريم الوطنية التى شهدها جيلنا .

ـ كيف تحقق هذا النسيج البشرى للمقاتل البطل الشهيد العميد أركان حرب ابراهيم السيد الرفاعى ؟

يقول شقيقه سمير :

ـ انه لم يكن وليد خبطة حظ عشواء بل نتاج طبيعى للايمان الفريد بالعسكرية المصرية عشقا وولها ، ولقد أعطاها حياته فى النهاية ، دفاعا عن كرامتها وشعلتها المضيئة .

ـ ولكن من أين نبعت بطولته ؟ والأبطال لا يولدون أبطالا .. ؟

ان بطولة الرفاعى هى جزء من عمره نمت معه منذ طفولته ، وهى بطولة لا تنمو الا فى بيئة الصدق والايمان والشرف ، والاسرة القوية المتماسكة ، وهى بيئة لا تظهر وتعيش بالتالى الا فوق مناخ انسانى راق ، يرتفع فوق أخطاء الانسان ومثالبه .

وذهبت الى الاب فى قريته ، والى الام ، والاشقاء والزوجة أستمع اليهم وانقل عنهم سيرة الفتى الابن الاكبر « ابراهيم » قبل أن يرتدى أشرف الزى وأعظمه ، ويهب مصر حياته مقاتلا فدائيا ، قائداً لوحدات كوماندوز قواتنا المسلحة .

انهم أربعة ذكور أشقاء ، أكبرهم البطل ابراهيم ثم سمير خريج كلية التجارة ، وثالثهم سامح بطل آخر كان له شرف السبق بالشهادة فى حرب اليمن عام ٦٣ ، ورابعهم المقاتل سامى ، اشترك فى معركة ١٩٧٣ بقوات الجيش الثالث البطل .

عام ١٩٥٦ بمعركة بور سعيد كان الاشقاء الاربعة يقاتلون دفاعا عن المدينة ، حمل العسكريون الثلاثة السلاح

بحكم انتمائهم الى القوات المسلحة ، وقد ضمتهم الصاعقة معا ، وحمل «سمير» السلاح وهو خريج التجارة كفدائي بعد أن تدرب عسكريا ، وقاتل مع زملائه ممثلين لطلبة تجارة عين شمس تحت اسم كتيبة ٤١٢ جامعة ، وحصل سمير على ميدالية وطنية .

كانوا أربعة عشر فدائيا .

وعندما قامت ثورة اليمن عام ١٩٦٢ كان الاشقاء الثلاثة « ابراهيم وسامح وسامى » يقاتلون معارك رأس العرقوب وصرواح ومأرب ، جنبا الى جنب واستشهد « سامح » فى ٢٥ مايو ١٩٦٣ .

لهذه الاسرة التى ضمت هؤلاء الابطال جذور عسكرية قديمة هى المناخ الذى أرضع « ابراهيم وسامح وسامى » عشقهم وايمانهم بالعسكرية المصرية .

يقول الاب :

ـ لولا ضعف بصر « سمير » لأصبح جنديا هو الآخر ، وقد عاش الاربعة ملتصقين متقاربين قلبلا وعقلا واحدا .

نعود الى المـاضى ، الى عام ١٩٤٠ ، والحرب العالمية الثانية فى بدايتها ، وابراهيم فى التاسعة من عمره وقد تعلق بجده لأمه ، وشقيق جده ، عم أمه ، وكان الاول قائدا للمدفعيــة وهو المرحوم القــائمقام عبد الوهاب لبيب ، والثانى هو المرحوم البكباشى أحمد حلمى من ضباط المشاة وأولادهما من العســـكريين ، وحاربا فى معركة تحرير السودان ، وكان الجيش هــو كل حياتهما فورثا « ابراهيم » هذا الحب .. حديثا وتربية وقصصا عسكرية بطولية مثيرة يروونها له عن الضابط أو الجندى المصرى .

فى هذا المنــــاخ أخذت تنمو ملامح شخصية البطل ابراهيم ، من خلال اهتماماته فكان الاول فى شهادة الدراسة

الابتدائية على مستوى منطقة الغربية ، واشترى بعد ان ادخر من مصروفه بندقية صيد ، وطلب أن يقضي أجازته السنوية فى قريتهم « الخلالة » مركز بلقاس ، يتدرب على صيد الحمام .

كل عام فى مدرسة !

يقول لى الاب الاستاذ السيد الرفاعى ، والشموخ يملأ روحه وكلماته :

ـ بعد أن تخرجت في مدرسة الحقوق عملت معاون ادارة بأقسام الشرطة ثم مأمورا لها ، فقد كان نظام الشرطة فى الاربعينات يقتضى أن يكون المأمور من رجال القانون ، وكانت تنقلاتنا كثيرة بحكم عدم انتمائى لحزب معين ، وهى تنقلات أشبه بالعقاب ، كل عام فى مديرية !

اذكر ابراهيم وسمير فى بداية المرحلة الثانوية ، انهما لم يستقرا عاما واحدا بمدرسة واحدة أول سنة لهما بالثانوى التحقا بطنطا الثانوية ، ثم بالمنيا الثانوية ، ثم بأسيوط الثانوية ، ثم مغاغة ، ثم كشك الثانوية بميت غمر ، ثم الزقازيق الثانوية ، وفى المدرسة الاخيرة حصل «ابراهيم» على الثانوية العامة ...

كان ولداى يستيقظان من نومهما قبل الفجر، بساعتين ليستقلا القطار ويلحقان بالمدرسة فى موعدها .. ويعودان الى البيت بعد الغروب ليبدأ كل منهما مذاكرة دروسه ويستعدا للنوم ورحلة العذاب فى الفجر التالى، ولم يتبرم أحدهما أو يشكو ، ولم يرسبا عاما واحدا ، وكان ابراهيم دائم المرح ، يكفيه أن يتسلق النخيل يوم الجمعة ويصطاد الحمام والسمك ، أو يدرب زملاء الدراسة على استعمال بندقية الصيد ، والنبلة ، والسباحة ، وكان سعيدا بهواياته ، وحوله دائما شقيقاه سمير ، والشهيد سامح .

ويستعيد الاب الشيخ ذكرياته مع ولده الاول ابراهيم، ويعود الى عام ١٩٤٨ ، والجولة الاولى مع اسرائيل فى فلسطين .

ـ « رأيت ولدى فىالسابعة عشرة من عمره ، يعطى كل اهتمامه للاخبار الواردة عن جيشنا وهو يحارب دفاعا عن أرض فلسطين ، ويتدرب كل يوم بالبندقية ويسأل عن امكانيات التطوع والقتال هناك ، وعاد «شفيق شقيقى» وكان ضابطا احتياطيا حمل شرف القتال فى الخليل كما قاتل مع ابراهيم وسامح فى اليمن بعـــــد ذلك ، عاد « شفيق » فى أجازة قصيرة الى قريتنا ، وتعلق به ابراهيم وحاول أن يقنعه باصطحابه معه الى أرض المعركة ، وكم اصابه الحزن حين لم يتحقق حلمه ، فطالبنى بالالتحاق بالمدرسة الثانوية العسكرية ، ووافقت أمام ميوله وارتباطه الكامل بالجندية المصرية ، وقد حصل على بطولة اختراق الضاحية عام ١٩٤٩ .

وقضى ابراهيم عامين بالمدرسة التحق بعدها بالكلية الحربية فى نهاية ١٩٥١ وتخرج بعد عامين من قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، مقاتلا بسلاح المشاة ثم الصاعقة ..

قال لى شقيقه المقاتل سامى :

ـ « كان الاول دائمـــا فى الرماية بين طلبة الـــكلية الحربية ، وفاز بشريط ترقية عندما تسبب فى فوز فريق الكلية على سلاح الفرسان بمباراة كرة القدم ، وعرفه الجميع قناصا من الدرجة الاولى ، ثم أخذ يقرأ كثيرا فى كتب السلاح وتاريخ الحروب والقادة ، وساعدته هذه القراءات على تحقيق ابتكارات رائعة فى استخدام الاسلحة الصغيرة واضافات متميزة لها ، لست بحل من الاشارة اليها ، ولكنها أعمال بارزة استقبلها خبراء التسليح فى قواتنا بتقدير كبير..

مع زوجة البطل

قالت السيدة نادية التهامى ، زوجة البطل ، وأم أولاده ليلى وسامح :

ـ « كان مغرما بكتب الثورات ، والاقتصاد والآداب ويحرص كل الحرص على اقتناء اى كتاب يصدر فى أى جهة من العالم عن العدو الاسرائيلى » .

« ولقد سافر كثيرا الى بلاد أوربية عديدة فى مهام مختلفة ، ولأنه يجيد الانجليزية والفرنسية والروسية والعبرية يعود محملا بالكتب الصادرة بهذه اللغات ، وباللعب لسامح ولده ، وهى دائما مسدسات ودبابات وأدوات تنشين ، وكثيرا ما صحبه وهو فى الثامنة من عمره ليبقى معه عدة أيام فى مشاريع المناورات ، واجازاته الدراسية السنوية مع أبيه دائما فى معسكر الصاعقة » .

ولقد استشهد شقيق السيدة نادية بعد استشهاد زوجها بأيام قليلة ، وقالت الأم الصلبة لأولادها :

ـ « لكما أن تفخروا بأبيكما وخالكما وعمكما من قبل، لقد اختار الله لهم أشرف النهايات » ...



سلام عليكم أيها البطل العملاق الرفاعى .

سلام على ثروتك العسكرية التى زرعتها فى أرواح ضباطك وجنودك .

سلام على سيرتك مقاتلا حيا وشهيدا ، ودما نابضا ساخنا متدفقا تتفتح امامه شرايين الاجيال القادمة .

ان الشهيد لا يموت ، بل يبقى كالجبل كالنهر ، تتجدد حياته بتجدد النهار والليل ، لتبقى مصر رافعة لرايات النصر ..

سدراك - بطل الصمود

هو واحد من الصامدين فوق ضفة القناة غرب منذ عاد بالرغم منه الى قاعدة الألم والمرارة ومناخ الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧ ..

ولكن البطل تجاوز الواقع المؤلم الى رؤيا جديدة .. هى ضرورة العودة للقتـــال مرة أخرى ، ورفع راية استمرار المعركة ..

ولقد قاتل سدراك برجاله معارك متميزة فى سيناء عام ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ .. ولكنه كان يعود بهم دائمـــا الى الغرب ..

وفى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ عبر المقاتل سدراك الى سيناء وكان يعلم انه ذاهب ليتمركز فوق الارض الاسيرة بعد تحريرها .. ولذلك جاد بالروح وهو يتقدم قواته فى القطاع الاوسط من سيناء بمســافة كيلو متر .. وهى مسافة متميزة فى لغة الميدان والحروب .. ولكنها خاصية القائد المصرى التى أظهرتها العسكرية المصرية فى حرب رمضان ..

ولقد كان البطل المقـــاتل الشهيد لواء شفيق مترى سدراك هو أول الابطال الذين كرمهم القائد الاعلى الرئيس أنور السادات فى الجلسة التــاريخية الوطنية بمجلس الشعب صباح ١٩ فبراير ١٩٧٤ ، اكبارا وتكريما لسيرته

العسكرية وكفاءته القتالية ، واستشهاده البارز فدية للنصر وطليعة له ..

المقاتل البطل الشهيد لواء شفيق مترى سدراك .

من مواليد عام ١٩٣١ ـ قرية المطيعى مركز أسيوط لأب كان يعمل بالتدريس الثانوى .

قضى بكلية التجارة عامين ثم عاد الى الكلية الحربية وتخرج فيها عام ١٩٤٨ ، مقاتلا بسلاح المشاة .

خدم فى السودان الشقيق مرتين .

حصل على شهادة أركان حرب وهو برتبة رائد .

عمل مدرسا لمادة التكتيك بالكلية الحربية ثم كبيرا للمعلمين بها .

اشترك فى معركة أبو عجيلة عام ١٩٦٧ وهى من أشرف وأرقى معارك قواتنا فى تلك الجولة المشئومة ، وكان قائدا لكتيبة مشاة ، وقد حصل على ترقية استثنائية لقيادته البارزة وتكبيد العدو قدرا هائلا من الخسائر فى الارواح والعتاد .

منذ نهاية عام ١٩٦٧ ، وهو يحارب فوق الضفة الغربية حتى أستشهد يوم ٩ أكتوبر ١٩٧٣ ، قائدا لقوة لواء مشاة فى القطاع الاوسط بسيناء ...

عبرت وحدات كثيرة من قواته مرات عديدة الى سيناء، خلال معارك الاستنزاف عام ٦٩ ـ ٧٠ ، وكان لمعاركها فى قلب مواقع العدو نتائج عسكرية قتالية على درجة كبيرة من الاهمية . فى مناطق بور سعيد والدفرسوار شرق وجنوب البلاح والفردان .

كان من أوائل خريجى أكاديمية ناصر العسكرية العليا، ويعتبر واحدا من علماء قواتنا المسلحة فى العلوم العسكرية والتكتيك .

عبد التواب، وحواش

كان صموده قويا كالصخر ..

وهجومه شامخا كالسماء ، ولقد قاتل أجسر القتال جرأة وانتحارا ، وصمد أشجع الصمود وأنبله أمام الحصار والنيران تنهال عليه من الطائرات والمدفعية والدبابات ، وتألق وأبدع وهو يتجاوز كل هذه الظروف ويقود كالعملاق من مواقع قواته المحاصرة هجوما مضادا لم ينقطع أو يتوقف قط ، فأضاف الجديد الى سجل الشرف والفخار لقواتنا المسلحة ، وأدخل « كبريت » التاريخ من أخلد وأمجد أبوابه ، وقدم حياته فدية لتفوق المقاتل المصرى وتأكيد نوعيته واستمرار سيطرته وصموده .

انه البطل الشهيد العقيد ابراهيم عبد التواب أحمد ، قائد ملحمة كبريت ، والحاصل على نجمة سيناء من الدرجة الاولى .

لقد بلغت أنباء الحصار والقتال حول كبريت مسامع العالم طوال أيام حصارها التى استمرت أربعة أشهر ونصف ، عاشها رجالنا فوق بركان نهارى ليلى من نيران صواريخ الطائرات الاسرائيلية ودانات دبابات العدو ومدفعيته ، وأثارت بالدهشة كلها معلقين عسكريين فى الغرب والشرق ، فتحدثوا عنها بالتحليل والتفسير ..

كيف صمد المقاتلون المصريون !؟

من أين حصلوا على الذخيرة والسلاح ومواد الاعاشة وهم القوات المحـــاصرة من الضفتين الشرقية والغربية « بعد وقوع ثغرة شارون » وتدفق قواته الى الجيب الاسرائيلى كيف حصلوا على هذه الامدادات .. لا من أجل الدفاع عن بقائهم ، بل ليشنوا هجوما مضادا يتكرر كل عدة أيام ، ويحققون مكاسب مرحلية صغيرة ، ولكنها تترك أسوأ الأثر فى جسد القوات الاسرائيلية وعقـــل قيادتها !؟ ..

ولقد فطن بعض المعلقين العالميين الى الحقيقة ، فقالوا انها الروح المصرية الجديدة التى قادوا من خلالها هجوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ والعلاقة النفسية التى تربط المقـــاتل المصرى بأرضه فى كبريت أو سـيناء أو غيرها ـ هـذه العوامل وحدها هى دعائم ذلك الهجوم الذى تشنه تلك القوات قليلة العدد المحاصرة فى كبريت ضد قوات تفوقها عددا وسلاحا ، مما نشر قدرا كبيرا من الهلع والخوف والرعب لدى قادة وقوات الحصار الاسرائيلية وأصابهـا بالشلل امام جسارة ومفاجأة المصريين لهم .

البطل عبد التواب

هى الحقيقة التى ذكروها ، لقد أسقط أبطال كبريت من حســــاباتهم اليومية ، من لغتهم كلمات المرونة أو الاستسلام أو الخوف والجوع والعطش ، وكانوا عمالقة وهم يطبقون هذه الشعارات الى واقع عملى فوق مواقعهم فجسدوا الشرف المصرى والكرامة المصرية فى أرقى الصور والسلوك .

ونسى القادة والضباط والجنـــود من قوات الجيش الثالث على حد تعبير اللواء أحمد بدوى قائد الجيش الثالث « الاسماء العسكرية » لوحدات هؤلاء الرجال المحاصرين

الشجعان ، وكنا نشير اليهم فنقول « رجال كبريت » .
لقد هاجم رجالنا مواقع العدو فى كبريت شرق يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، وهى مواقع هندسية حصينة أشبه بمنطقة عسكرية متكاملة ، وفى ٩ أكتوبر سقطت فى أيدى قواتنا ، ووقع فى الاسر ضباط العدو من الاحياء وجنودهم بعد معركة ضارية فقدت فيها القيادة الاسرائيلية عشرات الطائرات عبر غارات مستمرة ليل نهـــار منذ ٦ حتى ٩ أكتوبر حتى لا تسقط هذه المواقع الضخمة فى أيدينا فهى تمثل أهمية استراتيجية كبرى لتحكمها فى المنطقـة شرقا وغربا ، وكانت « مدخلا للثغرة » حين خططوا لها قبل أكتوبر ١٩٧٣ لمواجهة عبور القوات المصرية قنـاة السويس ، ولم يكن فى حساباتهم أن يواجهـــوا رجالا لا يخفضون السلاح قط ويقودهم بطل من ديروط هو المقاتل ابراهيم عبد التواب ، فخر مشاة الاسطول .
ـ كانت القـــوات الاسرائيلية قد دخلت من الثغرة احاطت بمواقع قواتنا فى كبريت شرق من كل جانب حتى أصبحت كجزيرة محاطة ببحر كبير من قوات العدو وكان عدد أفراد قواتنا فى كبريت ما يقرب من مائتى مقاتل ، وبعض الدبابات ، وهاجمت قوات اسرائيل بأعداد ضخمة جدا من كل جانب ، كان هجوما دائريا مكثفا بالنيران ، اشتركت فيه ٤٠ دبابة للعدو وكثير من المدفعيات ، ثم ركزوا على رجالنا بالطائرات تسقط قنابلها ألف رطل فوقهم .. نهارا وليلا وكانت مفاجأة ضخمة للعدو حين فوجىء برجالنا لا يستسلمون بل يفتحون نيرانهم يشتبكون مع قواته ويسقطون طائراته ، ويتقـــدم جنود المدفعية المضادة للدبابات فيلتحمون بدباباته يدمرونها ويشعلون النيران فى وحداته المدرعة المهـــاجمة فيرتد هلعا الى الانسحاب .

وكان لهذه الاعتبارات أسوأ الأثر على معنويات ضباط وجنود العدو ـ خاصة عندما قامت قوات البطل عبد التواب بهجوم مضاد ناجح ثم يتكرر هذا الهجوم بالمفاجأة كلها .

كان عبد التواب أعظم المثل للقائد المصرى الجسور وأصالته الفريدة المتميزة ، وذاته المتفردة بتكوينه وسلوكه وتفكيره وايثاره لجنوده وضباطه .

عروض العدو

لقد عرض العدو على قوات كبريت حين فشل هجومه المتكرر لاسترداد مواقعه القديمة التى استغلتها قواتنا أمثل استغلال ـ عرضوا عليهم بعد تدميم الحصار أن يخرجوا سالمين بدون سلاح فكان الرد هجوما انتحاريا شنه أبطالنا ، وعاد العدو يعرض خروج رجالنا بالسلاح وتوفير السلامة الكاملة لهم ، وجاء الرد مرة ثانية بفتح النيران المصرية من اتجاهات لم يتوقع العدو أن يظهر رجالنا فوقها .

وجاءت الطائرات الاسرائيلية بعد ذلك تلقى قنابلها وصواريخها جو ـ أرض ، ولكن مقاتلينا أسقطوها بكل الشموخ .. ووقفوا عمالقة صناديد رافعين لراية مصر فاتحين نيرانهم مطورين قتالهم ، مجددين هجومهم ، متجاوزين الموت فى كل ساعة من ساعات الحصار المحكوم جيدا حولهم .

قال لى أحد مقاتلى كبريت :

ـ قال لنا القائد عبد التواب ، هذا قدرنا ، ويوم نفضل الحياة على الاستشهاد فسنصبح وصمة فى جبين مصر .. سندافع عن كبريت ، بالهجوم المضاد المستمر ، لنجعل أسلوب قتالنا صفحة فريدة بارزة فى تاريخ

العسكرية المصرية ، أنا شخصيا سأشترى بعمرى ، سلامة كبريت » ...

وبالاصرار كله وبالعناد والارادة الحديدية والثبات المعنوى قام خريجو العلوم من جنودنا بتقطير الماء من البحيرات ، وحصلنا على الطعام من الاغارات التى كنا نقوم بها على مواقع العدو ، واتصلنا بقيادة الجيش الثالث ، وجاءت الذخيرة ومعها الطعام ، وكميات من الماء ، وبعض الأطباء ، وقمنا بهجمات جديدة ناجحة وطهرنا بعض المواقع وسيطرنا عليها تماما وبلغتنا تهنئة القائد الأعلى للقوات المسلحة ، وتهانى قائد الجيش وشعرنا بأننا مزودين بحماية ورعاية الله ، وان مصر كلها تنظر الينا.

كان القائد عبد التواب يصلى بنا الفجر كل صباح ، ويطلب من المقاتلين المسيحيين قراءة الانجيل كل يوم ثم يقود الهجوم بنفسه ضد دبابات العدو .. ذات يوم دمر وحده ٣ دبابات باتون ، وقال الفضل للجنود حولى ، بدونكم ، وبدون أصالتكم ، ماذا أستطيع أن أحققه !!

وظل آخر من يأكل ، وآخر من ينام ، وعندما تغمض عيوننا تبقى عينه مفتوحة يقظة تكشف ظلام الليل ، كان القوة والاقتدار والجسارة فى أرواحنا ، حتى قدم البطل روحه فداء للنصر فى احدى معاركنا الهجومية التى خاضها يوم ١٤ يناير ١٩٧٤ ، وكان كعادته دائما يتوضأ ويصلى قبل فتح النيران .

وقال مقاتل آخر :

ـ « طلب القائد ازالة شعور رؤوسنا للوقاية من الامراض بعد أن قررنا توفير مياه غسل الرأس والاستحمام للشرب فقط ، وشاهدنا مراقبو قوات العدو، فاذا بهم يزيلون شعورهم جميعا ، ويضعون كمامة الغازات فوق صدورهم ..

وضحكنا حين رأيناهم ، لقد تخيلوا اننا نستعد لشن غارات بالغاز عليهم حين أزلنا شعرنا حتى يسهل ارتداء الكمامة واستعمالها بسهولة ، فحاولوا أن يشعرونا أنهم هم أيضا على استعداد مثلنا !! »

« ماذا تسمى هذا التصرف ؟ »

ـ « لا شيء بغير الخوف والقلق والرؤيا المضطربة » .

هديتى لأولادى

قالت لى زوجة البطل :

ـ كان يحمل المصحف فى جيبه دائما ، وعندما أصيب قال لرفيق سلاحه خليل :

ـ « احمل هذا المصحف الى أولادى .. انه هديتى لهم » .

لقد تزوجته عام ١٩٥٩ ، ورأيته انسانا عاشقا لمصر وللعسكرية المصرية ، عشقا يفوق الكلمة والمعنى ، وقاتل بقوات الصاعقة ، وخدم مدرسا بالكلية الحربية ، ووقعت أحداث ٦٧ فطلب نقله الى تشكيلات الميدان ومنذ عام ٦٨ ، وهو يقاتل بالجيش الثالث ، وفى عام ١٩٧١ ، انضم الى قوات مشاة الاسطول حيث استشهد وهو يقود رجاله فى منطقة كبريت .

لقد زارنى بعض ضباطه وجنوده ، وقالوا لأولاده :

ـ « حين عبر أبوكم مياه القناة يوم ٦ أكتوبر أصيب زورقه بطلقة مدفع اسرائيلى .. فنزلوا الى الماء وعبروا سباحة وهو يتقدمهم الى الضفة الشرقية وقد فتحوا رشاشاتهم قبل الوصول الى الشاطىء ، وكانت معركة من أشرف معارك الالتحام قادها البطل ابراهيم عبد التواب ، ورآه ضباط وجنود آخرون ، فتركوا القوارب وعبروا سباحة ..

ان أباكم تجاوز قوانين البطولة واخلاقياتها التي حددها التاريخ والدفاع عن الوجود الانسانى .. ان أباكم كان يقول لنا :

ـ « اننى أسمع صوت قدرى » .

وتسكت الأم قليلا ثم ترفع رأسها وتتكلم :

ـ « يكفينى أن الناس يشيرون الى أولادى ويقولون :

ـ « هؤلاء أبناء البطل عبد التواب » .

تحية لك بالاكبار والخشوع أيها العملاق المقاتل ابن قرية كودية الاسلام مركز ديروط ..

ستظل ذكراك ، سيظل قتالك دفاعا عن كبريت نورا ساطعا أمام الاجيال ، باقيا بقـــاء الايام واللغة وميلاد الانسان .

البطل حواش .. بطل المظلات

البطل الشهيد المقدم صلاح عبد السلام حواش ..

واحد من أبطالنا ، أغلى ما قدمناه للمعركة ، كان اسمه بين أسماء العمالقة الذين كرمهم القائد الأعلى للقـوات المسلحة الرئيس القائد محمد أنور السادات ، فى ذلك اليوم المحفور فى قلوب وأذهان شـعبنا يوم ١٩ فبراير ١٩٧٤ ، حيث جاء الزعيم البطل قائد النصر الى مجلس الشعب ليكرم أبطال حرب رمضـــان المـاجدة وقواتنا المسلحة الشامخة ، ويشترك معه فى تكريم المنتصرين ممثلوا الشعب ووزرائه ، وعاش الوطن العربى يوما من أروع وأحب أيام العمر المعدودة ..

من بين العمالقة أعلن اسم البطل حواش ، أحد مقاتلى مدفعية قوات الابرار الجوى البارزين .

من مواليد المنوفية ـ ٢٧ ديسمبر ١٩٤٤ .

روت لى أم البطل « السيدة زكية القطان » :

تزوجت والده الحاج عبد السلام حواش على القطان ، فوجدته رجلا يخاف ربه ولا يعرف غير الصدق فى حياته وثورة ١٩ تملأ قلبه وعقله وعواطفه ، وقد أرضعها حديثا لأبنائه الأطفال .

وزوجى ابن أسرة أكثر أفرادها من العسكريين ، وقد تعلقت أحلام ولدنا الشهيد صلاح بهم منذ طفولته ، وحين قامت الثورة عام ٥٢ كان عمر صلاح ٨ سنوات ، وبلغ الثانية عشرة فكانت اهتماماته بالثورة وزعمائها أكبر من عمره وأحاديثه ، وأبوه يشجعه ، وقد ملأ جدران البيت بصور جمال عبد الناصر ، وزملائه الثوار ، واستعراضات الجيش فى ٢٣ يوليو من كل عام ..

وتشبع صلاح بالعسكرية تشبعا جعله يقرر الالتحاق بالكلية الحربية قبل أن ينتهى من دراسته الثانوية ، وكان فعلا من أوائل خريجى الكلية الحربية ، فضلا عن غرامه بالقراءة والتمسك بتعاليم الدين ..

ويروى الأب وولده فتحى :

ـ وهو طالب بمدرسة الفسطاط الثانوية ، انضم الى مجموعات الفتوة وبرز بينها ، وقفز من احدى طائرات الهليكوبتر بعد أن تدرب على ذلك ، وتنبأوا له بمستقبل لامع فى سلاح المظلات ، وتأكدت النبوءة ، واستشهد صلاح مقاتلا بقوات الابرار الجوى فى عمق القنطرة شرق » ..

لقد قاتل البطل ضابطا بمدفعية قوات الابرار الجوى ـ معركة تحرير شمال القناة شرق ، وظل فاتحا لنيرانه مقتحما للعدو، قائدا لجنوده ، مسيطرا على مسرح المعركة ثلاثة أيام كاملة وصعد الى رحاب الله مساء ٨ أكتوبر ١٩٧٣ ، بعد أن كبدوا العدو قدرا هائلا من الخسائر فى المعدات والافراد ، فقد دمروا ٦٧ دبابة اسرائيلية .

تعود « الأم » وتستعيد ذكرياتها :

ـ « لقد أثلج الله صدره قبل أن يختاره لحرب ٧٣ كان حزنه أليما بعد معركة ١٩٦٧ ، ان ولدى المقاتل صلاح كان مثل عشرات الآلاف غيره عاشقا للعسكرية المصرية ولواجبه الوطنى ، كان حزبنا لانه عاش وشهد النكسة ، ثم استرد نفسه » .

« فى مرحلة الدراسة الثانوية اختاروه بعد اختبار عمل حكمدارا للتدريب العسكرى ، وذهب الى جميع معسكرات العمل بأنحاء الوطن هو وصديق طفولته ورفيق سلاحه أبو بكر ، وعندما تخرج وحصل على شهادة التوجيهية كان أمامه كليات عديدة تقبله ، ولكنه آثر الكلية الحربية.

وطوال ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ صمد يحارب فى بور توفيق وجنوب غرب القناة ، رافضا الاجازات الشهرية بل انه قضى ٧ أشهر دفعة واحدة عام ٦٨ بين جنوده مكتفيا بالخطابات يتبادلها مع أسرته حتى قامت حرب الاستنزاف وقام بواجبه .. ساعتها عاد ليرى والديه وأشقائه .

وتزوج البطل صلاح وانجب مى وأحمد والتحق طالبا منتسبا بكلية أصول الدين ، ولقد حصل بعد استشهاده على دبلوم الكلية ، حمله أحد السعاة الى منزل الشهيد ، ودون أن يعلم بما حدث طلب « الحلاوة » من زوجة البطل ..

ولقد أعطته ..

قال لى بعض رفاق السلاح :

ـ حين تقرر العبور ، ذهب وتوضأ على الفور ، ثم أخذ يصلى فوق الرمال ، وجنوده يؤدون الصلاة خلفه ، بعد ذلك خطب فى المقاتلين ، تكلم قليلا ، واختتم كلمته بالآية الكريمة « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » ثم اندفع الى القناة شرق .

فهرس

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL



هذا الكتاب

بعد ثلاث سنوات من حرب اكتوبر الماجدة ، يصدر هذا الكتاب « العسكرية المصرية فوق سيناء » ليحاول ان يضع بين يدى قارىء العربية سجلا دقيقا لكل العمليات الحربية على مستوى اسلحة البر والجو والبحر ، ومن هنا كان لابد من طول انتظار حتى يتسنى الحصول على التصريح بنشر المعلومات التى حصلنا عليها من خلال المعايشة الميدانية للمقاتلين اثناء الحرب فوق مسرح سيناء ، ومن اللقاءات التى تمت بعد وقف القتال مع قادة اسلحة واجهزة القيادة العامة •

لم يكن ذلك العمل بالسهولة التى قد يتخيلها المرء ، فقائد دبابات اكتوبر لم يتكلم مثلا عن معارك رجاله ، وعن تجاربه القتالية الا فى نهاية عام ١٩٧٥ ، ورغم ذلك لم يتذكر كل شىء ••• فمازالت هناك تفاصيل وأسرار ذات مستوى عال لم تذع بعد عن حربنا الخالدة •

وفى هذه الايام التى يصدر فيها « كتاب الهلال » عارضا قطاعا متصلا عن العسكرية المصرية فى اختبارها العملى ، يسرنا أن نشير الى ان « كتاب الهلال » كان اول من تنبا بالنصر ، حين اصدر عددا خاصا من سلسلته فى يوليو ١٩٧٢ بعنوان « انور السادات قصة ايمان بالعسكرية المصرية » كتبه ذات المؤلف لهذا العدد ، وكان الكتاب علامة خضراء تشير الى حتمية النصر تحت قيادة المناضل المقاتل الرئيس محمد انور السادات •

٢٥ قرشا